تاريخ الآداب العربية

الجزء الثاني

عصر صدر الإسلام

العصر الأموي

فهرسة أثناء النشر: إعداد الشئون الفنية

اسم الكتاب: تاريخ الآداب العربية، عصر صدر الإسلام – العصر الأموي ج(٢)

اسم المؤلف: محمد أسامة

تصنيف الكتاب: تاريخ أدبي

القاهرة. دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

عدد الصفحات: ٥١٤

رقم الإيداع ٢٠٢٣/٩٩٦٨

الترقيم الدولي ٤-٦٠٧-٩٩٨-٩٧٧-٩٧٨

تحقيق علمي وتدقيق لغوي: أ/حسن الحضري.

تصميم الغلاف: منى الموجي

التنسيق الداخلي: محمد أسامة

رقم الطبعة: الطبعة الأولى

المدير العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: ٠٠٢٠١٢١١١٣٢٨٧٩

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًّا وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وهبنا الإسلام دينًا، ورزقنا القرآن منهجًا وسبيلًا، وجعل منه لنا ضياء منيرًا، وشرَّفنا بحمل رسالته، والعناية بلغته، والصلاة والسلام على أشرف الحلق والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا؛ وقد أدَّى الأمانة، وبلَّغ الرسالة، ونصح الأمة، وتركها على محجَّة واضحة، أما بعد:

فهذا هو الجزء الثاني من سلسلة تاريخ الآداب العربية؛ ويشمل –إن شاء الله- عصرين من عصور الأدب؛ هما: عصر صدر الإسلام، والعصر الأموي؛ وبعض النقاد من مؤرخي الأدب يدمجون العصرين في عصر واحد؛ لاعتبارات تاريخية وأدبية، ولكنَّنا سنفصل بين العصرين فصلًا كاملًا؛ حتى يتسنَّى لنا شرح ملامح كل عصر على حِدَةٍ بشكلٍ أدقَّ وأوسع.

الباب الثاني

الأدب في عصر صدر الإسلام

عصر صدر الإسلام

(تعريفه- الأحوال السياسية- أثر الإسلام في نفوس العرب- الجانب العلمي)

تعريفه:

يُعرف عصر صدر الإسلام بتلك المدة التي ابتدأت من البعثة النبوية للنَّبيّ ﷺ سنة ٦١٠م، مرورًا بمرحلتي الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ختامًا بعصر الخلفاء الراشدين، وقد استمر هذا العصر نحو ٥٢ سنة، انتهت باستشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- ثم بتنازُلِ ولدِهِ الحسن -رضي الله عنه- عن الحكم والخلافة لمعاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- لينتهي بذلك عصر الخلفاء الراشدين ويبدأ عصر جديد عُرِف بالعصر الأموي.

وتلك المدة تعتبر قصيرة إذا ما قورنت بالعصر الجاهلي، أو حتى بالعصور التالية حتى إن بعض مؤوخي ونقاد الأدب يدمجون عصر صدر الإسلام بالعصر الأموي الذي يليه، فيما يُسمَّى مجازًا بالعصر الإسلامي؛ باعتبار أن الفوارق الأدبية والاجتماعية بين العصرين كانت قليلة، فضلًا عن اختلاط هذا العصر بالعصر الجاهلي في السنين الأولى منه، ومع هذا، ونظرًا إلى أهمية تلك الحقبة التاريخية وما أحدثه الإسلام من تغيير في نفوس العرب؛ سواء من الناحية الدينية والأخلاقية والاجتماعية والأدبية؛ فإننا سنخص تلك المدة القصيرة بباب مستقلٍ بها، لشرح جميع الجوانب الأدبية التي رسمها هذا العصر، وما أحدث فيها الإسلام من تغيير.

الأحوال السياسية:

إن تلك المدة على قِصَرِها واختلاط أوَّلها بالعصر الجاهلي؛ كانت مليئة بالأحداث السياسية؛ فمنذ البعثة النبوية وهناك صراع عنيف بين رسالة الإسلام التي أتى

بها النَّبيُّ ﷺ وبين الكفر الذي كان سائدًا في الجاهلية، فهناك من أسرع إلى الإيمان بالرسول ﷺ وهناك من تمهَّل في قبول الإسلام، أو أسلم متأخرًا، ومنهم من عادَى رسول الله ﷺ وحاربه، ومنهم من لم يكترث؛ ونستطيع تقسيم عصر صدر الإسلام من الناحية السياسية إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وهي التي بدأت بنزول الوحي على النَّبيِّ ﷺ في غار حراء بمكة المكرمة وبدء الدعوة النبوية، وتستمر نحو ١٢ سنة، وتنتهي بالهجرة النبوية الشريفة، وفي هذه المدة كان رسول الله ﷺ يدعو قومه إلى الإسلام ولم يتبعه غير نفر قليل من المسلمين بينما عارضه القسم الأكبر، ومن الجدير بالذكر أن الجاهلية لم تختفِ في هذا العصر؛ بل بقيت ماثلة بطباعها وخصائصها؛ نظرًا إلى أن الدعوة الإسلامية في هذه المدة كانت محدودة فلم تتعدَّ آثارها بعض أحياء مكة فقط ولم يَعرِف بها عموم سائر العرب.

المرحلة الثانية: وتبدأ بالهجرة النبوية الشريفة من مكة إلى المدينة المنورة حتى وفاة الرسول ﷺ عام ١١هـ/ ٦٣٢م، وهي المدة الثانية من الدعوة، حيث تشكَّلت في تلك المدة دولة إسلامية وليدة لها تشريعاتها وقوانيها، وأخذ النَّبيُّ ﷺ يواصل مسيرته في الدعوة الإسلامية مرافقًا إيَّاها بالجهاد في سبيل الله ضدَّ كفَّار قريش ومن خالفه من الأعراب ويهود يثرب وخبير، ومن أشهر غزواته ﷺ بدر وأُحُد والخندق، ونستطيع القول بأن الجاهلية بدأت في تلك المرحلة تتضاءل شيئًا فشيئًا حتى اختفت تمامًا بفتح مكة عام ٨هـ/ ٦٣٠م، ثم وفود القبائل العربية في العاميين التاليين إلى النَّبيِّ معلنة إسلامها، وهنا اختفت الجاهلية ورفرفت راية الإسلام في كامل أنحاء جزيرة العرب.

المرحلة الثالثة: ونعني بها عصر الخلفاء الراشدين الذي بدأ بوفاة النَّبيِّ ﷺ عام ١١هـ/ ٦٣٢م حتى استشهاد علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- عام ٤٠هـ/ ٦٦١م وتنازُلِ ولده الحسن -رضي الله عنه- عن الحكم والخلافة لمعاوية -رضي الله عنه- بعد ستَّة أشهر من توليه، وقد حكم الأمة في هذة المدة أبو بكر الصديق وعمر

ابن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب بالإضافة إلى الحسن بن علي -رضوان الله عليهم- في مدة زمنية بلغت ثلاثين سنة.

وقد بدأت مع تلك المرحلة ما عُرِف بحروب الرِّدَّة؛ حيث ارتدَّ أغلب العرب عن الإسلام عقب وفاة النَّبيِّ ﷺ، ومنهم من ارتدَّ قبيل وفاته وادَّعى النبوة مثل مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وطليحة بن خويلد (أسلم لاحقًا)، فصمد أبو بكر -رضي الله عنه- أمام تلك العاصفة صمودًا عظيمًا باسلًا، وأرسل عدة جيوش للقضاء على الرِّدَّة، ولردِّ العرب إلى الإسلام، ولم يحل الحول حتى حققت جيوشه عدة انتصارات واختفت الرِّدة وعاد العرب إلى الإسلام من جديد ليبدأ في أواخر عصره الفتوحات الإسلامية؛ حيث أرسل عدة جيوش إلى العراق والشام لنشر الإسلام ولقتال الروم والفرس، وما إن توفِّيَ -رضي الله عنه- حتى خلفه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فحدثت في عهده فتوحات عظيمة، وتعدَّى الإسلام حدود جزيرة العرب؛ فدانت العراق والشام وفارس ومصر والمغرب الأدنى، ودخلت الأمصار في دين الله أفواجًا، ثم استمرت الفتوحات في عهد عثمان بن عفان -رضي الله عنه- لتشمل بقية بلاد فارس وأذربيجان وأرمينيا وبلاد الترك والنوبة والمغرب، إلا أنه في أواخر عهده حدثت فتنة داخلية في بعض الأقاليم أدَّت في النهاية إلى استشهاده - رضي الله عنه- فتولَّى الخلافة بعده علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وانقسمت الأمة في عهده إلى قسمين بينه وبين معاوية بن أبي سفيان أمير الشام الذي امتنع عن البيعة وأخذ يطالب بدم عثمان ورفض الدخول في طاعة أمير المؤمنين عليٍّ -رضي الله عنه- قبل القصاص وهو ما رفضه عليٌّ -رضي الله عنه- وصمَّم على أخذ البيعة أوَّلًا قبل القصاص، فكان هذا سبب نزاع وحرب أهليَّةٍ بين الفريقين استمرَّت نحو خمسة أعوام لم يحسم فيها السيف وانتهت باستشهاد علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- على يد أحد الخوارج، وخلَفه ولده الحسن -رضي الله عنه- الذي تنازل طوعًا عن الخلافة لمعاوية؛ حقنًا للدماء ودرءًا للفتنة؛ لتنتهي تلك الحقبة

القصيرة الذي استمرَّت نحو نصف قرنٍ ابتداءً من تاريخ البعثة النبوية، ويبدأ بعد عصر صدر الإسلام عصر جديد هو عصر بني أمية.

وقد اصطلح المؤرخون على تسمية الخلفاء الأربعة ومعهم الحسن بالخلفاء الراشدين؛ كونهم اتَّبعوا سنَّة النَّبيِّ ﷺ وصاروا على سيرته ونهجة؛ حيث كانت الخلافة وقتها شورى بين عامة المسلمين قبل أن تصبح بعدهم مُلكًا وراثيًّا.

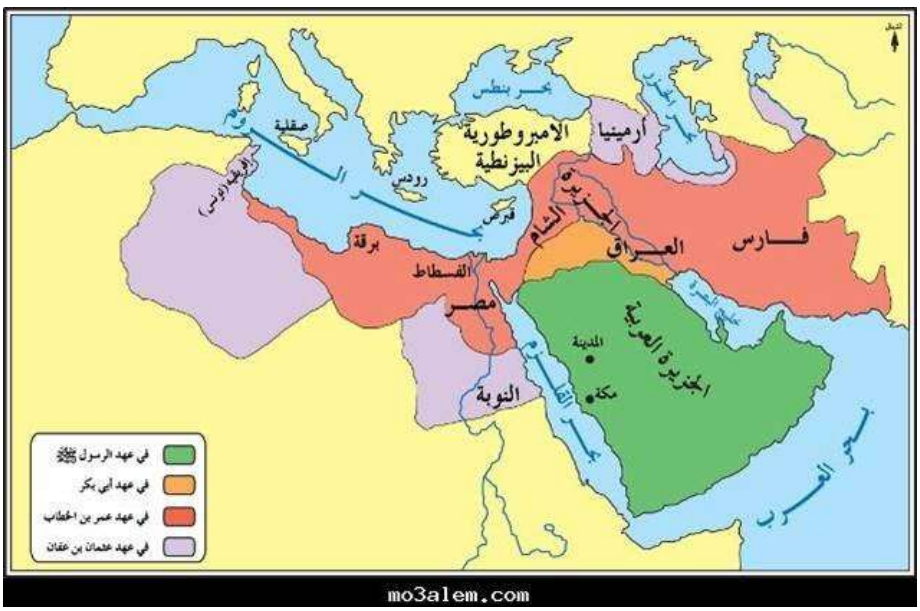

أثر الإسلام في نفوس العرب:

كان للإسلام أثرٌ عظيم في نفوس العرب؛ فالإسلام لم يكن مجرَّد دعوة دينية أو شرائع وطقوس إيمانية؛ بل أتى بمنهج متكامل ليُصلح حياة العرب ويقيم أودهم ويقوِّم أخلاقهم ويرقِّق طبائعهم، وقد شمل أثره جميع الجوانب الدينية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها.

وكان العرب في جاهليتهم قبل الإسلام أمَّة ممزَّقة، يغلب عليهم الطابع البدوي، لا يجمعهم نظام ولا يوحِّدهم لواء، لا حظَّ لهم من أسباب العمران والحضارة والرُّقي والفنون والعلوم إلا ما جاء عفوًا، وليس لهم عقيدة سامية يؤمنون بها، ولا غاية واضحة يعيشون من أجلها، يقضون حياتهم في حروبهم القبلية التي لا

تنتهي بين قبائلهم المتفرقة، والتي تشتعل لأتفه الأسباب، فكانوا في مؤخرة الرَّكب بين الأمم التي تتسلَّط عليهم، فتضعضع أمرهم وخمُد نشاطهم. وإن وُجدت بهم بعض العادات الحسنة فقد كانت هناك عادات أخرى مذمومة؛ كشرب الخمر ووأد البنات والتعصُّب القبلي الأعمى والكهانة والعرافة والتطيُّر، فجاء الإسلام فوحَّدهم وجعل منهم أمَّة راسخة خضعت لرسول الله ﷺ ثم لمنصب الخلافة التي نشأت بعد وفاته ليتوحَّد المسلمون تحت لوائها، وتحوَّلت تلك القبائل المتنازعة والمتصارعة إلى أركان موحَّدةٍ تستظلُّ بظل دولةٍ واحدةٍ قويَّة راسخة، سرعان ما قهرت الروم والفرس وغلبتهم على ما بأيديهم من البلاد، وأدرك العرب أنهم يستطيعون أن يكونوا أمَّة واحدة قويَّة تكافئ جيرانها وتتفوَّق عليهم، ومحا الإسلام تلك العادات الاجتماعية والخلقية الذميمة التي كانت سائدة في الجاهلية، وأحلَّ محلَّها الفضيلة ومكارم الأخلاق وطهارة النفس والانقياد إلى الله عز وجل، فقوَّم بذلك سلوكهم وأخلاقهم، وسرعان ما أرسى لهم قيمًا اجتماعية وخلقية ودينية، ومحا العصبية القبلية ونهى عنها؛ حيث كانت كل قبيلةٍ تتعصَّب لنفسها تعصُّبًا شديدًا، فجاء الإسلام وأحلَّ محلها الأخوَّة الإسلامية وعروة الإسلام الوثقى، وبعدما كان الناس منازل ودرجات ؛جاء الإسلام فساوى بين جميع الناس وبيَّن أنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، وحضَّ على البر والتعارف والتعاطف والتعاون والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعا إلى الإيثار والإخاء بين الناس.

كما دعا الإسلام إلى استعمال العقل، ونبذ التقليد الأعمى وسيطرة الهوى؛ ويتضح ذلك جليًّا في تحريمه للخمر التي تُذهِب العقل، والربا الذي يذهب المال، والزنا الذي يذهب الشَّرف، كما كرَّم المرأة فمنحها حقوقها وأعلى منزلتها ونهى ما كان متعلقًا بها في الجاهلية من بعض العادات الذميمة كالحرمان من المواريث ووأد البنات، وجعلها كفؤًا للرجل؛ لها حقوقها وعليها واجباتها.

كما حارب الإسلام الوثنية وجميع مظاهر الشرك السائدة؛ حيث كان العرب تائهين لا هدف لهم ولا غاية من حياتهم، فجاء الإسلام فدعاهم إلى عبادة الله

الواحد الأحد، ونبذ الأوثان، وذكَّرهم بأمور الآخرة، وأحلَّ محل معتقداتهم القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المطهرة، فجعل لهم غاية يعيشون من أجلها، وأهدافًا يجتهدون في تحقيها، وصار المؤمن يعمل من أجل آخرته.

وجاءت شرائع الإسلام لترسم للمسلم قيمًا إنسانية عالية؛ تمثَّلت في تنظيم حياته وتوضيح حقوقه وواجباته، وحض الإسلام على تحرير العبيد، ورغَّب في العتق والتخليص من الرق، فعَلَا بالإنسان علوًّا أخلاقيًّا وعقليًّا ورُوحيًّا؛ وبعدما كانت القبيلة هي العصب المجتمعي الأساسي؛ جاء الإسلام فوضع عدة ركائز اجتماعية وأخلاقية وأسرية وجعل الأسرة هي لبنة المجتمع ورباطه المتين، وليس التعصب القبَلي الأعمى الممقوت، فصار الفخر بعدما كان بالأنساب والقبيلة؛ صار معيار الفخر هو الدِّين والعمل الصالح، ولم يكتفِ الإسلام بضبط أحوال المسلمين فقط؛ بل وضع قوانين للتعامل مع غير المسلمين الذين يعيشون في البلاد الإسلامية دون أن يدخلوا في الإسلام، فوضَّح حقوقهم وحرِّيَّاتهم ومنع إكراههم على الدخول في الدِّين.

وعلى الجانب الأخلاقي فقد دعا الإسلام إلى الصدق والأمانة والكرم والأُخُوَّة والإباء والبذل والبر والتضحية، وقد كانت بعض تلك الصفات موجودة في الجاهلية بالفعل ولكنها كانت مشوبة بعادات أخرى ذميمة، فجاء الإسلام فتمَّم مكارم الأخلاق، فأقرَّ الحسن من صفات الجاهلية؛ كالشجاعة والجوار والكرم والشهامة، ونهى عن المذموم منها، وبعدما كان العرب يبالغون في السرف والتلف والأخذ بالثأر؛ جاء الإسلام فجعل مثَلَهم في الخضوع لله -عز وجل- والانقياد له، ونهى عن التكاثر والتفاخر، ودعا إلى القناعة والتواضع؛ هذا بجانب شرائعهم وطقوسهم الدينية؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج، فصار للعرب منهج قويم واضح يحدِّد ملامح حياتهم ومعاملاتهم.

ويظهر كل هذا واضحا جليًّا في النصوص القرآنية والنبوية التي توضِّح جوانب وملامح تلك الصفات؛ كقوله تعالى **{ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ}**[1] وجاء في

---

[1] سورة الحجرات: ١٣.

خطبة الوداع قول النَّبيّ ﷺ يضع أسسًا لهذه القيم الأخلاقية التي رسمها للإنسان رافضًا نخوة الجاهلية ومانعًا الفخر بالأنساب والآباء: «**أيُّها الناس؛ إنَّ ربَّكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، كلُّكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير، وليس لعربيٍّ على عجميٍّ فضل إلا بالتقوى**»[1] وفي نص نبوي آخر قال رسول الله ﷺ يحضُّ على التعاون والتراحم والإخاء بين الناس: «**مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ؛ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى**»[2] وفي سور القرآن الكريم، وأبواب الآداب والرقائق في السُّنَّة النبوية أمثلة عديدة توضح جوانب شتى من الأخلاق والأسس القويمة.

وقد انقسم المجتمع في عصر الإسلام إلى قسمين: **العرب، والموالي**؛ وهم الفئات التي انضمت إلى الإسلام من أصول غير عربية ودخلوا في ولاء العرب، بالإضافة إلى أهل الذمة من النصاري واليهود من سكان البلاد الأصليين في سائر الأمصار، ومع تطور الفتوحات ودخول الأمصار والبلاد المختلفة في الإسلام واختلاط العرب بغيرهم؛ بدأت تظهر روح المدنيَّة في حياة العرب في أغلب الأقاليم الإسلامية، باستثناء أواسط نجْد التي بقي أهلها مقيمين على الطابع البدوي كما كان في الجاهلية.

الجانب العلمي:

حضَّ الإسلام على العلم ودعا إليه؛ إذْ يقول تعالى: **{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}**[3] ، وفي موضعٍ آخر يقول تعالى: **{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}**[4] ؛ وصحيحٌ أن العرب في الجاهلية كانت لديهم بعض

---

[1] انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٢٣- ٢٤)، طبعة: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٩ برقم ٢٥٨٦)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.

[3] سورة الزمر: ٩.

[4] سورة فاطر: ٢٨.

العلوم والمعارف، إلا أنَّها كانت نابعة من خبرات عملية وتجارب حياتية عفوية ليس فيها تنظيم أو تعمق أو تأمُّل أو ترتيب، فجاء الإسلام فحرَّض على طلب العلم وسنَّ سنن التفكير والتدبر والتأمل واستعمال العقل.

وكانت في مقدمة العلوم بطبيعة الحال العلوم الشرعية والدينية؛ حيث احتاج المسلمون إلى من يفقِّههم في دينهم، ويُفهمهم قرآنهم، ويوضِّح لهم شرائعهم، وكان رسول الله ﷺ يعلِّم صحابته الكرام، فلمَّا شاع الإسلام ودخل الناس فيه أفواجًا ووفدت القبائل على المدينة معلنة إسلامها؛ كان رسول الله ﷺ يرسل لهم من صحابته الكرام من يعلِّمهم الإسلام ويُفقِّههم في شريعته، فلمَّا توفِّيَ رسول الله ﷺ حمل صحابته الكرام على عاتقهم تبليغ الرسالة، فظهر علم الفقه وتفسير القرآن ورواية أحاديث النَّبيِّ ﷺ، ولما دخلت الأمصار في الإسلام كان الخليفة يرسل من قِبَلِه ويكلِّف من رجاله من يعلِّم الإسلام للمسلمين الجدد من أهل تلك الأمصار.

ومن أشهر العلماء من الصحابة الذين نقلوا عن النَّبيِّ ﷺ ورووا عنه وعاشوا بعده: عبد الله بن مسعود وأنس بن مالك وأبو هريرة وعبد الله بن عباس وأم المؤمنين عائشة -رضوان الله عليهم جميعًا.

كما ظهر أيضًا اهتمام باللغة العربية؛ كونها لغة القرآن ووسيلة التبليغ والدعوة وإيصال الرسالة، ولا سيَّما مع بدء ظهور اللحن على ألسنة بعض الموالي والمستعربين ممن دخلوا في الإسلام من غير العرب، فلم تنشأ ألسنتهم على صحيح اللغة، فاحتاجوا إلى تعلُّم اللغة العربية عن طريق علمٍ أُنشئ لاحقًا وهو علم النحو، وقد تطوَّرت اللغة العربية ودخلت في ظلِّ الإسلام مرحلة جديدة؛ حيث كان للقرآن الكريم والسُّنَّة النبوية ثم ما أحدثه الإسلام في العرب من تغييرات اجتماعية وأخلاقية وعلمية؛ دورٌ وأثرٌ في تهذيب اللغة العربية وتخليصها من أساليب الوعورة والغلظة والجفاء، وصارت أكثر ترتيبًا وسلاسة.

ولم يكن الاهتمام قاصرًا على العلوم الشرعية واللغوية فحسب؛ بل إنه لما فتح المسلمون الأمصار التي حولهم؛ اختلطوا بأهلها وأحاطوا علمًا بما كان لتلك

الأمم من علوم ومعارف؛ كالطب والعمارة والفلك، واقتبسوا منهم أنظمة الدواوين والحسابات المالية التي لم يكن لعرب الصحراء من قبل علم بها، غير أن العرب -بخلاف اللغة وعلوم الدين- لم يسيروا في هذا الجانب العلمي شوطًا كبيرًا؛ بسبب أن عصر صدر الإسلام كان عصر تثبيت وتوطيد وفتوحات، وكانت الأولوية لا تزال لعلوم الدِّين؛ من أجل تبليغ الرسالة وتعليم الإسلام للمسلمين الجدد، لكن على الأقل وُضِعَتْ بعض الأسس والقواعد التي أصبحت فيما بعدُ نواةً لازدهار هذا الجانب العلمي للحضارة الإسلامية؛ التي أخذت تتطور في عصر بني أمية إلى بلغت قمة النضج والازدهار في العصر العباسي.

وكانت مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق، بالإضافة إلى المدن الجديدة التي شُيِّدت في عهد عمر بن الخطاب -وهي الكوفة والبصرة في العراق والفسطاط في مصر- مراكزَ لانتشار الثقافة الإسلامية؛ حيث أخذت تزدهر منها حركة العلوم الدينية والعقلية والعلمية.

مناهل الأدب الإسلامي

(القرآن الكريم- السنة النبوية- الأدب الجاهلي)

يرجع الأدب الإسلامي إلى عوامل ثلاثة أثَّرت فيه وشكَّلت منابعه ومناهله؛ هي: القرآن الكريم والسنَّة النبوية والأدب الجاهلي، وسنمر مرورًا للتعرف على القرآن والسُّنَّة، ونذكر معهما كذلك بإيجاز أثر الأدب الجاهلي على الأدب الإسلامي.

١- القرآن الكريم

معنى القرآن ودوره في الأدب واللغة:

القرآن هو الآيات التي أنزلها الله تعالى على رسوله ﷺ وحيًا على مدى ثلاث وعشرين سنة هي مدة الدعوة النبوية، وهو المصدر الأول للتشريع في الإسلام، وهو منهج المسلم التربوي والأخلاقي والتشريعي ودستور الأمَّة الأول بتعاليمه وأحكامه، وقد حوى ما حوى من آيات بيِّنات وأحكام وتعاليم واضحة وشرائع راقية ومواعظ متعددة وآداب سامية، لذا فدراسته هي الأهم لمعرفة تعاليم الدِّين الإسلامي وأحكامه وفصوله، وأيضًا الأهم إذا ما أردنا التعرف على الأساليب البلاغية والبيانية.

أغراض القرآن:

للقرآن أغراض شتى ومواضيع مختلفة، وهي مرتبَّة وفق تزولها وأحكامها ترتيبًا دقيقًا مُحكَمًا، فهو يتناول عدة موضوعات مختلفة سواء في الجانب العقائدي وما يخص عقيدة المسلم أو في الجانب التشريعي وما في الإسلام من أحكام وطقوس وعبادات، بالإضافة إلى جانب كبير من المواعظ والنصائح سواء في الجانب الاجتماعي أو الأخلاقي، وفيه ذِكر للعديد من قصص الأوليين التي أوردها

القرآن بأسلوب رائق لأغراض دينية وتربوية وأخلاقية، والقرآن ينقسم إلى قسمين: **القرآن المكي** وهو الذي نزل على النَّبيِّ ﷺ أثناء مدَّة الدعوة بمكة قبل الهجرة؛ وهو عبارة عن ستٍّ وثمانين سورة تشكِّل أغلب القرآن، **والقرآن المدني** وهو الذي نزل على النَّبيِّ ﷺ أثناء إقامته في المدينة بعد الهجرة حتى وفاته ﷺ؛ وهو عبارة عن ثمانٍ وعشرين سورة مِن بينها طوال السور؛ وبين القرآن المكي والمدني اختلاف واضح؛ سواء في الموضوعات أو الأسلوب؛ حيث نجد أن القرآن المكي يتناول في آياته العقيدة والتوحيد والترغيب في الجنَّة والنذير بالنار وتهويل أمر الشرك، بينما نجد القرآن المدني أكثر تفصيلًا حول التشريعات السياسية والاجتماعية والأحكام والحدود والأخلاق وتفاصيل العبادات والمعاملات؛ وهذا الاختلاف كان تماشيًا مع ظروف المسلمين في كل مرحلة من مراحل الدعوة؛ حيث كان المسلمون وقت المدة المكية قلة مستضعفة يناسبهم نمط معيَّن من التشريع والخطاب القرآني، بينما صارت لهم دولة وسلطة في المدة المدنية من الدعوة النَّبويَّة، فصار يناسبهم نمط مختلف من التشريع والخطاب القرآني.

جمعه وتدوينه:

لم يُدوَّن القرآن على عهد النَّبيِّ ﷺ في مصحف؛ وذلك لأن الوحي كان لا يزال ينزل على النَّبيِّ الكريم بالجديد من الآيات، فلمَّا توفِّيَ رسول الله ﷺ وانقطع الوحي؛ اتفق الصحابة الكرام على جمع القرآن في مصحف واحد؛ خشية التحريف والضياع بعد استشهاد عدد كبير من حفظة القرآن في حروب الرِّدَّة، وكان القرآن قبلها متفرِّقًا في السعف وجريد النخل وصفائح الحجارة وفي صدور مَن حفِظَه، وأشار بهذا الرأي عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، فوافق بعد تردُّدٍ قصير واستعان بزيد بن ثابت رضي الله عنه، وتمَّ جمع القرآن الكريم في مصحف.

ومع توسُّع الفتوحات وانتشار الإسلام في مختلف الأمصار لاحظ الصحابي حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- كثرة اختلاف المسلمين في وجوه القراءة؛

لاختلاف لهجات بعض القبائل عن بعضها، ولبدء شيوع اللحن، فكثر الخلاف والنزاع، فأشار على الخليفة عثمان بن عفان -رضي الله عنه- بدرء تلك الفتنة، فطلب نسخة المصحف من حفصة بنت عمر بن الخطاب، واجتمع مع عدد من الصحابة؛ من بينهم زيد بن ثابت، وأمرهم ان ينسخوا تلك النسخة إلى سائر الأمصار، وقال: ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنه بلسانهم نزل؛ ثم بعث بتلك النسخ إلى سائر الأمصار، وحبس نسخة واحدة في المدينة، وكان جمعُه سنة ٢٥هـ[١]

الإعجاز البياني للقرآن:

جرت حكمة الله تعالى أن معجزة كل نبيٍّ تكون من جنس ما يحسنه قومه، فلمَّا انتشر السحر زمن موسى -عليه السلام- كانت معجزته بما هو أعظم من السحر؛ وهو العصا، وما رافقها من انفجار الصخر وشق البحر؛ ولمَّا برع قوم عيسى -عليه السلام- في الطب؛ جاءت معجزته بابراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى؛ ولما كان العرب في جاهليتهم يعتنون بالبلاغة ويتباهون بالبيان؛ جاءت معجزة النَّبيِّ محمد ﷺ بالقرآن؛ وقد بلغت درجة الإعجاز البلاغي بالقرآن أنَّه يسهل تمييزه عن سائر كلام البشر، حتى مِن قِبَل الناس العاديين وغير المتعلمين، ومن الملاحَظ في معجزة القرآن أنها اختلفت عن معجزات الرسل السابقين؛ فكل رسول كانت له معجزته وله منهجه، أما معجزة النَّبيِّ ﷺ فكانت عين منهجه[٢]

وللقرآن وجوه في الإعجاز كثيرة بالإنباء بأمور الغيب والأمور المستقبلية وأخبار الأمم الماضية وعدم الملالة من تكرار قراءته، بجانب الإعجاز العلمي، وقد نوقِشَتْ أوجه الإعجاز تلك في كتب ومجلدات عدة، ولكن ما نعني بها هنا هو

---

[١] انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (٢/ ٢٧)، دار الكتاب العربي، د.ط، د.ت.

[٢] انظر: القرآن الكريم يحدد ماهية الأدب، حسن عبد الفتاح الحضري (ص٤٢- ٤٣)، مكتبة الآدب للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٥م؛ وهنا نقلًا عن معجزة القرآن للشيخ محمد متولي الشعراوي.

الإعجاز البياني والبلاغي للقرآن؛ إذْ إنَّ هذا الوجه هو الذي وقع به التحدي؛ حيث تحدَّى الله العرب في بلاغتهم وبيانهم فجاءهم بما هو أروع مما تعارفوا عليه من شعر العرب، ولمَّا سمعه العرب أكبروه وأعظموه وقد أبهرهم بيانه، حتى إن الوليد بن المغيرة أحد صناديد الكفر الذين كفروا وعارضوا الإسلام قد شهد ببلاغة القرآن قائلًا: "والله لقد سمعتُ منه كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلَى عليه، وما يقول هذا بشر"، لكن غالبيتهم ظلُّوا على عنادهم وكفرهم فقالوا عنه مضطربين: إنه سحر أو شعر أو تكهُّن؛ ولكن كان معروفًا أن أقاويلهم كلها باطلة؛ لأن القرآن بعيد تمامًا عن تلك الضروب من الكلام، وقد تحدَّى القرآن العرب وعرض عليهم أن يأتوا بمثله أو ببعض سوره أو حتى ب سورة واحدة؛ وذلك في قوله تعالى **{فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}** ، وفي موضع آخر **{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِ سورة مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** ؛ وكان الغرض من هذا التحدِّي والإعجاز هو إثبات صدق نبوَّة محمد ﷺ؛ حيث كان القرآن يبلغ من نفس كل من سمعه ببلاغته وبيانه، فكان هذا سبب دخول كثيرٍ من الناس في الإسلام؛ لإداركهم أنه هذا ليس من قول البشر؛ وتتجلَّى روعة وبلاغة القرآن وبيانه في الكثير من وجوه البيان مثل: التشبيهات والصور البيانية والاستعارات الفنية والمرونة وضرب الأمثال والإيجاز، وقد حاول بعض مدَّعي النُّبوَّة أواخر عهد النَّبيّ وأوَّل عهد أبي بكر -رضي الله عنه- معارضة القرآن وتقليده، فأتوا بنماذج مضحكة تثير السخرية وما بلغوا شيئًا؛ كقول مسيلمة الكذاب الذي ادَّعى النُّبوَّة، من بني حنيفة: الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنَب وبيل، وخرطوم طويل؛ وقال يعارض سورة الذاريات: والمبذِّرات ذرعًا، والحاصدات حصدًا، والذاريات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والعاجنات خبزًا،

---

[1] سورة الطور: ٣٤.
[2] سورة يونس: ٣٨.

والثاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا، إهالةً وسمنًا؛ وهي عبارات تثير الاستهزاء والسخرية وتتصف بالسذاجة؛ ومن المتنبّئين الذين حاولوا محاكاة القرآن عبهلة ابن كعب المعروف بالأسود العنسي؛ كان كاهنًا يدَّعي أن له تابعًا من الجن، وقد قُتل في الليلة التي توفِّيَ رسول الله ﷺ في صباحها، وكذلك المتنبئة سجاح بنت الحارث، ومن سخيف قولها: عليكم باليمامة، ودفُّوا دفيف الحمامة؛ فإنها غزوة صرامة، لا تلحقكم بعدها ملامة؛ وهو سجع ساذج مفتعَل خالٍ من أي بلاغة أو حسن؛ وممن تنبؤوا وعارضوا القرآن طليحة بن خويلد الأسدي؛ وهذا تاب وأسلم لاحقًا واشترك في الفتوحات الإسلامية.

الأسلوب البلاغي للقرآن:

القرآن هو تاج البلاغة وآية البيان، وله أسلوب بلاغي معجز، فنراه سهل اللفظ، متينًا سلسًا، لا إغراب فيه ولا توغل في الغريب، وإن كنا نلاحظ بعض الألفاظ الغريبة؛ فهذا فقط بسبب بُعد الزمن وضعف الثقافة العربية، كما نرى ترادفًا وتراصًّا عجيبًا في نسق رائع بين جمله وعباراته، وهو قوي المجاز، دقيق التشبيه، واضح المعنى، رائع الأسلوب، وفيه الكثير من السجع الذي يفصل بين عباراته وآياته ولكن ليس بدرجة إلزامية أو متكلفة، كما أنه يتّصف عمومًا بالإيجاز؛ فالكلام على قدر الغرض لا حشو فيه ولا حذف، والتكرار من أجل التذكير والتنبيه في سياق غير مملٍّ، وكذلك الالتفات؛ وهو الانتقال من ضمير إلى ضمير؛ كتحوله من الغائب إلى المخاطب كما في قوله تعالى **{وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا}** [1]، بالإضافة إلى ضرب الأمثال التي يكون لها دور في جذب السامع ولفت انتباهه لتثبيت الأمور المعنوية في الأذهان Kويعتبر ضرب الأمثال من أروع مظاهر البيان وأوجه البلاغة في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى **(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن**

[1] سورة الكهف: ٤٨.

دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ)[1] وهنا تشبيه بديع؛ يخبرنا الله تعالى أن من يُتَّخذ إلهًا لن يقدر على خلق ذبابة، وذُكِرت الذبابة كناية عن مدى الضعف والهوان لأنها تُذَبُّ احتقارًا واستقذارًا؛ ومن روائع التشبيه والأمثال قوله تعالى: **(وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ)**[2] وهنا يضرب الله مثلًا موجَّهًا لأهل الشرك بمكة الذين أعرضوا عن رسول الله ﷺ؛ بأهل سبإٍ الذين كفروا بنعمة الله -عزَّ وجلَّ- فعاقبهم بالبوار، وكذلك كان أهل مكة قبل الإسلام في أمن ونعمة وارتقاء، لا يحارَبون في بلدهم ولا يُغار عليهم، فكفروا بالله؛ وهو تشبيه رائع لم يخلُ من البيان في قوله تعالى **(لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ)**؛ فجعل للجوع والخوف لباسًا؛ من باب الاستعارة؛ وفي قوله تعالى **(إِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ)**[3] وهنا صورة بلاغية رائعة كناية عن الخوف والضيق وشدة القلق، ومن أروع الأمثال في القرآن الكريم قوله تعالى **(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)**[4] وهنا يشبِّهُ الله نوره كمشكاة فيها مصباح، والزجاجة قيل: هي قلب المؤمن؛ وقيل: شبَّه صدر النَّبيّ ﷺ بالكوكب الدري[5]؛ في صورة بيانية بديعة في غاية الروعة؛ ومن الأمثال التشبيهية الرائعة: **(فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي**

---

[1] سورة الحج: ٧٣.
[2] سورة النحل: ١١٢.
[3] سورة الأحزاب: ١٠.
[4] سورة النور: ٣٥.
[5] انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري (١٩/ ١٨٠)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، طبعة: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

السَّمَاءِ)[1] وهنا يشبِّه الله تعالى العبد الكافر في ضيق صدره وحرجه بالذي يصَّعَّد في السماء فيتعرَّض للاختناق وضيق الصدر بسبب تناقص نسبة الهواء، وهو جانب بياني رائع في التشبيه، ولا يخلو بذلك من إعجاز علمي؛ إذْ أشار القرآن إلى تلك الحقيقة العلمية التي اكتُشِفت لاحقًا بتناقص نسبة الهواء والأوكسجين مع تزايد الارتفاع عن سطح الأرض، ولهذا نرى أن جميع البلغاء قد أكبُّوا على القرآن الكريم يقتبسون من بيانه ويدرسون بلاغته حتى ينهلوا منه ويروا به معينهم، فيما عُرِف بعدُ بظاهرة الاقتباس من القرآن.

ولكلٍّ من القرآن المكي والمدني أسلوب خاص يتناسب مع ظروف التشريع لكل قسمٍ منهما؛ فنجد آيات القرآن المكية ملتهبة العاطفة، حارَّة اللهجة، تميل إلى الإيجاز وقِصَر العبارات والآيات، وهو ما يتفق مع أسلوبها المعنوي حول الوعيد والنذير، بينما تمتاز أيات القرآن المدني بكونها هادئه العاطفة ليِّنة اللهجة عذبة، تتَّصف بطول الآيات والاتجاه إلى التفصيل وإن كان ذلك لا يخرجها عن نمط الإيجاز العام الذي امتاز به القرآن الكريم، فلا تجد حشوًا أو لفظا زائدًا أو كلمة في غير موضعها. ولا تجد إيجازًا مُخِلًّا، ولا تفصيلًا مُمِلًّا.

نفي الشعر عن القرآن الكريم:

القرآن الكريم ليس من الشعر، فهي قضية محسومة منتهية؛ استنادًا إلى قوله تعالى **(وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ)**[2]؛ فضلًا عن أن القرآن الكريم بعيدٌ تمامًا عن نظم القوافي والأوزان العروضية المعروفة في الشعر، ولكن الخلاف نشأ حوله من جهة أخرى؛ إذْ يُقسِّم بعض الأدباء -مثل الدكتور طه حسين- الكلام إلى ثلاثة أقسام: شعر ونثر وقرآن، ويرى أن القرآن ليس شعرًا ولا نثرًا؛ بل هو ينهج نهجًا خاصًّا به لا يخضع لقواعد الشعر ولا النثر، بينما يرى فريق آخر على رأسهم الدكتور زكي مبارك أن

---

[1] سورة الأنعام: ١٢٥.
[2] سورة يس: ٦٩.

القرآن نثر عربي ولكنَّه يختلف عن عموم النثر الأدبي الذي يخطُّه بلغاء العرب[1]، ونحن أميَلُ إلى الرأي الأول؛ لأن المنتبه لسياق القرآن وعباراته سيلاحظ أن القرآن كلام موزون وزنًا فريدًا من نوعه وأن أيَّ فقدٍ أو زيادة في حرفٍ من عباراته ستحدث خللًا في الجرس الإيقاعي الموسيقي للجملة، وقد ذكر حسن الحضري في كتابه "القرآن الكريم يحدد ماهية الأدب" العديد من الآيات التي جاءت بأوزان أنصاف الأبيات مثل "قوله تعالى **(وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)**[2]بوزن شطر من المديد التام الصحيح، وقوله تعالى **(يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا)**[3]جاء بوزن شطر من مخلع البسيط، مجزوء الوافر بالإضافة إلى آيات أخرى جاءت بوزن تفعيلة واحدة أو أكثر كقوله تعالى **(وَفَاكِهَةً وَأَبًّا)**[4] وقوله **(جَزَآءً وِفَاقًا)**، وقوله **(وكأسًا دِهاقا)**[5]، ويرى حسن الحضري أن مجيء هذه الآيات الموزونة دليل على بطلان مذاهب الحداثة الشكلية في الشعر العربي؛ لأن العبارات التي تأتي بأنصاف الأبيات أو التفعيلات المنفردة لا ينطبق عليها مسمى الشعر[6] وقد أجمع فريق من الباحثين أن القرآن كلام منظوم نظمًا فريدًا من نوعه فليس هو بنثر وليس كذلك بشعر؛ لأن الشعر عندهم يشترط أن يقصد قائله أن يكون شعرًا وليس ما جاء موزونًا دون قصد.

لغة القرآن:

لغة القرآن الرئيسية هي لغة قريش، وبها نزل، وتم ضبط قراءته على سبعة أحرف؛ هي قراءات: عمرو بن العلاء وعبد الله بن كثير ونافع بن نعيم وعبدالله

---

[1] انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (ص٢١٣).
٢ سورة مريم: ٥٧.
٣ سورة الطور: ٩.
٤ سورة عبس: ٣١.
٥ سورة النبإ: ٢٦- ٣٤.
٦ انظر: القرآن الكريم يحدد ماهية الأدب، حسن عبد الفتاح الحضري (ص٤٩- ٧٨).
٧ انظر: المصدر السابق (ص٧٨).

ابن عامر وعاصم بن بهدلة الأسدي وحمزة بن حبيب الزيات وعلي بن حمزة الكسائي، وأُضيفت إليها ثلاثة أحرف أخرى؛ هي قراءة يعقوب بن إسحاق البصري وأبي جعفر المدني وخلف بن هشام؛ لتصير القراءات الصحيحة المتواترة عشر قراءات.[1]

وإن كانت لغة قريش هي اللغة الرئيسَة للقرآن فقد ظهرت في القرآن عدة ألفاظ من لغات قبائل أخرى مثل هُذيل وكنانة وأسد وخزاعة وخثعم وقبيلة سعد ابن بكر الذين كان النبي ﷺ مسترضعا فيهم، وبطون قيس عيلان مثل هوازن وثقيف وبعض القبائل اليمنية، "ونقل الواسطي في كتابه الذي وضعه في القراءات العشر. أن في القرآن أربعين لغة عربية[2] ومن بين تلك الألفاظ (يلتكم) أي: ينقصكم؛ بلغة عبس[3] و(الأرائك) بمعنى الأسرَّة؛ وهي كلمة يمنية، وكلمة (فشل) بمعنى جَبُن؛ و(مرقوم) بمعنى مختوم من لغة حِمْير، وكلمة (الموئل) بمعنى الملجإ؛ في لغة كنانة؛ وكلمة (السائح) بمعنى الصائم و(الأجداث) بمعنى القبور و(رجمًا بالغيب)؛ في لغة هذيل؛ و(حقبًا) بمعنى دهرًا و(الوصيد) بمعنى (الفناء)؛ و(الخرطوم) بمعنى الأنف؛ في لغة مذحج؛ و(سُجِّرَت) بمعنى جُمِعت؛ في لغة خثعم؛ و(بُسَّت) بمعنى فُتِّتت؛ في لغة كندة؛ غير أن السياده في كلام القرآن للغة قريش.[4]

والقرآن لسان عربي مبين لا وجود فيه لِلَفْظٍ أعجمي غير عربي؛ والدليل على ذلك قوله تعالى **{وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}** [5]، وأما الألفاظ التي قيل: إنها أعجمية؛ مثل: الإبريق والسندس والإستبرق والكافور

---

[1] انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص٩١- ٩٢)، طبعة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

[2] انظر: تاريخ آداب العرب مصطفى صادق الرافعي (٤٤/٢)

[3] انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (٢/ ٤٤).

[4] انظر معاني وأصول تلك الكلمات في: لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم، أبو عبيد القاسم بن سلام، عناية: خالد حسن أبو الجود.

[5] سورة الشعراء: ١٩٢- ١٩٥.

والأكواب والقوارير؛ فالرأي أنها إما ألفاظ أخذها العرب في قديم عصورهم من الأمم المجاورة فتعرَّبت وأخذت حكم العربية، أو أنها ألفاظ مشتركة بين العربية وأخواتها من اللغات السامية، كانت في قديم العربية، ثم أهملها العرب حينًا أو ندُرَ استعمالها، فأحياها القرآن؛ مثل كلمة (الطور) بمعنى الجبل توافقت فيها اللغة السريانية مع العربية[1].

أثر القرآن على اللغة العربية:

انبهر العرب بالقرآن الكريم وأعجبوا ببلاغته وروعة بيانه، فتأثروا به في آدابهم وكلامهم، وكان للقرآن الكريم تأثير على اللغة العربية، وعمل على تهذيبها؛ سواء من الناحية اللفظية أو المعنوية؛ فأمَّا على صعيد اللفظ فقد كان أولها أنه خلَّصها من الألفاظ الوعرة والخشنة والوحشية، وجعلها أرقَّ وأسلس وأعذب، كما كان له دور في تهذيبها معنويًّا من جهة المعاني والأساليب والأغراض والموضوعات؛ لأن الإسلام جاء إلى العرب ليطهِّرهم من العادات الذميمة والطباع الجافة، فرقَّق طباعهم وأَلَانَ قلوبهم، فظهر أثر ذلك اللِّين في كلامهم وآدابهم.

ومن فضل القرآن أنه أزال عن العربية كل اللهجات الأخرى وثبَّت لغة قريش، ومن فضله كذلك أنَّه ضمن لها الخلود والبقاء؛ فلولا القرآن لبقيت اللغة العربية حبيسة جزيرة العرب، وربما اندثرت كما انذثرت لغات أخرى غيرها.

ومن القبس القرآني ما جاء في سورة المدثر، وهي سورة مكيَّة، يتَّضح من أسلوب آياتها ما قلناه عن أسلوب القرآن المكي عمومًا في الإيجاز وقِصَر الآيات مع حرارة العاطفة واللهجة والاتجاه إلى الجانب العقائدي والدعوي؛ قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ***

[1] لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم، أبو عبيد القاسم بن سلام، عناية: خالد حسن أبو الجود (ص٥)

وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ* وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ * فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)[1].

ومن قبس القرآن المدني ما جاء في خواتيم سورة البقرة، وهي سورة مدنية كما أنها أطول سور القرآن الكريم؛ حيث بلغ عدد آياتها مائتين وستًّا وثمانين آية، ويتَّضح من خلال تلك الآيات أسلوب خطاب القرآن المدني المتمثل في طول الآيات، والاتجاه إلى الوعظ والإرشاد، والميل إلى جوانب التشريعات والعبادات؛ حيث يقول الله تعالى: **(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)** .

٢- السُّنَّة النبوية

أهمية السُّنَّة وموضوعاتها:

السُّنَّة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن؛ إذْ إن الله تعالى منح نبيَّه ﷺ حق التشريع في بعض الأمور، ولا سيَّما التفصيلية منها؛ فالقرآن قد حوى أصول الدِّين وقواعده وعموم أحكامه، أمَّا السُّنَّة النبوية فهي أكثر تفصيلًا للتشريعات والأحكام والحدود، فكان القرآن هو المنبع الأول الذي تحدَّث عن الأصول بإيجاز، ثم كانت السَّنَّة هي الشارحة والمفسِّرة لأحكام القرآن بكل تفصيلاتها و شروحها، فهي تتناول بالتفصيل بعض ما ذكره القرآن بإيجاز، وتضع بعض الأحكام التي لم يذكرها الكتاب؛ فالصلاة والزكاة والصيام والحج

---

١ سورة المدثر: ١- ١٠.
٢ سورة البقرة: ٢٨٥- ٢٨٦.

أتَتْ أصولها في القرآن الكريم؛ الذي نصَّ على بعض أحكامها، بينما جاء في السُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة تفصيلاتها وأحكامها وأجزاؤها وفرائضها وسُننها وصفة آدائها وما إلى ذلك، فكانت السُّنَّة هي المصدر الثاني للتشريع؛ إذْ إن مصادر التشريع الإسلامي الرئيسَة ثلاثة: القرآن ثم السُّنَّة ثم أجماع عموم المسلمين.

بلاغة النَّبيِّ الكريم ﷺ:

كان النَّبيُّ ﷺ بليغًا مفوَّهًا، وكان آية في الفصاحة والبلاغة والبيان، وقوله هو أبلغ ما قال بشر، والفارق بين بلاغته ﷺ وبين بلاغة القرآن؛ أن بلاغة القرآن بلاغة ربَّانيَّة لا يَبْلُغها إنسان ولا يدركها بشرٌ، أما بلاغة النَّبيِّ ﷺ فهي بلاغة بشرية مؤيَّدة من قِبَل الله تعالى، وكانت لبلاغة النَّبيِّ ﷺ أسباب؛ من بينها أنها موهبة فطرية مؤيَّدة بالوحي والإلهام، بالإضافة إلى انتمائه لقريش أفصح العرب، واسترضاعه في مراضع بني سعد في البادية.

والفارق بين بلاغة النَّبيِّ ﷺ وبين بلاغة غيره من البلغاء وعموم الناس؛ أن بلاغة النَّبيِّ ﷺ يحُكم أنها مؤيدة من قِبَل الله تعالى؛ فهي تامة المَلَكة، خالية من التَّكلُّف والاستكراه والاضطراب وعدم تَناسُب العبارات أو حذفٍ في موضع إطناب، أو إطنابٍ في موضع إيجاز، أو تعبير بكلمة كان غيرها أليَق؛ وهي عيوب لا يخلو منها كلام أي شخص بليغ مهما علا قدره؛ لكن عصم الله نبيَّه منها، كما كان النَّبيُّ ﷺ لا يتكلَّف القول ولا يقصد إلى تزيينه ولا يبغي إلى وسيلة من وسائل الصنعة، فكانت بلاغته توفيقًا من الله وإلهامًا من نبوَّته ونتاج حكمته ﷺ، فلا يُستكره في معنى او يندُّ في لسانه لفظ، ولا تغيب عنه لغة ولا ينقطع له نَظم، ولا يشوبه تكلَّف ولا يشق عليه منزع، وقد يشاركه بعض البلغاء في بعض أوجه بلاغته ﷺ، لكن لا أحد يبلغ قدرها بتمامها[1] وتمتاز بلاغة الرسول ﷺ بأنها تحوي جوامع الكَلِم.

[1] انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (٢/ ١٨٩).

خصائص أسلوب حديث النَّبيّ ﷺ:

يمتاز أسلوب حديث النَّبيّ ﷺ بعدَّة مزايا بلاغية وبيانية؛ أهمها: الإيجاز والدلالة بأقل اللفظ على معانٍ كثيرة؛ وهو ما عُرِف بجوامع الكلم؛ وهي الكلام الموجز المعبّر عن معاني عديدة؛ إذْ قال رسول الله ﷺ في هذا عن نفسه: «**بُعثت بجوامع الكلم**»[1] ويمتاز حديثه ﷺ بالخلوِ من التَّكلُّف والزخرفة والصنعة، مع طبعٍ صادق ونبع صافٍ وبلاغة متدفِّقة، ويمتاز كذلك بالوضوح وترتيب الأفكار وجلاء المعنى وسهولة اللفظ وسموِّه وبُعد أفقه وعدم غموضه، فلا تجد معنًى صعبًا أو لفظًا وعرًا، فهو يتناسب مع كل الفئات، يفهمه العامة والخاصة، وهي بلاغة مُستقاة من القرآن الكريم لفظًا ومعنًى، ولا يخلو كلام النَّبيّ ﷺ من التشبيهات والصور البيانية والاستعارات الفنية والكنايات وضرْب الأمثال لتقريب المعنى إلى الأذهان.

وكلام النَّبيّ مسدَّد اللفظ، مُحكم الوضع، جزل التركيب، متناسب الأجزاء، فخم الجملة، رائع النسق، جيد الرصف، بديع الإشارة، لا يُرَى بكلامه إحالة أو استكراه أو اضطراب أو استعانة مِن عجزٍ، أو توسُّعًا في ضيق، أو ضعفًا بأي وجه من الوجوه[2]

نفي الشعر عن الرسول الكريم ﷺ:

وكلام النَّبيّ ﷺ منزه عن الشعر تنزيهًا تامًّا؛ والدليل على ذلك عموم قوله تعالى **{وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ}**[3] ولم يقل النَّبيُّ ﷺ شعرًا مُطلقًا ولا تمثَّل ببيت شعرٍ، فهو على فصاحته لم يُنشد بيتًا موزونًا تامًّا؛ إنما ينشد بعضه، أو يكسر وزنه فلا يصلح شعرًا، كما فعل مرة حينما ذكر بيت شعر

---

١ أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٥٤ برقم ٢٩٧٧)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، طبعة: دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (٢/ ٢١٢- ٢١٣).

٣ سورة يس: ٦٩.

للبيد بن ربيعة: **ألا كل شيء ما خلا الله باطل**؛ ثم سكت عن العجُز ولم يتمَّه، وأنشد مرة بيتًا لطرفة بن العبد مكسورًا على هذه الشاكلة[1]:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا ويأتيك (من لم تزوَّد) بالأخبار

وهذا من أوجه الإعجاز ودلائل النبوة؛ إذْ لا يجري الشعر على لسانه ﷺ مطلقًا حتى لو على قبيل المصادفة. وأما ما قيل عن بعض أحاديثه إنها جاءت موزونة على نمظ الشعر؛ كقوله ﷺ «**هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت**»[2]قيل: إنها جاءت على مشطور الرجز؛ وقوله في غزوة حنين «**أنا النَّبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[3] قيل: إنه من منهوك الرجز؛ فقد تم الرد عليه فقال بعضهم؛ فأما الحديث الأول فكلمة "دميت" من غير إشباع وكلمة "لقيتْ" انتهت بالسكون للوقف، وكذلك "لا كذب" و"عبد المطلب" في الحديث الثاني؛ فلا يكون لهذا الكسر موزونًا؛ لكن قال حسن الحضري في كتابه "القرآن الكريم يحدد ماهية الأدب": "إن هذا التوجيه ليس بشيءٍ، وإن الحجة الدامغة هي ما جاء عن الخليل بن أحمد؛ وهو أن الرجز المشطور والمنهوك في الأصل لا يُعتبران شعرًا"[4]؛ وقد أفاض حسن الحضري كثيرًا في تناوُل هذه القضية وذكر في كتابه فوائد عظيمة ننظرها هناك.

جمع وتدوين السُّنَّة النَّبويَّة ﷺ:

لم تدوَّن السُّنَّة النبوية في حياة الرسول ﷺ ولا حتى عقب وفاته، واكتفى صحابته الكرام بروايتها ونقلها، حتى إن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وآخرين كانوا لا يرون التَّوسُّع في رواية أحاديث النَّبيّ ﷺ؛ حتى لا يشغلهم الاختلاف فيها عن القرآن، وخشي عمر أن يدوِّن تلك الأحاديث فينشغلوا عن كتاب الله، فنهى عن ذلك، وظل الحال قائمًا على الرواية حتى جاء العصر

---

[1] انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (٢/ ٢٠١).
[2] أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٣٤ برقم ٦١٤٦).
[3] المصدر السابق (٤/ ٣٠ برقم ٢٨٦٤).
[4] انظر: القرآن الكريم يحدد ماهية ، حسن عبد الفتاح الحضري (ص٣٢).

الأموي، فكثرت الفتن والأحزاب والطوائف السياسية، وظهر عدد من المُدلِّسين الذين أخذوا ينحلون على رسول الله أحاديث لم يقلها، فانتبه لذلك أهل العلم والرواة، فأمر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة المنوَّرة أبا بكر بن حزم بتدوين أحاديث النَّبيِّ ﷺ؛ لحفظها من الضياع والاختلاط، وما لبث أن جاء العصر العباسي فظهرت مصنَّفات عديدة، تم جمع أحاديث رسول الله ﷺ فيها؛ أهمُّها على الإطلاق وأصحُّها **صحيح البخاري وصحيح ومسلم**، ومن ثَم في الدرجة الثانية تأتي كتب **سنن ابن ماجة والترمذي وأبي داود والنسائي**، وفيها بعض الأحاديث الضعيفة مع التنبيه على ضعفها، وكذلك **مُوطَّأ** الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة وأحد أئمة المذاهب الأربعة، **ومُسند الإمام أحمد ابن حنبل** الذي رتَّب أحاديث النَّبيِّ بصحيحها وضعيفها وفق مسند الرواة، ونكتفي هنا بالتنويه فقط على تدوين الأحاديث النبوية وذِكر أهم مصادرها، بينما نؤجِّل تفاصيل تدوين السُّنَّة إلى حديثنا عن الحركة العلمية والدينية مع بدء عموم التدوين في بداية العصر العباسي.

من الملامح البلاغية لحديث الرسول ﷺ:

من النصوص النبوية التي تتجلَّى فيه بلاغة النَّبيِّ ﷺ وروعة بيانه؛ قوله «**لا يُلدَغُ المؤمِنُ من جُحْرٍ واحدٍ مرَّتين**»[1] وهو تشبيه فيه استعارة تمثيلية بديعة لإيذاء الكافر للمؤمن وعدم تكرار المؤمن للخطإ؛ وقوله ﷺ «**ما نَقَصَتْ صدقةٌ مِن مالٍ**»[2] كنابة عن المال يبقى ثوابه بعد إنفاقه لوجه الله، وذلك في الآخرة؛ وقوله في صورةٍ تشبيهية قوية للرماة في غزوة أُحُد ينهاهم عن ترك مواقعهم قائلًا «**إن رأيتمونا تخطَفُنا الطَّيرُ؛ فلا تَبْرَحوا مكانكم هذا**"[3] وقوله يصف النائم عن صلاة الفجر حتى الصباح، محذِّرًا من هذا الإثم "**ذاك رجلٌ بال الشيطان**

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٣١ برقم ٦١٣٣).
[2] أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠١ برقم ٢٥٨٨).
[3] أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٦٥ برقم ٣٠٣٩).

في أذنيه"[1] وتلك نماذج نبوية شريفة من حديثه ﷺ هي -علاوة على سموِّها- لا تخلو من التشبيهات الفنية والبلاغية الدقيقة والصور البديعة التي هدفها تقريب المعنى في الأذهان وتثبيته في الصدور بغية الترغيب أو التنبيه أو الإرشاد.

أثر الحديث الشريف على اللغة العربية:

للسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة وكلام النَّبيِّ ﷺ أثرٌ على اللغة العربية، وهو أثر يلي القرآن في الأهمية، في نفس إطاره؛ فلها بذلك دور في تهذيب اللغة معنويًّا ولفظيًّا من حيث تنقيح اللفظ واستبعاد الألفاظ الوعرة والغريبة، مع تنسيق العبارات والجمل، ومن ناحية سمو المعاني وارتقاء الغاية كذلك، على أنَّ اللافت للانتباه أن حديث النَّبيِّ كان له دور في تقليل السَّجع في كلام العرب، حيث كان السجع هو الركيزة الأساسية للتنميق والبيان في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ لا يسجع في خطبه وحديثه، وكان بدلًا من ذلك يجوِّد عباراته وجمله ويربطها فيما بينها ربطًا مُحكمًا سلسًا في معنًى محكم وأسلوبٍ دقيق، فساهم ذلك في انخفاض العبارات المسجوعة في أدب اللغة العربية، إلا ما جاء عفوًا في كلامهم، وتَبِعه في ذلك معظم صحابته ومَن تلاهم، فتركوا أغلب السجع واستبدلوا به حُسن الرَّصف وإحكام المنطق ودقَّة المعنى وإصابة الغاية، مع الاقتباس من القرآن الكريم.

ورغم أن قريشًا كانت أفصح العرب وأعذبها وأصفاها لفظًا؛ فإن رسول الله ﷺ قد جادت قريحته بما علاهم بيانه، وغلبهم منطقه، وأثَّر فيهم وفي عموم لغة العرب؛ كقوله في الحرب «**الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ**»[2]؛ وقوله يوصي بالترفق بالنساء

---

[1] المصدر السابق (٤/ ١٢٢ برقم ٣٢٧٠).

[2] أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢٩٨ برقم ١٧٧٦)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد وآخرين، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، طبعة: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

«**لا تكسرِ القوارير**»[1]، وقوله «**واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»[2]، ومن كلامه ﷺ ما ضُرِب به المثل.

قبس من أحاديث الرسول ﷺ:

قال رسول الله ﷺ يصف حال المؤمن مع القرآن، في تمثيلٍ حوى تشبيهًا بديعًا: «**مَثَلُ المؤمنِ الذي يقرأُ القرآنَ ويعملُ بهِ؛ كمَثَل الأُتْرُجَّة؛ ريحُها طيّب، وطعمُها طيّب؛ ومَثَلُ المؤمنِ الذي لا يقرأُ القرآنَ كمَثَل التَّمرة؛ لا رِيحَ لها، وطعمُها حلوٌ؛ ومَثَل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الرَّيحانة؛ رِيحُها طيّب، وطعمها مُرٌّ، ومَثَل المنافق الذي لا يقرأُ القرآنَ كمَثَل الحنظلة؛ ليس لها رِيحٌ، وطعمها مُرٌّ**»[3].

وقال النَّبيُّ ﷺ عن الساعة: «**بُعثتُ والسَّاعة كهاتَيْنِ**»[4].

وقال يصف مَن أحَبَّ لقاء الله: «**مَن أحَبَّ لِقاءَ اللهِ؛ أحَبَّ اللهُ لِقاءَهُ، ومَن كَرِهَ لِقاءَ اللهِ؛ كَرِهَ اللهُ لِقاءَهُ**»[5].

وقال ﷺ يصف الصحَّة والفراغ: «**نِعمَتَانِ مَغبُونٌ فِيهِما كثيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ والفَراغُ**»[6]

وقال ﷺ في حُسن الخلُق: «**ما مِن شيءٍ أثقَل في الميزانِ من حُسنِ الخُلق**»، وقال في موضع آخر: «**إنَّما بُعِثتُ لأتمِّمَ مَكارمَ الأخلاقِ**»[7].

وقال ﷺ يصف المنافق: «**آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخلَفَ، وإذا ائتُمِنَ خانَ**».

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (٨ / ٤٧ برقم ٦٢١١).
[2] المصدر السابق (٤/ ٢٢ برقم ٢٨١٨).
[3] متفق عليه؛ البخاري (٦/ ١٩٠ برقم ٥٠٢٠) ومسلم (١/ ٥٤٩ برقم ٧٩٧).
[4] أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٦٦ برقم ٤٩٣٦).
[5] المصدر السابق (٨/ ١٠٦ برقم ٦٥٠٧).
[6] المصدر السابق (٨/ ٨٨ برقم ٦٤١٢).
[7] أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٢٣ برقم ٢٠٧٨٢)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

وقال ﷺ يصف الجليس الصالح والجليس السوء، في صورة بلاغية بديعة يضرب بها المثل: «**إنما مثَلُ الجلِيس الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السُّوءِ: كَحَامِلِ المِسْكِ ونافِخِ الكِيرِ؛ فَحامِلُ المِسْكِ إمَّا أنْ يُحْذِيَكَ، وإمَّا أنْ تَبتاعَ مِنْهُ، وإمَّا أنْ تجدَ منهُ ريحًا طيّبةً، ونافِخُ الكِيرِ إمَّا أنْ يَحرِقَ ثِيابَكَ، وإمَّا أنْ تجدَ منهُ رِيحًا مُنْتِنَةً**»[1].

وقال ﷺ: «**إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، و إنَّما لكلِّ امرئٍ ما نَوَى؛ فمَنْ كانَتْ هِجرَتُهُ إلى اللهِ ورسُولِهِ؛ فهجرَتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ، ومن كانَتْ هجرتُهُ إلى دنيا يُصِيبُها أو امرأةٍ يَنكِحُها؛ فهجرَتُهُ إلى ما هاجَرَ إليه**»[2].

وقال ﷺ: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قبلَ خَمْسٍ: شَبابَكَ قبلَ هِرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قبلَ سَقَمِكَ، وغِناكَ قبلَ فَقْرِكَ، وفَرَاغَكَ قبلَ شُغْلِكَ، وحَياتَكَ قبلَ مَوْتِكَ**»[3].

٣- الأدب الجاهلي

لا شكَّ أنَّ الأدب الجاهلي شكَّل المنهل الثالث للأدب في العصر الإسلامي، فنهل الكثير من موارده وأفكاره وأساليبه، وليس صحيحًا أن الأدب الجاهلي منفصلٌ تمامًا عن الأدب في عصر صدر الإسلام؛ لأن الإسلام لم يرفض كل مظاهر الجاهلية جملةً؛ بل أقرَّ العديد منها، ممَّا لا يخلو من المحاسن والفضيلة ومكارم الأخلاق؛ إنما أنكر منها فقط العادات السيئة والصفات المذمومة، كما أن أدباء هذا العصر من الشعراء والخطباء المخضرمين قد عاصروا جانبًا من الجاهلية، وبعضهم كان من أشهر أعلامها قبل الإسلام؛ مثل حسان بن ثابت والنابغة

---

[1] متفق عليه؛ البخاري (٧/ ٩٦ برقم ٥٥٣٤) ومسلم (٤/ ٢٠٢٦ برقم ٢٦٢٨).
[2] أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٦ برقم ١).
[3] أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٤٠٠ برقم ١١٨٣٢)، حققه وخرَّج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدَّم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، طبعة: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

الجعدي والخنساء وكعب بن زهير والحُطيئة، لذا لم يكن هناك مانع من أن يتأثَّر الأدب في عصر صدر الإسلام بالأدب الجاهلي، ولذا نجد أن الأدب الإسلامي قد أخذ عن الأدب الجاهلي غالبية صفاته ومعاييره المعنوية واللفظية؛ سواء في أفكاره وأغراضه التقليدية من مديح ورثاء وهجاء وحكمة ووصف. أو من ناحية تراكيبه وأساليبه الفنِّيَّة؛ حيث أخذ الشعر الإسلامي في بدايته عن الجاهلي جزالة وفخامة اللفظ، وصلابة التراكيب، وقوة الأسلوب، ولم يختلف الشعر الإسلامي عن هذا النمط الجاهلي، باستثناء ما صاحب آثار الإسلام من صفات الإيمان والتقوى والتَّديُّن، فصار أرق طبعًا وأسلس عبارة، وتخلَّص مما نهى الإسلام عنه؛ كالهجاء والغزل الفاحش ووصْف الخمر، وأحلَّ محلَّها شعرَ الدعوة والتَّديُّن والإيمان والزُّهد.

الشعر في عصر صدر الإسلام

موقف الإسلام من الشعر:

يظن بعض الباحثين أن الإسلام وقف موقفًا معاديًا من الشعر، وأنه حاربه وحطَّ من قدره ومنزلته؛ وذلك استنادًا لبعض النصوص القرآنية والنبوية؛ إذْ يقول الله تعالى: **(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ)**[1] وقال النَّبيُّ الكريم ﷺ: «**لأن يَمتلئ جوفُ أحَدِكُم قَيْحًا؛ خيرٌ لَهُ مِن أنْ يَمتلئَ شِعرًا**»[2] على أن هذا الفهم الذي فهموه ليس صحيحًا؛ فلم يحارب الإسلام الشعر قطُّ ولم يحطَّ مِن قدره أو يَنْهَ عنه، كما أن ظاهر ما قد يُفهَم من تلك النصوص مخالف تمامًا لسياق ما ورد في أحداث في السيرة النبوية، عن النَّبيِّ ﷺ؛ إذْ عرفت السيرة عددًا من الشعراء الذين رافقوا النَّبيَّ ﷺ؛ مثل حسَّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة، ومَن وفد عليه من وفود العرب؛ كلبيد بن ربيعة والخنساء وكعب ابن زهير والنابغة الجعدي، وقد كان النَّبيُّ ﷺ يحترم الشعر والشعراء؛ إذْ قال ﷺ: «**إنَّ من الشعر لحكمة**»[3] وفي موضع آخر: «**إنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحرًا**»[4]؛ وكثيرًا ما كان يستنشد شعر بعضهم؛ مثل الخنساء، وكان معجبًا بشعر أميَّة بن أبي الصلت؛ لِما فيه من نفحات إيمانية وحديثٍ عن الله والملائكة، وقال ﷺ في موضع آخر: «**أصدَقُ كلمةٍ قالَها الشَّاعِرُ كلمةُ لَبِيدٍ: ألَا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللهَ باطل؛ وكادَ أميَّةُ بنُ أبي الصلتِ أنْ يُسلِمَ**»[5]؛ وكان يتمثَّل بشعر عبد الله ابن رواحة وطرفة بن العبد؛ ويُذكَر أنَّه لمَّا أفرط بعض الشعراء المشركين في هجاء النَّبيِّ ﷺ؛ مِثل أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزبعري وضرار بن الخطاب

---

١ سورة الشعراء: ٢٢٤- ٢٢٦.
٢ أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٣٤ برقم ٦١٤٥).
٣ المصدر السابق (٨/ ٣٤ برقم ٦١٤٥).
٤ المصدر السابق (٧/ ١٩ برقم ٥١٤٦).
٥ المصدر السابق (٨/ ٣٥ برقم ٦١٤٧).

الفهري، قبل أن يسلموا، وأبي عزَّة الشاعر الذي قُتِل يوم أُحُدٍ؛ استأذنه حسان ابن ثابت -رضي الله عنه- في أن يهجو هؤلاء المشركين من قريش، فأذن له النَّبيُّ ﷺ قائلًا: «**اهجُهُمْ –أو: هاجِهِمْ- معكَ جِبريلُ**»[1] وقد انضمَّ إليه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة يذبُّون عن رسول الله ﷺ ويدافعون عنه بشعرهم، وقصة كعب بن زهير مع النَّبيّ ﷺ في قصيدة البردة معروفة.

وهذا يعني أن الإسلام لم يحارب الشعر مطلقًا؛ بل إنه جعل الشعر سلاحًا من أسلحة الدعوة، وقد تمثَّل ذلك في مديح الشعراء المخضرمين للنَّبيّ ﷺ، وفي الشعر الذي كان يمجِّد الدعوة ويميل إلى الزهد والحكمة ويذكر محاسن الإسلام، ويحرِّض على الجهاد.

والصحيح أن النصوص الدينية التي ورد فيها ذم الشعر؛ إنما قُصِد بها ذم الفاسد فقط من مناهج الشعراء؛ كالهجاء المقزع والغزل الفاحش والخمر وكل ما يدعو إلى لهو أو فسق أو مجون أو شيءٍ ممَّا نهى عنه الإسلام، ويدل على ذلك بقيَّة النص القرآني في السياق نفسه: **(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)**[2] وهذا يعني ذمَّ الشعر إذا ما شَغَل صاحبه عن الدِّين والقرآن، وكذلك ذم ما فسد منهجه، وليس ذم الشعر جملة؛ والخلاصة أن الإسلام وقف مع الشعر موقفًا وسَطًا؛ فأجاز حسَنه وأقرَّه، وحرَّم سيِّئه ونهى عنه.

حالة الشعر في عصر صدر الإسلام:

كان الشعر مزدهرًا في الجاهلية، حتى ما إذا جاء الإسلام تعرَّض لشيءٍ من الضعف والركود؛ والسبب في هذا لا يرجع إلى أسباب فنِّيَّة؛ بل على العكس، فلقد ظل الشعر الإسلامي قويًّا من الناحية الفنِّيَّة في أساليبه وتراكيبه وأغراضه ومعانيه، كما أن الشعراء المخضرمين الذين عاصروا النَّبيَّ ﷺ هم أنفسهم شعراء جاهليون أدركوا الإسلام فأسلموا، صحيح أن أساليبهم تغيَّرت

---

[1] المصدر السابق (٨/ ٣٦ برقم ٦١٥٣).
[2] سورة الشعراء: ٢٢٧.

نوعًا ما، لكنهم أخذوا عن الشعر الجاهلي أكثر أساليبهم وأغراضهم، فلا يصح القول بأن الشعر ضعُف فنِّيًّا؛ ولكن هذا لا ينفي تعرُّضه لبعض الركود وانخفاض منزلته وقدره إلى حدٍّ ما ،ليس لعامل فنِّيٍّ؛ ولكن لأسباب أخرى؛ من بينها:

١- إنه لما جاء الإسلام انبهر المسلمون بالقرآن واعتنوا بشرحه وفهمه، وما لبثوا أن انشغلوا بالجهاد زمن النَّبيِّ ﷺ، ثم بحروب الردة ثم بالفتوحات، واهتموا بنشر الإسلام وتعليمه، فشغلهم كل هذا عن الشعر وحلَّت محله الدعوة والاهتمام بالدِّين وبالقرآن، بينما علا شأن الخطابة؛ لأن الخطابة أسلس وأوسع وغير مقيَّدة بالقوافي، فكانت أنسب من الشعر في سبيل نشر الدعوة.

٢- إنَّ فريقًا من الشعراء المشركين أمثال أمية بن أبي الصلت وعبد الله ابن الزبعري وأبي سفيان بن الحارث وضرار بن الخطاب وكعب بن زهير وأبي عزة الشاعر قد هجوا رسول الله ﷺ، فأمر رسول الله ﷺ بترك رواية أشعارهم التي يهجونه بها ويحرضون فيها ضد الإسلام، بينما أهدر دم كعب ابن زهير، وكان طبيعيًّا أن يسقط هذا من رواية الشعر؛ وقد أسلم ابن الزبعري وأبو سفيان بن الحارث وضرار بن الخطاب بعد فتح مكة، كما عفا رسول الله ﷺ عن كعب بن زهير حينما جاء مستأمنًا تائبًا ليصير من أبرز الشعراء المخضرمين، بينما مات أميَّة وأبو عزَّة على الشرك.

٣- لما جاء الإسلام حرَّم الخمر تحريمًا قاطعًا، ودعا إلى نبذ العصبية القبلية والهجاء المقذع والغزل الفاحش، وكلها كانت أغراضًا شائعة في الشعر الجاهلي، فلمَّا حرَّمها الإسلام اقتصرت أشعار المخضرمين على امتداح النَّبيِّ ﷺ وهجاء المشركين والتحريض على الجهاد وتعديد محاسن الإسلام، وهذا بلا شك قد أضعف من شعلة الشعر نوعًا ما.

غير أن الشعر وإن انخفضت منزلته وتعرَّض لبعض الركود؛ لم ينضب معينه تماما؛ بل حفظت تلك الحقبة القصيرة من تاريخ الأدب أسماء لامعة من

الشعراء المخضرمين غير من ذكرناه؛ مثل النمر بن تولب وعبدة بن الطيب والمخبَّل السعدي وأبي ذؤيب الهذلي والسويد بن أبي كاهل اليشكري ومتمم ابن نويرة وعمرو بن معديكرب، كما أن الشعر ظل مرافقًا للأحداث التاريخية التي حدثت في تلك المدة، وإنما كان انخفاض منزلته ليس لعيبٍ فيه؛ بل لأن الاهتمام بالدين والقرآن والدعوة قد حل محل الشعر وعلاه أهميَّةً وقدرًا، ويجسِّد ذلك قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كان الشعر عِلْمَ قومٍ لم يكن لهم عِلمٌ أصح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزوا فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته[1]

وينبغي التنبيه كذلك على أن الشعر الإسلامي لم يسلم كذلك من الانتحال كما كانت حاله في العصر الجاهلي؛ حيث نُحلت على عددٍ من الشعراء المخضرمين قصائد لم يقولها، ولا سيَّما حسان بن ثابت؛ الذي نُحلت على لسانه العديد من القصائد الركيكة التي نسبها بعضهم إليه؛ نكاية به، كما نُسب كذلك شعرٌ لعليِّ ابن أبي طالب رضي الله عنه، جُمِع في ديوان، لم تثبت صحَّته ولا يمكن الثقة فيه، فضلًا عن أشعار كثيرة منحولة على كعب بن مالك وغيره في كتب التواريخ والسِّير لابن إسحاق وابن كثير وغيرهم، لذا ينبغي الاحتراس كذلك عند رواية الشعر الإسلامي، واللجوء دومًا إلى مصادر الرواة الثقاة؛ مثل ما جاء في **المفضليات**، **والأصمعيات**، **وطبقات الشعراء** لابن سلام الجمحي، **والشعر والشعراء** لابن قتيبة، **وحماسة أبي تمام**، **ومنتهى الطلب في أشعار العرب** لابن ميمون، **وجمهرة أشعار العرب** لأبي زيد القرشي، وفي **الأغاني** و**آمالي القالي** أخبار وأشعار شتى مع التنبيه على أخذ الحذر.

[1] انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، (١/ ٢٤)، تحقيق: محمود محمد شاكر، طبعة: دار المدني، جدة.

الخصائص الفنية للشعر الإسلامي:

كان من الطبيعي تبعًا للأثر العظيم الذي أحدثه الإسلام في نفوس العرب؛ أن ينعكس هذا على الشعر ويؤثِّر في أساليبه وأغراضه، صحيح أن الشعر الإسلامي في تلك المدة وحتى إلى قريب من نهاية عصر بني أمية ظل امتدادًا للشعر الجاهلي في أغلب صفاته وسماته؛ المتمثِّلة في الطابع البدوي واللفظ الجزل الفخم وأغراضه الجاهلية التقليدية؛ كالمديح والرثاء والوصف والهجاء والغزل، إلا أنَّ كونه امتدادًا للشعر الجاهلي من الناحية الفنية لا يمنع أن يكون قد حدث فيه تغيُّر في أساليب الشعراء ومعانيهم كما نرى في شعر حسان بن ثابت والنابغة الجعدي ولبيد بن ربيعة.

فأما من ناحية **الألفاظ والتراكيب** فقد سار الشعراء المخضرمون على نهج الجاهليين في اللفظ الجزل الفخم والأسلوب القوي المتين، إلا أنهم صاروا أرقَّ قلبًا بفعل تأثير الإسلام، فابتعدوا إلى حدٍّ بعيدٍ عن الأساليب الغليظة الجافة والألفاظ الوعرة، وصار في لفظهم -على جزالته- شيء من عذوبة، والتراكيب مع قوتها باتت أكثر وضوحًا وسهولة، أما أوزان الشعر وتراكيبه وأساليبه الفنية فقد ظلَّت كما كانت في العصر الجاهلي دون تغيير.

وأما من **ناحية المعاني** فقد حدث تغيُّر كبير؛ إذْ أضاف الشعراء المخضرمون إلى الشعر عدة معانٍ جديدة ارتبطت بالإيمان والتقوى والزهد، وهي وإن وُجِدت أحيانًا في شعر الجاهلية؛ فقد كانت موجودة بشكلٍ عفوي في ثنايا شعرهم دون أن تصبح أغراضًا رئيسَةً تامَّة، وباستثناء ما حرَّمه الإسلام من عادات وأغراض كالهجاء المقذع والغزل الفاحش والخمر؛ فإنَّنا نجد بقية المعاني الجاهلية قد بقيت واستمرت في عصر صدر الإسلام مع حدوث تغيير في القيم والمعايير، فإذا كانت صفات الجود والكرم والشجاعة من معايير المديح في الجاهلية؛ فقد أضاف الإسلام إليها الجانب الديني المتمثِّل في الورع والزهد وحسن الخلق وتديُّن المرء، وإذا كان الفخر في الجاهلية قائمًا على العصب والنسب؛ فقد صار متعلِّقًا

بالانتساب إلى الإسلام، ولم يمنع الإسلام الجمع بين القيم الجاهلية التي أباحها وبين القيم الإسلامية الجديدة، وهناك من الشعراء من جمع بين الأمرين.

ومِن أعظم ما ميَّز الشعر في عصر صدر الإسلام تأثُّره بالقرآن الكريم واستلهامه إياه في العديد من أفكاره وألفاظه ومعانيه؛ كما نرى في شعر كعب ابن زهير الذي مدح به النَّبيَّ ﷺ، وفي أشعار كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة؛ إذْ أضاف الإسلام عدة ألفاظ إسلامية جديدة إلى مخزون اللغة العربية؛ مثل: الصلاة والزكاة والإيمان والكفر والتقوى والنافلة.

وقد تفاوتت درجة تأثر الشعراء بالقرآن الكريم وبالإسلام؛ فهناك من تأثَّر تأثُّرًا كبيرًا وعلى رأسهم شعراء الأنصار -رضوان الله عليهم- لأنهم أسلموا عن صدق وقناعة واتَّبعوا النَّبيَّ ﷺ ولازموه، وهناك من كان كان تأثره أقل قدرًا ولا سيَّما من تأخر إسلامه أو من شعراء القبائل الذين بقوا على النمط الجاهلي إلى حدٍّ بعيد مثل متمِّم بن نُويرة، وإن لم يخلُ شعر بعض المخضرمين منهم مِن بعض التأثر الملحوظ بالإسلام، ومنهم من لم يتأثَّر تقريبًا بالإسلام؛ مثل الحُطيئة، وهناك من أسلم ولكنه ظل يتأسَّف على فراق الجاهلية ويندبُ أيامها؛ مثل تميم ابن مقبل.

أغراض الشعر وموضوعاته:

سار الشعراء المخضرمون على نفس الأغراض التقليدية للشعر الجاهلي من مديح ورثاء ووصف لا يخرج عن النمط الجاهلي العام، مع تغيير بسيط في بعض القيم، بالإضافة إلى النسيب والبكاء على الأطلال؛ الذي كانت تفتتح به مطالع القصائد، على أن ما يهمنا هنا هو الأغراض التي استُحدِثت في الشعر الإسلامي ولم تكن موجودة في الجاهلية، أو وجدت ولكنها ازدهرت أكثر في العصر الإسلامي؛ أبرزها **شعر النضال الديني والدعوة**؛ الذي شكَّل لبَّ الشعر في تلك المدة وقيل فيه أكثره؛ حيث اجتمع عدد من الشعراء كحسان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبد الله بن رواحة لنصرة النَّبيِّ ﷺ والرَّد على من يهجوه من

المشركين، وتنوعت أغراض الشعر الديني بين مديح النَّبيّ ﷺ وهجاء خصومه وتعديد محاسن الإسلام والتحريض على الجهاد وربما استنهاض الهمم وطلب النصرة من النَّبيّ ﷺ ضد المشركين، وكذلك رثاء الرسول ﷺ بعد وفاته، يقول حسان بن ثابت في حرب كلامية بينه وبين الشعراء المشركين، يردُّ على أبي سفيان بن الحارث لتعريضه بالنَّبيّ ﷺ[1]:

ألا أبلِغْ أبا سُفيانَ عنِّي ... فأنتَ مجَّوفٌ نخبٌ هواءُ
هجوتَ محمَّدًا فأجبتُ عنهُ ... وعندَ اللهِ في ذاك الجَزَاءُ
أتَهجوهُ ولستَ لهُ بكُفءٍ ... فشرُّكما لخيرِكما الفِداءُ
فمَنْ يهجو رسولَ اللهِ منكم ... ويَنصرُهُ ويمدحُهُ سَواءُ

ولحسان شعر كثير حول وقائع النَّبيّ ﷺ يصف فيها أحداثها ويفخر بالإسلام ويمدح النَّبيَّ ﷺ، ولكن لا نطمئن لكثير منها؛ لوجود المنحول فيها.

ويدخل في إطار شعر الدعوة الفخر بالإسلام والانتساب إليه، وهو ما يمثِّل تحولًا عظيمًا في الشعر الإسلامي؛ حيث صار الإسلام والتمسك بالدِّين ونصرة النَّبيّ ﷺ هي معيار الفخر الأول، وليس النسب والعصب القبلي كما كان سائدًا في الجاهلية، ويتضح ذلك -كمثالٍ- في رائية عبد الله بن رواحة التي يفخر فيها بانتمائه للإسلام، وقد أوردناها في ترجمته، وممَّا يسير على نفس المنهج قول السويد بن كاهل اليشكري يفخر بالإسلام وبنعم ربه قائلًا[2]:

كَتَبَ الرَّحمَنُ والحَمْدُ لهُ ... سَعَةَ الأخلاقِ فينا والضَّلَعْ
وإباءً للدَّنيَّاتِ إذا ... أُعطِيَ المكثورُ ضيمًا فكَنَعْ
وبناءً للمَعالي إنَّما ... يَرفَعُ اللهُ ومَنْ شاءَ وَضَعْ

---

[1] انظر: منتهي الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٢٧٢).

[2] انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص١٩٧)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر- عبدالسلام محمد هارون، طبعة: دار المعارف، القاهرة.

[3] كنع: خضع. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٨/ ٣١٤)، طبعة: دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

ومن الفنون التي برزت في عصر صدر الإسلام **فن الاعتذار**، وهو فن جاهلي قديم حمل لواءه النابغة الذبياني في قصته مع النعمان بن المنذر، ولكنَّه صار في الشعر الإسلامي أكثر وضوحًا، وقد ارتبط الاعتذار في الشعر الإسلامي بعاطفة دينية يجسِّدها الندم والحزن على ما فات بسبب الإعراض عن الرسول ﷺ، وقد اختص بهذا اللون عدد من الشعراء الذين هجوا رسول الله ﷺ في بادئ الأمر ثم عادوا فأسلموا واعتذروا للنَّبيِّ ﷺ فعفا عنهم، ومن أشهر هؤلاء كعب بن زهير؛ الذي هجا النَّبيَّ أوَّل ما بلغه أمره، ثم عاد واعتذر إليه في قصيدته اللاميَّة الشهيرة "بانت سعاد"، ومن الشعراء الذين اعتذروا للنَّبيِّ ﷺ عبد الله ابن الزبعري وأبو سفيان بن الحارث؛ يقول عبد الله بن الزبعري معتذرًا للنَّبيِّ ﷺ[1]:

يـــا رَســـولَ المَليـــكِ إنَّ لِســـاني راتِـــقٌ مـــا فَتَقـــتُ إذ أَنـــا بُـــورُ
إذْ أُبارِي الشَّيطانَ في سَنَنِ الغَيِّ(م) ومَـــن مـــالَ مَيلَـــهُ مَثبـــورُ[2]

ومن أغراض الشعر الإسلامي كذلك **شعر الحماسة والفتوحات**؛ حيث كان الشعراء من أصحاب النَّبيِّ ﷺ يصفون الوقائع والغزوات، وإن كنَّا لا نطمئن إلى ما رُوِي في كتب السِّيَر عن شعر حسان وكعب بن مالك وابن رواحة بسبب المنحول؛ ففي المصادر الموثوقة للرواة كثيرٌ من تلك النماذج التي تدل على أن الشعر الإسلامي ظل يرافق الجهاد والدعوة، وظل يواكب تلك الأحداث في هذه المدة، وما إنْ توفِّيَ الرسول ﷺ حتى اشتعلت حروب الردة؛ إذِ ارتدَّ أغلب العرب عن الإسلام ولم يبقَ غير القلَّة، فصمد أبو بكر الصِّدِّيق في وجه تلك الموجات العاتية وحارب تلك القبائل التي ارتدَّت عن الإسلام حتى حملها على الرجوع، وهي حروب نشطت فيها العاطفة الدينية؛ نظرًا إلى أنها كانت من أجل الدفاع عن حوزة الإسلام وإعلاء كلمته، وما إن انتهت حروب الردة حتى بدأت الفتوحات الإسلامية في العراق وفارس والشام ومصر وأفريقيا, ويمتاز شعر الفتوحات بعلوِّ نبرة الحماسة وبوصف المعارك وذِكر ما جرى بها من أحداث وبطولات، مع

---

[1] انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/ ٢٤٢).
[2] مثبور: هالك. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٤/ ٩٩).

عاطفة دينية ممزوجة بالفخر، ومن الشعراء الذين عاصروا تلك الفتوح وشاهدوها واشتركوا فيها عمرو بن معديكرب، وابن أخته قيس بن المكشوح، والأسود بن قطبة الذي شهد القادسية، وعروة بن زيد الخيل، وربيعة بن مقروم الضَّبِّي، وعمرو بن شأس الأسدي الذي كان شاعرًا مكثرًا في الجاهلية والإسلام[1].

ومن نماذج شعر الحماسة والفتوحات ما قاله عمرو بن شأس يصف موقعة القادسية ويذكر قتل رستم[2]:

قتَلْنــا رُسْــتمًا وبَنِيــهِ قَسْــرًا تُثِيــرُ الخيــلُ فَــوقَهُمُ الهيــالا

تَرَكْنــا مِــنهُمُ حيــثُ التَقَيْنــا فِئامًــا مــا يُريــدونَ ارتِحــالا

وفَــرَّ الهرمــزانُ ولَــمْ يُحــامِي وكــانَ علــى كتِيبَتِــهِ وبــالا

وفي أواخر هذا العصر نبتت بذرة **الشعر السياسي**؛ حيث إنه لمَّا قُتِل عثمان -رضي الله عنه- وبويع بعده علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- انقسم الناس إلى قسمين؛ قسم اتَّبعه ولزم بيعته، وقسم رفض بيعته وطالب بدم عثمان -رضي الله عنه- وقد اجتمع هؤلاء تحت لواء معاوية بن أبي سفيان أمير الشام ورأس بني أمية حينها، ودارت بين الفريقين عدَّة وقائع لم يحسم فيها السيف، وما لبث أن خرجت فئة ثالثة أعلنت الثورة على الفريقين؛ عُرِفوا بالخوارج.

وقد كان الشعر حاضرًا في تلك الوقائع؛ فهناك من الشعراء من اصطفُّوا لعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه، وهناك من انضوى لمعاوية وشيعته من بني أمية، وهناك من انضوى تحت لواء الخوارج، وقد انتهت إلينا عدَّة قصائد من شعر كل فئة، تضمَّنت تمجيدًا لفريقها وهجاء للآخر ووصفًا للمعارك والجيوش، وقد تطوَّر الشعر السياسي في العصر الأموي تطورًا ملحوظًا مع تعدد الطوائف السياسية، فنكتفي هنا بذكر مُقدِّمته، ونرجئ الحديث عنه بالتفصيل في حينه.

---

[1] انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٦٢- ٦٥)، طبعة: دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٩٥م.

[2] انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص٢٣٥)، طبعة: الأهلية للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٩م.

وممَّا سبق نتبين أن الشعراء الذين عاصروا تلك المدة عُرِفوا بالشعراء المخضرمين؛ لأنهم أدركوا الجاهلية والإسلام معًا، أما من لم يدركوا الجاهلية؛ فقد عُرِفوا بالشعراء الإسلاميين، وهؤلاء برزوا لاحقًا في عصر بني أمية.

وهذا خلاصة القول في الشعر وطبيعته وأغراضه ووضعه في عصر صدر الإسلام.

أعلام الشعراء المخضرمين

١- حسان بن ثابت

ترجمته:

هو أبو الوليد حسَّان بن ثابت بن المنذر الأنصاري، من بني النجَّار أحد فروع الخزرج، وهم أخوال النَّبيّ ﷺ، وأمه الفُريعة بنت خالد الخزرجية، كان أبوه وجدُّه من سادات قومه الخرزج ومن أشرافهم، وجدُّه المنذر هو الذي أهدر دِيات قومه من الخزرج في إحدى مواقعهم بيوم سميحة، وتحمَّل دِيات قتلى الأوس؛ رغبةً منه في السَّلم وحقْن الدَّم[١] وقد وُلِد حسان في يثرب نحو ٥٦٠م/ ٦٦ ق.هـ وربَّما قبل ذلك التاريخ بقليل، ونشأ على الشعر متكسِّبًا به، وكان من أبرز شعراء الجاهلية، فاتَّصل بملوك المناذرة والغساسنة ومدحهم، ولكنَّه كان إلى الغساسنة أميَلَ فمدح ملوكهم وأولاد الحارث الأعرج، فوصلوه بعطاياهم وارتفعت منزلته عندهم، واستمر الغساسنة في برِّ حسَّان وصِلَتِه بالجوائز حتى بعد أنِ انقطع عن مدحهم ودخل في الإسلام، وكانت بينه وبين بعض شعراء الأوس مثل قيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت مهاجاة، وكان ممَّن عرضوا شعرهم على النابغة الذبياني في عكاظ فقدَّم عليه الأعشى، مما أثار موجدته؛ وممَّا مدح به الغساسنة[٢]

أَولادُ جَفنَـةَ حَـولَ قَبـرِ أبـيهِمُ ... قَبـرِ ابـنِ مارِيَـةَ الكَـريمِ المُفضِـلِ

يَسقونَ مَنْ وَرَدَ البَريصَ عَلَيهِمُ ... بَـرَدًا يُصَـفِّقُ بِـالرَّحيقِ السَّلسَـلِ

يُغشَـوْنَ حتَّـى مـا تَهِـرُّ كلابُهُـم ... لا يَسـألونَ عـنِ السَّـوادِ المُقبِـلِ

---

[١] انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/ ٣٢٥)، ط٤، ١٩٨١م، طبعة: دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م.

[٢] انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢٩٦- ٢٩٧).

ولما جاء الإسلام وهاجر المسلمون إلى يثرب وصار اسمها المدينة المنورة؛ كان حسَّان بن ثابت -رضي الله عنه- ممَّن أسرع الى الإسلام، وأسلمت أمُّه معه، ولزم رسول الله ﷺ وانقطع لمدحه وتأييده، ولما اشتدَّ أذى شعراء قريش من المشركين كان حسَّان من الذين يدافعون عن النَّبيّ الكريم ﷺ بأشعارهم ولسانهم، وكان يُسمَّى بشاعر الرسول، وقد دخل في عدة معارك كلامية مع عبد الله بن الزبعري وعمرو بن العاص وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكان ذا منزلة عظيمة بين الصحابة، ومقرَّبًا من الرسول ﷺ، وكان دائمًا يذكر ويصف حروبه وغزواته ﷺ، إلا أنه لم يشهد أي واقعة من وقائعه ﷺ وغزواته؛ نظرًا إلى أنه كان ضعيف القلب جبانًا.

وكان حسَّان ممن تورَّطوا وخاضوا في حديث الإفك الذي اتُّهمت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فلمَّا نزل القرآن ببراءتها حدَّه النَّبيُّ ﷺ حدَّ القذف ثمانين جلدة هو ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش، ثم ما لبث أن اعتذر للنَّبيّ ﷺ وللسيدة عائشة رضي الله عنها، وعاد من جديد إلى سابق منزلته، وكان النَّبيُّ يَقسم له من الغنائم، وأهداه "سيرين" الجارية القبطية التي بعث بها المقوقس حاكم مصر مع أختها "ماريا القبطية"، فكان له منها ولده عبد الرحمن ابن حسَّان بن ثابت وهو شاعر.

وكان الخلفاء الراشدون يحترمونه ويرفعون منزلته، وقيل: إنه لما قُتِل عثمان مال إلى شيعته ونظم شعرًا لمدحهم، وقد عُمِّر حسان طويلًا حتى شاخ وكفَّ بصره أواخر حياته، ومات في عام ٥٤هـ/ ٦٧٤م في خلافة معاوية، وقد عاش حوالي مئة وعشرين سنة؛ نصفها في الجاهلية ونصفها في الإسلام.

شعره:

كان حسان شاعرًا بارعًا من أبرز شعراء الجاهلية، وكان ذائع الصيت لدى الغساسنة والمناذرة، وهو من أبرز شعراء المدن وأهل اليمن، وله ديوان شعري

رواه أبو سعيد السُّكَّري عن ابن حبيب[1] لكنَّه لم يَخلُ من المنحول، وكان حسان قبل الإسلام شاعرًا جاهليًّا تطغى عليه نزعة الفخر القَبَلِي، وهي نزعة تطلَّبت منه صلابة في اللفظ وقوة في الأسلوب وقدرًا من التضخيم والتعظيم في شعره، ولعل ما غذى فيه تلك النزعة العصبية ما كان بين قومه الخرزج وخصومهم من الأوس من حروبٍ قبل الإسلام، فاصطدم بشعرائهم.

وتدور أغراض شعره بين الحماسة والهجاء والخمر، وبرع كذلك في المديح، إلى أن جاء الإسلام فتغيَّر أسلوبه وصار شعره لا يخلو من الرِّقَّة والسهولة والوضوح[2] وغلبت عليه النزعة الدينية فانقطع يمدح النَّبيَّ ﷺ ويهجو خصومه، ويصف غزواته ومعاركه، وقد تأثَّر إلى حدٍّ كبير بالإسلام واكتسب شعره بعض المصطلحات الإسلامية والاقتباسات القرآنية، وقد ضَعُف شعره بعد الإسلام بعدما كبرت سنُّه، وتأثَّر بهدي الإسلام فلم يَعُدْ له نفس توهُّجِه القديم، فضعُف أسلوبه وقلَّت جزالته وكثُر في شعره السقط؛ قال الأصمعي: "الشعر نَكِدٌ، بابه الشر، فإذا حلَّ الخير ضعُف؛ هذا حسَّان فحلٌ من فحول الجاهلية، فلمَّا جاء الإسلام سقط شعره"، وقال في موضع آخر: "شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر، فقُطع متنه في الإسلام"[3].

على أننا -إنصافًا وإظهارًا للحقيقة- لا يسعنا أن نحكم على شعر حسان بعد الإسلام بدقَّة؛ بسبب كثرة المنحول عليه؛ فقد نحل عليه خصومه كثيرًا من الشعر الرديء الذي لا يخلو من الركاكة والهلهلة ممَّا صاغوه زُورًا على لسانه؛ نكايةً به، وانتقامًا منه لشدة هجائه لهم، ومن ذلك ما رُوِيَ عنه من أشعار يؤيد شيعة عثمان ضد شيعة عليٍّ، والتي ربَّما انتحلها أنصار بني أميَّة حتى يعضدوا موقفهم بشاعر الرسول ﷺ، وقد انتبه لذلك بعض الرواة؛ إذْ يقول الأصمعي في موضعٍ آخر عن حسان: "تُنسَب إليه أشياء لا تصح عنه"[4]؛ وقال ابن سلام عن

---

[1] انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (ص٢٣٧).
[2] انظر: المصدر السابق (ص٢٣٥).
[3] انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٧٩- ٨١).
[4] انظر: المصدر السابق (٢/ ٧٩).

حسان بن ثابت: هو كثير الشعر جيّده، وقد حُمِل عليه ما لم يُحمَل على أحد؛ لما تعاضهت (تشاءمت) قريش واستَّبَّت؛ وضعوا عليه أشعارًا كثيرة لا تليق به"[1] وقد روَى عنه ابن إسحاق في سيرة النَّبيّ كثيرًا من الأشعار المنحولة التي لا تصح عنه، وقد انتبه لذلك بعض من راجعه ودقَّق خلفه، لذا فليس من الإنصاف الحكم بشكل مطلق أن شعره ضعُف بعد الإسلام أو ربَّما يكون قد انخفض توهُّجه بعد الإسلام نوعًا ما؛ تأثُّرًا بِكِبَر سنِّه، وهَدْيِ النَّبوَّة، واقتصاره على مدح النَّبيّ ﷺ والتَّعرُّض لخصومه، ولكن ليس إلى تلك الدرجة التي تصوِّرها بعض الأشعار المنحولة عليه؛ فله بعد إسلامه شعر كثير حسن.

وحسَّان ممن أجاد المديح والهجاء في الجاهلية والإسلام، واكتسب شعره بعد الإسلام قدرًا كبيرًا من العذوبة والإخلاص وصدق العاطفة.

نموذج من قصائده:

- يقول مفتخرًا[2]:

لَعَمرُ أَبيكِ الخَيرِ حقًّا لَمَا نَبا عَلَيَّ لِساني في الخطوبِ ولا يَدي
لِساني وسَيفي صارِمانِ كلاهما ويَبلُغُ ما لا يَبلُغُ السَّيفُ مِذْوَدي
وإنْ نالَنِي مالٌ كَثيرٌ أَجُدْ بِهِ وإنْ يُهتَصَرْ عُودِي علَى الجَهدِ يُحمَدِ
فَلا المالُ يُنْسِيني حَيائي وعفَّتي ولا وَاقَعاتُ الدَّهرِ يَفلُلْنَ مِبرَدي

- وجاء وفد بني تميم إلى المدينة المنورة للإسلام وكان على رأسهم الأقرع ابن حابس والزبرقان بن بدر، فلمَّا أنشدوا النَّبيَّ ﷺ أمر حسانَ بنَ ثابت أن يردَّ عليهم، فأنشدهم قصيدة بديعة يفخر فيها بقوم النَّبيّ ﷺ وأنصاره وأتباعه، وممَّا جاء فيها[3]:

إنَّ الذَوائِبَ مِن فِهرٍ وإخوَتَهُم قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ

---

[1] انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/ ٢١٥).
٢ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٤٩٣)، حقَّقه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، طبعة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
٣ انظر: منتهي الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٢٧٨).

يَرضَى بِها كُلُّ مَن كانَت سَريرَتُهُ ... تَقوَى الإِلَهِ وَبِالأَمرِ الَّذي شَرَعوا
قَومٌ إِذا حارَبوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ ... أَو حاوَلُوا النَّفعَ في أَشياعِهِم نَفَعوا
سَجِيَّةٌ تِلكَ مِنهُم غَيرُ مُحدَثَةٍ ... إِنَّ الخَلائِقَ حَقًّا شَرُّها البِدَعُ

* * * * *

لا يَجهَلونَ وإِنْ حاوَلتَ جَهلَهُمُ ... في فَضلِ أَحلامِهِم عَنْ ذاكَ مُتَّسَعُ
أَعِفَّةٌ ذُكِرَت في الوَحيِ عِفَّتُهُم ... لا يَطمَعونَ ولا يُرديهِمُ الطَّمَعُ
كَم مِن صَديقٍ لَهُم نالوا كَرامَتَهُ ... ومِنْ عَدُوٍّ عَلَيهِم جاهِدٍ جَدَعوا
أَعطَوْا نَبِيَّ الهُدى والبِرِّ طاعَتَهُم ... فَما وَنى نَصرُهُم عَنهُ وما نَزَعوا
إِنْ قالَ سيروا أَجَدُّوا السَّيرَ جَهْدَهُمُ ... أَوْ قالَ عُوجُوا عَلَينا ساعَةً رَبَعوا
ما زالَ سَيرُهُمُ حتَّى استَفادَ لَهُم ... أَهلُ الصَّليبِ ومَن كانَتْ لَهُ البِيَعُ
خُذ مِنهُمُ ما أَتَى عَفوًا إِذا غَضِبوا ... ولا يَكُن هَمَّكَ الأَمرُ الَّذي مَنَعوا

* * * * *

لا فُرُحٌ إِنْ أَصابُوا مِن عَدُوِّهِمُ ... وإِنْ أُصيبوا فَلا خُورٌ ولا جُزُعُ
أَكرِمْ بِقَومٍ رَسولُ اللهِ قائِدُهُم ... إِذا تَفَرَّقَتِ الأَهواءُ وَالشِّيَعُ
فَإِنَّهُم أفضَلُ الأحياءِ كُلِّهِمُ ... إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ القَولِ أو سمِعوا

- وقال يفتخر بنصرة النَّبي ﷺ[1]:

هلِ المجدُ إلا السُّؤدَدُ العودُ والنَّدَى ... وجاهُ المُلوكِ واحتِمالُ العظائمِ
نَصَرْنا وآوَيْنا النَّبيَّ محمَّدًا ... علَى أنفِ راضٍ مِنْ عدوٍّ وراغمِ
بحيٍّ حريدٍ أصلُهُ وذِمارُهُ ... بجابيةِ الجولانِ وَسْطَ الأعاجمِ
نَصَرْناه لمَّا حلَّ وَسْطَ رِحالِنا ... بأسيافِنا مِنْ كلِّ باغٍ وظالمِ
جَعَلْنا بَنِينا دُونَهُ وبَناتِنا ... وطِبْنا له نفسًا بِفَيْئِ المغانمِ
ونحنُ ضَرَبْنا النَّاسَ حتَّى تَتَابَعوا ... علَى دِينِهِ بالمُرهَفاتِ الصَّوارمِ

---

١ انظر: المصدر السابق (ص٢٧٩).

ونحـنُ وَلَـدْنا مِـنْ قُـريشٍ عظيمَهـا وَلَـدْنا نَبِـيَّ الخَيـرِ مِـن آلِ هاشـمِ

- وقال يرثي رسول الله بعد وفاته ﷺ[1]

مـا بـالُ عَينِـكَ لا تَنـامُ كَأَنَّمـا كُحِلَـتْ مَآقِيهـا بِكُحـلِ الأَرمَـدِ
جَزَعًـا علَـى المَهـدِيِّ أَصـبَحَ ثاوِيًـا يـا خَيـرَ مَـن وَطِـئَ الحَصَـى لا تَبعَدِ
جَنْبـي يَقِيـكَ التُّـرْبَ لَهْفِـي لَيْتَنـي غُيِّبـتُ قَبلَـكَ فـي بَقيـعِ الغَرقَـدِ
بِـأَبِي وأُمِّـي مَـنْ شَـهِدتُ وَفاتَـهُ فـي يَـومِ الِاثنَـينِ النَّبـيِّ المُهتَـدي
فَظَلَلْـتُ بَعـدَ وَفاتِـهِ مُتَبَلِّـدًا يـا لَهْـفَ نَفْسـي لَيتَنـي لَـمْ أُولَـدِ
أَأُقِـيمُ بَعـدَكَ بِالمَدينَـةِ بَيـنَهُم يـا لَيتَنـي صُـبِّحتُ سُـمَّ الأَسْـوَدِ

- وقال في قصيدة رائعة بدأها بالنسيب ثم مضى نحو الفخر[2]

أَهاجَـكَ بِالبَيْـداءِ رَسـمُ المَنـازِلِ نَعَـمْ قَـدْ عَفاهـا كُـلُّ أَسـحَمَ هاطِـلِ
وجَـرَّتْ عَلَيهـا الرَّامِسـاتُ ذُيُولَهـا فَلَـمْ يَبْـقَ مِنهـا غَيـرُ أَشـعَثَ ماثِـلِ
دِيـارُ الَّتـي راقَ الفُـؤادَ دَلالُهـا وعَـزَّ عَلَينـا أَنْ تَجُـودَ بِنائِـلِ
لَهـا عَـينُ كَحـلاءِ المَـدامِعِ مُطفِـلٍ تُراعِـي نَعامًـا يَرتَعِـي بِالخَمائِـلِ
دِيارُ الَّتـي كـادَتْ وَنَحـنُ علَـى مِنًـى تَحُـلُّ بِنـا لَـولا نَجـاءُ الرَّواحِـلِ
ألا أَيُّهـا السَّـاعي لِيُـدرِكَ مَجـدَنا نَأَتْـكَ العُلَـى فَـارتَعْ عَلَيـكَ فَسـائِلِ

* * * * * *

تَجِـدْنا سَـبَقْنا بِالفَعـالِ وبِالنَّـدَى وأَمـرِ العَـوالي فـي الخُطـوبِ الأَوائِـلِ
ونَحنُ سَبَقْنا النَّاسَ مَجدًا وَسُؤدَدًا تَلِيـدًا وذِكـرًا نامِيًـا غَيـرَ خامِـلِ
لَنـا جَبَـلٌ يَعلُـو الجِبـالَ مُشَـرَّفٌ فَـنَحنُ بِـأَعلَى فَرعِـهِ المُتَطـاوِلِ

* * * * * *

ويَـومَ قُـرَيشٍ إِذْ أَتَونـا بِجَمعِهِـم وَطِئنـا العَـدُوَّ وَطـأَةَ المُتَثاقِـلِ

---

[1] انظر: المصدر السابق.
[2] انظر: المصدر السابق (ص٢٧٧).

وفـي أُحُـدٍ يَـومٌ لَهُـم كـانَ مُخزِيًـا نُطـــاعِنُهُم بِالسَّـــمْهَرِيِّ الـــذَّوابِلِ
ويَـــومَ ثَقيـــفٍ إِذْ أَتَينـــا دِيـــارَهُم كَتائِـــبَ نَمشِـــي حَولَهـــا بِالمَناصِـــلِ
فَفَـــرُّوا وشَـــدَّ اللهُ رُكْـــنَ نَبِيِّـــهِ بِكُـــلِّ فَتًـــى حـــامِي الحَقيقَـــةِ باسِـــلِ

٢-كعب بن زهير

ترجمته:

هو أبو عقبة كعب بن زهير بن أبي سلمى المُزني، نشأ مع أبيه زهير في قبيلة غطفان قوم أمِّه كبشة، ربَّاه أبوه زهير على الحكمة والتَّأنّي، وظهرت موهبته الشعرية باكرًا، وأخذ يتلقَّن الشعر عن أبيه، وكان أبوه زهير ينهاه عن قول الشعر أوَّل الأمر؛ خشية أن يأتي بالرديء الذي لا يليق، ولكنَّ كعبًا كان لا ينتهي، ولما لمس فيه أبوه موهبته وسلامة قريحته؛ اعتنى به عناية فائقة وأخذ يدرِّبه ويمرِّنه عليه، وكان يخرج به أحيانًا إلى الصحراء فيُلقِي عليه شطرًا ويطلب منه أن يجيزه[١] ولم يأذن له بقول الشعر إلا لمَّا تأكَّد من استحكام موهبته وسعة ملكته وسلامة قريحته، وهو من أسرة شاعرية لم يُعرف اتصال الشعر في عائلة مثلها؛ فأبوه زهير بن أبي سُلمى أحد الشعراء الفحول في الجاهلية وصاحب إحدى المعلقات، وعمَّتاه سُلمَى والخنساء، وخال أبيه بشامة ابن الغدير، وزوج جدَّته أوس بن حجر، وأخوه بجير، وأخته الخنساء بنت زهير، وابنا عمَّته صخر وتماضر، وولده عقبة وبعض أحفاده، من بينهم العوام ابن عقبة؛ كلهم شعراء.[٢]

وقد أدرك كعب وبُجير الإسلام، فأما بُجير فقد سارع إلى الإسلام وأسلم في السنة السابعة للهجرة وشهد فتح مكة وغزوتي حنين والطائف، وغضب كعب من إسلامه وأرسل إلى أخيه معاتبًا إيَّاه وقال له معرِّضا برسول الله ﷺ:[٣]

أَلا أَبلِغا عَنّي بُجَيرًا رِسالَةً ... فَهَلْ لَكَ فيما قُلتَ بِالخيفِ هَل لَكا

شَرِبتَ مَعَ المَأمونِ كَأسًا رَوِيَّةً ... فَأَنْهَلَكَ المَأمونُ مِنها وعَلَّكا

وَخالَفتَ أَسبابَ الهُدَى وَتَبِعتَهُ ... علَى أيِّ شيءٍ وَيْبَ غيرِكَ دَلَّكا

---

[١] انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٨٣).

[٢] انظر: ديوان كعب بن زهير (ص٥)، تحقيق: علي فاعور، طبعة: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

[٣] انظر: ديوان كعب بن زهير (ص٥).

عَلـى خُلُـقٍ لَـم تُلـفِ أُمًّـا ولا أبَـا عَلَيــهِ ولَــمْ تُــدرِك عَلَيــه أَخًــا لَكــا

فغضب عليه رسول الله ﷺ، وأهدر دمه، ويقال: إنَّ بجيرًا ردَّ عليه قائلًا[1]:

فَمَـنْ مُبْلِـغٌ كَعْبًـا فَهَلْ لَـكَ فِـي الَّتِـي تَلُــومُ عَلَيْهــا بَــاطِلًا وَهْــيَ أَحْــزَمُ
إِلَى اللهِ -لا العُزَّى ولَا اللَّاتِ- وَحْدَهُ فَتَنْجُــو إِذَا كَــانَ النَّجَــاءُ وَتُسْــلِمُ
لَـدَي يَـوْمَ لَا يَنْجُـو ولَـيْسَ بمُفْلِـتٍ مِــنَ النَّــارِ إِلَّا طَــاهِرُ القَلْــبِ مُسْــلِمُ

وكان قد شاع الإسلام بين العرب ودخل فيه الناس، فضاقت على كعب الدنيا بما رحبت، ورفضت جميع القبائل إيواءه، ولجأ إلى قبيلته مُزينة فأبَتْ أيضًا حمايته، فأرسل إليه أخوه بُجير ناصحًا إيَّاه ومحذِّرًا بأنَّ رسول الله ﷺ قتل أناسًا ممن آذوه من المشركين إلا مَن أسلَمَ منهم، ونصحه بأن يُقبِل على رسول الله ﷺ تائبًا معتذرًا؛ لأنَّه ﷺ لا يردُّ من جاءه مستأمنًا، فأخذ كعب بنصيحة أخيه وقدم المدينة متخفِّيًا، وبدأ بأبي بكر الصِّدِّيق، ولمَّا سلَّم النَّبيُّ ﷺ من صلاة الصبح؛ أقبل عليه متلثِّمًا بعمامته فقال: يا رسول الله؛ هذا رجل جاء يبايعك على الإسلام، فبسط النَّبيُّ ﷺ يده، فحسر كعب عن وجهه وقال: هذا مقام العائذ بك يا رسول الله؛ أنا كعب بن زهير؛ فتجهَّمته الأنصار وأغلظتْ له القول؛ لتعريضه سابقا برسول الله ﷺ، بينما أحَبَّ المهاجرون إسلامه، فأمَّنه النَّبيُّ ﷺ، وأنشده كعب قصيدته في مدحه، والتي مطلعها "بانت سعاد"، فأعجب بها النَّبيُّ ﷺ وعفا عنه وكساه بُردةً كانت له، فعُرِفت قصيدته بالبُردة لذلك، وبقيت في ورثته حتى اشتراها منهم معاوية بن أبي سفيان بعشرين أو بثلاثين ألف درهم، وقد توفِّيَ كعب بن زهير سنة ٢٤هـ/٦٦٢م.

شعره:

يعتبر شعر كعب بن زهير إلى حدٍّ كبير امتدادًا لشعر أبيه زهير بن أبي سُلمى؛ من حيث لفظه الجزل وأسلوبه الفخم ومعانيه الجاهلية؛ سواء في وصفه الحسي أو

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٨٤).

الغزل والمقدمة الطللية، وحتى في تنقيحه لألفاظه وتدبيجه لشعره، وهو إن لم يبلغ درجة أبيه في الحكمة فقد فاقه عذوبة في تراكيب شعره؛ تأثُّرًا بهدي الإسلام، وشعر كعب بن زهير بشكلٍ عامٍّ رصين قوي، متين التراكيب، جزل اللفظ، رائع السبك، فخم الأسلوب، يظهر عليه بوضوح أثر الطابع البدوي لفظًا ومعنًى، ولا يخلو شعره من غريب اللفظ في بعض الأحيان، ويمتاز بالبراعة والدقة في القول والوصف والغزل، وفي شعره قدرٌ من التَّأنّي والخيال والتدبيج والتنقيح، وهو ذو قدرة على اختيار الألفاظ القوية والتراكيب المتينة والصور الفنية المناسبة.

ويتضح من خلال شعره أنه كان فيه شرٌّ كثير وكان دائمًا مفاخرًا ومتوعِّدًا ومهدِّدًا، فلما أدركه الإسلام أخذت نفسه تصفو وبدأ يستشعر معاني الإسلام الروحية رغم تأخر إسلامه[1].

وتظهر في شعر كعب بن زهير ملامح الروح الجاهلية في تراكيب شعره من جهة، وفي وصفه البدوي الصافي من جهة ثانية؛ وهذا تأثُّرًا بأبيه وبعض شعراء عصره كالنابغة الذبياني؛ ولا سيَّما في اعتذارياته، وتظهر فيه أيضًا بعض الملامح الإسلامية؛ سواء في معانيه وعاطفته الدِّينية وبعض مصطلحاته المقتبسة من القرآن مثل "الرحمن" و"نافلة القرآن" و"مواعظ"، يقدِّمه وكان معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه - يقدِّمه في الشعر قائلًا: أشعر أهل الجاهلية زهير ابن أبي سلمى، وأشعر أهل الإسلام ابنه كعب ومعن بن أوس؛[2] ولا أدلَّ على علوِّ منزلته من أن الحُطيئة وهو الشاعر المشهور -واسمه جَرْول بن أوس- قال له يومًا: قد علمتم روايتي لكم أهل البيت، وانقطاعي إليكم، فلو قلتَ شعرًا تذكر فيه نفسك ثم تذكرني بعدك؛ فإن الناس أروَى لأشعاركم؛ فقال كعب:[3]

فمَنْ لِلْقَوافي شانها مَن يَحُوكُها إذا ما مضَى كعبٌ وفوَّزَ جَرولُ

---

[1] انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٨٣- ٨٨).

[2] انظر: هوامش منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٢٦٨)، عناية: محمد مصطفى محمود زهران، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان

[3] انظر: ديوان كعب بن زهير (ص٦).

نماذج من قصائده:

- قال في لاميَّته الشهيرة التي مدح بها رسول الله ﷺ؛ التي عُرفت باسم البردة، وهي من عيون الشعر الإسلامي ومن أروع المدائح النبوية[1]:

بانَتْ سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَها لَمْ يُفْدَ مَكبولُ

وما سُعادُ غَداةَ البَينِ إِذْ رَحَلوا ... إِلَّا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرفِ مَكحُولُ

هَيفاءُ مُقبِلَةً عَجزاءُ مُدبِرَةً ... لا يُشتَكَى قِصَرٌ مِنها ولا طُولُ

تَجلُو عَوارِضَ ذي ظَلَمٍ إِذا ابتَسَمَتْ ... كَأَنَّهُ مُنهَلٌ بِالرَّاحِ مَعلُولُ

* * *

يَسعَى الوُشاةُ بِجَنبَيها وقَولُهُمُ ... إِنَّكَ يَا بْنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقتُولُ

وقالَ كُلُّ خَليلٍ كُنتُ آمُلُهُ ... لا أُلْهِيَنَّكَ إِنِّي عَنكَ مَشغُولُ

فَقُلتُ خَلُّوا سَبيلي لا أَبَا لَكُمُ ... فَكُلُّ ما قَدَّرَ الرَّحمَنُ مَفعُولُ

كُلُّ ابْنِ أُنثَى وإِنْ طالَتْ سَلامَتُهُ ... يَومًا علَى آلَةٍ حَدْباءَ مَحمُولُ

أُنبِئتُ أَنَّ رَسولَ اللهِ أَوعَدَني ... والعَفْوُ عِندَ رَسولِ اللهِ مَأمُولُ

مَهلًا هَداكَ الَّذي أَعطاكَ نافِلَةَ الـ ... ـقُرآنِ فيها مَواعيظٌ وَتَفصِيلُ

لا تَأْخُذَنِّي بِأَقوالِ الوُشاةِ ولَمْ ... أُذْنِبْ ولَو كَثُرَتْ فيَّ الأَقاوِيلُ

* * *

إِنَّ الرَسُولَ لَنورٌ يُستَضاءُ بِهِ ... وصارِمٌ مِنْ سُيوفِ اللهِ مَسلُولُ

في عُصبَةٍ مِن قُرَيشٍ قالَ قائِلُهُم ... بِبَطنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسلَمُوا زُولُوا

زالُوا فَما زالَ أَنكاسٌ وَلا كُشُفٌ ... عِندَ اللِّقاءِ وَلا مِيلٌ مَعازِيلُ

شُمُّ العَرانينِ أَبطالٌ لَبُوسُهُمُ ... مِن نَسْجِ دَاوُدَ في الهَيْجا سَرابِيلُ

بِيضٌ سَوابِغُ قَدْ شُكَّتْ لَها حَلَقٌ ... كأَنَّها حَلَقُ القَفْعاءِ مَجدُولُ

لا يَفرَحُونَ إِذا نالَتْ رِماحُهُمُ ... قَومًا ولَيسوا مَجازيعًا إِذا نِيلُوا

يَمشُونَ مَشْيَ الجِمالِ الزُّهْرِ يَعصِمُهُم ... ضَربٌ إِذا عَرَّدَ السُّودُ التَّنابِيلُ

---

[1] انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٦٣٢- ٦٤١).

لا يَقَــعُ الطَّعــنُ إلَّا فــي نُحــورِهِمُ وما لَهُم عَن حِياضِ المَوتِ تَهليلُ

ويُقال أن رسول الله نظر إلى مَن عنده من قريش، كأنه يومئ إليهم أنْ يسمعوه حينما قال: "زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ" حتى انتهى إلى "يمشون مَشْيَ الجِمالِ الزُّهْرِ"، وهو دليل على إعجابه ﷺ بتلك القصيدة.

- ويقال: إنه لم يذكر الأنصار في تلك القصيدة مع إخوانهم؛ بل رُوِيَ أنه كان يعرِّض بهم؛ لغلظتهم عليه، في البيت القائل "يمشون مَشْيَ الجِمال"، فشقَّ عليهم ذلك، وقال المهاجرون: لَمْ تمدحنا إذْ هجوتهم؛ فقال مادحًا الأنصار[1]:

مَــن سَّــرهُ كَــرَمُ الحَيــاةِ فَــلا يَــزَلْ فــي مِقْنَــبٍ مِــن صــالِحي الأَنصــارِ[2]
تَــزِنُ الجِبــالَ رَزانَــةً أَحلامُهُــم وأَكُفُّهُــم خَلَــفٌ مِــنَ الأَمطــارِ
المُكــرِهينَ السَــمهَرِيَّ بِــأَذرُعٍ كَصَــواقِلِ الهِنــدِيِّ غَيــرِ قِصــارِ
والنَّــاظِرينَ بِــأَعيُنٍ مُحْمَــرَّةٍ كَــالجَمرِ غَيــرِ كَليلَــةِ الإبصــارِ
والذَّائِــدِينَ النَّــاسَ عَــن أَديــانِهِم بِالمِشــرَفِيِّ وبِالقَنــا الخَطَّــارِ
والبــاذِلينَ نُفوسَــهُم لِنَبِــيِّهِم يَــومَ الهيــاجِ وقُبَّــةِ الجَبَّــارِ
دَرِبــوا كَمــا دَرِبَــتْ أُســودٌ خفْيــةٌ غُلــبُ الرِّقــابِ مِــنَ الأُســودِ ضَــوارِ
وهُــمُ إذا خَــوَتِ النُّجــومُ فَــإِنَّهُم لِلطَّــائِفينَ السَّــائِلينَ مَقــاري
وهُــمُ إذا انقَلَبــوا كَــأنَّ ثِيــابَهُم مِنهــا تَضَــوُّعُ فَــأرَةِ العَطَّــارِ
لِلصُّــلْبِ مِــن غَسَّــانَ فَــوقَ جَــراثِمٍ تَنبُــو خَوالِــدُها عَــنِ المِنقــارِ
والمُطعِمَــونَ الضَّــيفَ حــينَ يَنُــوبُهُم مِــن لَحــمِ كُــومٍ كَالهِضــابِ عِشــارِ
والمُنْعِمــونَ المُفْضِــلونَ إذا شَــتَوا والضَّــارِبونَ عــلاوَةَ الجَبَّــارِ

- وقال كعب أيضا[3]:

أَمِــن أُمِّ شَــدَّادٍ رُســومُ المَنــازِلِ تَوَهَّمتُهــا مِــن بَعــدِ ســافٍ ووابِــلِ

---

[1] انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٢).
[2] المقنب: الجماعة من الخيل والفرسان. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/ ٦٩٠).
[3] انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٤).

وبَعـدَ لَيـالٍ قَـدْ خَلَـوْنَ وأَشـهُرٍ عَلـى إِثْـرِ حَـوْلٍ قَـدْ تَجَـرَّمَ كامِـلِ[1]
أَرى أُمَّ شَـدَّادٍ بِهـا شِـبْهُ ظَبْيَـةٍ تُطِيـفُ بِمَكحـولِ المَـدامِعِ خـاذِلِ
أَغَنَّ غَضيضِ الطَّرفِ رَخْصٍ ظُلُوفُهُ تَـرُودُ بِمُعـتَمٍّ مِـنَ الرَّمـلِ هائِـلِ

- وتُروَى عنه قصيدة في مدح علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كانت بنو أمية تنهى عن روايتها وإضافتها إلى شعره، وممَّا جاء فيها[2]:

إنَّ عَلِيًّـا لَمَيمُـونٌ نَقِيبَتُـهُ بالصَّـالحاتِ مِـنَ الأفعـالِ مَشـهُورُ
صِـهْرُ النَّبـيِّ وخَيـرُ النَّـاسِ مفتخـرًا فكـلُّ مَـنْ رامَـهُ بـالفخرِ مَفخُـورُ
صـلَّى الطَّهُـورُ مـع الأمِّـيِّ أوَّلَهُـم قبَـلَ المَعـادِ وربُّ النَّـاسِ مكفـورُ
مُقـاوِمٌ لِطُغـاةِ الشِّـركِ يَضـرِبُهُم حتـى اسـتقامُوا ودِيـنُ اللهِ منصُـورُ
بالعـدلِ قُمـتَ أمِينًـا حِـينَ خالَفَـهُ أهـلُ الهَـوَى وذَوُو الأهـواءِ والـزُّورُ

- وقال أبياتًا تدل على حُسن إسلامه واستقراره في قلبه[3]:

لَو كُنتُ أَعجَبُ مِن شَيءٍ لَأَعجَبَني سَـعيُ الفَتـى وهْـوَ مَخبـوءٌ لَـهُ القَـدَرُ
يَسعَى الفَتـى لِأمـورٍ لَـيسَ مُـدْرِكَها والـنَّفسُ واحِـدَةٌ والهَـمُّ مُنتَشِـرُ
والمَـرءُ مـا عـاشَ مَمـدُودٌ لَـهُ أمَـلٌ لا تَنتَهـي العَـينُ حتَّـى يَنتَهـي الأَثَـرُ

---

[1] تجرم: انقضى. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٢/ ٩١).
[2] انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٥).
[3] انظر: ديوان كعب بن زهير (ص٣٧- ٣٨).

٣- الخنساء بنت عمرو

ترجمتها:

هي تُماضر بنت عمرو بن الحراث بن الشريد، السُّلميَّة، غلب عليها لقب الخنساء، وكانت من عشيرة مقدَّمة في الشرف والفضل، وكان أبوها وأخواها معاوية وصخر من سادات سُلَيم مِن مضر، ويُروَى أنَّ أباها كان يأخد بيدَيْ ولديه فيقول: أنا أبو خيرَيْ مُضَر؛ فتعترف له العرب بذلك؛ وكانت الخنساء في شبابها بارعة الجمال والأدب، وقد خطبها دُريد بن الصمَّة فردَّته قائلة: أتراني تاركة بني عمي كأنهم عوالي الرماح، ومرتثَّة شيخ بني جُشَم؟! وتأبَّت عليه لِكِبَر سِنِّه، وفضَّلت عليه أبناء عمومتها، فقال دريد[1]:

حَيُّوا تُماضِرَ واربَعوا صَحْبِي ... وَقِفُوا فَإِنَّ وُقوفَكُم حَسْبي

أَخُناسُ قَدْ هامَ الفُؤادُ بِكُم ... وَأَصابَهُ تَبَلٌ مِنَ الحُبِّ

وتعتبر الخنساء من أبرز أعلام الشعر في الجاهلية وأشهر شاعراتها على الإطلاق، وقد اشتهرت بقصَّتها وتفجُّعها على هلاك أخَوَيْها؛ إذْ قُتِل أوَّلًا أخوها معاوية في حروب بني سُلَيم ومُرَّة من غطفان، فرثته الخنساء وحزنت لموته، ثم عزم أخوها صخر على الأخد بثأر أخيه، فقاد عدَّة غاراتٍ على غطفان، فقَتل منهم وأثخن فيهم حتى أصاب ثأره، ولم يكتفِ، وظل على غاراته عليهم زمنًا حتى طُعِن هو الآخر في بعض حروبه، على يد بني أسد حلفاء غطفان، طعنةً أصابته بجرحٍ عظيم أورثه علَّة ظل يشكو منها حولًا كاملًا وهو بين الحياة والموت، حتى اشتدَّ مرضه متأثِّرًا بجرحه ذاك، وكان قومه إذا سألوا عنه زوجته سلمى تقول: لا هو حيٌّ فيُرجَى ولا ميت فيُنسَى؛ وكانت أمُّه إذا سألوها عنه تجيب قائلة: أصبح صالحًا بنعمة الله؛ وكان صخر يؤذيه كثيرًا هذا الكلام حتى قال راثيًا نفسه[2]:

أَرَى أُمَّ صَخرٍ ما تجِفُّ دُمُوعُها ... وملَّتْ سُلَيْمَى مَضْجَعي ومَكاني

---

[1] انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣٣١).

٢ انظر: المصدر السابق (١/ ٣٣٣).

وما كنتُ أخشَى أنْ أكونَ جنازةً عليكِ ومَنْ يَغْتَرُّ بالحَدَثانِ

وظل على تلك الحالة بين الموت والحياة حولًا كاملًا إلى أن توفِّيَ، فحزنت أخته الخنساء حزنًا عظيمًا، وظلَّت تبكيه دهرًا، ونذرت لا تخلع الحِداد عليه أبدًا، وانفجر منها شِعر حزين مؤثِّر، وكان حزنها على صخر أشدَّ مِن حزنها على معاوية، مع أن صخرًا كان أخاها لأبيها فقط، إلا أنه كان عطوفًا عليها، عظيم البِرِّ بها، وكانت تذهب إلى المواسم فتنشد الناس راثية وتبكيهم، فذاع صِيتها بين العرب واشتهرت بمراثيها في صخر.

وكانت الخنساء قد تزوَّجت رواحة بن عبد العُزَّى فولدت له ابنها عبد الله، ثم خلفه عليها مرداس بن أبي عامر السُّلمي فولدت له زيدًا ومعاوية وعَمْرًا، وكانت ممن وفد على النابغة الذبياني في سوق عكاظ وأنشدته فاستحسن شِعرها وقدَّمها قائلًا: لولا أنَّ أبا بصير -يعني الأعشى- أنشدني قبلك لقلت: إنك أشعر الجن والإنس.

وقد أدركت الخنساء الإسلام ووفدت مع قومها على رسول الله ﷺ فأسلمت، وكان رسول الله ﷺ يستنشدها فتنشده وهو مُصْغٍ إليها، وظلَّت الخنساء على جِداداها الجاهلي زمنًا حتى بعد الإسلام، لا تعبأ بِمَن يلومها، وكانت تقول بعدما أسلمت: كنت أبكي لصخرٍ من القتل، فأنا أبكي له اليوم من النار[1]، وقد التقت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ودخلت على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وعليها صدار من شَعر، فقالت لها عائشة: يا خنساء؛ إنَّ هذا لقبيحٌ؛ قُبِض رسول الله فما لبستُ هذا!! قالت: إنه له قصة؛ قالت: فأخبريني؛ قالت: زوَّجني أبي رجلًا وكان سيدًا معطاءً، فذهب ماله، فقال لي: إلى أين يا خنساء؟ قلت: إلى أخي صخر؛ فأتيناه، فقسم ماله شطرين فأعطانا خيرهما، فجعل زوجي يعطي ويحمل حتى نفد ماله؛ فقال: إلى مَن؟ فقلت: إلى أخي صخر؛ فأتيناه، فقسم ماله

[1] انظر: المصدر السابق (١/ ٣٣٥).

شطرين فأعطانا خيرهما، فقالت امرأته: أما ترضى أن تعطيها النصف حتى تعطيها أفضل النصفين؟! فارتجز قائلًا[1]:

واللهِ لا أمنحُهـــــــا شِـــــــرارَها

ولَـــوْ هلَكْـــتُ مَزَّقَـــتْ خِمارَهـــا

وجَعَلَـــتْ مِـــن شَـــعَرٍ صِـــدارَها

فذلك الذي دعاني إلى أن لبست هذا حين هلك.

وعاشت الخنساء زمنًا بعد الإسلام وحَسُن إسلامها واستقرَّ في قلبها، حتى شاخت وكبر سنُّها وشهدت موقعة القادسية سنة ١٥هـ، وقد اشترك فيها أولادها الأربعة، فأخذت تحرِّضهم على الثبات والقتال حتى استشهدوا جميعًا، فتقبَّلت مصرعهم بنفسٍ راضية صابرة محتسبة وقالت: الحمد لله الذي شرَّفني بقتلهم؛ ولم تجزع على موتهم كما جزعت على موت أخيها من قبلُ، مما يدلُّ على حُسن إسلامها واستقراره في قلبها، وقد تُوفِّيَتِ الخنساء في البادية عام ٢٤هـ/ ٦٤٥م.

شِعرها:

تعتبر الخنساء أشهر شاعرات الجاهلية والإسلام وأشعرهن، وقد استطاعت الخنساء أن تخرج من ذلك القيد الذي فُرِض على شاعرات الجاهلية فحجبهنَّ عن الظهور والشهرة؛ إذِ اشتهرت وعلا صِيتها؛ وهذا بسبب مراثيها لأخيها صخر، التي بلغت شهرة عظيمة بين العرب، وشعرها غاية في الأناقة والروعة، يمتاز بحلاوة اللفظ والجرس ورقَّة الأنوثة، بالإضافة إلى عاطفة صادقة حارة، في سلاسة وسهولة وانسيابية.

وسئل جرير عن أشعر الناس فقال: أنا، لولا الخنساء؛ ويُنسَب إلى بشار بن بُرد قوله: لم تقل امرأة فقط شعرًا إلا تبيَّن الضعف فيه؛ فقيل له: أو كذلك الخنساء؟ فقال: تلك فوق الرجال[2].

---

١ انظر: المصدر السابق (١/ ٣٣٤).

٢ انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص٢٧٧).

ويدور أغلب شعر الخنساء حول الرثاء وما يتعلق به من انكسار وألم وتعداد للمحاسن والذكريات، وقلَّما خرج عن هذا الإطار، وهو رثاء حار أنثوي رقيق صادق العاطفة.

نماذج من قصائدها:

- قالت ترثي أخاها صخرًا في رائية بديعة هي من عيون مراثي الشعر الجاهلي[1]:

قَــذًى بِعَينِــكِ أَمْ بِــالعَينِ عُــوَّارُ ... أَمْ ذَرَفَـتْ إِذْ خَلَـتْ مِـن أَهلِهـا الـدَّارُ
كَــأَنَّ عَينِــي لِــذِكراهُ إِذا خَطَـرَتْ ... فَـيضٌ يَسـيلُ علَـى الخَـدَّيْنِ مِـدْرارُ
تَبكي لِصَخرٍ هِيَ العَبْرى وقَدْ وَلِهَتْ ... ودُونَــهُ مِــن جَديــدِ التُّــربِ أَســتارُ
تَبكـي خُنـاسُ فَمـا تَنفَكُّ مـا عَمَـرَتْ ... لَهــا عَلَيــهِ رَنــينٌ وهْــيَ مِفْتــارُ
تَبكي خُناسُ علَى صَخرٍ وحُقَّ لَها ... إِذْ رابَهــا الــدَّهرُ إِنَّ الــدَّهرَ ضَــرَّارُ
لا بُـدَّ مِـن ميتَـةٍ فـي صِـرفِها عِبَـرٌ ... والــدَّهرُ فــي صِــرفِهِ حَــوْلٌ وأَطــوارُ
قَدْ كـانَ فـيكُم أَبُـو عَمـرٍو يَسُـودُكُمُ ... نِعــمَ المُعَمَّــمُ لِلــدَّاعِينَ نَصَّــارُ
صُــلْبُ النَّحِيــزَةِ وَهَّــابٌ إِذا مَنَعــوا ... وفِي الحُروبِ جَريءُ الصَّدْرِ مِهصارُ
يــا صَــخرُ وَرَّادَ مــاءٍ قَــدْ تَنــاذَرَهُ ... أَهــلُ المَــوارِدِ مــا فــي وِردِهِ عــارُ
مَشْيَ السَّبَنتى إلى هَيجاءَ مُعضِلَةٍ ... لَــهُ سِــلاحانِ أَنيــابٌ وَأَظفــارُ

* * *

وَإِنَّ صَــخرًا لَوالِينــا وسَــيِّدُنا ... وإِنَّ صَــخرًا إِذا نَشــتُو لَنَحَّــارُ
وإِنَّ صَــخرًا لَمِقــدامٌ إِذا رَكِبــوا ... وإِنَّ صَــخرًا إِذا جــاعُوا لَعَقَّــارُ
وإِنَّ صَــخرًا لَتَــأتَمُّ الهُــداةُ بِــهِ ... كَأَنَّــهُ عَلَــمٌ فــي رَأسِــهِ نــارُ
جَلْــدٌ جَميــلُ المُحَيَّــا كامِــلٌ وَرِعٌ ... ولِلحُــرُوبِ غَــداةَ الــرَّوْعِ مِســعارُ
حَمَّــالُ أَلوِيَــةٍ هَبَّــاطُ أَودِيَــةٍ ... شَــهَّادُ أَندِيَــةٍ لِلجَــيشِ جَــرَّارُ

---

[1] انظر: ديوان الخنساء (ص٤٥)، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، طبعة: دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
[2] النجيزة: الطباع. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٥/ ٤١٥)؛ مهصار: الذي يدق الأعناق. انظر: لسان العرب (٥/ ٢٦٥).

نَحَّـــارُ راغِيَـــةٍ مِلْجـــاءُ طاغِيَـــةٍ فَكَّـــاكُ عانِيَـــةٍ لِلعَظـــمِ جَبَّـــارُ

- وقالت في موضع آخر ترثيه[1]:

يـا عَينُ مـا لَـكِ لا تَبكِينَ تَسْكابا إِذْ رابَ دَهـرٌ وكـانَ الـدَّهرُ رَيَّابـا
فَـابْكي أَخـاكِ لِأَيتـامٍ وأَرمَلَـةٍ وابْكِـي أَخـاكِ إذا جـاوَرتِ أَجنابـا
وابْكِـي أَخـاكِ لِخَيـلٍ كَالقَطـا عُصَبًا فَقَـدْنَ لَمّـا ثَـوى سَـيبًا وَأَنهابـا
يَعـدُو بِـهِ سـابِحٌ نَهـدٌ مَراكِلُـهُ مُجَلبَـبٌ بِسَـوادِ اللَّيـلِ جِلبابـا
حتَّـى يُصَـبِّحَ أَقوامًـا يُحـارِبُهُم أَو يُسْـلَبوا دُونَ صَـفِّ القَـومِ أَسـلابا
هُوَ الفَتى الكامِلُ الحامي حَقيقَتَـهُ مَـأوَى الضَّـريكِ إِذا مـا جـاءَ مُنتابـا
يَهدي الرَّعِيلَ إِذا ضاقَ السَّبيلُ بِهِم نَهْـدَ التَّلِيـلِ لِصَـعبِ الأَمـرِ رَكَّابـا

- وقالت ترثيه في موضع آخر[2]:

يـا عَـينُ جُـودي بِالـدُّمو عِ المُسـتَهِلّاتِ السَـوافِحْ
فَيضًـا كَمـا فاضَـتْ غُـرو بُ المُترَعـاتِ مِـنَ النَواضِـحْ
وابْكِـي لِصَـخرٍ إِذْ ثَـوَى بَـينَ الضَّـرِيحَةِ والصَّـفائِحْ
رَمسًـا لَـدَى جَـدَثٍ تُذيـ ـعُ بِتُرْبِـهِ هُـوجُ النَّـوافِحْ
السَّـيِّدُ الجَحْجـاحُ وابـ ـنُ السَّـادَةِ الشُـمِّ الجَحـاجِحْ
الحامِـلُ الثِّقَـلَ المُهِـمَّ(م) مِـنَ المُلِمَّـاتِ الفَـوادِحْ

- وقالت ترثي زوجها مرداس[3]:

لَمَّـا رَأَيـتُ البَـدرَ أَظلَـمَ كاسِـفًا أَرَنَّ شَـواذٌّ بَطنُـهُ وَسَـوائِلُهْ
رَنينًـا ومـا يُغْنـي الرَّنينُ وقَدْ أَتَـى بِمَوتِـكَ مِـن نَحـوِ القُرَيَّـةِ حامِلُـهْ
لَقَدْ خارَ مِرداسًا علَى النَّاسِ قاتِلُهْ ولَـوْ عـادَهُ كَنَّاتُـهُ وحَلائِلُـه

---

[1] انظر: ديوان الخنساء (ص١٣).
[2] انظر: ديوان الخنساء (ص٢٥).
[3] انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص٢٧٨).

وقُلـنَ أَلا هَـلْ مِـن شِـفاءٍ يَنالُـهُ وقَـدْ مُنِـعَ الشِّـفاءَ مَـنْ هُـوَ نائِلُـهْ
وفَضَّلَ مِرداسًا علَى النَّاسِ حِلمُهُ وأَنْ كُـلُّ هَـمٍّ هَمَّـهُ فَهْـوَ فاعِلُـهْ
وأَنْ كُـلُّ وادٍ يَكـرَهُ النَّـاسُ هَبْطَـهُ هَبَطـتَ ومـاءٍ مَنهَـلٍ أَنـتَ ناهِلُـهْ

- وقالت في رثاء أخويها معاوية وصخر[1]:

فكَـمْ مِـن فـارسٍ لـكِ أمَّ عَمْـرٍو يَحُـوطُ سِـنانُهُ الأنـسَ الحَرِيـدا
كصَـخْرٍ أوْ مُعاوِيَـةَ بْـنِ عَمْـرٍو إذا كانَـتْ وُجـوهَ القَـومِ سُـودَا

[1] انظر: المصدر السابق (ص٢٨٠).

٤- الحُطيئة

ترجمته:

هو جرولُ بن أوس العبسي، غلب عليه لقب الحُطيئة لِقِصَره وقُربِه من الأرض، ويُكنى بأبي مُليكة[١] وأمُّه جارية اسمها الضراء، وهو شاعر جاهلي إسلامي، وقد نشأ مدخول النَّسب، مضطرب الحال، فقيل: إنَّ أوس بن مالك استولده سفاحًا من الضراء، وكانت لبنت رباح بن عمرو، وإنَّها تزوجت الكلب بن كنيس ابن جابر العبسي وكان متداخل النسب أيضًا[٢] ولعل هذا ما يفسِّر اضطراب نسبه واختلاف الناس فيه، وعلى كل حالٍ فإنه نشأ محرومًا مذمومًا لا يُعرَف له شرف ولا نسب معروف، فاتَّفقت له عوامل الشر والاضطراب، وأولد كلُّ هذا في نفسه نقمةً وسُخطة على الناس وكُرهًا لمن حوله، وزاد من إحساسه هذا دمامته وضعْف جسمه، فنشأ خبيثًا دنيئًا وضيع النفس، وقد وصفه الأصمعي بأنه سيئ الخلق، دنيء النفس، فاسد الدِّين، سؤولٌ ملحفٌ جشعٌ كثيرُ الشَّرِّ قليلُ الخير، بخيلٌ دميمٌ قصيرٌ رثُّ الهيئة، متدافع النسب في القبائل.[٣]

وبسبب الفقر لم يجد الحطيئة غير الشعر وسيلة للتكسب وطلب الرزق بالمديح والهجاء، وقد أخذ الشعر عن زهير بن أبي سلمى وتتلمذ على يديه فروى عنه، وقد عُرِف بهجائه اللاذع حتى إنه هجا نفسه وأمَّه وأباه، وهجا أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وكان في عموم هجائه عنيفًا، لهذا كان الناس يهابون لسانه فيضطرون إلى قبول مديحه ويَصِلُونه؛ اتِّقاءَ هجائه، وقد مدح عددًا من سادات العرب؛ كعيينة بن حصن الفزاري وزيد الخيل والوليد بن عقبة وسعيد ابن العاص، ويُقال: إنه شهد داحس والغبراء؛ وقد اختُلِف في إسلامه فقيل: إنه

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣١٠).
٢ انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص٩١- ٩٢).
٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص١٥٥).

ممَّن وفد على النَّبيِّ ﷺ مع الوفود وأسلم؛ وقيل: بل أسلم بعد وفاته؛ وعلى كل حال فقد كان ممَّن افتتن في دِينِه وارتدَّ عن الإسلام حين ارتدت العرب وقال:[1]

أَطَعْنَا رَسُولَ اللهِ إِذْ كَانَ حاضِرًا فيا لهْفتي ما بالُ دِينِ أبي بَكرِ
أَيُورِثُها بَكرًا إذا ماتَ بَعدَهُ فتِلكَ وبَيْتِ اللهِ قاصِمَةُ الظَّهْرِ

ولما انتهت الردَّة عاد إلى الإسلام، ولكن يبدو أن الإسلام لم يستقر في قلبه، فبقي على نفسه الوضيعة يخوض في أعراض الناس ويهجوهم، وقد سكن اليمامة في خلافة أبي بكر الصِّدِّيق، ثم نزل في جوار الزبرقان بن بدر زمنًا ثم نقم عليه فهجاه قائلًا في بيته الشَّهير:[2]

دَعِ المَكارِمَ لا تَرحَلْ لِبُغْيَتِها وَاقعُدْ فَإِنَّكَ أَنتَ الطَّاعِمُ الكاسِي

فشكاه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلم ينتبه إلى موضع الهجاء فقال: ما أعلمه هجاك، أما ترضى أن تكون طاعمًا كاسيًا؟! فقال: إنه لا يكون في الهجاء أشدُّ مِن هذا!! فاستدعى عمر حسَّانَ بن ثابت وسأله، فردَّ قائلًا: لم يهجه؛ ولكن سلح عليه!! فحبسه عمر زمنًا وقال له: يا خبيث؛ لأشغلنَّك عن أعراض المسلمين؛ فقال الحطيئة في حبسه يستعطفه:[3]

ماذا تَقُولُ لِأَفراخٍ بِذِي مَرَخٍ حُمرِ الحَواصِلِ لا ماءٌ وَلا شَجَرُ
أَلقَيتَ كاسِبَهُم في قَعرِ مُظلِمَةٍ فَاغفِرْ عَلَيكَ سَلامُ اللهِ يا عُمَرُ

فرقَّ له عمر وأطلقه من محبسه على أن يكفَّ عن الهجاء، فقال له: إذَنْ يموت عيالي جوعًا!! فاشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم منحها إيَّاه مقابل أن يكفَّ عن الهجاء، فوفَّى الحطيئة وترك الهجاء في عهد عمر، إلا أنه عاد إليه بعد وفاته.

---

[1] انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣١٠).
[2] انظر: المصدر السابق (١/ ٣١٥- ٣١٦).
[3] انظر: المصدر السابق (١/ ٣١٦).

وفي زمن عثمان -رضي الله عنه- خرج إلى الكوفة ثم عاد إلى المدينة، وقد اختفى زمن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- ثم عاود الظهور في المدينة أيام معاوية[1] وتوفّيَ عام ٤٥هـ/٦٦٥م، وقيل: بل عام ٥٩هـ/٦٧٨م، في سنٍّ عالية.

وتُروَى عن الحطيئة أخبار شتى؛ من بينها أن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال له يومًا: من أشعر الناس؟ فأخرج لسانه وقال: هذا إذا طمع؛ وقد دخل على عتيبة ابن النهاس العجلي في عباءة وهو لا يعرفه، وطلب عطاءً، فأبَى، فلمَّا انصرف الحطيئة لامه أحد أصحابه قائلًا له: عرَّضتَنا للشر؛ هذا الحطيئة!! فأمر بردِّه فأكرمه وقال له: اجلس فلك عندنا ما تحب؛ ثم بالغ في إكرامه؛ وقيل: إنَّه دخل متخفِّيًا على سعيد بن العاص أثناء ولايته على المدينة زمن معاوية، فلم يعرفه إلى أن أخبره عن نفسه، فقال له سعيد: قد أسأتَ في كتمانك نفسك منذ الليلة وقد علمْتَ شوقنا إليك وإلى حديثك، ومحبتنا لك؛ وأكرمه وأحسن إليه[2] وهناك روايات أخرى تتحدث عن دناءته؛ منها أنه قبل موته أوصى بماله لأولاده دون بناته، وأبَى أن يوصي للمساكين بشيء، ورفض عتق عبدٍ كان له، وكلُّها روايات نقلها الرواة عن خبثه ودناءته، ولعل كان في بعض ما رُوي عنه شيء من المبالغة، ولولا سوء سيرة الحطيئة وبذاءته مع الناس لصار في مقدمة الشعراء المخضرمين.

شعره:

شعر الحطيئة متين التراكيب، غزير البحر، رائق الأسلوب، سلس اللفظ، مُحكم الصنعة، وقد كان يختار ألفاظه ويدبِّج شعره على مذهب زهير والنابغة الذبياني، وقد برع في المديح واشتهر في الهجاء، أمَّا مديحه ففيه قدرٌ من التعظيم والتبجيل وذكر صفات الشجاعة والكرم والبأس، ومديحه لبني أنف الناقة مثالٌ على قوَّة شعره، ولكنَّه في معظم الأحيان كان مدحًا من أجل العطاء والتَّكسُّب، ولم يكن صادق العاطفة، وكان الممدوحون يكرمونه ويصلونه؛

---

[1] انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص٩٢- ٩٣).
[2] انظر: الشعر الشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣١٤).

تَفاديًا لشرّه وسلاطة لسانه، وأما الهجاء فكان منبعثًا من دناءة طبعه وخبثه، ولكنَّه قلَّما كان يفحش؛ إنما يطعن في مواضع النُّبل ومكارم الأخلاق فيبلغ غرضه[1]

ولا يخلو شعر الحطيئة من ملامح التَّأنّي والدِّقَّة ورسم الصور الشاعرية، وكان على شاكلة زهير والنابغة الذبياني؛ يعتني بتجويد شعره عناية فائقة، ولكنَّ الإسلام لم يستقر في قلبه؛ بسبب خبثه ودناءته وسوء سيرته، لذلك لا يُرَى للإسلام في شعره أثر يُذكَر، والنقاد مجتمعون على أنه لولا سوء سيرته وبذاءته مع الناس لصار علَى رأس الشعراء المخضرمين؛ لأن طاقته الشعرية جبَّارة وأسلوبه غاية في المتانة والإتقان، لا نكاد نرى في شعره ما كثر في شعر غيره من ركاكة وضعف وسقط، ولو كان أحسن السيرة ووظَّف طاقته الشعرية تلك في أمرٍ حسن وغاية أسمى لكان خيرًا له؛ ولكن غلب عليه لؤم طبعه وخُبث نفسه. وقد بلغ من تهوُّره أنَّه هجا أمَّه وأباه ونفسه؛ فمِن هجائه لأمه[2]

تَنَحَّــيْ فَاجلِســي مِنِّــا بَعيــدًا ... أَراحَ اللهُ مِنــــكِ العالَمينـــــا
أَلَـمْ أوضِـحْ لَـكِ البَغضـاءَ مِنِّـي ... ولَكِـــن لا إخالُـــكِ تَعقِلينـــا
جَــزاكِ اللهُ شَــرًّا مِــن عَجُــوزٍ ... ولَقّــاكِ العُقــوقَ مِــنَ البَنينــا

وقال في هجاء أبيه[3]

فَـنِعمَ الشَّـيخُ أَنـتَ علَـى المَخـازِي ... وَبِـئسَ الشَّـيخُ أَنـتَ لَـدَى المَعـالي
جَمَعــتَ اللُّــؤمَ لا حَيّــاكَ رَبّــي ... وأَبـــوابَ السَّـــفاهَةِ والضَّـــلالِ

وهجا نفسه قائلًا[4]

أَبَــتْ شَــفَتايَ اليَــومَ إِلَّا تَكَلُّمًــا ... بِشَــرٍّ فَمــا أَدري لِمَــنْ أنــا قائِلُــهْ
أَرَى لِــيَ وَجهًــا شَــوَّهَ اللهُ خَلقَــهُ ... فَقُــبِّحَ مِــن وَجــهٍ وَقُــبِّحَ حامِلُــهْ

---

[1] انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (ص١٩٨- ١٩٩).
[2] انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣١١).
[3] انظر: المصدر السابق (١/ ٣١٢).
[4] انظر: المصدر السابق.

نماذج من قصائده:

- قال في مطلع القصيدة التي مدح بها بني أنف الناقة؛ وهي من أشهر شعره، وقد ذكرنا أثرها في حديثنا عن الشعر الجاهلي، وقد جاء في مطلعها[1]:

طافَـتْ أُمامَـةُ بِالرُّكبـانِ آونَـةً ... يـا حُسـنَهُ مِـن قَـوامٍ مـا ومُنتَقَبـا
إذْ تَسْـتَبِيكَ بِمَصـقُولٍ عوارضُـهُ ... حَمْـشِ اللثـاثِ تـرَى فـي غَرْبِـهِ شَـنَبا
قَدْ أَخلَفَتْ عَهْدَها مِن بَعدِ جِدَّتِـهِ ... وكَـذَّبَت حُـبَّ مَلهـوفٍ ومـا كَـذَبا
وبَلـدَةٍ جُبْتُهـا وَحـدِي بِيَعملَـةٍ ... إذا السَّـرابُ علَـى صَـحرائها اضـطَرَبا
بِحَيثُ يَنسَى زِمامَ العَنسِ راكِبُها ... ويُصـبِحُ المَـرءُ فيهـا ناعِسًـا وَصِـبا

- وجاء منها في مدحهم:

قـومٌ يَبِيـتُ قريـرَ العَـينِ جـارُهُمُ ... إذَا لـوَى بِقُـوَى أطنـابِهِم طُنُبَـا
قومٌ هُمُ الأنفُ، والأذنابُ غَيرُهُمُ ... ومَـنْ يُسَـوِّي بـأنفِ النَّاقـةِ الـذَّنَبَا
قـومٌ إذا عقَـدوا عقـدًا لجـارِهِمُ ... شـدُّوا العِنـاجَ وشـدُّوا فَوقَـهُ الكربـا
أبلِـغْ سـراةَ بنـي سـعدٍ مُغَلغلـةً ... جَهْـدَ الرِّسـالةِ لا ألتَّـا ولا كـذبا

- وقال يصف ليلة في الصحراء[3]:

لِمَـنِ الـدِّيارُ كـأَنَّهُنَّ سُـطورُ ... بِلِـوَى زَرُودَ سَـفَى عَلَيهـا المُـورُ
نُـؤيٌ وأَطلَـسُ كَالحَمامَـةِ ماثِـلٌ ... ومُرَفَّـعٌ شُـرُفاتُهُ مَحجـورُ
كـالحَوضِ أَلحَقَ بِـالخَوالِفِ، نَبْتُـهُ ... سَـبِطٌ عَـلاهُ مِـنَ السِّـماكِ مَطيـرُ
لِأَسـيلَةِ الخَـدَّينِ خرعبـةٍ لَهـا ... مِسـكٌ يُعَـلُّ بِجَيبِهـا وعَبيـرُ
وإذا تَقُـومُ إلَـى الطَّـرافِ تنفَّسَـتْ ... صُـعُدًا كمـا يتـنفَّسُ المَبهُـورُ

---

[1] انظر: ديوان الحطيئة (ص٣- ٧)، بشرح: أبي الحسن السكري، اعتنى به: أحمد بن الأمين الشنجيطي، مطبعة التقدم، مصر.
٢ طنبا: حبل الخباء أو نحوه. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/ ٥٦٠).
٣ انظر: ديوان الحطيئة (ص١٣- ١٥).
٤ النؤي: جاجز يرفع حول البيت لحمايته من الماء. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٥/ ٣٠١).

يـا طُـولَ لَيلِـكَ لا يَكـادُ يُنيـرُ ... جَزَعًـا وَلَيلُـكَ بِالجَريـبِ قَصـيرُ
وصَـريمَةٍ بَعـدَ الخِـلاجِ قَطَعتُهـا ... بِـالحَزمِ إِذْ جَعَلَـتْ رَحـاهُ تَـدُورُ
بِجُلالـةٍ سـرجِ النَّجـاءِ كأنَّهـا ... بَعـدَ الكَلالـةِ بـالرِّدافِ عَسِـيرُ
ورَعَتْ جنُوبَ السِّدْرِ حولًا كاملًا ... والحَـزْنَ فَهْـيَ يـزلُّ عنهـا الكـورُ
فَبَنَـى عَلَيهـا النِّـيُّ فَهْـيَ جُلالَـةٌ ... مـا إِنْ يُحـيطُ بِجَوزِهـا التَّصـدِيرُ
وكَـأَنَّ رَحلِـي فَـوقَ أَحقَـبَ قـارِحٍ ... بِالشَّـيِّطَيْنِ نُهاقُـهُ التَّعشِـيرُ

- وقال في قصيدة مادحًا عمر بن الخطاب ومعتذرًا له[1]:

ولَيـلٍ تَخَطَّيـتُ أَهوالَـهُ ... إِلَـى عُمَـرٍ أَرتَجيـهِ ثِمـالا
طَوَيـتُ مَهالَـكَ مَخشِـيَّةً ... إِلَيـكَ لِتُكـذِبَ عنِّـي المَقـالا
بِمِثـلِ الحَنِـيِّ طواهـا الكَـلالُ ... فَيَنضـونَ آلًا وَيَركُضْـنَ آلا
إِلـى حـاكمٍ عـادِلٍ حُكمُـهُ ... فَلَمَّـا وَضَـعْنا لَدَيـهِ الرِّحـالا
صَـرَى قَـولَ مَـن كـانَ ذا مِئـرةٍ ... ومَـنْ كـانَ يَأمُـلُ فِـيَّ الضَّـلالا
أَمـينَ الخَليفَـةِ بَعـدَ الرَّسـولِ ... وأَوفَـى قُـرَيشٍ جَميعًـا حِبـالا
وأَطـوَلَهُم فـي النَّـدى بَسْـطَةً ... وأَفضَـلَهُم حـينَ عُـدُّوا فِعـالا
أَتَتنِـي لِسـانٌ فَكَـذَّبتُها ... ومـا كُنـتُ أَحـذَرُها أَنْ تُقـالا
بِـأَنَّ الوُشـاةَ بِـلا عـذْرةٍ ... أَتَـوكَ فقـالوا لَـدَيكَ المِحـالا
فَجِئتُـكَ مُعتَـذِرًا راجِيًـا ... لِعَفـوِكَ أَرهَـبُ مِنـكَ النَّكـالا
فَـلا تَسـمَعَنْ بـيَ قَـولَ الوُشـاةِ ... ولا تـؤكِلَنِّي هُـدِيتَ الرِّجـالا
فَإِنَّـكَ خَيـرٌ مِـنَ الزِّبْرَقـانِ ... أَشَـدُّ نَكـالًا وخَيـرٌ نَـوالا

---

١ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٦٥٧- ٦٦١).

٥- النابغة الجعدي

ترجمته:

هو أبو ليلى عبد الله بن قيس بن جعدة بن كعب بن ربيعة[١] من بني جعدة العامريين، شاعر جاهلي إسلامي، وُلِد نحو ٥٧٠م، في بلدة الفلج جنوبي بادية نجد، وقد نشأ في حروب وصراعات بين قومه وآخرين، ويقال: إنه لم يقل شعرًا قبل الثلاثين من عمره، فنبغ فيه فجأة فسُمِّي بالنابغة؛ وقيل: بل سُمِّي بالنابغة لأنه قال شعرًا في الجاهلية ثم كفَّ زمنًا إلى أن نبغ فيه مجدَّدًا بعد الإسلام[٢].

وقد وفد النابغة الجعدي على ملوك المناذرة وعاصر النعمان بن المنذر، وكان ممَّن أنكروا الخمر في الجاهلية، ويقال: إنه هجر الأزلام والأوثان[٣] وتزعم بعض الروايات أنه أقدم من النابغة الذبياني، بَيْدَ أن النابغة الذبياني كان أعلى منه شهرة، وقد أدرك الإسلام ووفد على النَّبيِّ ﷺ مع وفود العرب عام ٩هـ فأسلم وأنشده فأعجب به ﷺ، وظل في المدينة زمنًا، ولما بدأت الفتوحات الإسلامية انتقل شرقًا مجاهدًا في سبيل الله واستقر بالعراق وسكن الكوفة، وكان له دور في الجهاد ونشر الإسلام والدعوة في سبيل الله، ثم عاد إلى المدينة واستأذن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- في أن يعود إلى ديار قومه بالبادية، فمكث فيها زمنًا إلى أن نشبت الحرب بين عليٍّ ومعاوية، فانضم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فكان من شيعته وأنصاره، وشهد موقعة صفين وناصر فيها عليًّا بيده ولسانه ونال من معاوية وأتباعه في شعره، واصطدم مع بعض الشعراء من شيعة بني أمية، وطال به العمر حتى أدرك عصر بني أمية وناصر خصمهم عبد الله بن الزبير إبان ثورته ضد الأمويين فمدحه، وفي أواخر حياته هاجر إلى البلاد المفتوحه فتُوفِّيَ في أصبهان، وقد اختُلِف في تاريخ وفاته؛ فقيل: مات نحو عام

---

[١] انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢٨٠).

[٢] انظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، أحمد الهاشمي (٢/ ١٤٤)، أشرفت على تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين، طبعة: مؤسسة المعارف، بيروت، د.ط، د.ت.

[٣] انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص١٢٧).

٥٠هـ/٦٥٥م؛ وقيل: بل ٦٥هـ/٦٧٠م بعدما كفَّ بصره وجاوز المئة؛ وهو الأرجح إن صحَّ ما رُوِي عنه من أخبار مع عبد الله بن الزبير؛ الذي لم تشتعل ثورته إلا عام ٦٤هـ، وهناك من زعم أنه تُوفِّيَ عام ٨٠هـ/ ٦٩٩م، وهو من المعمَّرين الذين جاوزا المئة، واختُلِف في السِّنِّ التي مات عليها؛ فقيل: عاش مئة وعشرين سنة؛ وقيل: بل مئة وثمانين.

شعره:

كان النابغة الجعدي شاعرًا مجيدًا مكثرًا، يمتاز بالرِّقَّة واللِّين والانسجام، وهو شاعر مطبوع، وكان أوَّل من سبق إلى الكناية في الشعر، وأبدع في وصف الخيل، قال الأصمعي: ثلاثة يصفون الخيل فلا يقاربهم أحد: طفيل الغنوي وأبو دواد الإيادي والنابغة الجعدي[1] وضعه ابن سلَّام في الطبقة الثالثة مع لبيد بن ربيعة وأبي ذؤيب الهذلي وآخرين، وقد تنوَّعت أغراضه بين الفخر والمديح والرثاء، أما في الهجاء فقد كان مُغلَّبا و أقل حظًّا فيه؛ إذْ يقال: إنه هاجى عددًا من شعراء عصره مثل ليلى الأخيلية وأوس بن عفراء والأخطل التغلبي فغلبوه جميعًا، بل إنه غُلِب حتى أمام شعراء أقل منه قدرًا وشهرة مثل كعب بن جعيل وعقيل ابن خالد وسوار بن أوفى القشيري[2].

وشعر النابغة الجعدي فيه تفاوُتٌ شديد؛ فبعضه جيِّد وبعضه رديء كثُر فيه السقط، وهو يصوغ شعره في ديباجة حسنة، وقد كثرت في شعره المعاني والمصطلحات الإسلامية التي تدل على مدى وعمق تأثُّره بالإسلام.

نماذج من قصائده:

- قال في قصيدته الرائية التي وفد بها على رسول الله ﷺ وأنشدها أمامه؛ حيث بدأها بحكمة مستمدَّة من وازع ديني، ثم انتقل إلى الفخر وذكر بعض

---

[1] انظر: جواهر الأدب، أحمد الهاشمي (٢/ ١٤٥).

[2] انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/ ١٢٥- ١٢٦).

آثار الجاهلية، ثم ختمها بحِكَمٍ رائعة، وقد عدَّها أبو زيد القرشي في جمهرته من ضمن المشوبات، وممَّا جاء فيها[1]:

خَلِيلَـيَّ عُوجـا سـاعَةً وتَهَجَّـرا ... ولُومَا علَى ما أَحدَثَ الدَّهرُ أَوْ ذَرَا
ولا تَجزَعـا إنَّ الحَيَـاةَ ذَمِيمَـةٌ ... فخِفَّـا لِرَوْعـاتِ الحَـوَادِثِ أَوْ قِـرا
وإنْ جـاءَ أَمـرٌ لا تُطِيقـانِ دَفْعَـهُ ... فَـلا تَجزعَـا مِمَّـا قَضـى اللهُ واصـبِرا
أَلَـمْ تَرَيـا أنَّ المَلاَمَـةَ نَفعُهـا ... قَلِيـلٌ إذا مـا الشَّـيءُ وَلَّـى وأَدبَـرا
تَهِـيجُ البُكـاءَ وَالنَّدامَـةَ ثُـمَّ لا ... تُغيِّـرُ شَـيئًا غيـرَ مـا كـانَ قُـدِّرا
أَتَيـتُ رَسُـولَ اللهِ إذْ جـاءَ بالهُـدَى ... ويَتلُـو كِتابًـا كـالمجرَّةِ نَيِّـرا
خَلِيلَـيَّ قَـدْ لاقَيـتُ مـا لَـمْ تُلاَقِيـا ... وسَـيَّرتُ فـي الأَحيـاءِ مَـا لَـم تُسِـيّرا
تَـذَكَّرتُ والـذِّكرَى تَهِـيجُ لِـذي الهَـوى ... ومِـن حاجَـةِ المَحـزونِ أنْ يَتَـذَكَّرا
نَـدَامايَ عِنـدَ المُنـذِرِ بـنِ مُحَـرِّقٍ ... أَرَى اليَـومَ مِـنهُم ظَـاهِرَ الأَرضِ مُقفِرا
كُهـولًا وشُـبَّانًا كـأَنَّ وجُـوهَهُم ... دَنَـانِيُر مِمَّـا شِـيفَ فِـي أَرضِ قَيصَـرا
ومَـا زِلـتُ أسـعَى بَـينَ بـابٍ ودارِهِ ... بِنَجـرانَ حتَّـى خِفـتُ أنْ أَتَنَصَّـرا
لَـدَى مَلِـكٍ مِـن آلِ جَفنَـةَ خالُـهُ ... وجَـدَّاهُ مِـن آلِ اِمـرئِ القَـيسِ أَزهَـرا

* * *

ومَهمـا يَقُـلْ فينـا العَـدُوُّ فَـإِنَّهُم ... يَقولـونَ مَعروفًـا وآخَـرَ مُنكَـرا
فَمـا وَجـدَتُ مِـن فِرقَـةٍ عَرَبِيَّـةٍ ... كَفِـيلًا دَنـا مِنَّـا أَعَـزَّ وأَنصَـرا
وأَكثَـرَ مِنّـا ناكِحًـا لِغَرِيبَـةٍ ... أُصـيبَتْ سِـباءً أَو أَرادَتْ تَخَيُّـرا
وأَسـرَعَ مِنَّـا إنْ أَرَدْنـا انصِـرافه ... وأَكثَـرَ مِنَّـا دَارِعِـينَ وحُسَّـرا
وأَجـدَرَ أنْ لا يَترُكُـوا عَانِيًـا لَهُـم ... فَيَغبُـرَ حَـولًا فـي الحَديـدِ مُكفَّـرا
وقَـدْ آنَسَـتْ مِنَّـا قُضَـاعَةُ كَالِئًـا ... فَأَضحَوا بِبُصرَى يَعصِرونَ الصَّنَوْبرا
وكِنـدةُ كانَـتْ بِـالعَقِيقِ مُقيمَـةً ... ونَهـدٌ فَكُـلًّا قَـد طَحَرنـاهُ مَطحَـرا
كِنانَـةُ بـينَ الصَّـخرِ والبَحـرِ دارُهُـم ... فَأَحجَرَهـا أنْ لَـمْ تَجِـدْ مُتَـأَخَّرا

---

[1] انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٦١٨- ٦٣٠).

ونَحــنُ ضَــرَبْنا بِالصَّــفَا آلَ دارمٍ وحَسَّـانَ وابـنَ الجَـونِ ضَـربًا مُنَكَّـرا

* * *

بَلَغْنَـا السَّـما مَجـدًا وجُـودًا وسُـؤدَدًا وإنَّــا لَنرجُــو فَــوقَ ذَلِــكَ مَظهَــرا

وكُــلَّ مَعَــدٍّ قَــدْ أَحَلَّــتْ سُــيوفُنا جَوانِــبَ بَحــرٍ ذِي غَــوَارِبَ أَخضَــر

لَعَمــري لَقَــدْ أَنــذَرتُ أَزْدًا أُناتَهــا لِتَنظُــرَ فــي أَحلامِهــا وَتُفكِّــرا

وأَعرضَــتُ عنهــا حِقبــةً وتَرَكتُهــا لأَبلُــغَ عُــذْرًا عِنــدَ رَبِّــي فَأُعــذَرا

ومـا قُلـتُ حتَّـى نـالَ شَـتْمُ عَشيرَتي نُفَيـلَ بِـنَ عَمـرٍو وَالوَحيـدَ وجَعفَـرا

وحَــيَّ أَبــي بَكــرٍ ولا حَــيَّ مِــثلُهُم إذا بَلَــغَ الأَمــرُ العَمــاسَ المُــدمَّرا

ولا خيـرَ فِـي حِلـمٍ إذَا لَـم يكُـنْ لَـهُ بَــوَادِرُ تَحمــي صَــفْوَهُ أَن يُكَــدَّرا

ولا خَيـرَ فِـي جَهـلٍ إذَا لَـم يَكُـنْ لَـهُ حَلِــيمٌ إذَا مــا أَورَدَ الأَمــرَ أَصــدَرا

ويقال: إن رسول الله ﷺ قد أعجب بتلك القصيدة، ولمَّا سمع قوله:

بَلَغْنَـا السّـما مَجـدًا وَجـودًا وَسُـؤدَدًا وَإِنّــا لَنرجُــو فَــوقَ ذَلِــكَ مَظهَــرا

قال له: «**فأينَ المَظهَرُ يا أبا لَيلَى؟**» فأجابه: الجنة؛ فقال له: «**لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ**»، فبقي عمره لم تفقض له سن.[2]

- ومن قصائده التي يَظهر فيها تأثُّره بالإسلام وبالمعاني الإسلامية وبما ورد من مصطلحات إيمانية في القرآن الكريم، وقد نسبت إلى أمية بن ابي الصلت، ولكن الأرجح نسبتها له؛ حيث يقال: إنه أنشدها أمام الحسن بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهما- فقيل له: كنا ننشدها لرسول الله؛ فقال النابغة الجعدي: يا بن بنت رسول الله؛ إني لأول من قالها؛ وقد جاء فيها:[3]

الحَمــدُ لِلَهِ لا شَــرِيكَ لَــهُ مَــن لَــمْ يَقُلْهــا فَنَفْسَــهُ ظَلَمــا

المُولِجِ اللَّيلَ فـي النَّهـار وفِـي الـ ـــليلِ نَهــارًا يُفــرِّجُ الظُّلَمــا

الخافِضِ الرَّافِعِ السَّماءَ علَى الـ أَرضِ ولَــمْ يَــبْنِ تَحتَهــا دعَمــا

---

[1] العماس: الأمر الشديد الذي لا يُهتدى لوجهه. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٦/ ١٤٧).
[2] انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢٨٠).
[3] انظر: المصدر السابق (١/ ٢٨٤- ٢٨٥).

الخالِقِ البارِئِ المُصَوِّرِ في الـ ... أَرحامِ ماءً حتَّى يَصِيرَ دَما
مِن نُطفَةٍ قَدَّها مُقدِّرُها ... يَخلُقُ مِنها الأَبشارَ وَالنَسَما
ثُمَّ عِظامًا أَقامَها عَصَبٌ ... ثُمَّتَ لَحمًا كَساهُ فَالتأَما
ثُمَّ كَسا الرِّيشَ والعَقائِقَ أَبـ ... ـشارًا وَجِلدًا تَخالُهُ أَدَما
والصَّوتَ واللَّونَ والمَعايِشَ والـ ... شَتّى وفَرَّقَ الكَلِما
ثُمَّتَ لا بُدَّ أَنْ سَيَجمَعُكُم ... واللهِ جَهرًا شَهادَةً قَسَما
فَائتَمِرُوا الآنَ ما بَدا لَكُمُ ... وَاعتَصِمُوا إِنْ وَجَدتُمُ عِصَما
فِي هذِهِ الأَرضِ والسَّماءِ ولا ... عِصمَةَ مِنهُ إِلَّا لِمَنْ رَحِما

- ومما قال في وصف الفرس[1]:

كأَنَّ مقَطَّ شراسيفِهِ ... إِلى طَرَفِ القُنْبِ فالمَنْقَبِ
لطمْنَ بتُرسٍ شديدِ الصِّقا ... لِ مِن خَشَبِ الجَوزِ لَمْ يُثْقَبِ

- وحينما خرج غازيًا قال لامرأته[2]:

باتَتْ تُذَكِّرُنِي بِاللهِ قاعِدَةً ... والدَّمعُ يَنهَلُّ مِن شَأنَيهِما سَبَلا
يا بنَةَ عَمِّي كِتابُ اللهِ أَخرَجَني ... كرهًا وهَلْ أَمنَعَنَّ اللهَ ما فَعَلا
فإِنْ رَجَعتُ فَرَبُّ النَّاسِ يُرجِعُني ... وإِنْ لَحِقتُ بِرَبِّي فَابتَغي بَدَلا
ما كُنتُ أَعرَجَ أو أعمى فَيَعذِرَني ... أو ضارِعًا مِن ضنًى لَمْ يَستَطِع حِوَلا

- وقال يرثي رجلًا[3]:

فتًى كمُلَتْ خَيراتُهُ غيرَ أَنَّهُ ... جَوادٌ فما يُبقِي مِنَ المالِ باقيا
فتًى تَمَّ فيه ما يَسُرُّ صَدِيقَهُ ... علَى أَنَّ فيه ما يَسُوءُ الأعاديا
يُدِرُّ العُروقَ بالسِّنانِ ويَشتَرِي ... مِنَ المجدِ ما يَبقَى وإِنْ كانَ غاليا

---

١ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٨٢).
٢ الشراسيف: الأضلاع. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٨/ ٢٢٦)؛ المنقب: السُّرَّة. انظر: لسان العرب (١/ ٧٦٦).
٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢٨٣- ٢٨٤).
٣ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٨٤).

طوائف من الشعراء

أولًا: شعراء مكة والمدينة

(كعب بن مالك- عبد الله بن رواحة- عبد الله بن الزبعري- أبو سفيان بن الحارث)

لم يكن الشعر نشطًا في مكة مثلما نشط في أنحاء البادية؛ وذلك بسبب قلة الحروب والمنازعات، ولكنه على الجانب الآخر نشط في المدينة المنورة؛ بسبب ما كان بين الخزرج والأوس من حروب أفرزت عددًا من الشعراء المبدعين، ومنهم من أدرك الإسلام وأسلم؛ مثل حسان بن ثابت وعبد الله بن وراحة وكعب بن مالك، وقد ورد ذكر هؤلاء بين أعلام الشعراء المخضرمين، أما مكة فقد كانت مستقرَّةً هادئه خالية من تلك الحروب والمنازعات، فقلَّ الشعر فيها، ومع هذا فقد ظهر عدد من الشعراء المبدعين؛ مثل عبد الله بن الزبعري وأبي سفيان بن الحارث وضرار بن الخطاب الفهري ومسافر بن أبي عمر وأبي عزَّة الجمحي وعبد الله ابن حذافة السهمي وهبيرة بن أبي وهب، ورُوِيَ كذلك شعرٌ عن أبي طالب عم النَّبيِّ ﷺ وأخيه الزبير بن عبد المطلب وأبي سفيان بن حرب[1] **وأشهر من أدرك الإسلام من هؤلاء الشعراء المذكورين:**

١- كعب بن مالك:

هو كعب بن مالك بن عمرو بن القين، من بني سلمة من الخزرج، وُلِد في المدينة المنورة نحو سنة ٢٥ ق.هـ، وكان ممن أسرع إلى الإسلام وشهد بيعة العقبة[2]

---

[1] انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/ ٢٤٤- ٢٤٥).

[2] انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص٢٥١).

ولزم رسول الله ﷺ في غزواته فيما عدا بدر، وقد أبلى بلاء عظيمًا يوم أحد وأصيب بعدَّة جراحات، وهو أوَّل من بشَّر حينها برسول الله حيًّا بعدما شاع مقتله، واشترك معه في سائر غزواته، وروَى عنه عدة أحاديث، وكان من الشعراء الذين يدافعون عن رسول الله ﷺ بشعره مع حسان بن ثابت وعبد الله ابن رواحة.

وكان كعب واحدًا من الثلاثة الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك بلا عذر؛ هو ومالك ابن الربيع وهلال بن أمية، بالإضافة إلى نفرٍ من المنافقين ممَّن خافوا على ثمار بساتينهم أو هابوا الحَرَّ وبُعد الطريق، فندم كعب على تفريطه ندمًا شديدًا، ولمَّا رجع رسول الله ﷺ عاقبه وصاحبيه بالخصام واعتزال الناس خمسين يومًا، أمر في آخرها باعتزال نسائهم أيضًا، حتى ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت، ثم نزل القرآن بقبول توبتهم؛ فقال الله تعالى: **(لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ)**[1]!

وقد عُمِّر كعب طويلًا حتى كف بصره في أواخر حياته، وتوفِّيَ عام ٥٠هـ في خلافة معاوية.

وهو شاعر مجيد مكثر، يمتاز شعره بالسلاسة والعذوبة والانسيابية والاندفاق وصدق العاطفة، ويدور شعره حول مديح النَّبيّ ﷺ ووصف غزواته وحروبه، ورثاء من استشهد، والفخر بمناصرة رسول الله ﷺ، وهجاء خصومه، وقد رُوِي عنه شعر كثير في السِّير والمغازي، ممَّا لا نطمئن إليه بسبب قضية الانتحال وعدم الدقة، ومن نماذج شعره ما قاله عن يوم أُحد يصف انتصار المسلمين أول الأمر قبل أن تدور الدائرة عليهم آخر المعركة[2]:

---

[1] سورة التوبة: ١١٧- ١١٨.

٢ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/ ٢٢٠).

فَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسْطَهُ أَحَابِيشُ مِنْهُم حاسِرٌ ومُقَنَّعُ
ثَلَاثَةُ آلَافٍ ونَحْنُ نَصِيَّةٌ ثَلَاثُ مِئِين إنْ كَثُرْنَا وأَرْبَعُ
فراحُوا سِرَاعًا مُوجِفِينَ كَأَنَّهُم جَهَامٌ هَرَاقَتْ مَاءَهُ الرِّيحُ مُقْلَعُ
ورُحْنَا وأُخْرَانَا بِطَاءٌ كَأَنَّنَا أُسُودٌ علَى لَحْمٍ بِبِيشَةَ ظُلَّعُ

ومما رُوِيَ عنه ما قاله في أيام الخندق[1]:

مَنْ سَرَّه ضَرْبٌ يُرَعبِلُ بعضُهُ بعضًا كمعمعةِ الأَبَاءِ المُحْرَقِ
فلْيَأتِ مَأْسَدَةً تُسَنُّ سُيُوفُها بينَ المذادِ وبين جِزعِ الخَنْدقِ

وقال يذكر بعض الوقائع ويصف الجهاد مع النَّبيّ ﷺ[2]:

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كُلَّ وترٍ وخيبَرَ ثُمَّ أَغمَدْنَا السُّيُوفا
نُخَيّرُهَا ولَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قَواطِعُهُنَّ دوسًا أو ثَقيفَا
فَلَستُ بِحَاضِنٍ إنْ لَمْ تَرُوهَا بِسَاحَةِ دارِكُمْ منًّا أُلُوفَا
فنَنْتَزِعُ العُروشَ بِبَطْنِ وجٍّ ونَتْرُكُ دارَكُم منًّا خلُوفَا

٢- عبد الله بن رواحة:

هو أبو محمد عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، كان سيّدًا في قومه، وهو صحابي جليل، كان ممَّن أسرع إلى الإسلام واتِّباع الرسول ﷺ، وهو من السبعين الذين شهدوا بيعة العقبة قبل الهجرة، وأحد النقباء الاثنَيْ عشر، وهو بدريٌّ أيضًا، وقد عمل على نشر الإسلام بالمدينة، وكان عظيم القدر عند رسول الله ﷺ، فاتخذه كاتبًا له، وكان شاعرًا يردُّ على المشركين ويدافع عن النَّبيّ الكريم ﷺ.

---

١ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٢٠- ٢٢١).
٢ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٢١).

شهد كبرى الوقائع مع النَّبيّ ﷺ في بدر وأحد والخندق والحديبية، وشهد عمرة القضاء، وكان أحد الثلاثة الذين خرجوا للمبارزة الفردية يوم بدر قبل أن يُردَّ ويَطلب مشركو مكة أكْفاءهم من قريش، وكان أهلًا للإمارة، فاستخلفه النَّبيُّ ﷺ على المدينة في غزوة بدر الصغرى، وفي غزوة مؤتة جعله النَّبيُّ ﷺ أحد أمراء الجيش الثلاثة بعد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، وكان موجَّهًا لقتال الغساسنة وحلفائهم من الروم، وأثناء المعركة استشهد زيد ثم جعفر، فحمل هو الرَّاية حتى استشهد ولحق بصاحبيه، واستلم القيادة بعده خالد بن الوليد، فانسحب بالجيش انسحابًا منظَّمًا وعاد به إلى المدينة.

وابن رواحة شاعر مكثر مجيد، وهو أحد الشعراء والرُجَّاز المقدَّمين، وشعره قوي متين الأسلوب، امتاز بدقة اللفظ وحسن الإيقاع، كان يغلب عليه الفخر في الجاهلية؛ إذْ كان يناقض قيس بن الخطيم وشيعته من الأوس، ومن نماذج ذلك قصيدة عدَّها أبو زيد القرشي من ضمن المذهبات، ومما ورد فيها[1]:

تَـــذَّكَرَ بَعـــدَما شَـــطَّت نَجُـــودا ... وكانَـــتْ تَيَّمَـــتْ قَلبـــي وَليـــدا

كَـذِي داءٍ يُـرَى فـي النَّـاسِ يَمشـي ... ويَكـــتُمُ داءَهُ زَمَنًـــا عَميـــدا

تَصَـــيَّدُ عَـــورَةَ الفِتيـــانِ حتَّـــى ... تَصـــيدَهُمُ وتَشـــنَا أنْ تَصـــيدا

فَقَـد صـادَتْ فُـؤادَكَ يَـومَ أَبـدَتْ ... أَســـيلًا خَـــدَّها صَـــلتًا وجِيـــدا

تُـــزَيّنُ مَعقِـــدَ اللَّبَّـــاتِ مِنهـــا ... شُـــنوفٌ فـــي القَلائِـــدِ والفَريـــدا

فَـإِن تَضـنُنْ عَلَيـكَ بِمـا لَـدَيها ... وتَقلِـــبْ وَصْـــلَ نائِلِهـــا جَديـــدا

لَعَمـــرُكَ مـــا يُـــوافِقُني خَليـــلٌ ... إذا مـــا كـــانَ ذا خُلـــفٍ كَنُـــودا

وقَـدْ عَلِـمَ القَبائِـلُ غَيـرَ فَخـرٍ ... إذا لَـــم تُلـــفِ ماثِلَـــةً رَكُـــودا

بِأَنَّـــا تَخـــرُجُ الشَـــتَواتُ مِنَّـــا ... إذا مـــا اســـتَحكَمَتْ حَسَـــبًا وَجُـــودا

قُـــدُورٌ تَغـــرَقُ الأَوصـــالُ فيهـــا ... خَضـــيبٌ لَونُهـــا بِيضًـــا وسُـــودا

مَتـــى مـــا تَـــأتِ يَثـــرِبَ أَوْ تَزُرْهـــا ... تَجِـــدْنا نَحـــنُ أَكرَمَهـــا وُجُـــودا

---

[1] انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٤٩٨- ٥٠١).

وأَغلَظَهـــا علَـــى الأَعـــداءِ رُكنًـــا وَأَلينَهـــا لِبـــاغي الخَيـــرِ عُـــودا
وأخطَبَهـــا إذا اجتَمعـــوا لِأَمـــرٍ وأَقصَـــدَها وأوفاهـــا عُهُـــودا
إذا نُـــدعَى لِثَـــأرٍ أو لِجـــارٍ فَـــنَحنُ الأَكثَـــرونَ بِهـــا عَدِيـــدا

إلا أنه لما جاء الإسلام صار شعره أرقَّ وأسلس وأعذَبَ، وغلبت عليه النزعة الدينية والعاطفة الصادقة، وانقطع يمدح النَّبيَّ ﷺ ويصف غزواته ومعاركه، ويهجو المشركين، ويفخر بنصرة الإسلام، وصار لا يخلو من المصطلحات والقيم الإسلامية النبيلة، ومما قاله رائية بديعة جاء فيها[1]:

نُجالِدُ النَّاسَ عَنْ عُرْضٍ فنأسِرُهُم فينـــا النَّبـــيُّ وفِينـــا تَنـــزِلُ السُّـــوَرُ
وقَـــدْ علمـــتُم بأنَّـــا لـــيس غالبَنـــا حـــيٌّ مـــنَ النَّـــاسِ إنْ عـــزُّوا وإنْ كثُـــروا
يـــا هاشـــمَ الخيـــرِ إنَّ اللهَ فضَّـــلَكم علَـــى البريَّـــةِ فضـــلًا مـــا لَـــهُ غِيَـــرُ
إنِّـــي تفرَّســـتُ فيـــكَ الخيـــرَ أعرفُـــهُ فراســـةً خـــالَفَتْهم فـــي الّـــذي نَظَـــروا
ولـــو ســـألتَ أوِ استنصـــرتَ بعضَـــهُمُ فـــي جُـــلِّ أمـــرِكَ مـــا آوَوْا ولا نَصَـــروا
فثبَّـــتَ اللهُ مـــا آتـــاكَ مِـــن حَسَـــنٍ تثْبِيـــتَ مُوسَـــى ونَصـــرًا كالـــذي نُصِـــروا

وهي أبيات تكشف بالفعل أن الفخر صار معياره الدِّين ومدى الذَّود عنه، لا الفخر بالأنساب والقبائل كما كان شائعًا في الجاهلية.

ولابن رواحة رجز بديع، ومن نماذج ما قاله يوم مؤتة يحرض نفسه على الثبات والصبر، وهو اليوم الذي اشتشهد فيه -رضي الله عنه- إذْ يقول[2]:

أقســـمتُ يـــا نفـــسُ لتَنْزِلنَّـــهْ
طائعـــــــةً أو ولتُكْرَهِنَّـــــــهْ
وطالَمـــا قَـــدْ كنـــتِ مطمئنَّـــهْ
مـــا لـــي أراكِ تَكـــرَهِينَ الجنَّـــهْ

---

[1] انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/ ٢٢٥- ٢٢٦).
[2] انظر: المصدر السابق (١/ ٢٢٦).

٣- عبد الله بن الزبعري:

هو أبو أسعد عبد الله بن الزبعري بن قيس السهمي القرشي، من نسل كعب ابن لؤيٍّ، وأمه عاتكة بنت عبد الله الجمحية، وكان ممن عادى رسول الله ﷺ؛ حيث كان شديدًا على المسلمين ومُمعنًا في هجائهم وهجاء رسول الله ﷺ، وظل على موقفه المعادي للإسلام حتى فُتحت مكة سنة ٨هـ، فهرب إلى نجران، إلا أنه بعد مدَّة عاد إلى الحجاز فأسلم واعتذر للنَّبيِّ ﷺ فعفا عنه.

ويُعتبر عبد الله بن الزبعري من ألمع شعراء مكة وأبرعهم، وتنوَّعت أغراض شعره بين المديح والهجاء والحكمة[١] غير أنه لم يَصِلْنا من شعره غير نزرٍ يسيرٍ؛ بسبب إفراطه في معاداة رسول الله ﷺ، وأمر النَّبيِّ ﷺ بترك رواية شعره قبل إسلامه ومن على شاكلته من شعراء المشركين، ويتضح لنا من خلال ما انتهى إلينا من قليل شعره أنه كان عذبًا سلسًا قويَّ التراكيب حسن اللفظ.

ويقال: إنه هجا قُصَيَّ بن كلاب سيد بين هاشم؛ لأن سادة قريش منعوه المشورة في دار الندوة، قائلًا[٢]:

أَلْهَى قُصَيًّا عنِ المجدِ الأساطيرُ ... ورِشْوةٌ مِثْل ما تُرشَى السَّفاسِيرُ

وأَكْلُها اللَّحمَ بحتًا لا خَلِيطَ لَهُ ... وقُولُها رحَلَتْ عِيرٌ أتَتْ عِيرُ

فأنكر الناس ذلك، وكانت قريش تنكر أن يهجو بعضها بعضًا، فنفروا إلى بني سهم وطلبوا أن يُسلِموهم إيَّاه، فكثر الجدل، ثم اصطلحوا بعدما كادت عشيرته تخلِّيه، فقيل له: أسلَمَك قومك ولم يمنعوك ولو شاؤوا منعوك؛ فقال ابن الزبعري بعد ذلك[٣]:

لعمرُك ما جاءتْ بنَكْرٍ عشيرتي ... وإنْ صالَحَتْ إخوانَها لا ألُومُها

يَوَدُّ جُناةُ الغَيِّ أنَّ سيوفنا ... بأيمانِنا مُسْتلَّةٌ لا نَشِيمُها

---

[١] انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص٢٠٧- ٢٠٨).
[٢] انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/ ٢٣٥- ٢٣٦).
[٣] انظر: المصدر السابق (١/ ٢٣٧).

وقال مادحًا بني قصي بعد ذلك[1]:

ألا أبلِغا عنِّي قُصَيًّا رسالةً فأنتُم سَنامُ المجدِ مِن آلِ غالبِ
وأنتُمْ ثُمالُ النَّاسِ في كلِّ شِتوةٍ إذا عضَّهم دهرٌ شديدُ المناكِبِ

ومن شعره يذكر يوم أحد ويفخر بانتصار قريش على المسلمين، وهي أبيات لا تخلو من الحكمة؛ إذْ يقول[2]:

كلُّ بؤسٍ ونعيمٍ زائلُ وبناتُ الدَّهرِ يَلعبْنَ بِكُلْ
والعطيَّاتُ خِساسٌ بينَنا وسَواءٌ قبرُ مُثْرٍ ومُقِلْ
ليتَ أشياخِي ببدرٍ شَهِدوا جزَعَ الخزرجِ مِن وَقْعِ الأسَلْ
حينَ ألْقَتْ بِقُباءٍ بَرْكَها واستحرَّ القتلُ في عبدِ الأشَلْ
فقَبِلْنا النِّصفَ مِن ساداتِهم وعَدَلْنا مَيْلَ بَدرٍ فاعتَدَلْ

ومن أروع أشعاره ما قال للنَّبيِّ ﷺ معتذرًا بعد إسلامه، وهي أبيات تمتاز بالانسيابية وصدق عاطفة الاعتذار[3]:

مَنَعَ الرُّقادَ بلابلٌ وهُمُومُ واللَّيلُ معتلِجُ الرُّواقِ بَهِيمُ
ممَّا أتاني أنَّ أحمدَ لامَني فيه فبِتُّ كأنَّني محمومُ
يا خيرَ مَن حَمَلَتْ علَى أوصالِها عيرانةٌ سَرحُ اليَدينِ رسُومُ
إنِّي لمعتذرٌ إليكَ مِنَ الذي أسديتُ إذْ أنا في الضَّلالِ أَهِيمُ
أيَّامَ تأمرني بأغوَى خُطَّةٍ سهمٌ وتأمُرُني بها مخزومُ
فاغفِرْ فِدًى لكَ والدَيَّ كلاهما ذَنْبي فإنَّكَ راحمٌ مرحومُ
وعليكَ مِن أثَرِ المليكِ علامةٌ نورٌ أضاءَ وخاتَمٌ مختومُ
مَضَتِ العداوةُ فانقضَتْ أسبابُها وَدَعَتْ أواصرُ بَيْننا وحُلُومُ

---

[1] انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص٢١٠).
[2] انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/ ٢٣٧- ٢٣٩).
[3] انظر: المصدر السابق (١/ ٢٤٢- ٢٤٣).

وهي نماذج شعرية تدل على أنَّ ابن الزبعري كان شاعرًا متفوّقًا أجاد المديح والفخر والاعتذار، وأن شعره امتاز بالانسيابية والعذوبة والسلاسة، وهو غزير بالعاطفة والمعاني، ويُقال: إنه ذكر حادثة الفيل وحرمة مكة وحرب الفِجار، ولكن أخلَّ بمنزلته تأخُّره في إسلامه، وإمعانه في هجاء النَّبيِّ ﷺ، فذهب أغلب شعره، ولولا ذلك لصار أحد أبرز الشعراء المخضرمين، ويبدو أنه توفِّيَ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٤- أبو سفيان بن الحارث:

هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم النَّبيِّ ﷺ وأخوه في الرضاعة؛ حيث رضعا من أمِّهما حليمة السعدية، ولمَّا جهر النَّبيُّ ﷺ عارضه أبو سفيان بن الحارث أشد المعارضة، وكان الأَوْلى تصديقه؛ وهو ابن عمِّه وأخوه في الرضاعة؛ ولكن أخذته العزة بالإثم وعارض رسول الله ﷺ وهجاه واشترك ضده في الوقائع التي كانت بين المسلمين وقريش، وتأخَّر إسلامه حتى حان موعد فتح مكة عام ٨هـ، فقرَّر أبو سفيان أن يسلم، وخرج ولقِيَه بالأبواء مسلمًا تائبًا، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وأعرض عنه صحابته الكرام مدَّةً من الزمن، فظل أبو سفيان يتوسَّل إلى النَّبيِّ كي يرضى عنه، حتى عفا عنه رسول الله ﷺ، فلزمه منذ لك الحين، واشترك معه في غزوة حنين، فلمَّا حملت هوازن على المسلمين وأزمع بعض المسلمين على الفرار؛ كان أبو سفيان بن الحارث من القِلَّة الذين ثبتوا مع النَّبيِّ ﷺ وأبي بكر وعمر وعليٍّ والعباس، ودافع عن النَّبيِّ ﷺ، وقاتل في هذا اليوم قتالًا عظيمًا حتى انتصر المسلمون، ورضي عنه رسول الله ﷺ، وقد صدقت توبته وحسُن إسلامه ولزم رسول الله ﷺ، حتى إنه لمَّا حضرته الوفاة قال موصيًا: لا تبكوا عليَّ؛ فإني لم أتنطف بخطيئة منذ أسلمت[1] وقد توفِّيَ في خلافة عمر بن الخطاب ودُفِن بالبقيع[1].

---

١ انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١/ ٢٠٢- ٢٠٥)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، طبعة: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

ومما رُوِيَ عنه قوله يصف عيرًا لقريش بعد بدر، أصابها المسلمون وغنموها، وكانوا قد تنكبُّوا عن طريق الشام وأخذوا طريق العراق من أجل المواربة فلم ينفعهم ذلك، فقال أبو سفيان بن الحارث:[1]

دعُوا فلَجاتِ الشَّامِ قَدْ حالَ دُونَها جِـــلادٌ كـــأفواه المَخـــاضِ الأوارِكِ
بأيـدِي رجـالٍ هـاجَرُوا نحـوَ ربِّهِـم وأنصـــارِهِ حقًّـــا وأيـــدي الملائِـــكِ
إذا سَـلَكَتْ حـوران مِـن أرضِ عـالجٍ فقُـــولا لهـــا إنَّ الطَّريـــقَ هنالِـــكِ

وقال يذكر يوم أحد يخاطب المسلمين ويفخر بانتصار قريش:[2]

شَـقِيتُمْ بهـا وغَيـرُكُم أهـلُ ذِكرِهـا فـوارسُ مِـن أبنـاءِ فِهـرِ بـنِ مالـكِ
حسـبتُم جِـلادَ القـومِ حـولَ بيـوتِكُم كأخـذِكُمُ فِـي العِيـرِ أرطـالَ آنُـكِ

وله كذلك اعتذاريات للنَّبيّ ﷺ، ومما قال اعتذارًا وندمًا على ما فرَّط بحقّ النَّبيّ ﷺ:[3]

لَعَمْـرُكَ إنِّـي يَـوْمَ أَحْمِـلُ رَايَـةً لِتَغْلِـبُ خَيْـلُ الـلَّاتِ خَيْـلَ مُحَمَّـدِ
أنـا الْمُـدْلِجُ الْحَيْـرَانُ أَظْلَـمَ لَيْلُـهُ بعيـدًا أُرجِّـي حِـينَ أُهْـدَى وأَهْتَـدِي
هـداني هـادٍ غيـرُ نفسـي وقـادني إلـــى الله طـــردَّت كـــالَّ مطَـــرَّدِ

---

[1] انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٤/ ٣٢٨- ٣٢٩)، تحقيق: علي شيري، طبعة: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
[2] انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/ ٢٤٨).
[3] انظر: المصدر السابق (١/ ٢٤٩).
[4] انظر: المصدر السابق (١/ ٢٤٧).

ثانيًا: شعراء الحماسة والفتوحات

(عمرو بن معدي كرب- عمرو بن شأس- ربيعة بن مقروم الضبي- أبو محجن الثقفي)

ولشعر الحماسة نصيب وافر في الشعر الإسلامي، وهو امتداد لشعر الحماسة الجاهلي، ولكن أثَّر فيه الإسلام فصار متعلِّقًا بالدِّين وما يرافقه من أحداث الجهاد، وقد صوَّر شعر الحماسة في عصر صدر الإسلام جانبًا من الفتوحات الإسلامية، فأورد ذكر المعارك ووصف ما فيها من أحداث وقتال، وكان الشعراء الفرسان قد حملوا لواء شعر الحماسة في الجاهلية، فكان من الطبيعي أن يلجأ من أدرك الإسلام منهم إلى شعر الحماسة كذلك لوصف ما شاهدوه في الحروب والفتوحات الإسلامية، والفخر بما قدَّموا فيها من بطولات وشجاعة، ويغلب على شعر هؤلاء طابع الفخر والحماسة والقوة، **و أبرز شعراء الحماسة والفتوحات في عصر صدر الإسلام:**

١- عمرو بن معديكرب:

هو عمرو بن عبد الله بن عمرو الزُّبيدي، من مذحج إحدى قبائل كهلان من قحطان، يكنى بأبي ثور، وهو خال الشاعر دريد بن الصمة ابن أخته ريحانة بنت معدي كرب، وابن خالة الزبرقان بن بدر، وهو من فرسان العرب المعدودين ومن أشدِّهم إقدامًا وبأسًا في الجاهلية والإسلام، وكان كثير الغارات والحروب في الجاهلية حتى ضُرِب به المثل في الشجاعة والقوة، وقد وفد على النَّبيِّ ﷺ مع قومه عام٩هـ/٦٣١م، وأسلم ولكن فيما يبدو لم يستقر الإسلام في قلبه؛ فارتدَّ مع مرتدة العرب عقب وفاة النَّبي ﷺ، مع الأسود العنسي، إلا أنه أُسِرَ وعفا عنه أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وقد اشترك في الفتوحات الإسلامية وشهد

موقعة اليرموك سنة ١٣هـ، وذهبت فيها إحدى عينيه، ثم اشترك في موقعة القادسية عام ١٥هـ، ضد الفرس وأبلَى فيها بلاء عظيمًا، وظلَّ مجاهدًا حتى استشهد في موقعة نهاوند عام ٢١هـ/٦٤٣م، مع طليحة بن خويلد، وقائدهم النعمان بن مقرن؛ ودُفِن هناك، وله أخبار كثيرة في الجاهلية وفي الإسلام، وممَّا يُروَى من شعره الحماسي[١]:

كـــم مِـــن أخٍ لـــي صـــالحٍ ... بوَّأتَـــــهُ بِيَـــــدَيَّ لَحْـــــدا
مـــا إنْ جزعـــتُ ولا هلعـــ ... ـــتُ ولا يَـــرُدُّ بُكـــايَ زَنْـــدا
ألبســـــــتُهُ أثوابَـــــــهُ ... وخُلِقـــتُ يَـــومَ خُلِقـــتُ جَلْـــدا
أُغنِـــي غَنـــاءَ الذَّاهبِيـــ ... ـــينَ أَعُـــدُّ للأعـــداءِ عَـــدَّا
ذهـــبَ الـــذين أُحِـــبُّهم ... وبَقِيـــتُ مِثـــلَ السَّـــيفِ فَـــرْدا

وشعر عمرو بن معدي كرب يدور أغلبه في فلك الحماسة والفروسية وما تعلَّق بذلك مِن فخر وهجاء ووصفٍ للمعارك، بالإضافة إلى بعض الحكمة والغزل، في سياق يغلب عليه الخشونة والطابع الجاهلي، وهو يضج قوة وفروسية، وفي إطار ذلك يقول مفتخرًا بنفسه وقومه ويلوم الجرم لفرارهم من الحرب[٢]:

ولمَّـــا رأيـــتُ الخَيْـــلَ زُورًا كأنهـــا ... جـــداولُ زرْعٍ أُرسِـــلَتْ فاســـبَطرَّتِ
فجاشَـــتْ إلـــيَّ الـــنَّفسُ أوَّلَ مَـــرَّةٍ ... فـــرُدَّتْ علَـــى مكروهِهـــا فاســـتقرَّتِ
عـــلامَ تَقُـــولُ الـــرُّمحُ يُثقِـــلُ عـــاتِقي ... إذا أنـــا لَـــمْ أَطْعُـــنْ إذا الخيـــلُ كـــرَّتِ
لحَـــى اللهُ جَرْمًـــا كلَّمـــا ذَرَّ شـــارِقٌ ... وجـــوهُ كـــلابٍ هَارَشَـــتْ فازبـــأرَّتِ
فلَـــمْ تُغْـــنِ جَـــرْمٌ نَهـــدَها إذْ تَلاقَتَـــا ... ولكـــنَّ جَرمًـــا فـــي اللِّقـــاءِ ابـــذَعَرَّتِ
ظَلَلـــتُ كـــأنِّي للرِّمـــاحِ دَرِيئـــةٌ ... أقاتِـــلُ عـــن أبنـــاءِ جَـــرمٍ وفَـــرَّتِ
فلَـــوْ أنَّ قـــومي أنطَقَتْنـــي رِمـــاحُهُم ... نطقْـــتُ ولكـــنَّ الرِّمـــاحَ أجَـــرَّتِ

---

١ انظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ص١٣٣- ١٣٥)، تحقيق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٢ انظر: المصدر السابق (ص١١٧- ١٢١).

وفي نفس هذا الإطار الحماسي يقول[1]:

ولقَـــدْ أجْمَـــعَ رِجْلَـــيَّ بِهَـــا ... حَـــذَرَ المـــوتِ وإنِّـــي لَفَـــرورُ
ولقَـــدْ أعطِفُهـــا كارهـــةً ... حِـينَ للـنَّفسِ مِـنَ المـوتِ هَرِيـرُ
كـــلُّ مـــا ذلِـــكَ مِنِّـــي خُلُـــقٌ ... وبكُـــلٍّ أنـــا فـــي الـــرَّوعِ جَـــدِيرُ
وابـــنُ صُـــبْحٍ ســـادِرًا يُوعِـــدُني ... مـا لَـهُ فـي النَّـاسِ مـا عِشتُ مُجِيـرُ

وله في الحكمة[2]:

أمِـــنْ رَيحانـــةَ الـــدَّاعي السَّـــميعُ ... يُـــؤَرِّقُني وأصـــحابي هُجُـــوعُ
يُنـــادي مِـــن بـــراقشَ أو مَعِـــينٍ ... فأَســـمَعَ واتـــلأبَّ بِنـــا ملِيـــعُ
* * *
أشـــابَ الـــرَّأسَ أيَّـــامٌ طِـــوالُ ... وهَـــمٌّ مـــا تَبلغُّـــهُ الضُّـــلُوعُ
وسَـــوْقُ كتيبـــةٍ دَلَفَـــتْ لِأُخـــرَى ... كـــأنَّ زهاءَهـــا رأسٌ صَـــلِيعُ
* * *
إذا لَـــمْ تَســـتطِعْ شـــيئًا فدَعْـــهُ ... وجـــاوِزْهُ إلـــى مـــا تَســـتطيعُ
وصِـــلْهُ بالزِّمـــاعِ فكُـــلُّ أمـــرٍ ... سَـــمَا لـــكَ أو سَـــمَوتَ بـــهِ وُلُـــوعُ

وقال يمزج الفخر بمكارم الأخلاق[3]:

وآوِي إلَـــى فَـــرعِ جُرثُومـــةٍ ... وعِـــزٍّ يَفُـــوتُ يَـــدَ النَّـــاهِشِ
تمتَّعـــتُ ذاكَ وكنـــتُ امـــرءًا ... أصـــدُّ عَـــنِ الخُلُـــقِ الفـــاحِشِ

وقال يصف الجمال[4]:

---

[1] انظر: المصدر السابق (ص١٣٥- ١٣٦).
[2] انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص١٧٢- ١٧٦)، تحقيق: أحمد محمد شاكر- عبد السلام محمد هارون، طبعة: دار المعارف، مصر، ط٧، ١٩٩٣م.
[3] انظر: المصدر السابق (ص١٧٨).
[4] انظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ص١٢٩- ١٣٠).

لـــيسَ الجَمـــالُ بمِئـــزرٍ فـــاعلَمْ وإنْ رُدِّيـــتَ بُـــرْدا
إنَّ الجمـــــالَ مَعـــــادِنٌ ومَناقِـــبٌ أَورَثْـــنَ مَجْـــدا

٢- عمرو بن شأس:

هو عمرو بن شأس بن عبيد بن ثعلبة الأسدي، كان من أبرز شعراء الجاهلية، وقد أدرك الإسلام وأسلم واشترك في الفتوحات الإسلامية، وشهد في القادسية وقال فيها شعرًا، وقد وضعه ابن سلام في الطبقة العاشرة من الشعراء، وهو شاعر مكثر في الجاهلية والإسلام، وكان ذا قدرٍ وشرف ومنزلة[١] ومن شعره في الفخر[٢]

ولنـــا فَـــوارِسُ يَركَبُـــونَ لَنـــا فـــي الـــرَّوْعِ لا مِيـــلٌ ولا عُـــزُلُ

ويقال: إنه جاوره رجل من بني عامر بن صعصعة، وكانت له بنت جميلة، خطبها عمرو لنفسه، فقال أبوها: إذا رجعتُ إلى قومي فاخطبها؛ فغضب عمرو وآلى ألَّا يتزوَّجها إلا سباءً، فلمَّا رجع العامري إلى قومه؛ همَّ عمرو بغزوهم ثم تذكَّر عهد الرجل وميثاقه فاستحيى وتذمَّم، فقال:[٣]

إذا نحـــنُ أدلَجْنـــا وأنـــتِ أمامَنـــا كفَـــى لِمَطايانـــا بِرِيحِـــكِ هاويـــا
ولـــولا اتِّقـــاءُ اللهِ والعهـــدُ قَـــدْ أرَى مبيَّنـــــةً منـــــا تُثِيـــــرُ النَّواديـــــا

وله شعر في طبقات الشعراء لابن سلام، و انظر: ديوان الحماسة لأبي تمام، والشعر والشعراء لابن قتيبة، ومنتهى الطلب لابن ميمون، وشعره جزل قوي متين الأسلوب، يغلب عليه الطابع البدوي والجاهلي، وقلَّ أثر الإسلام فيه، ومن شعره:[٤]

---

[١] انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/ ١٩٦).
[٢] انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٣٥١).
[٣] انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/ ١٩٧).
[٤] انظر: المصدر السابق (١/ ٢٠١- ٢٠٢).

متَى تَعرِفِ العينانِ أطلالَ دِمنةٍ ... لِلَيْلَى بأعلَى ذي المعارِكِ تَدْمَعا
علَى النَّحرِ والسِّربالِ حتى تَبُلَّهُ ... رشاشًا ولم تَجزعْ إلَى الدَّارِ مَجْزَعا
خليليَّ عُوجَا اليومَ نَقضِي لُبانةً ... وإلَّا تَعُوجا اليومَ لا نَنْطَلِقْ معا
وإنْ تُنْظِراني اليومَ أتْبَعْكُما غدًا ... أذلَّ قيادًا مِن جَنِيبٍ وأَطْوَعا
وقَدْ زعَما أنْ قَدْ أَمَلَّ عليهما ... ثَوايَ وقَوْلِي كلَّما ارتحَلَا اربَعا
وما لبِثا في الحيِّ يومًا وليلةً ... بزائدِ ما قد فاتَ صيفًا ومَرْبَعا
فجُودا لِلَيْلَى بالكرامةِ مِنكما ... وإنْ شئتُما أنْ تَمنَعا بَعدُ فامنَعا

ويقال: إنه كان له ولدٌ مِن أمَةٍ سوداءَ يدعى عرارًا، وكانت امرأته تعيّره به وتؤذيه، فقال عمرو بن شأس محذرًا إياها[1]:

أرادتْ عرارًا بالهوانِ ومَنْ يُرِدْ ... عرارًا لَعَمْري بالهوانِ فقَدْ ظَلَمْ
فإنَّ عرارًا إنْ يَكُنْ غيرَ واضحٍ ... فإنِّي أُحِبُّ الجَونَ ذا المنكبِ العَمَمْ
فإنَّ عرارًا إنْ يَكُنْ ذا شَكِيمةٍ ... تُقاسِينَها منه فما أملَكَ الشِّيَمْ
فإنْ كنتِ منِّي أو تُرِيدِينَ صُحبَتِي ... فكُوني لَهُ كالسَّمنِ ربَّتْ له الأدَمْ
وإلَّا فسِيري مِثْلَما سارَ راكبٌ ... تَيَمَّمَ خمسًا ليس في سَيرِهِ أَمَمْ

ويقال: إنَّ عرارًا هذا امتد به العمر حتى وفد على عبد الملك بن مروان في وفد من الكوفة، فانتبه له عبد الملك لسواده، فكلَّمه وأعجب ببيانه، فلمَّا تولَّى؛ تمثَّل عبد الملك ببيت أبيه حينما قال: "وإنَّ عرارًا إنْ يَكُنْ غيرَ واضِحٍ"، فالتفت إليه عرار وضحك وقال: أنا يا أمير المؤمنين عرار؛ فقدَّمه عبد الملك وسامره حتى خرج.

وكان ابن شأس ممن يجوِّد في المقدمة الطللية ويحسن ذِكر البكاء على الأطلال؛ ومن هذا قوله[2]:

---

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٣٥٣).
٢ انظر: المصدر السابق (١/ ٣٥٥).

أَلَـــمْ تَرَبَـــعْ فتُخبِـــرَكَ الرُّسُـــومُ ... علَـــى فرتـــاجَ والطَّلَـــلُ القـــديمُ
تحمَّـــلَ أهلُهـــا وجَـــرَتْ عليهـــا ... ريـــاحُ الصَّـــيفِ والسَّـــبْطُ المُـــدِيمُ
ونُـــدمانٍ تَزيـــدُ الكـــأسَ طيبًـــا ... سَـــــقَيتُ إذا تَغَـــــوَّرتِ النُّجـــــوُم

وقال[1]:

أتعـــرِفُ منـــزلًا مِـــن آلِ ليلَـــى ... أبَـــــي بالثعلبيَّـــــةِ أنْ يَرِيمـــــا
أربَّ بهـــا مِـــنَ الأرواحِ ســـافٍ ... فغيَّـــــرنَ المنـــــازلَ والرُّسُـــــوما

وقال[2]:

تـــذكَّرَ حُـــبَّ ليلَـــى لاتَ حِينًـــا ... وأمسَـــى الشَّـــيبُ قَـــدْ قطـــعَ القَرِينـــا

٣- ربيعة بن مقروم الضَّبّي:

هو ربيعة من مقروم بن قيس بن جابر، من بني ضبَّة من إلياس بن مضر، وهو شاعر من الشعراء المعدودين في الجاهلية والإسلام، وقد اشترك في الفتوحات الإسلامية وشهد القادسية وسواها، توفِّيَ عام ١٦هـ/٦٣٧م، ويقال: إنه بلغ المئة سنة[3].

وفي شعره نبرة حماسية عالية تتضح في البيت الذي قال فيه[4]:

نَصِلُ السُّيُوفَ إذا قَصُرْنَ بِخَطْوِنا ... قُـــدُمًا ونُلْحِقُهـــا إذا لَـــمْ تَلْحَـــقُ

وهو القائل في نفس ذلك الإطار الحماسي[5]:

ربيئـــةُ جـــيشٍ أو ربيئـــةُ مِقنـــبٍ ... إذا لـم يَقُـدْ وَغْـلٌ مِـنَ القـومِ مِقْنَبـا
فلمَّـا انجلَـى عنِّـي الظَّـلامُ رفعتُهـا ... يُشَـــبِّهُها الرَّائـــي سَـــراحِينَ لُغَّبـــا

---

١ انظر: المصدر السابق (ص٣٥٤).
٢ انظر: المصدر السابق.
٣ انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص١٧٦).
٤ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣٠٨).
٥ انظر: المصدر السابق.

ويدور شعره حول الحماسة والوصف والحكمة الفخر بمكارم الأخلاق، وكان يحسن البدء بالنسيب والبكاء على الأطلال، يقول مفتخرًا بمكارم الخلق وبنفسه وبقومه[1]:

وإنْ تَســـألِيني فـــإنّي امـــرؤٌ ... أُهِـــينُ اللَّئـــيمَ وأحبُـــو الكريمـــا
وأبنِـــي المَعـــالي بالمَكرُمـــاتِ ... وأُرضِـــي الخَليـــلَ وأَرْوِي النَّـــديما
ويَحمَـــدُ بَـــذْلِي لَـــهُ مُعْتَـــفٍ ... إذا ذمَّ مَـــنْ يَعْتَفِيـــه اللَّئيمـــا
وأجـــزِي القُـــروضَ وفـــاءً بهـــا ... ببُؤسَـــى بَئِـــيسٍ ونُعْمَـــى نَعِيمـــا
وقَـــوْمِي فـــإنْ أنـــتَ كـــذَّبتَني ... بقَـــوْلِيَ فاســـألْ بِقَـــوْمِي علِيمـــا

وقال مفتخرًا[2]:

ويَسْـعَدُ بِـي الضِّـريكُ[3] إذا اعتَرانـي ... ويَكـــرَهُ جـــانِبِي البطـــلُ الشُّـــجاعُ
ويَـــأبَى الـــذَّمَّ لِـــي أنِّـــي كـــريمٌ ... وأنَّ محلِّـــيَ القَبَـــلُ اليَفَـــاعُ
وأنِّـــي فـــي بَنِـــي بَكـــرِ بـــنِ سَـــعدٍ ... إذا تَمَّـــتْ زَوافِـــرُهم أُطَـــاعُ

وقال مادحًا مسعود بن سام[4]:

وقَـدْ سَـمِعتُ بِقَـومٍ يُحمَـدُونَ فلَـمْ ... أســمَعْ بِمثلِـكِ لا حِلْمًـا ولا جُـودا
ولا عَفافًـــا ولا صـــبرًا لِنائبـــةٍ ... ومـــا أنبّـــئُ عنـــكَ الباطـــلَ السّـــيدا
لا حِلمُـكَ الحِلـمُ موجـودٌ عليـه ولا ... يُلفَـى عطـاؤكَ فـي الأقـوامِ منكُـودا
وقَـدْ سَـبَقتَ بِغايـاتِ الجِيـادِ وقَـدْ ... أشْـبَهْتَ آبـاءَكَ الصِّـيدَ الصَّـنادِيدا

---

١ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص١٨٣).
٢ انظر: المصدر السابق (ص١٨٦).
٣ الضريك: المحتاج الضعيف. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٠/ ٤٦١).
٤ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص٢١٤).

٤- أبو محجن الثقفي:

هو عمرو بن حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف، من ثقيف، المعروف بأبي محجن الثقفي، يعتبر أحد أبرز الفرسان الشجعان في الجاهلية، ولمَّا حاصر النَّبيُّ ﷺ الطائف بعد حنين؛ كان ممَّن دافعوا عنها مع قومه، ثم ما لبث أن أسلم معهم نحو عام ٩هـ، ولكن الإسلام لم يستقرَّ في قلبه، وكان منهمكًا في شرب الخمر حتى حدَّه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- مرارًا فلمَّا لم ينتهِ؛ نفاه إلى جزيرة بالبحر، ثم هرب والتحق بجيش سعد بن أبي وقاص في العراق وقت الفتح، فلمَّا انتهى خبره إلى عمر؛ أمر سعدًا بحبسه، فحبسه سعد في قصره، ولمَّا اشتعلت معركة القادسية وحمِيَ وطيس القتال بين المسلمين والفرس؛ أسقط في يده وأحَبَّ أن يشارك مع إخوانه في القتال، فقال:[١]

كفَى حَزَنًا أن تُطعَنَ الخيلُ بالقَنا ... وأُصبِحَ مَشدودًا عليَّ وَثَاقيا

إذا قُمتُ عَنَّاني الحديدُ وأُغلِقَتْ ... مَصارعُ مِن دُونِي تُصِمُّ المُناديا

وقَدْ كنتُ ذا أهلٍ كثيرٍ وإخوةٍ ... فأصبحتُ منهم واحدًا لا أخَا لِيا

هَلُمَّ سِلاحي لا أبا لكَ إنَّني ... أرَى الحربَ لا تَزدادُ إلا تَمادِيا

ثم التمس من سلمى امرأة سعد أن تطلقه من محبسه وتحرّره من قيوده حتى يشارك في القتال، فقالت له: أتجعل لي إن أطلقتك أن ترجع حتى أعيدك في الوثاق؟ فقال: نعم؛ فأطلقته وأعطته فرسًا لسعدٍ، فذهب وقاتل مع جيش المسلمين وأبلَى بلاء عظيمًا، حتى قال سعد: لولا أنَّ أبا محجن في الوثاق لظننت أنه أبو محجن وأنها فرسي؛ وقبيل نهاية المعركة عاد إلى محبسه وفاءً بعهده، وأعادته سلمى إلى الوثاق، وأتت سعدًا فأخبرته الخبر، فبعث إليه وأطلقه وقال: لا حبستُك بعدها أبدًا؛ وقال أبو محجن: وأنا والله لا أشربها أبدًا.[٢]

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤١٣).
٢ انظر: المصدر السابق (١/ ٤١٣).

وقد توفِّيَ أبو محجن في بلاد فارس عام ٣٠هـ/ ٦٥٠م، وله شعر حسن يدور حول الخمر والفروسية والفخر والمديح[١] ومن أروع ما قال[٢]:

لا تَسأل النَّاسَ عن مالي وكثرتِهِ وسائل القومَ عن دِينِي وعَنْ خُلُقِي

القومُ أعلَمُ أنِّي مِنْ سَراتِهِمُ إذا تطيش يدُ الرِّعدِيدةِ الفَرِقِ

قَدْ أركَبُ الهَولَ مَسدُولًا عساكرُهُ وأكتُمُ السِّرَّ فيهِ ضَربةُ العُنُقِ

١ انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص٦٩).
٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤١٤).

ثالثًا: شعراء الحكمة والرثاء

(معن بن أوس - مُتمِّم بن نُويرة - أبو ذؤيب الهذلي)

كانت الحكمة حاضرة في الشعر الجاهلي، على النحو الذي فصَّلناه، وقد عُرِف بالحكمة عدد من الشعراء الذين أدركوا الإسلام وتأثَّروا به، فصارت حكمتهم متعلقة بالجانب الدِّيني والعقلي، ليس على مجرد التجارب الحياتية والعفوية فحسبُ كما كان في الجاهلية؛ وذلك من أثر الإسلام، وإلى جانب الحكمة نرى شعراء كذلك قد غلب على ما انتهى إلينا من شعرهم غرض الرثاء؛ مثل الخنساء التي أوردنا ذِكرها مع أعلام الشعراء المخضرمين، وقد امتاز رثاؤهم بالعاطفة الصادقة وباللِّين والرِّقَّة، **و أبرز الشعراء الذين غلبت على شعرهم تلك المناحي:**

١- معن بن أوس:

هو معن بن أوس بن نصر بن زياد المُزني، وهو شاعر فحل مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، له أخبار مع عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وعبدالله ابن جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليهم، وكانوا يبالغون في إكرامه، وله مدائح في جماعة من الصحابة، وهو ممَّن عُرِفوا بالبصيرة والحكمة ومكارم الأخلاق، وكان ذا رأيٍ وشرف، وكان معاوية بن أبي سفيان يقدِّمه في الشعر قائلًا: أشعر أهل الجاهلية زهير بن أبي سلمى، وأشعر أهل الإسلام ابنه كعب ومعن ابن أوس؛ وقد عاش معنٌ زمنًا بالعراق والشام وعُمِّر طويلا حتى كفَّ بصره آخر حياته، وقد توفِّيَ بالمدينة سنة ٦٤هـ/٦٨٣م.[١]

[١] انظر: هوامش منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٢٦٨)، عناية: محمد مصطفى محمود زهران، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

وشعر معنٍ متين التراكيب، سهل المأخذ، غزير بالمعاني والحِكَم، ويصوّر جانبًا عظيمًا من الحِلم والسُّمُوّ ومكارم الأخلاق، يشبه شعر حاتم الطائي في بعض ملامح شعره المتمثلة في الصفاء والحلم والكرم والفخر بمكارم الأخلاق، ومن شعره في هذا الإطار يذكر مكارم الأخلاق ويمزج ذلك بالحكمة والسمو[1]:

لَعَمــرُكَ مــا أدري وإنِّــي لأَوجَــلُ ... علَــى أَيّنــا تَغــدُو المَنِيَّــةُ أَوَّلُ
وإنِّــي أخــوكَ الــدَّائمُ العَهــدِ لَــمْ أَحُــلُ ... إنَ ابــزاكَ خَصــمٌ أَو نَبــا بِــكَ مَنــزِلُ
أُحــارِبُ مَــن حارَبــتَ مِــن ذي عَــداوَةٍ ... وأحــبِسُ مــالِي إنْ غَرِمــتَ فأَعقِــلُ
وإنْ سُــؤتَني يَومًــا صَــفَحتُ إلــى غَــدٍ ... لِيُعقِــبَ يَــومٌ مِنــكَ آخَــرُ مُقبِــلُ
كَأَنَّــكَ تَشــفِي مِنــكَ داءً مَســاءَتي ... وسُــخْطي ومــا فــي رَيْبَتــي مــا تَعَجَّــلُ
وإنِّــي علَــى أشــياءَ مِنــكَ تُرِيبُنــي ... قَــديمًا لَــذُو صَــفحٍ علَــى ذاكَ مُجمِــلُ
سَــتُقطَعُ فــي الــدُّنيا إذا مــا قَطَعتَنــي ... يَمينُــكَ فَــانظُرْ أَيَّ كَــفٍّ تَبَــدَّلُ
وفِــي النَّــاسِ إنْ رَثَّــتْ حِبالُــكَ واصِــلٌ ... وفِــي الأرضِ عــنْ دارِ القِلَــى مُتَحَــوَّلُ
إذا أَنــتَ لَــمْ تُنصِــفْ أخــاكَ وَجَدتَــهُ ... علَــى طَــرَفِ الهُجــرانِ إنْ كــانَ يَعقِــلُ
ويَركَــبُ حَــدَّ السَّــيفِ مِــن أنْ تَضِــيمَهُ ... إذا لَــمْ يَكُــنْ عــنْ شَــفْرَةِ السَّــيفِ مَزحَــلُ
وكُنــتُ إذا مــا صــاحِبي رامَ ظِنَّتــي ... وَبَــدَّلَ سُــوءًا بِالَّــذي كُنــتُ أَفعَــلُ
قَلَبــتُ لَــهُ ظَهْــرَ المِجَــنِّ ولَــمْ أَدُمْ ... علَــى ذاكَ إلَّا رَيْــثَ مــا أَتَحَــوَّلُ
إذا انصَرَفَتْ نَفسي عَنِ الشَّيءِ لَمْ تَكَدْ ... عَلَيــهِ بِوَجــهٍ آخِــرَ الــدَّهرِ تُقبِــلُ

وقال في قصيدة أخرى في هذا الإطار؛ يصوّر تلك الجوانب الأخلاقية[2]:

وَذي رَحِــمٍ قَلمــتُ أَظفــارَ ضَــغنِهِ ... بِحِلمِــيَ عَنــهُ وَهْــوَ لَــيسَ لَــهُ حِلــمُ
يُحــاوِلُ رَغْمــي لا يُحــاوِلُ غَيــرَهُ ... وَكَــالمَوتِ عِنــدي أَنْ يَعُــرَّ بِــهِ الــرَّغْمُ
فإنْ أَعفُ عَنهُ أُغْضِ عَينًا علَى قَذًى ... وَلَــيسَ لَــهُ بِالصَّــفحِ عَــنْ ذَنْبِــهِ عِلــمُ
وإنْ أنتصِــرْ مِنــهُ أَكُــن مِثــلَ رائِــشٍ ... سِــهامَ عَــدُوٍّ يُســتَهاضُ بِهــا العَظــمُ

---

[1] انظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ص٧٩١- ٧٩٤).
[2] انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص١٢٧).

صَـبَرتُ علَـى مـا كـانَ بَيْنـي وبَينَـهُ ... وَمـا يَسـتَوي حَـربُ الأَقـارِبِ وَالسَّـلْمُ
ويَشـتِمُ عِرضِـي فـي المَغيَّـبِ جاهِـدًا ... وَلَـيسَ لَـهُ عِنـدي هَـوانٌ وَلا شَـتْمُ
إذا سُـمْتُهُ وَصْـلَ القَرابَـةِ سـامَني ... قَطيعَتَهـا تِلـكَ السَّـفاهَةُ وَالإِثْـمُ
وإنْ أَدْعُـهُ لِلنِّصـفِ يَـأْبَ ويَعصِـنِي ... وَيَـدعُو لِحُكـمٍ جـائِرٍ عَصـرُهُ الحُكْـمُ
وقَـدْ كُنـتُ أَكـوِي الكاشِـحينَ وأشـتَفِي ... وَأَقطَـعُ قَطعًـا لَـيسَ يَنفَعُـهُ الحَسـمُ
فلَـوْلا اتِّقـاءُ اللهِ والـرَّحِمُ الَّتـي ... رعايَتُهـا حَـقٌّ وَتَعطيلُهـا ظُلْـمُ
إذًا لَعَـلاهُ بـارِقي وخَطَمتُـهُ ... بِوَسـمِ شَـنارٍ لا تُشـاكِلُهُ وَسـمُ
ويَسـعَى إذا أَبنِـي لِيَهـدِمَ صـالِحي ... وَلَـيسَ الَّـذي يَبْنـي كَمَـنْ شَـأنُهُ الهَـدْمُ
يَـوَدُّ لَـوَ انِّـي مُعـدِمٌ ذُو خَصاصَـةٍ ... وَأَكـرَهُ جَهْـدي أَن يُخالِطَـهُ العُـدْمُ

وهو هنا في تلك القصيدة يصف مكارم الأخلاق ويفخر بها، ويذكر كيف يقابل الإساءة بالإحسان ويقابل الغدر بالعفو، وكيف يسيء إليه بعض أصحابه فيرد على غدرهم بمعروفه وترفُّعه وسمُّوِّ خُلُقِه؛ وشعره كله من هذا القبيل؛ يفيض بمعاني الكرم والحكمة والسمو ومكارم الأخلاق، في سياق سلسٍ صافٍ لا يعوزه العمق.

٢- مُتمِّم بن نُويرة:

هو مُتمِّم بن نويرة بن جمرة بن شدَّاد، من بني يربوع من زيد مناة من تميم إحدى القبائل المتفرعة من إلياس من مُضر، كان هو وأخوه مالك من سادات قبيلته، وكان قصيرًا أعورَ، عُرِف بفروسيته وشجاعته، وكانت له في الجاهلية عدَّة وقائع مع التغلبيين فوقع أسيرًا بينهم، وذهب أخوه مالك لافتدائه وكان جميلًا حسن الحديث، فأعجبوا به وأطلقوا أخاه مُتمِّم بلا فدية[٢].

[١] شنار: عيب. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٤/ ٤٣٠).
[٢] انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص٢٦١).

وقد أسلم مُتمِّم مع قومه، وعمل مع أخيه مالك على جمع صدقات قومه، فلمَّا توفِّيَ رسول الله ﷺ؛ ارتدَّ قومه ومنع أخوه مالك بن نويرة الزكاة وأصرَّ على ردَّته إلى أن قُتِل في حروب الرِّدَّة على يد خالد بن الوليد، فحزن عليه أخوه متمِّم حُزنًا عظيمًا وتفجَّع لمقتله ورثاه بقصائد حارة.

ويُروَى أنه دخل مرَّة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عمر: ما أرى أصحابك مثلك!! فقال: يا أمير المؤمنين؛ أما والله إني مع ذلك لأركب الجمل الثقال، وأعتقل الرماح الشطون، وألبس الشملة الفَلوت، ولقد أسرني بنو تغلب في الجاهلية فبلغ ذلك أخي مالكًا فجاء ليفديني، فلمَّا رآه القوم أعجبهم جماله، وحدَّثهم فأعجبهم حديثه، فأطلقوني بغير فداء.[1]

ويُروَى أنه لما استشهد زيد بن الخطاب في حروب الرِّدَّة يوم اليمامة أمام جيش مسيلمة الكذاب؛ دخل متمِّم على عمر، فقال: أنشدني بعض ما قلت في أخيك؛ فأنشده قصيدته العينيَّة الشهيرة، فأعجب بها عمر بن الخطاب وقال له: يا متمم؛ لو كنت أقول الشعر لسرَّني أن أقول في زيد بن الخطاب مثل ما قلتَ في أخيك؛ فقال متمم: لو قُتل أخي قتْلة أخيك ما قلتُ فيه شعرًا أبدًا؛ فقال عمر: يا متمم؛ ما عزَّاني أحد في أخي بأحسن ممَّا عزَّيتَني فيه.[2]

وقد توفِّيَ متمم بن نويرة نحو عام ٣٠هـ/٦٥٠م،[3] تاركًا عددًا من المراثي في رثاء أخيه، هي من أروع المراثي وأكثرها صدقًا، ومنها قصيدته العنينية الشهيرة التي يقول فيها:[4]

لَعَمْري وما دهري بتأبينِ هالكٍ ... ولا جَزِعٍ ممَّا أصابَ فأَوجَعا

لقَدْ كفَّنَ المنهالُ تحتَ ردائهِ ... فتًى غيرَ مِبطانِ العشيَّاتِ أَرْوَعا

ولا بَرِمًا تهدي النِّساءُ لِعِرسِهِ ... إذا القشْعُ مِن بَرْدِ الشِّتاءِ تَقَعْقَعا

لبيبٌ أعانَ اللُّبَّ منه سماحَةٌ ... خَصِيبٌ إذا ما راكبُ الجَدْبِ أَوْضَعا

---

[1] انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣٢٥).
[2] انظر: المصدر السابق (١/ ٣٢٦).
[3] انظر: الأعلام، الزركلي (٥/ ٢٧٤)، طبعة: دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.
[4] انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص٢٦٥- ٢٧٠).

تـراه كصَـدرِ السَّـيفِ يهتـزُّ للنَّـدَى ... إذا لَـمْ تَجِـدْ عنـدَ امـرئٍ السَّوءِ مَطْمعا

* * *

فعينـــيَّ هـــلَّا تبكيـــانِ لمالـــكٍ ... إذا أذرَتِ الـــرِّيحُ الكنيـــفَ المرفَّعـــا

وللشَّـــربِ فـــابكي مالكًـــا ولبُهمَـــةٍ ... شـــديدٍ نواحيـــه علَـــى مَـــن تَشَـــجَّعا

* * *

أبَـى الصَّـبرَ آيـاتٌ أراهـا وأنَّنـي ... أرَى كـلَّ حبـلٍ بعـد حبلِـكَ أَقْطَعـا

وأنِّي متى ما أدعُ باسمِكَ لا تُجِبْ ... وكنـتَ جـديرًا أنْ تُجِيـبَ وتُسـمِعا

وعِشْـنا بخيـرٍ فـي الحيـاةِ وقبْلَنـا ... أصـابَ المنايـا رهـطَ كِسـرَى وتُبَّعـا

وكنَّـا كنـدمانَيْ جذيمـةَ حقبـةً ... مِـنَ الـدَّهرِ حتـى قيـلَ لَـنْ يتصـدَّعا

فـإنْ تَكُـنِ الأيَّـامُ فَـرَّقنَ بَيْنَنـا ... فقَـدْ بـانَ محمـودًا أخـي حِـينَ ودَّعـا

أقـولُ وقَـدْ طـارَ السَّـنَا فـي رَبابِـهِ ... وجَـوْنٌ يَسـحُّ المـاءَ حتَّـى تَرَبَّعـا

سـقَى اللهُ أرضًـا حلَّهـا قبـرُ مالـكٍ ... ذَهـابَ الغَـوادي المُـدْجناتِ فأَمْرَعـا

* * *

تقـولُ ابنـةُ العَمْـريِّ مـا لـكَ بعـدَما ... أراكَ حـــديثًا نـــاعمَ البـــالِ أفرَعـــا

فقلـتُ لهـا طُـولُ الأسَـى إذْ سألتِنـي ... ولوعـةُ حُـزنٍ تَتـرُكُ الوجـهَ أسْـفَعا

ويتَّصف شعر متمم في مراثيه بصدق العاطفة وعمق الإحساس بالحزن والتفجُّع على موت أخيه، ومجمل ما انتهى إلينا من شعره لا يخلو من الطابع البدوي واللفظ الجزل الذي يتخلَّله الغريب في بعض الأحيان، ومن الواضح أنه لم يتأثر في شعره بالإسلام تأثُّرًا عميقًا؛ فلا نكاد نجد في شعره ما يدل على الإسلام لفظًا أو معنًى، وشعره يصوِّر طبيعة الحياة الجاهلية بما فيها من بداوة وخشونة وجفوة، مع موسيقى عذبة وخيال بديع وعاطفة منسابة تصنعها

قافيته القوية وتراكبيه المتينة التي جمعت بين جزالة اللفظ ورقة الإحساس؛ ومن شعره كذلك يذكر أخاه[1]

أَرِقْتُ ونامَ الأخلِياءُ وهاجَني ... مع اللَّيلِ همٌّ في الفؤادِ وَجِيعُ
وَهيَّجَ لي حُزنًا تذكُّرُ مالكٍ ... فما نِمتُ إلا والفؤادُ مَرُوعُ
إذا عَبْرةٌ ورَّعتُها بَعدَ عَبْرَةٍ ... أَبَتْ واستهلَّتْ عَبْرةٌ ودُمُوعُ
كما فاضَ غَرْبٌ بينَ أقرنِ قامةٍ ... يُروّي دِيارًا ماؤهُ وزُرُوعُ
جديدُ الكُلَى واهي الأديمِ تُبِينُهُ ... عنِ العُبْرِ زوراءُ المقامِ نَزُوعُ
لِذِكرَى حبيبٍ بعدَ هدْءٍ ذكرتُهُ ... وقَدْ حانَ مِن تالي النُّجومِ طُلُوعُ
إذا رقأتْ عيناىَ ذكَّرني بهِ ... حَمامٌ تُنادى في الغصونِ وقُوعُ

ومن شعره أيضًا الذي تتَّضح فيه معالم الحياة البدوية وما فيها من سمات الصحراء ومظاهر البداوة[2]

ولقَدْ غُبطتُ بما ألاقِي حِقبةً ... ولقَدْ يَمُرُّ عليَّ يومٌ أشنَعُ
أفبَعدَ مَن وَلَدَتْ نسيبةُ أشتكي ... زَوْرَ المنيَّةِ أو أُرَى أتوَجَّعُ
ولقَدْ علمتُ ولا محالةَ أنَّني ... للحادثاتِ فهَلْ تَرَيْني أجزَعُ
أفنَيْنَ عادًا ثُمَّ آلَ محرِّقٍ ... فتركنَهُم بلدًا وما قَدْ جَمَّعُوا

٣- أبو ذؤيب الهذلي:

هو خُويلد بن خالد بن محرث، من بني هُذيل بن مدركة من مضر، كان راوية لساعدة بن جؤبة الهُذلي، وهو شاعر جاهلي فحل أدرك الإسلام ووفد على المدينة ليلة وفاة النَّبيّ ﷺ فلقِيَه وهو مُسجى وشهد دفنه، وقد اشترك في الفتوحات الإسلامية، ولمَّا كان بمصر؛ هلك أبناؤه الخمسة في الطاعون، فرثاهم بقصيدة شهيرة، بينما واصل هو مسيره زمن عثمان -رضي الله عنه- في جند والي

[1] انظر: المصدر السابق (ص٢٧١- ٢٧٣).
[2] انظر: المصدر السابق (ص٥٣).

مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح؛ في غزوة أفريقيا، ثم عاد مع عبد الله ابن الزبير يحملون بشرى الفتح إلى عثمان، وما لبث أن بلغ مصر حتى توفِّيَ بها نحو عام ٢٧- ٢٨هـ/٦٤٨م.[١]

وشعر أبي ذؤيب الهُذلي سهل، ليّن العاطفة، ذو خيال حسّيٍّ غير بعيد عن الواقع[٢]، وقد وضعه ابن سلام في الطبقة الثالثة من الشعراء مع النابغة الجعدي ولبيد بن ربيعة والشماخ بن ضرار، وقال فيه: كان شاعرًا فحلًا لا غميزة فيه ولا وهن؛ وقال أبو عمرو بن العلاء: سئل حسان: من أشعر الناس؟ قال: حيًّا أو رجلًا؟ قيل: بل حيًّا؛ قال: أشعر الناس حيًّا هذيل، وأشعر هذيل غير مدافَعٍ أبو ذؤيب.[٣]

وله شعر مبثوث في كتب الأدب وأغلبه في المراثي، وله أيضًا بعضٌ في الوصف والخمر وذكر الطِّراد، وأشهر شعره قصيدته العينية التي رثى فيها أبناءه الخمسة؛ وهي قصيدة طويلة يقول فيها:[٤]

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيبِها تَتَوَجَّعُ ... والدَّهرُ لَيسَ بِمُعتِبٍ مَن يَجزَعُ

قالَتْ أُمَيمَةُ ما لِجِسمِكَ شاحِبًا ... مُنذُ ابتَذَلتَ ومِثلُ مالِكَ يَنفَعُ

أَم ما لِجَنبِكَ لا يُلائِمُ مَضجَعًا ... إِلَّا أَقَضَّ عَلَيكَ ذاكَ المَضجَعُ

فَأَجَبتُها أَنْ ما لِجِسمِيَ أَنَّهُ ... أَودَى بَنِيَّ مِنَ البِلادِ فَوَدَّعوا

أَودَى بَنِيَّ فَأَعقَبوني حَسرَةً ... بَعدَ الرُّقادِ وعَبرَةً لا تُقلِعُ

سَبَقوا هَوِيَّ وَأَعنَقوا لِهَواهُمُ ... فَتُخُرِّموا وَلِكُلِّ جَنبٍ مَصرَعُ

فَغَبَرتُ بَعدَهُمُ بِعَيشٍ ناصِبٍ ... وَإِخالُ أَنِّي لاحِقٌ مُستَتبَعُ

وَلَقَدْ حَرِصتُ بِأَنْ أُدافِعَ عَنهُمُ ... وإِذا المَنِيَّةُ أَقبَلَتْ لا تُدفَعُ

وإِذا المَنِيَّةُ أَنشَبَتْ أَظفارَها ... أَلفَيتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنفَعُ

فَالعَينُ بَعدَهُمُ كَأَنَّ جُفونَها ... سُمِلَتْ لشَوكٍ فَهْيَ عُورٌ تَدمَعُ

---

[١] انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص٥١).
[٢] انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (ص٢٤٤).
[٣] انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/ ١٣١).
٤ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٥٣٤- ٥٥٠).

وتَجَلُّـــدي لِلشَّـــامِتِينَ أُرِيهِـــمُ أَنِّـــي لِرَيـــبِ الـــدَّهرِ لا أَتَضَعضَـــعُ
حتّـــى كَـــأَنّي لِلحَـــوادِثِ مَـــروَةٌ بِصَـــفا المُشـــقَّر كُـــلَّ يَـــومٍ تُقـــرَعُ
لا بُـدَّ مِـن تَلَـفٍ مُقـيمٍ فـانتَظِرْ أَبِـأَرضِ قَومِـكَ أَم بِـأُخرَى المَضـجعُ
وَلَقَـــدْ أَرَى أَنَّ البُكـــاءَ سَـــفاهَةٌ وَلَسَـوفَ يولَـعُ بِالبُكـا مَـن يُفجَـعُ
وَلَيَـــأتِيَنَّ عَلَيـــكَ يَـــومٌ مَـــرَّةً يُبكَـــى عَلَيـــكَ مُقَنَّعًـــا لا تَســـمَعُ
وَالـــنَّفسُ راغِبَـــةٌ إذا رَغَّبتَهـــا فَـــإِذا تُـــرَدُّ إِلَـــى قَليـــلٍ تَقنَـــعُ

وهي قصيدة ممتازة من عيون المراثي في أشعار المخضرمين، تمتاز بعاطفة صادقة حارة يجسِّدها الجزع والألم، وهو يحيط تلك العاطفة الرقيقة بصدى اللوعة والأسى، مع بعض الحِكَم والوقفات التأملية، يصف فيها الدَّهر وأنَّ الموت محتَّم على كل حيٍّ وأنه لا بدَّ من الصبر والتجلُّد على المصائب؛ وهي تصوِّر بدقةٍ حال ما وصل إليه الشاعر من التَّفجُّع والألم.

رابعًا: شعراء القبائل العربية

(خفاف بن ندبة- عبدة بن الطيب- النمر بن تولب- تميم بن مقبل- النجاشي الحارثي- عمرو بن الأهتم المنقري- جران العود)

١- خفاف بن ندبة:

هو أبو خراشة خفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السلمي، وأمُّه أمَةٌ سوداء اسمها ندبة، سُبِيت وأُهدِيَت لعُمير بن الحارث فولدت له خفافًا[١] وقد أخذ عنها سوادها فنُسب إليها، وهو من أغربة العرب وابن عم الخنساء بنت عمرو الشاعرة، وبينه وبين ولدها العباس بن مرادس مهاجاة، وله أخبار مع دُرَيد ابن الصمة، وقد أسلم خفاف وشهد فتح مكة مع النَّبيّ ﷺ، وكان معه لواء بني سُليم، وشهد حنينًا والطائف، وثبت على إسلامه وقت الرِّدَّة حتى إنه هجا رجلًا من قومه أتى أبا بكر فطلب منه سيفًا يقاتل به المرتدِّين، فأعطاه فقاتل به المسلمين، فقال خفاف:[٢]

لِـــمَ تأخُـــذُونَ سِـــلاحَهُ لقِتالِـــهِ ولـــــذاكُمُ عنـــــدَ الإلـــــهِ أثـــــامُ

لا دِيـــنُكُم دِينِـــي ولا أنـــا كـــافِرٌ حتَّـــى يَـــزُولَ إلـــى صـــراةَ شـــمامُ

وقد توفِّيَ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٣] قال عنه الأصمعي: إنه وهو ودريد بن الصمة أشعر الفرسان؛ وشعره يمتاز بدقَّة الوصف وروعة النَّسِيب، وهو شعر سلس يغلب عليه الطابع الجاهلي البدوي؛ سواء في روح المعاني أو في لفظه الجزل الذي لا يخلو من الغريب، ومن شعره في النَّسيب:[٤]

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣٢٩).
٢ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص٣١).
٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣٢٩).
٤ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص٢١- ٢٦).

ألا طَرَقَتْ أسماءُ في غيرِ مَطْرَقٍ وأنَّـي إذا حلَّـتْ بِنَجـرانَ نلتقـي
سَـرَتْ كـلَّ وادٍ دُونَ رهْـوةَ دافـعٍ وجلـذانَ أو كَـرْمٍ بليَّـةَ مُحْـدِقِ
تجـاوَزَتِ الأعـراضَ حتـى توسَّـنَتْ وسـادِي ببـابٍ دون جلـذانَ مُغْلَـقِ
بِغُـرِّ الثَّنايـا خيَّـفَ الظلـمُ نَبْتَـهُ وَوَسْـنَة رئـمٍ بالجُنينـةِ مُونـقِ
ولَـمْ أرَهـا إلا تَعِلَّـةَ سـاعةٍ علـى سـاجِرٍ أو نظـرةً بالمُشـرَّقِ

* * *

فإمَّـا تَرَيْنـي أَقْصَـرَ اليـومَ بـاطِلِي ولاحَ بَيـاضُ الشَّـيْبِ فـي كـلِّ مَفْـرَقِ

وجاء فيها في وصف الخيل، وقد امتاز فيه بدقَّة متناهية وإغراقٍ في التفاصيل:

وَخَيـلٍ تَعـادَى لا هَـوادَةَ بَينَهـا شَـهِدتُ بِمَـدلوكِ المَعـاقِمِ مُحنِـقِ
طَويلِ عظامٍ غَيرِ خافٍ نَمَى بِهِ سَليمُ الشَّظا فـي مُكرَبـاتِ المُطَبَّـقِ
بَصـيرٍ بَـأَطرافِ الحِـدابِ مُقَلِّـصٍ نَبيـلٍ يُسـاوَى بِـالطِّرافِ المُـرَوَّقِ
إذا ما استَحَمَّتْ أَرضُهُ مِن سَمائِهِ جَـرَى وَهْـوَ مُوعِـدٌ وَواعِـدُ مَصـدَقِ
وَمَـدَّ الشَّـمالَ طَعنُـهُ فـي عِنانِـهِ وبـاعَ كَبَـوعِ الشَّـادِنِ المُتَطَلِّـقِ

وقال يذكر النَّسيب والفخر ثم مضى بعدها في إطار الوصف:[1]

طَرَقَـتْ أُسَـيْماءُ الرِّحـالَ وَدُونَنـا مِـن فَيـدِ غَيقَـةَ سـاعِدٌ فَكَثيـبُ
فَـالطَّوْدُ فَالمَلَكـاتُ أَصـبَحَ دُونَهـا فَفِـراعُ قُـدْسَ فَعُمقُهـا فَحُسُـوبُ
فَلَئِنْ صَرمتِ الحَبلَ يا ابنَـةَ مالِكٍ وَالـرَّأيُ فيـهِ مُخطِـئٌ وَمُصِـيبُ
فَتَعَلَّمـي أَنِّـي امـرُؤٌ ذو مِـرَّةٍ فيمـا أَلَـمَّ مِـنَ الخُطـوبِ صَـلِيبُ
أَدَعُ الـدَّناءَةَ لا أُلابِـسُ أَهلَهـا وَلَـدَيَّ مِـن كَـيسِ الزَّمـانِ نَصِـيب

ومن روائع خفاف في النسيب والبكاء على الأطلال:[2]

ما هاجَكَ اليَومَ مِن رَسمٍ وَأَطلالِ مِنهـا مُبِـينٌ وَمِنهـا دارِسٌ بـالِ

---

١ انظر: المصدر السابق (ص٢٧- ٢٨).
٢ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٧).

بَـينَ السَّـنامِ وَهَضْـمَيْهِ وَذِي بَقَـرٍ كَأَنَّهـــا صُـــحُفٌ يَخُطُّهـــا تـــالِ
دارٌ لِقَيْلَـــةَ إِذْ قَلبِـــي بِهـــا كَلِـــفٌ أَقَـــوَتْ مَنازِلُهـــا مِـــن بَعـــدِ أَحـــوالِ
تَمشي النِّعاجُ بِها والعِينُ مُطفِلَةً إِلَـــى رَواشِـــحَ قَـــدْ حَفَّـــتْ وَأَطفـــالِ
ظَلَلْتُ فيهـا كَئيبًـا غَيـرَ مُضـطَلَعٍ هَمِّـــي وَأَســـبَلَ دَمعـــي أَيَّ إســـبالِ

وكلها نماذج تدل على أن خفافًا أبدع في ذكر النَّسِيب والبكاء على الأطلال، وأنَّه كان متفوقًا في وصف الخيل وسائر مظاهر الطبيعة وصفًا حسِّيًا، متعمِّقًا في التفاصيل بدقَّة تسترعي الدَّهشة والانتباه.

٢- عبدة بن الطيب:

هو عبدة بن يزيد بن الطيب بن عمرو بن وعلة بن أنس، من زيد مناة من تميم، وهو شاعر فحل مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وهو مُقِل مجيد، اشترك في الفتوحات الإسلامية في العراق وأبلى مع المثنَّى بن حارثة في قتال هرمز بلاء حسنًا، وشهد القادسية وبابل وفتح المدائن، واشترك في نهاوند مع جيش النعمان بن مقرن، وكان أسود اللون، شجاعًا ذا بأس[1] وقد رثَى قيس بن عاصم المنقري في أبيات بديعة قال فيها[2]:

عَلَيـكَ سَـلامُ اللهِ قَـيسَ بـنَ عاصِـمٍ ورَحْمَتُـــهُ مـــا شـــاءَ أَنْ يَتَرَحَّمـــا
تَحِيَّـــةَ مَـــن أَلبَســـتَهُ مِنـــكَ نِعمَـــةً إذا زارَ عَـــنْ شَـــحْطٍ بِـــلادَكَ سَـــلَّما
فَمـا كـانَ قَـيسٌ هُلْكُـهُ هُلْـكُ واحِـدٍ ولَكِنَّـــهُ بُنيـــانُ قَـــومٍ تَهَـــدَّما

قال ابن الأعرابي على البيت الثالث: هذا بيتٌ قائمٌ بنفسه، ما له نظير في الجاهلية والإسلام؛ وقال أبو عمر بن العلاء: هذا البيت أرثَى بيتٍ قيل؛ وقال

---

١ انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص٢١٦).
٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٧١٨).

خالد بن صفوان عنه: كان يترفَّع عن الهجاء ويراه ضَعَةً، وكان يرى في تركِهِ مروءة وشرفًا[1]

وأُثِرَتْ عنه لاميَّة بديعة نظَمها بعد موقعتي القادسية وبابل عام١٥هـ، يذكر فيه حبيبته خولة، وذكر فيها الجهاد وقتال العجم، ووصف رحلته في البوادي وما فيها من مظاهر الطبيعة والصيد والفرس، في سياق عذبٍ صافٍ، وممَّا جاء في قصيدته[2]

هَلْ حَبْلُ خَولَةَ بَعدَ الهَجرِ مَوصُولُ ... أَمْ أَنتَ عَنها بَعِيدُ الدَّارِ مَشغولُ

حَلَّتْ خُوَيلَةُ في دارٍ مُجاوِرَةٍ ... أَهلَ المَدائِنِ فيها الدِّيكُ والفِيلُ

يُقارِعُونَ رُؤوسَ العُجْمِ ضاحِيَةً ... مِنهُم فَوارِسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلُ

فَخامَرَ القَلبَ مِن تَرجيعِ ذِكْرَتِها ... رَسٌّ لَطيفٌ وَرَهْنٌ مِنكَ مَكبولُ

رَسٌّ كَرَسِّ أَخي الحُمَّى إِذا غَبَرَتْ ... يَومًا تَأَوَّبَهُ مِنها عَقابِيلُ

وَلِلأَحِبَّةِ أَيَّامٌ تَذَكَّرُها ... وَلِلنَّوى قَبلَ يَومِ البَينِ تَأويلُ

إِنَّ الَّتي ضَرَبَتْ بَيتًا مُهاجِرَةً ... بِكوفَةِ الجُندِ غالَتْ وُدَّها غُولُ

فَعَدِّ عَنها ولا تَشغَلْكَ عَن عَمَلٍ ... إِنَّ الصَّبابَةَ بَعدَ الشَّيبِ تَضلِيلُ

بِجَسرَةٍ كَعَلاةِ القَينِ دَوسَرَةٍ ... فيها عَلَى الأَيْنِ إِرقالٌ وتَبغِيلُ

عَنسٍ تُشِيرُ بِقِنوانٍ إِذا زُجِرَتْ ... مِنْ خَصبَةٍ بَقِيَتْ فيها شَمالِيلُ

قَرْواءَ مَقذوفَةٍ بِالنَّحْضِ يَشعَفُها ... فَرطُ المِراحِ إِذا كَلَّ المَراسِيلُ

وما يَزالُ لَها شَأْوٌ يُوَقِّرُهُ ... مُحَرَّفٌ مِن سُيورِ الغَرْفِ مَجدُولُ

إِذا تَجاهَدَ سَيرُ القَومِ في شَرَكٍ ... كَأَنَّهُ شَطَبٌ بِالسَّروِ مَرمُولُ

وقد جاء فيها بحكمة بديعة حيث يقول:

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليسَ يُدرِكُهُ ... والعَيشُ شُحٌّ وإِشفاقٌ وتَأمِيلُ

---

١ انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص٢١٦).

٢ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص١٣٥- ١٤٥).

وشعر عبدة بن الطيب يمتاز بطابع جاهليٍّ لا يخلو من غريب اللفظ، ومع هذا فهو حافل أيضًا بالمعالم الإسلامية كما تبيَّن في رثائه لقيس بن عاصم المنقري، ولا يخلو شعره كذلك من الحِكَم وملامح التَّديُّن والتَّأثُّر بالإسلام كما في وصيَّته لأولاده؛ التي أوصى بها آخر حياته إذْ يقول[1]:

أَبَنِـيَّ إِنِّـي قَـدْ كَبِـرتُ ورابَنِـي ... بَصَـري وَفِـيَّ لِمُصـلِحٍ مُسـتَمتِعُ
فَلَـئِنْ هَلَكـتُ لَقَـدْ بَنَيْـتُ مَسـاعِيًا ... تَبقَـى لَكُـم مِنهـا مَـآثِرُ أَربَـعُ
ذِكـرٌ إِذْ ذُكِـرَ الكِـرامُ يَـزِينُكُم ... وَوِراثَـةُ الحَسَـبِ المُقَـدَّمِ تَنْفَـعُ
وَمَقـامُ أَيَّـامٍ لَهُـنَّ فَضـيلَةٌ ... عِنـدَ الحَفيظَـةِ، وَالمَجـامِعُ تَجمَـعُ
وَلُهًـى مِـنَ الكَسـبِ الَّـذي يُغنِـيكُمُ ... يَومًـا إِذا اختَصَـرَ النُّفـوسَ المَطمَـعُ
وَنَصـيحَةٌ فـي الصَّـدرِ صـادِرَةٌ لَكُـم ... مـا دُمـتُ أُبصِـرُ فـي الرِّجـالِ وأَسـمَعُ
أوصـيكُمُ بِتُقَـى الإِلَـهِ فَإِنَّـهُ ... يُعطِـي الرَّغائِـبَ مَـنْ يَشـاءُ وَيَمنَـعُ
وَبِبِـرِّ والِـدِكُم وَطاعَـةِ أَمـرِهِ ... إِنَّ الأَبَـرَّ مِـنَ البَنِـينَ الأَطـوَعُ
إِنَّ الكَبيـرَ إِذا عَصـاهُ أَهلُـهُ ... ضـاقَتْ يَـداهُ بِـأَمرِهِ مـا يَصـنَعُ
وَدَعُوا الضَّـغينَةَ لا تَكُنْ مِنْ شَأنِكُم ... إِنَّ الضَّـغائِنَ لِلقَرابَـةِ تُوضِـعُ
واعصُوا الَّذي يُزجِي النَّمائِمَ بَينَكُم ... مُتَنَصِّـحًا؛ ذاكَ السُّـمامُ المُنقَـعُ
يُزجِـي عَقارِبَـهُ لِيَبْعَـثَ بَينَكُم ... حَربًـا كَمـا بَعـثَ العُـروقَ الأَخـدَعُ

٣- النمر بن تولب:

هو النمر بن تولب بن زهير بن أقيش العكلي، شاعر جاهلي نشأ في بادية نجد، وعاش قومه بين هجر واليمامة، أدرك الإسلام وهو كبير ولَقِيَ رسول الله ﷺ وعُدَّ من الصحابة[3]، ومدح رسول الله ﷺ في قصيدة واحدة، جاء فيها[1]:

---

[1] انظر: المصدر السابق (ص١٤٥- ١٤٩).
٢ الأخدع: عرق في العنق إذا ضرب أجابته العروق. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٨/ ٦٦).
٣ انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص١٣٦).

إِنَّــا أَتَينــاكَ وَقَــدْ طــالَ السَّــفَرْ نَقُــودُ خَــيلًا ضُــمَّرًا فيهــا ضَــرَرْ
نُطعِمُهــا اللَّحــمَ إِذا عَــزَّ الشَّــجَرْ وَالخَيــلُ فــي إِطعامِهــا اللَّحــمَ عَسَــرْ

ويقال: إنه كتب عن النَّبيّ ﷺ كتابًا إلى قومه بني زهير بن أقيش، جاء فيه: «**هذا كتاب رسول الله ﷺ إلى بني زهير بن أقيش؛ إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، و أقمتم الصلاة، و آتيتم الزكاة، وفارقتم المشركين، وأعطيتم الخمس من الغنائم وسهم النَّبيّ والصَّفِي إلى النَّبيّ؛ فأنتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله**»[1]، وكان سيِّدًا مطاعًا في قومه، عُمِّر طويلا حتى خرف، وتوفِّيَ تقريبًا مع نهاية خلافة أبي بكر الصِّدِّيق عام ١٤هـ/٦٣٥م.

وهو شاعر مجيد، ما مدح أحدًا ولا هجا، وشعره عذب، صادق العاطفة، سهل اللفظ، يشبه شعره شعر حاتم الطائي في سُمُوِّ معانيه وخصائصه، وضعه ابن سلام في الطبقة الثامنة بين المخضرمين، وقال: كان جوادًا، وكان فصيحًا جريئًا على المنطق[2] وقد أبدع في الوصف والحكمة والنسيب، وكان يجيد التشبيه كما في قوله يصف إعراض امرأة[3]:

فصَدَّتْ كأنَّ الشَّمْسَ تحتَ قِناعِها بَدا حاجِبٌ منها وضَنَّتْ بِحاجِبِ

ومما قال في شعره من الحكمة[4]:

لَعَمري لَقَد أَنكَرتُ نَفسي وَرابَني مَعَ الشَّيبِ أَبدالي الَّتي أَتَبَدَّلُ
فُضولٌ أَراها في أَديمِيَ بَعدَما يَكونُ كفافَ اللَّحمِ أَو هُوَ أَفضَلُ
كَأَنَّ مِخَطَّا في يَدَيْ حارِثِيَّةٍ صَناعٍ عَلَتْ مِنّي بِهِ الجِلدَ مِنْ عَلُ
وَقَوْلي إِذا ما غابَ يَومًا بَعيرُهُم يُلاقونَهُ حتّى يَؤوبَ المُنَخَّلُ[5]

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢٢).
٢ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/ ١٦٣).
٣ انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص١٣٧).
٤ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣٠٠).
٥ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٤١٩- ٤٢٨).
٦ المنخل: هو المنخل اليشكري، خرج يجني القرظ فلم يعد، فضُرِب به المثل.

وأُضحِي ولم يَذهَبْ بَعيري غُربةً ... وأشوي الذي أشوِي ولا أتحلَّلُ
وَظَلْعي وَلَمْ أَكسِرْ وَإِنَّ ظَعينَتي ... تَلُفُّ بَنِيها في البَجادِ وَأُعزَلُ
وَدَهرِي فَيَكفيني القَليلُ وَإِنَّني ... أَؤوبُ إِذا ما أُبْتُ لا أَتَعلَّلُ
وَكُنتُ صَفِيَّ النَّفسِ لا شَيءَ دُونَهُ ... وقَدْ صِرتُ مِن إقصا حُبَيبِيَ أَذهَلُ
بطْيءٌ عَنِ الدَّاعي فَلَستُ بِآخِذٍ ... إِلَيهِ سلاحي مِثلَ ما كُنتُ أَفعَلُ
تَدارَكَ ما قبل الشَّباب وبعدهُ ... حَوادِثُ أَيَّامٍ تَضُرُّ وأَغفَلُ
يَوَدُّ الفَتَى بَعدَ اعتِدالٍ وَصِحَّةٍ ... يَنوءُ إِذا رامَ القِيامَ وَيُحمَلُ
يَوَدُّ الفَتَى طولَ السَّلامَةِ وَالغِنَى ... فَكَيفَ تَرى طُولَ السَّلامَةِ يَفعَلُ

ومما قال في الوصف:١

وَلَقَدْ شَهِدَتُ الخَيلَ وَهْيَ مُغيرَةٌ ... وَشَهِدَتُها تَعدُو علَى آثارِها
وَحَوَيتُ مَغنَمها أَمامَ جِيادِها ... وَكَرَرتُ إِذْ طَردَتْ علَى أَدبارِها
وَلَقَدْ شَفَيتُ مِنَ الرِّكابِ وَمَشْيِها ... وَزَفيفِها نَفْسي وَمِنْ أَكوارِها

وقال في النَّسيب:٢

شَطَّتْ بَجَمرَةَ دارٌ بَعدَ إلمامِ ... نَأَيٌ وَطُولُ بِعادٍ بَينَ أَقوامِ
حَلَّتْ بِتَيماءَ في قَومٍ إِذا اجتَمعوا ... في الصُّبحِ نادَى مُنادِيهِم بِآشامِ
وَقَدْ لَهَوتُ بِها والدَّارُ جامِعَةٌ ... بِالخَرْجِ فَالنَّهْيِ فَالعَوراءِ فَالدَّامِ

ونرى في شعره أحيانًا ما امتاز بتراكيبه الخفيفة؛ مثل قوله:٣

ألا لَيتَني حَجَرٌ بِوادٍ ... أنامُ وليتَ أمّي لَمْ تَلِدْني
ألا يا حادِ وَيْحَكَ لا تلُمْني ... ونَفْسَكَ لا تُضيّعها ودَعْني
فإنّي قَدْ لبسْتُ العَيشَ حتى ... مَلَلْتُ مِنَ الحياةِ فقلتُ قَدْني

---

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٢٠).
٢ انظر: المصدر السابق (ص٢١).
٣ انظر: المصدر السابق.

ومما قال في الحكمة:[1]

لا تَغضَبَنَّ على امرئٍ في مالِهِ وعلَى كرائم صُلْبِ مالِكَ فاغضبِ
وإذا تُصِبْكَ خَصاصَةٌ فارجُ الغِنَى وإلَى الذي يُعطِي الرَّغَائبِ فارغَبِ

٤- تميم بن مقبل العامري:

هو أبو كعب تميم بن أُبيّ بن مُقبل بن عوف العجلاني، من بني عامر ابن صعصعة من هوازن من قيس بن عيلان من مضر، شاعر جاهلي، وُلِد نحو ٧٠ق.هـ/٥٥٤م، وقد أدرك الإسلام وأسلم ولكن الإسلام لم يستقرَّ في قلبه، فكان يبكي الجاهلية ويندب أيامها، وكان بينه وبين النجاشي الحارثي مهاجاة، وقد عُمِّر طويلًا حتى نيَّف على المئة، ومات نحو٣٧هـ/٦٥٧م أو بعدها بقليل، في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعُدَّ من الشعراء المخضرمين.

وشعره جزل اللفظ، متين قوي التراكيب، حسن الإيقاع، وقد أبدع في الوصف والنسيب وذكر الأطلال، ولا يخلو شعره من بعض الحِكَم الرائعة، ويغلب على شعره الطابع البدوي الجاهلي؛ سواء في جو المعاني أو في غريب الألفاظ، وللإسلام فيه أثرٌ يسير، ومن شعره قوله:[2]

طَافَ الخَيَالُ بِنَا رَكْبًا يَمانينَا ودُونَ لَيْلَى عَوَادٍ لَوْ تُعَدِّينَا
مِنْهُنَّ مَعْرُوفُ آيَاتِ الكِتَابِ وقَدْ تَغْتَادُ تَكْذِبُ لَيْلَى مَا تُمَنِّينَا
لَمْ تَسْرِ لَيْلَى ولمْ تَطْرُقْ لحَاجَتِهَا مِنْ أَهْلِ رَيْمَانَ إِلَّا حاجَةً فِينَا

وتتضح المعالم الجاهلية في شعره في تلك الأبيات التي قالها يفخر ويصف الهجر وبعض مظاهر الصحراء:[3]

أَبَى الهَجْرَ مِنْ أسماءَ والصَّرْمَ أَنَّنِي مُجِدٌّ بِدَهْمَاءَ الحَدِيثَ ومَازِحُ

---

١ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/ ١٦٠- ١٦١).
٢ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٦٨٣).
٣ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٢٣).

وَيَوْمًا علَى نَجْرَانَ وَافَتْ فَخِلْتُهَا كَأَحْسَنِ مَا ضَمَّتْ إِلَيَّ الأَبَاطِحُ
بِمَشْيٍ كَهَزِّ الرُّمْحِ بَادٍ جَمَالُهُ إِذَا جَدَفَ المَشْيَ القِصَارُ الدَّحَادِحُ

وفي قصيدة أخرى بدأها بمقدمة طللية ثم مضى متحدثًا بالحكمة، في ذكر الدهر والموت وتقوى الله، في إطار جاهلي عام لم يَخلُ من بعض أثر الإسلام كذلك، وقد جاء منها[2]:

وما الدَّهرُ إلا تارَتانِ فمِنهُما أَمُوتُ وأُخْرَى أَبْتَغِي العَيْشَ أَكْدَحُ
وكِلْتاهُما قَدْ خُطَّ لي في صحيفتي فللعَيشُ أَشْهَى لي وللْمَوْتُ أَرْوَحُ
إذا مِتُّ فانعيني بما أنا أهلُهُ وذُمِّي الحَيَاةَ؛ كُلُّ عَيْشٍ مُتَرَّحُ

وجاء منها:

تَقُولُ تَرَبَّحْ يَغمُرِ المالُ أهلَهُ كُبَيْشَةُ والتَّقوَى إلَى اللهِ أربَحُ

وفي موضع آخر في الحكمة وذكر الدهر[3]:

لاَ يُعْتِبُ الدَّهْرُ مَنْ أَمْسَى يُعَاتِبُهُ ولاَ يَزَالُ عَلَيْهِ سَاخِطًا زَارِي
لَيْسَ الفُؤَادُ بِرَاءٍ أَرْضَهَا أَبَدًا ولَيْسَ صَارِيَهُ عَنْ ذِكْرِهِمْ صَارِ

وقال[4]:

إِنْ يَنْقُصِ الدَّهْرُ مِنِّي فَالْفَتَى غَرَضٌ لِلدَّهْرِ مِنْ عُودِهِ وَافٍ ومَثْلُومُ
وإِنْ يَكُنْ ذَاكَ مِقْدَارًا أُصِبْتُ بِهِ فَسِيرَةُ الدَّهْرِ تَعْوِيجُ وتَقْوِيمُ
لاَ يُحْرِزُ المَرْءَ أَنْصَارٌ ورَابِيَةٌ تَأْبَى الهَوَانَ إِذَا عُدَّ الجَرَاثِيمُ
لاَ تَمْنَعُ المَرْءَ أَحْجَاءُ البِلادِ ولَا ثُبْنَى لَهُ فِي السَّمَوَاتِ السَّلاَلِيمُ

---

١ الدحادح: جمع دحداح وهو القصير السمين. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٤٣٤).
٢ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٢٢).
٣ انظر: المصدر السابق (ص٢٩).
٤ انظر: المصدر السابق (ص٢٤).
٥ أحجاء البلاد: أطرافها. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٤/ ١٦٦).

٥- النجاشي الحارثي:

هو قيس ين عمرو بن مالك، من بني الحارث بن كعب من كهلان[١] وُلد بنجران من أرض اليمن، سُمِّي بالنجاشي لأن لونه يقارب لون الحبشة، وكان شاعرًا جريئًا على الهجاء؛ حيث كانت بينه وبين عبد الرحمن بن حسان بن ثابت مهاجاة، وهجا قريشًا كذلك، وتعرَّض لمهاجاة بني عجلان وشاعرهم تميم بن أُبيّ ابن مقبل وأفحش في هجائه، فشكوه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ الذي هدده بقطع لسانه، وقد انتقل النجاشي إلى الكوفة، وأدرك خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان من شيعته، وهجا معاوية وهجا أهل الكوفة كذلك[٢]

ويُقال: إنه كان فاسقًا مفحشًا في هجائه، وبلغ مِن فسقِه -فيما رُوِي- أنه حينما كان بالكوفة شرب خمرًا في نهار رمضان مع رفيق له يُدعى أبا سمَّال الأسدي، حتى سكرا وافتضح أمرهما، فقُبِض عليه بينما فرَّ صاحبه الأسدي، ولمَّا أُتِيَ به إلى علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قال له: ويحك، ولدانُنا صيام وأنت مفطر؟! ثم ضربه ثمانين سوطًا وزاده عشرين، فقال: ما هذه العلاوة يا أبا الحسن؟ فقال: هذه لجرأتك على الله في شهر رمضان[٣] ومع هذا فقد ظل النجاشي على ولائه وتشيُّعِه لعلي بن أبي طالب، وناصره في موقعة صفِّين، وقد امتدَّ به العمر حتى شهد مقتل الحسين بن علي -رضي الله عنه- في خلافة الأموي يزيد بن معاوية، ثم عاد بعدها إلى اليمن وتوفِّيَ بها[٤]

والنجاشي شاعر خبيث اللسان، مفحش في الهجاء، ومع هذا فلشعره رونق وعذوبة وديباجة حسنة، وله كذلك بعض من المديح وشيء من الحكمة، ومن جيد شعره ما قاله يهجو معاوية ويمدح عليًّا[٥]

يـا أيُّهـا الملـكُ المُبـدِي عَداوَتَـهُ روِّئْ لِنَفْسِـكَ أيَّ الأمـرِ تَـأْتَمِرُ

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣١٧).
٢ انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص١٣٢).
٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣١٧- ٣١٨).
٤ انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص١٣٢).
٥ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣٢٠).

وما شَعَرْتُ بما أضمرتَ من حَنَقٍ ... حتَّـى أتَتْنـي بـه الأخبـارُ والنُّـذُرُ
فـإنْ نَفِسْتَ علـى الأقوامِ مَجْـدَهُمُ ... فابسُـطْ يـديكَ فـإنَّ الخيـرَ يُبتـدَرُ
واعلَـمْ بـأنَّ علـيَّ الخيـرِ مِـن نَفَـرٍ ... شُـمِّ العـرانينِ لا يَعلُـوهُمُ بَشَـرُ
نِعـمَ الفتـى أنـتَ إلَّا أنَّ بينَكُمـا ... كما تَفاضَلَ ضوءُ الشَّمسِ والقمرُ
ومـا إخالُـكَ إلَّا لسـتَ منتهيًـا ... حتَّـى يمسَّـكَ مِـن أظفـارِهِ ظُفُـرُ
إنّـي امرؤٌ قلَّ مـا أثنِـي علـى أحَدٍ ... حتَّى أرَى بعضَ مـا يـأتِي ومـا يَـذَرُ
لا تمـدحَنَّ امـرأً حتَّـى تجرِّبَـهُ ... ولا تَـذُمَّنَّ مـا لَـمْ يَبْلُـهُ الخَبَـرُ

ورُوِيَ عنه في هجاء قريش[1]:

إنَّ قريشًـا والإمامـةَ كالـذي ... وفَـى طَرَفـاهُ بعـدَ أنْ كـانَ أجـدَعا
وحُـقَّ لمَـنْ كانَـتْ سـخينَةُ قومَـهُ ... إذا ذُكِـرَ الأقـوامُ أنْ يَتَقَنَّعـا

وجاء من قوله في هجاء بني عجلان رهط تميم بن مقبل؛ وهي القصيدة التي هدده بشأمها عمر بن الخطاب[2]:

إذَا اللهُ عَـادَى أهْـلَ لُـؤْمٍ وَرِقَّـةٍ ... فَعَادَى بَنِـي العَجْـلاَنِ رَهْطَ ابْنِ مُقْبِلِ
قُبَيِّلَـةٌ لاَ يَغْـدِرُونَ بِذِمَّـةٍ ... ولَا يَظْلِمُـونَ النَّـاسَ حَبَّـةَ خَـرْدَلِ
وَلاَ يَـرِدُونَ المَـاءَ إلا عَشِـيَّةً ... إذا صَـدَرَ الـوُرَّادُ عَـنْ كُـلِّ مَنْهَـلِ
تَعَـافُ الكِـلاَبُ الضَّـارِيَاتُ لُحُـومَهُمْ ... وَتَأكُـلُ مِـنْ كَعْـبٍ وَعَـوْفٍ وَنَهْشَـلِ
وَمَـا سُـمِّيَ العَجْـلاَنَ إلَّا لِقَوْلِـهِ ... خُذِ القَعْبَ واحلبْ أيُّهَا العَبْدُ واعْجَلِ

ومن هجائه لأهل الكوفة[3]:

إذا سـقَى اللهُ قَوْمًـا صَـوْبَ غَادِيَـةٍ ... فَـلَا سَـقَى اللهُ أهْـلَ الكُوفَـةِ المَطَـرَا
التَّـاركينَ علـى طُهْـرٍ نِسَـاءهُمُ ... والنَّـاكِحِينَ بِشَـطَّيْ دِجْلَـةَ البَقَـرَا

---

١ انظر: المصدر السابق (١/ ٣٢٠).
٢ السخينة هي حساء من دقيق كانت تأكله قريش، لُقِّبت به من باب الهجاء. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٣/ ٢٠٦).
٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٤٦).
٤ انظر: المصدر السابق (١/ ٣١٨).

والسَّـــارِقِينَ إذَا مَـــا جَـــنَّ لَـــيْلُهُمُ والطَّـــالِبِينَ إذا مَـــا أصْـــبَحُوا السُّـــوَرَا

ومن خير شعره الذي لا يخلو من الحكمة ونبرة الحماسة قوله[1]:

أبلِـغْ شِـهابًا وخيـرُ القـولِ أصـدَقُهُ أنَّ الكتائـــبَ لا يُهـــزَمْنَ بالكُتُـــبِ
تُهدِي الوَعِيدَ بأعلَى الرَّمل مِن إضَمٍ فـــإنْ أردتَ مِصـــاعَ القـــومِ فـــاقتَرِبِ
وإنْ تَغِبْ فـي جُمـادَى عنْ وقائعِنـا فسـوفَ نَلقـاكَ فـي شَـعبانَ أو رَجَـبِ

٦- عمرو بن الأهتم المنقري:

هو عمرو بن سنان بن سُمَيّ بن سنان بن خالد بن منقر التميمي، عُرِف أبوه بالأهتم لأنَّ قيس بن عاصم المنقري ضربه بقوسٍ فهتم فمه، وأمُّه تُدعَى غُفرة، وكانت سبيَّة من الحيرة، وكان جميلًا، عُرِف بالمكحَّل؛ لجماله، وكان سيّدًا شريفًا في قومه، وأخوه هو عبد الله بن الأهتم جد خالد بن صفوان من أشهر خطباء العصر الأموي[2].

وابن الأهتم شاعر جاهلي مقدَّم، أدرك الإسلام ووفد على النَّبيّ ﷺ مع قومه فأسلم، في العام التاسع للهجرة، وسأله النَّبيُّ ﷺ عن الزبرقان بن بدر التميمي فمدحه ثم هجاه دون أن يكذب في الحالتين، وقد اشترك ابن الأهتم في الفتوحات الإسلامية في بلاد فارس، وعُمِّر طويلًا حتى توفِّيَ في خلافة معاوية عام ٥٧هـ/٦٧٦م[3].

وشعر عمرو بن الأهتم جزل فخم اللفظ، تدور موضوعاته حول سائر الموضوعات الجاهلية؛ كالنسيب وذكر الأطلال والحكمة والفخر والوصايا والوصف، ومن شعره في النسيب وذكر الأطلال[4]:

---

١ انظر: الحماسة البصرية، علي بن أبي الفرج البصري (١/ ١٠٤)، تحقيق: مختار الدين أحمد، طبعة: عالم الكتب، بيروت، د.ط، د.ت.
٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٦١٧- ٦١٨).
٣ انظر: شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، يوسف الطريفي (ص٢٣٠).
٤ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص١٢٥).

أَلا طَرَقَتْ أَسماءُ وَهْيَ طَرُوقُ ... وَبانَتْ عَلَى أَنَّ الخَيالَ يَشُوقُ
بِحاجَةِ مَحزونٍ كَأَنَّ فُؤادَهُ ... جَناحٌ وهَى عَظماهُ فَهْوَ خَفُوقُ
وَهانَ عَلَى أَسماءَ أَنْ شَطَّتِ النَّوى ... يَحِنُّ اِلَيها وَالِهٌ وَيَتُوقُ
ذَرِيني فَإِنَّ البُخلَ يا أُمَّ هَيثَمٍ ... لِصالِحِ أَخلاقِ الرِّجالِ سَرُوقُ

وقد جاء منها في الحكمة:

وَكُلُّ كَريمٍ يَتَّقِي الذَّمَّ بِالقِرَى ... وَلِلخَيرِ بَينَ الصَّالِحينَ طَرِيقُ
لَعَمرُكَ ما ضاقَتْ بِلادٌ بِأَهلِها ... وَلَكِنَّ أَخلاقَ الرِّجالِ تَضِيقُ

ويبدو من خلال ما انتهى إلينا من شعره أنه كان ذا نُبلٍ وحكمة، متَّصفًا بالمكارم والخلق؛ ويتضح هذا من وصيَّته لولده في إحدى قصائده؛ حيث يقول[1]:

وَإِنَّكَ لَنْ تَنالَ المَجدَ حتَّى ... تَجُودَ بِما يَضِنُّ بِهِ الضَّمِيرُ
بِنَفسِكَ أَو بِمالِكَ في أُمورٍ ... يَهابُ رُكوبَها الوَرِعُ الدَّثُورُ
وَجارِيَ لا تُهينَنَّهُ وَضَيفِي ... إِذا أَمسَى وَراءَ البَيتِ كُورُ
يَؤُوبُ إِلَيكَ أَشعَثَ جَرَّفَتْهُ ... عَوانٌ لا يُنَهْنِهُها الفُتُورُ
أَصِبْهُ بِالكَرامَةِ وَاحتَفِظْهُ ... عَلَيكَ فَإِنَّ مَنطِقَهُ يَسِيرُ
وَإِنَّ مِنَ الصَّديقِ عَلَيكَ ضِغْنًا ... بَدا لي إِنَّني رَجُلٌ بَصِيرُ
بِأَدواءِ الرِجالِ إِذا التَقَيْنا ... وَما تُخفِي مِنَ الحَسَكِ الصُّدورُ
فَإِنْ رَفَعُوا الأَعِنَّةَ فَارفَعَنْها ... إِلَى العُليا وَأَنتَ بِها جَدِيرُ
وَإِنْ جَهَدُوا عَلَيكَ فَلا تَهَبْهُم ... وَجاهِدْهُم إِذا حَمِيَ القَتِيرُ
فَإِنْ قَصَدوا لِمُرِّ الحَقِّ فَاقصِدْ ... وَإِنْ جارُوا فَجُرْ حتَّى يَصِيروا

وجاء منها في الفخر:

وَلَوْ أَنِّي أَشاءُ كَنَنْتُ جِسمي ... وَغادَاني شِواءٌ أَو قَدِيرُ
وَلاعَبَني عَلَى الأَنماطِ لُعْسٌ ... عَلَيهِنَّ المَجاسِدُ وَالحَرِيرُ

---

١ انظر: المصدر السابق (ص٤١٠).

وَلَكِنِّـــي إِلـــى تَرِكـــاتِ قَـــومٍ هُـــمُ الرُّؤســـاءُ وَالنُّبْـــلُ البُحـــورُ

٧- جران العود:

هو عامر بن الحارث النميري، شاعر جاهلي أدرك الإسلام، وعُرِف باسم جران العود؛ لقوله لامرأتيه[١]

خُـــذا حَـــذَرًا يـــا حنَّتَـــيَّ فـــإنَّني رأيـتُ جِـرانَ العـودِ قَـدْ كـادَ يُصـلِحُ

وقد برع جران العود في الوصف وذكر الصِّبا والنَّسيب، وشعره ذو طابع بدوي جزل وإيقاع موسيقيٍّ عذبٍ، وقد سمع القرآن واقتبس منه كلمات وردت في شعره؛ كقوله[٢]

وأدركـنَ أعجـازًا مِـنَ اللَّيـلِ بعـدَما أقـــامَ الصَّـــلاةَ العابـــدُ المتحنِّـــفُ

وممَّا رُوِيَ عنه أنه ورفيقٌ له يُدعَى الرَّحَّال، تزوَّج كلٌّ واحد منهما امرأة، فلَقِيا منهما مكروهًا، فقال جران العود في ذم النساء[٣]

ألا لا تَغُـــرَّنَّ امـــرأً نوفليَّـــةٌ علـى الـرَّأسِ بعـدي أو ترائـبُ وُضَّـحُ
ولا فـاحِمٌ يُسـقَى الـدِّهانَ كأنَّـه أســـاودُ يَزْهاهـــا لِعَينيـــكَ أبطَـــحُ
وأذنـابُ خيـلٍ عُلِّقَـتْ فـي عقيصـةٍ تَـرَى قُرطَهـا مِـن تحتِهـا يتطـوَّحُ

ومما جاء فيها مسترسلًا في ذم النساء:

هما الغولُ والسَّعلاءُ حَلْقِيَ منهُما مكَـدَّحُ مـا بـين التَّراقـي مُجَـرَّحُ
لقَـدْ عـاجلَتْني بالنصـاءِ وبَيْتُهـا جديـدٌ ومِـن أثوابِهـا المِسـكُ يَـنفَحُ
خذا نصف مالي واتركا لي نصفَه وبينـــا بـــذمٍّ فـــالتعزُّب أروَحُ

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٧٠٨).
٢ منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون، طبعة: دار الكتب العلمية (ص٩٠).
٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٧٠٨- ٧٠٩).

ومن أجمل قصائده قوله:[1]

بــانَ الخَلِــيطُ فهالَتْــكَ التَّهاوِيــلُ ... وَالشَّــوقُ مُحتَضَــرٌ وَالقَلــبُ مَتبــولُ

يُهدِي السَّلامَ لَنا مِن أَهلِ ناعِمَةٍ ... إِنَّ السَّــلامَ لِأَهــلِ الــوُدِّ مَبــذولُ

أَنَّــى اهتَــدَيتِ بِمَومــاةٍ لِأَرحُلِنــا ... وَدونَ أَهلِــكِ بــادِي الهَــولِ مَجهــولُ

لِمُطــرِقينَ علَــى مَثْنــى أَيــامِنِهِم ... رامُــوا النُّــزُولَ وَقَــدْ غــارَ الأَكاليــلُ

طالَـتْ سُـراهُم فَـذاقوا مَـسَّ مَنزِلَـةٍ ... فيهــا وُقــوعُهُمُ وَالنَّــومُ تَحلِيــلُ

ومن مطالعه الطللية قوله:[2]

ذَكَرتَ الصِّبا فَانهَلَّتِ العَينُ تَذرِفُ ... وَراجَعَكَ الشَّـوقُ الَّـذي كَنـتَ تَعـرِفُ

وَكـانَ فُؤادي قَدْ صَحا ثُمَّ هـاجَني ... حَمــائِمُ وُرْقٌ بِالمَدينَــةِ هُتَّــفُ

ومما يُتمثَّل به من شعره:[3]

فـلا تَـأمَنُوا مَكـرَ النِّسـاءِ وأمسِـكُوا ... عُـرَى المـالِ عـن أبنـائهنَّ الأصـاغِرِ

فإنَّــكَ لَــمْ يُنــذِرْكَ أمــرًا تخافُــهُ ... إذا كُنْــتَ منــه جــاهلًا مثــلُ خــابِرِ

---

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٣٩).
٢ انظر: المصدر السابق (ص٤١).
٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٧١٢).

نماذج من أشعار المخضرمين

١- قال أبو زبيد حرملة بن المنذر الطائي في مرثية له[1]:

إِنَّ طُــولَ الحَيــاةِ غَيــرُ سَــعُودِ ... وَضَــــلالٌ تَأمِيــلُ طــولِ الخُلــودِ
عُلِّــلَ المَــرءُ بِالرَّجــاءِ وَيُضــحِي ... غَرَضًــا لِلمَنــونِ نَصْــبَ العُــودِ
كُــلَّ يَــومٍ تَرميــهِ مِنهــا بِســهمٍ ... فَمُصِــيبٌ أَوصــافَ غَيــرِ بَعيــدِ
مِن حَميمٍ يُنسِي الحَياءَ جَليدَ الـ ... ــــقَومِ حتَّــى تَــراهُ كَــالمَلبودِ
كُــلُّ مَيْــتٍ قَــدِ اغتَفَــرتُ فَــلا أَجـ ... ــــزَعُ مِــنْ والِــدٍ وِلا مَولــودِ

٢- وقال عمرو بن أحمر الباهلي[2]:

بــانَ الشَّــبابُ وَأَفنَــى ضِــعفَهُ العُمُــرُ ... لِلَّهِ دَرُّكَ أَيَّ العَــيشِ تَنتَظِــرُ
هَــلْ أَنــتَ طالِــبُ وِتــرٍ لَستَ مُدرِكَــهُ ... أَم هَــلْ لِقَلبِــكَ عَــن أُلّافِــهِ وَطَــرُ
أَم كُنــتَ تَعــرِفُ آيــاتٍ فَقَــدْ جَعَلَــتْ ... أَطــلالُ إِلفِــكَ بِالوَدكــاءِ تَعتَــذِرُ
أَم لا نــزالُ نُرَجِّــي عيشَــةً أُنُفًــا ... لَــمْ تُــرجَ قَبــلُ وَلَــم يُكتَــبْ بِهــا زُبُــرُ

٣- وقال العباس بن مرادس[3]:

إِذا الخَيلُ جالَتْ عَنْ صَريعٍ نُكِرُّها ... عَلَــيهِم فَمــا يَــرجِعنَ إِلَّا عَوابِســا
نُطــاعِنُ عَــن أَحســابِنا بِرِماحِنــا ... وَنَضــرِبُهُم ضَــرْبَ المُذِيــدِ الخَوامِســا
وَكُنــتُ أَمــامَ القَــومِ أَوَّلَ ضــارِبٍ ... وَطاعَنــتُ إِذْ كــانَ الطِّعــانُ تَخالُســا
فَكــانَ شُــهودي مَعبَــدٌ وَمُخــارِقٌ ... وَبِشــرٌ وَمــا استَشــهَدتُ إِلَّا الأَكابِســا

---

١ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٥٨١- ٥٩٢).
٢ انظر: المصدر السابق (ص٦٧٥).
٣ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص٢٠٦).

٤- وقال مالك بن حريم الهمداني:[١]

جَزعتَ وَلَم تَجزَعْ مِنَ الشَّيبِ مَجزَعا ... وَقَدْ فاتَ رِبعيُّ الشَّبابِ فَوَدَّعا
وَلاحَ بَياضٌ في سَوادٍ كَأَنَّهُ ... صِوارٌ بِجَوٍّ كانَ جَدبًا فَأَمرَعا
وَأَقبَلَ إِخوانُ الصَّفاءِ فَأَوضَعوا ... إِلى كُلِّ أَحوَى في المَقامَةِ أَفرَعا
تَذَكَّرتُ سَلمَى وَالرِّكابُ كَأَنَّها ... قَطًا وارِدٌ بَينَ اللِّفاظِ وَلَعلَعا
فَحَدَّثتُ نَفسي أَنَّها أَو خَيالُها ... أَتانا عَشاءً حينَ قُمْنا لِنَهجَعا
فَقُلتُ لَها بيتي لَدَينا وَعَرِّسي ... وَما طَرَقَتْ بِعدَ الرُّقادِ لِتَنفَعا
مُنَعَّمَةٌ لَم تَلقَ في العَيشِ تَرحَةً ... وَلَمْ تَلقَ بؤسًا عَندَ ذاكَ فَتَجدَعا
أَهيمُ بِها لَمْ أَقضِ مِنها لُبانَةً ... وَكُنتُ بَها في سالِفِ الدَّهرِ موزِعا

٥- وقال أسماء بن خارجة الفزاري:[٢]

إِنِّي لَسائِلُ كُلِّ ذي طِبٍّ ... ماذا دَواءُ صَبابَةِ الصَّبِّ
ودَواءُ عاذِلَةٍ تُباكِرُني ... جَعَلَتْ عِتابي أَوجَبَ النَّحْبِ
أَوَلَيسَ مِن عَجَبٍ أُسائِلُكُم ... ما خَطْبُ عاذِلَتي وَما خَطْبي
أَبِها ذَهابُ العَقلِ أَمْ عَتَبَتْ ... فَأَزيدَها عَتْبًا عَلى عَتْبِ

٦- وقال سُحيم بن وَثيل الكلبي مفتخرًا:[٣]

سأحيَا ما حَيِيتُ وإنَّ ظَهْري ... لمُستندٍ إلى نضدٍ أمينِ
كريمِ الخالِ من سَلَفي رياحٍ ... كنصلِ السَّيْفِ وضَّاحِ الجَبينِ
فإنَّ قناتنا مَشِظٌ شَظاها ... شَديدٌ مَدُّها عُنُقَ القَرينِ

---

١ انظر: المصدر السابق (ص٦٢- ٦٧).
٢ انظر: المصدر السابق (ص٤٨- ٥٢).
٣ انظر: المصدر السابق (ص٢٠).

٧- وقال ربيعة بن مالك المعروف بالمُخبَّل السعدي:[١]

فَإِنْ يَكُ غُصْنِي أَصبَحَ اليَومَ ذاوِيًا ... وَغُصنُكَ مِن ماءِ الشَّبابِ رَطِيبُ
فإنَّ حنَى ظَهْري جَوانٍ تركنَهُ ... عريشًا فمَشْيِي في الرِّجالِ دَبِيبُ
وَما لِلعِظامِ الرَّاجِفاتِ مِنَ البِلَى ... دَواءٌ وَما لِلرُّكبَتَيْنِ طَبِيبُ
إذا قالَ أصَحابي رَبيعُ أَلا تَرَى ... أَرَى الشَّخصَ كَالشَّخصَيْنِ وهْوَ قَرِيبُ
فَلا يُعجِبَنْكَ المَرءُ أَنْ كانَ ذا غِنًى ... سَتَترُكُهُ الأيَّامُ وَهْوَ حَرِيبُ
وَكائِنْ تَرَى في النَّاسِ مِن ذي بَشاشَةٍ ... ومَنْ شَأنُهُ الإقتارُ وَهْوَ نَجِيبُ

٨- وقال عبد الله بن عَنَمة الضَّبِّي:[٢]

فلمَّا رأيتُ الدَّارَ قفرًا سألتُها ... فعيَّ علينا نُؤيُها ورمادُها
فلَمْ يَبقَ إلَّا دمنةٌ ومَنازلٌ ... كما رُدَّ في خطِّ الدَّواةِ مِدادُها
إذا الحارثُ الحرَّابُ عادَى قبيلةً ... نَكاها ولَمْ تَبْعَدْ عليه بلادُها
سَمَوْتُ بِجُرْدٍ في الأعنَّةِ كالقَنا ... وهُنَّ مَطايا ما يحلُّ فِصادُها

٩- وقال المُزَرِّد بن ضرار يصف سيفًا:[٣]

كأنَّ شعاعَ الشَّمسِ في حجَراتِها ... مصابيحُ رُهبانٍ زَهَتْها القَنادِلُ
وجوبٌ يُرَى كالشَّمسِ في طخيَةِ الدُّجَى ... وأبيضُ ماضٍ في الضَّريبةِ قاصِلُ
سلافُ حديدٍ ما يزالُ حسامُهُ ... ذَلِيقًا وقدَّتْهُ القُرونُ الأوائلُ
وأملسُ هنديٌّ متى يَعْلُ حدُّهُ ... ذُرَى البيضِ لا تَسلَمْ عليه الكواهِلُ
إذا ما عَدَا العادِي به نحوَ قِرْنِهِ ... وقَدْ سامه قولًا: فَدَتْكَ المَنَاصِلُ

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤١٠).
٢ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص٣٧٩- ٣٨٢).
٣ انظر: المصدر السابق (ص٩٩).

١٠- وقال عمرو بن براقة[١]

تَقــولُ سُــلَيمى لا تَعَــرَّضْ لِتلْفــةٍ ... وَلَيلُــكَ عَــن لَيــلِ الصَّــعاليكِ نــائِمُ
وكَيــفَ يَنــامُ اللَّيــلَ مَــن جُــلُّ مالِــهِ ... حُســامٌ كَلَــونِ المِلــحِ أَبــيَضُ صــارِمُ
غَمُوضٌ إِذا عَضَّ الكَريهَةَ لَمْ يَدَعْ ... لَــهُ طَمَعًــا طَــوعُ اليَمــينِ مُــلازِمُ
أَلَــمْ تَعلَمــي أَنَّ الصَــعاليكَ نَــومُهُم ... قَليــلٌ إِذا نــامَ الخَلِــيُّ المُســالِمُ
إِذا اللَّيــلُ أَدجَــى واكفَهَــرَّ ظَلامُــهُ ... وَصــاحَ مِــنَ الأَفــراطِ بــومٌ جَــواثِمُ
وَمــالَ بِأَصــحابِ الكَــرَى غالِباتُــهُ ... فَــإِنّي علَــى أَمــرِ الغَوايَــةِ حــازِمُ
كَــذَبتُم وَبَيــتِ اللهِ لا تَأخُــذونَها ... مُراغَمَــةً مــا دامَ لِلسَّــيفِ قــائِمُ

١١- **ومن أشعار النساء المخضرمات** ما قالته عاتكة بنت عبد المطلب عمَّة النَّبيّ ﷺ تفتخر بيوم عكاظ[٢]

ســائلْ بِنــا فــي قومِنــا ... ولْيَكْــفِ مِــن شَــرِّ سَــماعُهْ
قيسًــا ومــا جمَعُــوا لنــا ... مِــن مجمــعٍ بــاقٍ شــناعُهْ
فيــه السَّــنَوَّرُ والقَنــا ... والكــبشُ مُلتمِــعٌ قناعُــهْ
بِعُكــاظَ يُعشِــي النَّاظريــ ... ــنَ إذا هُــمُ لمَحــوا، شــعاعُهْ
فيــه قَتَلْنــا مالِكًــا ... قســرًا وأســلَمَهُ رعاعُــهْ
ومجــدَّلًا غادَرْنَــهُ ... بالقــاعِ تَنْهَسُــهُ ضِــبَاعُهْ

١٢- وقالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل؛ وهي زوجة عبد الله بن أبي بكر الصِّدِّيق، ولمَّا مات عنها تزوَّجت ابن عمها عمر بن الخطاب، فلمَّا استشهد قالت ترثيه[٣]

مَــنْ لِــنَفْسٍ عادَهــا أحزانُهــا ... ولِعَــينٍ شــفَّها طُــولُ السَّــهَدْ
جســدٌ لُفِّــفَ فــي أكفانِــهِ ... رحمــةُ اللهِ علــى ذاكَ الجَسَــدْ

---

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص١٤٩).
٢ انظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ص٥٢٦- ٥٢٧).
٣ انظر: المصدر السابق (ص٧٧٦).

فيــه تَفجِيــعٌ لِمَــولًى غــارِمٍ لَــمْ يَدَعْــهُ اللهُ يَمشِــي بِسَــبَدْ

١٣- وقالت عَمرة بنت مرادس ابنة الخنساء ترثي أخا لها[١]

أعينـــيَّ لا أَخْتِلْكُمـــا بخيانـــةٍ أبـــى الـــدَّهرُ والأيَّـــامُ أن أتصـــبَّرا
ومـا كنـتُ أخشـى أن أكـونَ كـأنَّني بعيـــرٌ إذا يُنعـــى أُخـــيَّ تحسَّـــرا
تـرى الخَصْـمَ زورًا عـن أُبـيَّ مهابَـةً ولـيسَ الجلـيسُ عـن أُبـيَّ بـأزورا

١٤- وقالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعية تبكي وترثي[٢]

يـا عينُ جُـودِي عنـدَ كـلِّ صباحِ جُـــودِي بأربعـــةٍ علَـــى الجَـــرَّاحِ
قَـدْ كنـتَ لـي جـبلًا أَلُـوذُ بِظِلِّـهِ فتركتَنـــي أُضـــحِي بـــأجرَدَ صـــاحِ
قد كنتُ ذاتَ حميَّةٍ ما عِشتَ لي أمشِـي البَـرَازَ وكنـتَ أنـتَ جَنـاحي
فـاليومَ أخضـعُ للـذَّليلِ وأتَّقِـي منـــه وأدفَـــعُ ظَـــالمي بـــالرَّاحِ
وأغـضُّ مِـن بَصَـرِي وأعلـمُ أنَّنـي قَـدْ بـانَ حَـدُّ فوارسـي ورمـاحِي
وإذا دَعَـتْ قُمريَّـةٌ شَـجَنًا لهـا يومَـا علـى فَـنَنٍ دعَـوتُ صَـباحي

١٥- وكان النَّبيُّ ﷺ قد أمر بقتل النَّضر بن الحارث، وكان من ضمن أسرى بدرٍ، وكان شديد العداوة للنَّبيِّ ﷺ، وقالت أخته قُتيلة بنت الحارث ترثي أخاها وتعاتب النَّبيَّ ﷺ على قتله؛ وقيل: بل هي ابنته[٣]

هَـلْ يَسْـمَعَنِّي النَّضْـرُ إنْ ناديتُـهُ إنْ كـانَ يَسـمَعُ ميِّـتٌ لا يَنْطِـقُ
ظَلَّـتْ سُـيُوفُ بَنِـي أبيـهِ تَنُوشُـهُ للهِ أرحـــامٌ هنـــاكَ تَشَـــقَّقُ
قَسْـرًا يُقـادُ إلَـى المنيَّـةِ متعبًـا رَسْـفَ المقيَّـدِ وهْـو عـانٍ مُوثَـقُ
أمحمَّـدٌ هـا أنـتَ صِـنْوُ كريمـةٍ فـي قومِهـا والفحـلُ فحـلٌ مُعْـرِقُ

---

١ انظر: المصدر السابق (ص٧٧١).
٢ انظر: المصدر السابق (ص٦٤٢- ٦٤٤).
٣ انظر: زهر الآداب وثمر الألباب، القيرواني (١/ ٦٦)، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت.

ما كانَ ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ وربَّما مَنَّ الفتَى وهْو المَغِيظُ المُحْنَقُ

فالنَّضرُ أقرَبُ مَنْ قَتلتَ قَرابةً وأحقُّهم إنْ كانَ عِتْقٌ يُعتَقُ

وذُكِر أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا انتهت إليه تلك القصيدة؛ رقَّ لها ودمعت عيناه وقال لأبي بكر- رضي الله عنه - : «**لو كنتُ سمعتُ شِعرَها ما قتلتُه**»، وقد غمز البعض في تلك الأبيات وقيل: إنها مصنوعة.

النَّثر في عصر صدر الإسلام

نظرة عامة:

كان ظهور الإسلام في هذا العصر إيذانًا بتطوُّر النثر وازدهاره ازدهارًا واسعًا فاق ازدهاره في الجاهلية، صحيح أنَّ النثر الجاهلي شهد تطوُّرًا قبيل ظهور الإسلام؛ بازدهار الخُطَب والمنافرات وما حُفِظ من القصص والأخبار والحِكَم والأمثال وسجع الكهَّان، ولكنَّه كان لا يزال أقل أهمية من الشعر؛ الذي نال اهتمام رواية الجاهليين بشكل أوسع ولم يعنوا برواية النثر< الذي لم يصلنا منه إلا نزرٌ يسيرٌ، وهو مضطرب الرواية، أما النثر الإسلامي فقد اعتنى العرب بروايته وزادت أهميَّته مع ازدهار الخطابة بظهور الإسلام، وتعاظُم حاجة العرب إليها في أغراضهم الدينية والسياسية والمحفلية، وتطورت الكتابة وانتشرت كذلك مع هذا العصر؛ حيث كانت نادرة جدًّا في العصر الجاهلي، فضلًا عن النضوج الفكري والعقلي الذي أحدثه الإسلام في نفوس العرب، فصار نثرهم في خُطَبِهم ورسائلهم مرتَّب الأفكار واضح المعاني بدلًا من الاهتمام فقط بالسجع والترادف، فضلًا عن أن النثر الإسلامي كان أفصح لفظًا، وأيسر تركيبًا، مع استمرار جزالته وقوة أسلوبه كما كان في عصر الجاهلية، بالإضافة إلى تأثُّره الواضح بأسلوب القرآن الكريم من حيث اللفظ أو المعنى، فصار الخطباء والكتَّاب يقتبسون من القرآن ألفاظه ومعانيه؛ سواء كان اقتباسًا مباشرًا أم استلهامًا، ونضيف إلى كل هذا أن الرسول ﷺ ومِن بعده الخلفاء الراشدون وسائر الصحابة وعموم العرب احتاجوا إلى النثر أكثر من الشعر في نشر الدعوة والتأثير على الناس وإيصال أفكارهم؛ لأن الشعر مقيَّد بالأوزان والقوافي فلا يتَّسع اتساعًا لكل هذه الأغراض، بخلاف النثر الذي هو أسلس وأوسع مادة، فكان يتَّسِع لكل تلك الأغراض، فطغت أهميَّته على الشعر الذي انخفضت أهميَّته نوعًا ما في هذا العصر.

وبناء على ما سبق فقد صار النثر الإسلامي أكبر قدرًا وأوسعَ مدًى وأوثق رواية، ونستطيع تقسيم النثر في عصر صدر الإسلام إلى فرعين رئيسَيْنِ؛ هما: **الخطابة**؛ وهي الأجل والأعظم قدرًا، ثم **الرسائل**؛ التي بدأت في الاتساع هذا العصر بعدما كانت شِبه معدومة، بالإضافة كذلك إلى بعض التوقيعات والحِكَم المتناثرة التي أُثِرت عن بعض البلغاء.

١- الخطابة

(١) نهضة الخطابة وعوامل ازدهارها:

ازدهرت الخطابة ازدهارًا واسعًا في عصر صدر الإسلام، وزادت أهميتها وعظمت الحاجة إليها؛ إذِ احتاج لها الرسول محمد ﷺ في تبليغ الدعوة، ومِن بعده الخلفاء الراشدون وعموم صحابته، وكذلك الأمراء والقادة السياسيون والعسكريون؛ لأغراض مختلفة، ونستطيع أن نوجز أسباب نهضة الخطابه في البنود التالية:

١- زادت أهميتها لأغراض متعددة؛ فاحتاج إليها النَّبيُّ ﷺ، وكذلك الخلفاء الراشدون والوُعَّاظ من الصحابة في **نشر الإسلام وتبليغ الدعوة**، ولسائر الأغراض الدينية والوعظية، واحتاج إليها القادة العسكريون في الفتوحات من أجل **تحميس الجند** وتثبيتهم في المعارك وحضِّهم على الجهاد، فضلًا عن وفود قبائل العرب على النَّبيِّ ﷺ وظهور **الأحزاب السياسية** في أواخر هذا العصر، فاحتاج إليها السياسيون من أجل تعضيد مواقفهم السياسية.

٢- عضَّد الإسلام الخطابة فجعلها ركنًا من أركان الإسلام وشعيرة واجبة من شعائره؛ وذلك في خُطَب الجمعة والعيدين والحج، وبهذا صارت الخطابة لسان الدعوة والسبيل الأبرز لنشر الإسلام.

٣- انبهر العرب ببلاغة القرآن وتأثَّروا بالإسلام، فصار لديهم نضوج عقلي وفكري، وقد انعكس هذا على الخطابة فصارت مرتَّبة الأفكار، واضحة

المعاني، جليَّة الأغراض، متينة الأسلوب، وعضَّدها الاقتباس من القرآن مما أدَّى إلى ازدهارها فنًّا وفكرًا وأسلوبًا، بعد أن كانت بلاغتها من قبل قاصرة على السجع والعبارات المترادفة والمتناثرة.

٤- إن الخطابة أوسع مادة وأسلس من الشعر؛ فهي غير مقيَّدة بالأوزان والقوافي، كما أنها تتَّسع مادتها لكل تلك الأغراض السابقة، بخلاف الشعر؛ الذي بسبب تلك القيود العروضية لا يتَّسع لتلك الأغراض بشكل مستديم.

وعليه فقد صارت الخطابة عظيمة الأهمية، عالية القدر والمنزلة، وصار الخلفاء وسواهم من الولاة وقادة الجيوش والوعاظ خطباء فصحاء بالضرورة، ومع اتساع نطاق الفتوحات زادت أهيمتها من أجل تحميس الجنود وتثبيتهم، ونضيف إلى ذلك أن العرب كانوا لا يزالون في هذا العصر أصحاب سليقة لغوية سليمة وأصحاب بيان وفصاحة عالية، فزادت رفعة الخطابة لهذا العصر، واستمر ازدهارها بعد الإسلام مدة قرنين من الزمان، واشتهر من الخطباء في هذا العصر: الرسول ﷺ، وكذلك أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وكان علي بن أبي طالب هو أبلغ المتكلمين وأفصحهم بعد النَّبيّ ﷺ، فعلا أقرانه، وخطب عثمان بن عفان أحيانًا فأرتج عليه، فقال: ما يزغُ الله بالسلطان أكثر ممَّا يزغ بالقرآن، سيجعل الله بعد عسرٍ يسرًا، وبعد عيٍّ بيانًا، وأنتم إلى إمامٍ فعَّال أحوج منكم إلى إمامٍ قَوَّال[1] ومع هذا فقد أُثِرَت عنه بعض الخُطَب.

وممن اشتهر بالخطابة في هذا العصر سهيل بن عمرو؛ الذي كان أبرع خطباء قريش في الجاهلية، وأسلم متأخِّرًا بعد فتح مكة، وأُثِرَت عنه خطبة بليغة، كان لها أثر عظيم في حماية مكة من الردَّة بعد وفاة النَّبيّ ﷺ، واشتهر كذلك كلٌّ من خالد بن الوليد وعتبة بن غزوان ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن عباس

---

١ انظر: المصدر السابق (١/ ٧٥).

وعبد الله بن مسعود والأحنف بن قيس، ومن الخوارج: ابن وهب وحرقوص ابن زهير والمستورد بن علفة[1]

(٢) أقسام الخطابة وأغراضها:

نستطيع تقسيم الخطابة في العصر الإسلامي إلى أربعة فروع؛ هي:

١- **الخطابة الدينية والوعظية**: التي تهدف إلى تبليغ الدعوة وإيصال الدِّين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدخل في إطارها الوصايا والمواعظ.

٢- **الخطابة الحربية أو الحماسية**: التي احتاج إليها القادة العسكريون لتحميس جنودهم قبل المعركة وحضِّهم على الثبات والقتال وتقوية نفوسهم، وهذه ازدهرت مع حروب الرِّدَّة واتِّساع نطاق الفتوحات.

٣- **الخطابة السياسية**: التي احتاج إليها السياسيون في تعضيد مواقفهم السياسية؛ وهذا الفرع برز في أواخر هذا العصر مع اندلاع الفتنة وتحزُّب الأحزاب بين عليٍّ ومعاوية ثم مع ظهور الخوارج، وقد زادت أهيمتها أكثر مع تفاقم النزاعات السياسية في العصر الأموي.

٤- **الخطابة المحفلية**: التي برزت في أواخر عصر النَّبيِّ ﷺ حينما وفدت عليه القبائل العربية معلنة إسلامها، ومن بين أمثلتها حينما قدم عطارد ابن الحاجب بن زرارة على النَّبيِّ ﷺ في وفد قومه من تميم، فقام بين يديه مفاخرًا، فندب له رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن الشمَّاس فردَّ عليه مستوحيًا بمعاني الإسلام فاستجابوا له، وقد استمرت الخطابة المحفلية باستمرار وفود الأفراد والرسل والقبائل على الخلفاء الراشدين بعد النَّبيِّ ﷺ.

(٣) أسلوب الخطابة وملامحها:

كانت الخطابة في الجاهلية على روعتها تعتمد فقط على السجع وترادف العبارات المتناثرة، وتكتسب أغلب بلاغتها من هذا المنحنى؛ نظرًا إلى أن العرب لم

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ١١٢).

يكونوا متعلِّمين، فلم تتَّفق لهم القدرة على ترتيب أفكارهم بشكل منطقي، فكانت أفكارهم متبعثرة يغلب عليها الطابع العفوي، لذا فقد كان السجع وما يُحدِثه من جرس موسيقي هو أسلوبهم لبلوغ غرضهم من البلاغة، فلمَّا جاء الإسلام أحدث في العرب طفرة فكرية ودينية وروحية ومعنوية، فأمكنهم بذلك من ترتيب أفكارهم وتدبيج عباراتهم وتزيينها بالفكر والغاية وسمو الموضوع وعمقه، فضلًا عن الإتقان في تركيب وحسن رصف عباراتهم بدلًا من الاقتصار على السجع فقط؛ ليكون لها دويُّ الأثر في النفوس، ونستطيع أن نوجز خصائص الخطابة وملامحها في البنود التالية:

١- أصبحت الخُطَب الإسلامية تُفتتح بالتحميد والثناء على الله والصلاة على النَّبيّ ﷺ، فصار ذلك سنَّة فيها، والزعامة في البدء بالتحميد والثناء على الله ترجع إلى الرسول ﷺ، وسار الخلفاء الراشدون وسائر الخطباء والقادة على نفس النهج، والخروج عنه يُعتبر شُذُوذًا؛ قال الجاحظ: وعلى أنَّ خطباء السلف الطَّيِّب وأهل البيان من التابعين بإحسان ما زالوا يسمُّون الخطبة التي لم تُبتدَأ بالتحميد وتُستفتح بالتمجيد "**البتراء**"، ويُسَمُّون التي لم توشَّح بالقرآن وتُزيَّن بالصَّلاة على النَّبيّ ﷺ "**الشَّوهاء**"[١].

٢- أصبحت الخطابة الإسلامية خطابة عقيدة وانفتاح، حفلت بالتقوى والنزعة الإنسانية وروح التنظيمات التشريعية[٢] وعليه فقد صارت تميل إلى استعمال الحجة والبراهين وأساليب الإقناع والمنطق، بعدما كانت عبارة عن عبارات متناثرة تُزيَّن بالسجع فقط، فصارت بذلك أتمَّ نسجًا وأفضل إحكامًا، وصارت الخطابة الإسلامية أكثر عمقًا وذات موضوع موحَّد وأفكارها مرتَّبة ومنظمة، ترتبط فيما بينها بروابط معنوية ومنطقية، فضلًا عن ترادف العبارات وحسن إيقاعها، فكانت أروع سبكًا وأعمق دلالة.

---

١ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٦).
٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (ص٣١٨).

٣- تأثَّرت الخطابة الإسلامية بشكل واضح بالقرآن الكريم في آياته وألفاظه ومعانيه، ثم بالحديث النبوي الشريف، وأصبح الاقتباس من القرآن سمة الخطبة الإسلامية، وقد يكون اقتباسًا مباشرًا عن طريق ذكر آية قرآنية بنصِّها الصريح، أو اقتباسًا غير مباشر عن طريق استلهام الأفكار والمعاني، وهذا أضاف إلى الخطابة الإسلامية بلاغة فوق بلاغتها.

٤- سارت الخطابة الإسلامية على نفس نهج وأسلوب الخطابة الجاهلية في فخامة اللفظ الرصين الجزل، والأسلوب القوي المتين، والعناية بمواضع الإيجاز والإطناب، ولكنها وبحكم تأثير الإسلام صارت أعذب لفظًا وأرقَّ تعبيرًا، ومالت نوعًا ما إلى التفاصيل وتخلَّصت من الألفاظ الوعرة، وزادت عليها بإتقان التحسين والتحبير، وامتازت بترادف العبارة وحسن السبك ورص الجمل؛ ممَّا كان يصنع موسيقى آسرة تؤثِّر في وجدان السامع.

٥- قلَّ السجع في الخطب الإسلامية إلا ما جاء عفوًا، وكما علمنا فإنَّ السجع كان عماد الخطبة الجاهلية وسرَّ بلاغتها، فلمَّا جاء الإسلام قلَّ السجع وصار تزيين الخطبة معتمدًا على الناحية الفكرية والموضوعية، فضلًا عن ترادُف العبارة وحسن الرصف، ومن المعروف أن رسول الله ﷺ لم يكن يسجع في خطاباته، وكان يستعيض عن ذلك باستعمال الحجج والبراهين والمنطق، وسار على نهجه الخلفاء الراشدون وسائر الخطباء، ويرى فريقٌ من الباحثين أن النَّبيَّ ﷺ والخلفاء الراشدين قد انصرفوا عن السجع كراهية التَّشبُّه بالكهان؛ مستدلِّين على ذلك برواية عن عمر بن الخطاب؛ حيث وفد عليه صحار العبدي من بعض بلاد فارس، فسأله عمر عن وصف تلك الأنحاء وحال العرب هناك، فقال: **أرضٌ سهلها جبل، وماؤها وَشَل، وثمرها دَقَل، وعدوُّها بطل، وخيرها قليل، وشرها طويل، والكثير بها قليل، إن كثر الجند بها جاعوا، وإن قلُّوا ضاعوا**، فظهرت الكراهة على

وجه عمر حتى أنكر عليه فقال: أسجَّاع أنت أم مخبر؟![1] وسار مَن بعده على النهج نفسه من إنكار السجع والبعد عنه.

على أن الأخذ بهذا الاعتبار كسبب في الابتعاد عن السجع لا يعتبر دقيقًا؛ فإن السجع وإن قلَّ في الخطب الإسلامية فإنه لم يختفِ تمامًا، وربما ظهر عفوًا في بعض الخطب كما ظهر عفوًا في بعض خطبة الوداع للنَّبيِّ ﷺ، وكان علي ابن أبي طالب -رضي الله عنه- يسجع في خطبه، وفوق هذا فإن السجع قد تواجد في القرآن الكريم وتجلَّى في آياته، لذا فإنه من غير المقبول الاعتقاد أنهم كرهوا السجع فقط كراهية التَّشبُّه بالكهنة؛ ولكن القول هو أن العرب في جاهليتهم كانوا أميِّين وغير متعلِّمين، وكانت خطبهم عبارة عن جمل وعبارات متناثرة لا يربط بينها أي رابط منطقي أو موضوعي؛ بسبب عفويتهم، لذا كان السجع هو وسيلتهم الأولى والأبرز في تزيين خطبهم وتدبيجها وإكسابها البلاغة وطابع الحسن وبلوغ التأثير، فلمَّا جاء الإسلام صارت الخطبة تُزيَّن بعمق الموضوع وسموِّ الغاية وترتيب الأفكار وسلامة المنطق، فضلًا عن ترادف العبارة وحسن السبك والرصف، فقلَّت أهمية السجع وقلَّ أثره في الخطبة الإسلامية، لكنه لم يختفِ تمامًا؛ بل ربَّما أتى عفوًا بدون تكلف أو افتعال ولم يعد مُلزِما، وإن صحَّت الروايات عن ترك السجع كراهية للتَّشبُّه بالكهان والعرَّافين؛ فالأرجح أن رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين ومن سار على نهجهم لم يبغضوا السجع كلية؛ إنما كرهوا فقط ما كان منه متكلَّفًا مفتعَلًا كما كان سجع الكهان.

٢- الرسائل

(١) في العهد النبوي:

كانت الكتابة في العصر الجاهلي شبه معدومة، وكانت قاصرة فقط على بلاط الملوك وما كان من مراسلات بين الملوك ونظرائهم أو بين الملوك وقادتهم وأمرائهم

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ١١٤).

بداعي الضرورة، فضلا عن بعض الآثار والنقوش على الأحجار، وما ورد من بعض الوثائق النادرة؛ كوثيقة حصار الشِّعب الذي حاول فيه سادة قريش مقاطعة بني هاشم لحمايتهم النَّبيَّ ﷺ، وعدا ذلك فكانت الكتابة شبه معدومة، فلم يكن يعرف القراءة والكتابة غير نفرٍ قليل نادر.

ثم ما لبثت أن بدأت الرسائل تزدهر مع ظهور الإسلام وتزدهر معها الكتابة، وبدأ الإسلام يشجِّع عليها بأكثر من وجه، فنجد أن أول ما نزل من القرآن الكريم كان **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾**[1] كما حضَّ القرآن كذلك على ضرورة كتابة عهود الدَّيْن والبيع والشراء وسائر المواثيق التي تكون بين الناس.

ثم ما نلبث أن نجد رسول الله ﷺ نفسه يشجِّع عليها؛ ففي غزوة بدر لما انتصر المسلمون كان من بين أسرى المشركين عدد من الكُتَّاب، فجعل النَّبيُّ ﷺ فدية كل منهم تعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة، فشاعت الكتابة منذ ذلك الحين وانتشر أمرها، وكان حول النَّبيِّ ﷺ عدد من كتَّاب الوحي الذي ينزل عليه؛ مثل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب و أُبيِّ بن كعب وزيد ابن ثابت، والتحق بهم معاوية بن أبي سفيان بعد فتح مكة، وكان من كُتَّاب النَّبيِّ ﷺ أيضًا المغيرة بن شعبة وخالد بن سعيد بن العاص والحُصين بن نمير وعبد الله بن الأرقم وحنظة بن الربيع[2].

وأُثِرت عن النَّبيِّ بعض الرسائل والمواثيق التي أمر بكتابتها؛ مثل وثيقة صلح الحديبية التي نصَّ فيها على توقيع هدنة بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنين، ثم ما تلا ذلك من رسائل كتبها رسول الله ﷺ إلى ملوك فارس والروم والحبشة ومقوقس مصر يدعوهم إلى الإسلام، وفي أواخر حياة النَّبيِّ ﷺ حينما بدأت القبائل تفد على رسول الله ﷺ في المدينة المنورة؛ كان النَّبيُّ ﷺ يكتب لهم بعض

---

١ سورة العلق: ١- ٥.

٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ١٣٠).

الكتب إلى قبائلهم فيها بعض المواعظ والحكم والتشريعات الإسلامية، وشاعت منذ ذلك الحين المراسلات بينه وبين عمَّاله ﷺ في أنحاء جزيرة العرب.

(٢) في عهد الخلفاء الراشدين:

ثم ما لبثت أن تطورت الكتابة وزادت أهمية الرسائل في عهد الخلفاء الراشدين؛ حيث نمت الدولة الإسلامية وترعرعت واتسع نطاقها، وصارت الرسائل هي وسيلة الاتصال بين الخليفة وأمرائه وولاته وقادة جيوشه، ابتداء من عهد أبي بكر الصِّدِّيق -رضي الله عنه- حينما كان يراسل قادة جيوشه أثناء حروب الرِّدَّة، ثم ما لبثت أن اتسع نطاقها في عهد عمر بن الخطاب؛ فقد ضمَّت الدولة الإسلامية أقاليم وولايات جديدة كالعراق وفارس والشام ومصر فضلًا عن جزيرة العرب، وكثُر فيها العمال والأمراء والقادة، وزادت أهمية الرسائل بين الخليفة وقادته، فكان لا بدَّ من إنفاذ الرسائل والكتب إلى سائر الأطراف في تلك الدولة الواسعة لتسيير شؤون الدولة وضبْط أمورها، وكان الخليفة أو الأمير يكتب الكتاب بيده أو يمليه على كتبته في أغلب الأحيان، قبل أن يتَّسع نطاق الدولة وتتعاظم مسؤولياتها، فهذا عمر بن الخطاب ما لبث بعد اتساع نطاق الخلافة وتعاظمت شؤونها فقام بإنشاء دواوين للجند والعطايا والخراج والإنشاء؛ لضبط شؤون الدولة الإدارية والمالية، وكانت تلك الدواوين تُدوَّن فيها الكتب الخاصة بالحسابات المالية والعطايا والغنائم وأسماء الجند، فزادات حاجة تلك الدواوين إلى الكتَّاب؛ لصياغة الكتب والرسائل الورادة منها وإليها، بل وصار لكل مصر من الأمصار ديوان خاص بأهل البلد يعمل فيه من يعمل من العمال والكتَّاب، فانتعشت الكتابة انتعاشًا عظيمًا بدخول تلك الأنظمة الجديدة في حياة العرب، وبدأ يظهر ما عُرف لاحقًا باسم **(الرسائل الديوانية)**؛ وهي الرسائل أو الكتب الرسمية التي تخرج من الدواوين وتكون بين الخليفة والأمراء والقادة، وقد حفظت لنا كتب الأدب عددًا وافرًا من تلك الكتب والرسائل والعهود والمواثيق في عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، والتي تكمن

أهميتها التاريخية في معرفة ما كان يجري بين الخليفة وعمَّاله، ومعرفة طريقة إدارة وسياسة الأمور في تلك الدولة، وهي تكشف تفاصيل عديدة من الأحداث والأخبار التاريخية؛ إذْ تشكِّل مصدرًا تاريخيًّا مهمًّا لكلِّ مطَّلعٍ أو باحثٍ؛ نظرًا إلى نشاط التراسل بين الخليفة وعماله في مختلف الأمصار والأقاليم.

(٣) الخصائص الفنية للرسائل:

إذا ما اطَّلعنا على الخصائص الفنية للكتابة على عهد النَّبيِّ ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين؛ سنجد أنَّ قيمتها تتجلَّى فيها عبقريَّة العرب السياسية والإدارية والحربية، وفيها من الحكمة والدراية والروح الدينية والإنسانية والأخلاقية والحزم وحسن الإدارة ما يشهد لهم بالتفوق، أما من الناحية الفنية فكانت عبارة عن أداء المعنى بإيجاز واقتضاب، في سياق من اللِّين والسلاسة والوضوح دون زخرف أو تطويل أو تنميق[١] وهي بعدُ تشتمل على البلاغة وحُسن اختيار اللفظ الجزل الفخم.

ولا نبالغ إذا قلنا: إن الكتابة قد انتعشت في هذا العصر، لكنها كانت لا تزال في بدايتها، فلم تُعتبَر بعدُ فنًّا قائمًا بذاته؛ إذِ اقتصرت أهميَّتها مع صدر الإسلام على الرسائل الديوانية الرسمية، بالإضافة إلى بعض **التوقيعات** التي أُثِرت عن بعض الخلفاء؛ وهي عبارة عن رسائل في عبارات وجيزة شديدة الاختصار، بينما تطوَّرت فنون الكتابة في العصور التالية لتشمل بجانب الرسائل الديوانية: الرسائل الإخوانية والمناظرات والقصص والنقد، بالإضافة إلى الكتابات العلمية والتدوين النظامي، ممَّا لم تُتَح له بعدُ فرصة الازدهار في عصر صدر الإسلام.

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (ص٣٢٣).

نماذج من الخطابة

١-محمد رسول الله ﷺ

فصاحته:

وُلِد النَّبيُّ ﷺ يوم الإثنين في التاسع من ربيع الأول في عام الفيل سنة ٥٧١م، وتوفّي عام ١١هـ/٦٣٣م، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قُصي بن كلاب، وقد نشأ ﷺ في قريش أفصح أحياء العرب، واسترضع في صغره في مراضع بني سعد في البادية، فكان هذا عاملًا لفصاحته وبلاغته ﷺ، إضافة إلى ما اتَّصف به من موهبة فطرية وتأييد وإلهام من الله سبحانه وتعالى، فكان بليغًا مفوَّهًا وآية في الفصاحة والبيان، وبلاغته تامَّة الملكة، خالية من التكلف والاستكراه ووضع اللفظ في غير موضعه، وكانت بلاغته ﷺ تتدفَّق على لسانه تدفُّقًا، وقد سبق الحديث عن بلاغته في حديثنا عن السُّنَّة النبوية، غير أن الخطبة بطبعها تحتاج إلى موهبة خاصة تفوق مجرَّد الفصاحة الكلامية وتحتاج إلى شخصية قوية وقدرة على الإلقاء والإقناع ورصف الجمل والعبارات، وقد احتاج النَّبي ﷺ إلى الخطابة، ولا سيَّما بعد الهجرة؛ بعدما صارت شعيرة إسلامية في الجُمَع والعيدين والحج وعموم المناسبات الدينية وكل ما يتعلَّق بالجهاد.

وقد ذهبت أغلب خطب النَّبيِّ ﷺ ولم تصل إلينا؛ بسبب عدم التدوين وصعوبة حفظها وروايتها؛ فهي بخلاف الأحاديث النبوية القصيرة التي يسهل حفظها وروايتها وتناقلها، أما الخطبة فتمتاز بالطول والإطناب والتفاصيل، فتحتاج إلى تدوين، وهو ما لم يحدث، فلم يصل إلينا غير عدد قليل؛ مثل خطبة حنين وخطبة الوداع، وقد حفظت لنا بعض كتب السِّيَر مثل الطبري وابن هشام شيئًا من خطبه ﷺ، وكذلك بعض كتب الأدب مثل **"البيان**

والتبيين" للجاحظ، وقد جمع د. أحمد زكي صفوت في جمهرته ما انتهى إليه من الخطب النبوية في **"جمهرة خطب العرب"**.

وإذا تأمَّلنا أسلوب خُطب النَّبيّ ﷺ نجدها تمتاز بعموم صفات بلاغته ﷺ؛ من وضوح المعنى وسهولة اللفظ مع فخامته، والاستغناء عن اللفظ الخشن والوعر، والبعد عن أساليب الزخرفة والصنعة والسجع إلا ما جاء عفوًا، والاستعاضة عن ذلك بدقَّة اختيار الكلمة، وحسن رصف العبارات والجمل، وترتيب الأفكار وجلاء المنطق وسيلة لتنميق الأسلوب.

ويمتاز النَّبيُّ ﷺ في خُطبه خاصة بتدفق البلاغة على لسانه، بقوَّة الحجة والقدرة على الإقناع وبلوغ الغاية وإصابة المعنى بدون تكلُّفٍ أو استكراهٍ، وتتَّصف كذلك بالميل إلى الإطناب، وهذا بخلاف عموم حديثه الذي اتَّصف بالإيجاز؛ حيث إنَّ الدعوة وشرح تعاليم الإسلام تحتاج إلى التفاصيل والإسهاب حتى يتم بلوغ الغاية، وهو إطناب يفي بالحاجة ويناسب الغرض، وليس فيه لفظ أو حشو زائد أو إطالة تزيد عن الغرض.

نماذج من خُطِبه ﷺ:

- خطَب النَّبيّ ﷺ ذات مرة قائلًا بعدما حمد الله وأثنى عليه[1]: **"يا أيُّها النَّاسُ؛ إنَّ لكم مَعالمَ فانتهُوا إلى مَعالِمِكم، وإنَّ لكم نهايةً فانتهوا إلى نهايتِكم؛ فإنَّ العبد بين مخافتينِ؛ أجَلٍ قد مضَى لا يدري ما اللهُ فاعلٌ فيه، وأجلٍ قد بَقِيَ لا يدري ما اللهُ قاضٍ فِيهِ، فليأخُذِ العبدُ مِن نفسه لنفسه، ومِن دنياه لآخِرَته، ومِنَ الشَّبِيبة قبل الكِبَر، ومِنَ الحياة قبل المماتِ، فوالَّذي نفسُ محمَّدٍ بيَدِه؛ ما بعد الموت مِن مستعتَبٍ، وما بعد الدُّنيا مِن دارٍ إلَّا الجنَّةُ أوِ النَّارُ".**

---

١ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (١/ ٢٤٩).

- وخطَب خطبة في أوَّل جمعة له في المدينة المنورة، قال فيها: "**الحمدُ للهِ أحمَدُه وأستعينُه، وأستغفرُه وأستهديه، وأؤمنُ به ولا أكْفرُه، وأُعادي من يكْفرُه، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه بالهُدَى ودِينِ الحقِّ والنُّورِ والموعظةِ، على فترةٍ من الرُّسل، وقلَّة مِن العِلمِ، وضلالةٍ من النَّاسِ، وانقطاعٍ من الزَّمان، ودُنُوٍّ من الساعة، وقُربٍ من الأجل؛ مَن يُطِعِ اللهَ ورسولَه فقَدْ رشدَ، ومَن يعصهما فقَدْ غوَى وفرَّط وضلَّ ضلالًا بعيدًا، وأُوصِيكُم بِتَقوى الله؛ فإنه خير ما أوصَى به المسلمُ المسلمَ أن يحضَّه على الآخرةِ، وأنْ يأمرَه بتقوَى الله، فاحذروا ما حذَّركم اللهُ مِن نفسِه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضَل من ذلك ذكرًى. وإنَّه تقوى لمن عمل به على وجلٍ ومخافةٍ من ربِّه، وعون صدقٍ على ما تبتغون من أمرِ الآخرةِ، ومَن يُصلِحِ الذى بينَه وبينَ اللهِ مِن أمرِ السِّرِّ والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجهَ اللهِ؛ يَكُنْ له ذِكرًا فى عاجلِ أمرِهِ، وذُخرًا فيما بعدَ الموتِ، حينَ يفتقرُ المرءُ إلى ما قدَّمَ، وما كان مِن سوى ذلك يودُّ لو أنَّ بينه وبينه أمدًا بعيدًا، ويحذِّركم الله نفسه والله رؤوفٌ بالعباد. والذى صدق قوله، وأنجزَ وعدَه، لا خُلْفَ لذلك؛ فإنه يقول تعالى: {ما يُبدَّلُ القولُ لديَّ وما أنا بظلَّامٍ للعبيدِ}[1] واتَّقوا الله فى عاجلِ أمرِكم وآجِلِه، فى السِّرِّ والعلانيةِ؛ فإنه {من يتَّقِ الله يُكفِّرُ عنه سيِّئاتِهِ ويعظم له أجرًا} {ومن يتَّقِ الله فقد فاز فوزًا عظيمًا}[2]؛ وإنَّ تقوى اللهِ تُوقِي مقْتَه، وتُوقِي عقوبته، وتُوقِي سخطَه. وإنَّ تقوى الله تُبيِّضُ الوجه، وتُرضي الرَّبَّ، وترفعُ الدرجةَ؛ خُذُوا بحظِّكم ولا تفرِّطوا فى جنبِ**

---

١ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٢/ ٣٩٤- ٣٩٦)، طبعة: دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

٢ سورة ق: ٢٩.

٣ سورة الطلاق: ٥.

اللهِ؛ قد علَّمكم اللهُ كتابَه، ونهج لكم سبيله ليَعلم الذين صدقوا وليعلمَ الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا فى اللهِ حقَّ جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين؛ ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحيى مَن حيَّ عن بيِّنة، ولا قوة إلا بالله، فأكثِروا ذِكر الله، واعملوا لِما بعدَ الموتِ؛ فإنَّه مَن أصلح ما بينه وبين الله يكفِه ما بينه وبين النَّاسِ؛ ذلك بأنَّ اللهَ يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم".

- ويُروى أنه لما هَزَمَ النَّبي ﷺ هوازن وثقيفًا في حنين والطائف، وكثُرت الغنائم بين يديه ﷺ؛ أخذ النَّبي ﷺ يقسمها لمن أسلم حديثًا من قبائل العرب وقريش، ولم يُعطِ شيئًا من الغنائم للأنصار، فشقَّ ذلك في نفوسهم وحزنوا وكثُر فيهم القالة، فأبلغ سيِّدُهم سعد بن عبادة ذلك للنَّبيِّ ﷺ، فقال: «**فأينَ أنتَ مِن ذلك يا سعدُ؟**»، قال: يا رسول الله؛ ما أنا إلا من قومي؛ فأمره أن يجمع قومه من الأنصار، وخطب فيهم خطبة بليغة قال فيها بعدما حمد الله وأثنى عليه[1] "**يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم، وجِدَةٌ وجدتموها عليَّ في أَنفُسكم؟ ألم آتِكُم ضُلَّالًا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألَّف الله بين قلوبكم؟!** قالوا: بلى، الله ورسوله أمَنُّ وأفضَلُ؛ فقال: **ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟** قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل؛ فقال: **أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدَقتُم ولصُدِّقْتُم: أتيتنا مكذَّبًا فصدَّقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك؛ أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة[2] من الدنيا تألَّفتُ بها قومًا ليُسلِموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟! فوالذي نفس محمد بيده؛ لولا الهجرة لكنت**

---

١ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٣/ ٩٣- ٩٤).
٢ اللعاعة: الشيء القليل يبقى في الإناء ونحوه. تنظر: لسان العرب، ابن منظور (٨/ ٣٢٠).

امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبًا وسلكت الأنصار شِعبًا؛ لسلكت شِعب الأنصار، اللَّهمَّ ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار؛ فبكى الأنصار حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا؛ ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرَّقوا.

وكانت تلك الخطبة قمة البلاغة والبيان، وفيها عبرة سامية وحكمة أخلاقية رائعة يوضِّح فيها رسول الله أنه لم يمنع الأنصار من الغنائم عبثًا؛ إنما قدَّم عليهم في الغنائم من أسلم حديثًا من العرب فقط كي يتألَّف قلوبهم ويثبِّتهم على إسلامهم، وإن كان هؤلاء قد فازوا بالغنائم في تلك الواقعة؛ فقد فاز الأنصار بوجود رسول الله بينهم وفي رحالهم، وهو مغنمٌ أجلُّ وأعظم.

- وفي حِجَّة الوداع التي حجَّها النَّبيُّ ﷺ خطب خطبة عظيمة يُوصي أتباعه من المسلمين بعد وفاته، وقد كمل الإسلام وتمَّت الرسالة، فقال؛ **"الحمدُ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه ونتوبُ إليه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، مَن يهدِه الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثُّكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير. أما بعدُ أيها الناس؛ اسمعوا منِّي أُبيِّنْ لكم؛ فإنِّي لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.**

أيها الناس إنَّ دماءكم وأعراضكم حرامٌ عليكم إلى أن تلقَوْا ربَّكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلَّغْت؟ اللَّهمَّ فاشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها.

وإنَّ ربا الجاهلية موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون، وقضى الله أنَّه لا ربا. وإن أول رِبا أبدأ به عمِّي العباس بن عبد المطلب. وإنَّ دماء الجاهلية موضوعة، وإنَّ أول دم نبدأ به دم عامر ابن

---

١ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٢٢- ٢٤).

ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإنَّ مآثر الجاهلية موضوعة غيرَ السدانة والسقاية، والعمَدُ قَوَدٌ، وشِبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مئة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية، ألا هل بلَّغتُ؟ اللَّهمَّ فاشهد.

أمَّا بعدُ أيها الناس؛ إن الشيطان قد يئس أن يُعبَد في أرضكم هذه، ولكنَّه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقِّرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، أيَّها الناس؛ إنما النَّسيء زيادة في الكفر يُضَل به الذين كفروا، يحلِّونه عامًا ويحرِّمونه عامًا؛ ليوطئوا عدة ما حرم الله؛ فيحلُّوا ما حرَّم الله ويحرِّموا ما أحل الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض، منها أربعة حرم؛ ثلاثة متواليات وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلَّغتُ؟ اللَّهمَّ فاشهد.

أمَّا بعدُ أيها الناس: إنَّ لنسائكم عليكم حقًّا ولكم عليهنَّ حق؛ لكم أن لا يواطئن فُرُشَهنَّ غيركم، ولا يُدخِلْن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإنَّ الله قد أذِن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرًا؛ فإنهنَّ عندكم عَوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنَّكم إنما أخذتموهنَّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرًا، ألا هل بلَّغْت.؟ اللَّهمَّ فاشهد.

أيها الناس؛ إنما المؤمنون إخوة، ولا يحلُّ لامرئ مالُ لأخيه إلا عن طِيبِ نفسٍ منه، ألا هل بلَّغتُ؟ اللَّهمَّ فاشهد.

فلا ترجِعُنَّ بعدى كفَّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تَضِلُّوا بعده: كتاب الله وسنَّة نبيّه، ألا هل بلَّغتُ؟ اللَّهمَّ فاشهد.

أيها الناس؛ إنَّ ربَّكم واحد، وإن أباكم واحد، كلُّكم لآدمَ وآدمُ من تراب، أكرمكم عند الله اتقاكم، وليس لعربيٍّ على عجميٍّ فضلٌ إلا بالتقوى، ألا هل بلَّغتُ؟ اللَّهمَّ فاشهد؛ قالوا: نعم؛ قال: **فليُبلِغِ الشاهدُ الغائبَ.**

أيها الناس؛ إنَّ الله قد قسم لكلِّ وارثٍ نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصيَّة، ولا يجوز وصيَّة في أكثر من ثُلُثٍ، والولد للفراش وللعاهر الحجر. مَنِ ادَّعى إلى غير أبيه، أو تولَّى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبَل منه صِرفٌ ولا عدلٌ.. والسلام عليكم".

وقد توفِّيَ رسول الله ﷺ بعد أقل من ثلاثة أشهر على تلك الخطبة، فعُرِفت باسم خطبة الوداع، وكان ﷺ يُكثِر فيها من قوله «**ألا هل بلَّغتُ؟ اللَّهمَّ فاشهد**»، وكأنه كان ينعي نفسه ﷺ وهو يقول: «**لعلِّي لا ألقاكم بعد عامكم هذا**»، وفيها قدر من الوصايا والمواعظ بتقوى الله، وحرمة الدم، وذم مظاهر الجاهلية من الربا والنسيء وسائر الفواحش، والتحذير من المعاصي، والتوصية بالنساء، والتأكيد على أن كل البشر سواسية أمام الخالق؛ لا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل الصالح؛ وكلُّها من ضمن الأسس الأخلاقية والتشريعية التي أراد أن يوصي بها النَّبيَّ وينبِّه عليها قبل وفاته ﷺ.

٢- الخلفاء الراشدون

بعد وفاة النَّبيّ ﷺ تولَّى الحكم من بعده أربعة من أصحابه؛ هم: أبو بكر الصِّدِّيق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، ثم خلفهم الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهم، ووفْق مذهب أهل السُّنَّة فهؤلاء الأربعة هم خير صحابة النَّبيّ ﷺ وخير هذه الأمة تَوالِيًا على الترتيب، وكانوا يخطبون في الناس إبان حكمهم، ونورد هنا جوانبَ مِن خُطَبِهم.

(١) من خُطَب أبي بكر الصدِّيق :

هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة التِّيمي القرشي، صاحب رسول الله ﷺ وخير أصحابه، وهو خير الأمَّة من بعد نبيِّها ﷺ، وله في فضله وعلوِّ منزلته أحاديث كثيرة، وقد وُلِد عام ٥٧٣م، بعد الرسول بعامين، وتوفِّيَ بعده بنفس المدة عام١٣هـ/ ٦٣٤م، وكان أوَّل من أسلم من الرجال، وهو مَن صاحَب رسول الله في هجرته إلى المدينة، وشهد معه جميع غزواته، وكان ممن ثبت في أُحُدٍ وحُنين. وكان أبو بكر -رضي الله عنه- خطيبًا مفوَّهًا، وقد برزت موهبته في خطابته عقب وفاة النَّبيّ ﷺ مباشرة، وله مواقف قوية يوم وفاة النَّبيّ ويوم سقيفة بني ساعدة، وفي مواجهة حروب الرِّدَّة، وقد نهل بلاغته من رسول الله ﷺ؛ إذْ تمتاز خُطَبه بحُسن السَّبك وجودة العبارة وفخامة اللفظ بلا إغراب أو تعقيد، مع الاقتباس من القرآن الكريم، والميل إلى الإيجاز، وله قدرة فائقة على التأثير والإقناع، ولا سيَّما لحظة وفاة النَّبيّ ﷺ ويوم سقيفة.

- ويُروَى أنه لمَّا توفِّيَ رسول الله ﷺ وكثُر القول في المسلمين وقد أذهلتهم الصَّدمة، حتى إن عمر بن الخطاب من فرط ذهوله هدَّد من يقول بموت رسول الله ﷺ، بضربِه، بينما ثبت أبو بكر في هذا الموقف العصيب، وكان دخل على غرفة النَّبيّ بعد موته فكشف عن وجهه فمسحه وقبَّله وبكى بكاء

شديدًا ثم تجلَّد وخرج إلى الناس فقال[1]: **"أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وأشهد أن الكتاب كما نزل، وأن الدِّين كما شرَّعَ، وأنَّ الحديث كما حدَّث، وأنَّ القول كما قال، وأن الله هو الحق المبين**؛ ثم قال: **أيَّها الناس؛ من كان يعبد محمَّدًا فإن محمَّدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وإن الله قد تقدَّم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعًا، وإنَّ الله قد اختار لنبيِّه ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه، وخلف فيكم كتابه وسنَّة نبيه. فمن أخذ بهما عرف، ومن فرق بينهما أنكر؛ (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط)**[2] **ولا يشغلنَّكم الشيطان بموت نبيكم، ولا يفتنَّنكم عن دينكم، فعاجِلوه بالذي تعجزونه، ولا تستنظروه فيلحق بكم"**، فلما فرغ من خطبه نظر إلى عمر بن الخطاب وقال له: بلغني أنك تقول: ما مات نبي الله؛ ثم تلا قوله تعالى **(إنك ميّتٌ وإنَّهم ميّتون)**[3]فقال عمر: والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله مِن قبلُ؛ لِما نزل بنا!! ثم هدأ وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ وجلس إلى جانب أبي بكر.

- ولمَّا اختلف الناس في سقيفة حول من يخلف رسول الله، وأراد بعض الأنصار تولية سعد بن عبادة الخزرجي وقال بعضهم: منَّا أمير ومن المهاجرين أمير؛ وكان أبو بكر -رضي الله عنه- منشغلًا بجهاز النَّبيِّ ﷺ وغُسله، فلمَّا انتهى إليه الخبر؛ ذهب مع عمر بن الخطاب وأبي عبيدة ابن الجراح إلى سقيفة، فخطب أبو بكر فيمن حضر من الأنصار قائلًا لهم؛ **"إن الله بعث محمَّدًا رسولًا إلى خلقه، وشهيدًا على أمَّته؛ ليعبدوا الله ويوحِّدوه، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، ويزعمون أنَّها لهم عنده شافعة، ولهم نافعة؛ وإنما هي من حجر منحوت، وخشب منجور**، ثم قرأ:

---

[1] انظر: زهر الآداب وثمر الألباب، القيرواني (١/ ٦٨- ٦٩).
[2] سورة النساء: ١٣٥.
[3] سورة الزمر: ٣٠.
[4] انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٣/ ٢١٩- ٢٢٠).

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّه)[1]، وقرأ: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)[2]؛ فعظُم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخصَّ الله المهاجرين الأوَّلين من قومه بتصديقه والإيمان به والمؤاساة له والصبر معه على شدَّة أذى قومهم لهم وتكذيبه إيَّاهم، وكل الناس مخالفٌ زارٍ عليهم، فلم يستوحشوا لقلَّة عددهم، وشنف[3] الناس لهم، وإجماع قومهم عليهم؛ فهم أوَّل من عبد الله في الأرض، وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار من لا يُنكَر فضلُهم في الدِّين، ولا سابِقَتُهم العظيمة في الإسلام، رَضِيَكم الله أنصارًا لدِينِه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم؛ فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء، لا تُفتاتُون بمشورة، ولا تُقضَى دونكم الأمور"، وفي رواية: قال للأنصار: **"فلا تَنْفِسُوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله"**[4] وقد كثُر اللَّغط في هذا اليوم وتعالت الأصوات وكان في البعض دخَن، ولكن أثَّرت فيهم خطبة الصِدِّيق فاقتنعوا وبايعه المهاجرون والأنصار.

- ويُذكَر أنه لمَّا انتخبه المسلمون خليفةً لرسول الله عليهم؛ قام وخطب بعد البيعة خطبة موجزة قال فيها بعدما حمد الله وأثنى عليه؟ **"أما بعدُ أيها الناس: فإنِّي قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنْتُ فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، الصِّدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أرجع عليه حقَّه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيفٌ حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يَدَعُ قومٌ الجهادَ في سبيل الله إلا خذلهم**

---

[1] سورة يونس: ١٨.
٢ سورة الزمر: ٣.
٣ الشنف: شدة البغض. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٩/ ١٨٣).
٤ انظر: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت (١/ ١٧٥-١٧٦)، طبعة: المكتبة العلمية، بيروت- لبنان، د، ط، د.ت.
٥ انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٥/ ٢٦٩).

الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمَّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعْتُ الله ورسوله، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".

- ولمَّا حضرته الوفاة قال لعمر بن الخطاب يوصيه بعدما استخلفه[1]: **"إنِّي مستخلفك من بعدي، وموصيك بتقوى الله، إنَّ لله عملًا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملًا بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا تُقبَل نافلة حتى تؤدَّى الفريضة؛ فإنَّما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتِّباعهم الحق في الدنيا وثِقَلِه عليهم، وحُقَّ لميزانٍ لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلًا؛ وإنما خفَّت موازين من خفَّت موازينه يوم القيامة باتِّباعهم الباطل وخِفَّته عليهم، وحُقَّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفًا. إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكرتهم قلت: إنِّي أخاف ألا أكون من هؤلاء؛ وذكر أهل النار فذكرهم بأسوإ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء؛ وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغبًا راهبًا، ولا يتمنَّى على الله غير الحق، ولا يلقي بيده إلى التهلكة؛ فإذا حفظت وصيَّتي فلا يكن غائبٌ أحَب إليك من الموت وهو آتيك، وإن ضيَّعت فلا يكن غائبٌ أبغض إليك من الموت ولستَ بمعجز الله".**

(٢) من خُطَب عمر بن الخطاب:

هو عمر بن الخطاب بن نُفيل، من بني عدي بن كعب القرشي، وهو أحد المبشَّرين بالجنة، وثاني خير هذه الأمَّة بعد الصِّدِّيق، وكان شديدًا على المسلمين قبل إسلامه إلى أن أسلم في السَّنة السادسة للبعثة، في قصة شهيرة رائعة، وكان قويًّا حازمًا شديدًا في الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان ذا هيبة وقوَّة، وقد وُلِد عام ٥٨٣م، بعد مولد النَّبيِّ باثني عشر عامًا، ولزم النَّبيَّ ﷺ في غزواته، وكان

[1] انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٣١).

وزيرًا لأبي بكر الصِّدِّيق، ثم آلت الخلافة إليه من بعده فدامت خلافته عشر سنين إلى أن استشهد -رضي الله عنه- وهو يُصلِّي في محراب رسول الله ﷺ عام ٢٣هـ/٦٤٣م، على يد اللعين أبي لؤلؤة المجوسي الفارسي.

- ومن خُطَبِه رضي الله عنه: قوله بعدما حمد الله وأثنى عليه[١]"**يأيها الناس: إنّي قد وُلّيتُ عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، و أقواكم عليكم، وأشدَّكم استضلاعًا بما ينوب من مهمّ أموركم؛ ما تولَّيت ذلك منكم، ولكفى عُمَرَ مهمًّا محزنًا انتظارُ موافقة الحساب بأخذِ حقوقكم كيف آخُذُها، ووضعِها أين أضعُها، وبالسير فيكم كيف أسير، فربّي المستعان، فإنَّ عمر أصبح لا يثق بقوَّةٍ ولا حيلة إن لم يتداركه الله -عزَّوجلَّ- برحمته وعونه وتأييده**".
- وقال في خطبة أخرى: "**إنَّ الله -عزَّوجلَّ- قد ولَّاني أمركم، وقد علمْتُ أنفع ما بحضرتكم لكم، و إني أسأل الله أن يعينني عليه، وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره، وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمرني به، و إني امرؤ مسلم وعبد ضعيف؛ إلا ما أعان الله عزَّوجلَّ، ولن يُغيِّر الذي وليتُ من خلافتكم مِن خُلُقِي شيئًا إن شاء الله؛ إنما العظمة لله عزَّوجلَّ، وليس للعباد منها شيء، فلا يقولنَّ أحد منكم: إن عمر تغيَّر منذ وَلِيَ؛ أعقِلُ الحقَّ من نفسي، و أتقدَّم و أبيّن لكم أمري؛ أيما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة، أو عتب علينا في خلق فليأتني؛ إنما أنا رجل منكم، فعليكم بتقوى الله في سرِّكم وعلانيتكم وحرماتكم وأعراضكم، وأعطُوا الحق من أنفسكم، ولا يحمل بعضكم بعضًا على أن تَحاكموا إليَّ؛ فإني ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة، و أنا حبيب إليَّ صلاحكم، عزيز عليَّ عنتكم، و أنتم أناس عامتكم حضر في بلاد الله، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع، إلا ما جاء الله به إليه، وإن الله -عزَّوجلَّ- قد وعدكم كرامة كثيرة، و أنا مسؤول عن أماني وما أنا فيه، ومطَّلع على ما بحضرتي بنفسي إن**

---

١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ٢١٢).

شاء الله، لا أكِلُه إلى أحد، ولا أستطيع ما بَعُدَ منه إلا بالأُمَناءِ وأهلِ النصح منكم للعامَّة، ولست أجعل أمانتي إلى أحدٍ سِواهم إن شاء الله".

(٣) من خُطَب عثمان بن عفان:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، ثالث الخلفاء الراشدين وأحد المبشَّرين بالجنة، وهو زوج ابنتَيْ رسول الله ﷺ رقيَّة وبعد وفاتها أم كلثوم، وُلِد بعد النَّبيِّ ﷺ بخمس سنوات، كان من أوائل مَن أسلم، وكان إسلامه على يد أبي بكر الصِّدِّيق، وشهد جميع الغزوات مع النَّبيِّ ﷺ، باستثناء غزوة بدر بأمرٍ من النَّبيِّ ﷺ كي يمكث مع ابنته رقية في مرضها الذي ماتت فيه، ولأنه كان غِيابًا بأمر النَّبيِّ فقد قسم له من الغنائم وعُدَّ من أهل بدر، آلت إليه الخلافة بعد وفاة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ودامت خلافته اثنتي عشرة سنة، إلى أن نشبت فتنة في أواخر عهده، فقتله مجموعة من السبئية البغاة في عام ٣٥هـ/ ٦٥٥م.

لم تتَّفق لعثمان بن عفان أسباب موهبة الخطابة كما اتَّفقت لصاحبيه، ورُوِيَ أنه أرتج عليه، فقال: ما يزغُ الله بالسلطان أكثر مما يزغ بالقرآن، سيجعل الله بعد عسرٍ يسرًا، وبعد عيٍّ بيانًا، وأنتم إلى إمام فعَّال أحوج منكم إلى إمام قوَّال، ومع هذا فقد أُثرت عنه خطب بليغة، وقد مرَّ ذكرُ هذا الكلام فيما سبق.

- وقد خطب عثمان بعد البيعة قائلًا:[1] **"أما بعد: فإني قد حُمِّلت وقد قَبِلت، ألا و إني متبِّع ولست بمبتدع، ألا وإن لكم عليَّ بعد كتاب الله -عزَّ وجلَّ- وسنَّة نبيِّه -صلَّى الله عليه وسلَّم- ثلاثًا: اتِّباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسن سنَّة أهل الخير فيما لم تسنُّوا عن ملإٍ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم، ألا وإن الدنيا خضرة قد شُهِّيَتْ إلى الناس، ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا، ولا تثقوا بها؛ فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها".**

---

[1] انظر: المصدر السابق (١/ ٢٧١).

- ولما لاحت الفتنة في الأمصار؛ استدعى عثمان ولاته وقد كثرت الشَّكايا عليهم من قِبَل أهل الفتنة، فسألهم عمَّا وُجِّه إليهم قائلًا: ويحكم؛ ما هذه الشَّكايا وما هذه الإذاعة؟! إنِّي -والله- لخائفٌ أن تكونوا مصدوقًا عليكم، وما يُعصب هذا إلا بي، أشيروا عليَّ؛ فلما أجابوه وأشاروا عليه أدرك عثمان أنها فتنة، فقام خطيبًا بعدما حمد الله وأثنى عليه فقال؛ **"كل ما أشرتم به عليَّ قد سمعتُ، ولكلِّ أمرٍ بابٌ يُؤتَى منه، إنَّ هذا الأمر الذي يُخاف على هذه الأمَّة كائن، وإنَّ بابه يُغلَق عليه، فيكفكف به اللِّين والمؤاتاة والمتابعة، إلا في حدود الله تعالى ذِكرُه؛ التي لا يستطيع أحد أن يبادي بعيب أحدها، فإن سدَّه شيء فرُتِق، فذاك الله ليفتحن، وليست لأحد عليَّ حُجَّة حقٍّ، وقد علم الله أني لم آلُ الناس خيرًا ولا نفسي، ووالله إنَّ رحى الفتنة لدائرة، فطُوبَى لعثمان إن مات ولم يحرِّكها، كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم، وإذا تُعُوطِيَتْ حقوقُ الله فلا تدهنوا فيها".**
- ويُذكَر أنه في نفس الإطار قال لبعض الخارجين عليه: **"لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم عليَّ، ولكنه وطئكم برِجلِه، وضربكم بيده، ووقمكم وقمعكم وزجركم زجر النعام المخزمة، فدِنْتُم له على ما أحببتم أو كرهتم، ولِنْتُ لكم وأوطأت لكم كنفي، وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأتم عليَّ"**، وكأنَّه كان يذكر شدَّة عمر عليهم حتى هابوه وأطاعوه، بينما لانَ هو لهم فاجترؤوا عليه.

---

١ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٧٢).

٣- علي بن أبي طالب

ترجمته:

هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم النَّبيّ ﷺ وربيبه، وأمُّه فاطمة بنت أسد بن هاشم، فهو هاشمي من جهة أمِّه وأبيه، وُلِد نحو عام ٦٠٠م، بعد مولد النَّبيّ ﷺ بنحو ثلاثين عامًا، وكان أبوه قد كثُر عياله على قلَّة ماله، فرغب رسول الله ﷺ في التخفيف عنه فكفل عليًّا، وكان آنذاك طفلًا، حتى إذا كُلِّف ﷺ بالرسالة كان عمُر علي بن أبي طالب عشر سنين، فكان أوَّل مَن آمن مِن الأطفال، فكانت كفالة النَّبيّ ﷺ له وإسلامه في سنٍّ باكرة؛ من العوامل التي أفضت إلى تغلغل الإيمان في قلبه، فاتَّفقت له أسباب العلم والفقه وأصول الدِّين، فكان عالمًا بالفقه، آية في الورع، فضلًا عن شجاعته وقوَّته، وهو رابع الخلفاء الراشدين وأحد المبشَّرين بالجنة.

وقد لزم علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- ابنَ عمِّه النَّبيَّ الكريم ﷺ وهو في مكَّة، ونام مكانه يوم الهجرة توريةً عنه ﷺ، ولمَّا هاجر إلى المدينة تزوَّج فاطمة بنت محمد ﷺ فكان له منها الحسن والحسين، وليس لرسول الله ﷺ نسلٌ إلا منهما، وقد اشترك عليٌّ في وقائع النَّبيّ ﷺ فأبلى فيها بلاء حسنًا، فكان من الثلاثة الذين خرجوا للبراز يوم بدر، وممَّن ثبت ودافع عن النَّبيّ ﷺ يوم أُحُدٍ، وقَتَل عمرو بن عبد ود العامري أحد شجعان قريش في غزوة الخندق، وكان حامل الراية يوم خيبر، وقد امتاز بالقوَّة والشجاعة وكان لا يضاهيه أحد في البراز والمواجهة بالسيف، شهد جميع غزوات النَّبيّ ﷺ باستثناء غزوة تبوك؛ لأنَّ رسول الله ﷺ خلَّفه على المدينة وأهلها.

وبعد وفاة النَّبيّ ﷺ لزم أبا بكر وعمر وعثمان -رضوان الله عليهم- حتى قُتِل عثمان في تلك الفتنة وآلت إليه الخلافة آخر عام ٣٥هـ/٦٥٥م، فبايعه الصحابة وغالبيَّة الأمَّة ولكن لم تستقم له الأمور بسبب الفتنة؛ إذْ رفض معاوية بن أبي سفيان أمير الشام مبايعته حتى يتم أخذ القصاص لعثمان أوَّلًا، واتَّهم عليًّا

بدمه، وهو ما رفضه علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- لأنه صمَّم على البيعة أوَّلًا قبل أخذ القصاص، وانتقل علي بن أبي طالب إلى الكوفة واتَّخذها مقرًّا لخلافته، وحدثت في عهده بعض الثورات والفتن وجرت بينه وبين معاوية عدَّة وقائع لم يحسم فيها السيف، إلى أن عرض عليه معاوية المهادنة، فوافق عليٌّ -رضي الله عنه- كفًّا للسيف وحقنًا للدم، ولكن ما لبث أن تسلَّل واحدٌ من الخوارج وهو اللعين عبد الرحمن بن مُلجم الخارجي فقتل عليَّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- عام ٤٠هـ/٦٦٠م بعد خلافة دامت نحو أربع سنين وتسعة أشهر.

بلاغته:

كان -رضي الله عنه- خطيبًا موهوبًا مفوَّهًا, لم يُعرَف مِن بعد رسول الله ﷺ مِن صحابته مَن كان أفصح منه لسانًا، وأروع منه بيانًا، وأتم منه منطقًا، فكانت البلاغة تتدفَّق على لسانه تدفُّقًا كتدفُّقِ السيل وتنساب انسيابًا رائعًا. وكانت خُطَبه جزلة اللفظ، متينة التراكيب، وجُمَلُه حسنة التقسيم والرصف، قصيرة العبارات، تنبعث منها مظاهر العلم والحكمة، وتمتاز خُطَبه كذلك بعاطفة قوية مندفعة وملتهبة، وهو يميل إلى الإطناب والاسترسال ومزاوجة العبارات، ويميل كذلك إلى السجع في عباراته بشكل لافت، وتتجلَّى في خطابته موهبته في الحكمة والمنطق وسعة الخيال والقدرة على التأثير؛ وكل هذا كان نابعًا من تمرُّسه بأساليب القرآن من جهة وعمق ثقافته الدينية الواسعة من جهة أخرى؛ إذِ اكتسب تلك البلاغة وهذه الثقافة من مرافقة الرسول ﷺ، ثم بالخبرة الطويلة في خدمة الإسلام بعده، فضلًا عمَّا لقيه في خلافته من مصاعب وأعباء وهموم ألهبت عاطفته فجعلته مندفعًا في عاطفته تلك اندفاعًا واضحًا في خطاباته، يصل أحيانًا إلى حد الانفجار.

وتتجلَّى في خطب عليٍّ كذلك ثقافته الواسعة وفطرته السليمة وفكره الثاقب وعمق تأمُّله، وسلامة ذائقته ودقَّة إصابته للمعنى، وتعدُّد أفكاره واتساع مداركه، وكان يكثر في خطاباته من استثارة العواطف ومن الالتفات في الجُمَل

كأن ينتقل من أسلوب إلى أسلوب أو من إطار إلى إطار متصرّفًا في وجوه الكلام في سياق من البلاغة والبيان وسلامة الذوق، مما يَلفت الانتباه ويجذب السامع ويملك النفس، وكل تلك العوامل أضفت على خُطَبِه قدرًا عظيمًا من الجمال البياني والبهاء والرونق.

وقد برع علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في الخطابة السياسية والحربية والدينية تبعًا لواقع حياته وأحواله؛ فقد كان رجل السياسة والحروب والمواعظ والحِكَم، ولم تقتصر بلاغته على خطابته فحسبُ؛ بل تجلَّت كذلك في كُتبه ورسائله وعهوده وحِكَمه ومواعظه.

وقد حُفِظت بعض خطبه وآثاره في كتب: **البيان والتبيين** للجاحظ، **والكامل في اللغة والأدب** للمبرّد، **وزهر الآداب وثمر الألباب** لأبي إسحاق القيرواني، بالإضافة إلى **تاريخ الطبري**، وقد نُسب له شعرٌ جُمِع في ديوان صغير لكن لم تثبت صحَّة نسبته له.

نهج البلاغة:

قام الشريف الرضي في القرن الرابع الهجري -وهو من نسل الحسين بن علي ابن أبي طالب، وأحد أبرز أدباء وشعراء الطالبيّين في زمنه- بجمع ما انتهى إليه من خطب أمير المؤمنين عليٍّ، مع رسائله وأقواله ومواعظه؛ في كتاب ضخم عُرِف باسم **"نهج البلاغة"**، والكتاب ثروة بلاغية بلا شكَّ؛ فقد حوى خطبًا كثيرة منسوبة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهي تكشف عن بلاغته وموهبته وروعة بيانه، وأشاد به كثير من الأدباء الذين قرؤوه، وهو مرجع مهم لمراجع الشيعة وأرباب البلاغة.

غير أنه من الواضح أن الكتاب على علوّ قدره قد دخل فيه كثير من المنحول، وصيغت على لسان عليٍّ فيها خُطَب وأقوال لم تصحَّ عنه، وهو ما ذهب إليه كثير من الأدباء وعلماء أهل السُّنَّة، والحق أن المُطَّلِع على كتاب نهج البلاغة يدرك تمامًا أنه دخل عليه قدر كبير من المنحول؛ فنحن نعلم أن أغلب خطب

السابقين ذهب أغلبها بسبب صعوبة الحفظ وعدم التدوين، حتى رسول الله ﷺ لم تصل إلينا إلا أعداد قليلة من خُطَبه، ولم يُعرف خطيب حُفِظت خُطَبه بهذا العدد الكبير إلا ما نُسب لعليّ بن أبي طالب في نهج البلاغة، وهو ما يصعب تصديقه ويرجِّح أنه دخل عليه الكثير من المنحول، كما أن المدقِّق فيما ورد به من خطب سيلاحظ قدرًا كبيرًا من السجع المصنوع، صحيح أن عليًّا قد مال إلى السجع في خَطابَتِه لكن ليس بهذا النمط المصنوع الذي لم يُعرف إلا لاحقًا مع أواسط العصر العباسي، فضلًا عن خطب أخرى غريبة؛ مِن بينها ما ورد على لسانه يسبُّ الأشعث بن قيس معيِّرًا إيَّاه قائلًا: [1] "**ما يُدريك ما عليَّ ممَّا لي! عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين، حائك ابن حائك، منافق ابن كافر، والله لقد أسَرَك الكفر مرَّةً والإسلامُ أخرى**"، وقولٌ آخر يعرِّض بأبي بكر وعمر -رضي الله عنها- بأنهما اغتصبا حقَّه في الخلافة، في خطبة شهيرة عُرِفت باسم الشقشقيّة، قائلًا فيها: "**أما والله لقد تقمَّصها فلانٌ -يعني أبا بكر- وإنَّه ليعلم أنَّ محلِّي منها محلُّ القُطْبِ من الرَّحى، فصبرتُ وفي العين قذى، فيا عجبًا، بينا هو يستقيلها في حياته إذْ عقدها لآخر بعد وفاته**"[2]، بالإضافة إلى رسائل أخرى اتَّهم فيها ابن عمِّه عبد الله بن عباس بأخذ مالٍ من المسلمين، وتعييره لهند بنت عتبة بلقب آكلة الأكباد؛ ومثل تلك الخطب والروايات لا تليق بأخلاق أمير المؤمنين ولا تصحُّ عنه، والأرجح أنها من مرويات الشيعة التي انتُحِلت زورًا على لسانه، فضلًا عن ثبوت كذب الرِّوايات التي تحدثت عن خلافٍ بينه وبين ابن عباسٍ، وعدم ثبوت واقعة تمثيل هند بن عتبة قبل إسلامها بجسد حمزة بن عبد المطلب -رضي الله عنه- في غزوة أُحُد، فهذا كله من عبث وانتحال الرُّواة، فضلًا عن أنَّ فريقًا من أئمة السُّنَّة رأوا أن كتاب نهج البلاغة مقطوع السَّند؛ فالشريف الرضي وُلد بعد عليٍّ بأكثر من ثلاثة قرون ولم يذكر لنا كيف انتهت إليه كل تلك الخُطَب، لذا ينبغي الحذر ومراعاة الدقة حين الاطلاع على ما نُسب

---

١ نهج البلاغة، الشريف الرضي، شرح: محمد عبده، طبعة: دار الحديث، القاهرة- مصر، (ص٤٤).

٢ المصدر نفسه (ص٢٧)

لعليٍّ في نهج البلاغة؛ لاختلاط الصحيح فيه بالمنحول، وعدم الأخذ منه إلا ما ثبتت صحَّته عن مصادر أدبية معروفة، أو ما صحَّ في كتب التواريخ والسِّيَر، ولنا في تاريخ الطبري والكامل للمبرِّد والبيان والتبيين للجاحظ وزهر الآداب وثمر الألباب نموذج من خطب عليٍّ؛ التي يمكن الاطمئنان إليها.

غير أن هذا الكتاب حتى وإن حوى بين يديه خُطبًا منحولة؛ فإنه بلا شك عظيم القيمة الفنية والبلاغية؛ لأنه حوى مجموعة من الخطب ذات البيان الرائع؛ سواء ما صح منها له أو ما كان منحولًا؛ إذْ إن جميعها امتازت بارتقاء الموهبة وحُسن السَّبك، وفيها قيم بلاغية وبيانية شتى، بالإضافة إلى الحِكَم والمواعظ واللغة، حتى الخُطب التي ربما نُحلت عليه قد صيغت بأسلوب قوي محكم لا يبعد كثيرًا عن عموم أسلوبه رضي الله عنه، لذا فهو على ما فيه يعتبر مرجعًا بلاغيًّا مهمًّا لكل من أراد الاستفادة من البيان والأدب والحِكَم، مع التنبيه على قضية الانتحال.

نماذج من خُطَبِه:

- يُروَى أنه خطب في أول خلافته بعدما حمد الله وأثنى عليه قائلًا[1]: **"أما بعدُ: فإنَّ الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإنَّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطِّلاع، وإنَّ المضمار اليوم والسِّباق غدًا. ألا وأنتم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن أخلص في أيام أمله قبل حضور أجله؛ فقد نفعه عمله، ولم يضرَّه أمله، ومن قصَّر في أيام أمله قبل حضور أجله؛ فقد خسر عمله، وضرَّه أمله.**

ألا فاعملوا لله في الرغبة، كما تعملون له في الرهبة، ألا وإني لم أرَ كالجنَّة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها، ألا وإنه من لم ينفعه الحق يضرَّه الباطل، ومن لم يستقم به الهُدَى يَجُرْ به الضلال. ألا وإنكم قد أُمِرتم

---

١ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٣٥)؛ نهج البلاغة، الشريف الرضي (ص٥٣).

بالظَّعن، ودُلِلْتُم على الزاد، وإنَّ أخوَفَ ما أخاف عليكم اتِّباع الهوى وطول الأمل.

- ويُروَى أنه أثناء الصراع بينه وبين معاوية؛ أغارت خيلٌ لمعاوية، عليها قائده سفيان بن عوف الغامدي، على الأنبار، فقتل عاملها من قِبَلِ عليّ؛ حسان البكري، ودمَّر وانتسف ونهب ثم قفل راجعًا دون أن يمسَّه أحد، فاستشاط علي بن أبي طالب لهذا غضبًا وشكا مِن خذلان أهل العراق له وتكاسلهم عن نصرة قائدهم، فخطب فيهم خطبة بليغة هي من أشهر وأروع وأبلغ خُطَبه؛ إذْ قال بعدما حمد الله وأثنى عليه[1]: "**أما بعد: فإنَّ الجهادَ بابٌ من أبواب الجنة، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذل، وشمله البلاء، ولزمه الصَّغار، وسِيم الخسف، ومُنع النَّصف، ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلًا ونهارًا، وسرًّا وإعلانًا، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم؛ فوالله ما غُزِيَ قومٌ قطُّ في عقر دارهم إلا ذَلُّوا؛ فتواكلتم وتخاذلتم، وثقل عليكم قولي واتخذتموه وراءكم ظهريًّا، حتى شُنَّت عليكم الغارات؛ هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار، وقتل حسان -أو ابن حسان- البكري، وأزال خيلَكم عن مسالحها، وقتل منكم رجالًا صالحين. ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المسلمة والأخرى المعاهدة، فينزع حجلها وقلبها ورعاثها[2] ثم انصرفوا وافرين، ما كلم رجل منهم كلمًا، فلو أنَّ امرأ مسلمًا مات من بعد هذا أسفًا؛ ما كان عندي به ملومًا؛ بل كان به عندي جديرًا. فيا عجبًا من جدِّ هؤلاء القوم في باطلهم، وفشلكم عن حقكم!! فقبحًا لكم وترحًا، حين صرتم هدفًا يُرمَى، وفيئًا يُنتهَب، يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزَوْن ولا تَغزُون، ويُعصَى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم :حمَّارة القيظ، أمهِلْنا ينسلخ عنا الحرُّ؛ وإذا أمرتكم بالسير في البرد قلتم: أمهِلْنا**

---

١ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٣٦- ٣٧)؛ نهج البلاغة، الشريف الرضي (ص٥١).
٢ رعاثها: كل ما هو معلق عليها. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/ ١٥٢).

ينسلخ عنا القرُّ؛ كلُّ ذا فرارًا من الحر والقر. فإذا كنتم من الحر والقر تفرُّون؛ فأنتم -والله- من السيف أفَرُّ.

يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا أحلام الأطفال وعقول ربَّات الحجال؛ وددت أن الله قد أخرجني من بين ظهرانيكم وقبضني إلى رحمته من بينكم، والله لوددت أني لم أرَكم، ولم أعرفكم؛ معرفة -والله- جرَّت ندمًا؛ قد وريتم صدري غيظًا، وجرَّعتموني الموت أنفاسًا، و أفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: ابن أبي طالب شجاع ولكن لا عِلمَ له بالحرب!! لله أبوهم؛ وهل منهم أحَدٌ أشدُّ لها مراسًا أو أطوَلُ لها تجربة مني؟! لقد مارستها وما بلغت العشرين، فهأنذا قد نيَّفت على السِّتِّين، ولكن لا رأيَ لِمَنْ لا يُطاع.

وهذه الخطبة خُطبة بليغة، فيها عاطفة ملتهبة صادقة وصلت إلى حد الانفجار، وهي تصوِّر جانبًا من غضب أمير المؤمنين على أنصاره من أهل العراق الذين كانوا شيعته؛ لأنهم كانوا يتخاذلون عن نُصرَتِه ويخذلونه، حتى ندم على معرفته لهم؛ فلم يتمكَّن من هزيمة معاوية ومن معه من أهل الشام.

- ويُروَى عنه في خطبة أخرى يذمُّ أنصاره من أهل العراق[1]: **"أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤكم؛ كلامكم يوهي الصُّمَّ الصِّلاب، وفِعلُكم يطمع فيكم عدوكم، تقولون في المجالس كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتم حيدي حياد؛ ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم، أعاليل بأضاليل. سألتموني التأخير دفاع ذي الدَّين المطول.**

هيهات لا يمنع الضَّيمَ الذَّليلُ، ولا يُدرَك الحقُّ إلا بالجدِّ، أيَّ دار بعد داركم تمنعون؟! أم أيَّ إمام بعدي تقاتلون، المغرور -والله- من غررتموه، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيَبِ، أصبحت -والله- لا أصدِّق قولكم، ولا أطمع في نصركم، فرَّق الله بيني وبينكم، وأعقبني بكم من هو خير لي منكم،

---

١ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٣٧)؛ نهج البلاغة، الشريف الرضي (ص٥٥).

لوددتُ أنَّ لي بكل عشرة منكم رجلًا من بني فراس بن غنم، صرْف الدينار بالدرهم".

- ومن كلامه -رضي الله عنه- خطيبًا[1] **"أيها الناس؛ اتقوا الله الذي إن قلتم سمِع، وإن أضمرتم علِم، وبادِروا الموت الذي إن هربتم منه أدرككم، وإن أقمتم أخذكم".**
- ومن كلامه يصف الدنيا[2] **"دار صدقٍ لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غِنًى لمن تزوَّد منها، مهبط وحيِ الله، ومصلَّى ملائكته، ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه، ربحوا فيها بالرحمة، واكتسبوا فيه الجنة...".**

- ومن أقواله كذلك:[3] **"يأتي على الناس زمان لا يُقرَّب فيه إلا الماحل، ولا يُظرَّف فيه إلا الفاجر، ولا يُضعَّف فيع إلا المنصف، يتخذون الفيء مغنمًا، والصدقة مغرمًا، وصلة الرحم منًّا، والعبادة استطالة على الناس، فعند ذلك يكون سلطان النساء، ومشاورة الإماء، وإمارة الصبيان".**

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (١/ ٢٩٨)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة: دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
٢ انظر: زهر الآداب وثمر الألباب، القيرواني (١/ ٨٠).
٣ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (١/ ٢٤١).

٤- خُطَب متفرقة

١- قدم على رسول الله ﷺ في العام التاسع للهجرة وفد بني تميم، وفيهم عُطارد ابن الحاجب بن زرارة، وكان أبوه من أشهر خطباء الجاهلية، وكان ولده على نهجه في البلاغة والخطابة، وقد دخلوا المسجد ونادَوْا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد؛ جئنا نفاخرك، فَأْذَنْ لخطيبنا وشاعرنا؛ فأذِن لهم، وقام عطارد وخطب بين يَدَيْ رسول الله ﷺ فقال[1]: **"الحمد لله الذي له علينا الفضل، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالًا عظامًا، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق، وأكثره عددًا، وأيسره عدَّة، فمَن مِثلُنا في الناس؟! ألسنا برؤوس الناس وأولِي فضلِهم؟! فمَن يفاخرنا فليعدُدْ مثل ما عَدَدْنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام؛ ولكنَّا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعرَف بذلك، أقولُ هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا، وأمرٍ أفضلَ من أمرنا"**، ثم جلس.

فاستدعى رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن الشَّمَّاس الأنصاري للرَّدِّ عليه - وكان خطيبًا مفوَّهًا، استشهد في حروب الرِّدَّة- فنهض فقال: **"الحمد لله الذي السموات والأرض خلقُهُ، قضى فيهن أمره، ووسِع كرسيُّه عِلمَه، ولم يكُ شيءٌ قطُّ إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خير خلقه رسولًا، أكرمهم نسبًا، وأصدقهم حديثًا، وأفضلهم حسبًا؛ فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان، فآمن برسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس أنسابًا، وأحسن الناس وجوهًا، وخير الناس فعالًا، ثم كان أول الخلق استجابة لله، حين دعاه رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- نحن، فنحن أنصار الله، ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله**

---

١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ١٦٣).

ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا، أقول قولي هذا، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم".

وبعدها أذِن النَّبيُّ ﷺ لشاعرهم، فقام الزبرقان بن بدر فأنشد قصيدة في الفخر، فاستدعى النَّبيُّ ﷺ حسان بن ثابت للرد عليه، فقال الأقرع بن حابس التميمي: إن هذا الرجل لَمُؤَتًّى له؛ لَخَطِيبه أخطَبُ من خطيبنا، ولَشاعِرُه أشعَرُ من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا!! وما لبثوا أن أسلموا، وأحسن رسول الله ﷺ جوائزهم.

٢- كان سحبان بن زفر بن إياد الوائلي -الشهير بسحبان وائل- من أشهر خطباء الجاهلية والإسلام، وكان يُضرَب به المثل في البلاغة، وله أخبار مع معاوية؛ الذي كان يُجلُّه ويقدِّمه، توفِّيَ عام ٥٤هـ/ ٦٧٤م، وقد خطب مرَّةً قائلًا[١]: **"إن الدُّنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار، أيُّها الناس فخذوا من دار ممرِّكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم، قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها حَيِيتُم، ولغيرها خُلِقتُم، إن الرَّجل إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدَّم؟ فقدموا بعضًا يكون لكم، ولا تخلفوا كلًّا يكون عليكم".**

٣- وخطب عبد الله بن مسعود مقتبسًا بعضًا من هدي النُّبوَّة قائلًا[٢]: **"أصدَقُ الحديث كتابُ الله، وأوثَقُ العُرَى كلمة التقوى، وخير الملل ملَّة إبراهيم صلَّى الله عليه وسلَّم، وأحسن السُّنن سنَّة محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، وشر الأمور محدثاتها، وخير الأمور عزائمها، ما قلَّ وكفى خيرٌ مما أكثر وألهى، نفس تنجيها خيرٌ من إمارة لا تحصيها، خيرُ الغِنَى غِنَى النفس. خير ما أُلقِيَ في القلب اليقين، الخمر جماع الآثام، النساء حمَّالة الشيطان، الشَّباب شعبة من الجنون، حب الكفاية مفتاح المعجزة، من الناس من لا يأتي الجماعة إلا دُبُرًا، ولا يذكر الله إلا نَزرًا، أعظم الخطايا**

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص١٨٩).
٢ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٣٧- ٣٨).

اللسان الكذوب، سباب المؤمن فسق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية، ومن يتألَّ على الله يُكْذِبْه، ومن يَغفِر يُغفَر له، مكتوب في ديوان المحسنين: من عفا عُفِيَ عنه؛ الشقي من شَقِيَ في بطن أمه، السعيد من وُعِظ بغيره، الأمور بعواقبها، مِلاك الأمر خواتمه، أحسن الهدي هدْي الأنبياء، أقبح الضلالة بعد الهُدَى، أشرف الموت الشهادة، من يعرف البلاء يصبر عليه، من لا يعرف البلاء ينكره".

٤- خطَب عتبة بن غزوان السلمي بعد فتح الأُبلَّة من أرض الحيرة -وهو من قدامى صحابة النَّبي ﷺ وأول ولاة البصرة- فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[1]: **"أما بعدُ: فإن الدنيا قد تولَّت حدَّاء مدبرة، وقد آذنت أهلَها بصرم، وإنما بقي منها صبابة كصبابة الإناء يصطبُّها صاحبها. ألا وإنكم منقولون منها إلى دارٍ لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم؛ فإنَّه قد ذُكِر لنا أن الحجر يُلقَى في النار من شفيرها فيهوي فيها سبعين عامًا لا يدرك لها قعرًا، والله لتُملأنَّ، أفعجبتم؟! ولقد ذُكِر لنا أنَّ بين مصراعين من الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتينَّ عليه وقت وهو كظيظ بالزحام، ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا، فالتقطتُ بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فائتزرت بنصفها وائتزر بنصفها، فما أصبح اليوم أحدٌ منَّا حيًّا إلا أصبح أميرًا على مصرٍ من الأمصار. وإنِّي أعوذ بالله من أن أكون في نفسي عظيمًا وعند الله صغيرًا. وإنَّها لم تكن نبوَّةٌ قطُّ إلا تناسختْ حتى يكون عاقبتها مُلكًا، وستَخْبُرون الأمراء بعدي فتَعرِفُون وتُنكِرون".**

---

١ انظر: المصدر السابق (٢/ ٣٨).

٥- وخطب خالد بن الوليد قبيل موقعة اليرموك التي انتصر فيها على الروم، قائلًا بعدما حمد الله وأثنى عليه:[١] **"إنَّ هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلِصوا جهادَكم، وأريدوا اللهَ بعملكم؛ فإنَّ هذا يومٌ له ما بعدَه، ولا تقاتلوا قومًا على نظام وتعبئة، على تساندٍ وانتشارٍ؛ فإنَّ ذلك لا يَحِلُّ ولا ينبغي. وإنَّ مَنْ وراءَكم لو يعلمُ عِلْمَكم؛ حالَ بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تُؤمَروا به؛ بالذي تَرون أنه الرأي مِن واليكم ومحبَّته.**

قالوا: فهاتِ، فما الرأيُ؟ قال: إنَّ أبا بكرٍ لم يبعثْنا إلَّا وهو يرى أنَّا سنتياسَرُ، ولو علِم بالذي كان ويكون لَمَا جمعكم، إنَّ الذي أنتم فيه أشدُّ على المسلمين ممَّا قد غَشِيَهم، وأرفَعُ للمشركين من أمدادهم، ولقد علمتُ أنَّ الدنيا فرَّقَتْ بينكم؛ فاللهَ اللهَ؛ فقد أُفرِدَ كُلُّ رجلٍ منكم ببلدٍ من البلدان، لا ينتقص منه أنْ دانَ لأحدٍ من أمراء الجنود، ولا يزيده عليه أنْ دانوا له، إنَّ تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله، ولا عند خليفة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

هلمُّوا؛ فإنَّ هؤلاء قد تهيَّؤوا. وهذا يومٌ له ما بعدَه، إنْ رددناهم إلى خندقهم اليومَ لم نزلْ نردُّهم، وإنْ هزمونا لم نُفلِح بعدَها، فهلمُّوا فلنَتَعاوَرِ الإمارةَ، فليكنْ عليها بعضنا اليومَ، والآخرُ غدًا، والآخرُ بعدَ غدٍ؛ حتَّى يتأمَّرَ كُلُّكُم، ودعوني أتأمَّرُ اليومَ".

٦- خطَب شبث بن ربعيٍّ، وكان مُوفَدًا من قِبَل عليٍّ في وفدٍ إلى معاوية، فقال له:[٢] **"يا معاوية؛ إني قد فهمتُ ما رددتَ علَى ابنِ محصنٍ، إنه -والله- لا يَخفَى علينا ما تغزو وما تطلب، إنَّك لم تجد شيئًا تستغوي به الناس، وتستميل به أهواءهم، وتستخلص به طاعتهم؛ إلا قولك: (قُتِل إمامكم مظلومًا، فنحن نطلب بدمه) فاستجاب لك سفهاء طغام، وقد علمنا أنْ**

---

١ انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٧/ ١١).

٢ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ٣٢٩).

قد أبطأتَ عنه بالنصر، وأحببتَ له القتل؛ لهذه المنزلة التي أصبحتَ تطلب، ورُبَّ متمنِّي أمرٍ وطالبه، الله -عزَّ وجلَّ- يحُول دونه بقدرته، وربَّما أُوتِيَ المتمنِّي أمنيته وفوق أمنيته، ووالله ما لك في واحدةٍ منهما خير؛ لئن أخطأتَ ما ترجو؛ إنك لشَرُّ العرب حالًا في ذلك، ولئن أصبتَ ما تمنَّى؛ لا تصيبه حتى تستحق من ربِّك صُلِيَّ النار، فاتق الله يا معاوية، ودَعْ ما أنت عليه، ولا تنازعِ الأمر أهله".

فكانت تلك الخطبة سبب فشل هذه السفارة؛ لِما كان فيها من غلظة وجفاء وسوء تقدير مِن قِبَل قائلها، وقد غضب معاوية على صاحبها فطرده ومن معه قائلًا: ليس بيني وبينكم إلا السيف.

٧- وخطب عبد الله بن عباس في أهل البصرة حينما تقاعسوا عن نُصرة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عندما دعاهم إلى الجهاد، وكان عددهم في الديوان ستِّين ألفًا فلم يخرج غير ألف وخمسمائة، فقال غاضبًا[1]: **"يا أهل البصرة؛ قد جاءني كتاب أمير المؤمنين يأمرني بإشخاصكم، فأمرتُكم بالمسير إليه مع الأحنف بن قيس، فلم يشخص إليه منكم إلا ألفٌ وخمسمائة، وأنتم في الديوان ستُّون ألفًا سِوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم، ألا فانفروا، ولا يجعلِ امرؤٌ على نفسه سبيلًا؛ فإنِّي مُوقِعٌ بكلِّ من وجدتُه تخلَّف عن دعوته، عاصيًا لإمامه؛ حزنًا يعقب ندمًا، وقد أمرتُ أبا الأسود بحشدِكم، فلا يَلُمِ امرؤٌ جعل السَّبيل على نفسِه إلا نفسَه".**

---

١ انظر: المصدر السابق (١/ ٣٩٤- ٣٩٥).

الرسائل والتوقيعات

(١) من رسائل النَّبيِّ ﷺ:

١- كتب رسول الله ﷺ كتابًا في صلح الحديبية بينه وبين سهيل بن عمرو -وكان سهيل لا يزال على الشرك- وكان نصُّ المعاهدة[١]: **"هذا ما صالح عليه محمَّدُ بن عبد الله؛ سهيلَ بن عمرو: اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكفُّ بعضهم عن بعض، على أنَّه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليِّه؛ ردَّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد؛ لم يردُّوه عليه، وأنَّ بيننا عيبة مكفوفة، وأنَّه لا إسلال ولا إغلال، وأنه من أحَبَّ أن يدخل فى عقد محمد وعهده؛ دخل فيه، ومن أحَبَّ أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم؛ دخل فيه".**

ثم قال سهيل: **"وأنَّك ترجع عنَّا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل؛ خرجنا عنك فدخلتَها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثًا، معك سلاح الراكب؛ السيوف فى القُرُب، لا تدخلها بغير هذا".**

٢- وكتب ﷺ إلى هِرَقْل قيصر الروم يدعوه إلى الإسلام[٢]: **"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هِرَقْلَ عظيم الروم: سلام على من اتَّبع الهدى، أمَّا بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِمْ تَسلَمْ، أسلِمْ يُؤتِكَ اللهُ أجرَكَ مرَّتين، فإنَّ تولَّيت فإنَّما عليك إثم الأريسيِّين، و(يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، وَلا**

---

١ انظر: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية، أحمد زكي صفوت (١/ ٣٦- ٣٧)، طبعة: المكتبة العلمية، بيروت- لبنان، د.ط، د.ت.

٢ انظر: المصدر السابق (١/ ٣٨- ٣٩).

نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)"[1].

٣- وكتب ﷺ إلى كسرى صاحب فارس يدعوه إلى الإسلام[2] **"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس: سلام على من اتَّبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله عزَّ وجلَّ؛ فإني أنا رسول الله إلى الناس كافَّة؛ لأُنْذِرَ من كان حيًّا، ويحقَّ القول على الكافرين، أسلِمْ تَسلَمْ، فإن أبَيتَ فعليك إثم المجوس".**

ويُروَى أنَّ كسرى أبرويز لمَّا انتهى إليه الكتاب غضب غضبًا شديدًا ومزَّقه قائلًا: يكتب إليَّ وهو عبد من عبيدي! فدعا عليه رسول الله بتمزيق ملكه، وما لبث أن قُتِل بعدها على يد ولده شيرويه، فاضطرب أمر فارس منذ ذلك الحين.

٤- وكتب رسول الله ﷺ إلى المقوقس حاكم مصر من قِبَل الرُّوم[3]**"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط: سلام على من اتَّبع الهدى، أمَّا بعد: فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِمْ تَسلَمْ، يُؤتِكَ اللهُ أجرَكَ مرَّتَيْنِ، فإن تولَّيت فإنَّما عليك إثم القبط، و (يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتّخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون)[4]".**

فكتب إليه المقوقس ردًّا رقيقًا جاء فيه: **"بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد ابن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط: سلامٌ عليك، أما بعد: فقد قرأتُ كتابك، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه، وما تدعو إليه، وقد علمتُ أنَّ نبيًّا قد بَقِي، وقد كنتُ أظن أنه يخرج بالشأم، وقد أكرمْتُ رسولك، وبعثْتُ**

---

١ سورة آل عمران: ٦٤.
٢ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ٤٠).
٣ انظر: المصدر السابق (١/ ٤٢).
٤ سورة آل عمران: ٦٤.

إليك بجاريتين لهما مكانٌ فى القبط عظيم، وبثيابٍ، وأهديتُ إليك بغلة لتركبها، والسَّلام عليك".

٥- وكتب ﷺ كتابًا إلى ملك الغساسنة شرحبيل الحارث بن أبي شمر الأصغر - وهو غير الحارث الأعرج الذي عاصر المنذر بن ماء السماء- يدعوه إلى الإسلام[١] **"سلامٌ على من اتَّبع الهدى وآمن بالله وصدّق، وإنّي أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له؛ يَبقَ لك مُلكُك"**، فلمَّا قرأه غضبًا غضبًا شديدًا ومزَّق الكتاب قائلًا: من ينزع منّي ملكي؟! ثم قتل الحارث بن عمير رسولَ رسولِ الله ﷺ، وعزم على السَّير إلى النَّبيّ ﷺ وقتاله، فنهاه قيصر وثناه عن عزمه، وكان مقتل مُوفَد رسول الله ﷺ سببًا لموقعة مؤتة التي كانت صدامًا بين الغساسنة والمسلمين ولم ينتصر فيها أحد الطرفين.

٦- وكتب رسول الله ﷺ كتابًا إلى النجاشي ملك الحبشة يدعوه إلى الإسلام[٢] **"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى النَّجاشيّ الأصحم ملك الحبشة، سِلمٌ أنت، فإنّي أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدُّوس السَّلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم رُوح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطَّيِّبة الحَصِينة، فحملت بعيسى، حملته من رُوحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه. وإنّي أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتَّبعني، وتؤمن بالذى جاءني؛ فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين، فإذا جاءك فاقرهم ودَعِ التَّجبُّر، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزَّوجلَّ، وقد بلَّغتُ ونصحتُ، فاقبلوا نصحي، والسَّلام على من اتَّبع الهدى".**

---

١ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ٤٤- ٤٥).
٢ انظر: المصدر السابق (١/ ٤١- ٤٢).

فردَّ عليه النجاشي قائلًا: **"بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله، من النجاشى الأصحم بن أبجر، سلامٌ عليك يا نبيَّ الله ورحمة الله وبركاته من الله الذي لا إله إلا هو، الذي هداني إلى الإسلام، أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله، فما ذكرْتَ من أمر عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فوربِّ السَّماء والأرض إنَّ عيسى ما يزيد على ما ذكرتَ ثفروقًا[1] إنَّه لكما قلت، وقد عرفنا ما بعثتَ به إلينا، وقد قَرَيْنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدَّقًا، وقد بايعتُك وبايعتُ ابن عمك، وأسلمْتُ على يديه لله ربِّ العالمين، وقد بعثت إليك بابني أرها ابن الأصحم بن أبجر، فإنّي لا أملك إلا نفسي، وإن شئتَ أن آتِيَكَ؛ فعلتُ يا رسول الله؛ فإني أشهد أن ما تقول حق، والسَّلام عليك يا رسول الله".**

والنجاشي هو الحاكم الوحيد من أولئك الذي استجاب لدعوة رسول الله ﷺ وأسلم وبعث بولده مبايعًا النَّبيَّ ﷺ، ولمَّا توفِّيَ؛ صلَّى عليه النَّبيُّ ﷺ صلاة الغائب.

(٢) من رسائل الخلفاء الراشدين:

١- كتب أبو بكر الصِّدِّيق -رضي الله عنه- كتابًا موحَّدًا عامًّا إلى أهل الرِّدَّة، حمل كلُّ جيش من جيوشه نسخة منه[2] وقد جاء في هذا الكتاب[3]: **"بسم الله الرحمن الرحيم: مِن أبي بكر خليفة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، إلى من بلغه كتابي هذا من عامَّة وخاصَّة، أقام على إسلامه أورجع عنه: سلامٌ على من اتَّبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضَّلالة والعَمَى، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، و أُقِرُّ بما جاء به، وأكفِّر من أبَى وأجاهده.**

---

١ الثفروق: قمع التمرة. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٠/ ٣٤).
٢ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ١٠٩).
٣ انظر: المصدر السابق (١/ ١٠٩- ١١١).

أما بعدُ: فإن الله تعالى أرسل محمدًا بالحقِّ من عنده، إلى خلقِه؛ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، لينذر من كان حيًّا، ويحقَّ القول على الكافرين... وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقرَّ بالإسلام وعمل به؛ اغترارًا بالله، وجهالة بأمره، وإجابة للشيطان؛ قال الله جلَّ ثناؤه: **(وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا)**[1] وقال جلَّ ذِكرُه: **(إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ)**[2]

وإني أنفذت إليكم فلانًا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحدًا ولا يقتله، حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له و أقرَّ وكفَّ وعمل صالحًا؛ قَبِل منه وأعانه عليه، ومن أبَى؛ أمرْتُه أن يقاتله على ذلك، ثم لا يُبقِي على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرِّقهم بالنِّيران، ويقتلهم كلَّ قِتْلة، وأن يسبي النساء والذاري، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، فمن اتَّبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يُعجز الله.

وقد أمرْتُ رسولي أن يقرأ كتابي فى كل مجمع لكم، والداعية الأذان، فإذا أذَّن المسلمون فأذَّنوا؛ كفُّوا عنهم، وإن لم يؤذِّنوا؛ عاجلوهم، وإذا أذَّنوا؛ سألوهم ما عليهم، فإن أبَوْا؛ عاجلوهم، وإن أقرُّوا؛ قَبِل منهم وحمَلَهم على ما ينبغي لهم".

٢- وكان خالد بن الوليد قد ترك جيشه وحج في سنة ١٢هـ، دون أن يستأذن الخليفة أبا بكر الصِّدِّيق، فأرسل إليه يعاتبه وينهاه عن تكرار فعلِه، ويأمره بالمسير إلى الشام لنصرة جيوش المسلمين هناك قائلًا له[3]: "سِرْ حتى تأتي

---

١ سورة الكهف: ٥٠.
٢ سورة فاطر: ٦.
٣ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ١٣٢).

جموع المسلمين باليرموك؛ فإنهم قد شجوا وأشجَوْا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلْتَ؛ فإنَّه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك، ولم ينزع الشَّجى من الناس نزعك، فليهنئك أبا سليمان النِّيَّة والحظوة، فأتمم يتمِ الله لك".

٣- وكتب أبو بكر قبل وفاته يوصي باستخلاف عمر بن الخطاب من بعده قائلًا[١]: **"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهِد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهْده بالدنيا خارجًا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلًا فيها، حيث يؤمن الكافر ويُوقن الفاجر ويصدِّق الكاذب: إنِّي استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آلُ الله ورسوله ودِينَه ونفسي وإياكم خيرًا؛ فإن عَدَلَ فذلك ظنِّي به وعِلمي فيه، وإن بدَّل فلكلِّ امرئٍ ما اكتسب، والخيرَ أردتُ ولا أعلم الغيب، {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}**[٢]

٤- وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح يولّيه على خالد ابن الوليد وسائر جند الشام، وهو أوَّل ما كتب عقب توليه خلافته[٣]: **"أوصيك بتقوى الله الذي يَبقَى، ويَفنَى ما سواه، الذي هدانا من الضَّلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور. وقد استعملتُك على جند خالد بن الوليد، فقُمْ بأمرهم الذى يحقُّ عليك، لا تقدِّم المسلمين إلى هلكةٍ رجاء غنيمة، ولا تُنزِلْهم منزلًا قبل أن تستريده لهم، وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سريَّة إلا فى كثف من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة، وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك، فغمِّض بصرك عن الدنيا، وألْهِ قلبك عنها، وإياك أن تهلكك كما أهلكتْ من كان قبلك، فقد رأيتَ مصارعهم".**

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (١/ ١٣- ١٤).
٢ سورة الشعراء: ٢٢٧.
٣ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ١٤٥- ١٤٦).

٥- وكتب عمر إلى سائر الأمصار عن عزله خالد بن الوليد عن قيادة الجيوش قائلًا[1]: **"إنّي لم أعزلْ خالدًا عن سُخطة ولا خيانة؛ ولكن الناس فُتِنوا به، فخِفتُ أن يوكلوا إليه ويُبتَلوا به، فأحببتُ أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعرض فتنةٍ".**

٦- وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رسالة في القضاء كان نصُّها[2]: **"من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن قيس: سلام عليك، أما بعد: فإن القضاء فريضة مُحكَمة، وسنَّة متَّبَعة، فافهَمْ إذا أُدلِيَ إليك؛ فإنه لا ينفع تكلُّمٌ بحقٍّ لا نفاذ له. آسِ بين الناس بوجهك وعدلك ومجلسك؛ حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، البيِّنة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحًا أحلَّ حرامًا، أو حرَّم حلالًا، لا يمنعنك قضاءٌ قضيتَه اليوم فراجعتَ فيه عقلك، وهُدِيتَ فيه لرشدك؛ أن ترجع إلى الحق؛ فإن الحق قديمٌ، ومراجعة الحق خيرٌ من التَّمادي في الباطل.**

الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنَّةٍ، ثم اعرِفِ الأشباه والأمثال، فقِسِ الأمور عند ذلك، واعمِدْ إلى أقربها إلى الله، وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادَّعى حقًّا غائبًا أو بيِّنة؛ أمدًا ينتهي إليها، فإن أحضر بيِّنته؛ أخذْتَ له بحقِّه، وإلا استحلَلْتَ عليه القضية؛ فإنه أنفَى للشك، وأجلَى للعمَى.

المسلمون عدولٌ بعضهم على بعض، إلا مجلودًا في حدٍّ، ومجرَّبًا عليه شهادة زور، أو ظنينًا في ولاء أو نسب؛ فإنَّ الله تولَّى منكم السرائر، ودرأ بالبيِّنات والإيمان، وإياك والغلق والضجر، والتَّأذِّي بالخصوم والتَّنكُّر

---

١ انظر: المصدر السابق (١/ ١٤٦).
٢ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (١/ ١٥).

عند الخصومات؛ فإن الحق في مواطن الحق لَيُعظِمُ الله به الأجر، ويُحسن به الذَّخْرُ، فمن صحَّت نيَّته، و أقبل على نفسه؛ كفاه الله بينه وبين الناس، ومن تخلَّق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه؛ شانه الله، فما ظنُّك بثواب غير الله -عزَّوجلَّ- في عاجل رزقه وخزائن رحمته!! والسلام".

٧- ولمَّا اشتعلت الفتنة وكثر الطعن في عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ كتب إلى أهل الأمصار[١] **"أما بعدُ: فإنِّي آخُذُ العمال بموافاتي في كل موسم، وقد سلَّطْتُ الأمَّة منذ وُلِّيت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يُرفَع إليَّ شيءٌ ولا على أحد من عمَّالي إلا أعطيته، وليس لي ولعيالي حقٌّ قبل الرَّعيَّة إلا متروك لهم، وقد رفَع إليَّ أهل المدينة أنَّ أقوامًا يشتمون، وآخرين يضربون، فيا مَن ضُرب سرًّا، وشُتم سرًّا؛ من ادَّعى شيئًا من ذلك فليوافِ الموسم؛ فليأخذ بحقِّه حيث كان؛ منِّي أو من عمَّالي، أو تصدَّقوا فإن الله يجزي المتصدِّقين".**

٨- ولمَّا ثار أهل الكوفة بواليهم سعيد بن العاص، واستعفوا عثمان منه مطالبين بأبي موسى الأشعري بدلًا منه؛ كتب إليهم عثمان قائلًا[٢]: **"بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعدُ: فقد أمَّرتُ عليكم من اخترتم، وأعفيتُكم من سعيد، والله لأفرشنَّكم عِرضي، ولأبذلنَّ لكم صبري، ولأستصلحنَّكم بجهدي، فلا تدعوا شيئًا أحببتموه لا يُعصَى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئًا كرهتموه لا يُعصَى الله فيه إلا استعفيتم منه. أنزل فيه عند ما أحببتم حتَّى لا يكون لكم عليَّ حجَّة".**

---

١ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ٢٧١).
٢ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٧٠).

٩- وكتب عليُّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- إلى أهل الكوفة قادمًا إليهم من المدينة[١] **"بسم الله الرحمن الرحيم، أمَّا بعدُ: فإني قد اخترتكم، وآثرت النزول بين أظهركم؛ لِما أعرف من مودَّتكم وحبِّكم لله عزَّوجلَّ، ولرسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحقَّ، وقضى الذي عليه".**

١٠-وكتب عليُّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- يردُّ على معاوية بن أبي سفيان في رسالة بعث بها إليه يتَّهمه بدم عثمان وقد قال[٢]: **"مِن عبد الله عليٍّ أمير المؤمنين، إلى معاوية بن صخر، أمَّا بعدُ: فإنه أتاني كتابك؛ كتاب امرئ ليس له بصرٌ يهديه، ولا قائدٌ يُرشده، قد دعاه الهوى فأجابه، وقاده الضلال فاتَّبعه، فهجر لاغطًا، وضلَّ خابطًا؛ زعمتَ أنَّه إنما أفسد عليَّ بيعتَكَ خطيئتي في عثمان، ولَعَمري ما كنتُ إلا رجلًا من المهاجرين، أوردتُ كما أورَدُوا وأصدرتُ كما أصدَرُوا، وما كان الله ليجعلهم على ضلالٍ ولا يضربهم بِعَمًى.**

وبعد: فما أنت وعثمان! إنَّما أنت رجل من بني أمية، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه، فإن زعمْتَ أنك أقوى على ذلك؛ فادْخُلْ فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكِمِ القومَ إليَّ، وأمَّا تمييزك بينك وبين طلحة والزبيروأهل الشام وأهل البصرة؛ فلعمري ما الأمر فيما هناك إلا سواء، وقرابتي من رسول الله ﷺ، وموضعي في قريش، فلعمري لو استطعْتَ دفْعَه لدفعتَه".

١١- وكتب عليُّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- إلى أحد قادته؛ مالك بن الحارث، المعروف بالأشتر النخعي؛ يولّيه على مصر بدلًا من محمد بن أبي بكر الصِّدِّيق[٣]: **"السلام عليك يا مالك، أما بعدُ: فإنَّك ممن أستظهِرُ به على إقامة الدِّين، وأقمَعُ به نخوة الأثيم، وأسدُّ به الثَّغر المَخُوف، وكنتُ قد**

---

١ انظر: المصدر السابق (١/ ٣٢٦).
٢ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (١/ ٢٦١).
٣ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ٤٧٩).

ولَّيتُ محمد بن أبى بكر مصر، فخَرَجَتْ عليه بها خوارج، وهو غلام حدَث السِّنِّ، غِرٌّ ليس بذى تجربة للحرب، ولا بمجرِّب للأشياء، فاقدم عليَّ لننظُرَ فيما ينبغى، واستخلِفْ على عملك أهل الثِّقة والنصيحة من أصحابك، والسلام".

١٢-وقد هلك الأشتر مسمومًا قبل وصوله مصر؛ بتدبيرٍ من معاوية، ووُجِدت معه رسالة كتبها أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب إلى أهل مصر، جاء فيها[1]: **"بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، من عبد الله عليٍّ أمير المؤمنين، إلى أمَّة المسلمين؛ الَّذين غضِبوا لِلَّهِ حين عُصِيَ فِي الأرض، وضرَب الجور بأروقه على البَرِّ والفاجر، فلا حقَّ يُستراح إليه، ولا منكَر يُتَناهَى عنه: سلامٌ عليكم، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو. أمَّا بعدُ: فقد بعثتُ إليكم عبدًا من عبيد الله، لا ينام أيام الخوف، ولا ينكل عن الأعادي حذار الدوائر، أشدَّ علَى الكفار من حريق النَّار؛ وهو مالك بن الحارث أخو مذحج، فاسمعوا له وأطيعوا؛ فإنَّه سيفٌ من سيوف الله، لا نابي الضَّريبة، ولا كليل الحدِّ، فإنْ أمركم أن تُقْدِموا فأقْدِمُوا، وإن أمركم أنْ تَنفِروا فانفِرُوا؛ فإنَّه لا يُقدِم ولا يُحجم إلا بأمري، وقد آثرتُكم به علَى نفسي؛ لنُصحِه لكم، وشدَّة شكيمته علَى عدوِّكم، عصمكم الله بالهدى، وثبَّتكم علَى اليقين، والسلام".**

١٣- وكتب عليُّ بن أبي طالب إلى ابن عمِّه عبد الله بن عباس يُنبئه بمصرع الأشتر ودخول مصر في سلطان معاوية، ويشكو خذلان أهل العراق له وتكاسلهم عن إجابته ونَصرِه[2]: **"بسم الله الرحمن الرحيم، مِن عبد الله عليٍّ أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن عباس: سلامٌ عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعدُ: فإن مصر قد افتتحت، ومحمد بن أبي بكر قد**

---

١ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٥/ ٩٦).
٢ انظر: المصدر السابق (٥/ ١٠٩).

استشهد، فعند الله نحتسبه وندَّخره، وقد كنتُ قمتُ في الناس في بدئه، وأمرتُهم بغياثه قبل الوقعة، ودعوتُهم سرًّا وجهرًا، وعَوْدًا وبدءًا؛ فمنهم من أتى كارهًا، ومنهم من اعتلَّ كاذبًا، ومنهم القاعد حالًّا، أسأل الله أن يجعل لي منهم فرجًا ومخرجًا، وأن يريحني منهم عاجلًا، والله لولا طمعي عند لقاء عدوِّي في الشهادة؛ لأحببتُ ألا أبقَى مع هؤلاء يومًا واحدًا، عزم الله لنا ولك على الرشد، وعلى تقواه وهُداه؛ إنه على كل شيء قدير، والسلام".

(٣) من رسائل الأمراء والقادة:

١- كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ يبشِّره بإسلام بني الحارث بن كعب بغير قتالٍ قائلًا[١]: "**بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمَّدٍ النَّبيِّ رسول الله ﷺ، من خالد بن الوليد: السَّلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فإنِّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أمَّا بعد يا رسول الله صلَّى الله عليك: فإنَّك بعثتَني إلى بني الحرث بن كعب، وأمرتَني إذا أتيتُهم ألَّا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا أقمْتُ فيهم، وقبلتُ منهم، وعلَّمتُهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنَّة نبيِّه، وإن لم يُسلِموا قاتلتُهم، وإني قدِمْتُ عليهم فدعوتُهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ، وبعثتُ فيهم ركبانًا قالوا: يا بنى الحارث؛ أسلِموا تَسلَموا؛ فأسلَموا ولم يقاتِلوا، وأنا مقيمٌ بين أظهُرِهِم، آمرُهم بما أمَرَهم الله به، وأنهاهم عمَّا نهاهم الله عنه، وأعلِّمهم معالم الإسلام وسنَّة النَّبيِّ ﷺ، حتى يكتب إليَّ رسول الله ﷺ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته**".

---

[١] انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ٦٣).

فكتب إليه رسول الله ﷺ أن يُقبِل عليه بِوَفدِهم.

٢- وكتب أبو عبيد بن مسعود الثقفي إلى عمر بن الخطاب يبشِّره بانتصار المسلمين على الفرس في موقعة النمارق[١] **"إنَّ الله أطعمنا مطاعم، كانت الأكاسرة يحمونها، وأحببنا أن تروها؛ لتذكروا إنعام الله و إفضاله".**

٣- وكتب عمرو بن العاص لأهل مصر عهدًا وآمانًا بعد تمام فتحِها، وقد جاء نصُّه[٢] **"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهلَ مصر من الأمان على أنفسهم وملَّتهم وأموالهم، وكنائسهم وصُلُبهم، وبَرِّهم وبحرِهم: لا يدخل عليهم شيءٌ من ذلك، ولا ينتقص، ولا تساكنهم النوبة. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية -إذا اجتمعوا على هذا الصلح و انتهت زيادة نهرهم- خمسين ألفَ ألفٍ، وعليهم ما جنى لصوتهم، فإن أبَى أحد منهم أن يجيب؛ رُفِع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمَّتُنا ممَّن أبَى بريئة.**

وإن نقص نهرهم عن غايته إذا انتهى؛ رُفِع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة؛ فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتَّى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا، وعليهم ما عليهم أثلاثًا؛ فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم. على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمَّته وذمَّة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذِمَم المؤمنين. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسًا، وكذا وكذا فرسًا، وعليَّ أن لا يُغْزَوْا، ولا يُمنَعوا من تجارة صادرةٍ ولا واردةٍ".

٤- وكتب معاوية إلى عليِّ بن أبي طالب رسالة يتَّهمه فيه بدم عثمان، قال فيها[٣] **"بسم الله الرحمن الرحيم، من معاوية بن صخر إلى عليِّ بن أبى طالب: أمَّا**

---

١ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٠٥- ٢٠٦).
٢ انظر: المصدر السابق (١/ ١٨٨).
٣ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (١/ ٢٥٨).

بعدُ: فلَعَمري لو بايعك القوم الذين بايعوك و أنت بريءٌ من دم عثمان؛ لكنتَ كأبي بكروعمروعثمان رضي الله عنهم أجمعين، ولكنك أغريتَ بدم عثمان المهاجرين، وخذَّلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقَوِيَ بك الضعيف، وقد أبَى أهل الشأم إلا قتالك؛ حتى تدفع إليهم قتَلَة عثمان، فإن فعلتَ؛ كانت شورى بين المسلمين، و إنَّما كان الحجازيون هم الحكَّام على الناس والحقُّ فيهم، فلمَّا فارَقوه كان الحكام على الناس أهل الشام، ولعمرى ما حُجَّتك عليَّ كحُجَّتك على طلحة والزُّبير؛ لأنَّهما بايعاك ولم أبايعك، وما حجَّتك على أهل الشأم كحجَّتك على أهل البصرة؛ لأن أهل البصرة أطاعوك، ولم يُطِعك أهل الشام، فأمَّا شرَفُك فى الإسلام، وقرابتك من رسول الله ﷺ ، وموضعك من قريش؛ فلستُ أدفعه".

وقد ردَّ أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب على هذه الرسالة في رسالته التي ذكرنا سابقًا.

٥- وإبان الفتنة حاول معاوية بن أبي سفيان استمالة قيس بن سعد بن عبادة إليه -وكان واليًا على مصر مِن قِبَلِ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب- وبعث إليه عدَّة رسائل، فلمَّا آيس منه؛ أرسل له رسالة عنيفة يقول فيها[1]: "**أمَّا بعدُ: فإنَّما أنت يهوديٌّ ابن يهوديٍّ، تُشقِي نفسك وتقتلها فيما ليس لك، إن ظفر أحَبُّ الفريقين إليك؛ عزَلَك واستبدل بك، وإن ظفر أبغضهما إليك؛ قتلك ونكَّل بك، وقد كان أبوك وتر قوسه، ورمى غرضه، فأكثر الحزَّ وأخطأ المفصل، حتَّى خذله قومه، وأدركه يومه، ثم مات طريدًا غريبًا بحوران، والسَّلام**".

٦- فردَّ عليه قيس بن سعد ردًّا عنيفًا قال فيه[2]: "**أمَّا بعدُ: فإنما أنت وثنيٌّ ابن وثنيٍّ، دخلتَ فى الإسلام كرْهًا، و أقمتَ فيه فَرَقًا، وخرجْتَ منه طوعًا، ولم**

---

١ انظر: المصدر السابق (٢/ ٨٧).
٢ انظر: المصدر السابق (٢/ ٨٧- ٨٨).

يجعل الله لك فيه نصيبًا، لم يَقْدم إيمانك، ولم يَحْدث نفاقك، ولم تزل حَربًا لله ولرسوله، وحِزبًا من أحزاب المشركين، وعدوًّا لله ولنبيِّه وللمؤمنين من عباده، وقد كان أبي وترقوسه، ورمى غرضه، فشغب عليه من لم يبلغْ كعبه، ولم يشقَّ غباره، ونحن أنصار الدِّين الذي منه خرجتَ، وأعداء الدِّين الذى فيه دخلتَ، والسَّلام".

٧- وكتب عبد الله بن عباس يعزِّي ابن عمه عليَّ بن أبي طالب في مقتل محمد ابن أبي بكر الصِّدِّيق عاملِه على مصر، على يد جند معاوية، فقال[١]: **"بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عليِّ بن أبي طالبٍ أميرِ المؤمنين، من عبدالله بن عباس: سلامٌ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، أما بعدُ: فقد بلغني كتابك تذكر فيه افتتاح مصر، وهلاك محمد بن أبي بكر، فالله المستعان على كل حال، ورحم الله محمد بن أبي بكر، وآجَرَكَ يا أمير المؤمنين، وقد سألتَ الله أن يجعل لك من رعيَّتك التي ابتُلِيتَ بها فرجًا ومخرجًا، وأنْ يُعِزَّك بالملائكة عاجلًا بالنُّصرة؛ فإنَّ الله صانع لك ذلك، ومُعِزُّك ومُجِيب دعوتِك وكابِتُ عدوِّكَ، أُخبِرُك يا أمير المؤمنين أن الناس ربما تثاقلوا ثم ينشطون، فارفق بهم يا أمير المؤمنين، وداجِنْهم ومَنِّهم، واستعِنْ بالله عليهم، كفاك الله ألمهم، والسَّلام".**

(٤) التوقيعات والحِكَم:

من نماذج التوقيعات ما كتبه أبو بكر الصِّدِّيق ردًّا على رسالة خالد بن الوليد في مغازيه: **"ادْنُ مِنَ الموت تُوهَبْ لك الحياة"**، وكتب عمر بن الخطاب ردًّا على رسالةٍ لسعد بن أبي وقاص يستأذنه في بناء دار للإمارة فقال: **"ابْنِ ما يكنُّكَ مِن الهواجروأذَى المطر"**، ووقَّع لعمرو بن العاص قائلًا: **"كن لرعيَّتك كما تحبُّ أن**

[١] انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٥/ ١٠٩).

يكون لك أميرُك"، وكتب عثمان في قصة قوم تظلَّموا من مروان بن الحكم: "**فإنْ عصوك فقل إنِّي بريء مما تعلمون"**، ووقَّع عليٌّ بن أبي طالب على كتابٍ من الأشتر النخعي يشكو بعض ما يكره: "**مَن لكَ بأخيكَ كُلِّه؟!"**، ووقَّع كذلك على كتاب سلمان الفارسي لمَّا سأله: كيف يحاسَبُ النَّاس يوم القيامة، قائلًا: "**يحاسَبُونَ كما يُرزَقُونَ"**[1].

ومن كلام أبي بكر الصِّدِّيق: "**ليست مع العزاء مصيبة"**، وقال كذلك: "**أصلِحْ نفسَك يَصلُح لك الناس"**، ونُسِب إلى عمر بن الخطاب قوله: "**مَن كتم سرَّه كان الخيار فيه يده"**، وقال" "**أشقَى الوُلاة من شَقِيَتْ به رعيَّته"**، وقال: "**أعقَلُ النَّاس أعذَرُهم للنَّاس"**، ونُسِب إليه قوله "**أكثروا من العيال فإنَّكم لا تدرون بِمَن تُرزَقون"**، وقال: "**ما الخمر صِرفًا بأذهب للعقول من الطمع"**، وقال عثمان: "**يكفيك من الحاسد أن يغتمَّ وقتَ سرورك"**، ومِن كلام عليّ ابن أبي طالب: "**ومَن بالغ في الخصومة أَثِم، ومن قصَّر فيها ظَلَم"**، وقال: "**الدَّهر يومان: يومٌ لك ويوم عليك، فإن كان لك فلا تَبْطَر، وإن كان عليك فلا تضجَر"**، وقال: "**مَن طلب شيئًا؛ ناله أو بعضه"**، وقال مرَّةً: "**إذا تمَّ العقل؛ نقص الكلام"**، وقال عبد الله بن عباس: "**لا تُمارِ سفيهًا ولا حليمًا؛ فإنَّ السَّفيه يؤذيك، والحليم يقليك"**[2]، وقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: "**من أرضَى اللهَ بإسخاط الناس؛ كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن أرضَى النَّاسَ بإسخاط الله؛ وكَلَه الله إلى الناس"**[3]، وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: "**العجب لمن يهلك والنَّجاة معه"**، فقيل: ما هي يا أمير المؤمنين؟ **قال: الاستغفار**[4]

---

١ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ٥٣١).

٢ انظر: مجمع الأمثال، الميداني (٢/ ٤٥٥)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة: دار المعرفة، بيروت- لبنان، د.ط، د.ت.

٣ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (١/ ١٩٤).

٤ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٤٠).

الباب الثالث

الأدب في العصر الأموي

العصر الأموي

(تعريفه- الأحوال السياسية- الأحوال الاجتماعية- شيوع اللَّحن- الحالة العلمية والثقافية)

تعريفه:

كنا قد ذكرنا في حديثنا عن عصر صدر الإسلام؛ اشتعال الفتنة بين علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وبين معاوية بن أبي سفيان -رضوان الله عليهم جميعًا- والتي أدَّت إلى عدة معارك ومواجهات لم يحسم فيها السيف ولم تنتهِ إلا باستشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على يد أحد الخوارج عام ٤٠هـ/ ٦٦٠م، فخلفه ولده الحسن رضي الله عنه، بينما بايع أهل الشام معاوية بن أبي سفيان أميرًا للمؤمنين، ولم تستمر تلك الخصومة طويلًا حتى تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بعد أشهرٍ من خلافته عام ٤١هـ/ ٦٦١م؛ لتجتمع الأمة على معاوية ابن أبي سفيان ويبدأ معه عصر جديد من عصور التاريخ وهو العصر الأموي.

ويُقصد بالعصر الأموي تلك المدة التي بدأت منذ تولّي معاوية بن أبي سفيان الخلافة ثم اجتماع الأمة عليه إثر تنازل الحسن عام ٤١هـ/٦٦١م، وتنتهي بسقوط الخلافة الأموية وآخر خلفائهم مروان بن محمد، على أيدي العباسيين عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م؛ أي إنها استمرت حوالي تسعين سنة.

ولا شك أن تلك الحقبة التي قاربت قرنًا من الزمان هي حقبة مهمة وخطيرة من حقب التاريخ الإسلامي؛ نظرًا إلى أن هذا العصر مليء بالأحداث السياسية داخليًّا وخارجيًّ،ا فضلًا عن كثير من التطورات الاجتماعية والثقافية والفكرية التي شهدها هذا العصر فأكسبته طابعًا خاصًّا، وبعض النقاد يدمج العصر الأموي بعصر الخلفاء الراشدين فيما يسمى مجازًا بالعصر الإسلامي، ويرون أن العصر الأموي امتدادٌ لعصر الخلفاء الراشدين في كثير من النواحي والجوانب، وهو رأيٌ له وجه من الصواب، ولكنَّنا آثرنا فصل هذا العصر في باب خاص؛ كونه كان مليئًا بالأحداث السياسية التي تحتاج إلى تفصيل مستقل، فضلًا عن

ظهور ملامح جديدة على الحركة الأدبية والشعرية في هذا العصر؛ كنشاط الشعر، وعودة العصبية القبَلِية، وتعدد الفرق والمذاهب السياسية والفكرية، ممَّا ألقى ظلالًا على الحركة الأدبية تستحق البحث فيها بشكل مستقل.

الأحوال السياسية:

عصر الخلافة الأموية مليء بالأحداث السياسية المضطربة والمتشعِّبة، تحتاج إلى تفصيل خاص وباب مستقل، ولكننا هنا سنقوم بإعطاء نبذة عن الحياة السياسية بشكل مختصر؛ حتى يتم ربطها بالأدب، ونقوم بتلخيص الأحوال السياسية في العصر الأموي في ثلاثة جوانب.

(١) الخلافة الأموية:

كانت الخلافة الإسلامية منذ نشأتها بعد النَّبيِّ ﷺ شورى بين المسلمين، يقومون فيه بانتخاب الخليفة أو تعيينه بعد استشاره أهل الرأي وعموم الناس، وظلت هكذا طوال عصر الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ رضوان الله عليهم، إلى أن استشهد علي بن أبي طالب عام ٤٠هـ/٦٦٠م وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية في العام التالي عام ٤١هـ/٦٦١م، وكان معاوية ذا حزم ودهاء وسياسة، شهدت البلاد استقرارًا وثباتًا في عهده، وقد كان يُظَنُّ أن الأمر سيعود كما كان عليه، لكن معاوية فاجأ من اعتقد بهذا، وجعل الخلافة وراثية في عقبه، وأخذ البيعة من بعده لولده يزيد، فانتهت الشورى وصارت الخلافة حِكرًا للبيت الأموي، وقد نجح معاوية في توطيد البيعة لولده يزيد، إلا أنَّ عددًا قليلًا من صحابة النَّبيِّ ﷺ أنكروا هذا، وكان على رأسهم الحسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير بن العوام -رضي الله عنهما- فلم يبايعا، فما إن توفِّيَ معاوية عام ٦٠هـ/ ٦٧٩م وتولَّى الخلافة بعده ولده يزيد -ولم يكن بكفاءة أبيه- حتى اضطربت الأوضاع واشتعلت ثورة الحسين بن عليٍّ ضده، وقد اعتزم السير إلى العراق بعدما بايعه أهلها، وقد انتهت تلك الثورة باستشهاد الحسين -رضي الله عنه- في موقعة كربلاء المشؤومة عام ٦١هـ/ ٦٨٠م، على يد جيوش يزيد، بعد

خذلان أنصار الحسين له، وما إن فرغ يزيد من ثورة الحسين حتى ابتُلِيَ بثورة أخرى على يد عبد الله بن الزبير في المدينة ومكة، داعيًا إلى خلع يزيد، فأرسل يزيد جيشًا لقتاله، تمكَّن من محاصرة المدينة ثم الاستيلاء عليها بعد موقعة دموية عنيفة عُرِفت باسم موقعة الحرَّة عام ٦٣هـ/٦٨٢م، ثم حاصر مكة وفيها ابن الزبير، بَيْدَ أن يزيد ما لبث أن توفِّيَ عام ٦٤هـ/ ٦٨٣م فانسحب الجيش الأموي وترك حصار مكة، وخلفه ولده الصغير معاوية، وكان مريضًا، فزهد في الخلافة وخلع نفسه واعتزل، وما لبث أن توفِّيَ بعد أبيه بأيام.

في ذلك الوقت كان مروان بن الحكم هو رأس البيت الأموي وأقوى أمراء بني أمية، وكانت الأمصار الإسلامية بعد فراغ السلطة الأموية في الشام كلها قد بايعت عبد الله بن الزبير خليفة للمسلمين وأميرًا للمؤمنين، ولم يكن بِيَد بني أمية غير دمشق والأردن، حتى همَّ مروان أن يبايِع هو أيضًا، لكنه وبتأثير من قادته قرَّر الصمود، فبويع من قِبَل أنصاره أميرًا للمؤمنين، وكان مروان رجل دهاء وسياسة؛ إذِ استطاع أن يستعيد الشام ومصر من سلطان ابن الزبير، وعزم على قتاله، لكنه ما لبث أن توفِّيَ فجأة عام ٦٥هـ/٦٨٤م، فخلفه ولده عبد الملك، وقد كان يفوق أباه ذكاء ودهاء وحنكة وسياسة، فاستطاع عبدالملك بعد جهد جهيد التخلص من خصومه، فاستعاد العراق والحجاز وسائر أقاليم الدولة الإسلامية، وقُتِل ابن الزبير عام ٧٣هـ/ ٦٩٢م، وانتهت خلافته المناوئة لخلافة الأمويين، بعدها تفرَّغ عبد الملك لقتال خصومه من الخوارج حتى تمكَّن من القضاء على جميع ثوراتهم وفِتَنِهم، وعادت الدولة الإسلامية موحَّدة قوية متماسكة تحت راية الخلافة الأموية، وقد توفِّيَ عبدالملك عام ٨٦هـ/ ٧٠٥م، بعد خلافة دامت ٢٣ سنة.

وتجدر الإشارة هنا إلى جهود قائد من قواد عبد الملك بن مروان، كان له دور بارز في قمع تلك الفتن والثورات؛ وهو الحجاج بن يوسف الثقفي؛ فقد كان هو قائد الجيش الذي حاصر مكة بضعة شهور حتى قتل ابن الزبير، وتولَّى ولاية الحجاز زمنًا من قِبَل عبد الملك، ثم أعفاه من الحجاز، وولَّاه على العراق وكانت في غاية

الاضطراب، فسيَّر الجيوش لحرب الخوارج وقضى على جميع الفتن والثورات الداخلية، وضبط الأوضاع وكان له دور بارز في تثبيت أركان ودعائم الدولة الأموية وردِّ الاستقرار إليها، غير أنه كان متجبِّرًا شديد الطغيان، مسرفًا في القتل وسفك الدم، حتى إنه رمى الكعبة بالمجانيق كي يُجبر ابن الزبير على الاستسلام، وتوفِّيَ الحجاج بن يوسف عام ٩٥هـ/ ٧١٤م.

أسفرت جهود عبد الملك بن مروان في القضاء على تلك الفتن والثورات، عن حقبة استقرار وهدوء في عهد ولده الوليد بن عبد الملك (٨٦- ٩٦هـ/٧٠٥-٧١٤م)، ثم في عهد ولده الثاني سليمان بن عبد الملك (٩٦- ٩٩هـ/٧١٤-٧١٧م)، ثم عهد ابن عمهما عمر بن عبد العزيز بن مروان (٩٩- ١٠١هـ/٧١٧-٧١٩م)؛ الذي وصلت الدولة في عهده إلى قمة ازدهارها ونضوجها، ثم من بعده يزيد ابن عبد الملك (١٠١- ١٠٥هـ/٧١٩- ٧٢٣م)؛ حيث لم تحدث في تلك المدة أحداث داخلية مهمة ذات شأن، وبعدهم تولَّى الخلافة هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٣- ٧٤٢م)، وقد شهد عهده عدة ثورات وفتن داخلية، كان من بينها ثورة زيد بن علي بن الحسين مطالبًا بالخلافة وبثأر جدِّه الحسين رضي الله عنه، بالإضافة إلى ثورات للخوارج في خراسان والمغرب العربي والأندلس، غير أن هشام بن عبد الملك كان ذا دهاء وخبرة بالسياسة والأمور كأبيه، فأدار أمور دولته بسياسة وحزم، وقضى على جميع الثورات المناهضة له، مبقيًا على دولته قوية مهابة الجانب، لكنه ما لبث أن توفِّيَ عام١٢٥هـ/٧٤٢م حتى ضعفت الدولة الأموية واختلف بنو أمية فيما بينهم وتمزَّق أهل الشام، فدخلت الخلافة في دوَّامة من المشكلات والفتن والصراعات الداخليه، وتولَّى الخلافة بعد هشامٍ ابنُ أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكان فاسقًا فقُتل بعد عام من خلافته، وخلفه ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك لبضعة أشهر، ثم أخوه إبراهيم بضعة أسابيع، إلى أن جاء مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفائهم فتولَّى الخلافة عام١٢٧هـ/٧٤٤م، وكان ذا قوة وبأس ولكن الخلاف كان قد وقع بين بني أمية وكثرت الفتن والثورات، وفي هذه المدة كان بنو العباس بن عبد

المطلب عم النَّبيّ ﷺ قد نشطت دعوتهم في خراسان؛ حيث كانوا يطالبون لأنفسهم بالخلافة وانتزاعها من بني أمية، وما لبثوا أن أعلنوا دعوتهم فالتفَّ حولها خلقٌ كثيرٌ، وأخذت جيوش العباسيين تجتاح أقاليم الدولة الأموية في خراسان وفارس والعراق، وما لبثوا أن هُزِم أمامهم مروان بن محمد في معركة الزاب عام ١٣٢هـ، ففرَّ من مواجهتهم، فتعقَّبه بنو العباس وقتلوه في إحدى قرى مصر، فانتهت بذلك الخلافة الأموية وانقضى العصر الأموي ليبدأ بعدها عصر جديد؛ هو العصر العباسي.

(٢) الطوائف السياسية:

نجح الأمويون خلال مدة حكمهم في الإبقاء على الدولة الإسلامية دولة موحَّدة قوية تحت راية خلافة واحدة، وكان هذا أعظم مزاياهم، غير أن الوحدة السياسية التي تمتَّعت بها الدولة الإسلامية في العصر الأموي لم تمنع ما حدث إبان هذا العصر من انقسامات سياسية وطوائف حزبية متصارعة اختلفت مع بني أمية، ورغم نجاح الأمويين في القضاء على تلك الثورات والإمارات المناوئة لهم وتمكُّنهم من الحفاظ على وحدة العالم الإسلامي سياسيًّا؛ فإن الخلافات السياسية داخل أركان تلك الدولة الموحدة كانت تتزايد وتتعاظم فيما بينها، وأبرز تلك الطوائف السياسية التي ظهرت في العصر الأموي:

١- **الحزب الأموي:** أو شيعة بني أمية؛ وهؤلاء كانوا يرون الخلافة حقًّا لبني أمية وحدهم، فيعارضون من خالفهم ويقرُّون لبني أمية نيلهم الخلافة بحق الجبر والغلبة، وكان هذا الحزب هو أقوى الأحزاب السياسية على الساحة، فكانوا أصحاب السلطة والحكم، وكان منهم من كان يؤمن بأحقية بني أمية بالخلافة فعلًا ويرى ذلك عقيدة راسخة له؛ مثل الأخطل وعديّ بن الرقاع، بينما كانت طائفة أخرى تتبعهم فقط من باب المصانعة وموالاة القويّ لا عن عقيدة صادقة.

٢- **الشيعة:** أو حزب الطالبيين؛ وكانوا مناوئين للحزب الأموي، وهم شيعة عليِّ بن أبي طالب وآله، وهؤلاء كانوا يرون بني أميَّة مغتصبين للخلافة، ويرون الخلافة حقًّا لهم بحكم قرابتهم للنَّبيِّ ﷺ وكونهم سلالته، ويُسمَّون بالعلويِّين نسبة إلى علي بن أبي طالب، وهناك من يطلق عليهم اسم الطالبيين؛ كونهم قد انضم لهم كذلك عددٌ من أبناء عقيل وجعفر أخَوَيْ علي بن أبي طالب، وكان هؤلاء في صراع مرير مع الحزب الأموي، وجرت بينهم عدة وقائع كانت عليهم؛ كثورة الحسين بن علي رضي الله عنهما؛ الذي قُتل أمام جيوش الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، وكذلك ثورة حفيده زيد ابن عليٍّ؛ الذي طالب بالخلافة وبثأر جده فقتلته جيوش الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وكانت تلك الهزائم لها أثر مرير في نفوس الشيعة في ازدياد عدائهم وكرههم لبني أمية، ورغم خسائرهم وفشل ثوراتهم فقد شكَّلوا عنصرًا مُقلقًا أمام الأمويين؛ نظرًا إلى عِظَم منزلتهم في عموم المسلمين؛ الذين كانوا يحترمونهم لمكانهم من النَّبيِّ ﷺ، مما جعل الأمويين يتورَّعون عن سفك دمهم ما استطاعوا؛ لعِلمِهم ما يجرُّه عليهم دم هؤلاء من ويلاتٍ، إلا إذا قامت ثورة شيعية في وجوههم، حينها يضطرون إلى مواجهتهم وإخماد ثورتهم بالعنف.

وقد انقسم الطالبيون إلى قسمين: قسم انخرط في السياسية وطالب بحقِّه في الخلافة؛ كالحسين وحفيده زيد بن علي (زين العابدين)، وقسم آخر اعتزل السياسة وزهد في الخلافة، كما فعل الحسن بن عليٍّ، فتفرَّغ للعلم والدِّين؛ مثل جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين؛ الذي رفض إغراءات الثورة والخروج المسلَّح ضد الدولة الأموية، وآثر السَّلم والتفرغ للعلم والدِّين.

وتدخل في غمرة الشيعة طائفةٌ أطلقت على نفسها اسم التوَّابين؛ وكانوا قد ندموا على خذلانهم للحسين، وآثروا القتال ثأرًا له، وتزعَّم هؤلاء سليمان ابن صرد أحد شيعة عليٍّ وولده الحسين، وقد قتله بنو أمية، ويدخل في غمرتهم أيضًا المختار بن أبي عبيد الثقفي المعروف بالكذاب، وهو الذي ثار في الكوفة

مطالبًا بثأر الحسين، ونجح في قتل قتَلَتِه إلى أن قُتِل هو الآخر على يدِ مصعب ابن الزبير من قِبَل أخيه عبد الله.

وقد انتشرت بين الشيعة عقيدة عُرِفت باسم عقيدة التَّقِيَّة؛ وهي عقيدة تسمح لهم بإخفاء معتقداتهم وتشيُّعهم وميولهم لآل البيت، وتجيز لهم مصانعة الأمويين وأنصارهم وولاتهم؛ اتِّقاء لشرَّهم وانتقامهم.

٣- **الزبيريون:** وهم أنصار عبد الله بن الزبير بن العوام؛ وكانوا يرون أن الخلافة لا بدَّ أن تعود شورى كما كانت في قريش، ورغم أن بني أمية قرشيون كذلك لكنهم اختزلوا الخلافة لأنفسهم فقط وجعلوها وراثية في عقبهم واستأثروا بها عمن سواهم، وهو ما يرفضه أولئك، وقد انتهى أمر هؤلاء بمقتل عبد الله بن الزبير عام ٧٣هـ/ ٦٩٢م، ولم يَعُدْ هناك من يطالب بمطالبهم أو يمضي بدعوتهم، فكان هذا الحزب هو أضعف الأحزاب السياسية في هذا العصر.

٤- **الخوارج:** وهؤلاء قد ظهروا في أيام خلافة علي بن أبي طالب؛ اعتراضًا على قبوله التحكيم، وقاموا بتكفيره، وبلغ من تشدُّدهم أنهم كانوا يُكفِّرون سائر المسلمين ويحاربون حتى من خالفهم الرأي ولم يَقُل بقولهم، فيستحلِّون دمه وماله وعرض نسائه، وقد نجح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في قتل عدد كبير منهم في موقعة النهروان، لكن بقيت منهم أعداد متخفية، وقد تسلل أحدهم وهو اللعين عبد الرحمن بن ملجم فنجح في اغتيال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولم يكن اختلافهم على عليٍّ وحده؛ بل اختلفوا على معاوية كذلك في آنٍ واحدٍ، ودبَّروا مؤامرة لقتل معاوية وعمرو ابن العاص في نفس اليوم الذي قُتل فيه عليٌّ ولكن المؤامرتين فشلتا.

وكان الخوارج يرون أنه لا حكم إلا لله، ويرون أن الخلافة شورى بين عموم المسلمين ولا يجب أن يختص بها بنو أمية وحدهم ولا حتى قريش وحدها؛ بل قد يلي الأمة عبدٌ حبشيٌّ إذا اتفقت له أسباب التقوى والصلاح، وقد مضوا في هذه الدعوة بكل جهدهم فحاربوا الشيعة والأمويين والزبيريين، وكانت عقيدتهم قويَّة

وإيمانهم بفكرتهم راسخ، وهي عقيدة دفعتهم إلى حدِّ محاربة إخوانهم من المسلمين وقتلهم واستحلال أموالهم ونسائهم، وقد عُرِفوا بالشجاعة والفروسية والبأس الذي عبَّر فعلًا عن صدق عقيدتهم القوية الراسخة رغم ما بها من انحراف وتطرُّف.

وقد نشط الخوارج في بلاد فارس والعراق منذ عهد معاوية وكانوا يتهددون الكوفة والبصرة بالغارات والقتل، فاجتهد معاوية في قتالهم وجرت عدة وقائع معهم تكبَّدوا فيها بعض الخسائر فسكنوا حينًا ثم عادوا من جديد، ولما اشتعلت الفتنة بين عبد الله بن الزبير وبني أميَّة وانشغل المسلمون بقتال بعضهم بعضًا؛ نشط الخوارج من جديد وسيطروا على مساحات واسعة من بلاد فارس وطردوا منها عُمَّال بني أمية وتهدَّدوا العراق وأخذوا يُقتِّلون الناس ويروِّعون الآمنين.

ولم يكن الخوارج فئة واحدة؛ بل تعددت فئاتهم وأحزابهم؛ فكان منهم **الحرورية**؛ وهي تسمِيَة أطلقها علي بن أبي طالب على من خرج منهم بحروراء، ومنهم **النجدية**؛ وهم أنصار نجدة بن عامر أو عويمر الحنفي، و**الإباضيَّة** أنصار عبد الله بن إباض، و**الصُّفرية** الذين تزعَّمهم ابن صُفار -وقيل: بل سُمُّوا كذلك لإغراقهم في العبادة حتَّى اصفرَّت وجوههم- و**البيهيسيَّة** أصحاب بَهيس، وكان من بينهم **الأزارقة** الذين تزعَّمهم نافع بن الأزرق ثم قطريُّ بن الفجاءة[1].

وليس الخوارج كلهم على مذهب واحد في التكفير وضرورة القتال والإيمان بوجوبه؛ فهناك من كفَّر المسلمين كُلِّيَّةً مثل نافع بن الأزرق ومن شايعه من الأزارقة، وهناك من اكتفى بأن رآهم أهل فسق أو كفار نعمة، وهناك من رأى القتال جهادًا مفروضًا كالأزارقة، وهناك من الخوارج من لم يكن نشطًا في القتال فقال مقالة الخوارج ولكنَّه قعد عن الغزو والحرب فهؤلاء سُمُّوا بالقَعَدَة، وكان منهم من يؤمن بمعتقد الخوارج لكنه يخالط المسلمين، وقد شاع القعود في الإباضية والصُّفرية؛ الذين لم يعلن قائدهم عبد الله بن الصُّفار الجهاد، حتى

---

[1] انظر: المصدر السابق (٣/ ٢٠١).

ظهر فيهم صالح بن مسرح التميمي الذي قادهم والتف حوله خلق كثير وظل يُلحق بجيوش الأمويين هزائم متوالية حتى قُتل في بعض حروبه، فخلفه شبيب ابن يزيد الشيباني الذي ألحق بجيوش الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق هزائمَ متتاليةً وهاجم الكوفة وظل زمنًا يكبِّد جيوش الحجاج خسائرَ فادحة حتى قُتِل غرقًا عام٧٧هـ.

وكانت **الأزارقة** هي أخطر تلك الفرق وأشدها وطأة وأعظمها تطرُّفًا وخطرًا؛ إذْ كان قائدهم نافع بن الأزرق يرى سائر المسلمين كُفَّارًا يجب قتالهم ويجب قتل نسائهم وأطفالهم أيضًا واستباحة أعراضهم وأموالهم، بل يرى الجهاد ضدهم فرض عين ويُحرِّم عليهم القعود، وبلغ به الأمر تكفير حتى من قعد عن قتالهم من الخوارج، فخالفه بعض إخوانه من الخوارج مثل ابن الصفار وابن الإباض ونجدة بن عامر؛ الذين كانوا على خلاف مع سائر المسلمين، ومنهم من يرى جهادهم ضرورة لأنَّهم فسَّاق أو كفَّار نعمة ولكن ليس إلى درجة التكفير المطلق[1] وقد قاتل نافع بن الأزرق مع ابن الزبير حينًا حينما هاجم جيش الخليفة الأموي يزيد بن معاوية مكة، ثم انصرف عنه حينما تبيَّن أنه ليس على مذهبه، فذهب إلى بلاد فارس وأيَّده خلقٌ كثيرٌ وبسط سلطانه على الأهواز وكرمان وطبرستان ودخل في حروب هائلة مع الزُّبيريّين والأمويين حتى قُتِل في معركة دولاب، وتوالت بعدها الوقائع والحروب دون أن تهدأ ثورتهم، وكانوا يهزمون البعوث التي تجيء إليهم ويمزِّقون جيوشًا كانت أضعافهم، وقد استفحل خطر الأزارقة؛ حيث كانوا يهزمون الكثير من القوَّاد الذين كُلِّفوا بمحاربتهم، حتى جاء المهلَّب بن أبي صُفرة فقاتلهم، وكان أمير العراق الحجَّاج بن يوسف الثقفي يُعِينه بالمدد والجُند، وكان على رأس الأزارقة حينها قطري بن الفجاءة المازني، ومع هذا لَقِيَ المهلَّب منهم عنتًا شديدًا ولم ينجح في إتمام الظفر عليهم إلا حين وقع الخلاف بين جنود الأزارقة، فنجح حينها المهلب في إخماد ثورتهم وقُتِل قطري

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ١٨٧- ١٨٨).

ابن الفجاءة آخر زعمائهم وتم إجلاؤهم عن الأقاليم التي أخذوها بعد سنين طويلة من القتال.

ومع هذا فقد استمرت ثورات الخوارج تشتعل من الفينة إلى الأخرى، ما تهدأ حينًا حتى تندلع مجدَّدًا، واستمرَّت ثوراتهم حتى نهاية العصر الأموي وكان آخرها ثورة عبيد الله بن يحيى وأبي حمزة الخارجي في الحجاز ونواحي اليمن، وثورة الضحاك بن قيس الحروري في العراق، فأخمد ثورتهما الخليفة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية.

(٣) الفتوحات الإسلامية:

من حسنات عصر بني أميَّة أنه رغم الفتن والنكبات الداخلية وتعاظم الانقسامات الحزبية والسياسية في عهدهم؛ فقد واصل خلفاء بني أمية نهج الخلفاء الراشدين في الفتوحات الإسلامية ونشْر الدين الإسلامي والتَّمدُّد في مختلف الأرجاء، حتَّى فُتحت في عهدهم أقاليم واسعة ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وتكوَّنت في عهدهم امبراطورية واسعة امتدَّت من حدود الصين شرقًا حتى جنوب فرنسا غربًا.

فعلى الجبهة الشرقية غزا المسلمون بلاد السند والهند وخوارزم وبخارى وعبروا نهر جيحون وفتحوا من تلك البلاد مساحات شاسعة ووصلوا إلى حدود الصين والهند، وقد برز على تلك الجبهة عدد كبير من الأمراء والقادة مثل المهلَّب بن أبي صُفره وولده يزيد بن المهلب وقُتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي، واستمرت حروب المسلمين مع الترك حتى قريب من نهاية الخلافة الأموية، وكانت لهم الغلبة في أغلب حروبهم ومعاركهم، وكان من أبطالها من ولاة خراسان أسد بن عبد الله القسري والجنيد بن عبدالرحمن المري ونصر ابن سيار.

أما على الجبهة الغربية فقد كان المسلمون قد افتتحوا برقة وما يليها من المغرب الأدنى ثم توقَّفت الفتوحات مؤقتًا بسبب الفتن، حتى جاء القائد الشهير عقبة ابن نافع الفهري فتولَّى ولاية المغرب وشيَّد مدينة القيروان لتكون مقرًّا له،

وتوسَّع غربًا فحقَّق على البربر وحلفائهم من الروم انتصارات متوالية، وافتتح بلاد المغرب الأوسط والأقصى حتى وصل إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي)، غير أن فتوحاته فيما يبدو على اتساعها لم تكن ثابتة؛ إذْ كمن له البربر فقتلوه وهو راجع من فتوحه، وخسر المسلمون كل فتوحاته بما فيها القيروان.

إلا أن هذه الانتكاسة لم تدم طويلًا؛ إذْ خلفه على المغرب زهير بن قيس البلوي فنجح في استعادة القيروان، ثم ما لبث أن استشهد فواصل بعده الجهاد في المغرب حسَّان بن النعمان الغسَّاني ثم موسى بن نُصير الذي أتم فتح المغرب ووصل إلى بحر الظلمات مجدَّدًا ولم يكتفِ بذلك؛ بل إنه قرَّر فتح بلاد الأندلس فأرسل قائده البربري طارق بن زياد على رأس جيش عبر مضيق جبل طارق وحقَّق عدة انتصارات على القوط في إسبانيا، وما لبث أن لحق به وتعاون معه حتى انضمَّت إسبانيا للدولة الإسلامية، واستمر توغُّل الجيوش الإسلامية في أوربا حتى اجتاحت بقيادة عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي مساحات واسعة في بلاد الفرنجة (فرنسا)، فوصل إلى مشارف باريس والتقى هناك بجيش حاكمها شارل مارتل في معركة عُرِفت باسم بلاط الشهداء عام ١١٤هـ، قُتِل فيها عبد الرحمن الغافقي رحمه الله، وتراجع المسلمون إلى الجنوب لتتوقف الفتوحات في تلك الجبهة عند هذا الحد.

وأما على الجبهة الشمالية فقد كانت المعارك نشطة بين المسلمين من جهة والروم والخزر من جهة أخرى، وزاد منها أن صارت دمشق حاضرة الخلافة وهي قريبة من ثغور الروم ومواقعهم، بل إن المسلمين حاولوا فتح القسطنطينية عاصمة البيزنطيين مرتين؛ كانت المرة الأولى في عهد معاوية بقيادة ولده يزيد، وكانت المرة الثانية في عهد سليمان بن عبد الملك بقيادة أخيه مَسلَمَة بن عبد الملك، وقد فشلت المحاولتان وتراجع المسلمون.

ورغم فشل محاولات فتح القسطنطينية فقد استمرَّت المعارك البرية على الثغور الحدودية ضد البيزنطيين في الأناضول والخزر على حدود أرمينيا وأذربيجان، وكانت الغلبة غالبًا للمسلمين ففتحوا العديد من الثغور والحصون

مثل عمورية وهرقلة وطرسوس حتى وصلوا إلى أعماق الأناضول، واشتهر في تلك الحروب كلٌّ من مسلمة بن عبد الملك وبعض أبناء إخوته كالعباس بن الوليد ابن عبد الملك ومسلمة وسليمان ومعاوية وسعيد أبناء هشام بن عبد الملك، انتهاء بمروان بن محمد الذي تولَّى أرمينيا وكانت له في الجهاد ضد الخزر والروم ميادين طيبة قبل أن يلي الخلافة.

(خريطة الدولة الأموية وفتوحاتها)

الأحوال الاجتماعية والاقتصادية:

كانت الحياة في العصر الأموي بشكلٍ عامٍّ حياة ترفٍ ونعيم؛ حيث عمَّ الرخاء جميع أنحاء وأقاليم الدولة الإسلامية، وكانت أموال الخراج والفتوحات تتدفَّق على خزانة الخلافة حتى بلغت الدولة الأموية قمة ازدهارها ورخائها في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، فكان صاحب المال في عهده كان يطوف بزكاة أمواله فلا يجد من يأخذها.

ولم تتأثر الحالة الاجتماعية وما كان فيها من رخاء وترفٍ، بالأحداث السياسية والفتن الداخلية التي حدثت في هذا العهد؛ نظرًا إلى أن تلك الخصومات كانت بين فئات سياسية اختصَّت بها الأطراف المتصارعة من أمويين وزُبَيريّين وشيعة وخوارج، ولم تخص بقية العوام من الناس الذين كانوا مطئمنين بما فيه من

رخاء واكتفاء ماليٍّ، ولم يتورَّطوا في هذا الصراع؛ ونستطيع أن نوجز الحالة الاجتماعية في العصر الأموي من خلال عدة نقاط على النحو الآتي:

- **مظاهر الحضارة والعمران:** كان الأمويون بطبعهم يميلون إلى المعمار، وزاد من هذا الميل ما حدث في عهدهم من رخاء وازدهار وتدفُّق الأموال على خزانة الدولة، بالإضافة إلى ميل بني أمية إلى مظاهر الأبَّهة والفخامة في الملك، مما دفعهم إلى تشييد القصور وتزيين المباني والمساجد؛ فهذا عبد الملك بن مروان يعتني بالمسجد الأقصى ويقوم بتشييد مسجدٍ مجاورٍ له عُرِف بقُبَّة الصخرة حتى شاع أنه يريد أن يجعله محل البيت الحرام الذي كان وقتها بِيَد خصمه عبد الله بن الزبير، وكان ولده الوليد بن عبد الملك ميَّالًا بطبعه إلى المعمار فقام في عهده بتوسعة الحرمين الشريفين وأشرف على توسعتهما عمر بن عبدالعزيز حينما كان واليًا على الحجاز، ولم يكتفِ بذلك؛ بل إنه قام بتشييد الجامع الأموي في دمشق وجلب إليه كل مظاهر الفخامة والأبهة والزينة، وهذا سليمان بن عبد الملك يقوم ببناء مدينة اللُّد، وكذلك هشام بن عبد الملك يقوم بتشييد مدينة الرُّصافة بالقرب من دمشق لتكون مقرًّا لحكمه، فضلًا عن العديد من القصور والأبنية الفخمة، وقد قام الحجاج بن يوسف الثقفي بتشييد مدينة واسط بين الكوفة والبصرة لتكون حاضرة إمارته، فضلًا عن إنشاء مدينتَي القيروان وتونس في المغرب الأدنى على يد عقبة بن نافع وحسان بن النعمان، فكانت الأولى قاعدة المسلمين البرية، والثانية قاعدتهم البحرية، وتدل تلك النهضة العمرانية وما رافقها من فخامة وأبهة على مدى ازدهار الحالة الاجتماعية والاقتصادية في عصر بني أمية.
- **شيوع اللهو والترف:** كان من الطبيعي مع شيوع الرخاء ومظاهر الدَّعة أن ينتشر اللهو أيضًا، فعُرِفت الملاهي والحانات والموسيقى في مختلف الأنحاء وشاع اللهو في الحجاز بشكل لافت؛ فقد ركن أهله إلى الدعة وورثوا مغانم الفتوح من أموال ورقيق وكذلك أموال الحج والعمرة، وكان معاوية بن أبي

سفيان يغدق على أهل الحجاز –ولا سيَّما- المدينة بالأموال والعطايا حتى يشغلهم عن الخلافة والحكم، وكان جيل المولدين (أبناء الزواج المختلط) أميَلَ إلى اللهو والدعة، وكثرت الجواري وانتشرت الدعة بين النساء، حتى إن منهن من كانت تميل إلى أن يتغزَّل بها شاعر[1] كما ظهرت في العصر الأموي بعض مظاهر الفسق والمجون والخمر تبعًا لشيوع الترف، غير أن المجتمع رغم بدء ظهور تلك المظاهر كان لا يزال في أغلبه محافظًا ثابتًا على مظاهر الخُلُق والدِّين، وكان انتشار المجون في العصر الأموي لا يزال محدودًا رغم شيوع اللهو، بحيث لم يصل إلى حدِّ الخلاعة والبذخ كما ظهر لاحقًا في العصور التالية.

- **اختلاط العرب بالمولدين والموالي:** توسَّعت رقعة الدولة العربية والإسلامية توسُّعًا عظيمًا وخرجت العروبة من نطاق جزيرة العرب لتشمل ولايات العراق والشام ومصر وفارس وخراسان وتونس، ولما جاء العصر الأموي تواصلت الفتوحات لتشمل أقاليم المغرب والأندلس وخوارزم والسند وبلاد ما بين النهرين، ودخل الناس في دِين الله أفواجًا، وانتشرت العربية حتى دان لِلِّسان العربي أقوام غير عربية، واختلط العرب بتلك الأمم الجديدة التي كانت تنتمي إلى ثقافات مختلفة وتتحدث لغات متعددة، وقد كان امتزاجًا رائعًا أدَّى إلى ازدهار الجوانب الثقافية والاجتماعية؛ حيث تعرَّف العرب على ثقافاتهم وعلومهم ومعارفهم، وسادت اللغة العربية على سائر اللغات القديمة من سريانية وفارسية وقبطية، وتعرَّب أهالي تلك الشعوب والأقاليم فامتزجوا بالثقافة العربية وطباعها، وجمعوا بين الثقافة العربية وثقافاتهم المحلية، وإن كان العرب أيضًا قد تأثَّروا بطباع تلك الأمم فأخذوا عنهم واقتبسوا منهم، وكان هذا الامتزاج قد بدأ في الظهور منذ عصر الخلفاء الراشدين لكنه ازداد أثرًا مع العصر الأموي، فامتزج العرب بتلك الأمم واختلطوا معهم وتزوَّجوا منهم فنشأ من هذا الزواج المختلط فئات جديدة

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/ ٣٥٤- ٣٥٥).

من المجتمعات عُرِفت بالمولدين، وكان عموم غير العرب من شعوب الفرس والبربر والقبط قد عُرِفوا بالموالي، وكان منهم من يلتحق ببعض القبائل العربية وينتسب إليهم بالولاء حتى يكتسب منهم النصرة وتكتسب منهم القبائل العربية أسباب الدعم والتأييد، وكانت معاملة العرب للموالي حسنة في أغلب الأحيان حيث عاش هؤلاء الموالي في ترف ونعيم ورخاء اجتماعي، ولكن هذا لم يمنع من ظهور بعض مظاهر الظلم في بعض الأحيان؛ حيث كان بعض ولاة بني أمية يأخذون الجزية من الموالي حتى بعد إسلامهم، وكانت الدولة تميل دائمًا إلى تقديم العرب لتجعل منهم الطبقة الأولى وتختار منهم الولاة والقادة، لذا فقد كانت علاقة الموالي بالعرب حسنة ولكنهم كانوا أقل ولاء للدولة.

- **العصبية العربية والقبلية:** ومن أبرز مظاهر الحياة الاجتماعية ظهور العصبية العربية والقبَلِيَّة؛ حيث كانت الدولة الأموية دولة عربية الطبع، مالت إلى العرب والقبائل العربية فجعلت منهم الولاة والقادة وقدَّمتهم على سائر فئات المجتمع، فصار العرب فئة الطبقة الأولى بينما كان غيرهم من الموالي في الطبقة الثانية، وهو ما حزَّ في نفس الموالي رغم ما عاشوه من ترف ونعيم، وشعروا أن سياسة الأمويين في تقديم العرب عليهم تخالف ما عرفوا من قيم المساواة والعدل في الإسلام، فكانوا أقل ولاء للدولة، وقد أدَّى هذا إلى ظهور ما عُرف لاحقًا بالشعوبية؛ وهي القومية الفارسية؛ التي نشأت كفعل مضادٍّ للعصبية أو القومية العربية، وقد انتهز دعاة بني العباس خصوم بني أمية تلك الثغرة فاجتذبوا إليهم الموالي وأخذوا يحرضونهم على الخلافة الأموية، فلقيت دعوتهم رواجًا، وهو ما أدَّى إلى سقوط الخلافة الأموية فيما بعد.

وليت الأمر توقَّف عند العصبية العربية وتمييز العرب عن الموالي فحسبُ؛ بل إن العرب مجدَّدًا ما لبثوا أن تشعَّبوا إلى شعوب وقبائل وظهرت فيهم العصبية القبَلِيَّة على شكل واسع، وهي إن كانت قد احتجبت حينًا مع ظهور

الإسلام الذي مقَّتها وأحلَّ محلَّها الدِّين؛ فقد غلب الطبع العربي مع اتساع الفتوحات واتساع حِمَى القبيلة معها، وظهر التنافس بين اليمنيَّة (القحطانيين) والمضريَّة (العدنانيين)، وما لبثت أن تشعَّبت القبائل العدنانية إلى عدة بطون إلى ربيعة وقيس عيلان وإلياس وكنانة، ويبدو أن سياسية الأمويين قد شجَّعت على ظهور العصبية القبلية؛ حيث كانوا شديدي الميل إلى اليمنيَّة وكانت بينهم روابط وصِلات، وكان اليمنيون في معظمهم أنصارًا لبني أمية حتى ظهر آخر خلفائهم مروان بن محمد فمال إلى المضرية، وكان أسد بن عبد الله القسري والي خراسان فيه عصبية يمنيَّة، بينما كان خلَفُه نصر بن سيار آخر ولاة بني أمية فيه تعصُّب لقومه المضرية على حساب الربعية واليمنية فقرَّبهم وجعلهم عدَّته وقادته وولاته، مما أسخط عليه آخرين ومهَّد للثورة ضده، وقد نفعت العصبية القبَلِيَّة بني أمية في بادئ الأمر؛ إذِ اعتمدوا على شوكة القبائل الموالية لهم في التَّغلُّب على خصومهم وتثبيت حكمهم ودعم أركان دولتهم، لكن ما لبث أن وقع الخُلف بين خلفاء بني أمية آخر عهدهم فدبَّ الخلاف بين تلك القبائل تبعًا لذلك ونفر بعضها من بعض فانهار بناؤهم، وقد أدَّى ازدياد وهج نيران العصبية القبلية أخيرًا إلى سقوط الخلافة الأموية عام ١٣٢هـ/٧٥٠م.

اللحن ونشوء العامية:

كان من آثار اختلاط العرب بالأمم الأخرى وتعرُّب الموالي؛ شيوع ما عُرِف بظاهرة اللحن، ثم نشوء العامِّيَّة، وكانت السليقة العربية في العصر الجاهلي ثم في العصر الإسلامي سليمة ناضجة؛ بسبب قلَّة اختلاط العرب بغيرهم، فكان اللسان الفصيح هو لسانهم الذي تطبَّعوا به وأتقنوه، حتى إذا انتشر الإسلام ودخلت فيه شعوب شتَّى لا تنتمي إلى ذلك الأصل العربي فتعرَّبت ودخلت في نطاق تلك الثقافة؛ بدأ اللحن في الظهور، واللحن يعني الزيغ والخطأ في حركات

الإعراب أثناء النُّطق، وقد شاع اللحن شيوعًا ملحوظًا في عصر بني أمية وكان يُعَدُّ حينها عيبًا فاحشًا.

ولم يكن شيوع اللحن وليد العصر الأموي ابتداءً؛ بل كان قد بدأ في الظهور حتى مع عصر الرسول ﷺ حينما دخل في نُصرَته بعضٌ من غير العرب أو مَن اختلط بالعجم فكانوا يتحدثون العربية بلكنةٍ؛ مثل بلال بن رباح الذي تكلَّم بلكنة حبشية، وصُهيب الرومي بلكنة رومية، وسلمان الفارسي بلكنةٍ فارسية، ويُروَى أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قد مرَّ بقوم يرمون، فاستقبح رميهم قائلًا: ما أسوء رميكم!! قالوا: نحن قوم (متعلِّمين)، فقال عمر: لحنُكم أشدُّ عليَّ من فساد رميكم؛ ويُروَى أنَّه أمر أبا موسى الأشعري حينما كان واليًا على البصرة أن يضرب كاتبًا لديه جعل صدر كتابه (مِن أبو موسى).[1]

ومع اتساع نطاق الفتوحات وتزايُد اختلاط العرب بالمولَّدين؛ بدأت السلائق العربية تضعف وتفسد، وكثر الدخيل على العربية، وفسد اللسان العربي؛ إذْ كان من الصعب على الموالي والمتعرِّبين وفْق طبيعتهم أن ينطقوا باللغة العربية الفصحى كما هي؛ لاختلاف الطبع واللسان، وكثر اللحن واستفحل حتى اشتهر به بعض الخلفاء مثل الوليد بن عبد الملك؛ إذْ أهمل أبوه تأديبه قائلًا: أضرَّ بالوليد حبُّنا فلم نوجِّهه إلى البادية؛ فرُوِي عنه أنه قال لأبيه: يا أمير المؤمنين؛ قُتِل (أبي فديك) بدلًا من (أبو فديك)؛[2] ويقال: إنه قال ذات يومٍ في خطبة له: يا ليتها كانت (القاضيةُ) -بضم التاء- فقال عمر بن عبدالعزيز: عليك وأراحنا منك.[3]

وقد نال اللحن حتَّى من بعض الولاة والخطباء والبلغاء مثل عبيد الله بن زياد الذي أُخِذ عليه لحن كثير وكان يبدِّل بعض الحروف؛ مثل قوله (أهروريٌّ أنت؟) بدلًا من (أحروريٌّ أنت؟)، وقوله (كُلتُ لك) بدلًا من (قُلتُ لك)؛[4] ومن اللَّحانين

---

[1] انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١/ ١٥٤).
٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ١٧٤).
٣ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١/ ١٥٦).
٤ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ١٧٣).

البلغاء خالد بن عبد الله القسري وعيسى بن المدور وخالد بن صفوان الأهتمي[1] الذي كان خطيبًا مفوَّهًا لكنَّه كثيرًا ما كان يقع في اللحن حتى اضطر إلى تعلُّم النحو، بل إن الحجاج بن يوسف الثقفي على عُلُوِّ صِيته في البلاغة أُخِذ عليه لحنٌ؛ إذْ قال لكاتبه يحيى بن يعمر: أتسمَعُني ألحن؟ فقال: الأمير أفصح من ذلك؛ فعزم عليه الحجاج وأقسم، فقال: تجعل (أن) مكان (إن)، قال الحجاج: ارحل عني ولا تجاورني؟![2] وفي رواية أخرى أنه سأل: أتسمعني ألحن؟ فقال: الأمير أفصح الناس؛ فعزم عليه، فقال ابن يعمر: حرفًا؛ فقال الحجاج: أين؟ فقال: في القرآن؛ فقال الحجاج: ذلك أشنَعُ له، فما هو؟ فقال: تقول في قول الله تعالى: **(قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ)**[3] "أَحَبُّ" -بضم الباء بدلًا من الفتح؛ ولعلَّ طُولَ الآية قد أنساه ما بدأ به؛ فقال الحجاج: لاجرم لا تسمع لي لحنًا أبدًا؛ ثم ألحقه بيزيد بن المهلب في خراسان[4].

وكان شيوع اللحن سببًا في اهتمام وعناية بني أميَّة وكل من أهمَّه هذا الأمر؛ بتأديب أبنائهم وإرسالهم إلى البادية حتى يتأدَّبوا على السليقة الصحيحة؛ إذْ إنَّ البادية -لقلَّة اختلاط أهلها بالحَضر- كانت لا تزال تحتفظ بسلامة سليقتها اللغوية حتى دخل فيها هذا العيُّ أواخر القرن الرابع الهجري[5]؛ وهذا ما دفع علماء اللغة إلى الاكتفاء بالشعر الأموي بعد الجاهلي والإسلامي كمرجع لِلُّغة؛ نظرًا إلى أن السليقة اللغوية فسدت بعد العصر الأموي ولجأ الشعراء الذين أتوا بعد ذلك إلى الصنعة لمعالجة شعرهم.

---

[1] انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ١٥١)؛ تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١/ ١٥٥).

٢ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (١/ ٢٢٢).

٣ سورة التوبة: ٢٤.

٤ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/ ١٣).

٥ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١/ ٢١٥).

وقد خِيفَ من شيوع اللحن بهذا النمط المتسارع على ضياع اللغة العربية وتحريف القرآن، فكان هذا دافعًا لتأسيس علم النحو على يد أبي الأسود الدؤلي حيث قام بوضع ضوابط وقوانين النحو وحركات الإعراب حتى يتمَّ حفظ اللغة العربية، وقد نجح علم النحو في الحفاظ على سلامة اللغة العربية وبقائها حيَّة إلى يومنا هذا، لكنَّ اللحن أخذ يستفحل و يتفشَّى في أقاليم الدولة الأموية وأخذ العامة يزيدون من الدخيل على العربية والخلط بينها وبين لهجاتهم المختلفة حتى نشأت العامية، ومع قدوم العصر العباسي واعتماد بني العباس على العجم والموالي بدلًا من العرب، وضعفِ العصبية العربية؛ انتشرت العجمة بين المسلمين، وزاد اختلاط العرب بالعجم فزاد اللحن وزادت العامية وصارت اللغة لغتين: لغة الكتابة -أو اللغة الرسمية- وهي الفصحى، بينما صارت اللغة العامية لغة التخاطب والمحادثة بين العامة كما هي الحال الآن.[1]

الحركة العلمية والثقافية:

نشطت المعرفة في العصر الأموي نشاطًا واسعًا وازدهرت الحياة العلمية والثقافية في عدة جوانب، وقد كانت الحركة العلمية في عصر الخلفاء الراشدين قاصرة في معظمها على علوم الدِّين واللغة والحديث نظرًا إلى ظروف الفتح، إلى أن جاء العصر الأموي فاطمأن الناس واستقرُّوا وصار لديهم من الوقت ما يسمح بالنظر في بقيَّة العلوم والمعارف.

وزاد من تطوُّر الحركة الثقافية في العصر الأموي اختلاط العرب بالموالي والعجم؛ حيث اختلطت الثقافات واطَّلع العرب على ثقافات وعلوم جديدة ممَّا لم يكونوا على علم أو إحاطة به من قبلُ، كما حرص الموالي والمستعربون على الاطلاع على ثقافة العرب، فأضافوا إليها مِن علمهم ومعارفهم، وكانت كلٌّ من البصرة والكوفة في العراق، ودمشق في الشام، والفسطاط في مصر، والقيروان في تونس مراكزَ لانتشار الحركة الثقافية والعربية في عموم الدولة الإسلامية،

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص٢٠٤- ٢٠٥).

وكذلك المدينة المنورة التي وإن فقدت أهميتها السياسية بانتقال مقر الخلافة عنها فقد زادت أهميتها كمركز ثقافي مهمٍّ؛ إذْ إن انصراف أهلها عن السياسية منحهم فرصةً للتفرغ للعلوم الدينية واللغوية وعموم المعارف والثقافة، غير أن الحركة الثقافية رغم دخول ثقافات أجنبيَّة معرَّبة تحت لوائها؛ ظلَّت إلى حدٍّ ما قائمة على عنصر الثقافة العربية؛ ذلك لأن الدولة الأموية كانت دولة عربية العصب، بدوية الطبع، شجَّعت إلى حدٍّ كبير العلوم الدينية والعربية ومختلف الآداب الجاهلية وتعصَّبت لصالح العرب، وإن كان هذا لا يمنع أن تلك الثقافة رغم تطبُّعها بالطابع العربي قد تأثرت أيضًا بالعلوم الدخيلة والأجنبية إلى حدٍّ ما، وإن لم يبلغ درجة التمام لكنَّه كان واضحًا بشكل ملحوظ.

ولم تتأثَّر الحركة العلمية بما جرى في العصر الأموي من أحداث وفتن داخلية؛ لأن هذا العصر وإن اشتعلت فيه تلك الفتن أحيانًا فإنها لم تكن لِتَمَسَّ كل فئات المجتمع؛ فالفقيه منشغلٌ بفقهه والعالم منشغلٌ بعلمه والأديب منشغلٌ بأدبه والشاعر مختصٌّ بشعره وأرباب الحرف كلٌّ انشغل بعمله، فهؤلاء لم يتورطوا بما جرى حولهم من الفتن والأحداث؛ فانعزلوا عنها مع عموم الناس.

وكان من الطبيعي أن تظل الأولوية **للعلوم والمعارف الدينية** من فقه وحديث وتفسير للقرآن؛ حيث كان لها النصيب الوافر من العناية والاهتمام بغية نشر الدين وإيصاله للمسلمين الجدد؛ إذْ كان النصف الأول من العصر الأموي لا يزال عامرًا بالبقيَّة الباقية من صحابة النَّبيِّ ﷺ الذين امتدَّ بهم العمر حتى أدركوا العصر الأموي؛ مثل أم المؤمنين عائشة زوجة النَّبيِّ ﷺ (ت٥٧هـ) وأبي هريرة (ت٥٧هـ) وعبد الله بن عمرو بن العاص (ت٦٥هـ) وعبد الله بن العباس ابن عبد المطلب (ت٦٨هـ) وعبد الله بن عمر بن الخطاب (ت٧٣هـ) وأنس ابن مالك خادم النَّبيِّ ﷺ وكان من أواخر الصحابة موتًا (ت٩١هـ)، فكانوا -رضوان الله عليهم- يعلِّمون الناس دينهم ويروون عن رسول الله ﷺ، وما لبث أن تلا هذا الجيل من الصحابة جيل آخر من التابعين استلم الراية بعدهم، فتتلمذوا على يد الصحابة وتأدَّبوا على أياديهم؛ مثل الحسن بن يسار المعروف بالحسن

البصري وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وعامر الشعبي والإمام أبي عمر عبد الرحمن الأوزاعي، بالإضافة إلى بعض أبناء الصحابة مثل القاسم بن محمد ابن أبي بكر وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

وقد عُنِيَ الصحابة ومَن تَبِعَهم من التابعين برواية الحديث عن رسول الله ﷺ؛ خاصة أبو هريرة وعبد الله بن عمرو وأنس بن مالك وأم المؤمنين عائشة، ولم تكن الأحاديث قد دُوِّنت بعدُ؛ والسبب في ذلك أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وبعض الصحابة كانوا لا يحبُّون التَّوسُّع في رواية الحديث حتى لا يختلف الناس وينشغلوا بخلافهم ذلك عن القرآن الكريم، فكان يقول لبعض عمَّاله: جوِّدوا القرآن وأقِلُّوا الرواية عن رسول الله ﷺ، ويُروَى أنه فكَّر في الأمر واستخار فيه ثم قال: إني كنت ذكرت لكم من كتابة السُّنن ما قد علمتم، ثم ذكرت فإذا ناسٌ من أهل الكتاب مِن قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كُتُبًا، فأكبُّوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني -والله- لا ألبِّسُ كتاب الله بشيء[1]

على أنه مع مرور الزمن وذهاب جيل الصحابة واختلاف الذاكرة، فضلًا عن تزايُد الفتن؛ كثر الاضطراب في أحاديث رسول الله ﷺ، إضافة إلى اشتعال الفتن بين الأمويين والزبيريين والشيعة والخوارج، فبات كلٌّ منهم يقوم بوضع أحاديث وأخبار مختلقة لتعضيد مذهبه والنيل من الآخر، فلمَّا انتبه لذلك أهل العلم والدِّين؛ زادت الرغبة في تدوين الأحاديث النبوية الشريفة، وأمر الخليفة عمر ابن عبد العزيز عامله على المدينة المنورة أبا بكر بن حزم بجمع أحاديث رسول الله ﷺ، كما أمر عالم الحجاز محمد بن مسلم الزهري بضبط رواية الأحاديث مراعيًا شروط الصحة[2] ثم ظهر أيضًا كتاب الموطَّإ للإمام مالك بن أنس؛ حيث دوَّن فيه ما انتهى إليه ورواه من أحاديث رسول الله ﷺ، فتمَّ بذلك حفظ السُّنَّة وإنقاذها من الضياع، وقد ازدهر علم الحديث وتم تدقيق وتصنيف الأحاديث

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص٩٦).

٢ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١/ ١٨١- ١٨٢).

النبوية وتمييز صحيحها عن ضعيفها بشكل كبير لاحقًا في العصر العباسي وفْق ما نفصِّله في موضعه.

وقد نشط أيضًا تفسير القرآن؛ الذي اشتهر فيه عبد الله بن عباس، وهناك مِن صحابة النَّبيّ ﷺ ومَن تَبِعهم بإحسان؛ مَن اعتنى بالقرآن وما يرافقه من تشريعات وفقه؛ مثل نافع مولى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، والضحَّاك بن مزاحم، ومحمد بن سيرين الذي اشتهر بتفسير الأحلام.

وأخذ **علم الفقه** في التطور في العصر الأموي؛ فقد عرضت للمسلمين أمور ونوازل جديدة لم يكن لهم عِلمٌ بها زمنَ النَّبيّ ﷺ، احتاجت للتدقيق والفتوى، وبدأت تتميَّز مذاهب مختلفة في الفقه كمذهب عبد الله بن عباس ومذهب عبد الله بن مسعود ومذهب الإمام الأوزاعي، فضلًا عن ظهور اثنين من أئمة المذاهب السُّنِّيَّة الأربعة الأشهر؛ هما: أبو حنيفة النعمان في العراق، ومالك بن أنس في المدينة.

ومع بدء ظهور المذاهب البدعية الكلامية المنحرفة والمخالفة للسُّنَّة والجماعة؛ بدأ يظهر بجانب الفقه ما عُرِف **بعلم الكلام**؛ الذي احتاج إليه بعض علماء أهل السُّنَّة للرَّدّ على أصحاب المذاهب البدعية والفرق الضالة بالحجج والأدلة وبراهين المنطق والإقناع، ومِن ضمن المذاهب المنحرفة المخالفة للسُّنَّة التي ظهرت في العصر الأموي مذهب المعتزلة بزعامة واصل بن عطاء؛ الذي اختلف مع الحسن البصري في مرتكب الكبيرة، ومذهب معبد الجهني وغيلان الدمشقي في القضاء والقدر، وهذا الأخير قتله الخليفة هشام بن عبد الملك، فضلًا عن ظهور المناظرات بين تلك الفئات التي اختلفت في العقيدة كالمعتزلة والقدريَّة والجبريَّة والمُرجئة وطوائف الخوارج وفِرَق الشيعة.

وتطور كذلك **علم المناظرات** الدينية والسياسية، وقد عُرِف الخوارج بالجدل والمناظرة ولجوئهم إلى الحجج والبراهين، ومناظرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس لهم معروفة، وكذلك مناظرة زيد بن علي بن الحسين لمن خالفوه من الشِّيعة؛ بسبب حُسن رأيه في الشيخين أبي بكر وعمر، وهو ما أدَّى

إلى انقسام الشيعة إلى فئتين؛ الزيدية أنصار زيد بن علي، والرافضة الذين رفضوا اتِّباعه وطعنوا في أبي بكر وعمر.

ومن بين هذه المناظرات أيضًا مناظرة الحسن البصري وواصل بن عطاء في مسألة مرتكب الكبيرة، كما كثرت المناظرات حول مسألة الخلافة ورأيِ كل طائفة حولها.

وهناك من اعتنى **بعلم السِّيَر ومغازي النَّبيّ** ﷺ، وكانت لا تزال فرعًا من فروع علم الحديث، فاعتني به عدد من التابعين مثل عروة بن الزبير ومحمد بن مسلم الزهري[1] واشتهر وهب بن منبه في تاريخ ملوك العرب القدماء.

وبجانب علوم الدِّين نجد **علوم اللغة والنحو والأدب**؛ حيث اعتنى علماء اللغة بالعربية اهتمامًا واسعًا؛ كونها لغة القرآن، وللتَّصدِّي لظاهرة شيوع اللحن، وقد تأسَّس علم النحو لأول مرة على يد أبي الأسود الدؤلي، ويُروَى في ذلك أنه استأذن زياد بن أبيه والي معاوية على البصرة أن يضع علمًا يضبط للناس كلامهم، فأبَى عليه أوَّلًا، إلى أن وفد عليه رجل وأخوه في نزاع حول الميراث فقال أحدهما: إن (أبونا) مات وإن (أخينا) وثب على مال (أبانا) فأكله؛ فانتبه زياد للحنِهِ وقال: الذي أضعْتَ من لسانك أضرُّ عليك مما أضعْتَ من مالك[2] وحينها أذِن لأبي الأسود الدؤلي بما نهاه عنه، فقام أبو الأسود بتأسيس علم النحو[3] فضبط حركات الفاعل والمفعول واستعمل النِّقاط للتعبير عن حركات الضم والفتح والكسر، فجعل علامة الفتح نقطة فوق الحرف وعلامة الكسر نقطة تحت الحرف وعلامة الضم نقطة بين يدي الحرف والتنوين نقطتين تعلو إحداهما الأخرى[4]؛ وظل هذا النظام قائمًا حتى استفحل بين الناس خطأ نُطق الحروف المتشابهة ولم تكن العربية عرَفت التنقيط؛ إنما ميَّز العرب تلك الحروف المتشابهة عن طريق فهْم مواضع الكلام، إلا أن ذلك اختلط على العجم

---

[1] انظر: المصدر السابق (١/ ١٨٦).
٢ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ١٥٢).
٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص٢٠٦).
٤ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (ص٣٤٥- ٣٤٦).

والموالي والمستعربين، فخلطوا بين الدال والذال وبين الصاد والضاد وبين السين والشين وبين الباء والتاء والثاء، ففزع الحجاج بن يوسف إلى كُتَّابه واستشارهم، فنهض له نصر بن عاصم وقام بوضع النقاط على الحروف العربية المتشابهة تمييزًا لها عن غيرها، فيما عُرف بالتصحيف[1] وقد أشكلت تلك النقاط على الناس مع نقاط علامات الضم والفتح التي وضعها الدؤلي إلى أن ظهر الخليل ابن أحمد الفراهيدي فقام بإلغاء نظام تمييز الحركات بالنقاط ووضع العلامات المعروفة الآن بالضم والكسر والفتح.

وبجانب علم اللغة اعتنلا اللغويون كذلك بالشعر والرواية؛ حيث تفرَّغ في العصر الأموي عدد من الرواة المحترفين من حفظة الشِّعر الجاهلي، وكان علماء اللغة يهتمُّون برواية الشعر الجاهلي وشرحه، ولا سيَّما الغريب من لفظِه؛ لأسباب لغوية وثقافية، ولِدَعم اللغة العربية في مواجهة اللحن.

وقد نشطت الكتاتيب في العصر الأموي وانتشر المؤدبون والقراء في المساجد؛ حيث كان الآباء يرسلون أبناءهم إليهم من أجل تعليمهم وتأديبهم على الدين واللغة والثقافة العربية، وكان الخلفاء الأمويون يرسلون أولادهم إلى البادية للتمكُّن من أسباب اللغة[2]

وتدل الآثار المعمارية في العصر الأموي وما حوته من فنون وتصوير وزخرفة رائعة على أن العرب قد بلغوا شوطًا في **علم العمارة والهندسة**، كما نرى في عناية الأمويين بتوسعة الحرمين وتشييد المساجد الجديدة كالجامع الأموي بدمشق وقبَّة الصخرة ومدينة الرصافة وواسط واللُّد وغيرها من القصور والأبنية.

أما عن سائر العلوم التطبيقية فقد شهدت بعض النشاط في هذا العصر؛ إذْ أدَّى احتكاك العرب بالأمم الأخرى من الفرس والسريان والقبط إلى اطِّلاع العرب على بعض العلوم والمعارف الجديدة التي لم يكونوا على دراية واسعة بها؛

---

١ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١/ ١٩٣).
٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (ص٣٤٥- ٣٤٦).

مثل **علم الطب**، واشتهر في البلاط الأموي بعض الأطباء من هؤلاء؛ مثل الطبيب النصراني ابن أثال طبيب معاوية بن أبي سفيان، واليوناني ثياذوق طبيب الحجاج، وقد بنى الوليد بن عبد الملك مستشفى جمع فيها المرضى والأطباء وأجرى عليهم نفقاتهم، وفي عهد عمر بن عبد العزيز نُقِلت معاهد الطب من الإسكندرية إلى أنطاكيا وحرَّان.[1]

وعُرِف أيضًا **علم الكيمياء** حيث أخذه خالد بن يزيد بن معاوية الأموي من الراهب الرومي ماريانس؛ إذْ طلب منه أن يعلِّمه علم الكيمياء والطب، كما عُرِف عن خالد حُبُّه لعلم النجوم والفلك، فكان يجمع عِلمه ويستحضر آلاته، وكان خالد بن يزيد منشغلًا بتلك المعارف الجديدة بعد أن صُرِفت عنه الخلافة ويئس منها.[2]

وقد عَرف العرب في العصر الأموي لأول مرة **علم الموسيقى** الذي شاع شيوعًا واسعًا في هذا العصر تزامنًا مع شيوع حالة اللَّهو والتَّرف وانتشار الدَّعة ورقَّة العيش، وكانت معرفة العرب في الجاهية بهذا الجانب قاصرة فقط على الغناء وما يرافقه من معازف بدائية في الجاهلية، حتى إذا اختلط العرب بالأمم الأخرى وقدم عليهم عدد من مغنيِّي الفرس والروم وسمع العرب تلحينهم للكلام وعرفوا العيدان والطنابير وشتَّى المعازف والمزامير؛ فأخذوها عنهم ولحَّنوا عليها أشعارهم، وقد انتشرت الموسيقى في مختلف أنحاء البلاد الإسلامية وشاع في الحجاز بشكل لافت وشجَّعه بعض خلفاء بني أمية؛ مثل يزيد بن معاوية والوليد ابن عبد الملك، وكان الوليد الثاني ابن يزيد يُحسن العزف ونظم الأغاني، وممَّن اشتهر بالموسيقى وعُرف بها نُشيط الفارسي وطويس وسائب وحائر مولى عبد الله ابن جعفر وقد سمعوا شعر العرب فلحَّنوه وأجادوا، وما لبث أن أخذ العرب عنهم ذلك الفن فاشتهر فيه منهم مُعبَّد وابن سريج، وزادت صناعة الموسيقى نضجًا واكتمالًا فيما بعدُ في العصر العباسي.[3]

---

١ انظر: المصدر السابق (ص٣٤٧).
٢ انظر: المصدر السابق (ص٣٤٧).
٣ انظر: المصدر السابق (ص٣٤٨).

ومن الجدير بالذكر أن هذا العصر قد شهد الإرهاصات الأولى للترجمة والتدوين؛ حيث ترجم ابن ماسرجويه اليهودي الفارسي كتاب الطب للراهب النصراني أهرون من السريانية إلى العربية، ويقال: إن خالد بن يزيد بن معاوية أمر بنقل بعض كُتُب علم الفلك والكيماء والطب من اليونانية والقبطية إلى العربية[1]، ويُقال: إن عبد الله بن عباس كان يُدوِّن فتاويه التي تصدر عنه.

فضلًا عن بعض المحاولات الفردية للتدوين مثل كتاب "الملوك وأخبار الماضين" لعُبيد، وكتاب "التيجان" لوهب بن منبه، غير أنه لا يسعنا القول بأن حركة الترجمة والتدوين في هذا العصر قد بدأت بعدُ؛ إذْ إنها كانت لا تزال إرهاصات أولية ومحاولات فردية لا يمكن التعويل عليها كبدء للترجمة؛ ولكنها كانت على بدائيتها نواة لتطوِّر حركة الترجمة وبدء عصور التدوين لاحقًا، حينما اتفقت أدواتها في العصر العباسي.

ومن خلال تلك اللمحة عن الحركة الثقافية في العصر الأموي نجد أن العلوم الدينية والشرعية واللغوية والأدبية قد بلغت قمة درجة الاهتمام والعناية، وزاد من ذلك تشجيع الخلفاء الأمويين لها، ونجد أيضًا أن هذا العصر قطعت فيه الحركة العلمية شوطًا لا بأس به في العلوم التطبيقية كالطب والفلك والكيماء والهندسة، ولكنها لم تبلغ بعدُ درجة النضج والاكتمال؛ نظرًا إلى أنه رغم اختلاط العرب بالعجم والموالي كان الاتجاه العلمي لا يزال معتمدًا إلى حدٍّ ما على عنصر الثقافة العربية بسبب تقديم الدولة الأموية وتفضيلهم للعرب، لكن هذا لم يمنع أن سار العرب في هذا الجانب شوطًا لا بأس به.

وهذا هو خلاصة حديثنا عن العصر الأموي بجميع طباعِهِ وخصائصه وجوانيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

---

١ انظر: المصدر السابق (ص٣٤٧).

الشعر في العصر الأموي

حالة الشعر في العصر الأموي:

نشط الشعر في العصر الأموي نشاطًا واسعًا بعدما كان قد أصابه شيء من الركود في عصر صدر الإسلام، واعتنى الرواة بنقله وروايته، حتى إننا لنستطيع القول بأنه استعاد مكانته وعاد إليه جانب كبير من لمعانه وبريقه في نفوس العرب، حتى كاد أن يصل إلى منزلته التي كان عليها في العصر الجاهلي.

وقد اتَّفقت عدة أسباب لنهضة الشعر في العصر الأموي؛ كان أبرزها:

١- تشجيع الخلفاء الأمويين للنهضة الأدبية وعموم الآداب الجاهلية القديمة بدافع دعم الثقافة العربية وطبع الدولة الإسلامية بالطابع العربي، فكان الشعراء يتَّجهون إلى الخلفاء بغية مديحهم ونيل المنزلة، وكان الخلفاء الأمويون بدورهم يقرِّبون الشعراء إليهم ويجزلون لهم العطايا ويميلون إلى مديحهم.

٢- ازدياد حدَّة النزاع السياسي في الدولة الأموية وانقسام الأمَّة إلى عدة أحزاب مختلفة من أمويين وشيعة وزُبيريين وخوارج، فمالت كل تلك الفئات إلى الشعر من أجل تعضيد مواقفها ونشر أفكارها، وقد أدرك الأمويون تلك الحقيقة فكان ميلهم إلى الشعر والشعراء له دوافع سياسية، وكذلك فعل الخوارج؛ إذْ كانوا من خلال الشعر يعبّرون عن مذاهبهم وأفكارهم ويصفون معاركهم، ومِثْلهم فعل الشيعة والزُّبيريُّون، ممَّا أدَّى إلى نشاط الشعر

٣- ظهور العصبية القبلية مجدَّدًا؛ ممَّا أدَّى إلى نشاط شعر الهجاء المبني على التعصب القَبَلِي، وظهور ما عرف بالنقائض

٤- انتشار حالة التَّرف والنَّعيم في العصر الأموي؛ ممَّا أدى إلى التفرغ للشعر ولروايته بقديمه وحديثه، وهو ما أفضى إلى نشاط الشعر بشكل عام ولا

سيَّما بعض أغراضه المعبِّرة عن حالة الترف تلك؛ مثل شعر الغزل والمجون والخمر، وظهر في هذا العصر رواة محترفون تخصَّصوا في الشعر وروايته.

وبهذا نشط الشعر في هذا العصر لأسباب سياسية وثقافية واجتماعية وتعدَّدت آفاقه ومدراكه، وإن لم يبلغ نفس مدى الشعر الجاهلي ولكنَّه على الجانب الآخر حمل أغراضًا وملامح جديدة لم تكن معروفة، ومثلما كانت في الجاهلية أسواق ساهمت في نشاط الشعر حينها مثل سوق عكاظ؛ فإننا نجد في العصر الأموي **سوق المربد**؛ الذي كان يقام على ضواحي مدينة البصرة على نمطٍ شبيهٍ بِسُوق عكاظ، فكان يجتمع فيه اللُّغويُّون والشُّعراء والتُّجَّار والبائعون، وكان يشهد ما يشهد من السجالات والنقائض الشعرية وتبادُل الثقافات والآداب.

والشعر الأموي إجمالًا رغم أنَّه لم يدوَّن في عصره فإنه أوثَقُ روايةً من الشعر الجاهلي والمخضرم؛ وذلك لقربه من عصور التدوين، فقلَّ فيه المنحول، ولهذا يمكن الثقة في أغلب ما رُوِيَ عن شعرائه، باستثناء بعض شعراء الغزل مثل قيس بن ذُريح وقيس بن الملوح المعروف بمجنون ليلى، وقد نُسجت حولهما روايات وأساطير كثيرة ونُحِل عليهما شعرٌ كثير، بالإضافة إلى شكِّ بعض النقاد في القصيدة الميميَّة للفرزدق التي يقال: إنه مدح بها الإمام زين العابدين عليَّ ابن الحسين يردُّ بها على تجاهُلِ هشام بن عبد الملك له، ومطلعها[1]:

هذا الذي تَعرِفُ البَطْحاءُ وَطْأَتَهُ والبَيــتُ يَعرِفُــهُ والحِــلُّ والحَــرَمُ

وهذه القصيدة فيها رقَّةِ وسلاسة تخالف ما عُرِف عن شعر الفرزدق من قوَّة أسلوبه وفخامته ولغته الصلبة، وهو ما حمل بعض النقاد على التشكيك في صحة نسبتها إليه.

ويعتبر **"منتهى الطلب من أشعار العرب"** لابن ميمون هو أفضل مصدر للشعر في هذا العصر، وكذلك **"الشعر والشعراء"** لابن قتيبة، والنصف الثاني

---

١ انظر: ديوان الفرزدق (ص٥١١)، شرحه وضبطه وقدَّم له: علي فاعور، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

من **"طبقات الشعراء"** لابن سلام؛ الخاص بالشعراء الإسلاميين، بالإضافة إلى **"الكامل في اللغة والأدب"** للمبرِّد، و**"زهر الآداب وثمر الألباب"** للقيرواني، و**"الأغاني"** للأصفهاني وغير ذلك من كتب الأخبار، مع التَّنبيه على أخذ بعض الحذر ولا سيَّما في كتاب الأغاني؛ الذي يُعتبر غنيًّا بالأخبار الأدبية وبالشِّعر ولكنه حوى أيضًا بعض الأخبار الشاذة التي ينبغي عدم الوقوف عندها؛ هذا بجانب الدواوين المفردة لأشهر شعراء هذا العصر؛ مثل الأخطل والفرزدق وجرير والراعي وذي الرُّمَّة، بينما تنبغي الحيطة بشأن شعراء الغزل.

اتجاهات الشعر في العصر الأموي:

تنوَّعت أغراض الشعر وموضوعاته في هذا العصر، وهي -باستثناء الشعر السياسي- كانت أغراضًا شائعة قبل العصر الأموي، لكن حدث بها تطوُّر كبير تبَعًا للمتغيِّرات الاجتماعية والسياسية التي حدثت في هذا العصر، لذا فقد كان الشعر الأموي صورة واضحة ومعبرة عن طبيعة الحياة في العصر الأموي من شتى الجوانب، وتنقسم الاتجاهات التي سار فيها الشعر الأموي إلى سبعة اتجاهات رئيسَةٍ؛ هي: الشعر السياسي وشعر المديح والرثاء وشعر النقائض وشعر الغزل وشعر المجون واللهو وشعر الزهد، بالإضافة إلى الرجز.

١- الشعر السياسي:

كان من الطبيعي لِما حدث من انقسامات سياسية وحزبية في جسد الدولة الواحدة في ذلك العصر؛ بين أمويين وزُبيريِّين وشيعة وخوارج؛ أن يُلقِيَ هذا الانقسام بظلاله على الشعر الذي عبَّر عن الجانب السياسي إلى حدٍّ بعيد، وكانت بذرة ظهور الشعر السياسي أواخر عهد الخلفاء الراشدين، لكنه تطوَّر وبرز بشكل كبير مع تعدُّد الأحزاب السياسية في العصر الأموي، فقد استعملت كل فئة سياسية الشعر لبثِّ أفكارها وتعضيد مواقفها والتعبير عن آرائها.

وكان **الحزب الأموي** هو الطرف الأقوى من بين تلك الطوائف؛ باعتباره الحزب الحاكم صاحب السلطة والخلافة، والذي نجح في التغلُّبِ على جميع خصومه

من الطالبيّين والشّيعة والزُّبيريين والخوارج، ويدور أغلب الشعر فيه بفلك المديح والتعظيم لبني أميَّة والتأكيد على حقِّهم في الخلافة ودعمِهم في ذلك، وقد ظهر ميلُ خلفاء بني أمية لهذا اللون من الشعر منذ أيام معاوية، وإن كان بعض الشعراء قد اندفعوا يمدحون بني أمية من باب التَّكسُّب وطلب العطاء وموالاة القويّ؛ فإنَّ هناك من الشعراء من عُرِفوا بموالاتهم لبني أمية قلبًا وقالبًا، فكان ولاؤهم هذا عن عقيدة سياسية وإيمان وثيق، وكانوا يرون أن بني أميَّة هم أصحاب الحقّ الشرعي في الخلافة، ومن هؤلاء الشعراء مسكين الدَّارمي والأخطل التغلبي وعديُّ بن الرقاع، ومن نماذج الشعر السياسي الأموي ما قاله مِسكين الدارمي يدعم حق يزيد بن معاوية في ولاية العهد وخلافة أبيه[1]:

إليكَ أَميرَ المؤمنينَ رَحَلْتُها ... تُثِيرُ القَطا ليلًا وهُنَّ هُجُودُ
على الطائرِ الميمونِ، والجَدُّ صاعدٌ ... لكلِّ أُناسٍ طائرٌ وجُدُودُ
إذا المِنبَرُ الغَربيُّ خلَّى مكانَهُ ... فإنَّ أميرَ المؤمنينَ يَزِيدُ

وكان ولاء هؤلاء الشعراء لبني أمية، النابع من عقيدتهم السياسية الموالية لهم؛ دافعًا لأن يكون في شعرهم تحريضٌ على خصومهم، وحثٌّ سادتهم من بني أمية على مقارعة خصومهم، ويجسِّد ذلك قول أعشى ربيعة عبد الله بن خارجة يحرِّض عبد الملك بن مروان على قتال خصمه عبد الله بن الزُّبير[2]:

آلُ الزُّبَيْرِ مِنَ الخِلافةِ كالَّتي ... عَجَلَ النِّتاجُ بِحَمْلِها فأحالَها
قُومُوا إليهِم لا تَناموا عنهُمُ ... كَمْ للغُواةِ أطلتُمُ إمهالَها
إنَّ الخِلافةَ فيكُمُ لا فيهِمُ ... ما زِلتُمُ أركانَها وثمالَها

وكان المديح هو إحدى سمات الشعر السياسي الموالي بني أمية، فكان مدَّاحو بني أمية يصفونهم بالعدل والحزم وبأنهم مختارون من الله تعالى لِحُكم هذه الأمَّة، وقد كان في ذلك أحيانًا لونٌ من المبالغة والغُلُوّ، على نحو ما نرى في شعر

---

[1] انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٥٣٦).
[2] انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٣٤٠).

عدي بن الرقاع الذي كان مُقدَّمًا عند بني أميَّة، خصوصًا لدى الخليفة الوليد ابن عبد الملك؛ لِعِظَم مديحه فيهم، ومن نماذج هذا المديح ما قاله الأحوص يمدح يزيد بن عبد الملك، وكان عمر بن عبد العزيز قد نفاه إلى دهلك لكثرة هجائه، إلى أن عفا عنه يزيد، فمدحه بقوله[1]:

شَرِيفُ قُرَيشٍ حِينَ يُنسَبُ والَّذي أقـرَّتْ لَـهُ بالمُلْـكِ كهـلًا وأمـرَدَا

ومن الشُّعراء الذين انخرطوا في سلك المديح لبني أمية عبد الله بن الزبير: الأسدي والمتوكل الليثي وعبد الله بن همام السلولي، على أن المديح لم يكن قاصرًا على الخلفاء الأمويين فحسبُ؛ بل شمل كذلك ولاتهم وقادتهم، وكلها نماذج تدل على أن بني أمية قد استعانوا بالشعر لتعضيد مواقفهم منذ البداية، وأنهم استفادوا كثيرًا منه في سبيل حماية ملكهم والتحريض على خصومهم، فقد وقف الأخطل التغلبي مع بني أمية إبان الفتنة الأولى وناصرهم ضد الزبيريين وسواهم، وكان مُقربًّا من عبد الملك بن مروان، بينما كان لعدي ابن الرقاع عدة مدائح في بني أمية وكان مقدَّمًا عند الوليد بن عبدالملك.

ومن نماذج الشعر السياسي الأموي ما قاله عبد الله بن همام السلولي يرثي معاوية أمام ولده يزيد ويحرّضه لمنح ولاية العهد لولده معاوية بن يزيد[2]:

لقَـــدْ وارَى قُلَيْـــبُكُمُ بَيانًـــا وحِلمًـــا لا كفـــاءَ لَـــهُ وَجُـــودا
وجَـدْناهُ بَغِيضًـا فـي الأعـادي حَبِيبًـــا فـــي رعيّتِـــهِ حَمِيـــدا
أمِينًـا مُؤمِنًـا لَـمْ يَقْـضِ أمـرًا فيُوجِـــدَ غِبَّـــهُ إلا رَشِـــيدا
فقَـدْ أضـحَى العَـدُوُّ رَخِـيَّ بـالٍ وقَـدْ أمسَـى التَّقِـيُّ بـهِ عَمِيـدا

ولا نَجِد للحماسة أثرًا كبيرًا في الشعر السياسي الموالي لبني أمية؛ إذْ إن معظمه كان في سياق المديح والتفخيم والتمجيد لنبي أمية وهجاء خصومهم والتحريض عليهم، ووصْفِ بني أميَّة بأنهم أصحاب الحق في الخلافة، لذا فقد ضَعُفَ الدَّاعي

---

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٢٩١).
٢ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٢/ ٦٢٥- ٦٢٧).

للحماسة في هذا اللون من الشعر حتى أواخر عصر الدولة الأموية، حينما ظهرت الدعوة العباسية في خراسان معلنةً الثورة ضد بني أمية، وانضمَّ إليها خلقٌ كثيرٌ، وأخذت تهدِّد عرش الخلافة الأموية، ولمَّا استشعر الخطورة نصر ابن سيَّار آخِرُ ولاة خراسان؛ بعث على الفور إلى والي العراق يزيد بن عمر بن هبيرة وإلى الخليفة مروان بن محمد يستغيث بهما ويحذِّرهما من الخطر الداهم، وكتب لهم أبياتًا يحاول فيها استنهاض الهمَّة، في لغةٍ حماسيَّة رائعةٍ؛ إذْ بعث إلى يزيد بن عمر بن هبيرة قائلًا له[1]:

أبـلِغْ يَـزيدَ وخَيـرُ القَـولِ أصدَقُهُ وقَـدْ تبيَّـنتُ ألَّا خيـرَ فـي الكَـذِبِ
بِـأنَّ أرضَ خُراسـانٍ رأيـتُ بِهـا بَيضًـا لَـوَ افرَخَ قَدْ حُدِّثتَ بالعَجَبِ
فـرِاخَ عامَيـنِ إلا أنَّهـا كـبرتْ لمَّـا يَطِـرْنَ وقَـدْ سُـرْبِلْنَ بالزَّغَـبِ
فـإنْ يَطِـرْنَ ولَـمْ يَـحتَلْ لَهُنَّ بِهـا يُلْهِبْـنَ نِيـرانَ حـربٍ أيَّمـا لَهَـبِ

وأرسل كذلك إلى مروان بن محمد يستغيث به[2]:

أرَى تحـتَ الرَّمـادِ ومِـيضَ جمـرٍ فيُوشِـكُ أنْ يَكـونَ لهـا ضِـرامُ
فـإنَّ النَّـارَ بالعِيـدانِ تُـذكَى وإنَّ الحَـربَ مَبْـدَاها الكَـلامُ
فقلْـتُ مِـنَ التَّعجُّـبِ ليـتَ شِـعري أَأَيْقـاظٌ أميَّـةُ أمْ نِيـامُ

وهي أبيات تفيض إنسيابية وتجود حماسة على نحوٍ لم يشتهر إلا في أواخر العصر الأموي، وتدلُّ على موهبة نصر الشعرية إذا ما تفرَّغ للشعر، لكنَّه انشغل بأمور السياسية، ولم تنفعه هذه الأبيات؛ إذْ إن الخَرْقَ كان قد اتَّسع في الدولة الأموية وكثرت الفتن، فانشغل عنه مروان بن محمد، ولم يُعِنْه والي العراق يزيد بن عمر بن هبيرة، ففرَّ نصر من أمام العباسيين، وما لبث أن توفِّيَ أثناء فراره، وأخذت جيوش العباسيين تجتاح أقاليم الدولة الأموية حتى أفضت في النهاية إلى نهاية الخلافة الأموية عام ١٣٢هـ/٧٤٩م.

---

١ انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (١٠/ ٣٦).
٢ انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (١٠/ ٣٥).

وسرعان ما تحوَّل شعر المُوالِين لبني أميَّة مِن فلك المديح إلى فلك الرثاء والتَّأسُّف على ذَهاب دولتهم، ونجد ذلك عند كثيرٍ من الشعراء الذين طال بهم العمر حتى شهدوا نهاية الخلافة الأموية وأدركوا العصر العباسي؛ يقول أبو العطاء السندي[1]:

يا ليتَ جَوْرَ بنِي مَرْوانَ عادَ لنا وأنَّ عَدْلَ بَنِي العبَّاسِ في النَّارِ

وإذا انتقلنا إلى **شعر الخوارج**؛ نجد ملامح مختلفة؛ فقد آمن الخوارج بعقيدة قوية بلغت بهم إلى حدِّ التَّطرُّف في مقاتلة إخوانهم المؤمنين وضرورة جهادهم وسفك دمهم، بل وتكفيرهم كذلك في بعض الأحيان؛ إذْ كانوا يتصوَّرون أنَّهم وحدهم على الحق وأن سواهم من المسلمين على ضلالة، ويرون جهادهم فريضة دينية، وكانوا بجانب عقيدتهم تلك محاربين أشدَّاء عُرِفوا بالبأس والنجدة أثناء القتال، وممَّا زاد من قوَّتهم وخطرهم أنهم كانوا يؤمنون بعقيدتهم إيمانًا قويًّا راسخًا يدفعهم إلى القتال، لذا نجد في شعرهم ملامح القوة والحماسة والحيوية المصطبغة بعاطفة دينية مشوبةٍ بالورع والتقوى والإيمان، ونجد ذلك جليًّا في أبيات قطري بن الفجاءة رأس الخوارج الأزارقة، مصوِّرًا بدقَّةٍ عقيدته الإيمانية تلك وما في نفسه من حماسة وتفانٍ وإحساس بالزُّهد والتَّقوى؛ إذْ يقول[2]:

أَقُولُ لَهـا وَقَـدْ طـارَتْ شَـعاعًا مِـنَ الأَبطـالِ وَيحَـكَ لَـنْ تُراعـي
فَإِنَّـكِ لَـو سَـأَلتِ بَقـاءَ يَـومٍ عَلـى الأَجَلِ الَّـذي لَـكِ لَـم تُطـاعي
فَصَـبرًا فـي مَجـالِ المَـوتِ صَـبرًا فَمـا نَيـلُ الخُلـودِ بِمُسـتَطاعِ
وَلا ثَـوبُ البَقـاءِ بِثَـوبِ عِـزٍّ فَيُطـوَى عَـنْ أَخـي الخَنـعِ اليـراعُ
سَـبيلُ المَـوتِ غايَـةُ كُـلِّ حَـيٍّ فَداعِيـهِ لِأَهـلِ الأَرضِ داعِ

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٣٤٠).
٢ انظر: شعر الخوارج، إحسان عباس (ص١٠٨- ١٠٩)، طبعة: دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط٣، ١٩٧٤م.

وَمَــنْ لا يُعتَــبَطْ يَســأَمْ وَيَهــرَمْ وَتُســلِمْهُ المَنُــونُ إِلــى انقِطــاعِ
وَمــا لِلمَــرءِ خَيــرٌ فــي حَيــاةٍ إِذا مــا عُــدَّ مِــنْ سَــقَطِ المَتــاعِ

وتدور أغراض شعر الخوارج حول الحماسة ووصف المعارك والتحريض على الجهاد والهجاء السياسي والتعبير عن التقوى وقوة العقيدة وذِكر الجنة والنار وثواب الآخرة؛ كونهم كانوا يقاتلون عن عقيدة، ومن نماذج شعرهم ما قاله قطري بن الفجاءة أيضًا يلوم أبا خالد القناني أحد القعدة[1]:

أَبــا خالِــدٍ إِنفِــرْ فَلَســتَ بِخالِــدِ وَمــا جَعَــلَ الــرَّحمنُ عُــذرًا لِقاعِــدِ[2]
أَتَزعُمُ أَنَّ الخــارِجِيَّ علَــى الهُدَى وأَنــتَ مُقــيمٌ بَــينَ لِــصٍّ وَجاحِــدِ

فكتب إليه أبو خالد يعتذر إليه ببناته قائلًا:

لقَــدْ زادَ الحيــاةَ إلــيَّ حُبًّــا بَنــاتِي إِنَّهــنَّ مِــنَ الضِّــعافِ
أحــاذِرُ أَنْ يَــرَيْنَ الفَقــرَ بَعــدِي وأَنْ يَشْــرَبْنَ رَنْقًــا بَعــدَ صــافِ

ويُعبِّر شعر الخوارج بكل دقة عن ملامح عقيدتهم؛ التي منها الحضُّ على القتال، والرغبة في الاستشهاد، ورثاء من استشهد منهم، وامتداح فرسانهم، وطلب الموت من أجل ما ظنُّوه ابتغاء ثواب الله ومرضاته، ويُجسِّد شعرهم إقبالهم على الآخرة وانصرافهم عن الدنيا وإفراطهم في الخشوع والعبادة، ويعبِّر عن هذا أبو بلال مرادس بن أديَّة مصوِّرًا عقيدته ولا سيَّما فيما يتعلَّق بالآخرة، في لغة حماسيَّة[3]:

مــا إِنْ نُبــالِي إِذا أَرواحُنــا خَرَجَــتْ مــاذا فَعلــتُمْ بأجســادٍ وأوصــالِ
نرجُو الجِنانَ إِذا صارَتْ جَماجِمُنا تحــتَ العَجــاجِ كمِثْلِ الحنظلِ البــالي
إِنّــي امــرؤٌ بــاعِثِي ربّــي لِمَوعِــدِهِ إِذا القُلــوبُ هَــوَتْ مِــن خَــوفِ أهــوالِ

---

[1] انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ١٢٣- ١٢٤).
[2] إنفِرْ: بهمزة قطعٍ؛ لضبط الوزن.
[3] انظر: شعر الخوارج، إحسان عباس (ص٥٠).

ويصوّرُ شعر يزيد بن حبناء هذا الجانب الذي جمع فيه بين طلب ثواب الله ووصف جهاده من أجل ذلك قائلًا:[1]

فليسَ بمَهْدٍ مَنْ يَكُونُ نهارُهُ جِلادًا ويُمسِي ليلَهُ غيرَ نائمِ
يُرِيدُ ثَوابَ اللهِ يومًا بِطَعنةٍ غَمُوسٍ كَشِدْقِ العنبرِيّ بنِ سالمِ
أَبِيتُ وسِربالي دِلاصٌ حَصِينةٌ ومِغْفَرُها والسَّيفُ فوقَ الحَيازِمِ

وشعر الخوارج حافلٌ كذلك بوصف المعارك وأهوال القتال كنتاج طبيعي لكثرة المعارك التي خاضوها، ولحياتهم التي اصطبغت بالقتل والقتال، فكانوا يصفون وقائعهم بدقة ويذكرون انتصاراتهم فيها، ومِن بينها أن والي البصرة عبيد الله ابن زياد قد قتل عروة بن أديَّة أخا أبا بلال مرادس بعد أن مثَّل به وقطع يديه ورجليه، فخرج أخوه مرادس في أربعين رجلًا بالأهواز، فسَيَّر لهم ابن زياد جيشًا من ألفي محاربٍ، والغريب أن الأربعين غلبوا الألفين، فقال أحد شعرائهم يصف تلك الموقعة مستهزئًا بابن زياد وبجيشه:[2]

ألفًا مؤمنٍ فيما زعمتُمْ ويَقتُلُكُم بآسِكَ أربعونا
كَذَبْتُم ليس ذاك كما زعمتُمْ ولكنَّ الخوارجَ مؤمنونا
هي الفِئَةُ القليلةُ قَدْ علمتُمْ علَى الفِئَةِ الكثيرةِ يُنصَرُونا

ومن نماذج الرثاء في شعر الخوارج ما قالته عمرة أم عمران بن الحارث الراسبي ترثي ولدها وقد قُتِل مع نافع بن الأزرق في يوم دولاب:[3]

اللهُ أيَّدَ عِمرانًا وطهَّرَهُ وكانَ عِمرانُ يَدعُو اللهَ في السَّحَرِ
يَدعُوهُ سِرًّا وإعلانًا ليرزُقَهُ شهادةً بِيَدَيْ مِلْحادِةٍ غُدَرِ
ولَّى صحابَتُهُ عن حَرِّ مَلحَمةٍ وشَدَّ عِمرانُ كالضِّرغامةِ الهُصَرِ

---

١ انظر: المصدر السابق (ص٨٥).
٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص١٣٦).
٣

ومن أشهر ما قيل من الهجاء السياسي في شعر الخوارج ما قاله عمران ابن حِطَّان في هجاء الحجَّاج بن يوسف الثقفي أمير العراق؛ حيث كان شبيب الشيباني الخارجي قد أغار على الكوفة وفيها الحجاج، فدارت موقعة عنيفة استبسل فيها جنود الحجَّاج حتى تمكَّنوا من هزيمة شبيب وطرده من الكوفة وقُتِلت زوجته غزالة التي اشتركت معه في تلك الغزوة، غير أنه رغم النصر فقد حدث أن غزالة قبل مقتلها -وكانت امرأة شجاعة مقاتلة- قد نذرت أن تصلِّي ركعتين في مسجد الكوفة، وفعلتْ، ثم اقتحمت قصر الإمارة وفيه الحجَّاج فواجهتْه وطالبتْه بالمبارزة، فأبَى الحجَّاج مبارزتها، وهابَها وفرَّ من أمامها، فلَحِقَه من ذلك الموقف عار الأبد، فسخر منه عمران وكان الحجاج قد جدَّ في طلبه فقال يهجوه[1]:

أَسَدٌ عَـلَيَّ وَفِـي الحُـروبِ نَعامـةٌ رَبْـداءُ تـجْفـلُ مِـن صَـفيرِ الصَّـافِرِ
هَلَّا بَرَزْتَ إِلَـى غَزالَـةَ فـي الـوَغَى بَـلْ كـانَ قَلبُـكَ فـي جَنـاحَيْ طـائِرِ
صَـدَعَـتْ غَـزالَةُ قَلبَـهُ بِفَـوارِسٍ تَرَكَـتَ مَنـابِـرَهُ كَـأَمْـسِ الدَّابِـرِ

ورغم أن عاطفة الخوارج الحماسية كانت دينيَّة بعيدة عن التعصب القَبَلِي؛ فإنَّنا نجد أن العصبية القَبَلِيَّة قد تسرَّبتْ إلى شعر الخوارج من باب الفخر بالانتصار؛ مثل ما قاله شُبَيل بن عَزْرة يصف مبايعة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وسليمان بن هشام بن عبد الملك للضَّحَّاك بن قيس الخارجي الحروري وصلاتهما خلفه، فوصف ذلك النصر قائلًا[2]:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ أَظْهَـرَ دِينَـهُ وصَـلَّتْ قُرَيشٌ خَلْفَ بَكرِ بنِ وائِلِ

والخلاصة أن شعر الخوارج بجانب أنه صوَّر عقيدتهم وأفكارهم تصويرًا دقيقًا فيما يخص الجهاد والعبادة والتقوى وطلب الآخرة والإقبال على الشهادة والموت؛ فإنه من جهة أخرى امتاز بعلوِّ نبرة الحماسة وصدق العاطفة

---

[1] انظر: شعر الخوارج، إحسان عباس (ص١٦٦).
[2] انظر: المصدر السابق (ص٢٠٨).

واندفاعها وتأثُّرها بصبغة الدِّين، وهو من الناحية الفنية يفيض سلاسة وانسيابية تكاد تُقنِع قارئه أن أصحابهم على حق رغم تطرُّفهم الممقوت واستحلالهم لدم إخوتهم، وقد اشتمل شعرهم على جوانب فكرية وعقائدية وفنية تسترعي الانتباه وتستدعي الدراسة والوقوف عندها.

أما **شعر الشيعة** فقد حمل طباعًا تختلف عن شعر الحزب الأموي وشعر الخوارج، وكان الشيعة أصحاب عقيدية سياسية تقضي بأن الخلافة حقٌّ لآل بيت النَّبيِّ ﷺ، وقد هبَّ الشيعة لتحقيق مطالبهم السياسية فيما يخص الخلافة، لكنهم -بخلاف الخوراج- قد غلب عليهم شعور المظلوم والمغلوب على أمره؛ إذْ إن الخوارج رغم إخماد جميع ثوراتهم في النهاية فقد كانوا أصحاب جَلَدٍ ونجدة وبأس ونجحوا في مقارعة الأمويين وتكبيدهم خسائر فادحة وهزيمتهم في عدة وقائع قبل أن يتم القضاء عليهم، أما الشيعة الطالبيون فقد كانوا الطرف الأضعف والمغلوب على أمره دائمًا، وقد نُكبوا مرتين؛ أما المرة الأولى فكانت حينما طالب الحسين بن عليٍّ -رضي الله عنهما- بحقِّه في الخلافة وانتهى الأمر بفاجعة استشهاده -رضي الله عنه- وقتْله على يد جيش الخليفة يزيد ابن معاوية، وكانت المرَّة الثانية حينما طالب حفيدُهُ زيد بن عليٍّ زين العادين بحقِّه في الخلافة فقُتِل على يد جيش الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وكان لتلك الوقائع والنكبات في نفوس الطالبيّين وشيعتهم أثر مرير دفعهم إلى الشعور بالمرارة والأسى والحزن وقسوة الضَّيم لفقدهم حقَّهم المغتصب من وجهة نظرهم، فيغلب على شعرهم طابع الرثاء والإحساس بالظلم، والدُّموع والبكاء، وأحيانًا التحريض على الأخذ بالثأر، وامتاز حُزنهم بالعُمق وصدق العاطفة، وشعرهم لا يخلو من ملامح التَّديُّن كذلك؛ كون الطالبيين أصحاب دِينٍ وورعٍ وفقهٍ وعلمٍ، فتأثَّر أنصارهم بتلك الروح الدينية وظهرت عليهم ملامح الدِّين والورع والتقوى، على أن بعض الطالبيين قد نأوا عن السياسة وتفرَّغ للعلم

والدِّين فسلِموا بذلك من نقمة بني أمية؛ ومن نماذج شعر الشيعة ما قاله سليمان بن قتَّة يرثي حسينًا ويذكر نكبته[1]:

مَـرَرْتُ علَـى أبيـاتِ آلِ محمَّـدٍ فلَـمْ أرَهـا كعهـدِها يَـومَ حُلَّـتِ
فـلا يُبعـدِ اللهُ الـدِّيارَ وأهلَهـا وإنْ أصبَحَتْ مِـنْ أهلِها قَـدْ تَخَلَّـتِ
وكـانوا رجـاءً ثُـمَّ صـاروا رزيَّـةً فقَـدْ عَظُمَـتْ تلـك الرَّزايـا وجَلَّـتِ
إنَّ قتيـلَ الطَّـفِّ مِـن آلِ هاشِـمٍ أذَلَّ رِقـابَ المسـلمينَ فَـذَلَّتِ
وعِنـدَ غَنِـيٍّ قطـرةٌ مِـن دمائنـا سـنَجزِيهِمُ يَومًـا بهـا حيـثُ حَلَّـتِ

ومن نماذج شعر الشيعة كذلك ما قاله عبيد الله بن الحرِّ ندمًا منه على خذلانه الحسين[2]:

ويـا نَـدَمِي ألَّا أكـونَ نَصـرْتُهُ ألَا كُـلُّ نَفْـسٍ لا تُسـدِّدُ نادِمَـهْ

وكان من الطبيعي أن يُورث هذا الإحساس بالظلم في نفوس الطالبيّين وشيعتهم مزيدًا من الكره والحقد على بني أميَّة؛ إذْ يقول عبد الله بن هاشم السلولي يهجو الخليفة الأموي يزيد بن معاوية[3]:

حُشِـينا الغَـيظَ حتَّـى لـو شَـرِبْنا دِمـاءَ بَنِـي أُميَّـةَ مـا رَوِينـا
لقَـدْ ضـاعَتْ رَعِيَّـتُكُم وأنـتُمْ تَصِـيدُونَ الأرانـبَ غافِلِينـا

وكان لآل البيت نصيبٌ من مديح شعرائهم المُوالِين لهم؛ مثل أبيات أيمن ابن خزيم التي مدحهم بها وعرَّض بخصومهم من بني أمية من باب المفاضلة؛ إذْ يقول[4]:

نَهـارُكُمُ مُكابَـدَةٌ وصَـومٌ ولَـيلُكُمُ صَـلاةٌ واقتِـراءُ
أَأَجْمَعُكُـم وأقوامًـا سَـواءً وبَيـنَكُمُ وبَيـنَهُمُ الهـواءُ

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (١/ ١٨٠).
٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٣١٦).
٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص١٣٢- ١٣٣).
٤ انظر: المصدر السابق (ص١٣٢).

وهُـــمْ أرضٌ لِأَرْجُلِكُـــمْ وأنـــتُمْ لأرؤسِـــهِمْ وأعيُـــنِهِمْ سَـــماءُ

ولا يمكن المرور على شعر الحِزب الشيعي دون ذِكر ما عُرِف باسم هاشميَّات الكُميت، والكُميت بن زيد الأسدي هو أحد الشعراء الموالين لآل البيت، وكان يؤمن بأحقيتهم في الخلافة، وقد نظم في مدح آل البيت عدَّة قصائد عُرِفت باسم الهاشميات، يدافع بها عن آل البيت ويناصرهم ويمدحهم ويرثي شهداءهم ويمدح بني هاشم، وكان يواجه بها ولاة العراق خالد بن عبد الله القسري ثم يوسف بن عمر الثقفي زمن الخليفة هشام بن عبد الملك؛ ومن هاشمياته قوله مادحًا بني هاشم وآل بيت النبوَّة[1]:

مـــن لقلـــبٍ مُتـــيَّمٍ مســـتهامِ غيـــرَ مـــا صَـــبْوةٍ ولا أحـــلامِ
طارقـــاتٍ ولا ادِّكَـــارِ غـــوانٍ وصِـــحاب الخُـــدُودِ كـــالأرامِ
بَـلْ هَـوايَ الـذي أجـنُّ وأُبْـدِي لِبَنِـــي هاشـــمٍ فُـــرُوعِ الأنـــامِ

ومن الشعراء الذين عُرِفوا كذلك بتشيُّعِهم وميلهم لآل البيت أبو الأسود الدؤلي، وهو أحد نبلاء التابعين المخضرمين، ومن أنصار عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فلمَّا آلت الخلافة إلى معاوية؛ دخل في خدمة بني أمية، وكانت صِلَتُه بهم حسنة، ولكن يتَّضح من خلال شعره أنه ظلَّ مواليًا لآل البيت مُحبًّا لهم، ممَّا دفع البعض إلى القول أنه كان ممن يعتنق فكرة التَّقِيَّة كي يُخفي ميوله في التَّشيُّع؛ ومن شعره في حب آل البيت[2]:

أُحِـــبُّ مُحمَّـــدًا حُبًّـــا شـــديدًا وعبَّاسًـــا وحمـــزةَ والوصِـــيَّا
أحـــبُّهُمُ لحُـــبِّ اللهِ حتَّـــى أجـــيءَ إذا بُعِثْـــتُ علَـــى هَوِيَّـــا
هـوًى أُعطِيتُـهُ مُنـذُ اسـتدارتْ رحَـى الإسـلامِ لَـمْ يَعـدِلْ سَـوِيَّا
يقـولُ الأرذلـونَ بَنُـو قُشَـيرٍ طِـوالَ الـدَّهرِ مـا تَنْسَـى عليَّـا

---

١ انظر: شرح الهاشميات، محمد محمود الرافعي، طبعة: شركة التمدن الصناعية بمصر، (ص٢١)

٢ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ١٥١).

بَنُــو عــمِّ النَّبــيِّ وأقرَبُــوهُ أَحَــبُّ النَّــاسِ كُلِّهِــمُ إليَّــا
فــإنْ يَــكُ حُــبُّهُم رُشــدًا أُصِــبْهُ ولــيسَ بمُخطــئٍ إنْ كــانَ غَيًّــا

ومن الشعراء الذين مالوا إلى التَّشيُّع كذلك كثير بن عبد الرحمن أحد شعراء الغزل، يقول مادحًا الخليفة الأموي الزاهد عمر بن عبد العزيز بسبب نهيِهِ عن سبِّ عليِّ بن أبي طالب على المنابر[1]:

وَلِيــتَ فلَمْ تَشتمْ عليًّا ولَمْ تَخَفْ بَرِيًّــا ولَــمْ تَقبَــلْ إشــارةَ مُجْــرِمِ
وصدَّقتَ بالفِعلِ المَقالَ مــعَ الَّذي أتيــتَ فأمسَــى راضــيًا كُــلُّ مُســلِمِ

وقد انصرفت أغلب أغراض شعر الحزب الشيعي والموالين لآل بيت الرسول ﷺ إلى امتداح نبلاء الطالبيين ورثاء شهدائهم، والتحريض على الأخذ بثأرهم، وهجاء خصومهم، وذِكر نكباتهم والتأكيد على أحقيَّتهم بالخلافة، فضلًا عن قدرٍ كبير من الإحساس بالظلم والألم والبكاء نتيجة النكبات المتوالية، ولا يخلو شعرهم من ملامح التَّديُّن كما أسلفنا، وكانت عاطفتهم غاية في الصدق والإخلاص، ومن الجدير بالذكر أن هذا الحزب هو الحزب الوحيد الذي استمرَّ في التواجد حتى بعد نهاية العصر الأموي وظل حيًّا في العصر العباسي زمنًا طويلًا حتَّى إلى عصرنا هذا.

ويُعتبر **حزب الزبيريين** هو آخر تلك الأحزاب التي نمرُّ عليها في هذا العصر؛ وهم أنصار عبد الله بن الزُّبير الذي أعلن خلافته بين عامي (٦٤ و٧٣هـ) معارضًا لبني أمية، وكان أنصار هذا الحزب يروون أن الخلافة حقٌّ في عموم قريش، وقد ظهرت تلك الدعوة في أواخر عهد معاوية حينما خصَّ ولاية العهد لولده يزيد ولبني أمية وحدهم، وهو ما رفضه أولئك باعتبار أنَّها لا بدَّ أن تكون شورى في عموم قريش، وبعد موت يزيد بن معاوية انتشرت دعوة عبد الله بن الزبير ودانت له جميع الولايات الإسلامية باستثناء دمشق، ولكن دعوته لم تستمر طويلًا؛ إذْ نجح مروان بن الحكم الأموي ومِن بعدِه ولده عبد الملك في مقاومته

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٩٦).

واستعادة تلك الأقاليم، فأخذ سلطان ابن الزبير يتقلَّص ويتقلَّص حتى حُوصِر في مكة، وما لبث أن قُتِل عام ٧٣هـ وانتهت دعوته.

وقد اجتذبت تلك الدعوة عددًا من الشعراء وكان أشهرهم عبيد الله بن قيس الرقيَّات؛ الذي آمن بفكرتها وآمن بأن الخلافة شورى في قريش، فكان يمدح آل الزبير ويهجو بني أميَّة الذين استأثروا بالخلافة لأنفسهم، ويردُّ على الخوارج رافضًا فكرتهم بأن تُنزَع الخلافة من قريش وتصير حقًّا لعموم العرب والمسلمين؛ باعتبار أن قريشًا هم معدن الإسلام وعمودهم؛ ومن قوله يردُّ على الخوارج في هذا الإطار مفصحًا عن مذهبه السياسي ومؤكِّدًا أنَّ الخلافة حقٌّ لقريش[1]:

قَبلَ أنْ تَطمَعَ القَبائلُ في مُلْـ ـكِ قُريشٍ وتَشمَتَ الأعداءُ

أيُّها المشتَهِي فَناءَ قريشٍ بِيَدِ اللهِ عُمْرُها والفَناءُ

إنْ تُوَدِّعْ مِنَ البلادِ قريشٌ لا يَكُنْ بَعدَهُم لِحَيٍّ بَقاءُ

ولابن قيس الرقيَّات مدائح لمصعبٍ، وفخرٌ لقريش، وذِكرٌ حَسَنٌ لآل بيت النَّبيِّ ﷺ، وهجاءٌ لبني أميَّة، وهو أشهر الشعراء الزُّبيريين بلا منازع، وفي شعرهِ شيءٌ من العصبية والثارات القَبَلِيَّة؛ نظرًا إلى أن غالبيَّة العدنانيين (باستثناء تغلب) كانوا موالين لابن الزبير، بينما كانت اليمنية موالية لبني أمية، فكان من الطبيعي أن يكون في شعر ابن قيس الرقيَّات هجاء لليمنية ومَيلٌ لمُضر.

غير أن هذا الحزب هو أضعف الأحزاب السياسية في العصر الأموي؛ إذْ ما لبث أنِ انقضى بهزيمة ابن الزبير ومقتله عام ٧٣هـ، فانتهت دعوته وماتت ولم يَعُدْ بعد ذلك مَن يحمل لواءها ويُؤمن بها، وما قيل في هذا الحزب مِن شعرٍ هو أقلُّ الأشعار، حتى ابن قيس الرقيات نفسه اضطر أواخر أيامه بعد مقتل ابن الزبير إلى أن يتَّصل ببني أمية ويمدحهم؛ لأن هذا الحزب قد اندثر ومات سريعًا، وكان ابن الزبير مُقِلًّا في صلة الشعراء واجتذابهم، فقَلُّوا مِن حوله، بخلاف بني أميَّة

---

١ انظر: ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات (ص٨٨- ٨٩)، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، طبعة: دار صادر، بيروت.

الذين كانوا يجتذبون الشعراء ويبالغون في أعطياتهم وصِلَتِهم حتى يكسبوا منهم تأييدًا ودعمًا، وقد نجحت سياستهم إلى حدٍّ بعيدٍ حتى قريبٍ مِن نهاية دولتهم.

وقد بلغ الأمر ببعض الشعراء السياسيين أنهم كانوا أحيانًا يتغزلون بنساء خصومهم غزلًا فاحشًا ويعرِّضون بهن وينالون منهم بسقطٍ وبذاءةٍ؛ من باب النكاية السياسية.

ومن خلال ما نرى في حديثنا عن الشعر السياسي فإنَّ الشعر قد عبَّر بدقَّةٍ متناهية عن الانقسامات الحزبية في هذا العصر، وعبَّر كذلك عن معتقدات وأفكار تلك الطوائف وعقائدها السياسية وخصائص وصفات وملامح كلٍّ منها.

٢- المديح والرثاء:

نشط المديح نشاطًا واسعًا في هذا العصر، وقد ذكرنا في غير موضع عناية بني أمية باجتذاب الشعراء إليهم ومبالغتهم في صِلَتِهم وعطاياهم؛ لدوافع سياسية، وقد كان لهذا الدَّعم أثرٌ في نشاط الشعر بشكل عامٍّ في العصر الأموي، ولا سيَّما فيما يخص أشعار المديح؛ حيث صار الشعراء يقصدون الخلفاء لمديحهم بغية التكسُّب ونيل عطاياهم، وهذا يُعد تغيُّرًا جذريًّا في سلوك الشعر وطبيعته؛ فقد كان التكسُّب في الجاهلية يُنقص من قدر صاحبه ويُعتبر عيبًا، ولكن مع مرور الزمن صار التَّكسُّب وبغية العطايا والصِّلة في العصر الأموي أمرًا طبيعيًّا بحيث يصعب أن تجد -بخلاف شعراء الغزل- شاعرًا في العصر الأموي لم يتكسَّب من شعره.

وكثر المديح بحق خلفاء بني أمية الذين كان يقصدهم الشعراء من كل فجٍّ وصوبٍ، ولا نعني هنا المديح الذي اصطبغ بدوافع سياسية كما نرى عند الأخطل وعدي بن الرقاع وعبد الله بن الزبير الأسدي؛ بل نعني هنا المديح العام الذي كان بعيدًا عن السياسية وتطلَّبتْه أحيانًا دوافع التَّكسُّب والعطاء ونيل الشهرة، ومن هذا قول الفرزدق يمدح الخليفة هشام بن عبد الملك[1]:

---

١ انظر: ديوان الفرزدق (ص١٢٩).

إلى خَيرِ أَهلِ الأَرضِ مَنْ يَستَغِثْ بِهِ ... يَكُنْ مِثلَ مَن مَرَّتْ لَهُ طَيرُ أَسعَدِ
وَلَوْ أَنَّني أَستطيعُ سَعيًا سَعَيتُهُ ... إِلَيكَ وَأَعناقَ الهَدِيِّ المُقَلَّدِ
خَليفَةُ أَهلِ الأَرضِ أَصبَحَ ضَوءُهُ ... بِهِ كانَ يَهدِي لِلهُدَى كُلَّ مُهتَدِ
فَإِنَّ أَميرَ المُؤمِنينَ مُحيطَةٌ ... يَداهُ بِأَهلِ الأَرضِ مِن كُلِّ مَرصَدِ
فَلَستُ أَخافُ النَّاسَ ما دُمتَ سالِمًا ... وَلَوْ أَجلَبَ السَّاعي عَلَيَّ بِحُسَّدي
سَيَأبَى أَميرُ المُؤمِنينَ بِعَدلِهِ ... عَلى النَّاسِ والسَّبعين في راحَةِ اليَدِ
وَلا ظُلمَ ما دامَ الخَليفَةُ قائِمًا ... هِشامٌ وما عَن أَهلِهِ مِن مُشَرَّدِ

ولعلَّ أصدق المديح في هذا المضمار ما قيل في أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رغم أنه لم يكن يصل الشعراء؛ لكنَّه كان قد ملأ الأرض عدلًا وأعاد سنَّة الخلفاء الراشدين وتشبَّه بجدِّه من جهة أمه عمر بن الخطَّاب، فمدحه جرير قائلًا[1]:

أشبَهْتَ من عُمَرَ الفاروقِ سِيرَتَهُ ... قادَ البَرِيَّةَ وائتَمَّتْ بِهِ الأُمَمُ
تَدعو قُرَيشٌ وَأَنصارُ النَّبيِّ لَهُ ... أَنْ يُمنَعُوا بِأَبِي حَفصٍ وَما ظُلِموا

ولم يكن المديح قاصرًا على الخلفاء فحسبُ؛ بل شمل كذلك الولاة والقادة مثل زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف وقُتيبة بن مسلم الباهلي أمير خراسان الذي تغنَّى الشعراء بفتوحاته وانتصاراته على التُّرك، وكذلك خالد بن عبدالله القسري وأخيه أسد والجرَّاح بن عبد الله الحكمي والجُنيد بن عبد الرحمن المري[2]، ومن ذلك قول ليلى الأخيلية تمدح الحجاج[3]:

إذا وَرَدَ الحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً ... تَتَبَّعَ أَقْصى دائِها فَشَفاها
شَفاها مِنَ الدَّاءِ العُضالِ الذي بِها ... غُلامٌ إذا هَزَّ القَناةَ سَقاها

فقال لها الحجَّاج: لا تقولي: "غُلامٌ"؛ ولكن قُولي: "هُمامٌ".

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٢/ ٢٠١).
٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٢١٦).
٣ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (١/ ٢٤٢).

ولعلَّه لم تُعرَف أسرةٌ التفَّ حوالها الشعراء بالمديح مثل أسرة المهلَّب بن أبي صفرة؛ الذي كان فارسًا شجاعًا وهو الذي تولَّى حرب الخوارج وقضى على ثورة الأزارقة بعد جهدٍ جهيدٍ، وكافأه عبد الملك بن مروان بأنْ ولَّاه على خراسان فأقام بها حتى توفِّيَ، وخلَفه على حُكمها ولدُه يزيد، وكان كأبيه شجاعة وفروسية؛ ومن نماذج مديح الشعراء لهم ما قاله كعب بن معدان الأشقري في المهلب وأبنائه[1]:

بَــرَاكَ اللهُ حِــينَ بَــراكَ بحــرًا ... وفَجَّــرَ مِنــكَ أنهــارًا غِــزارا
بَنُــوكَ السَّــابِقونَ إلــى المَعــالي ... إذا مــا أعظَــمَ النَّــاسُ الخِطــارا
كــأنَّهُمُ نُجُــومٌ حــولَ بــدرٍ ... درارِيٍّ تكمَّــلَ فاســتَدارا
مُلُــوكٌ يَنزِلُــونَ بكــلِّ ثَغــرٍ ... إذا مــا الهــامُ يَــومَ الــرَّوعِ طــارا

على أنَّ دوام الحال من المحال؛ إذْ ما لبث نجم المهالبة الذين كان باذخًا أنْ أفَلَ بعد قليلٍ فنُكِبوا، وقد كان بين الحجاج وبين يزيد بن المهلب نُفُورٌ، وكان الحجَّاج أميرًا على العراق وجميع بلاد المشرق، وكل تلك الولايات بما فيها خراسان تحت إمرته، فما لبث أن عزل يزيد عن خراسان ثم نحَّى بعدها آل المهلَّب ونكبهم وحبس يزيد زمنًا، ففرَّ يزيد من محبس الحجَّاج واستجار بوليِّ العهد سليمان ابن عبد الملك -وكانت بينهما مودَّة- فأجاره وشفع له عند الخليفة، ولمَّا آلت الخلافة إلى سليمان ولَّى رفيقه يزيد بن المهلب على العراق فعاد نجم المهالبة في البذوخ مجدَّدًا ولكن لمدَّة قصيرة؛ إذْ عزله الخليفة عمر بن عبد العزيز وحبسه واتَّهمه بمالٍ أخذه من بيت مال المسلمين، فقضى يزيد في السجن زمنًا حتى فرَّ منه مجدَّدًا وقد امتلأ قلبه حقدًا على بني أميَّة، فأعلن ضدَّهم الثورة، فقتلته جنود مَسْلَمة بن عبد الملك من قِبَل أخيه يزيد، وقُتِل من المهالبة مقتلة عظيمة. يقول ثابت قُطْنة يرثي يزيد بن المهلب[2]:

كــلُّ القبائــلِ بــايَعوكَ علــى الهُــدَى ... تــــدعو إليــــه وتــــابَعُوكَ وســــاروا
حتَّــى إذا اختلــف القَنــا وجعلــتَهُم ... نصــبَ الأســنَّةِ أســلَمُوكَ وطــاروا

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٢٢٦- ٢٢٧).
٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٦١٦).

إنْ يَقتُلُوكَ فإنَّ قَتْلَكَ لم يَكُنْ عارًا عليكَ وبعضُ قَتْلِكَ عارُ

وبجانب المديح نجد المراثي، ومنها أبيات لجرير في رثاء عمر بن عبد العزيز يقول ناعيًا إيَّاه[1]:

نَعَى النُّعاةُ أَميرَ المُؤمِنينَ لَنا يا خَيرَ مَن حَجَّ بَيتَ اللهِ وَاعتَمَرا
حملتَ أَمرًا جسيمًا فَاصطَبَرتَ لَهُ وَقُمتَ فيهِ بِأَمرِ اللهِ يا عُمَرا
فَالشَّمسُ كاسِفَةٌ لَيسَتْ بِطالِعَةٍ تَبكِي عَلَيكَ نُجومُ اللَّيلِ وَالقَمَرا

وقال الفرزدق يرثي ابنَيْه[2]:

بِفِيِّ الشَّامِتِينَ التُّرْبُ إِنْ كانَ مَسَّني رَزِيَّةُ شِبْلَيْ مُخدِرٍ في الضَّراغِمِ
وَما أَحَدٌ كانَ المَنايا وَراءَهُ وَلَوْ عاشَ أَيَّامًا طِوالًا بِسالِمِ
أَرَى كُلَّ حَيٍّ لا يَزالُ طَليعَةً عَلَيهِ المَنايا مِن ثَنايا المَخارِمِ

٣ - النقائض:

النقائض هي مجموعة من السِّجالات الهجائية الشعرية التي يغلب عليها طابع التعصب القَبَلِي، فكان الشاعر يقوم بنظْم قصيدةٍ على وزنٍ معيَّن وقافيةٍ معيَّنةٍ، يدافع بها عن قبيلته ويهجو قبيلة خصمه، فيردُّ عليه شاعر آخر بنفس الوزن والقافية، وقد ازدهر فنُّ النقائض في هذا العصر واشتهر شهرة واسعة حتى صار الناس جميعًا يتابعون تلك السِّجالات الشعرية التي عُرِفت بالنقائض، ويعتبر جرير والفرزدق والأخطل هم الأقطاب الثلاثة لهذا الفن المشهور، وكان الأخطل تغلبيًّا، أما الفرزدق وجرير فكانا من تميم؛ فأما الفرزدق فينتمي إلى فرع مجاشع، وأما جرير فكان من بني يربوع؛ وهؤلاء الشعراء الثلاثة هم أبرز شعراء هذا العصر وأشهرهم بلا جدال.

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٢/ ٢٠٢).
٢ انظر: المصدر السابق (١/ ١٨٠- ١٨١).

وسبق أنْ ذكرنا أن التعصب الجاهلي كان حاضرًا في العصر الأموي، ولما اشتعلت الفتنة الأولى بين الأمويين والزبيريين حدث أنْ مال اليمنية إلى صف بني أمية فناصروهم، بينما وقفت قبائل قيس عيلان المضرية والعدنانية -باستثناء تغلب- في صف ابن الزبير ضد بني أمية، وتجلَّى هذا في موقعة مرج راهط عام ٦٤هـ بين الأمويين والزبيريين وانتصر فيها بنو أمية.

ولم يقتصر تواجد العصبية القبلية على الساحة السياسية فحسبُ؛ بل قد تواجدت أيضًا بين أحوال العرب الاجتماعية والمعيشية؛ حيث اتَّسع سلطان القبيلة اتِّساعًا ملحوظًا وكان ولاء الفرد منهم لقبيلته، وبناء عليه يكون موقفه من سائر القبائل بالعداء أو التحالف، وزاد من أثر ذلك حالة التَّرف والنعيم التي غلبت على عموم الناس في العصر الأموي، والتي أوجدَتْ حالة من الفراغ مَلَؤُوه باللهو والموسيقى وتتبُّع أخبار الشعراء وما بينهم من سجال، في سوق المربد الذي كان يُقام على ضواحي البصرة، فكل ذلك كان سببًا في نشاط الهجاء القَبَلي وبروز النقائض.

أما عن قصة النقائض فيُروَى أنَّ نزاعًا صار بين بني الخطفي رهط جرير مع بني سليط، فحدثت بينهما مهاجاة، واستعان بنو سليط بشاعرهم غسَّان بن ذُهيل فهجا بني الخطفي، وكان جرير حينها صغيرًا يرعى إبل أبيه، فلمَّا انتهى إليه هجاء غسان لرهطه؛ قام فهجاه هو الآخر، وممَّا قال فيه رجزًا[1]:

إنَّ سُـلَيْطًا هُـمْ شِـرارُ الخَلْـقِ قَلَّـــدْتُهُمْ قَلاَئِـــدًا لاَ تُبْقِـــي
إنَّ الْسُـلَيْطِيَّ خَبيـثٌ مَطْعَمُـهْ أَخْبَـثُ شَـيْءٍ حَسَـبًا وأَلأَمُـهْ
مُحْرَنْفِشًـا بِحَسَـبٍ لا يَعْلَمُـهْ اسْـتُ السُـلَيطِيِّ سَـوَاءٌ وَفَمُـهْ

فردَّ عليه غسَّان السُّليطي قائلًا[2]:

لَعَمْري لَـئِنْ كانَـتْ بَجِيلَـةُ زَانَهَـا جَريـرٌ لَقَـدْ أَخْـزَى كُلَيْبًـا جَرِيرُهـا

---

١ انظر: نقائض جرير والفرزدق، أبو عبيدة البصري (١/ ١٦١)، تحقيق: محمد إبراهيم حور- وليد محمود خالص، طبعة: المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، ط٢، ١٩٩٨م.

٢ انظر: المصدر السابق (١/ ١٦٣).

وَمَـا يَـذْبُحون الشَّـاةَ إلَّا بِمَيْسـرٍ طَـويلًا تُناجيَهـا صـغيرًا قُـدُورُها
رَمَيْتَ نِضَـالًا عِنْ كُلَيبٍ فَقَصَّرتْ مَرَاميـكَ حتَّـى عـادَ صُـفْرًا حَفِيرُهـا
سَـتَعْلمُ مَـا يُغْنِـي مُعيدٌ وَمُعْرِضٌ إذَا مـا سُـلَيْطٌ غرَّقَتْـكَ بُحُورُهـا

فردَّ عليه جرير قائلًا[1]:

أَلا لَيْتَ شِعْري عَنْ سُلَيْطٍ أَلمْ تَجِدْ سُـلَيْطٌ سِـوَى غَسَّـانَ جَـارًا يُجِيرُهـا
لَقَدْ ضَمَّنُوا اَلأحسَابَ صَاحِبَ سَوْءَةٍ يُنَـاجِي بِهـا نَفْسًـا لَئِيمًـا ضَـميرُها
وَنُبِّئْتُ غَسَّانَ بنَ واهصَةِ الخُصَى يُلَجْلِـجُ مِنِّـي مُضْـغَةً لا يُجِيرُهـا
فما فـي سُلَيْطٍ فارسٌ ذو حَفِيظـةٍ ومَعقِلُهـا يَـومَ الهيـاجِ جُعُورُهـا

ثم أخذا يتهاجيان، ويبدو أن كفَّة جرير قد رجحت؛ إذْ كان لاذع الهجاء مفحشًا فيه، فغلب غسَّانَ، إلى أن جاء رجل يُقال له البُعيث المجاشعي من قوم الفرزدق، سُرِقت إبلٌ له فطلبها، حتى وجدها عند بني يربوعٍ، فقالوا له: إنَّما كانت مع لصٍّ فانتزعناها منه؛ وكان الهجاء مشتعلًا بين جرير وغسَّان السُّليطيّ، فمال إلى الأخير، فهجاه جرير قائلًا[2]:

طـافَ الخيـالُ وأيـنَ مِنـكَ لِمامـا فـارجِعْ لِـزَورِكَ بالسَّـلامِ سَـلاما

فحاول البُعيث الرَّدَّ عليه قائلًا[3]:

بنِـي الخَطَفَـى هَـلْ تَـدْفِنُنَّ أبـاكُمُ كُليبًـا ومَـولاكُم حَرامًـا ليُكتُمـا
فكُـلُّ كُلَيبِـيٍّ عليـه علامـةٌ مِـنَ اللُّـؤمِ تَبـدُو حاسِـرًا ومُعَمَّمـا

فما كان من جرير إلا أنْ ردَّ عليه قائلًا[4]:

لَعَمْري لَقَدْ جارَى دَعِـيُّ مُجاشِـعٍ عَزُومًـا علَـى طُـولِ المُجـاراةِ مرجَمـا
فَـإنِّي لَهـاجِيكُمْ وَإنِّـي لَراغِـبٌ بِأَحسـابِنا فَضْـلًا بِنـا وَتَكَرُّمـا

---

١ انظر: المصدر السابق (١/ ١٦٦).
٢ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٠٠).
٣ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٠٦).
٤ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٢٧- ٢٢٨).

أَرَى سـوأةً فَخْـرَ البُعَيـثِ وأمّـهِ تَعـارُضَ خـالِيخٍ يَسـارًا ومقْسَـما
يُبِـينُ إذا ألقَـى العمامَـةَ لُؤمَـهُ وتَعـرِفُ وَجْـهَ العَبـدِ حِـينَ تَعَمَّمـا
فَهَلَّا سَأَلتَ النَّاسَ إنْ كُنتَ جاهِلًا بِأَيَّامِنـا يـا بْـنَ الضَّـرُوطِ فَتَعلَمـا

ويبدو أن جريرًا في هجائه قد تعرَّض لنساء مجاشع قوم الفرزدق بالفاحش من الكلام؛ ومن ذلك قوله[1]:

بنِـي مالـكٍ إنَّ البِغـالَ مُجاشـعًا مُبـاحٌ بِحَمـراءِ العِجـانِ حَرِيمُهـا

وهنا هبَّت نسوة مُجاشع إلى الفرزدق يستغثنه ويطلبن منه الرَّدَّ على جريرٍ، وكان الفرزدق قد قيَّد نفسه عن قول الشعر، فقلن له: قبَّح الله قَيْدَك، لقد هتك جرير عورات نسائك!! وهنا فكَّ الفرزدق قيده وهبَّ لهجاء جرير والفخر عليه قائلًا[2]:

وَأَنتَ بِوادِي الكَلبِ لا أَنتَ ظاعِنٌ وَلا واجِـدٌ يـا بْـنَ المَراغَـةِ بانِيـا
إِذا العَنـزُ بالَـتْ فيـهِ كـادَتْ تُسِيلُهُ عَلَيـكَ وَتَنفِـي أَن تَحُـلَّ الرَّوابِيـا
عَلَـيكُم بِتَربيـقِ البِهـامِ فَـإِنَّكُم بِأَحسـابِكُم لَـنْ تَسـتَطيعوا رِهانِيـا
وكيـفَ تَنـالُونَ النُّجـومَ وكنـتُمُ خُلِقْـتُمْ فِقاحًـا لَـمْ تَكُونُـوا نَواصِـيا
بـأي أبٍ يـا بْـنَ المراغـةِ تبتغـي رِهـانِي إِلَـى غايـاتِ عمّـي وخالِيـا

فأجابه جرير، وممَّا قال[3]:

دَعوا المَجدَ إِلَّا أَنْ تَسوقوا كُرُومَكُم وَقَيْنًـا عِراقِيًّـا وَقَيْنًـا يَمانِيـا
تَـراغَيتُمُ يَـومَ الزُّبَيـرِ كَـأَنَّكُم ضِـباعٌ بِـذي قـارٍ تَمَنَّـى الأَمانِيـا
وَآبَ ابـنُ ذَيَّـالٍ بِأَسـلابِ جـارِكُم فَسُـمِّيتُمُ بَعـدَ الزُّبَيـرِ الزَّوانِيـا

---

١ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٩٣).
٢ انظر: المصدر السابق (١/ ٣٤٤).
٣ انظر: المصدر السابق (١/ ٣٥١- ٣٥٢).
٤ ابن ذيال: يعني عمرو بن جرموز قاتل الزبير بن العوام - رضي الله عنه قتله -، وقد كان في جوار مجاشع قوم الفرزدق، فكان جرير يعيّره بذلك.

وهنا اشتعل الهجاء بين جرير والفرزدق وانصرف الناس عن ذكر البُعَيث؛ الذي غضب لخمود ذِكرِه فهجا جريرًا والفرزدق معًا رغم أن الأخير ناصَرَهُ وذبَّ عنه، ولكن لم يُعِرْه أحدٌ اهتمامًا، فانطمس ذِكرُه ولم يلتفت له أحدٌ، وبَقِيَ الفرزدق وجرير يتهاجيان زمنًا طويلًا، وممَّا قال الفرزدق يهجو به جريرًا[1]:

يـا بْـن المراغـةِ أيـنَ خالُـك إنَّنـي ... خـالي حُبَـيشٌ ذو الفَعـالِ الأفضَـلُ
خالِي الذي غَصَبَ المُلُوكَ نُفُوسَهُم ... وإليـه كـانَ حِبـاءُ جفنـةَ يُنْقَـلُ
إنَّـا لَنَضـرِبُ رأسَ كـلِّ قبيلـةٍ ... وأبـوكَ خَلْـفَ أتانِـهِ يَتَقَمَّـلُ
وشُغِلتَ عن حَسبِ الكِرامِ وما بَنَوْا ... إنَّ اللَّئـيمَ عـنِ المَكـارمِ يُشْـغَلُ

وكان الفرزدق من بيت شرفٍ ورفعةٍ، فكان دائمًا يفاخر جريرًا بمنازل قومه وسادتهم، ولم يكن جرير يساميه في الرفعة والمنزلة القَبَلِيَّة، فلا يقدر أن يجاريه في مسلك الفخر، فكان يقوم عِوَضًا عن ذلك بالطعن في مفاخر قوم الفرزدق محاولًا هدم بنائه، ومن هذا قوله يردُّ على قصيدة الفرزدق السابقة[2]:

أَخْزَى الَّذي سَمَكَ السَّماءَ مُجاشِعًا ... وَبَنَـى بِنـاءَكَ فـي الحَضِيضِ الأَسـفَلِ
بَيتًـا يُحَمِّـمُ قَيـنُكُم بِفَنائِـهِ ... دَنِسًـا مَقاعِـدُهُ خَبِيـثَ المُـدْخَلِ
وَلَقَـدْ بَنَيـتَ أَخَـسَّ بَيـتٍ يُبتَنـى ... فَهَـدَمتَ بَيـتَكُمُ بِمِثْلَـيْ يَـذْبُلِ

واستمرَّ الهجاء مشتعلًا بين الرجلين أعوامًا طويلة حتى ذاع صِيتُهما وانتشر خبرهما، فكان الفرزدق يستعمل كلَّ نقيصة ومذمَّة كي يهجو بها جريرًا، وكان يصف قوم الفرزدق باللُّؤم والدَّناءة، ويتعرَّض للنساء، وكان جرير من جهته يفحش كذلك في هجائه ويخوض في الأعراض خوضًا بذيئًا ويعيِّر الفرزدق بما عُرِف عنه من فسقٍ وفجور، ولكن لم يغلب أحدهما الآخر وأصبحت النقائض شُغل الناس الشاغل، فباتوا يترقَّبون القصيدة من أحدهما والرَّدَّ عليها من الآخر، حتى كثُر الحديث وكثُرت المفاضلة بين جرير والفرزدق، وفي ذلك يُروَى أنَّ

---

١ انظر: المصدر السابق (٢/ ٣٧٣).
٢ انظر: المصدر السابق (٢/ ٣٨٦).

رجلين تَنازعا في عسكر المهلب بن أبي صفرة أثناء قتاله للخوارج، في جرير والفرزدق أيُّهما أشعر، فاحتكما للمهلَّب وقد كرِه أن يقول شيئًا فيعرِّض نفسه للشَّرِّ، فدعاهما إلى الاحتكام إلى رجلٍ من الخوارج؛ هو عُبيد بن هلال، وكان في عسكر قطريِّ بن الفجاءة، فدَعَواه ليخرج إليهما، فخرج ومعه رمحه؛ ظنًّا أنَّه دُعِيَ للبِراز، فقالا له: الفرزدق أشعر أم جرير؟ فقال: عليكما وعليهما لعنة الله؛ فقالا: نحبُّ أن تخبرنا ثم نصير إلى ما تريد؛ فقال: من يقول:

وطَوَى القِيادُ معَ الطِّرادِ بُطُونَها طَيَّ التِّجارِ بِحَضْرَمَوْتَ بُرُودا

فقالا: جرير؛ فقال: هو أشعرهما[1]

ولم تكن المفاضلة بين جرير والفرزدق قاصرة على عصرهما فقط؛ بل إنَّ المفاضلة بينهما ما زالت مستمرَّةً حتى أيامنا هذه، وتناول النُّقَّاد أسلوب كلٍّ منها باعتبارهما أشهر شعراء العصر الأموي بجانب الأخطل، وقد كان الفرزدق يفوق جريرًا في قوة أسلوبه وجزالة لفظه وفخامته، حتى كان أميَلَ إلى ذائقة الشعر الجاهلي، فقيل فيه: كان ينحت في صخر؛ أما جرير فإنه كان أرَقَّ لفظًا وأسلَسَ أسلوبًا من الفرزدق حتى قيل فيه: يغرف في البحر؛ وكان الفرزدق كذلك أعلى كعبًا من جرير في الفخر؛ فقد كان بيته بيت شرفٍ وعزٍّ، فلا يُشق غباره في ذلك، بينما ينتمي جرير إلى بني يربوع إحدى البطون الضعيفة من تميم، ولكن الفرزدق كان في الهجاء أقلَّ حظًّا من جرير وأدنى مرتبة؛ إذْ إنَّ جريرًا وإن ضَعُفَ فخرُه فقد كان قويًّا في الهجاء بلا منازع فلا يجاريه أحد.

وعلى هذا كان يكون الميل؛ فمَن مال إلى الأسلوب الفخم واللفظ الجزل والفخر؛ مال إلى الفرزدق، وأمَّا من مال إلى الليونة والسلاسة فهو أميَلُ إلى جرير.

ومِن قول الفرزدق يهجو جريرًا مفتخرًا عليه[2]:

حُلَلُ المُلُوكِ لِباسُنا في أهلِنا والسَّابغاتِ إلَى الوَغَى نَتَسَرْبَلُ

---

[1] انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٢/ ٣٨٢).

[2] انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص١٢٠).

فلا يسع جريرًا مجاراته في الفخر، فيردُّ عليه من باب الطعن في مفاخره والسخرية منها معيِّرًا إياه بابن جرموز الذي قتل الزبير بن العوام -رضي الله عنه- قائلًا:

لا تَـذْكُرُوا حُلَـلَ المُلُـوكِ فـإنَّكم بَعـدَ الزُّبَيـرِ كحـائضٍ لَـمْ تَغْسِـلِ

واستمر الهجاء بين الفرزدق وجرير حتى بلغ نزاعها الأخطل التغلبي، وكان شاعرًا ذا شأنٍ، فأرسل ولده مالكًا إلى العراق ليستخبر عنهما، فعاد إليه قائلًا: وجدتُ جريرًا يغرف من بحرٍ ووجدتُ الفرزدق ينحت من صخر؛ فقال الأخطل: الذي يغرف من بحر -يعني جريرًا- أشعرهما؛ فلمَّا قدم الأخطل على بشر بن مروان أخي الخليفة عبد الملك، إبَّان ولايته على الكوفة؛ أرسل إليه قوم الفرزدق بهدايا وطلبوا منه أن يهاجي جريرًا، ففعل وقدَّم الفرزدق[1] فلمَّا بلغت حكومته جريرًا؛ هجاخ هجاءً عنيفًا قائلًا له[2]:

يا ذا العَباءَةِ إنَّ بِشرًا قَدْ قَضَى أَنْ لا تَجُـوزَ حُكومَـةُ النَّشْـوانِ
فَدَعُوا الحُكومَةَ لَستُمُ مِن أَهلِها إنَّ الحُكومَـةَ فـي بَنِـي شَـيبانِ

فردَّ عليه الأخطل قائلًا[3]:

أَجَرِيـرُ إنَّـكَ والـذي تَسـمُو لَـهُ كأَسِـيفَةٍ فَخَـرتْ بِجَـدْجِ حِصـانِ
حَمَلَـتْ لِرَبَّتِهـا فَلَمَّـا عُولِيَـتْ نَسَـلَتْ تُعارِضُـها مـعَ الأَظْعـانِ
أَتَعُـدُّ مَـأْثُرَةً لِغَيـرِكَ ذِكرُهـا وَسَـناؤُها فـي سـالِفِ الأَزمـانِ
تـاجُ المُلـوكِ وَصِـهرُها فـي دارِمٍ أَيّـامَ يَربـوعٌ مـعَ الرُّعيـانِ

* * * *

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (ص٢٨٠).
٢ انظر: نقائض جرير والأخطل، أبو تمام (ص٢٠٧- ٢٠٨)، تحقيق: الأب أنطون صالحاني اليسوعي، طبعة: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٢م.
٣ انظر: ديوان الأخطل (ص١٦٨- ١٧١)، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، طبعة: دار الفكر، دمشق- سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، ط٤، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ط١، ١٩٧١م.

سَـبَقُوا أَبـاكَ بِكُـلِّ مَـدفَعِ تَلْعَـةٍ بِالمَجــدِ عِنــدَ مَواقِــفِ الرُّكبــانِ
فَـإِذا رَأَيـتَ مُجاشِـعًا قَـدْ أَقبَلَـتْ فَــاهرُبْ إِلَيــكَ مَخافَــةَ الظِّــرَّانِ

ودافع الفرزدق عن الأخطل وردَّ على جرير قائلًا[1]:

يا بْنَ المَراغَةِ وَالهِجاءُ إِذا التَقَتْ أَعناقُــهُ وَتَماحَــكَ الخَصــمانِ
مـا ضَـرَّ تَغلِـبَ وائِـلٍ أَهَجَوتَهـا أَم بُلــتَ حَيــثُ تَنــاطَحَ البَحــرانِ
يـا بْـنَ المَراغَـةِ إِنَّ تَغلِـبَ وائِـلٍ رَفَعــوا عنــاني فَــوقَ كُــلِّ عنــانِ

وكان جرير عنيفًا في هجائه ضد الأخطل؛ فيصفه بالأُخَيْطل تصغيرًا له، ويعيّره بالسُّكر والكفر والخنزير وعبادة الصليب؛ كون الأخطل نصرانيًّا، ويُفحش في هجائه، ومن هذا قوله[2]:

قَـبَحَ الإِلــهُ وجـوهَ تغلـبَ إِنَّهـا هانَــتْ علــيَّ مَراســنًا ونَكــالا
قَـبَحَ الإِلــهُ وجـوه تغلِـبَ كُلَّمـا شَــبَحَ الحَجِــيجُ وكبَّــروا إِهــلالا
عَبَـدوا الصَّـليبَ وكـذَّبوا بمحمـدٍ وبِجِبْرَئِيــلَ وكــذَّبوا مِيكــالا

وكان الأخطل يردُّ عليه، على ما كان به من شيخوخةٍ وضعفٍ، ومن هذا قوله[3]:

قَـومٌ أَنابَـتْ إِلـيهِم كـلُّ مخزيَـةٍ وكــلُّ فاحشــةٍ سُــبَّتْ بهــا مُضَــرُ

وظل جرير والأخطل يتهاجيان إلى أن توفِّيَ الأخطل دون أن يكمل المضمار، ويستمر الهجاء بين جرير والفرزدق، ويقال: إنه اعترض جريرًا في النقائض نحو أربعين شاعرًا؛ وقيل: بل ثمانون؛ علاهم جرير جميعًا وغلبهم، باستثناء الأخطل

---

١ انظر: نقائض جرير والأخطل، أبو تمام (ص٢١٣- ٢١٤).
٢ انظر: ديوان جرير (١/ ٥٢)، شرح: محمد بن حبيب، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، طبعة: دار المعارف، القاهرة – مصر، ط٣، د.ت.
٣ انظر: ديوان الأخطل، شرح: محمد مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (ص١٠٩).

والفرزدق؛ فهذان صمدا له، ومن بين الشعراء الذين عارضوا جريرًا وهجوه شاعر يقال له عمرو بن لجإٍ التيمي؛ إذْ يقول مهاجيًا جرير[1]:

أُنْبِئتُ كلبَ كُلَيبٍ قَدْ عَوَى جَزَعًا وَكُلُّ عاوٍ بِفِيهِ التُّربُ وَالحَجَرُ
قَدْ لُمْتَني ظالِمًا في سُنَّةٍ سَبَقَتْ إِنَّ الكُلَيبِيَّ لَمْ يُكتَبْ لَهُ ظَفَرُ
هِبتَ الفَرَزدقَ فاستَعبثْتَني جَزَعًا لِلمَوتِ تَعمِدُ وَالمَوتُ الَّذي تَذَرُ
فاخسَأْ لَعَلَّكَ تَرجو أَن يَحُلَّ بِنا رَحَلُ الفَرَزدقِ لَمَّا مسَّكَ الدَّبَرُ

فهجاه جرير قائلًا له[2]:

قومٌ إذا حضرَ المُلُوكَ وُفُودُهُم نُتِفَتْ شَوارِبُهم علَى الأبوابِ
إنّي وَجَدتُ أَباكَ إِذْ أَتعَبتُهُ عَبدًا يَنُوءُ بِأَلأَمِ الأَنسابِ

فاستغاثت تيم بجرير وتوسَّلت إليه أن يكفَّ عنها، ففعل وأجابهم بعدما غلب شاعرهم[3]، وكان هناك شاعر آخر مشهور هو الراعي النميري أوقع به سوء الحظ في عداء جرير، ففضَّل عليه الفرزدق قائلا[4]:

يا صاحبيَّ دَنا الرَّواحُ فَسِيرا غَلَبَ الفَرزدقُ في الهجاءِ جَرِيرا

ويبدو أنه استمر في هجائه رافضًا الكفَّ عنه، فهجاه جرير بقصيدة طويلة في سوق المربد فاقت المئة بيت، عيَّر فيها قبيلته نميرًا وفاخر بقومه تميم مسترسلًا بفضائلهم، وأسهب في هجاء الراعي النميري وأفحش ونال من النساء، وذكر مجاشعًا فهجاها، وكانت قصيدة عنيفة، قال فيها[5]:

إذا غَضِبتْ عليكَ بَنُو تميمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كلَّهُمُ غِضابا
أَلَسْنا أكثَرَ الثَّقَلَيْنِ رجْلًا وأعظمَهُ قِبابا بِبطْنِ مِنًى

---

١ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٢/ ٥٨٩).
٢ انظر: ديوان جرير (٢/ ٦٢٩).
٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٢٧٩).
٤ انظر: نقائض جرير والفرزدق، أبو عبيدة البصري (٢/ ٥٩٤).
٥ انظر: ديوان جرير (٢/ ٨٢٣).

ومنها بيته المشهور:

فغُضَّ الطَّرفَ إنَّكَ مِن نُميرٍ فلا كعبًا بلَغتَ ولا كلابا

وكانت هناك مجالس للفرزدق وجرير في سوق المربد، وكان الراعي في مجلس الفرزدق، فلمَّا أنشد جرير تلك القصيدة؛ انصرف من مجلس الفرزدق يعلوه الصغار والعار، وحاول أن ينقضَه فلم يبلغ شيئًا، ثم توجَّه إلى منازل قبيلته نُمير في نجد بعدما غلبه جرير، وهو يقول: فضحنا -والله- جرير؛ وقومه يقولون: هذا شؤمك! وعُرِفت تلك القصيدة بالدامغة؛ نظرًا إلى أنها هدمت قبيلة الراعي وأخمدت ذِكرَه فلم يَقْوَ على الرَّدّ.

واستمر الهجاء مشتعلًا بين الفرزدق وجرير دون أن يغلب أحدهما الآخر، إلى أن مال الفرزدق إلى الكفِّ في أواخر حياته، فترك الهجاء وما لبث أن توفِّيَ نحو عام ١١٠هـ/٧٢٨م[٢] فرثاه جرير، وما لبث أن لحق به في نفس العام، فانتهت النقائض واستحالت إلى تراث شغل الناس زمنًا طويلًا ووقف عنده النقاد بالتحليل والتفصيل والدراسة، وقد جمع أبو عبيدة البصري الراوي ما انتهى إليه من نقائض جرير والفرزدق في كتاب واحد وكتابه مليء بقصائد شتى فتناولها شرحًا ودراسة، كما قام الشاعر أبو تمام بجمع نقائض جرير والأخطل في كتاب آخر.

والنقائض بشكل عام وإن حوت بعض القبائح التي تمثَّلت في السباب المقذع والهجاء اللاذع والخوض في الأعراض والنساء؛ فإنها من جهة أخرى تمثل قيمة فنية مهمة من الناحية الأدبية والاجتماعية والثقافية؛ فقد عبَّرت عن انتشار العصبية القبلية في جانبها الاجتماعي كما عبر الشعر السياسي عن جانبها السياسي، وهذا استدعى من الشعراء المتصارعين دراسة تاريخ وثقافات قبائلهم ومراجعة حروبهم وأيامهم وحوادثهم، تمامًا مثلما كان يفعل جرير الذي كان يتعقَّب قوم الفرزدق ويتتبَّع عوراتهم ومساوئهم حتى ينْفذ منها إليه، فكان يُعيِّر

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٢٤٣- ٢٤٤).

٢ انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٩/ ٢٩٣).

الفرزدق أن قومه مجاشعًا تخلَّوا عن الزبير يوم الجمل، وأن ابن جرموز قتله خافرًا ذمَّتهم، ويذكِّره ببعض الحوادث التي كانت على قومه.

وعلى نفس المنوال كان يفعل خصماه الفرزدق والأخطل فيتغنَّى كل منهما بمفاخر قومه وانتصاراتهم، وكان الناس حينها ينشغلون بالنقائض ويرونها تسلية لوقتهم وشغلًا لفراغهم، ولما انتهى زمنها تناولها النقاد بالدراسة والبحث الدقيق.

٤- الغزل:

يُعتبر الغزل من الأغراض الشائعة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، ولكنه كان في معظمه يندرج في المقدمة الطللية ويُستعمل أغلبه في افتتاح القصائد بالنسيب أو البكاء على الأطلال، وقلَّما نراه غرضًا رئيسًا للقصيدة الجاهلية إلا في حالات نادرة كما نرى مع بعض الشعراء المُتيَّمين، إلى أن جاء العصر الأموي فتطوَّر الغزل تطوُّرًا عظيمًا ليخرج عن إطاره الطللي القديم ويتحوَّل إلى غرض رئيسٍ ذي كيان مستقل.

وكان شيوع حالة التَّرف والنعيم وانتشار اللَّهو والدَّعة وتطوُّر الغناء والموسيقى وما صاحب ذلك من استقرار وفراغ ورخاء؛ قد أدَّى إلى انتشار الحياة العاطفية ولا سيَّما في المناطق التي عمَّها التَّرف والرخاء؛ مثل الحجاز حيث غرق هؤلاء في حياة الرفاهية وانسابت عليهم أموال الفتوح والرقيق والموسيقى، حتى البلاد التي احتفظت بطابعها الجاهلي وصفائها البدوية بعد الإسلام كمَواطن البادية التي تخلَّص أهلها من النزاعات والحروب القبليَّة فشاعت فيها الحياة العاطفية وكثُرت قصص الحب والعشق.

وقد تميَّز الغزل وانقسم إلى قسمين رئيسيْن في العصر الأموي إلى يومنا هذا؛ هما:

١- **الغزل العذري العفيف:** وهو الغزل الذي يعني بوصف مشاعر الحب والهُيام ويصف جمال روح المرأة وشفافيتها دون اللجوء إلى جسدها أو شيءٍ

من الظواهر الحسية، وهو غزل نقي طاهر يمتاز بالعفَّة والنقاء، وأشهر شعراء هذا اللون هو قيس بن الملوَّح المعروف في الأدب باسم مجنون ليلى، ومن شعرائه أيضًا قيس بن ذُريح الذي عُرف بقيس لبنى، وجميل بن معمَّر الذي عُرِف بجميل بثينة وكان مقدمًا على شعراء الغزل في عصره، وكثيِّر ابن عبدالرحمن المعروف بكُثَيِّر عزَّة، والصُّمَّة القُشيري، وعروة بن حزام العُذري صاحب عفراء، وتوبة الحميري صاحب ليلى الأخيلية؛ ولهم في غرامهم قصصٌ وأخبار شتى اختلط فيها الواقع بالأسطورة، وقد سُمِّي بالغزل العُذري نسبة إلى قبيلة عذرة إحدى بطون قضاعة التي شاع فيها هذا اللون من الشِّعر والقصص؛ حيث كان الجمال في عذرة والعشق كثيرًا، وعُرِف أهل تلك القبيلة بالحب والرقة، وقيل لأعرابي منهم: ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تنماث[1] كما ينماث الملح في الماء، أما تجلَّدون؟ فقال: إنا لننظر إلى محاجر أعين لا ينظرون إليها؛ وقيل لآخر: ممن أنت؟ فقال: من قومٍ إذا أحبُّوا ماتوا؛ فقالت جارية سمعته: عُذريٌّ وربِّ الكعبة[2].

ومن نماذج الغزل العُذري قول جميل بن معمر (جميل بُثينة) في سياقٍ عذبٍ وعاطفة متدفقة صادقة يصف تجربته في الحب وعمق إحساسه دون اللجوء إلى الوصف الجسدي[3]:

أَقولُ لِداعي الحُبِّ وَالحِجْرُ بَينَنا ... وَوادِي القُرَى لَبَّيكَ لَمَّا دَعانِيا
فلَمْ تُنكرِ الدَّاعي ولكنَّ حُبَّها ... أَصِيلٌ ويَبْلَى كالذي كنتُ باليا
وَما أَحدَثَ النَّأيُ المُفَرِّقُ بَينَنا ... سُلُوًّا وَلا طُولُ اِجتِماعٍ تَقالِيا
كأَنْ لَمْ يَكُنْ نأيٌ إذا كانَ بَعدَهُ ... تَلاقٍ ولكنْ لا إخالُ تَلاقيا

٢- **الغزل الصريح:** وهو الغزل الذي يُصرِّح فيه الشاعر بمحاسن المرأة وجمالها ويتغنى بمفاتنها الحسِّيَّة والظاهرية ويحكي عن قصص الحب

---

١ تنامث: تذوب وتتلاشى
٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٢٥).
٣ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٧٥- ٧٦).

والمغامرات، وأشهر روَّاده عمر بن أبي ربيعة بلا منافس، ومن شعرائه كذلك الأحوص والعرجي وغيرهما، ومن نماذج الغزل الصريح قول الشاعر عمر ابن أبي ربيعة[1]:

وَأَرَى جَمالَـكِ فَـوقَ كُـلِّ جَميلَـةٍ وَجَمـالُ وَجهِـكِ يَخطَـفُ الأَبصـارا
إِنِّـي رَأَيتُـكِ غـادَةً خُمصـانَةً رَيَّـا الـرَّوادِفِ لَـذَّةً مِبْشـارا
مَحطوطَـةَ المَتنَـينِ أُكمِـلَ خَلْقُهـا مِثـلَ السَّـبيكَةِ بَضَّـةً مِعطـارا

وقد شاع الغزل العُذري العفيف في بلاد نجد والبادية، بينما شاع الغزل الحسّي الصريح في الحجاز ومواطن التَّرف والنعيم، ولا شكَّ أن الغزل العذري أكثر صدقًا من الغزل الصريح وأقرب عاطفة؛ لأنه كان ناجمًا عن تجارب عاطفية حقيقيَّة وقصص غرام صادقة، وكانت تجارب شعرائه في الغالب مريرةً، أضفَتْ عليهم مزيدًا من الأحاسيس الصادقة والفياضة، وكان شاعر الغزل العُذري يتعلق بامرأة واحدة فقط، وهو ما يزيد من درجة صدق حبّه وعاطفته، بخلاف شعراء الغزل الصريح؛ فهذا قيس بن الملوّح لم يُعرف عنه غزلٌ إلا في ليلى، وهذا قيس بن ذريح لم يتغزَّل إلا في لبنى، وهذا جميل قد تعلَّق ببُثينة ولم يتعلَّق بسواها، وكذا فعل كثيِّر بن عبد الرحمن مع عزة، ولهذا كان الشاعر منهم يُلقَّب بحبيبته فيُقال: قيس لبنى وجميل بثينة وكثير عزة.. وهكذا، بخلاف الغزل الصريح الذي كان شعراؤه من أمثال عمر بن أبي ربيعة يتغزلون في نساء وفتيات شتى ويتنقَّلون من فتاة إلى غيرها، فكان من الطبيعي أن تكون عاطفتهم أقلَّ صدقًا لأنهم لم يمرُّوا بتجارب الحب الحقيقية التي مرَّ بها الشعراء العذريون؛ بل كانوا فقط يتغزلون رفاهية أكثر من كونه غزلًا عن حب صادق، وإن لم يمنع هذا من أنَّهم امتازوا أيضًا بالحس المرهف وحلاوةِ الرُّوح.

ولم يقتصر الغزل على الشعراء المُتيَّمين فقط؛ بل إنَّ عموم شعراء العصر الأموي قد قالوا في الغزل أبياتًا بديعة؛ مثل قول جرير[2]:

---

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص١٥٢).
٢ انظر: ديوان جرير (١/ ١٦٣).

إِنَّ العُيونَ الَّتي في طَرْفِها حَوَرٌ قَتَلْنَنا ثُمَّ لَمْ يُحيينَ قَتْلانا
يَصرَعنَ ذا اللُبِّ حتَّى لا حِراكَ بِهِ وَهُنَّ أَضعَفُ خَلقِ اللهِ أركانا

ولم يقتصر تطوُّر الغزل في العصر الأموي على كونه أصبح غرضًا ذا كيان مستقلٍّ، أو على تشعُّبه إلى قسمين رئيسيْن هما: العذري العفيف والصريح؛ بل إن عموم الغزل قد تشعَّب إلى عدة أغراض فرعية تندرج تحته؛ مثل الحوار القصصي وشكوى أنين الهجر والفراق ووصف الحنين والشوق إلى رؤية الحبيب والتضرُّع والتوسُّل وذِكر القصص والمغامرات، وكان معظم الغزل يذهب إلى الحرائر إلا أن بعض الشعراء بدؤوا يميلون إلى الغزل بالجواري وهو شيء جديد في العصر الأموي.

ولا يعني تطور الغزل ليصبح فنًّا مستقلًّا أن المقدِّمة الطللية قد اختفت؛ بل فقد ظلَّ الشعراء في هذا العصر يفتتحون قصائدهم بالنسيب والبكاء على الأطلال ماضين على نفس منوال ذاك التراث الجاهلي دون كبير تغيير؛ ومن هذا قول الراعي النميري وكان يفتتح قصائده بذكر النسيب والبكاء على الأطلال في سياقٍ عذب يغلب عليه الطابع البدوي فيبدع ويجيد[1]:

أَلَمْ تَدْرِ ما قالَ الظِّباءُ السَّوانِحُ مَرَرْنَ أمامَ الرَّكْبِ والرَّكْبُ رائِحُ
فسَبَّحَ مَنْ لَمْ يَزجُرِ الطَّيْرَ مِنهمُ وأيقَنَ قلبي أنَّهنَّ نَواجِحُ

وزاد من شيوع الغزل غير حالة التَّرف والنعيم أنَّ كثيرًا من النساء أنفسهنَّ كُنَّ يَمِلْنَ إلى أن يتغزل بهن شاعر؛ حتى يشتهرن ويطير ذِكرُهنَّ، وكان شعراء الغزل أنفسهم -ولا سيَّما شعراء الغزل الصريح- يتعقَّبن النساء من أجل الغزل، حتى المتزوِّجات منهن، لا يردُّهم عن ذلك شيء، وشاع أيضًا أن أهل البادية كانوا إذا شبَّب شاعر بفتاةٍ؛ عمل أهلها على التفريق بينهما وتزويجها رجلًا آخر؛ فيما يظنُّون أنه صونٌ لعفَّتها وحفظٌ لِسُمعتها، فما يكون من ذلك إلا أن يكتوي هؤلاء الشعراء بمرارة لظى الشوق ونار الحرمان فيبثُّوا أنينهم وشكواهم ويعبِّروا عن

---

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٢٥١).

هذا بإحساس أليم مرير، وهو ما حدث مع قيس بن الملوّح وجميل بُثينة وآخرين، وكان هذا سببًا لذيوع قصص الحب التي اكتوى أصحابها بنار الحرمان ومرارة الفراق، ونستطيع القول بأن أشعار الغزل العذري في العصر الأموي لجميل وقيس وليلى الأخيلية ومن على شاكلتهم كان نواة لنشوء مذهب الرومانسية في العصور الحديثة فيما بعدُ.

٥- شعر المجون واللهو:

كان من الطبيعي مع انتشار حالة الترف والرخاء أن تشيع معها حالة المجون واللهو والبذح؛ حيث عرفت المدينة مثلًا بعض دور اللهو وشاع فيها الغناء، وكذلك بعض البلاد التي غرق أهلها في النعيم وبالغوا في الاستمتاع والترف، وعُرِفت في البصرة والكوفة بعض الملاهي وعادت الخمر إلى الظهور مجدَّدًا مع حالة الترف تلك رغم أنها كادت تختفي في عصر صدر الإسلام بعد أن حرَّمها الدِّين، لكن من الواضح أنها لم تختفِ من حياة العرب بشكلٍ مطلَقٍ، وما إن شاع الترف والرخاء في العصر الأموي حتى اجترأ بعض الشعراء على وصفها، ومن بينهم الأخطل ومعاوية بن أرطأة وعبد الرحمن بن الحكم وابن هرمة ومالك ابن أسماء والخليفة الماجن الوليد بن يزيد بن عبد الملك[1] الذي أكَبَّ على الخمر واللهو والمجون وله في خمره ومجونه شعر رقيق، ومن الخمريات في العصر الأموي ما قاله ابن هرمة وقد نُهِيَ عن شرب الخمر[2]:

نَهانِي ابنُ الرَّسُولِ عنِ المُدامِ ... وأَدَّبَنِي بآدابِ الكِرامِ
وقالَ لِيَ اصطَبِرْ عنها ودَعْها ... لِخَوفِ اللهِ لا خَوفَ الأَنامِ
وكيفَ تَصَبُّري عنها وحُبِّي ... لها حُبٌّ تمكَّنَ مِن عِظامي
أَرَى طِيبَ الحَلالِ عليَّ خُبْثًا ... وطِيبَ النَّفْسِ في خُبثِ الحَرامِ

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٣٧٧- ٣٧٨).
٢ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (١/ ١٩٤).

وقال الأخطل في شرب الخمر[1]:

أَلا لا تَلُومِيني علَى الخَمرِ عاذِلا وَلا تُهلِكِينـي إنَّ فـي الـدَّهرِ قـاتِلا
ذَرِينِي فَإنَّ الخَمرَ مِن لَذَّةِ الفَتَى وَلَـوْ كُنـتُ مَوغـولًا عَلَـيَّ وَواغِـلا

ومن الشعراء الذين غلب عليهم المجون وشرب الخمر غالب بن عبد القدوس ابن شبث بن ربعي المعروف بأبي الهندي، وهو ممن وصف الخمر وشغف بشرابها، وكان فيه فسقٌ وضعفٌ في الدِّين، ومِن وصفِه إيَّاها قوله:

وقَـدْ باكرْتُهـا فتُرِكْـتُ مِنْهـا قتـيلًا مـا أصـابتْني جِـراحُ
وقـالوا أيُّهـا الخمَّـار مَـنْ ذا فقـالَ أخٌ تخوَّنَـهُ اصـطِباحُ
فقـالوا هـاتِ راجـكَ ألحِقَنَّـا بـهِ وتعلَّلـوا ثُـمَّ اسـتَراحوا

ولكن إنصافًا للحقيقة وللعصر الأموي فإنَّه رغم شيوع اللهو والترف والمجون في المجتمع؛ فإن شيوع الخمر كان محدودًا وعلى نطاق ضيِّق ولم تصل بعدُ إلى مظاهر الانحلال والفحش والخلاعة التي ظهرت لاحقًا مع العصر العباسي؛ فقد بَقِيَ أغلب المجتمع محافظًا على القيم والدِّين، وكانت الملاهي ومجالس اللهو محدودة وكذلك الخمر كان ظهورها لا يزال خجولًا محدودًا ولا يمكن اعتبارها من ضمن الأغراض الرئيسَةِ في الشعر الأموي؛ وإنما كانت تدخل من ضمن شعر المجون واللهو وكأنَّها كانت تنتظر طفرةً مستقبليَّة في العصر العباسي مع شاعرها الأثير الماجن أبي نواس.

٦- الزهد:

كان التيَّار الدِّيني متواجدًا في العصر الأموي، ونشط الوعظ نشاطًا ملحوظًا بفضل العُبَّاد والزُّهاد ومن عُرِف بالتقوى والصلاح؛ سواء من أدرك هذا العصر من صحابة النَّبيِّ ﷺ كعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو ابن العاص وأبي هريرة، أو مَن خلَفَهم من التابعين مثل الحسن البصري

---

١ انظر: ديوان الأخطل (ص٤٦٠).

والأوزاعي وسعيد بن المسيب، وبعض أبناء وأحفاد الصحابة مثل القاسم ابن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبد الله بن عمر والخليفة عمر بن عبد العزيز.

ويجسِّد شعر الزهد في العصر الأموي عدَّة مظاهر؛ من بينها التَّفرُّغ للعبادة والزهد في الدنيا، والدعوة إلى الآخرة والأخلاق الرفيعة، ولا نبعد كثيرًا عن الصواب إذا قلنا: إن نشاط تيار الزهد هو كذلك ردُّ فعلٍ مضاد لشيوع حالة اللهو والترف، ومن الشعراء الذين غلب عليهم الزُّهد أو ظهر في بعض أشعارهم أبو الأسود الدؤلي وسابق البربري[1] يقول ذو الرُّمَّة يرثي نفسه[2]:

يـا رَبِّ قَـدْ أَشـرَفَتْ نَفسـي وَقَـدْ عَلِمَـتْ

عِلمًـــا يَقينًـــا لَقَـــدْ أَحصَـــيتَ آثـــاري

يـا مُخرِجَ الرُّوحِ مِنْ جِسمي إِذا احتَضَرَتْ

وفـــارِجَ الكَـــربِ زحزِحنـــي مِـــنَ النَّـــارِ

ويعتبر مسكين الدارمي من الشعراء الذين غلب الزهد على ملامح شعرهم؛ ومن هذا قوله يصف نفسه[3]:

وسُـمِّيتُ مِسكينًا وَكانَـتْ لجاجـةً وإِنِّـي لَمِسـكينٌ الـى اللهِ راغِـبُ

وقد حمل شعر الخوارج -لِما فيه من حماسة نابعة من باعث دينيّ- وكذلك شعر الشِّيعة؛ بعضًا من ملامح التَّديُّن والزُّهد والدعوة إلى الآخرة، وإن خالطتْ شعر هؤلاء أحيانًا بعض الجوانب والدوافع السياسية.

ومن نماذج الزهد قول عمرو بن أحمر الباهلي[4]:

إنَّ الفتَـى يَقْتُـرُ بَعـدَ الغِنَـى ويَغتَنِـي مِـنْ بَعـدِ مـا يَفْتَقِـرْ

والحـيُّ كالمَيْـتِ ويَبْقَـى التُّقَـى والعـيشُ فنَّـانٌ فَحُلْـوٌ ومُـرّْ

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٣٧٣).

٢ انظر: ديوان ذي الرمة (٣/ ١٨٧٤- ١٨٧٥)، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، طبعة: مؤسسة الإيمان، جدة، ط١، ١٩٨٢م- ١٤٠٢هـ.

٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٥٣٦).

٤ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٢/ ٥٨٠).

٧- الرَّجَز:

كان الرَّجَز معروفًا في الجاهلية، ووَفْق ما يُروَى من تتبُّع بدايات الشعر فإن الرجز كان أسبق البحور الشعرية ظهورًا، وكان الشعراء يرتجلون عليه بضعة أبيات دون أن تبلغ قصيدة كاملة، فلمَّا تنوَّعت البحور وتعدَّدت وقام المهلهل ابن ربيعة بإطالة القصيد؛ أهمله الجاهليون وانتقلوا إلى بقية البحور ينظمون عليها؛ نظرًا إلى قرب إيقاع الرَّجَز من الإيقاع النثري، وكثرة الزحافات فيه، فكان لا يُحتسَب شعرًا تامًّا، إلى أن جاء الأغلب العجلي -وهو من الشعراء المخضرمين وقد استشهد في معركة نهاوند عام ٢١هـ- فاعتنى بالرجز وأطاله ونظَم عليه القصائد وفعل به ما فعل مهلهل في القصيد، وما لبث أن تطوَّر الرجز في العصر الأموي ليلحق ببقية البحور التي سبقته فلم يَعُد مجرد أرجوزات ارتجالية قصيرة؛ بل تحوَّل إلى شعر تام وقصائد كاملة شملت أغراضًا مختلفة كالمديح والوصف والهجاء والفخر وذِكر الأطلال ووصف الصحراء والصيد والإبل والرحلات في عناية وإسهاب مثل بقيَّة بحور الشعر الأخرى تمامًا، واتَّصف الرجز فنِّيًّا بالجزالة وغريب اللفظ.

وانقسم الرُّجَّاز إلى قسمين؛ قسم اختصَّ به ولم يتعدَّه، وأشهرهم على الإطلاق: عبد الله بن رؤبة الشهير بالعجَّاج، وولده رؤبة بن العجَّاج، وأبو النجم العِجلي؛ وقد وضع ابن سلَّام هؤلاء الثلاثة مع الأغلب في الطبقة التاسعة من الشعراء الإسلاميين مع أن الأغلب كان مخضرمًا أدرك الجاهلية، ومن بين الرُّجَّاز أيضا دُكين بن رجاء ودُكين بن سعيد الدارمي والزُّفيان التميمي، ومنهم من جمع بين الرجز والقصيد كالشمردل بن شريك وأبي نُخَيلة، وقد تطرَّق للنظم على هذا البحر من غير الرُّجَّاز عدد من أعلام الشعراء مثل جرير وذي الرُّمَّة[١].

ومن نماذج الرجز قول العجاج يصف الليل ويمدح بني أميَّة[٢]:

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٣٩٦).

٢ انظر: ديوان العجاج (١/ ٤٢٥- ٤٢٦)، تحقيق: د. عبد الحفيظ السطلي، مكتبة أطلس، دمشق.

تَطــاوَلَ اللَّيــلُ علَــى مَــن لَــمْ يَــنَمْ
وَاَحتَمَّــتِ العَــينُ احتِمــامَ ذي السَّــقَمْ
وَوافَــتِ اللَّيــلَ بِشَلشــالٍ سَــجَمْ
جــاري الرَّشــاشِ كَالجُمــانِ المُنــتَظَمْ
مِــن جــارِ مَــرْوانَ وَجيــرانِ الحَكَــمْ
مَــــروانُ إِنَّ اللهَ أَوصَــــى بِالــــذِّمَمْ
وَجَعَــلَ الجِيــرانَ أَســتارَ الحُــرَمْ

الخصائص الفنية للشعر الأموي:

ممَّا سبق عرضه نجد أن الشعر الأموي قد عبر عن عصره بكل دقة وجلاء؛ فعبَّر عن الأحوال السياسية وما حدث من انقسام حزبي، وعن الإختلاف حول مسألة الخلافة، وعبَّر كذلك عن تزايد العصبية القبلية سواء فيما ذُكر من النقائض أو حتى فيما سِوى ذلك من الهجاء المعتاد الذي كانت العصبية بارزة فيه كما عبر الشعر عن حالة الترف والنعيم التي ظهرت في هذا العصر كما نرى في أشعار اللهو والغزل، ونستطيع القول: إن الشعر إجمالا يعبِّر عن أحوال عصره؛ فقد عبَّر الشعر الجاهلي إلى حدٍّ بعيد عن طباع العرب وأحوالهم وظروفهم وحياتهم وصحرائهم، وعبر الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام عن الجوانب الدينية والتغييرات الاجتماعية التي أحدثها الإسلام في نفوس العرب وعن طباعهم وعقيدتهم الجديدة، وهذا هو الشعر الأموي يعبر بدقَّة متناهية عن متغيِّرات هذا العصر وأحواله السياسية والاجتماعية.

وإذا ما نظرنا إلى الشعر الأموي من الناحية الأسلوبية والخصائص الفنِّيَّة سنجد أن الشعر الأموي بشكلٍ عامٍّ ظلَّ امتدادًا للشعر الجاهلي والإسلامي في أغلب خصائصه وسماته الفكرية والأسلوبية؛ سواء من ناحية الأصالة أو من

١ الشلشال: الذي يقطر قطرا يكاد يتصل. السجم: من الساجم أي الجاري

ناحية المعاني التي غلب عليها الطابع البدوي إلى حدٍّ بعيدٍ، أو من حيث التراكيب التي بقيت كما هي على حالها في العصر الجاهلي من الصلابة وقوة الأسلوب دون تغيير في نمط القصيدة وفي هيكلها من حيث الأوزان أو القوافي أو من حيث الألفاظ التي وإن خَلَتْ إلى حدٍّ كبير من الغرابة والوعورة والألفاظ الجاهلية الصعبة -باستثناء شعر الرجز- فإنَّها ظلت بشكل عام تميل إلى الفخامة والجزالة كما كان الشعر الجاهلي، وكان الميل أكبر في العصر الأموي إلى البحور ذات النَّفَس الطويل مثل بحر الكامل والطويل والبسيط.

وهذا لا يعني أن الشعر الأموي قد خلا تمامًا من مظاهر التجديد؛ بل على العكس؛ فقد شهد الشعر الأموي نواحيَ تجديديَّة عديدة، وقد مررنا على تلك النواحي؛ مثل ما حدث من تطوّرٍ للشعر السياسي، ونمو الرجز ومواكبته لعالم الشعر وتطوُّر الغزل فيه تطورًا عظيمًا أدى إلى استقلاله وتحوّله إلى غرض رئيسٍ لأول مرة وهو ما لم يكن معروفًا في العصر الجاهلي، غير أن مظاهر التجديد تلك كانت قاصرة على أغراضه وموضوعاته فحسبُ؛ أما من الناحية الفنِّيَّة والأسلوبية فقد ظل الشعر الأموي امتدادًا للشعر الجاهلي والإسلامي في أغلب خصائصه وفنِّيَّاته.

ومن الجدير بالذكر أن إرهاصات الثورة على المقدمة الطللية قد بدأت بالظهور ولو بشكل خجولٍ في هذا العصر، وكان الشعراء الجاهليون والمخضرمون يفتتحون قصائدهم بمقدِّمات غزلية، واستمر النهج الطللي كما هو في العصر الأموي، غير أن إرهاصات وبوادر التَّمرُّد على هذا النمط قد بدأت في الظهور؛ وذلك مع بدء اقتحام المدنيَّة لحياة العرب، وتغيُّر بعض القيم المجتمعيَّة والمفاهيم القديمة؛ حيث نجد أن بعض الشعراء قد بدؤوا يتخلَّون عن تلك القاعدة ويفتتحون قصائدهم بحكمة أو بالدخول في موضوع القصيدة مباشرة من هجاء أو مديح أو سياسة، بل إن بعض الشعراء الذين عُرِفوا بشغفهم بالخمر قد بدؤوا يمزجون مقدمة قصيدتهم بخمريات؛ مثلما فعل الأخطل في قصيدته الرائية "خف القطين" التي مدح بها الخليفة عبد الملك، غير أن هذا لا

يعني أن الثورة على المقدِّمة الطللية قد بدأت بعدُ؛ وإنَّما كانت مجرَّد محاولات عفوية وإرهاصات أوَّليَّة لثورةٍ حمل لواءها لاحقًا المولَّدون في العصر العبَّاسي؛ إذْ ظل البكاء على الأطلال موجودًا في الشعر الأموي وظل الطابع البدوي ماثلًا في الشعر العربي إلى حدٍّ بعيد.

وقد ظهر في العصر الأموي شيء من الميل إلى الأوزان البسيطة ذات الإيقاع السريع تبعًا لحالة اللهو وتماشيًا مع أذواق الغناء والموسيقى؛ حيث كانت الأشعار الخفيفة ذات الإيقاع السريع والراقص تتفق مع حاجة المغنين والقينات، لذا نرى في الشعر الأموي بعضًا من تلك البحور الخفيفة التي لم تكن شائعة في العصر الجاهلي؛ كالمديد والهزج والمنسرح والخفيف والكامل المجزوء، ومن بينها كذلك بحر المجتث الذي فطن إليه الوليد بن يزيد وكان أول من نظم عليه[1] وكما نرى في بعض أشعار عبيد الله بن قيس الرقيات وعمر بن أبي ربيعة الذي كان رقيقًا مرهف الحس، ومن هذا قوله في الغزل على بحر مجزوء الخفيف[2]:

ذَكَـــرَ القلـــبُ ذَكْـــرَةً ... مِـــن نســـاءٍ غرائـــبِ

رُبَّ لهـــوٍ لهوتُـــهُ ... بِجَـــوارٍ ربائـــبِ

لـــيسَ فـــي ذاكَ مَحـــرَمٌ ... وإلـــهِ المغـــارِبِ

وكان هذا مؤشرًا لبدء شيوع تلك الأوزان الخفيفة ذات الإيقاع السريع في العصر الأموي مع شيوع اللهو والترف وتماشيًا مع ذائقة المغنيين، ولكن مع هذا فقد ظلت البحور التقليدية ذات النفس والإيقاع الطويل هي الغالبة على معظم ذائقة الشعر الأموي إلى حدٍّ بعيدٍ؛ امتدادًا لحالة الشعر الجاهلي.

ويُعتبر الشعر في العصور الثلاثة الأولى من عصور الأدب مرجعًا لغويًّا مهمًّا لدى أغلب نقَّاد وعلماء اللغة؛ فقد ظل الشعر العربي في تلك العصور محافظًا على أصالته وجزالته وفخامته؛ نظرًا إلى استمرار غلبة الطابع البدوي والعربي على

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣/ ٣٧٤).

٢ ديوان عمر بن أبي ربيعة

الحضارة الإسلامية بشكل عامٍّ رغم انطلاق المدنيَّة، بالإضافة إلى أن سليقة العرب اللغوية وإن مسَّها بعض الفساد في العصر الأموي فقد ظلَّت قوية سليمة إلى أن جاء العصر العباسي ودخل على الشعر كثيرٌ من المولَّدين وفسدت السليقة والملكة اللغوية عند العرب؛ حينها عالج الشعراء العباسيون ومن تلاهم شعرهم بالصَّنعة فخسر الشعر العربي بعضًا من أصالته الجاهلية لكنه اكتسب على الجانب الآخر جوانب ثقافية وآفاقًا جديدة وأبعادًا فلسفية واسعة سنمر عليها عند حديثنا عن الشعر في العصر العباسي.

وهذا هو خلاصة الشعر الأموي وأحواله وخصائصه وسماته وأغراضه وملامحه الفنِّيَّة.

شعراء العصر الأموي

١- الأخطل

ترجمته:

هو أبو مالك غيَّاث ين غوث بن الصَّلْت التغلبي، من بني الفَدَوكس من تغلب، إحدى القبائل المتفرِّعة من ربيعة بن نزار، وهي قبيلة شهيرة لها أخبار شتَّى في الجاهلية؛ مِن بينها دخولها في حرب البسوس مع أبناء عمومتهم من بكر، وكان من أعلام تغلب كُليب والمهلهل ابنا ربيعة، والشاعر الشهير عمرو بن كلثوم الذي قتل عمرو بن هند ملك الحيرة، وقد شاعت النصرانية في هذه القبيلة، وبقي معظمهم على النصرانية حتى بعد الإسلام.

وُلِد الأخطل نحو عام ٢٠هـ/ ٦٤٠م، ونشأ في الجزيرة الفراتية، وكان على النصرانية مثل معظم قومه، وكان أبوه من وجوه تغلب، وقد فُجع في أمِّه ليلى الإيادية وهو صغير، فربَّته زوجة أبيه فأساءت تربيته وتعرَّض لقسوتها، وكانت تسترعيه إبلها وتبخل عليه بالكافي من القوت، فنشأ خبيث النفس سليط اللسان، مدمنًا للخمر، ساخطًا على وضعِه، فهجاها، أمَّا سبب تسميته بالأخطل فقد تعدَّدت الروايات فيه وملخَّصها أنه كان بينه وبين كعب بن جُعيل شاعر تغلب البارز حينها مهاجاة فسمَّاه بالأخطل؛ وهو يعني الفاحش أو السفيه، فغلب ذلك عليه.

وسبب شهرته أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري وعبد الرحمن ابن الحكم الأموي أخا مروان بن الحكم قد تهاجَيَا، ويبدو أن عبد الرحن بن حسان قد تعرَّض لبني أمية ولأخت يزيد رملة بن معاوية قائلًا فيها غزلًا فاحشًا، وهنا استدعى يزيد بن معاوية كعب بن بُجيل شاعر تغلب وطلب منه أن يهجو الأنصار للرَّدِّ عليه، فقال كعب: أرادِّي أنت إلى الإشراك بعد الإيمان؟! لا أهجو قومًا نصروا رسول الله ﷺ؛ ولكنِّي أدلُّك على غلامٍ منَّا نصراني، كأنَّ لسانه لسان

ثور؛ وهو يعني الأخطل، وقد أشار إليه بُغية الإيقاع به، فلمَّا استدعاه وطلب منه هجاءهم قال الأخطل: كيف أصنع بمكانهم؟! أخاف على نفسي وأفْرق من أمير المؤمنين؛ فقال يزيد: لا تَخَفْ شيئًا، لك ذمَّة أمير المؤمنين وذمَّتي؛ فقال الأخطل هاجيًا الأنصار[1]:

ذَهَبَتْ قُرَيشٌ بِالمَكارِمِ وَالعُلَا وَاللُّؤمُ تَحتَ عَمائِمِ الأَنصارِ
فَذَرُوا المَكارِمَ لَستُمُ مِن أَهلِها وَخُذُوا مَساحِيَكُم بَني النَجَّارِ

وغضب من هذا الهجاء كبار الأنصار، وكان من بينهم النعمان بن بشير، وله حظوة عند معاوية، فذهب إليه وألقى عمامته وقال: يا معاوية؛ هل ترى لؤمًا؟! قال: ما أرى إلا كرمًا؛ فشكاه الخبر، فقال: من بلغ ذلك منكم؟ فقال: غلام نصرانيٌّ؛ فقال معاوية: وما حاجتك؟ قال النعمان: لسانه؛ فكتب فيه معاوية أن يُؤتَى به، وهمَّ فعلًا بقطع لسانه، لكن يزيد تدخَّل وأجار الأخطل في ذمَّته، فقال معاوية: لا سبيل إلى ذمة يزيد؛ ثم عفا عنه بعدما تَرَضَّى الأنصار فيه، وكانت هذه الحادثة سببًا في شهرة الأخطل، وفي ذلك يقول الأخطل مادحًا يزيد ابن معاوية شاكرًا له إجارته[2]:

وَلَوْلَا يَزيدُ ابنُ المُلوكِ وَسَيْبُهُ تَجَلَّلتُ حِدْبارًا مِنَ الشَرِّ أَنكَدا
أبا خالِدٍ دافَعتَ عَنِّي عَظيمَةً وَأَدرَكتَ لَحمِي قَبْلَ أنْ يَتَبَدَّدا
وَأَطفَأتَ عَنِّي نارَ نُعمانَ بَعدَما أَغَذَّ لِأَمرٍ عاجِزٍ وَتَجَرَّدا

ومنذ ذلك الحين والأخطل ذو حظوة ومكانة عند بني أمية، وكانت تغلب موالية لبني أمية منذ البداية ووقفتْ مع معاوية يوم صفِّين مصطفَّة بذلك مع اليمنية ومخالفة أبناء عمومتها من قبائل قيس عيلان من مضر، ولمَّا اشتعلت الفتنة الأولى بين عبد الله بن الزبير وبني أمية وقفت تغلب مع بني أمية بينما اصطفت قيس عيلان مع ابن الزبير، وكان الصدام بينهما في موقعة مرج راهط التي انتصر

---

[1] انظر: ديوان الأخطل (ص٣٢٧).
[2] انظر: ديوان الأخطل (ص٢١٩).

فيها مروان بن الحكم الأموي ومن معه من اليمنية على جند ابن الزبير ومن معه من القيسيَّة، فاستتبَّ أمر الشام لمروان ومِن بعده لولده عبد الملك، وظلَّ الأخطل مع قبيلته تغلب يوالون بني أمية ويدعمون موقفهم أثناء تلك الفتنة، مخالفين أبناء عمومتهم من بطون قيس عيلان، حتى إن الجحَّاف بن حكيم السُّلمي قد أغار على تغلب عند ماء البشر فقَتَل منهم ثلاثة وعشرين وأسَرَ وبلغ منهم، ويُقال: إن الأخطل استجار حينها بالخليفة الأموي عبد الملك ملوِّحًا بانصراف تغلب عنه إن لم ينصفها، قائلًا له[1]:

لقَدْ أوقَعَ الجَحَّافُ بالبِشْرِ وَقْعَةً إلَى اللهِ مِنْها المشتَكَى والمُعَوَّلُ

فإلَّا تُغَيِّرْها قُرَيْشٌ بِمَلْكِها يَكُنْ عن قريشٍ مُستَمازٌ ومَرْحَلُ

وهرب الجحاف بعد تلك الموقعة إلى الروم مخافة غضب عبد الملك، ثم عاد بعدما وعده بالأمان على أن يؤدِّي حق الدماء التي سفكها، وتمكَّن بعدها من رأب الصَّدع بين الحيَّيْن.

وقد حَظِيَ الأخطل عند يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان، واختصَّ بمدح بني أمية وأمرائهم والثناء عليهم، مؤمنًا بأنهم أصحاب الحق في الخلافة، وكان عبد الملك بن مروان يقدِّمه، فجعله شاعر الخلافة واتَّخذه شاعرًا رسميًّا لنبي أميَّة، فعلا نجمه وذاع صيته.

وكان الأخطل مدمنًا للخمر وفي إدمانه ذلك روايات عدَّة؛ من بينها ما يُزعَم أنه كان يدخل على عبد الملك برداء وسلسلة من ذهب عليها صليب تنفض لحيته خمرًا.

ويُروَى أن عبد الملك عرض عليه أن يُسلِم قائلًا له: ألا تُسلِم فنفرض لك ألفين في عطائك وتُوصَل بعشرة آلاف درهم؟ فقال الأخطل: فكيف بالخمر؟ قال: وما تصنع بها وإنَّ أوَّلها لَمُرٌّ وإنَّ آخرها لسُكْرٌ؟! فقال الأخطل: أما إن قلت ذلك فإن فيما بين هاتين لمنزلةً ما مُلكُك فيها إلا كعلقة ماءٍ من الفرات بالأصبع!! فضحك

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٧٥).
٢ مستماز: انفصال وتنحي. مزحل: رحيل

عبد الملك، ويقال: إنه استنشده ذات مرة فقال: قد يبس حلقي فمُرْ من يسقيني؛ فقال: اسقوه ماء؛ فأبَى، فقال فاسقوه لبنًا؛ فأبَى، فقال: اسقوه عسلًا؛ فأبَى، فقال: فتريد ماذا؟ فقال: خمرًا يا أمير المؤمنين؛ فغضب عبد الملك وقال: أوعَهِدْتَني أسقي الخمر لا أُمَّ لك؟! لولا حُرمَتُك بنا لفعلتُ بك وفعلتُ؛ فخرج من عنده واستسقى فرَّاشًا لعبد الملك، ففعل وسقاه، ثم دخل على عبد الملك فأنشده ومدحه قائلًا[1]:

خَفَّ القَطِينُ فَراحوا مِنكَ وابتكَروا وأزعجتْهُم نَوًى في صِرْفِها غِيَرُ

فخلع عليه عبد الملك وأحسن جائزته وقال: إنَّ لكل قوم شاعرًا وإنَّ شاعر بني أمية الأخطل.

وكان عبد الملك يستعمله قائمًا بعمل السفارة لقومه، ويستغل شعره للرد به على شعر المناوئين له من مُضر وبطون قيس، وظل الأخطل على منزلته المرموقة مادحًا بني أمية ورؤساءهم وولاتهم في عهد عبد الملك ثم في أوائل عهد ولده الوليد، إلى أن مال الوليد عنه إلى عديّ بن الرقاع وكان معجبًا بشعره ومديحه فاتَّخذه شاعرًا رسميًّا للدولة ولبني أميَّة مكان الأخطل، فغربت شمس الأخطل ومال نجمه إلى الأفول وضعُف مديحه في الخليفة ولبني أمية، وكبرتْ سنُّه وفقَد عنفوانه وصار عُرضةً للخصومة والهجاء، فغادر بلاط الخلافة والتحق بقومه، وما لبث أن توفِّيَ نحو عام ٩٢هـ أو ٩٥هـ/٧١٢م وقد جاوز السَّبعين.

وقد اقتحم الأخطل عالم السياسة بشعره فمدح بني أمية عن عقيدة سياسية بحتة تقضي بأحقِّيَّتِهم بالخلافة، فلم يكن مدحًا لمجرد نيل العطاء فحسبُ، وكان قُطبًا من أقطاب شعر النقائض مع جرير والفرزدق، فدخل في هذا الإطار واصطفَّ مع الفرزدق على النحو الذي ذكرناه، فهجاه جرير هجاء عنيفًا معيِّرًا إيَّاه بالكفر والخنزير والسُّكر والصليب، وردَّ عليه الأخطل وكان في ردّه شيء من

---

[1] انظر: الأغاني، الأصبهاني (٦/ ٤١٤)، طبعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

الضعف لِكِبَر سنِّه، ومع هذا صمد له حتى توفِّيَ، وقد اعترف جرير بذلك قائلًا لابنه: أدركتُه وله نابٌ واحدٌ، ولو أدركتُه وله نابان لأكلني.

وهو واحد من الشعراء الثلاثة المقدَّمين في عصر بني أمية بلا جدال.

شعره:

الأخطل هو أحد الشعراء الثلاثة الأبرز في عصر بني أمية مع الفرزدق وجرير، ولم يقع الإجماع على تفضيل أحد منهم على صاحِبَيْه؛ ولكن النُّقَّاد أجمعوا على أن هؤلاء الثلاثة هم الشعراء الأبرز، وإنما جاء الإختلاف حول الذائقة والطبع؛ فأمَّا شعر الأخطل فقد امتاز برصانة اللفظ وجزالته وفخامته التي يتخلَّلها كثيرٌ من الألفاظ الغريبة والوعرة، ولا يخلو شعره كذلك من تخيُّر المعاني والصور والوصف الحسي، وهو يُحكِم عباراته الشعرية إحكامًا فريدًا في لباس من الفخامة والجلال.[1]

وضعه ابن سلَّام في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين مع جرير والفرزدق والراعي النميري، وهناك من كان يفضِّله على صاحِبَيْه، وقدَّمه سلمة بن عياش وحماد الراوية، وقال عنه أبو عمرو بن العلاء: لو أدرك الأخطل يومًا واحدًا في الجاهلية ما فضَّلتُ عليه أحدًا، وقال عنه الأصمعي: إنه كان يقول تسعين بيتًا ثم يختار ثلاثين فيطيرها، وسئل عنه جرير فقال: أما الأخطل فأشدُّنا اجتراء، وأرمانا للفرائص، وأوصَفُنا للحُمر والخَمر؛ وقال الفرزدق: الأخطل أمدَحُ العرب؛ وقال أبو عبيدة الرَّاوي: الأخطل أشبه بالجاهلية وأشدُّهم أسْرَ شعرٍ وأقَلُّهم سقطًا.[2]

وقد برع الأخطل في المديح فاختص بمدح بني أمية من خلفاء وأمراء فأجزلوا له الصلة، وبرع كذلك في الوصف حيث جرى على أسلوب التصوير الحسِّي الدقيق والاستدارات القصصية، وبرع كذلك في وصف الخمر فذكرها في شعره

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (ص٢٨٤).

٢ انظر: الأغاني، الأصبهاني (٨/ ٤٢٥).

وتضاعيف قصائده[1] وقد أبدع في وصفها وأسهب، وفي ديوان شعره وأخباره كثيرٌ من الشواهد على أنه كان مدمنًا للخمر ومحبًّا لها، شديد الولوع بها.

وكان له شيء من الهجاء كما رأينا في النقائض، لكنه كان أقلَّ بذاءة وفحشًا، و له شيء في الفخر النابع من اعتزازه بقبيلته تغلب وإن لم يستطع -لنصرانيته- أن يتخذ من شعائر الإسلام وسيلة للفخر، وقد أبدع في النسيب، وامتاز شعره بقوة أسلوبه وسلامة قصائده الطِّوال، واتَّصف بحسن التنقيح والرَّويَّة وسريانه على نهج القدامى؛ حيث لم يخرج كثيرًا في أساليبه ومعانيه وألفاظه عن نمط الشعر الجاهلي.

نماذج من قصائده:

- قال في قصيدة له بدأها بالنَّسيب ثم انتقل إلى الوصف وذِكر الخمر ثم ختَمها بامتداح قريش وعلى الأخصِّ بني أميَّة[2]:

تَغَيَّرَ الرَّسمُ مِن سَلمَى بِأَحفارِ ... وَأَقفَرَتْ مِن سُلَيمَى دِمنَةُ الدَّارِ

وَقَدْ تَكونُ بِها سَلمَى تُحَدِّثُني ... تَساقُطَ الحَلْيِ حاجاتي وَأَسراري

ثُمَّ استَبَدَّ بِسَلمَى نِيَّةٌ قُذُفٌ ... وَسَيرُ مُنقَضِبِ الأَقرانِ مِغيارِ

كَأَنَّ قَلبي غَداةَ البَينِ مُقتَسَمٌ ... طارَتْ بِهِ عُصَبٌ شَتَّى لِأَمصارِ

وَلَوْ تَلُفُّ النَّوَى مَنْ قَدْ تُشَوِّقُهُ ... إِذًا قَضَيتُ لُباناتِي وَأَوطاري

ظَلَّتْ ظِباءُ بَني البَكَّاءِ تَرصُدُهُ ... حتَّى اقتَنَصنَ عَلَى بُعدٍ وَإِضرارِ

وَمَهمَهٍ طامِسٍ تُخشَى غَوائِلُهُ ... قَطَعتُهُ بِكَلُوءِ العَينِ مِسهارِ

* * *

وَما بِزَمزَمَ مِن شُمطٍ مُحَلِّقَةٍ ... وَما بِيَثرِبَ مِن عَونٍ وَأَبكارِ

لَأَلجَأَتْني قُرَيشٌ خائِفًا وَجِلًا ... وَمَوَّلَتْني قُرَيشٌ بَعدَ إِقتارِ

المُنعِمونَ بَني حَربٍ وَقَدْ حَدَقَتْ ... بِيَ المَنِيَّةُ واستَبطَأتُ أَنصاري

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (ص٢٨٠- ٢٨٣).

٢ انظر: ديوان الأخطل (ص١٢٣).

٣ البَكَّاء: هو ربيعة بن عامر بن صعصعة.

بهـم تكشَّـفَ عَـن أَحيائِهـا ظُلَـمٌ ... حتَّـى تَكشَّـفَ عـنْ سَـمْعٍ وأبصـارِ
قَـومٌ إِذا حـارَبوا شَـدُّوا مَـآزِرَهُم ... عَـنِ النِّسـاءِ وَلَـوْ باتَـتْ بِأَطهـارِ

- وقال في قصيدة له يمدح عبد الملك بن مروان وبني أمية، ويُروَى أنه ظل حولًا كاملًا ينظم تلك القصيدة وما بلغ ما أراد، وقد بدأها بمقدمة طللية مزجها بوصف الخمر ثم استسرسل في مدح بني أمية والنَّيل من خصومهم والتحريض عليهم، وممَّا قال[1]:

خَـفَّ القَطِـينُ فَراحـوا مِنـكَ أَو بَكَـروا ... وَأَزعَجَـتْهُم نَـوًى فـي صِـرفِها غِيَـرُ
كَـأَنَّنِي شـارِبٌ يَـومَ اسـتُبِدَّ بِهِـم ... مِـن قَرقَـفٍ ضُـمِّنَتْها حِمـصُ أَو جَـدَرُ
جـادَتْ بِهـا مِـن ذَواتِ القـارِ مُترَعَـةٌ ... كَلفـاءُ يَنحَـتُّ عَـن خُرطومِهـا المَـدَرُ
لَـذٌّ أَصـابَتْ حُمَيَّاهـا مَقاتِلَـهُ ... فَلَـمْ تَكَـدْ تَنجَلـي عَـن قَلبِـهِ الخُمَـرُ
كَـأَنَّني ذاكَ أَو ذو لَوعَـةٍ خَبَلَـتْ ... أَوصـالَهُ أَو أَصـابَتْ قَلبَـهُ النُّشَـرُ

* * *

بَنـي أُمَيَّـةَ نُعمـاكُم مُجَلِّلَـةٌ ... تَمَّـتْ فَـلا مِنَّـةٌ فيهـا وَلا كَـدَرُ
بَنـي أُمَيَّـةَ قَـدْ ناضَـلْتُ دونَكُـمُ ... أَبنـاءَ قَـومٍ هُـمُ آوَوْا وَهُـمْ نَصَـروا
أَفحَمتُ عَنكُم بَني النَجَّارِ قَد عَلِمَتْ ... عُلْيَـا مَعَـدٍّ وَكـانُوا طالَمـا هَـدَروا
حتَّى استَكانُوا وَهُم مِنِّي عَلَى مَضَضٍ ... وَالقَـولُ يَنفُـذُ مـا لا تَنفُـذُ الإِبَـرُ
بَنـي أُمَيَّـةَ إِنِّـي ناصِـحٌ لَكُـمُ ... فَـلا يَبيـتَنَّ فـيكُم آمِنًـا زُفَـرُ
وَاتَّخِـذُوهُ عَـدُوًّا إِنَّ شـاهِدَهُ ... وَمـا تَغَيَّـبَ مِـن أَخلاقِـهِ دَعَـرُ
إِنَّ الضَّـغينة تَلْقاهـا وإِنْ قَـدُمَتْ ... كـالعِرّ يَكمـنُ حينًـا ثـم يَنتشِـرُ
وقَـدْ نُصِـرتَ أميـرَ المـؤمنينَ بِنـا ... لمَّـا أتـاكَ بِـبَطنِ الغُوطـةِ الخَبَـرُ

* * *

فَـلا هَـدَى اللهُ قَيسًـا مِـن ضَـلالَتِهِم ... وَلا لَعَـا لِبَنـي ذَكـوانَ إِذْ عَثَـروا
ضَجُّوا مِنَ الحَربِ إِذْ عَضَّتْ غَوارِبَهُم ... وَقَـيسُ عَـيلانَ مِـن أَخلاقِهـا الضَّـجَرُ

---

١ انظر: ديوان الأخطل (ص١٤٤- ١٥٦).

كــانوا ذَوي إمَّــةٍ حتَّــى إذا عَلِقَــتْ بِهِــم حَبائِــلُ لِلشَّــيطانِ وَابتَهَــروا

- وقال في قصيدة يمدح خالد بن عبد الله الأموي[1]:

سَـقَى اللهُ أَرضًـا خالِـدٌ خَيـرُ أَهلِهـا بِمُســتَفرِغٍ باتَــتْ عَزاليــهِ تَسْــحَلُ
إِذا طَعَنَتْ رِيـحُ الصَّبا فـي فُروجِـهِ تَحَلَّــبَ رَيَّــانُ الأَســافِلِ أَنجَــلُ
إِذا زَعزَعَتْــهُ الــرِّيحُ جَــرَّ ذُيولَــهُ كَمــا زَحَفَــتْ عُــوذٌ ثِقــالٌ تُطَفِّــلُ

---

١ انظر: ديوان الأخطل، شرح مهدي محمد ناصر الدين، طبعة: دار الكتب العلمية (ص٢٢٩).

٢- الفرزدق

ترجمته:

هو أبو فراس همَّام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عِقال بن محمد ابن سُفيان بن مجاشع بن دارم، من أقوى بطون تميم وأعزّها، وقد لُقِّب بالفرزدق –أي: الرَّغيف الضخم- لغلظة وجهه وجهامته، وجدَّته لأبيه ليلى بنت حابس أخت الأقرع بن حابس، وُلِد في البصرة نحو ٢٠هـ/ ٦٤١م، وهو من بيت عز وشرف ورفعة؛ فجدُّه صعصعة بن ناجية كان عظيم القدر في الجاهلية، اشترى ثلاثين موؤودة في الجاهلية إنقاذًا لهن من الموت؛ منهن بنتٌ لقيس بن عاصم المنقري، ثم أتى وولدُهُ النَّبيَّ ﷺ فأسلم[١] وقيل في رواية: بل إنَّه فدى ثلاثمائة أو أربعمائة موؤودة[٢]

وكانت البصرة آنذاك نقطة الالتقاء بين البدو والحضر وكانت تشهد نهضة أدبية وشعرية ولغوية، فنشأ الفرزدق في هذا الجو الثقافي وكان معتزًّا بنفسه مفتخرًا بقبيلته مزهوًّا بأمجادها، وظهر شعره في سنٍّ باكرة، حتى إنَّ أباه أتى به إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب بعد موقعة صفّين مفتخرًا به كي ينشده، فأوصاه أمير المؤمنين عليٌّ بأن يحفظ القرآن فهو خيرٌ له، فحَفِظَه، ولكنَّه كان على الجانب الآخر قد نشأ خبيث النفس ضعيف الدِّين مقبلًا على الفسق واللَّهو .

وقد حدثت مهاجاة بينه وبين الأشهب بن رميلة النهشلي فشكاه إلى زياد بن أبيه وكان عاملًا على البصرة زمن معاوية، فطلبه، ففرَّ الفرزدق إلى البادية وأجاره شيوخ من قوم بكر بن وائل، ثم ذهب إلى المدينة المنورة وكان عليها سعيد ابن العاص فأمَّنه وأجاره وكانت له فيه عدة مدائح، وكان اللَّهو منتشرًا في المدينة وهو ما يحبُّه الفرزدق، حتى إذا تولَّى المدينة مروان بن الحكم وكان صارمًا شديدًا

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٦٢).
٢ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٢١/ ١٨٠- ١٨٣).

على أصحاب اللَّهو؛ غادر الفرزدق المدينة إلى مكة، ثم بلغه نبأ وفاة زياد وعاد إلى البصرة.

وما تلبث أن تشتعل الفتنة بين الزبيريين والأمويين ودخلت العراق وقتها في سلطان عبد الله بن الزبير، فيتصل الفرزدق ببعض عمال ابن الزبير ويمدحهم، ثم اشتعل صراع النقائض بينه وبين جرير فاختص بمهاجاة جرير والرَّدِّ عليه، واستعمل الفرزدق كل ما بوسعه من فُحش ونقيصة وخبث وقذفٍ للمحصنات، لكنه لم يغلبه ولم يسقطه واستمر الهجاء بينهما نحو خمسين عامًا دون أن يغلب أحدهما الآخر، حتى مال الفرزدق إلى الكفِّ وتنسَّك في أواخر حياته.

ولما استتبَّ الأمر لبني أميَّة؛ نجده يتصل بخلفائهم وعمَّالهم من جديد فمدح الخلفاء من أبناء عبد الملك بن مروان، ولما تولَّى العراق خالد بن عبد الله القسري من قِبَلِ هشام وكانت أمُّه نصرانية وابتنى من أجلها كنيسة في الكوفة، فسخر منه الفرزدق وهجاه قائلًا[1]:

ألا قطـعَ الـرَّحمنُ ظَهْـرَ مَطِيَّـةٍ أَتَتْنـا تَمَطَّـى مِـن دمشـق بِخالـدِ

وكيـفَ يَـؤُمُ المسـلمِينَ وأمُّـهُ تَـدِينُ بـأنَّ اللهَ لـيسَ بِواحِـدِ

بَنَـى بِيعـةً فيهـا الصَّـلِيبُ لأُمِّـهِ وهـدَّمَ مِـنْ كُفـرٍ مَنـارَ المَسـاجِدِ

ثم ما لبث أن هجاه مرة أخرى حينما شقَّ نهر المبارك قائلًا:

أهلكْـتَ مـالَ اللهِ فـي غيـرِ حقِّـهِ علَـى النَّهَـرِ المَشؤومِ غيـرِ المُبـارَكِ

فأمر خالد عامله على شرطة البصرة مالك بن المنذر بن الجارود فحبسه زمنًا إلى أن حجَّ خالد واستخلف أخاه أسدًا على العراق وشفع له نفرٌ، فيهم خصمُه جريرٌ، فأطلقه.

وكان الفرزدق ضعيفًا في دِينِه، سيِّئًا في سيرته، حتى إنَّه احتال فتزوَّج النُّوار بنت أعين بن ضبيعة المجاشعي وكان قد خطبها رجل من قريش، فجعلته النوار وليًّا لها باعتباره ابن عمِّها، وأشهدتْ على ذلك، ولكن الفرزدق احتال وقال للشهود:

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٢١/ ٢٠٥).

قد أشْهَدَتْكم أنها قد جعلت أمرها إليَّ، وإني أُشهِدُكم أني قد تزوجتُها على مئة ناقة حمراء سوداء الحدق؛ فلمَّا علمت النوار بذلك غضبت غضبًا شديدًا وقد خدعها، وظلَّت تحتَه زمنًا تصالحه تارة وتخاصمه أخرى، وكانت امرأة صالحة، ثم ما لبث أن تزوَّج الفرزدق بحدراء بنت زيق بن بسطام الشيباني، فاستعدت عليه النوار خصمه اللَّدود جريرًا، فتَهاجَيَا بسببها، ويُقال: إنها ذهبت إلى خولة بنت منظور زوجة عبد الله بن الزبير وطلبتْ منها معونتها، بينما ذهب الفرزدق إلى حمزة بن عبد الله بن الزبير -وهو لخولة- وسعى عنده، ولكن غلب عليه سعيُ خولة، فطُلِّقت النوار من الفرظدق، وتُوفِّيَت بالبصرة وصلَّى عليها الحسن البصري[1]، ويُروَى أن الفرزدق ندم على تطليقها، وكان الفرزدق مزواجًا؛ إذْ تزوَّج رُهيمة أو جُهيمة النُّميرية وحدراء الشيبانية وظبية بنت حالم المجاشعية[2].

وقد توفِّيَ الفرزدق عام ١١٠هـ[3] وكان قد تنسَّك في أواخر عهده وندم على الإفراط في اللهو وكفَّ عن الهجاء، فلما بلغ موته جريرًا؛ حزن على موته مع ما كان بينهما من عداوة، فرثاه قائلًا[4]:

بَكَينــاكَ حِــدْثانَ الفِــراقِ وإنَّمــا بَكَينــاكَ إذْ نابَــتْ أمُــورُ العَظــائمِ
فـلا حَمَلَـتْ بَعدَ ابـنِ ليلَـى مُهَيـرَةٌ ولا شُـدَّ أنسـاعُ المطِـيِّ الرَّواسِـمِ

شعره:

شعر الفرزدق صلب البُنْية، قوي العبارة، بدوي السمت، جاهلي الطبع، جزل اللفظ، وعر القوافي، متين الأسلوب، لا يكاد يظهر فيه أي أثر للمدنيَّة، وللإسلام في شعره أثر قليل، وشعره يمتاز بنزعة جاهلية واضحة سواء في غلظة

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، شرح: مفيد قميحة ومحمد أمين الصناوي، طبعة: دار الكتب العلمية (ص٢٩٦).

٢ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، طبعة دار صادر، لبنان- بيروت، (٢١/ ٢٠١-٢٢٣).

٣ انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٩/ ٢٩٣).

٤ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٧٢).

٥ النسع: سير من الجلد عريض تشد به الرحال. الرواسم: الجمال السائرة

لفظه الجزل الذي لا يخلو من الوعورة والغريب أحيانًا، أو في معانيه وأوصافه البدوية، وقد بلغ من أهمية شعره ودرجة تقاربه من شعر الجاهلية أن قال فيه أبو عبيدة: لولا شعره لذهب ثلث شعر العرب؛ وقد وضعه ابن سلَّام في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين مع جرير والأخطل بالإضافة إلى الراعي وقال: كان الفرزدق أكثرهم بيتًا مقلَّدًا، والمقلَّد هو البيت المستغني المشهور الذي يُضرَب به المثل؛ ويقال: لأنه أنشد يومًا أمام سعيد بن العاص لما كان في المدينة فأعجب بشعره الحُطيئة وقدَّمه، فقال له كعب بن جُعَيل: فضِّله على نفسك ولا تفضِّله على غيرك؛ فقال: بلى والله؛ أفضِّله على نفسي وعلى غيري[1] وقال أبو عمر ابن العلاء: كان الفرزدق يُشبَّه (من شعراء الجاهلية) بزُهير[2]

وشعر الفرزدق امتداد للشعر الجاهلي إلى حدٍّ بعيد في أغلب خصائصه وسماته، مع ملاحظه أنه في بعض الأحيان كان لا يبدأ بالمقدمة الطللية، وأما أغراضه فهي عموم أغراض الشعر الجاهلي من الفخر والهجاء والمديح والوصف والغزل، فأما الفخر فكان له النصيب الأوفر من الإبداع وكان فيه أبرع شعراء عصره؛ فبَيتُه كان بيت عزٍّ وكرم وشرف ورفعة، وكان الفرزدق في فخره واسع الأفق، شديد اللهجة، وأما الهجاء فكان لاذعًا مفحشًا، ولا سيَّما ما كان منه تجاه جرير، لكنه كان أقل من جرير في الهجاء، لذا فقد كان يميل أن يمزج هجاءه بالفخر والمقارنة، فيذكر رفعة آبائه وأفضالهم ومكارمهم ليباعد ويرتفع بهم ويبيِّن حقارةَ مَن أمامه، وأما في الوصف فيغلب عليه الطابع البدوي والحسِّي مِن ذكر البادية ومظاهرها، ويمتاز فيه بالدقة وحسن التصوير, وله شيء من المديح فمدح بني أميه وولاتهم وكان في مدحة غلوٌّ ومداهنة وتلوُّن وإحساسه في المديح كان متقلِّبا مضطربًا يخلو من صدق العاطفة؛ إذْ نراه يمدح آل الزبير ثم ينقلب عليهم بعد زوال دولتهم، ويمدح الحجاج بن يوسف حينما يتولى العراق خوفًا واتقاء إلى أن تُوفِّيَ الحجاج فرثاه ثم هجاه، ونراه كذلك يهجو

---

١ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٢/ ٣٢١- ٣٢٢).
٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ١٤٤).

آل المهلب ثم يمدحهم ثم يهجوهم من جديد حينما نُكِبوا، وكذلك كان يفعل مع ولاة العراق كعمر بن هبيرة وخالد القسري؛ يمدحهم ثم يهجوهم، وله في هشام ابن عبد الملك مديح وهجاء، وأما غزله ففيه بهاء وروعة ولكن يغلب عليه غلظة طبعه ولغته الصلبة[1].

وقد أسهب الناس في المقارنة بينه وبين جرير ولم يجتمع مجلس في الشعر إلا واختلف فيهما، والنقاد يرون أن الفرزدق في فخره وقوَّة أسلوبه وجزاله لفظه وبداوة معانيه أعلى كعبًا من جرير، أما جرير فإنه يتفوَّق على الفرزدق في هجائه وفي ليونة وسهولة لفظه وسلاسة قوافيه، حتى صحَّ فيهما قول ولد الأخطل: إن الفرزدق ينحت في صخرٍ، وجرير يغرف من بحر؛ كناية عن أن الفرزدق معانيه تمتاز بالصلابة والخشونة والقوة، أما شعر جرير فقد كان أرقَّ معنًى، وكان سلس القوافي سهل اللفظ عن الفرزدق، لذا نجد أن أهل اللغة الذين يفضِّلون اللفظ الغريب الجزل وعمق اللغة ويميلون إلى الرُّوح الجاهلية والبدوية يفضِّلون الفرزدق على جرير؛ لأنَّ شعره غني بتلك المعاني والأفكار والأساليب.

نماذج من قصائده:

- قال في قصيدة له يرثي امرأته حدراء التي ماتت قبل أن تُزفَّ إليه[2]:

عَزَفتَ بِأَعشاشٍ وَما كِدتَ تَعزِفُ ... وَأَنكَرتَ مِن حَدْراءَ ما كُنتَ تَعرِفُ

وَلَجَّ بِكَ الهُجرانُ حتَّى كَأَنَّما ... تَرَى المَوتَ في البَيتِ الَّذي كُنتَ تَأَلَفُ

لَجاجَةُ صُرمٍ لَيسَ بِالوَصلِ إِنَّما ... أَخو الوَصلِ مَن يَدنُو وَمَن يَتَلَطَّفُ

وَمُستَنفِزاتٍ لِلقُلوبِ كَأَنَّها ... مَهًا حَولَ مَنتوجاتِهِ يَتَصَرَّفُ

تَراهُنَّ مِن فَرْطِ الحَياءِ كَأَنَّها ... مِراضُ سُلالٍ أَو هَوالِكُ نُزَّفُ

* * *

دَعَوتُ الَّذي سَوَّى السَّماءَ بِأَيدِهِ ... وَلَلَّهُ أَدنَى مِنْ وَرِيدِي وَأَلطَفُ

---

[1] انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (ص٢٩٢- ٢٩٦).

[2] انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٦٩٤- ٧١١). وانظر ديوانه.

لِيَشـــغَلَ عَنِّـــي بَعلَهـــا بِزَمانَـــةٍ ... تُدَلِّهُـــهُ عَنِّـــي وَعَنْهـــا فَنُســـعَفُ
بِمـا فـي فُؤادَيْنـا مِـنَ الهَـمِّ وَالهَـوى ... فَيُجبَـرُ مُنهـاضُ الفُـؤادِ المُسَـقَّفُ
فَأَرسَـلَ فـي عَينَيـهِ مـاءً عَلاهُمـا ... وَقَـدْ عَلِمـوا أَنِّـي أَطَـبُّ وَأَعـرَفُ
فَداوَيتُـهُ حـولَينِ وَهْـيَ قَريبَـةٌ ... أَراهـا وَتَـدنُو لـي مِـرارًا فَأَرشُـفُ
سُـلافَةَ دجْـنٍ خالَطَتهـا تَرِيكَـةٌ ... عَلـى شَـفَتَيها وَالـذَّكِيُّ المُسَـوَّفُ
أَلا لَيتَنـا كُنَّـا بَعيـرَينِ لا نَـرَى ... عَلـى مَنهَـلٍ إِلَّا نُشَـلُّ وَنُقـذَفُ

- وقال في قصيدة هي أروع ما قال في الفخر، وفيها يذكر مفاخر قبيلته وعددًا من أعلامها وأبطالها، ويرد على جرير يهجوه[1]:

إِنَّ الَّـذي سَـمَكَ السَّـماءَ بَنـى لَنـا ... بَيتًـا دَعائِمُـهُ أَعَـزُّ وَأَطـوَلُ
بَيتًـا بَنـاهُ لَنـا المَليـكُ وَمـا بَنَـى ... حَكَـمُ السَّـماءُ فَإِنَّـهُ لا يُنقَـلُ
بَيتًـا زُرارَةُ مُحتَـبٍ بِفِنائِـهِ ... وَمُجاشِـعٌ وَأَبُـو الفَـوارِسِ نَهشَـلُ
يَلِجـونَ بَيـتَ مُجاشِـعٍ وَإِذا احتَبَـوْا ... بَـرَزوا كَـأَنَّهُمُ الجِبـالُ المُثَّـلُ
لا يَحتَبِـي بِفِنـاءِ بَيتِـكَ مِـثلُهُم ... أَبَـدًا إِذا عُـدَّ الفَعـالُ الأَفضَـلُ
مِـن عِـزِّهِم جَحَـرَتْ كُلَيـبٌ بَيتَهـا ... زَربًـا كَـأَنَّهُمُ لَدَيـهِ القُمَّـلُ
ضَـرَبَتْ عَلَيـكَ العَنكَبـوتُ بِنَسْـجِها ... وَقَضَـى عَلَيـكَ بِـهِ الكِتـابُ المُنـزَلُ
أَيـنَ الَّـذينَ بِهِـم تُسـامي دارِمًـا ... أَم مَـن إِلـى سَـلَفَيْ طُهَيَّـةَ تَجعَـلُ
يَمشونَ في حَلَقِ الحَديدِ كَما مَشَتْ ... جُـربُ الجِمـالِ بِهـا الكُحَيـلُ المُشـعَلُ
وَالمـانِعُونَ إِذا النِّسـاءُ تَرادَفَـتْ ... حَـذَرَ السِّـباءِ جِمالُهـا لا تُرحَـلُ

* * *

أَحلامُنـا تَـزِنُ الجِبـالَ رَزانَـةً ... وَتَخالُنـا جِنًّـا إِذا مـا نَجهَـلُ
فَـادفَعْ بِكَفِّـكَ إِنْ أَرَدتَ بِناءَنـا ... ثَهـلانَ ذا الهَضَـباتِ هَـلْ يَتَحَلحَـلُ
وَأَنـا ابـنُ حَنظَلَـةَ[2] الأَغَـرُّ وَإِنَّنـي ... فـي آلِ ضَـبَّةَ لَلْمُعَـمُّ المُخـوَلُ

---

١ انظر: ديوان الفرزدق (ص٤٨٩- ٤٩٥).
٢ حنظلة وضبة أجداد الشاعر.

فرعـانِ قَـدْ بَلَـغَ السَّـماءَ ذُراهمـا وإليهمـا مِـن كـلِّ خـوفٍ يُعقَـلُ
فلـئنْ فَخَـرْتُ بهـم لمثـلِ قَـدِيمِهم أعلُـو الحُـزُونَ بـهِ ولا أتَسَـهَّلُ

- وقال في قصيدةٍ يمدح الجنيد بن عبد الرحمن المري أحد عمال بني أمية وولاة خراسان[1]:

صُـلْ يـا جُنَيـدَ الخَيـرِ لِلَّهِ صَـولَةً وَأَقـرِرْ عُيونًـا مـا يَجِـفُّ سِـجامُها
فَقَـدْ فَضَّـلَ اللهُ الجُنَيـدَ وَفُضِّـلَتْ يَـداهُ علَـى الأَيـدي الطِّـوالِ اهتِضـامُها
وَمـا غَضِـبَتْ لِلَّهِ أَيـدِي قَبيلَـةٍ عَلـى مُشـرِكٍ إِلَّا الجُنَيـدُ حُسـامُها
وَلا ذُكِـرَتْ عِنـدَ المُلـوكِ قَمـاقِمٌ بِفَضـلِ نَـدًى إِلَّا الجُنَيـدُ هُمامُهـا

- وقال في قصيدة يهجو يزيد بن المهلب إثْر مقتله على أيدي جيش مَسلَمَة ويمدح مسلمة بن عبد الملك ذاكرًا انتصاره عليه[2]:

كَيفَ تَرَى بَطْشَةَ اللهِ الَّتي بَطَشَتْ بِـابْنِ المُهَلَّـبِ إِنَّ اللهَ ذو نِقَـمِ
قـادَ الجِيـادَ مِـنَ البَلقـاءِ مُنقَبِضًـا شَـهرًا تَقَلقَـلُ فـي الأَرسـانِ وَاللُّجـمُ
حَتَّـى أَتَـتْ أَرضَ هـاروتٍ لِعاشِـرَةٍ فيهـا ابـنُ دَحْمَـةَ فـي الحَمـراءِ كـالأَجَمِ
لَمَّـا رَأَوْا أَنَّ أَمـرَ اللهِ حـاقَ بِهِـم وَأَنَّهُـم مِثـلُ ضُـلَّالٍ مِـنَ الـنَّعَمِ
فَأَصـبَحوا لا تُـرَى إِلَّا مَسـاكِنُهُم كـأَنَّهُم مِـن ثَمـودِ الحِجْـرِ أو إِرَمِ
كَـم فَـرَّجَ اللهُ عنَّـا كَـرْبَ مُظلِمَـةٍ بِسَـيفِ مَسـلَمَةَ الضَّـرَّابِ لِلـبُهَمِ

---

١ انظر: ديوان الفرزدق (ص٥٨١).
٢ انظر: المصدر السابق (ص٥٦٩- ٥٧٠).

٣- الرَّاعي النُّمَيري

ترجمته:

هو عبيد بن حُصَين بن معاوية بن جندل، من بني الحارث بن نُمير بن عامر ابن صعصعة، من هوازن إحدى قبائل قيس عيلان، غلب عليه لقب الرَّاعي لأنه كان يرعى إبله، وقِيل: بل لكثره وصفِه للإبل وحُسن نعته إيَّاها؛ وقيل: اسمه حصين ابن معاوية؛ والأول أشهر[١] ويُكنى بأبي جندل، وهو شاعر فحل من شعراء الإسلام.

وكان الرَّاعي النُّميري سيِّدًا في قومه وكانت قبيلته بيت شرف ورئاسة في الجاهلية والإسلام، وكان أبوه أو جدُّه يُسمَّى في الجاهلية معاوية الرئيس، مدح أوَّلًا يزيد ابن معاوية ثم ظهر به ميلٌ لابن الزبير؛ شأنه شأن قبائل قيس عيلان، وبعد زوال دولته اتصل ببني أميَّة من جديد فمدح بشر بن مروان، ووفَد كذلك على أخيه الخليفة عبد الملك غير مرَّة فمدحه ولكن لم يحظَ عنده في البداية؛ لسابق ميله لابن الزبير، إلى أن رضيَ عنه بعد ذلك[٢] وكان شاعرًا مُقدَّمًا من شعراء عصره حتى وقع الهجاء بينه وبين جرير، وكان سبب عدائه أنه كان يفضِّل الفرزدق ويقدِّمه، فقال جرير لمن حوله: ألا تعجبون لهذا الرجل الذي يقضي للفرزدق عليَّ ويفضله وهو يهجو قومه وأنا أمدحهم؟! ويُقال: إنه صار إليه ولَقِيَه فاستكفَّه وطلب منه أن يكون على الحياد فلم يرُدَّ عليه حتى لحِق به ولده جندل وقال لأبيه: أراك واقفًا على كلب بني كُليب كأنك تخشى منه شرًّا أو ترجو منه خيرًا!!، ثم ضرب بغلته ضربة شديدة فنفرت وسقطت قلنسوة جرير، فأخذها ومسحها، وقال الراعي لولده: أما واللهِ لتكونَنَّ فعْلة مشؤومة عليك، وليهجُوَنِّي وإيَّاك فليته لا يجاوزنا ولا يذكر نِسوتَنا؛ وبالفعل اعتزم جرير الرَّدَّ فكان منه ما كان من ذهابه إلى سوق المربد وهجائه للراعي في قصيدته البائية

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٠٤)؛ الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٢٤/ ٣٢٣).

٢ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٢/ ٥٠٦- ٥١١).

الشهيرة التي عُرفت بالدامغة التي قال فيها: (وغُضَّ الطَّرفَ إنَّكَ مِن نُميرٍ)، فلمَّا بلغ ذلك الراعي غادر مجلسه في المربد وقد غلبه الصَّغار والعار وقال لأصحابه: رِكابَكم رِكابَكم؛ فليس لكم اليوم هاهنا مقام، فضحكم واللهِ جريرٌ!! ثم غادر مجلسه وارتحل إلى ديار قومه وقد تشاءموا منه وكانوا يقولون له: هذا شؤمك وشؤم جندل ابنك؛ ولم يستطع عبيدٌ الراعي الرَّدَّ على جرير بعدما غلبه وهدم قبيلته، وقد أقرَّ الراعي بغلبة جرير عليه وكان يحاول الاعتذار لقومه قائلًا: أَأُلامُ أن يغلبني هذا؟! والله لو اجتمع الجن والإنس على صاحب هذين البيتين ما أغنَوْا شيئًا؛ يقصد قول جرير:

وعاوٍ عَوَى مِن غيرِ شيءٍ رميتُهُ بقافيةٍ أنفاذُها تَقْطُرُ الدَّما

خَرُوجٌ بأفواهِ الرُّواةِ كأنَّها قِرا هندوانيٍّ إذا هو صمَّما

والبيتان لجرير في هجاء البعيث[1]

وتزعم نُميرٌ أنَّ الراعي لم يعجز؛ بل أقسم ألا يجيبه سنةً؛ غضبًا على ولده، فلم يحلْ عليه الحَولُ حتى مات؛ وقال غيرهم: بل مات كمدًا؛ وكانت وفاته نحو عام ٩٠هـ/ ٧٠٩م.

شعره:

شعر الراعي حسن السَّبك، متين رائق الأسلوب، رائع النغم، يغلب عليه صفاء الطابع البدوي، سواء في لغته أوْ في معانيه، وقد أبدع الراعي في وصف الحياة البدوية وما فيها من مظاهر الصحراء والخيام وذِكر الصّبا ورعيِ الإبل والصيد وحياة الحيوانات والليل والسماء والرَّكب، ومن هذا قوله[2]:

وفِي الخيامِ إذا ألقَتْ مَراسِيها حُورُ العُيونِ لإخوانِ الصِّبا صُيُدُ

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٨/ ٢٣٣).

٢ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٢٤٠).

وله مديح جيد وشيءٌ من الفخر، وقد أبدع في افتتاح مطالع قصائده بالنسيب والبكاء على الأطلال وكان يطيل القصيد ويسترسل في عاطفته، وقد تعرَّض الراعي في الهجاء لعددٍ من خصومه ولم يغلبه غير جرير.

وقد وضعه ابن سلَّام في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين مع جرير والفرزدق والأخطل، وقيل فيه: إنه كان يعتسف الفلاة بغير دليل؛ أي: لا يحتذي شعر شاعر ولا يعارضه[1] وهو شاعر مُقدَّم من أشعر شعراء عصره فنًّا وأسلوبًا، ولكن حطَّ قليلًا من قدره عداؤه مع جرير وهجاؤه إياه.

نماذج من قصائده:

- قال في قصيدة يمدح فيها عبد الملك بن مروان وقد بدأها بمقدمة طليلية، وأخذ يعتذر للخليفة عن ميله لآل الزبير وسِواهم من خصوم بني أمية، ثم أخذ يشكو ظلم بعض ولاته[2]:

مـا بـالُ دَقِّـكَ بِـالفِراشِ مَـذِيلا ... أَقَـذًى بِعَينِـكَ أَمْ أَرَدتَ رَحِـيلا
لَمَّـا رَأَتْ أَرَقِـي وَطُـولَ تَلَـدُّدي ... ذاتَ العِشـاءِ وَلَيلِـيَ المَوصُـولا
قالَـت خُلَيـدَةُ مـا عَـراكَ وَلَـمْ تَكُـنْ ... أبـدًا إذا عَـرَتِ الشُّـؤونُ سَـؤولا

* * *

أَبلِـغْ أَميـرَ المُـؤمِنينَ رِسـالَةً ... تشـكو إِلَيـكَ مَضَـلَّةً وَعَـويلا
طـالَ التَقَلُّـبُ وَالزَّمـانُ وَرابَـهُ ... كَسَـلٌ وَيَكـرَهُ أَن يَكـونَ كَسـولا

* * *

إِنِّـي حَلَفْـتُ علَـى يَمـينٍ بَـرَّةٍ ... لا أَكـذِبُ اليَـومَ الخَليفَـةَ قِـيلا
مـا زُرتُ آلَ أَبـي خُبَيـبٍ[3] طائعًـا ... يَومًـا أُريـدُ لِبَيعَتـي تَبـديلا
ولمَّـا أَتَيـتُ نُجَيـدَةَ بـنَ عُـوَيمِرٍ[4] ... أَبغـي الهُـدَى فَيَزيـدُني تَضـلِيلا

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٢٤- ٣٢٨).
٢ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٧٢٩- ٧٤٣).
٣ أبو خبيب: يعني عبد الله بن الزبير.
٤ نجدة بن عويمر أحد قادة الخوارج.

مِن نِعمَةِ الرَّحمَنِ لا مِن حيلَتي ... إنِّي أَعُدُّ لَهُ عَلَيَّ فُضُولا
وشَنِئتُ كلَّ منافقٍ متقلِّبٍ ... تَرَكَ الزَّلازلُ قلبَهُ مَدْخُولا

* * *

أخليفةَ الرَّحمنِ إنَّ عشيرتي ... أمسَى سَوامُهُمُ عُرِينَ فلُولا
قومٌ على الإسلامِ لمَّا يَتْرُكُوا ... ماعُونَهُم ويُضَيِّعوا التَّهلِيلا

* * *

أنتَ الخليفةُ عدلُهُ ونَوالُهُ ... وإذا أردتَ لِظالمٍ تَنكِيلا
فارفَعْ مَظالِمَ عيَّلَتْ أبناءَنا ... عنَّا وأنقَذَ شِلْوَنا المَأكولا
فنَرَى عطيَّةَ ذاك إنْ أعطيتَهُ ... مِن ربِّنا فضلًا ومِنكَ جَزِيلا
إنَّ الذينَ أمرْتَهم أنْ يَعدِلوا ... لَمْ يَفعلُوا ممَّا أمرْتَ فَتِيلا

- وقال في قصيدة أخرى يمدح فيها عبد الملك بن مروان ويشكو كذلك بعض عماله[1]:

إنَّ الخِلافَةَ مِن رَبّي حَباكَ بِها ... لَم يُصْفِها لَكَ إلّا الواحِدُ الصَّمَدُ
القابِضُ الباسِطُ الهادي لِطاعَتِهِ ... في فِتنَةِ النَّاسِ إذ أَهواؤُهُم قِدَدُ
أَمرًا رَضيتَ لَهُ ثُمَّ اعتَمَدتَ لَهُ ... واعلَمْ بِأَنَّ أَمينَ اللهِ مُعتَمَدُ
واللهُ أَخرَجَ مِن عَمياءَ مُظلِمَةٍ ... بِحَزمِ أَمرِكَ وَالآفاقُ تَجتَلِدُ
فَأَصبَحَ اليَومَ في دارٍ مُبارَكَةٍ ... عِندَ المَليكِ شِهابًا ضَوؤُهُ يَقِدُ
وَنَحنُ كَالنَّجمِ يَهوي مِن مَطالِعِهِ ... وَغوطَةُ الشَّامِ مِن أَعناقِنا صَدَدُ
نَرجو سِجالًا مِنَ المَعروفِ تَنفَحُها ... لِسائِليكَ فَلا مَنٌّ وَلا حَسَدُ
ضافي العَطِيَّةِ راجيهِ وَسائِلُهُ ... سَيَّانِ أَفلَحَ مَن يُعطِي وَمَنْ يَعِدُ
أَنتَ الحَيا وَغِياثٌ نَستَغيثُ بِهِ ... لَو نَستَطيعُ فَداكَ المالُ وَالوَلَدُ
أَزرَى بِأَموالِنا قَومٌ أَمَرتَهُمُ ... بِالعَدلِ فينا فَما أَبقَوْا وَما قَصَدوا

---

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٢٤١).

نُعطِي الزَّكاةَ فَما يَرضَى خَطيبُهُمُ حَتَّى نُضاعِفَ أَضعافًا لَها غُدَدُ
أمَّا الفَقيرُ الَّذي كانَتْ حَلُوبَتُهُ وَفْقَ العِيالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدُ
واختَلَّ ذو المالِ وَالمُثْرُونَ قَدْ بَقِيَتْ علَى التَّلاتِلِ مِن أَموالِهِم عُقَدُ
فَإِنْ رَفَعتَ بِهِم رَأسًا نَعَشتَهُمُ وَإِنْ لَقوا مِثلَها في قابِلٍ فَسَدوا

- وقال في قصيدة أخرى[1]:

يا أَهلُ ما بالُ هَذا اللَّيل في صَفَرِ يَزدادُ طُولًا وَما يَزدادُ مِن قِصَرِ
في إِثرِ ما قُطِّعَتْ مِنِّي قَرينَتُهُ يَومَ الحَدالَى بِأَسبابٍ مِنَ القَدَرِ
كأَنَّما شُقَّ قَلبي يَومَ فارَقَهُم قِسمَينِ بَينَ أَخي نَجدٍ وَمُنحَدِرِ
هُمُ الأَحِبَّةُ أَبكي اليَومَ إِثرَهُمُ قَدْ كُنتُ أَطرَبُ إِثرَ الجِيرَةِ الشُّطُرِ
فَقُلتُ وَالحَرَّةُ الرَّجْلاءُ دُونَهُمُ وَبَطْنُ لَجَّانَ لَمَّا اعتادَني ذِكَري
صَلَّى علَى عَزَّةَ الرَّحمنُ وابنَتِها لَيلَى وَصَلَّى علَى جاراتِها الأُخَرِ
هُنَّ الحَرائِرُ لا رَبَّاتِ أَحمِرَةٍ سودِ المَحاجِرِ لا يَقرَأنَ بِالسُّوَرِ

---

١ انظر: المصدر السابق (ص٢٤٣).

٤- جرير

ترجمته:

هو أبو حزرة جرير بن عطيَّة بن حذيفة الخطفَى بن بدر، من بني كُليب ابن يربوع إحدى بطون زيد مناة من تميم[١] وأمُّه أم قيس بنت عاصم من عشيرة أبيه، وكان له أخَوَانِ شاعران هما: عمرو وأبو الورد، ومِن ولدِ جرير حزرة وهو أكبرهم وعكرمة ونوح وبلال[٢]الذي كان أشعر أبناء أبيه، وكذلك حفيده عمارة أحد شعراء العصر العباسي وعنه أخذ الناس معظم شعر جدِّه جرير وأخباره.[٣]

وقد ولد جرير نحو سنة ٣٠هـ/ ٦٥٠م، في اليمامة، وكان خديجًا ابن سبعة شهور، وكانت أسرته أسرة متواضعة لا ذِكر لها ولا مجدَ، ويُروَى أن أمَّه رأت أثناء حملها أنها ولدت حبلًا من شعر أسود، لمَّا سقط منها أخذ يلتفُّ حول أعناق أُناسٍ كثيرين فيخنقهم، فاستفسرت عن رؤيتها فقيل لها: تلدِين غلامًا شاعرًا ذا شرٍّ وشدَّةٍ وشكيمةٍ وبلاء على الناس؛ فلمَّا ولدته سمَّته جريرًا، والجرير يعني الحبل.[٤]

وقد شبَّ جرير في البادية فكان يرعى الإبل لأبيه وجدِّه الخطفي، فنشأ فصيح اللسان، مطبوعًا على الشعر، وكان جدُّه قد انتبه إلى شاعريَّته المبكِّرة فمرَّنه على الشعر، ولمَّا اشتعل الهجاء بين قومه وبين بني سليط وتعرَّض شاعرهم غسَّان السيلطي لرهط جرير؛ انبرى له جرير وردَّ عليه، ثم تَهاجَى مع البعيث ثم الفرزدق فاشتعلت النقائض بذلك.

وكان جرير مقيمًا في البادية، ويقال: إنه وقد على يزيد بن معاوية فمدحه ونال جائزته، ولمَّا اشتدَّ الهجاء بينه وبين الفرزدق قال له قومه: إنك مقيم بالمروت

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٨/ ٢٢٩).
٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٥٦).
٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٢٧٧).
٤ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٨/ ٢٦٠).

ليس عندك أحد يروي عنك، والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك منذ سبع حِجَج، فانحدر جرير إلى العراق وسكن البصرة وكانت آنذاك تحت سلطة الزبيريين[1].

وتعرَّض لجرير من الشعراء غير الفرزدق والأخطل عدد كبير؛ من بينهم عمر ابن لجإٍ التميمي وسراقة بن مرادس والراعي النميري والعباس بن يزيد الكندي والمرار بن منقذ[2] عدَّتهم الروايات حوالي أربعين شاعرًا، وقيل: بل ثمانين؛ وقد علاهم جرير جميعًا وغلبهم فيما عدا الفرزدق والأخطل فهذان ثبَتَا له، فلمَّا توفِّيَ الأخطل استمر الهجاء بينه وبين الفرزدق حتى مال الفرزدق إلى الكفِّ وتنسَّك آخر حياته، ثم توفِّيَ ولحق به جرير فانتهت النقائض دون أن يغلب أحدهما الآخر.

وما لبث أن بدأ نجم جرير في الظهور والطلوع ولا سيَّما بعد عودة العراق إلى سلطان الأمويين، فاتصل بأميرها بشر بن مروان ثم ارتحل إلى الكوفة فمدح نائبها من قِبَل الحجاجِ؛ الحكَمَ بنَ أيوبَ فأُعجب به فقدَّمه إلى الحجاج ابن يوسف فحظِيَ عنده وصار مقرَّبًا لديه وله فيه مدائح شتَّى، ويقال: إن الحجَّاج سأله: علام تشتم الناس وتظلمهم؟ فقال: والله إني ما أظلمهم؛ ولكن يظلمونني فأنتصر.

وما لبث أن أرسله الحجَّاج مع ولده محمد إلى الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان فلم يأذن له أول الأمر؛ لأنه كان لا يسمع لشعراء مُضَر؛ وكان أغلبهم في صفِّ عبد الله بن الزبير بينما كانت اليمنية مع بني أميَّة، ثم أذن بعد ذلك؛ لشفاعة محمد بن الحجاج، فدخل عليه ومدحه بقصيدته التي قال فيها:

أَلَستُم خَيرَ مَن رَكِبَ المَطايا وَأَندَى العالَمِينَ بُطونَ راحِ

فتبسَّم عبد الملك وقد طرب طربًا لهذا البيت وقال: كذلك نحن وما زلنا كذلك؛ ثم أخذ ينال من ابن الزبير في مديحه حتى رضي عنه عبد الملك وأحسن

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٥٩).
٢ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٨/ ٢٦٠).

جائزته[1]، وظل جرير على اتصاله ببلاط الخلافة الأموية فمدح الوليد بن عبد الملك، وكانت بينه وبين عدي بن الرقاع شاعر الوليد الخاص والمُقدَّم عنده خصومة، حتى إنَّ عديًّا شكاه إلى الوليد فبعث الوليد إلى جرير يتهدَّده، فكان جرير بعد ذلك في هجائه يُكنِّي.

واتصل جرير كذلك بسليمان بن عبد الملك ومدحه، ولما آلت الخلافة إلى عمر ابن عبد العزيز توافد الشعراء عليه لمدحه لكنه كان يمنعهم ويغلق بابه في وجوههم؛ لأنه لا يصل الشعراء، إلا أنَّه أذِن لجرير وحده؛ لِما عرف من ورعه وتقواه، فدخل عليه ومدحه ولكن لم يَصِلْه بشيءٍ من مال المسلمين وعرض عليه أن يدفع إليه من ماله الخاص، فاعتذر جرير عن ذلك فلم يأخذْ شيئًا وقال: لا؛ بل يوفِّر أمير المؤمنين ويُحمَد وأَخرُج؛ فلمَّا خرج من عنده قال له أصحابه من الشعراء وفيهم الفرزدق: ما صنع بك أمير المؤمنين يا أبا حزرة؟ فقال: خرجت من عند رجل يقرِّب الفقراء ويباعد الشعراء وأنا مع ذلك عنه راضٍ؛ وفي رواية أخرى أن بني أمية أعطوه من أموالهم عِوَضًا له[2].

واستمر جرير على اتصال بالبلاط الأموي بعد عمر، فمدح يزيد بن عبد الملك ثم هشام بن عبد الملك، ونراه كذلك يمدح عددًا من أمراء بني أمية مثل مسلمة ابن عبد الملك وعبد العزيز والعباس ابنَيِ الوليد، وأيوب بن سليمان بن عبد الملك ومعاوية بن هشام بن عبد الملك، ومدح بعض ولاتهم مثل خالد بن عبد الله القسري والجنيد بن عبد الرحمن المري وهلال بن أحوز المازني.

وكان جرير موصوفًا بسلامة الدِّين والعفَّة، حتى إنه ذات مرة كان يُنشد فمرَّت عليه جنازة فأمسك وقال: شيَّبَتْني هذه الجنائز؛ فقيل: فلأيِّ شيءٍ تشتم الناس؟! قال: يبدؤونني ثم لا أعفو[3]، وظل جرير ذا منزلة ومكانة إلى أن توفِّيَ عام ١١٠هـ/٧٢٨م على الأرجح بعد أيام من موت الفرزدق[4].

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٨/ ٢٧٢- ٢٧٣).
٢ انظر: المصدر السابق (٨/ ٢٥٩- ٢٦٠).
٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٥٨).
٤ انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٩/ ٢٨٨).

شعره:

جرير هو أحد أبرز الشعراء الثلاثة في العصر الأموي، وضعه ابن سلَّام في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين مع الأخطل والفرزدق وألحق بهم الراعي النميري، وشعر جرير يمتاز بالرقة وصفاء الطبع، وطلاوة الأسلوب، وغزارة المعنى، وسلاسة العبارة، ولين الجانب، وقد صار على نفس منوال صاحِبَيْه في المُضِيّ على النمط الجاهلي ولكنَّه كان أرقَّ طبعًا، وأسلس أسلوبًا، وأعذب كَلِمًا، وأحلى نغمًا، تظهر على شعره إلى حدٍّ بعيد روح ومعالم المدنيَّة والحداثة.

وقد برع جرير في جميع فنون الشعر متفوّقًا بذلك على الأخطل والفرزدق؛ فالفرزدق إنما اختصَّ بالفخر والمديح، والأخطل إنما اختص بالمديح ووصف الخمر، أما جرير فإنه قد برع في المديح والوصف والهجاء والرثاء والغزل؛ فأما المديح فكان قد امتاز ببعد أفقه وربطه دائمًا بِسِمات الدِّين والأمانة والورع والعدل، مع أنه كان من أجل التَّكسُّب والتَّقرُّب للقويّ، وتتَّضح مهارة جرير في المديح في هذا البيت الذي مدح به الحجاج قائلًا[1]:

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النِّفاقِ عليهِمُ أمْ مَنْ يَصُولُ كصَولَةِ الحجَّاجِ

وأما هجاؤه فقد كان شديدًا لاذعًا عظيم الألم ولا يُبارَى فيه؛ إذْ كان حادَّ اللسان كالسيف، مفحشًا في القول، لا يتورعَّ أحيانًا عن الخوض في الأعراض والتعرُّض للنساء وقذف المحصنات، وكان ذا مقدرةٍ عجيبةٍ على التَّهكُّم والسخرية وتتبُّع عورات خصمه ببراعة، ويبدو من شعره أنَّه كان متعمِّقًا في الثقافة العربية وتاريخ القبائل حتى ينفذ إلى عيوب خصمه فكان يُعير الفرزدق بمقتل الزُّبير وهو في جوار قومه، ويهجوه ببعض الوقائع التي كانت على قبيلته ويُعيِّره بفسقه وضَعفِ دِينِه فلا يجد الفرزدق غير الفخر للرد عليه فيفاخره حتى يُبيِّن لؤم قوم خصمه، ومن شعر جرير في هجاء الفرزدق[2]:

---

١ انظر: ديوان جرير (١/ ٨٤).
٢ انظر: المصدر السابق (٢/ ١٠٠٠).

لقَـدْ ولَـدتْ أمُّ الفَـرزدقِ فاسِـقًا وجــاءتْ بــوزْوارٍ قصــيرِ القــوائمِ

وكان كذلك يُمعن في هجاء الأخطل ويذكر مقتل كليبٍ ومخازي تغلب، ويصف الأخطل بالكفر وأكل لحم الخنزير، ويَذْكره بالصَّليب وبالسُّكر؛ كون الأخطل نصرانيًّا، فلا يسعه أن يردَّ عليه من هذا الجانب، ومن هجائه قوله[1]:

ألــيسَ أبــو الأُخَيْطِــلِ تغلبِيًّــا فبــئسَ التَّغلبــيُّ أبًــا وخــالا

وقد غَلَب جرير في هجائه كلَّ من تعرَّضوا له، باستثناء الفرزدق والأخطل فهذان صَمَدا له.

وكان جرير أقلَّ حظًّا من الفرزدق في الفخر؛ فقد كان رهطه من البطون الضعيفة في تميم، ومع هذا فإنه لم يمنعه ذلك من الإبداع فيه حينما فاخر الراعي النميري في قصيدته الدامغة وهزمه، فكان هذا البيت هو أروع ما قيل في الفخر:

إذا غَضِـبتْ عليـكَ بَنُـو تمـيمٍ حَسِــبْتَ النَّــاسَ كلَّهُــمُ غِضــابا

ولجرير شيءٌ من النَّسيب الطللي والغزل، يمتاز بالعفَّة والرِّقَّة وعذوبة النغم والموسيقى وحسن اختيار البحور والإيقاع، ولكنَّه لا يبلغ فيه درجة العُذريين؛ إذْ إنَّ جريرًا لم يمرَّ بتجربة عاطفية كالتي مرَّ بها أولئك، وله كذلك رثاء رقيق؛ منه ما قاله في امرأته يرثيها وولدٍ مات له كان يُدعَى سوادة.

أما معانيه فيغلب عليها الرِّقة والسلاسة والعذوبة، يرويها بفيض قريحته وتدفُّق عاطفته وقدرته على اختيار الوزن واللفظ، حتى قيل عنه: إنه يغرف من بحر؛ لرقَّة معانيه وتدفُّقها، بينما قيل على الفرزدق: ينحت من صخر؛ كناية عن قوة معانيه وصلابة لغته وجزالة لفظه.

وكان يُقال: الفرزدق أشعر الناس عامة، وجرير أشعر الناس خاصة؛ وكان أبو عمرو بن العلاء يشبِّهه بالأعشى ويشبِّه الفرزدق بزهير ويشبِّه الأخطل بالنابغة، ويقول أبو عبيدة الراوي: يحتج من قدَّم جريرًا بأنه كان أكثرهم فنونَ شعرٍ،

---

١ انظر: ديوان جرير (٢/ ٧٥١).

وأسهلهم لفظًا، وأقلَّهم تكلُّفا، وأرقَّهم نسيبا، وكان عفيفًا؛ وقيل: كان جرير أنسبَهم وأسبَّهم وأشبههم؛ وممَّن قدَّم جريرًا سُكينة بنت الحسين رضي الله عنها، وعُبيد بن هلال الخارجي، ونُصَيب الشاعر، وقال فيه بشَّار بن برد: كانت له ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق.

وحُكِّم بينهما بشر بن مروان فقضى لجرير، وهناك من وازن بين جرير والفرزدق؛ مثل حمَّاد الراوية؛ إذْ أتاه الفرزدق فقال: أنا أشعر أم هو؟ فقال: أنت أشعر في بعض الأمر وهو في بعض.

وقد أقرَّ له الراعي النميري بالفضل والسبق وكان يعتذر لقومه لهزيمته أمامه، وكان ممَّن غليهم جرير، بل إن الفرزدق نفسه على عدائه له كان لا يُقِرُّ لغير جرير بمجاراته في الشعر، وقال فيه: قاتَلَه الله، فما أخشن ناحيته وأشرد قافيته، والله لو تركوه لأبكَى العجوز على شبابها، والشَّابَّة على أحبابها!!، ويقال: إن الفرزدق سمع شعرًا يُغَنَّى وهو في المدينة ولا يَعرف صاحبه، فأُعجب به وقال: ما أرقَّ أشعارَكم يا أهل الحجار وأملحها!! فقالوا: هو لجرير يهجوك به؛ فقال: ويل ابن المراغة، ما كان أحوجه مع عفافه إلى صلابة شعري، وأحوجني مع شهواتي إلى رقَّة شعره!![1]

وما أجمع عليه النقاد أن الفرزدق يفوق جريرًا في جزالة لفظه وفخامة أسلوبه وقوَّة معانيه، بينما يفوقه جرير في سهولة لفظه ورقَّة معانيه وسلاسة أسلوبه، وكان الفرزدق متفوِّقًا في الفخر بينما كان جريرٌ متفوِّقًا في الهجاء وأكثر تنوُّعًا في أغراضه، فكانت المفاضلة بينهما ترجع إلى معايير واختلاف الذائقة ليس إلا.

وإن كان علماء اللغة ومن غلب عليهم الطابع البدوي قد مالوا إلى الفرزدق وقدَّموه على جرير نظرًا إلى كونه جزل اللفظ، قوي الأسلوب، فخم العبارة؛ فإن من تأثَّروا بالحياة المدنيَّة ومالوا إلى الرِّقَّة والسَّلاسة قد مالوا إلى جرير؛ كون شعره أسلس عبارة، وأرَقَّ جانبًا، وأعذَبَ أسلوبًا ومعنًى، وأبعَدَ عن غريب اللفظ، وأقرَبَ إلى ذائقة الحداثة.

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١٥/ ٩٣- ٩٤).

نماذج من قصائده:

- قال في قصيدته التي مدح بها عبد الملك، وهي من روائعه؛ حيث بدأها بمقدمة طللية وأخذ يحدِّث زوجته خالدةَ -وكُنيتُها أم حزرة- ثم انتقل إلى مدح الخليفة مجاهرًا برغبته في التَّكسُّب والارتزاق، وهو ما أضعف صدق عاطفته فيما يخصُّ المديح نوعًا ما، دون أن يمنع ذلك من أنَّها قصيدة بديعة، وقد جاء فيها[1]:

أَتَصحُو بَل فُؤادُكَ غَيرُ صاحِ ... عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّواحِ
يَقولُ العاذِلاتُ عَلاكَ شَيبٌ ... أَهَذا الشَّيبُ يَمنَعُني مِراحي
يُكَلِّفُني فُؤادي مِن هَواهُ ... ظَعائِنَ يَجتَزِعنَ علَى رماحِ
ظَعائِنَ لَم يَدِنَّ مَعَ النَّصارى ... وَلا يَدرينَ ما سَمْكُ القَراحِ

* * *

تَعَزَّتْ أُمُّ حَزرَةَ ثُمَّ قالَتْ ... رَأَيتُ الوارِدينَ ذَوِي امْتِناحِ
تُعَلِّلُ وَهْيَ ساغِبَةٌ بَنِيها ... بِأَنفاسٍ مِنَ الشَّبِمِ القَراحِ
سَأَمتاحُ البُحورَ فَجَنِّبيني ... أَذاةَ اللَّومِ وانتَظِري امتِياحي
ثِقي بِاللهِ لَيسَ لَهُ شَريكٌ ... وَمِن عِندِ الخَليفَةِ بِالنَّجاحِ
أَغِثْني يا فِداكَ أَبي وَأُمّي ... بِسَيبٍ مِنكَ إِنَّكَ ذو ارتِياحِ
فَإِنّي قَدْ رَأَيتُ عَلَيَّ حَقًّا ... زِيارَتِيَ الخَليفَةَ وامتِداحي
سَأَشكُرُ أَنْ رَدَدْتَ عَلَيَّ رِيشي ... وَأَثبَتَّ القَوادِمَ في جَناحي
أَلَستُم خَيرَ مَن رَكِبَ المَطايا ... وَأَندَى العالَمِينَ بُطونَ راحِ
وَقَومٍ قَد سَمَوتَ لَهُم فَدانوا ... بِدُهمٍ في مُلَملَمَةٍ رَداحِ
أَبَحتَ حِمَى تِهامَةَ بَعدَ نَجدٍ ... وَما شَيءٌ حَمَيتَ بِمُستَباحِ
لَكُم شُمُّ الجِبالِ مِنَ الرَّواسي ... وَأَعظَمُ سَيلِ مُعتَلِجِ البِطاحِ

---

١ انظر: ديوان جرير (١/ ٨٧- ٩٠).

- وقال في قصيدة يرثي امرأته خالدةَ أمَّ حزرة، وهي من أروع المراثي[1]:

لَـولا الحَيـاءُ لَعـادَنِي اسـتِعبارُ ... وَلَـزُرْتُ قَبـرَكِ وَالحَبيـبُ يُـزارُ
وَلَقَـدْ نَظَـرتُ وَمـا تَمَتُّـعُ نَظـرَةٍ ... فـي اللَّحـدِ حَيـثُ تَمَكَّـنَ المِحفـارُ
فَجَـزاكِ رَبُّـكِ فـي عَشـيرِكِ نَظـرَةً ... وَسَـقَى صَـداكِ مُجَلجِـلٌ مِـدْرارُ
وَلَّهـتِ قَلبـي إِذْ عَلَتْنـي كَبْـرَةٌ ... وَذَوُو التَّمـائِمِ مِـن بَنِيـكِ صِـغارُ
أَرعَـى النُّجـومَ وَقَـدْ مَضَتْ غَورِيَّـةً ... عُصَـبُ النُّجـومِ كَـأَنَّهُنَّ صِـوارُ
نِعـمَ القَـرينُ وَكُنـتِ عِلْـقَ مَضِـنَّةٍ ... وارَى بِنَعـفِ بُلَيَّـةَ الأَحجـارُ
عَمِـرَتْ مُكَرَّمَـةَ المَسـاكِ وَفارَقَـتْ ... مـا مَسَّـها صَـلَفٌ وَلا إِقتـارُ

* * *

وَلَقَـدْ أَراكِ كُسِـيتِ أَجمَـلَ مَنظَـرٍ ... وَمَـعَ الجَمـالِ سَـكينَةٌ وَوَقـارُ
وَالـرّيحُ طَيِّبَـةٌ إِذا اسـتَقبَلتِها ... وَالعِـرضُ لا دَنِـسٌ وَلا خَـوَّارُ
وَإِذا سَـرَيتُ رَأَيـتُ نـارَكِ نَـوَّرَتْ ... وَجهًـا أَغَـرَّ يَزينُـهُ الإِسـفارُ
صَـلَّى المَلائِكَـةُ الَّـذينَ تُخُيِّـروا ... وَالصَّـالِحونَ عَلَيـكِ وَالأَبـرارُ
وَعَلَيـكِ مِـن صَـلَواتِ رَبِّـكِ كُلَّمـا ... نَصِـبَ الحَجـيجُ مُلَبِّـدينَ وَغـارُوا
يـا نَظـرَةً لَـكِ يَـومَ هاجَـتْ عَبْـرَةً ... مِـن أُمِّ حَـزرَةَ بِـالنُّمَيرَةِ دارُ

- وقال يشكو الشَّيب ويذكر الصِّبا في لغة رقيقة[2]:

أَلا تَصحو وَتُقصِرُ عَن صِباكا ... وَهـذا الشَّـيبُ أَصـبَحَ قَـدْ عَلاكـا
أَمِـن دِمَـنٍ بَلِـينَ بِـبَطنِ قَـوٍّ ... بَكَيـتَ لَهـا وشَـجو مـا بَكاكـا
تَباعَـدُ مِـن وِصـالِكَ أَيَّ بُعـدٍ ... ولَـو تَـدنو قَتَلـتَ بِهـا هَواكـا
إِذا مـا جُـرِّدَتْ فَنَقَـا كَثيـبٍ ... وَفِـي القَـرِّيِّ هَيكَلَـةً ضَـناكا
أَلا يـا حَبَّـذا جَرَعـاتُ قَـوٍّ ... وَحَيـثُ يُقابِـلُ الأَثْـلُ الأَراكـا

---

[1] انظر: ديوان جرير (٢/ ٨٦٢).
[2] انظر: المصدر السابق (٢/ ٥٩٩).

وَقَـــدْ لاحَ المَشِـــيبُ فَمـــا أَراهُ عَـــداكَ وَقَـــدْ صَـــبَوتَ وَلا نَهَاكـــا
فَلَيتَـكَ قَـدْ قَضَـيتَ بِـذاتِ عِـرقٍ وَمِـــن نَجـــدٍ وســـاكِنِهِ مُناكـــا
تُـــذادُ عَـــنِ المَشـــارِعِ كُـــلَّ يَـــومٍ وَوِردُكَ لَـــو وَرَدْتَ بِـــهِ كَفاكـــا
أَتَهـوَى مَـن دَعـاكَ لِطُـولِ شَـجوٍ وَمَـــن أَضـــنَى فُـــؤادَكَ إِذْ دَعاكـــا
فَكَيـفَ بِمَـن أَصـابَ فُـؤادَ صَـبٍّ بِـــذَلِكَ لَـــو يَشـــاءُ لَقَـــدْ شَـــفاكا

٥- ذو الرُّمَّة

ترجمته:

هو غَيْلان بن عقبة بن بهيس -وقيل: بل غيلان بن عقبة بن مسعود- بن حارثة، من بني عدي من إلياس من مُضر، ويُكني بأبي الحارث[١] وُلِد في صحراء الدهناء بالقرب من بادية اليمامة نحو عام ٧٧هـ/ ١١٧م، وأمُّه من بني أسد، تُدعَى ظبية، وغلب عليه لقب ذي الرُّمَّة، وهو من عشَّاق العرب المشهورين، وصاحِبَتُه ميَّة بنت طلبة بن قيس بن عاصم المنقري التميمي، وقيل: إنَّه مرَّ بها فوقعت في نفسه وقد استسقاها؛ وقيل: بل خرق إدواته[٢]وطلب منها إصلاحها فقالت: والله ما أُحسِنُ ذلك فإنّي لخرقاء؛ فقال لأمِّها: مُرِيها أن تسقيني ماء؛ فقالت: قومي يا خرقاء فاسقِيه ماءً؛ ففعلت وكانت على كتفه رُمَّة -والرُّمَّة هي قطعة من الحبل البالي- فقالت: اشرب يا ذا الرُّمَّة؛ فغلب عليه ذلك اللَّقب؛ وقيل: بل سبب لقبه أنه علَّق تميمة له بحبلٍ، فلُقِّب بذلك.[٣]

وكان ذو الرُّمَّة قصيرًا نحيلًا أسود دميم الوجه خفيف الشعر، ولكنه كان فطِنًا بصيرًا فصيحًا عفيفًا، وكان يعلم القراءة والكتابة، على غير عادة معظم أهل البدو الذين كانوا يعيبون الكتابة؛[٤]

ويُروَى أنه أخذ يشبِّب بميَّة زمنًا طويلًا وكان يبلغها خبره دون أن تراه، حتى تمنَّت رؤيته، فلمَّا رأته أبصرتْه أسودَ دميمًا فانصرفت عنه، فقال ذو الرُّمَّة؟[٥]

عَلَى وَجهِ مَيٍّ مَسحَةٌ مِن مَلاحَةٍ ... وَتَحتَ الثِّيابِ الخِزيُ إِنْ كانَ بادِيا

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الماءَ يَخلُفُ طَعمُهُ ... وَإِنْ كانَ لَونُ الماءِ أَبيَضَ صافِيا

فَيا ضَيعَةَ الشِّعرِ الَّذي لَجَّ فَانقَضَى ... بِمَيٍّ وَلَمْ أَملِكْ ضَلالًا فُؤادِيا

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٥١٥)؛ الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١٨/ ٢٥٩).

٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٥١٨).

٣ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١٨/ ٢٥٩).

٤ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/ ٦٧٧- ٦٧٨).

٥ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٥١٧- ٥١٨).

وفي رواية أنه شبَّب بميَّة زمنًا طويلًا، فلمَّا أمعنت في الإعراض عنه شبَّب بأخرى تُدعَى خرقاء العامرية؛ نكاية بميَّة، وقيل: بل إن الخرقاء وميَّة شخصٌ واحد؛ وهذا من جانب الخلط في بعض الروايات.

وعاش ذو الرمة معظم حياته في البادية ولكنه كان كثيرًا ما يأتي الكوفة والبصرة وله عدة أخبار في ترحاله بالبادية، ويُقال: إنه مال إلى الفرزدق على حساب جرير إلا أنه فيما يبدو لم يُقحم نفسه كثيرًا في هذا الصراع، وكان راوية للراعي النُّميري، وقد حدثت بينه وبين هشام المرئي مهاجاة فغلبه ذو الرُّمَّة حتى لقيَ هشامٌ جريرًا فقال: غلبك العبد!! -يعني ذا الرُّمَّة- فقال هشام: فما أصنع يا أبا حزرة وأنا راجز وهو يُقَصِّد، والرجز لا يقوم للقصيد في الهجاء، فلو رفدتَني!! فقال جرير: قل له[1]:

غضبْتَ لِرَجْلٍ مِن عديّ تشمَّسوا ... وفِي أيّ يومٍ لم تَشَمَّسْ رِجالُها
وفيمَ عديٌّ عندَ تيمٍ مِنَ العُلا ... وأيَّامُنا اللَّاتي تُعَدُّ فِعالُها
وضبَّةُ عمّي يا بْن جُلٍّ فلا تَرُمْ ... مَساعيَ قومٍ ليس منكَ سِجَالُها
يُماشِي عَدِيًّا لؤمُها لا تُجِنُّهُ ... مِنَ النَّاسِ ما مَسَّتْ عَدِيًّا ظِلالُها

فلمَّا بلغت الأبيات ذا الرُّمَّة قال: والله ما هذا بكلام هشام؛ ولكنَّه كلام ابن الأتان؛ يعني جريرًا؛ ويقال: إنه لَقِيَ جريرًا بعد ذلك فاسترضاه ونفَى مَيْلَه إلى الفرزدق وحلف له وطلب منه أن يعينه على هشام، ففعل ورفَده وقال أبياتًا، جاء فيها:

ويَهلِكُ بينَهما المرئيُّ لَغْوًا ... كما ألغَيتَ في الدِّيَةِ الحُوارا

فرواه ذو الرُّمة عنه فغلب هشامًا المرئي، فجعل هشام يلطم رأسه وذهب إلى جرير طالبًا منه أن يهجو ذا الرُّمَّة، فأبَى جرير وقال: لستُ أُعِين عليه.

وقد وفد ذو الرُّمَّة على الكوفة والبصرة فمدح هلال بن أحوز المازني في انتصاره على فلول المهالبة، ومدح عبد الملك بن بشر بن مروان نائب البصرة لابن عمه

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١٨/ ٢٧١- ٢٧٢).

مسلمة بن عبد الملك، ومدح بعض النواب في العراق مثل بلال بن أبي بردة الأشعري وأبان بن الوليد البجلي ومالك بن المنذر بن الجارود رئيس شرطة خالد القسري، ومدح كذلك هشام بن عبد الملك ووالياه على مكة إبراهيم بن هشام المخزومي.[1]

ولم يَطُلِ العمر بذي الرُّمَّة؛ إذْ ما لبث أن توفِّيَ عام ١١٧هـ/٧٣٥م بعد وعمره أربعون عامًا.

شعره:

ذو الرُّمَّة شاعر مجيد مبدع، وهو يميل إلى الفخامة وجزالة اللفظ، تظهر عليه إلى حدٍّ كبيرٍ ملامح الطبيعة البدوية سواء في لفظه الجزل أو في معانيه ووصفه الذي تغلب عليه حياة الصحراء وطبع البادية، فكان يصف الصحراء وما فيها من مظاهر وحياة وأصوات، ويشبِّه أصواتها بصوت الجن، ومن هذا قوله[2]:

للجِنِّ باللَّيلِ في حافاتِها زَجَلٌ كما تَجَاوبَ يومُ الرِّيحِ عَيْشُومُ

وكان يفتتح قصائده بالنسيب والبكاء على الأطلال فيطيل ويبدع فيه، وله شيء من الرجز.

وغزله عذب حافل باللِّين ورقَّة العاطفة؛ حيث أورثه تعلُّقه بميَّة التي لم يَفُزْ بها إحساسًا عميقًا ممزوجًا بالحزن والدموع وعذاب الروح، وكان يجمع بين حبِّه لميَّة وحبِّه لمظاهر الصحراء، فيمزج بين حبِّه ووصفِه الحِسِّيِّ مزجًا رائعًا، وضعه ابن سلَّام في الطبقة الثانية من الشعراء الإسلاميين بعد طبقة الفرزدق وجرير، ومعه كلٌّ من البعيث والقطامي وكُثيِّر بن عبد الرحمن الخزاعي المعروف بكُثيِّر عزة، وكان يقال: أحسَنُ الجاهلية تشبيهًا امرؤ القيس، وأحسن أهل الإسلام تشبيهًا ذو الرُّمَّة[3].

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٣٩١).
٢ انظر: ديوان ذي الرمة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (ص٢٥٧)
٣ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١٨/ ٢٦٤- ٢٦٥).

وكان ذو الرُّمَّة كثير الأخذ من غيره، ومع أنه كان أحسن الناس تشبيهًا؛ فقد وضعه وأدنى مِن قدرِه أنه كان لا يجيد المديح ولا الهجاء.[1]

وقد وردت أخبار أن الفرزدق وجريرًا على عُلُوِّ منزلتهما قد أُعجَبا به واستَحسَنا بعض شعره، وكان حسن الشِّعر فصيحًا عالمًا بالغريب من اللفظ، قال عنه الأصمعي: كان ذو الرُّمَّة أشعر الناس إذا شبَّه، ولم يكن بالمفلق.

ومن الواضح مما قيل عن ذي الرمة أن النقاد والرواة قد أجمعوا على مهارته في إجادة التشبيه؛ فقد أجاد وصف الصحراء وما فيها من رمال وكثبان وأعشاب وأشجار وإبل، وكان يذكر الليل والحيوان والطيور والرياح والسماء وما فيها من نجوم وكواكب وسحب، فبلغ في وصفه قدرًا عظيمًا من الرقي والإبداع والعمق، لكنهم مع هذا يضعونه في المرتبة التالية لمرتبة جرير والفرزدق، فكان يساويهما في بعض شعره ولكنَّه دونهما منزلة،[2] حتى يُروَى أنه لقِيَ الفرزدق يومًا فوقف عليه وقال: كيف ترى ما تسمع يا أبا فراس؟ فقال: ما أحسن ما تقول!! قال: فما بالي لا أُذكَر مع الفحول؟! قال: قصَّر بك عن غاياتهم بكاؤك في الدِّمَن، وصِفَتُك للأبعار والعَطَن.[3]

ومن الجدير بالذكر أن ذا الرُّمَّة وُلد متأخِّرًا بزمن عن جيل الفرزدق وجرير، فكانا قد بلغا على السَّاحة قدرًا عظيمًا بينما كان ذو الرُّمَّة لا يزال غلامًا صغيرًا، وما لبث أن توفِّيَ شابًّا بعدهما بزمن قصير، فلم تُتَح له الفرصة الكاملة للظهور على الساحة بما يليقِ بموهبته.

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٥٢٥).
٢ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١٨/ ٢٦٨).
٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٥١٥).

نماذج من قصائده:

- قال في قصيدة بائية بديعة تجلَّت فيها موهبته في الغزل والنَّسيب وذِكر الأطلال وقدرته الفائقة على وصف مظاهر الصحراء بعناية ودقَّة، وهي من روائعه، وقد فاقت المئة بيت، جاء منها[1]:

ما بالُ عَينِكَ مِنها الماءُ يَنسَكِبُ ... كَأَنَّهُ مِن كُلًى مَفرِيَّةٍ سَرِبُ

وَفْراءَ غَرفِيَّةٍ أَثْأى خَوارِزُها ... مُشَلشِلٌ ضَيَّعَتْهُ بَينَها الكُثُبُ

أَسْتَحدَثَ الرَّكبُ عَن أَشياعِهِم خَبَرًا ... أَمْ راجَعَ القَلبَ مِن أَطرابِهِ طَرَبُ

مِن دِمنَةٍ نَسَفَتْ عَنها الصَّبا سُفَعًا ... كَما يُنَشَّرُ بَعدَ الطَيَّةِ الكُتُبُ

سَيلًا مِنَ الدِّعصِ أَغشَتْهُ مَعارِفُها ... نَكباءُ تَسحَبُ أَعلاه فَيَنسَحِبُ

لا بَلْ هُوَ الشَّوقُ مِن دارٍ تَخَوَّنَها ... مَرًّا سَحابٌ وَمَرًّا بارِحٌ تَرِبُ

ببرقةِ الثَّورِ لَم تَطمِس مَعالِمَها ... دَوارِجُ المُورِ والأَمطارُ وَالحِقَبُ

دِارٌ لمَيَّةَ إِذْ مَيٌّ تُساعِفُنا ... وَلا يَرَى مِثلَها عُجْمٌ وَلا عَرَبُ

عَجزاءُ مَكورَةٌ خَمصانَةٌ قَلِقٌ ... عَنها الوِشاحُ وَتَمَّ الجِسمُ وَالقَصَبُ

زَينُ الثِّيابِ وَإِنْ أَثوابُها اسْتُلِبَتْ ... عَلى الحَشِيَّةِ يَومًا زانَها السَّلَبُ

برَّاقةُ الجِيدِ واللَّبَّاتِ واضحةٌ ... كأنَّها ظبيةٌ أفضَى بها لَبَبُ

* * *

كَأَنَّها دَلْوُ بِئرٍ جَدَّ مائِحُها ... حَتَّى إِذا ما رَآها خانَهُ الكَرَبُ

فروَّحا رَوحَةً وَالرِّيحُ عاصِفةٌ ... والغَيثُ مُرتَجِزٌ واللَّيلُ مُرتَقَبُ

لا يَذْخَرانِ مِنَ الإِيغالِ باقِيَةً ... حَتَّى تَكادُ تَفَرَّى عَنهُما الأُهَبُ

فَكُلَّما هَبَطا في شَأوِ شَوطِهِما ... مِنَ الأَماكِنِ مَفعولٌ بِهِ العَجَبُ

لا يَأمَنانِ سِباعَ اللَّيلِ أَو يَرِدَا ... إِنْ أهبطا دُونَ أَطلاءٍ لَها لَجَبُ

---

١ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٧٤٤- ٧٨٢).

- ومن شعره قوله[1]:

لَعَمـرُكَ وَالأَهـواءُ مِـن غَيـرِ واحِـدٍ ... وَلا مُسـعِفٍ بـي مُولَعـاتٌ سَـوانِحُ
لَقَـد مَـنَحَ الـوُدَّ الَّـذي مـا مَلَكتَـهُ ... عَلـى النَّـأيِ مَيَّـا مِـن فُـؤادِكَ مـانِحُ
وَإِنَّ هَـوَى صَـيداءَ فـي ذَاتِ نَفسِـهِ ... بِسـائِرِ أَسـبابِ الصَّـبابَة راجِـحُ
لَعَمـرُكَ مـا أَشـوانِيَ البَـينُ إِذْ غَـدَا ... بِصَـيداءَ مَجـذوذٌ مِـن الوصَـلِ جـامِحُ
وَلَـم يَبـقَ مِمَّـا كـانَ بِينـي وَبَينَهـا ... مِـنَ الـوُدِّ إِلَّا مـا تُجِـنُّ الجَـوانِحُ
بِأَطيَـبَ مِـن فِيهـا وَلا طَعـمُ قَرقَـفٍ ... بِرَمَّـانَ لَـم يَنظُـرْ بِهـا الشَّـرقَ صـابِحُ
أَصـيدَاءُ هَـلْ قَـيظُ الرَّمـادَةِ راجِـعٌ ... لَيالِيـهِ أَو أَيّـامُهُنَّ الصَّـوالِحُ
سَـقَى دارَهـا مُسـتَمطَرٌ ذو غفـارَةٍ ... أَجَـشُّ تَحَـرَّى مُنشَـأَ العَـينِ رائِـحُ
هَـزيمٌ كَـأَنَّ البُلـقَ مَجنوبَـةٌ بِـهِ ... يُحـامينَ أَمهـارًا فَهُـنَّ رَوامِـحُ
إِذا مـا اسـتَدَرَّتْهُ الصَّـبا وَتَـذاءَبَتْ ... يَمانِيَـةٌ تَمـرِي الـذَّهابَ المَنـائِحُ

- ومن شعره يصف ظبية وولدها[2]:

إِذا اسـتَودَعَتْهُ صَفصَـفًا أَو صَـريمَةً ... تَنَحَّـتْ وَنَصَّـتْ جِيـدَها بِالمَنـاظِرِ
حِـذارًا علَـى وَسـنانَ يَصـرَعُهُ الكَـرَى ... بِكُـلِّ مَقِيـلٍ عَـن ضِـعافٍ فَـواتِرِ
وَتَهجُـرُهُ إِلَّا اِختِلاسًـا نَهارَهـا ... وَكَـم مِـن مُحِـبٍّ رَهبَـةَ العَـينِ هـاجِرِ

---

١ انظر: ديوان ذي الرمة (٢/ ٨٦٤- ٨٧١).
٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٥٢٦).

الشعراء المتيَّمون

١- قيس بن الملوّح (مجنون ليلى)

ترجمته:

هو قيس بن الملوّح بن مزاحم بن عُدَس، من بني جعدة إحدى بطون عامر ابن صعصعة، وقيل: قيس بن معاذ؛ وربما كان الملوّح لقب أبيه، ويُروَى أنه هام بابنة عمِّه ليلى بنت سعد العامرية، وقيل: بل ليلى بنت مهدي بن سعد وتُكنى بأم مالك، وكانا يرعيان معًا الماشية فعلق بينهما حب الصِّبا فشبَّب بها وقال شعرًا فيها، فلمَّا كبرا أراد أن يتزوَّجها فأبَى أبوها تزويجها له وقد شاع أن عرب البادية جرت عادتهم وقتها أنه إذا شبَّب أحدهم ببنت من بناتهم وذاع حبُّه فيها يقومون بحجبها عنه وتزويجها لغيره رغمًا عنها؛ فيما يتوهَّمون أنه صونٌ لعفتها وحفظٌ لسمعتها، وعليه فقد زوجوها لرجل آخر تقدَّم لخطبتها؛ هو ورد بن محمد العُقيلي، وهنا اشتعلت النار في نفس قيس وتلظَّت روحه بنار الفراق والبُعد فهام على وجهه وازداد حُبًّا لها وصار يتنقَّل في الصحراء ويضرب في البوادي ويهيم في الفيافي مع الوحوش يذكر ليلى ويتغنَّى باسمها ويشكو من ما يلقاه في نفسه من حزن وألم، حتى مسَّه شيء من الجنون من فرط حبه وتهيامه وعُرِف بمجنون بني عامر، وقيل: لم يكن مجنونًا وإنما كانت له لوثة من فرط العشق؛ وظل زمنًا على حاله يأبى أن ينسى ليلى، ومضى يشبِّب بها ويشيع في الناس شعره فيرددونه ويروونه، فلمَّا شاع خبره خاف أهلها على سمعة ابنتهم فشكوا أمره إلى الوالي؛ الذي هدَّده بأن يهدر دمه، وظل المجنون على حاله تلك بين هذيان العشق واختلاط العقل حتى مات ودُفن في رمال الصحراء، ولعل وفاته كانت عام ٧٠هـ.

وقد نُسجت حول قيس بن الملوّح قصص شتَّى وأساطير عديدة وروايات مختلفة، وقد تعدَّدت الرويات فيه؛ من بينها أن أباه قال لسائل عنه: أما والله

لهو كان آثر عندي من هؤلاء جميعًا، وإنه عشق امرأة من قومه -والله- ما كانت تطمع في مثله، فلما فشا أمره وأمرها كره أبوها أن يزوِّجه إياها بعدما ظهر من أمرهما، فزوَّجوها غيره؛ ويُروَى أن أهله لما وجدوا حاله من اضطراب الهيام وذهاب العقل ذهبوا إلى والد ليلى فوعظوه وناشدوه الله والرَّحِم وقالوا: إن هذا الرجل لهالك؛ وقيل: ذلك أقبح من الهلاك بذهاب عقله؛ وإنك فاجع به أباه وأهله، فناشدناك الله والرَّحِم أن تفعل ذلك، فوالله ما هي أشرف منه، ولا لك مثل مال أبيه، وقد حكَّمك في المهر، وإن شئت أن يخلع نفسه إليك من ماله فعل؛ فأبَى عليهم وحلف بالله وبالطلاق ألا يزوِّجها، وقال: أفضح نفسي وعشيرتي وآتِي ما لم يأته أحد من العرب، واسمُ ابنتي بميسم فضيحة!! فانصرفوا عنه، وقيل: إن أباه قد أخذه معه إلى الحج وطلب منه أن يتعلَّق بأستار الكعبة لعل الله أن يعافيه، وسأله أن يدعو الله أن ينسيه إياها، فتعلق بأستار الكعبة وقال: اللهم زدني لِلَيلى حبًّا، وبها كلفًا، ولا تنسني ذِكرَها أبدًا؛ ويقال: إنه اختلط عقله حتى كان يعيش في البرِّيَّة مع الوحوش والظباء حتى ألِفَتْه، وإنه ذات مرة أخذ يهيم في الصحراء ثم عاد إليه بعض رشده فسأل ركبانًا أن يدلُّوه على نجد فقِيل له: وأين أنت من نجد؟! قد شارفتَ الشام!! ثم دلُّوه على وجْهَتِه.

ومن الأخبار التي تُروَى عنه أنه ظل بعد زواج ليلى يغشى ديار أهلها حينًا حتى اضطر أهلها لمغادرة منازلهم، فلمَّا أتى ديارهم وجدها خالية فبكى ومرَّغ خديه بالتراب، ويُروَى كذلك أن أمَّه أتت ليلى وقالت لها: إن قيسًا قد ذهب حبُّك بعقله وترك الطعام والشراب، فلو جئتِه وقتًا لرجوتُ أن يثوب إليه عقله؛ ففعلت وأتته ليلًا؛ خوفًا من قومها وقالت: يا قيس؛ إنَّ أمَّك تزعم أنك جُنِنت من أجلي وتركت المطعم والمشرب، فاتَّق الله وأَبْقِ على نفسك؛ فبكى، وقيل: إنها بكت معه وتحدَّثت معه حتى كاد الصبح أن يُسفر فغادرته، وكان هذا آخر عهده بها؛ وكلها روايات اخلتط الواقع فيها بالأسطورة، يصعب التأكد من صحَّتها أو الاطمئنان إليها، حيث بالغ الرواة في الحديث عنه وذِكر أخباره وأخذوا في

تضخيم قصَّته وروَوْا عنه قصصًا خيالية شتى، ونسبوا إليه شعرًا كثيرًا منحولًا عليه[1]

حقيقة أم أسطورة:

الغريب في قصة قيس بن الملوح أنَّه على شهرته وذيوع صيته كأحد أبرز الشعراء المتيَّمين؛ قد اختلف النقاد في وجوده؛ فبعضهم قال: إنه شخصية حقيقة؛ وبعضهم ذكر أنه شخصية أسطورية خيالية، وقد أنكر الأصمعي وجوده قائلًا: رجُلانِ ما عُرِفا في الدُّنيا قَطُّ إلا بالاسم: مجنون بني عامر وابن القِرية؛ وإنما وضعهما الرواة؛ وقال أحد الرواة: ثلاثة لم يكونوا قطُّ ولا عُرِفوا: ابن أبي العَقب صاحب قصيدة الملاحم وابن القِرية ومجنون بني عامر؛ وقال آخر: سألت بني عامر بطنًا بطنًا عن مجنون بني عامر فما وجدت أحدًا يعرفه؛ وقال ابن الكلبي: حديث المجنون وشعره وضعه فتًى من بني أمية كان يهوى ابنة عم له، وكان لا يظهر ما بينه وبينها، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يرويها الناس للمجنون ونسبها إليه؛ وقال آخر: المجنون اسم مستعار لا حقيقة له؛ وربما يعضِّد هذا الرأي إفراط الرواة في الحديث عنه وما صاحَبَ سيرته من قصص خيالية وأخبار وهمية وما نُحل عليه من شعر كثير؛ حيث عُثر في ديوانه على قصائد هي في الأصل لشعراء آخرين مشهورين، قال الجاحظ: ما ترك الناس شعرًا مجهول القائل في ليلى إلا نسبوه إلى المجنون؛ ومن الشعر الذي نُسِب إليه[2]:

ألا يا صَبَا نَجْدٍ متَى هِجْتَ مِنْ نَجْدِ فَقَدْ زادَنِي مَسْراكَ وَجْدًا علَى وَجْدِ

وهو بيت مشهور في ديوان قيس بن الملوح ولكنه في حقيقة الأمر لشاعرٍ آخر يقال له ابن الدُّمينة؛ وهناك أبيات أخرى اختلطت بأشعار لجميل ونُصيب وقيس بن ذريح، ممَّا يشير فعلًا إلى اضطراب رواية شعره.

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٢/ ٣٢٩- ٣٣٣).

٢ انظر: ديوان قيس بن الملوح مجنون ليلى، رواية أبي بكر الوالبي (ص٨٣)، دراسة وتعليق: يسري عبد الغني، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

على أننا في كل حالٍ لا نستطيع أن نطمئن إلى تلك الآراء التي نفت وجوده اطمئنانًا تامًّا أو نسلِّم بكلام الأصمعي وغيره تسليمًا مطلقًا؛ إذْ يصعب التسليم بأن أشعار المجنون وضعها رجل من بني أمية؛ فالشاعر الذي قال هذه الأبيات؛ سواء كانت لقيس أو نُحلت عليه هو بالتأكيد شاعر بدوي؛ استنادًا إلى سِمات شعره المتصفة بالجزالة وفخامة اللفظ، ولا يمكن أن تكون لشاعر حضري، ومع اعترافنا بكثرة الشعر المنحول عليه وزيفِ واختلاط كثير ممَّا رُوي عنه إلا أن هذا لا يكفي لنفي وجوده نفيًا تامًّا؛ إذْ إن هناك من الشعراء من هم لا شكَّ في وجودهم وحقيقتهم قد نُحل عليهم شعر كثير ونُسجت حولهم روايات خيالية مثل عنترة بن شداد، وحتى بعض شعراء عصر المجنون مثل قيس بن ذُريح، فلم يشكِّك هذا في وجودهم، ولا يمكننا الاستناد إلى قول الجاحظ فيه -رغم صحَّته- كشيء يُثبت عدم وجوده؛ إذْ إن كثرة الانتحال على شاعر لا تنفي وجوده نفيًا تامًّا؛ والأرجح من الناحية الفنية أن شعر المجنون وإن لم يخلُ من المنحول هو شعر لشخصٍ واحد. وعلى كل حال فإن قيس بن الملوح سواء أكان شخصية خيالية أسطورية أم شخصية حقيقة نُسِجت حوله أساطير؛ فإنه في الحالين يُعَدُّ شعره عظيم الجودة وبالغ الأهمية وذا قيمة فنِّيَّة وأدبيَّة رائعة.

شعره:

شعر قيس بن الملوح جزل فخم اللفظ، قوي الأسلوب، محكم التراكيب، عذب الإيقاع، حلو الموسيقى، تظهر فيه روح البداوة والأصالة، وهو كذلك مرهف الحس، رقيق المشاعر، لذا فإن أصحاب الاتجاه الكلاسيكي والرومانسي كذلك يحبونه ويعشقون شعره؛ فأما الكلاسيكيون فيحبون شعره لما فيه من لفظ فخم جزل دون الغريب وأسلوب قوي، وأما الرومانسيون فيحبون شعره لما فيه من رقة وعذوبة في إحساسه وعاطفته؛ فقد جمع في شعره بين الأمرين.

ولا نستطيع أن نحكم على شعر المجنون حكمًا دقيقًا؛ لدخول المنحول فيه واختلاط شعره بآخرين، لكننا نستطيع أن نحيط بشكل عام حول خصائصه

وسماته، "ومن هذا الشعر كله نرى أن مجنون ليلى قلب هائم، وعقل شارد، وضلوع خفاقة، وروح أرقُّ من النسيم، وجسم ذائب، وعين ذاهلة،"[1]

وقد أبدع قيس في وصف حال المحب والفقد وما فيه من ألم الروح ووجعها، وكان غزله عُذريًّا عفيفًا لا يلجأ إلى الوصف الحسّيّ إلا عرضًا، وهو شاعر ذو حس مرهف بديع وخيال خصب واسع، متأجّج العاطفة، عميق المعنى، يُكثر من ذكر الدهر والليل والطير والجمر والريح والدموع والمضجع، وأغلب شعره من وزن البحر الطويل الذي يُتيح لصاحبه الاسترسال في مشاعره والاستفاضة في التعبير عنها، حتى إن اسم ليلى صار ذِكرُه رمزًا للحب والمحبوب، يستعمله الشعراء منذ ذلك الحين.

ولِشِعر المجنون قيمة أدبية كبيرة؛ من بينها أن شعره قد حوَّل الغزل من مجرَّد تواجده فقط على مطالع القصائد أو في عرضها إلى فنٍّ مستقل وغرض رئيسٍ للقصيدة العربية، وهو ما لم يكن معروفًا في الجاهلية إلا نادرًا، ولم يكتفِ بذلك؛ بل إنه جعل تحت الغزل عدة أغراض فرعية أخرى كأنين البعد والشكوى والحوار القصصي وانتظار اللقاء ووصف حال المحب، لذا فهو بلا شك يعتبر منبعًا لنموّ ما عُرِف لاحقًا بالاتجاه الوجداني وظهور ما يُعرَف بالنزعة الذاتية في الشعر التي عبَّر عنها بعض شعراء العصر العباسي لاحقًا كابن الرومي وأبي العلاء المعرّي وشعراء التَّصوُّف مثل الحلاج وابن الفارض؛ حيث كان الشعر تدور أغراضه حول المديح والرثاء والهجاء والوصف وما سوى ذلك من الأغراض التقليدية المعروفة، أما في شعر المجنون ومن تلاه من شعراء النزعة الذاتية والرومانسية فنجده يعبِّر عن الذات وأحاسيس النفس وجزعها وحزنها، فكان بحقٍّ البذرة التي وُلد من خلالها اتجاه الأدب الرومانسي في العصر الحديث.

---

١ نقلًا عن: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، دار التقوى، القاهرة- مصر، (١/ ٣٩٦).

نموذج من قصائده:

رُوِيَ عنه في ديوانه قصيدة رائعة يشبب فيها بليلى ويئن لِفَقدِها ويصف إحساسه ولوعته، وقد ذُكِرت هذه القصيدة بأكثر من رواية مع اختلاف في ترتيب الأبيات، ممَّا يشير إلى سابق كلامنا عن اضطراب رواية شعره، ومما جاء فيها[1]:

تَـذَكَّرتُ لَيلـى وَالسِّـنينَ الخَوالِيـا ... وَأَيّـامَ لا نَخشَـى علَـى اللَّهـوِ ناهِيـا
وَيَـومٍ كَظِـلِّ الـرُمحِ قَصَّـرتُ ظِلَّـهُ ... بِلَيلـى فَلَهَّـاني وَمـا كُنـتُ لاهِيـا
بِثَمدينَ لاحَتْ نـارُ لَيلَى وَصُحبَتي ... بِـذاتِ الغَضَـى تُزجـي المَطِـيَّ النَّواجِيا
فَقـالَ بَصيرُ القَـومِ أَلْمَحـتُ كَوكَبًا ... بَـدا فـي سَـوادِ اللَّيـلِ فَـردًا يَمانِيـا
فَقُلـتُ لَـهُ بَـل نـارُ لَيلَـى تَوَقَّـدَتْ ... بِعُلْيـا تَسـامى ضَـوؤها فَبَـدا لِيـا
* * *

فَأَشـهَدُ عِنـدَ اللهِ أَنّـي أُحِبُّهـا ... فَهَـذا لَهـا عِنـدي فَمـا عِنـدَها لِيـا
قَضَـى اللهُ بِـالمَعروفِ مِنهـا لِغَيرِنـا ... وَبِالشَّـوقِ مِنّـي وَالغَـرامِ قَضَـى لِيـا
وَإِنَّ الَّـذي أَمَّلـتُ يـا أُمَّ مالِـكٍ ... أَشـابَ فُوَيْـدِي واسـتَهامَ فُؤادَيـا[2]
أَعُـدُّ اللَّيـالي لَيلَـةً بَعـدَ لَيلَـةٍ ... وَقَـدْ عِشـتُ دَهـرًا لا أَعُـدُّ اللَّيالِيـا
وَأَخـرُجُ مِـن بَـينِ البُيـوتِ لَعَلَّنـي ... أُحَـدِّثُ عَنـكِ الـنَّفسَ بِاللَّيـلِ خالِيـا
أَرانـي إِذا صَـلَّيتُ يَمَّمـتُ نَحوَهـا ... بِـوَجهي وَإِنْ كـانَ المُصَـلَّى وَرائِيـا
وَمـا بِـيَ إِشـراكٌ وَلَكِـنَّ حُبَّهـا ... وَعُظْـمَ الجَـوى أَعيـا الطَّبيـبَ المُداوِيا
أُحِبُّ مِنَ الأَسماءِ ما وافَقَ اسمَها ... أَوَ اشْـبَهَهُ أَو كـانَ مِنـهُ مُـدانِيا
* * *

عَلَى مِثلِ لَيلَى يَقتُلُ المَرءُ نَفسَهُ ... وَإِن كُنتُ مِن لَيلَى عَلَى اليَأسِ طاوِيا
خَليلَـيَّ إِنْ ضَـنُّوا بِلَيلـى فَقَرِّبـا ... لِـيَ الـنَّعشَ وَالأَكفـانَ وَاسـتَغفِرا لِيـا

---

١ انظر: ديوان قيس بن الملوح مجنون ليلى، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان (٢٠٢- ٢٠٥).

٢ الفويد: تصغير فود، وهو جانب الرأس. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣/ ٣٤٠).

ولمجنون بني عامر قصائد في مختارت الحماسة البصرية وفي ديوانه، ولكن لا يَسَعُنا التَّوسُّع فيها بسبب اضطراب رواية شعره واختلاط أشعاره بأشعار آخرين حتى في بعض أبيات تلك القصيدة.

٢- قيس بن ذُريح

ترجمته:

هو قيس ين ذُريح بن سُنَّة بن حُذافة، وقيل: بل قيس بن ذريح بن الحباب ابن سُنَّة؛ من بني كنانة، وهو أخو الحسين بن علي بن أبي طالب من الرضاعة؛ حيث أرضعتهما أم قيس بنت سنَّة الخزاعية، وقد سكن ضواحي المدينة، وصاحِبَتُه لُبنى بنت الحُباب الكعبية، إذْ مرَّ يومًا على خيامٍ لِبَنِي كعب بن خزاعة ورآها فوقعت في قلبه وكانت حلوة المنظر والكلام، ورفده أهلها ثم عَلق الحب بينهما وطلب من أبويه تزويجها له، فأبَى أبوه وكان رجلًا غنيًّا ويريد تزويج ولده الوحيد من بنات عمومته كي لا يخرج ماله إلى الغريب، فطلب العون من أمِّه فلم تُجِبه، فأتى أخاه من الرضاعة الحسين بن عليٍّ فتوسَّط له عند أبويه فأعظما وساطته وأذِنا له فتزوَّجها، وأقامت عنده مدَّة من الزمن، غير أنَّهما لم يُرزَقا بولد، وغارت أمُّه من فرط عشقه لِلُبْنى، فأغرت أباه بأن يدفعه إلى تطليقها بذريعة عدم الإنجاب، فأبَى عليهما قيس وصمَّم على إبقائها على ذمَّته، لكنه مع الضغط والإلحاح اضطر إلى تطليقها، فغادرت بيته وعادت إلى أهلها، وتصادَفَ أنْ نعق غراب وقت فراقها له، فتشاءم قيس وقال[1]:

ألا يـا غُـرابَ البـينِ ويحَـكَ نَبِّنـي ... بِعِلمِـكَ فـي لُبْنَـى وأنـتَ خَبِيـرُ

فإن أنتِ لم تُخبِرْ بشيءٍ علِمتَهُ ... فـلا طِـرْتَ إلا والجَنـاحُ كَسِـيرُ

ودُرتَ بأعـداءٍ حبيبُـكَ فِـيهمُ ... كمـا قَـدْ تَرانـي بالحبيـبِ أَدُورُ

فنذرتْ لُبنى ألا تقدر على غرابٍ إلا قتلتْه، وحينها ندم قيس على تطليقها ندمًا شديدًا وتأجَّجت نار الحب في قلبه وتولَّاه جزع شديد وشعر بألم الوجد والفقد، وانفجر منه شِعرٌ باكٍ رقيقٌ، وشاع خبره حتى يُروَى أن أباها شكاه إلى معاوية فأرسل إلى والي المدينة مروان بن الحكم بأن يهدِّد قيسًا بإهدار دمه إن لم يكفَّ،

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٦١٤).

وتزوجَّت لبنى بعده بخالد بن حلزة الغطفاني، وقيل: بل برجل من آل كثير ابن الصلت الكندي حلفاء قريش؛ وقيل: بل تزوَّج قيس أولًا بجارية تُدعَى لُبنى كذلك بتدبيرٍ من أبيه حتى ينسيه حب لُبنى، فلمَّا علمت بزواجه تزوَّجت هي غيره.

فلمَّا علم قيس بزواجها جزع حزعًا شديدًا واغتمَّ وبكى أحرَّ البكاء ومرض مرضًا شديدًا وأخذ يتعقَّب آثارها، ويُروَى أنه لَقِيَها في موسم الحج وحاول أن يصل إليها وقد علمت أنه لا يزال على حُبِّه لها، وعلم هو أنها لا تزال على العهد، فسعى في إرجاعها.

وتختلف الروايات في شأن نهاية قصة الحب تلك؛ فأغلب الرواة أنَّهما ماتا على افتراقهما واختُلِف أيُّهما مات أوَّلًا فقيل: إنه مات قبلها فماتت أسفًا عليه؛ وقيل: بل ماتت هي قبله فأخذ يبكيها على قبرها حتى أُغمِيَ عليه فحُمِل إلى منزله وما لبث أن توفِّيَ حزنًا ثم دُفِن بجوراها؛ وقيل: بل لمَّا رأى حالَه بعضُ أصحابه؛ منهم الحسن بن علي وأخوه من الرضاعة الحسين وابن عمهما عبد الله بن جعفر؛ ذهبوا إلى زوج لبنى فتشفَّعوا عنده فطلَّقها راضيًا، وعوَّضه الحسن عنها بعدد كبير من الإبل، فعادت لُبنَى إلى حبيبها قيس فعاشا معًا حتى ماتا، وقيل: ماتت قبله فأخذ يبكيها على قبرها حتى مات، وكانت وفاته نحو ٦٨هـ/٦٨٨م.[١]

وقد رُوِيت لقيس بن ذريح أخبار عديدة كذلك لا ندري الصحيح منها ممَّا نُسِج عليه، وقد اختلطت أخباره بأخبار مجنون بني عامر قيس بن الملوح، حتى إن بعض أخبار ابن ذريح وردت في قصة المجنون من باب الخلط في الروايات، وربَّما أتى هذا الخلط من تشابه الاسمين في "قيس وليلى" و"قيس ولُبنى"، ولكن الفارق هنا أن قيس بن ذريح لم يطعن الرواة في وجوده مثلما طعن بعضهم في حقيقة وجود قيس بن الملوح، وإن نُسجت حوله هو الآخر العديد من الأساطير.

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٩/ ١٢٤- ١٤٩).

شعره:

ما يُقال في شعر قيس بن الملوح يقال في شعر قيس بن ذريح من حيث الخصائص والملامح الشعرية من ناحية صفاء الطابع البدوي ومتانة السبك وقوة الأسلوب والتراكيب مع فخامة اللفظ دون بلوغه الغريب، بالإضافة إلى فرط الإحساس بالحب والوجد، والبراعة في تصوير أحاسيسه، مع رقة المعنى والعبارة، وعذوبة الموسيقى وامتلائها بالشجن والسحر، والتهاب العاطفة التي ألهبها شعور الوجد والجوى حتى يصوِّر في أشعاره ما أصابه من الألم والوجع لفقد حبيبته.

ونحن لا نستطيع أن نحكم على شعره حكمًا دقيقًا؛ لأنه مثل شعر ابن الملوّح قد دخل عليه شعر منحول واختلط بعض شعره بشعر قيس بن الملوّح حتى إن القصيدة اليائية التي أوردناها لابن الملوَّح قد اختلطت بعض أبياتها بشعر قيس ابن ذُريح، لكن من خلال عموم ما رُوِيَ من شعره نستطيع بشكل عام معرفة أساليب شعر العُذريين من المعاني الرقيقة والعواطف الناعمة والمبالغة في وصف آلام الهوى ومآسي البعد.

نماذج من قصائده:

- رُوِيَ عنه في تطليقه "لُبنى" مرغَمًا[1]:

فَواكَبَـــدي وَعـــاوَذَني رُداعـــي ... وَكـــانَ فِـــراقُ لِبنـــى كالجـــداعِ

تَكَنَّفَنِـــي الوُشـــاةُ فَـــأَزعَجوني ... فَيـــا لَلَّهِ لِلواشـــي المُطـــاعِ

فَأَصـبَحتُ الغَـداةَ أَلـومُ نَفسـي ... عَلَـى شَـيءٍ وَلَـيسَ بِمُسـتَطاعِ

كَمَغبـونٍ يَعَـضُّ علَـى يَدَيـهِ ... تَبَـيَّنَ غَبْنَـهُ بَعـدَ البَيـاعِ

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٦١٤).

- ورُوِيَ عنه أنه قال[1]:

فَـإِنْ تَكُـنِ الـدُّنيا بِلُبْنَـى تَقَلَّبَـتْ ... فللـدَّهرِ فـي الـدُّنيا بُطـونٌ وَأَظهُـرُ
لَقَـدْ كـانَ فيهـا لِلأَمانَـةِ مَوضِـعٌ ... وَلِلكـفِّ مُرتـادٌ وَلِلعَـينِ مَنظَـرُ
وَلِلحـائِمِ الصَّـديانِ رَيٌّ بِرِيقِهـا ... وَلِلمَـرَحِ الـذيَّالِ خَمـرٌ وَمُسـكِرُ

- ورُوِيَ عنه أنه قال[2]:

أَلا يا غُرابَ البَينِ قَد طِرتَ بِالَّذي ... أُحـاذِرُ مِـن لُبنَـى فَهَـلْ أَنـتَ واقِـعُ
كـأَنَّ بِـلادَ اللهِ مـا لَـمْ تَكُـنْ بهـا ... وإِنْ حلَّ فيهـا الخَلْـقُ وحـشٌ بلاقِـعُ
لقَـدْ كنـتُ أبكـي والنَّـوى مطمئنَّـةٌ ... بِنـا وبِكُـمْ مِـن عِلـمِ مـا البَـينُ صـانِعُ

ورُوِيَ عنه قوله في لبنى؛ ونُسِبت أيضًا إلى جميلِ بثينة[3]:

وكنَّـا جميعًـا قبـل أن يظهـر الهـوى ... بأحســن حــالي غبطــةً وســرورِ
فمـا بـرح الواشـون حتـى بـدت لنـا ... بطــون الهــوى مقلوبــة لظهــورِ
فَـإِنْ يَحجُبوهـا أَو يَحُـلْ دُونَ وَصْـلِها ... مَقالَـــةُ واشٍ أو وَعِيـــدُ أَميـــرِ
فَلَـمْ يَمنعـوا عَينَـيَّ عَـن دائِـمِ البُكـا ... وَلَـن يُـذهبوا مـا قَـدْ أَجَـنَّ ضَـميري
إِلَـى اللهِ أَشكو مـا أُكِـنُّ مِـنَ الهَوى ... وَمِـــن حُـــرَقٍ تَعتـــادُني وَزَفيـــرِ
لقد كنتِ حسبَ النفسِ لو دام وصلنا ... ولكنَّمـــا الـــدنيا متـــاعُ غـــرورِ

ولقيس بن ذريح شعر كثير في ثنايا كتب الأدب؛ كالأغاني والحماسة والبصرية والشعر والشعراء، لكننا لا نتوسع فيه بسبب المنحول والشعر المتداخل، حتى بعض الأبيات التي أوردنا لم تَخلُ من شبهة الاختلاط مع أشعار آخرين.

---

١ انظر: الحماسة البصرية، علي بن أبي الفرج البصري (٢/ ١١٥).
٢ انظر: المصدر السابق (٢/ ٢٠٠).
٣ بلاقع: الأرض الخالية. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٨/ ٢١).
٤ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٦١٣)، اختلطت هذه القصيدة بشعر لجميل بثينة.

٣- جميل بُثَينة

ترجمته:

هو جميل بن عبد الله بن معمر بن الحارث بن ظبيان، وقيل: بل جميل ابن معمر بن عبد الله بن الحارث بن ظبيان، وفي موضعٍ آخر: معمر بن حُنَّ ابن ظبيان، من بني عذرة من قضاعة، وقد اختُلِف في نسب قضاعة أهو لقحطان أم لمعد بن عدنان، وُلد جميل في نهاية خلافة عثمان، وقيل: بل سنة ٤٠هـ على اضطراب الروايات، في وادي القرى بالحجاز على مقربة من المدينة، في أسرة ذات سَعَةٍ وقدرٍ، وأخواله من جُذام.

وهو من عشاق العرب المشهورين ومُقدَّم في شعرائهم، وصاحِبَتُه بُثينة بنت حبإ ابن ثعلبة، ويقال: إنه شبَّب أوَّلًا بأختها أم الجسير ثُمَّ علق بأختها بثينة، وكان أول تعلُّقه بها أنه كان يرعى الإبل في أحد الوديان وأقبلت بثينة وجارة لها واردتَيْنِ الماء، فرآها وأعجب بها، وكان هذا أول الحب بينهما، وفي رواية أن النساء خرجن في يوم عيد، ومن بينهن بثينة وأختها أم الجسير، فوقف عليهن جميل وقعد معهن ورأى بثينة وأعجبته وتبادل معها النظرات، فانتبه لهما الحضور، وشاع الحب بينهما منذ ذلك الحين، وكان يختلس لقاءها ويتتبَّعها وكان يلقاها خِلسة في غفلاتٍ من أهلها، حتى إذا خطبها رفض أبوها لتشبيبه بها على عادة أهل البادية إذا شبَّب أحدهم بابنة لهم حرموه منها وزوَّجوها بغيره؛ فيما يرونه صونًا لها ودرءًا لأيَّة ريبة حولها، وهنا اضطرب قلب جميل واشتعلت فيه مشاعر الحب والوجد والهيام، وتفجَّرت في نفسه مشاعر الألم ووجع الأمل الضائع، وظلَّ يُشبِّب بها ويحاول الالتقاء بها حتى بعد زواجها، ورُوِيَ أنه كان يرسل رفيقه الشاعر كُثيِّر بن عبد الرحمن كي يضرب لها موعدًا، حتى إن كُثيِّرًا طلب مرة أن يمدَّه بعلامة أو إشارة تكون بينها وبينه حتى يبلغها الرسالة والموعد إن لم يَخْلُ بها، وبعدها ذهب كثيِّر إلى والد بثينة فأنشده من شعرًا وسمعتْه بثينة ففهمت تلميحه وقالت لجارية لها: يا جارية؛ ابغينا من الدوامات خجرة البطحاء حطبًا

لنذبح لكثيّر عريضًا من البهم ونشويه له؛ فقال كثير: إني أَعجَلُ من ذلك؛ ثم انصرف وأبلغ جميلًا بالموعد والمكان في موضع الدوامات، فذهب جميل إلى الموضع وجاءت بثينة مع بعض قريباتها فالتقيا حتى برق الصباح، وفي رواية أخرى أنه التقى بجارية لها فسألها عنها ثم أهداها خاتمًا بيده كي تعطيه لها من أجل المواعدة، فاكتشف أهلها أمره وعلمتْ بذلك بثينة فلم تذهب إليه، وجدَّ أهلها في طلبه فلم يدركوه، ويقال في رواية ثالثة: إنه زارها مرة متنكِّرًا؛ وله في اختلاسه لقاءها وأخباره معها وخصومته إياها ثم تصالحه معها قصص شتى.

وما لبث أن زوَّجها أهلها لرجل غيره هو نُبيه بن الأسود العذري، فزاد هيام جميل وولوعه وظل يشبِّب بها ويتحيَّن فرص لقائها ويتعقَّبها أينما حلَّت حتى ضجر منه أهلها فشكوه إلى عامل وادي القرى -وقيل: بل إلى مروان بن الحكم أمير المدينة- فكلَّف عامله على وادي القرى دجاجة بن ربعي؛ الذي هدَّد بهدرِ دمه إن عاد لرؤيتها، ففرَّ جميل إلى أخواله جذام حينًا، حتى إذا عُزِل مروان عن المدينة عاد إلى موطنه من جديد وأخذ يتعقَّبها ويشبِّب بها، فكرَّر عامل وادي القرى تهديده بإهدار دمه، فاضطر جميل إلى مغادرة دياره والذهاب إلى الشام، ويُقال: إنه اختلس لقاءها في غفلة من أهلها وودَّعها قبل رحيله ثم ذهب إلى مصر فمدح واليها عبد العزيز بن مروان الأموي، ولكن لم تَطُلْ إقامته بمصر وما لبث أن اعتلَّ بها وتوفِّيَ نحو عام ٨٢هـ/٧٠١م[1] ويُقال: إن بثينة لمَّا علمت بموته ظلَّت تبكيه حتى وفاتها.

وكان جميل عفيفًا رقيقًا، حتى قيل: إنه قد لامه بعض أصحابه، فقال وقت مرضه الأخير لرفيق له: ما تقول في رجلٍ لم يَزْنِ قطُّ ولم يشرب الخمر قطُّ ولم يقتل نفسًا حرامًا قطُّ، يشهد ألا إله إلا الله؟ فقال: أظنُّه -واللهِ- قد نجا، فمن هذا الرجل؟ قال: أنا؛ فقال: والله ما سلمتَ وأنت منذ عشرين سنة تنسب ببثينة!! فقال: إنِّي لفِي آخر يوم من أيَّام الدُّنيا وأوَّل يوم من أيام الآخرة، فلا

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٢٥- ٤٣٥)؛ الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٨/ ٢٨٨- ٣٣١).

نالتني شفاعة محمد ﷺ إن كنت وضعت يدي عليها لريبة قطُّ، وما لبث أن توفِّيَ[1]، وكان جميل شاعرًا بديعًا أنيقًا، تفجَّرت موهبته الشعرية منذ الصغر فكان مطبوعًا عليه.

شعره:

جميل شاعر فصيح رائع مُقدَّم عند النقاد على كثير من معاصريه من شعراء الغزل، وشعره رقيق أنيق سهل التراكيب واضح المعاني متأجِّج العاطفة[2]، وأسلوب جميل في شعره قويٌّ حسن الرَّصف ولكنَّه أسهل وأرَقُّ وأسلس لفظًا من عموم شعراء البادية مثل قيس بن ذريح وقيس بن الملوح؛ ولعلَّ هذا لأنه كان حجازيًّا؛ أي: أقرَبَ لحياة المدن من شعراء نجد واليمامة، ويمتاز شعره بمظاهر الصفاء والعفَّة والرِّقَّة والوفاء للمحبوب وصدق العاطفة، يصور فيه ببراعةٍ وإبداعٍ حُبَّه النَّقي البريء العفيف وحاله من الشوق والحزن واللوعة، وكان يمعن في التغزل بالروح دون اللجوء إلى الوصف البدني.

وجميلٌ شاعر جمع بين الشعر والرواية؛ فقد أخذ الشعر عن هُدبة بن الخشرم راوية الحطيئة الذي كان بدوره راوية لزهير بن أبي سلمى وولده كعب بن زهير، وهي مدرسة شاعرية معروفة تميل إلى التدبيج والتنقيح والعناية بالشعر وبألفاظه ومعانيه، وكان كُثيِّر عزَّة راوية له وكَثِيرًا ما كان يقدِّمه على نفسه ولا ينشد لنفسه إلا إذا بدأ بشعر جميل أوَّلًا، فكان يفضِّله ويتَّخذه إمامًا، وكان نُصيب يقول فيه: وهل وطَّأ لنا النَّسيب إلا جميل؟! وكان يقول فيه: هو إمام المحبِّين[3].

وتتجلَّى في شعر جميل معاني الحب العفيف الصافي، والإحساس النقي البريء، في سياق من الأصالة والإنسيابية واسترسال العاطفة وصفاء الروح وذوبان القلب، وشعر جميل وإن اختلط بعضه بشعر آخرين من الشعراء العذريين

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٣١- ٤٣٢).
٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا فاخوري (ص٢٥٤).
٣ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٨/ ٢٩١- ٢٩٢).

فإنه في معظمه يُعتبر أوثَقَ روايةً؛ إذِ اعتنى الرواة بشعره وشغف به مُغَنُّو مكة والمدينة.

نماذج من قصائده:

- كان عبيد الله بن قطبة من أقرباء بثينة الأدنين قد اعترض جميلًا، فهجاه وتعرَّض لقومه من رهط بثينة وغلبهم حتى شكوه إلى الوالي وقد غضبت منه بثينة لهجائه كلَّ قومها حيث يقول[1]:

وَما صائِبٌ مِن نابِلٍ قَذَفَتْ بِهِ ... يَدٌ وَمَمَرُّ العُقدَتَينِ وَثيقُ
لَهُ مِن خَوافي النَّسرِ حُمٌّ نَظائِرٌ ... وَنَصلٌ كَنَصلِ الزَّاعِبِيِّ فَتِيقُ
عَلى نَبْعَةٍ زَوراءَ أَمَّا خِطامُها ... فَمَتْنٌ وأَمَّا عُودُها فَعَتِيقُ
بِأَوشَكَ قَتلًا مِنكِ يَومَ رَمَيتِني ... نَوافِذَ لَم تُعلَمْ لَهُنَّ خُرُوقُ
كَأَنْ لَم نُحارِبْ يا بُثَينَ لَوَ انَّها ... تَكَشَّفَ غُمَّاها وأَنتِ صَدِيقُ

- ورُوِيت له قصيدة بديعة يبدو أنها قالها مودِّعًا حينما اعتزم الذهاب إلى مصر فِرارًا من عامل وادي القرى الذي هدَّد بسفك دمه[2]:

أَلا لَيتَ أَيّامَ الصَّفاءِ تَعُودُ ... وَدَهرًا تَوَلَّى يا بُثَيْنَ يَعودُ
فَنَغْنَى كَما كُنَّا نَكونُ وَأَنتُمُ ... صَدِيقٌ وَإِذْ ما تَبذُلِينَ زَهِيدُ
وَما أَنْسَ مِالأَشياءِ لا أَنسَ قَولَها ... وَقَدْ قُرِّبَتْ نضْوِي أَمِصرَ تُرِيدُ
وَلا قَولَها لَولا العُيونُ الَّتي تَرَى ... أَتيتُكَ فَاعذُرني فَدَتْكَ جُدودُ
خَليلَيَّ ما أُخفِي مِنَ الوَجدِ ظاهِرٌ ... فَدَمعي بِما أُخفي الغَداةَ شَهيدُ
أَلا قَدْ أَرَى وَاللهِ رُبَّ عَبْرَةٍ ... إِذا الدَّارُ شَطَّتْ بَينَنا سَتَزُودُ
إِذا قُلتُ ما بي يا بُثَينَةُ قاتِلي ... مِنَ الوجدِ قالَتْ ثابِتٌ وَيَزِيدُ
وَإِنْ قُلتُ رُدِّي بَعضَ عَقلي أَعِشْ بِهِ ... مَعَ النَّاسِ قالَتْ ذاكَ مِنكَ بَعِيدُ
فَلا أَنا مَرجوعٌ بِما جِئتُ طالِبًا ... وَلا حُبُّها فيما يَبِيدُ يَبِيدُ

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (١/ ٦٠).
٢ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٧٢).

جَزَتْكِ الجَوازي يا بُثَينَ ملامَةً ... إذا ما خَليلٌ بانَ وَهْوَ حَميدُ
وَقُلْتُ لَها بَيني وَبَينَكِ فَاعلَمي ... مِنَ اللهِ ميثاقٌ لَنا وَعُهودُ
وَقَدْ كانَ حُبّيكُم طَريفًا وَتالِدًا ... وَما الحُبُّ إلَّا طارِفٌ وَتَليدُ
وَإِنَّ عَروضَ الوَصلِ بَيني وَبَينَها ... وَإِنْ سَهَّلَتْهُ بِالمُنَى لَصَعُودُ
فأَفْنَيتُ عيشِي بِانتِظارِي نَوالَها ... وَأَبلَتْ بذاك الدَّهرَ وَهْوَ جَديدُ
فَلَيتَ وُشاةَ النَّاسِ بَينِي وَبَينَها ... يَدوفُ لَهُم سُمًّا طَماطِمُ سُودُ
وَلَيتَهُمُ في كُلِّ ممْسًى وشارِقٍ ... تُضاعَفُ أَكبالٌ لَهُمْ وَقُيودُ

- وقال أيضًا يذكر لوم بعض عاذليه[1]:

لَقَدْ لامَني فيها أَخٌ ذو قَرابَةٍ ... حَبيبٌ إِلَيهِ في نصيحتِهِ رُشدي
وَقالَ أَفِقْ حتَّى مَتَى أَنتَ هائِمٌ ... بِبَثْنَةَ فيها قَدْ تُعيدُ وَقَدْ تُبْدي
فَقُلتُ لَهُ فيها قَضَى اللهُ ما تَرى ... عَلينا وَهَلْ فيما قَضَى اللهُ مِن رَدِّ
فَإِنْ كانَ رُشدًا حُبُّها أَو غِوايَةً ... فَقَدْ جِئتُهُ ما كانَ مِنِّي علَى عَمْدِ

- ورُوِيَ عنه يخاطب بثينة، ويبدو من خلال الأبيات أنْ دبَّ الوشاة بينهم بشأنه وأنه مال عنها، فصدَّقتهم، فقال يلومها على تصديقهم[2]:

سَلينِيَ مالي يا بُثَينَ فَإِنَّما ... يُبَيَّنُ عِندَ المالِ كُلُّ ضَنينِ
فَما لَكِ لَمّا خَبَّرَ النَّاسُ أَنَّني ... أسأتُ بِظَهْرِ الغَيبِ لَم تَسَلِيني
فَأُبلِيَ عُذرًا أَو أَجِيءَ بِشاهِدٍ ... مِنَ النَّاسِ عَدلٍ أَنَّهُم ظَلَموني
وَلَستُ وَإِنْ عَزَّتْ عَلَيَّ بِقائِلٍ ... لَها بَعدَ صَرمٍ يا بُثَينَ صِلِيني
لحَى اللهُ مَن لا يَنفَعُ الوَدُّ عِندَهُ ... وَمَنْ حَبلُهُ إن مُدَّ غَيرُ مَتينِ
وَمَن هُوَ ذو لونَينِ لَيسَ بِدائِمٍ ... علَى خُلُقٍ خوَّانُ كلِّ أمِينِ
فليتَ رجالًا فيكِ قَدْ نَذَرُوا دَمِي ... وهمُّوا بِقَتْلي يا بُثينَ لَقُوني

---

١ انظر: المصدر السابق (ص٧٣).
٢ انظر: المصدر السابق (ص٧٧).

٤- عمر بن أبي ربيعة

ترجمته:

هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة حذيفة بن المغيرة المخزومي القرشي، ويُكنى بأبي الخطَّاب، وكان أبو ربيعة يُسمَّى ذا الرُّمحين؛ لطوله، وقيل: بل لأنه قاتَلَ يوم عكاظ بِرُمحَين، وكان أبوه عبد الله يُسمَّى في الجاهلية بحيرا، فسمَّاه رسول الله ﷺ عبد الله، وكان تاجرًا موسرًا ذا مالٍ، واستعمله رسول الله ﷺ على بعض نواحي اليمن، وكان من ضمن عمَّال أبي بكر وعمر وعثمان.

وقد وُلِد عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة في مكة نحو عام ٢٣هـ، في نفس ليلة مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقيل: بل وُلِد بالمدينة ثم ارتحل إلى مكة؛ والأول أرجح، وأمُّه سبِيَّة من حضرموت أو حِمْير تُدعَى "مجد"، وكان له إخوة؛ منهم الحارث بن أبي ربيعة أحد أشراف قريش، وقد شبَّ عمر في أسرة غنيَّة مي سورة الحال فتربَّى في كنفٍ من النعيم والتَّرف والبعد عن شدائد الأمور، فتفرَّغ للشعر منذ صغره فسلك فيه مسلكًا غير مسلك معاصريه، وقد طُبِع لسانه على الغزل الصريح فقصَر شعره عليه واشتهر به، وكان جميلًا رقيقًا، سهل المعاشرة، حلو الحديث، وفيه دعابة ومرح، وكان يتعقَّب الفتيات للتَّشبيب بهن وذاعت شهرته وأكبَّ الناس على ترديد شعره وروايته، وشُغِف به المُغنُّون من أمثال ابن سُريج وابن عباد وابن محرز والغريض ومعبد، فلزموه وغنوا بشعره، ويُروَى أنه كان يتعقَّب النِّساء القادمات إلى مكة في مواسم الحج فيلقاهنَّ في المواقيت ويتتبَّعهن في القدوم وحتى في الطواف، وكان يتخيَّر العقائل والأميرات والحرائر وشريفات قريش فيتغزَّل بهن غزلًا صريحًا، وممن ذكرهنَّ في شعره زينب بنت موسى الجُمحية وليلى بنت الحارث البكرية وامرأة تدعى أم الحكم من بني أمية وهند بنت الحارث المرِّيَّة وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله وكلثم بنت سعد المخزومية ولبابة بنت عبد الله بن العباس ورملة الخزاعية وأم عمرة بنت مروان بن الحكم وأم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان زوجة الخليفة الوليد ابن

عبد الملك وأخت عمر بن عبدالعزيز والثُّريا بنت عليٍّ الأموية، وتلك الأخيرة كانت لها معه قصة طويلة في الوصال والهجر إلى أن تزوَّجها سهيل بن عبد العزيز ابن مروان، فحزن عمر حزنًا عظيمًا، ولمَّا بلغه موتها رثاها، وقال فيها وفي غيرها شعرًا كثيرًا.

ورُوِيتْ عنه أخبار شتى مع نساء لَقِيَهُنَّ وواعَدَهُنَّ في وادي العقيق، وشبَّب بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان وكان قد لَقِيَها وجرى بينهما حوار فقال فيها[1]:

افعَلِـي بالأسـيرِ إحـدَى ثَـلاثٍ ... وافْهمِـينَّ ثُـمَّ رُدِّي جَـوابي

أقتُلِيـهِ قَـتْلًا سَـرِيعًا مُرِيحًـا ... لا تكـوني عليـهِ سَـوْطَ عـذابِ

أو أَقِيـدِي فإنَّمـا الـنَّفْسُ بالنَّفـ ... ـسِ قَضـاءً مفصَّـلًا فـي الكِتـابِ

أو صِـلِيهِ وَصْـلًا يَقَـرُّ عليـهِ ... إنَّ شـرَّ الوِصـالِ وَصْـلُ الكِـذابِ

في قصيدة طويلةٍ، فوصلته فاطمة على كل بيت بعشرة دنانير، وممَّا يُروَى أنها كانت تأمر بشدِّ عينيه وتأخذه في رحالها إلى محلِّها ثم تحلُّ عينيه وأثناء العودة تصنع به مثل ما صنعتْ لدى قدومه.

وهكذا أصبح عمر بن أبي ربيعة شغل النِّساء الشاغل، وكان من النساء من تميل أن تتعرض له كي يشبِّب بها، ومنهن من كنَّ يهوين لقاءه؛ لجماله وحلاوة حديثه ورقَّة شعره، وله في ذلك قصص شتى، ولمَّا أفرط في تعقُّب النِّساء والحرائر في مواسم الحجِّ؛ بدأت بعض الأسر في حجب بناتهم ونسائهم عن الحج والعمرة خشية منه، فلمَّا شاع خبره؛ عاقَبَه أمير المدينة حينها عمر بن عبد العزيز، ويُقال: إنه نفاه إلى جزيرة دهلك بين اليمن والحبشة، وكان منفًى لبني أمية، ولم يَعُدْ إلى موطنه إلا بعد أن أعلَن توبتَه وتنسَّك وزهد وأقلع عن صبوته، وكان حينها قد شاخ وكبرت سنُّه، فلم يصعب عليه الوفاء بعهده حتى توفِّيَ عام ٩٣هـ/٧١١م، وهناك بعض الاضطراب في روايات وفاته؛ فقيل: إنه خرج إلى الغزو والجهاد بحرًا فاحترقت سفينته التي كان عليها، وفي رواية أخرى: أصابه

---

[1] انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٥٤١).

غصن شجرة فدمي ومات منه؛ ويُروَى في موضع آخر أنه مرض مرضه الأخير فجزع عليه أخوه الحارث فقال له عمر: أحسبك إنما تجزع لِما تظنه بي، والله أعلم أني ما ركبت فاحشة قطُّ؛ فقال: ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك وقد سرَّيتَ عنِّي.[1]

شعره:

شعر عمر بن أبي ربيعة رشيق اللفظ، رائق الأساليب، حسن الوصف، رائع السبك والرصف، سهل الفهم، خفيف الظل، ملائم لهوى النفس، له أثر في القلب والروح، يمتاز بسلاسة اللفظ وسهولة وأناقته، ينساب رقَّةً وليونة ونعومة، وكان يتخيَّر الألفاظ الفصيحة العذبة السهلة عن الجزلة ويفضِّل المعاني القريبة حتى يصير شعره أقرب إلى الفهم، وقد امتازت تراكيبه بالمتانة والنقاء.

وفي شعره أساليب مبتكرة فشغف به الندماء والمغنُّون والقيان، وقد قصر شعره على الغزل الصريح ووصف النساء ومغامراته معهن، في جرأة لم تكن مألوفة، كما أن رقَّته دفعته إلى النَّظم أحيانًا على أوزان خفيفة ومجزوءة كانت قليلة الاستعمال؛ فكان توافقًا مع حالة الترف والدلال التي عبَّر عنها شعره، وتماشيًا مع ذائقة المغنِّين والمغنِّيات الذين كانوا يحبُّون الإيقاعات السريعة وما فيها من عذوبة وحلاوة.

وكان الشعر قد قلَّ في قريش رغم وجود بعض الشعراء المبدعين حتى جاء عمر ابن أبي ربيعة فجعل لقريش من الشعر نصيبًا وافرًا، ومن فرط جرأته في الشعر كان ابن جُريج يقول: ما دخل على العواتق في حجالهن شيءٌ أضرُّ عليهن من شعر عمر بن أبي ربيعة؛ وقال هشام بن عروة: لا تُرَوُّوا فتياتكم شعر عمر بن أبي

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٥٣٩- ٥٤٤)؛ الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١/ ٨٧- ٨٨).

ربيعة؛ لا يتورَّطن في الزنا تورُّطًا؛ وقال ابن المقوِّم الأنصاري: ما عُصِيَ اللهُ بشيء كما عُصِيَ بشعر عمر بن أبي ربيعة.[1]

وقد شهد له عدد من شعراء عصره؛ كجرير الذي قال في إحدى زياراته للمدينة: إنَّكم يا أهل المدينة يعجبكم النَّسيب وإنَّ أنسب الناس المخزومي؛ يعني عمر ابن أبي ربيعة، ولما سمع أبياتًا له قال: إن هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القرشي؛ أي إنهم أرادوا الغزل لكنهم انصرفوا إلى بكاء الديار.[2]

وهو مختلف عن سائر الشعراء العذريّين؛ فهؤلاء وصفوا الحب والجمال الرُّوحي ولم يلجؤوا إلى الوصف الحسّيّ والبدني الصريح، واقتصر كلٌّ منهم على امرأة واحدة خاض معها تجربته الأليمة، أما عمر بن أبي ربيعة فقد كان غزله وصفًا حسّيًّا للمرأة والجسد، وبه شيء من الجرأة والفحش وخدش الحياء، ولكن قلَّما وصل إلى درجة الإباحية.

وفي شعر ابن أبي ربيعة تصوير لجمال المرأة وللحسّ المرهف، وبه نماذج للحوار والتراسل القصصي الذي كان يحكي فيه عن مغامراته ولقائه مع النساء، ولكن لا نرى في شعره تلك العاطفة الصادقة ولا تلك التجربة الشعورية التي مرَّ بها هؤلاء الشعراء العذريُّون مثل قيس وجميل؛ وذلك لأن هؤلاء قد مرُّوا بتجربة حب حقيقة وتعرَّضوا للحرمان فكان غزلهم أحرَّ عاطفة وأصدق شعورًا لأنه ناجم عن تجارب حقيقة، أما عمر بن أبي ربيعة فكان يتغزَّل بهذه ثم ينصرف عنها إلى غيرها ثم إلى ثالثة ورابعة وهكذا، ويتنقَّل قلبه من هذه إلى تلك ويقول شعرًا هنا وهناك، فإذا استثنينا قصَّته مع الثُّريا وتعقُّبَه لها فلا نراه قد مرَّ بتجربة عاطفية حقيقة صادقة؛ إنما كان يتغزَّل من أجل الشهوة والمتعة وقضاء الوقت فقط، وإن كان هذا لا ينفي جودة شعره وإبداع أساليبه وما في شعره من خفَّة الظل وحلاوة الرُّوح، ولم يكن من شعراء النَّسيب في الحجاز من يتقدَّم عمر وجميلًا.

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١/ ٨٧).
٢ انظر: المصدر السابق (١/ ١١٤).

نماذج من قصائده:

- من طرائفه أنه لَقِيَ أم عمر بنت مروان بن الحكم وكانت متنكِّرة، فقضت وطرًا من محادثته، فلما رجعن من مِنَى عرفها، فبعثت إليه بألف دينار حتى يكتم عنها، فاشترى بها قصرًا وأهداه لها، فأبَتْ قبوله، ثم قبلته بعدما هدَّدها بإشاعة خبره، ومما قال في ذلك[1]:

وَكَمْ مِن قَتيلٍ لا يُباءُ بِهِ دَمٌ ... وَمِن غَلِقٍ رَهنًا إِذا ضَمَّهُ مِنَى
وَمن مالِئٍ عَينَيهِ مِن شَيءِ غَيرِهِ ... إِذا راحَ نَحوَ الجَمرَةِ البِيضُ كَالدُّمى
يُسَحِّبنَ أَذيالَ المُروطِ بِأَسْوُقٍ ... خِدالٍ إِذا ولَّيْنَ أعجازَها رِوَى
أَوانِسُ يَسلُبنَ الحَليمَ فُؤادَهُ ... فَيا طولَ ما شَوقٍ ويا حُسنَ مُجتَلَى
فَلَم أَرَ كَالتَّجميرِ مَنظَرَ ناظِرٍ ... وَلا كَلَيالي الحَجِّ أَفلَتْنَ ذا هَوَى

- وقال يأسف على فراق الثُّرَيَّا[2]:

لَيتَ شِعري هَل أَقولَنْ لِرَكْبٍ ... بِفَلاةٍ هُمْ لَدَيها هُجُوعُ
طالَما عَرَّستُمُ فَاركَبوا بي ... حانَ مِن نَجمِ الثُّرَيَّا طُلُوعُ
إِنَّ هَمّي قَدْ نَفَى النَّومَ عَنِّي ... وَحَدِيثُ النَّفسِ قِدْمًا وَلُوعُ
قالَ لي فيها عَتِيقٌ[3] مَقالًا ... فَجَرَتْ مِمَّا يَقُولُ الدُّمُوعُ
قالَ لي وَدِّعْ سُلَيمَى وَدَعْها ... فَأَجابَ القَلبُ لا أَستَطيعُ
لا تَلُمْني في اشتِياقي إِلَيها ... وابْكِ لِي مِمَّا تُجِنُّ الضُّلوعُ

- وقال كذلك في فراقها[4]:

قالَ لي صاحِبي لِيَعلَمَ ما بي ... أَتُحِبُّ القَتُولَ أُختَ الرَّبابِ
قُلتُ وَجْدي بِها كَوَجدِكَ بِالعذ ... بِ إِذا ما مُنِعتَ طَعمَ الشَّرابِ

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٢/ ١٧١).
٢ انظر: المصدر السابق (٢/ ١٧٤).
٣ عتيق: يعني أبا عتيق أحد أصدقائه.
٤ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٢/ ١٧٨- ١٧٩).

مَـن رَسُـولِي إِلـى الثُّرَيّـا بِـأَنِّي ضِـقتُ ذَرعًـا بِهَجرِهـا وَالكِتـابِ
أَزهَقَـتْ أُمُّ نَوفَـلٍ إِذْ دَعَتْهـا مُهجَتـي مـا لِقـاتِلي مِـن مَتـابِ
حـينَ قالَـتْ لَهـا أَجِيبِـي فَقالَـتْ مَـن دَعـاني قالَـتْ أَبـو الخَطَّـابِ
أَبرَزُوهـا مِثـلَ المَهـاةِ تَهـادَى بَـينَ خَمـسٍ كَواعِـبٍ أَتـرابِ
فَأَجابَـتْ عِنـدَ الـدُّعاءِ كَمـا لَبَّـ(م) ـى رِجـالٌ يَرجُـونَ حُسـنَ الثَّـوابِ
وَهْـيَ مَكنونَـةٌ تَحَيَّـرَ مِنهـا فـي أَديـمِ الخَـدَّينِ مـاءُ الشَّـبابِ
دُميَـةٌ عِنـدَ راهِـبٍ ذي اجتِهـادٍ صَـوَّرُوها فـي جانِـبِ المِحـرابِ

- وقال كذلك في فراقها[1]

جَـرَى ناصِـحٌ بِـالوُدِّ بَينـي وَبَينَهـا فَقَرَّبَنـي يَـومَ الحِصـابِ إِلـى قَتلِـي
فَطـارَتْ بِحَـدٍّ مِـن فُـؤادي وَقارَنَـتْ قَرينتُهـا حَبـلَ الصَّـفاءِ إِلَـى حَبلـي
فَلَمَّـا تَواقَفْنـا عَرَفـتُ الَّـذي بِهـا كَمِثـلِ الَّـذي بـي حَـذْوَكَ النَّعـلَ بِالنَّعـلِ
فَقُلـنَ لَهـا هـذا عِشـاءٌ وَأَهلُنـا قَريـبٌ أَلَمَّـا تَسـأَمي مَركـبَ البَغـلِ
فَقالَـتْ فَما تهوَيْنَ قُلنَ لَهَا انزِلي فَلَـلأَرضُ خَيـرٌ مِـن وُقـوفٍ علَـى رَحـلِ
وَقُمـنَ إِلَيهـا كالـدُّمى فاكتَنَفْنَهـا وَكُـلٌّ يُفَـدِّي بِـالمَوَدَّةِ وَالأَهـلِ
نُجـومٌ دَرارِيٌّ تَكَـنَّفنَ صُـورَةً مِـنَ البَـدرِ وافَـتْ غَيـرَ هُـوجٍ وَلا خَجْـلِ
فَسَلَّمتُ واستَأنَستُ خيفَـةَ أَن يَـرَى عَـدوٌّ مَكـاني أَو يَـرَى كاشِـحٌ فِعلـي
فَقالَـتْ وَأَرخَـتْ جانِـبَ السِّـترِ إِنَّمـا مَعـي فَتَحَـدَّثْ غَيـرَ ذي رِقْبَـةٍ أَهلـي
فَقُلتُ لَها ما بـي لَهُم مِن تَرَقُّبٍ وَلَكِـنَّ سِـرِّي لَـيسَ يَحمِلُـهُ مِثلـي

---

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص١٥٧).

طوائف من الشعراء

أولًا: شعراء الخوارج

(قطري بن الفجاءة- عمران بن حطان- الطرماح بن حكيم)

(١) قطري بن الفجاءة:

هو أبو نعامة قطري بن الفُجاءة بن مازن، من زيد مناة من تميم، كان رأس الخوارج الأزراقة زمنًا طويلًا، وكان في أوَّل أمره واليًا لبني أميَّة واشترك مع المهلَّب بن أبي صفرة في بعض الفتوحات في المشرق ثم ما لبث أن ثار على بني أمية ودان بمذهب الخوارج وانضم إلى فرقة الأزارقة بقيادة رئيسها آنذاك نافع ابن الأزرق، وكانت الأزارقة أشد فرق الخوارج وأعظمها خطرًا وتطرُّفًا، وكانوا يكفِّرون المخالفين لهم من سائر المسلمين ويَرَون وجوب قتالهم وقتْل أطفالهم ونسائهم وسَبْيهم.

وما لبث أن استفحل خطر الأزارقة إبَّان الفتنة بين الزُّبيريين والأمويين فبسطوا سلطانهم على نواحي واسعة من بلاد فارس واستولوا على طبرستان وكرمان والأهواز، وهزموا كل البعوث التي أرسلها عبد الله بن الزُّبير لقتالهم، وأخذوا يتهدَّدون العراق.

حينها استدعى ابن الزبير المهلَّب بن أبي صفرة -وكان واليًا على خرسان- لقتال الأزارقة، فانحدر إلى البصرة وتولَّى قتالهم وكان نافع بن الأزرق قد هلك في موقعة دولاب ثم هلك بعده عبيد الله بن ماحوز ثم الزُّبير بن عليٍّ، حينها بايع الأزارقة قطري بن الفجاءة فوَلِيَ أمرهم وتسمَّى بأمير المؤمنين، وجعل المهلَّب يحاربه زمنًا طويلًا دون أن يهزم أحدهما الآخر، إلى أن آلت العراق إلى حكم بني أمية وجاء الحجاج بن يوسف الثقفي واليًا، فدفع الناس من أهل الكوفة والبصرة إلى قتال الخوارج مع المهلب دفعًا، فدارت بين المهلب والأزارقة بقيادة

قطري عدة معارك طاحنة، وقد نجح المهلب في تحقيق بعض النصر وأجلاهم عن بعض المواقع، لكنه لم يستطع أن يحقّق عليهم نصرًا مبرمًا؛ لِما كان يُبْديه الأزارقة من جَلَدٍ وبأسٍ في القتال، فاستطالت الحرب أعوامًا حتى وقع الخُلف بين الأزارقة وانشقَّ عن قطريٍّ بعض قادته، حينها عضَّد الحجاج المهلَّب بقائده سفيان بن الأبرد الكلبي وولَّاه على الرَّيِّ فقاتل تحت إمرة المهلب الخوارج قتالًا عظيمًا، فعثرت بقطريٍّ فرسه فسقط أرضًا وما لبث أن قُتِلَ عام ٧٧هـ[1].

كان قطري بن الفجاءة المازني فارسًا شجاعًا قويًّا شديد البأس والنجدة، وكان قائدًا مُهابًا مقدامًا وشاعرًا مُقدَّمًا وخطيبًا مفوَّها، عظيم الإيمان بعقيدته، لكنَّه كان على الجانب الآخر مغاليًا متطرِّفًا على مذهب الأزارقة، يرى تكفير المخالف واستباحة دم سائر المسلمين وسبْي نسائهم وقتل أطفالهم.

وله شعر رقيق عذب، ومن أشهر قصائده ما قاله يصف يوم دولاب، وهو من أعظم وقائعهم حيث قُتِل فيه نافع بن الأزرق ولكن أنصاره انتصروا في تلك الموقعة انتصارًا عظيمًا، فقال قطري يصف تلك الواقعة وصفًا بديعًا دقيقًا، جاء منه[2]:

لَعَمْرُكَ إِنِّي فِي الحَيَاةِ لَزَاهِدُ ... وَفِي العَيشِ مَا لَمْ أَلْقَ أُمَّ حَكِيمِ
مِنَ الخَفَرَاتِ البِيضِ لَم يُرَ مِثْلُها ... شِفاءً لِذِي بَثٍّ وَلا لِسَقِيمِ
لَعَمْرُكَ إِنِّي يَومَ دولابَ أَبصَرَتْ ... طِعانَ فَتًى فِي الحَربِ غَيرَ ذَمِيمِ
غَداةَ طَفَتْ عَلْماءِ بَكرُ بنُ وائِلٍ ... وَأحلافُها مِن يَحصُبٍ وَسَلِيمِ
وَمالَ الحِجازِيُّونَ نَحوَ بِلادِهِم ... وَعُجْنا صُدُورَ الخَيلِ نَحوَ تَمِيمِ
وَكانَ لِعَبدِ القَيسِ أَوَّلُ جِدِّها ... وَوَلَّتْ شُيوخُ الأَزدِ فَهْيَ تَعومُ
فَلَمْ أَرَ يَومًا كانَ أَكثَرَ مَقعَصًا ... يَمُجُّ دَمًا مِن فائِظٍ وَكَلِيمِ
وَضارِبَةٍ خَدًّا كَرِيمًا علَى فَتًى ... أَغَرَّ نَجِيبُ الأُمَّهاتِ كَرِيمِ

---

١ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٦/ ٣٠٠- ٣١١).

٢ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ٢١٥). نسب بعضها لغيره والأشهر أنها له.

٣ مقعصًا: من القعص وهو أن يضرب إنسانًا فيموت مكانه. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٧/ ٧٨)؛ فائظ: من الفيظ وهو خروج النفْس؛ أي: الموت. انظر: لسان العرب (٧/ ٤٥٣).

أُصـيبَ بِـدولابٍ وَلَـمْ تَـكُ مَوطِنًـا لَـــهُ أَرضُ دُولابٍ وَديْـــرُ حَمِـــيمِ
فَلَـوْ شَـهِدَتْنا يَـومَ ذاكَ وَخَيلُنـا تُبـــيحُ مِـــنَ الكُفَّـــارِ كُـــلَّ حَـــرِيمِ
رَأَتْ فِتيَـةً بـاعوا الإِلـهَ نُفوسَـهُم بِجَنَّـــاتِ عَـــدنٍ عِنـــدَهُ وَنَعـــيمِ

وشعر قطري يمتاز بالسلاسة والعذوبة والإنسيابية،[1] وفيه قدر من رقَّة الأسلوب والتركيب، وهو متين السبك عظيم الأثر في النفس؛ لِما فيه من رُوح قويَّة وعاطفة متدفِّقة وإيقاع موسيقيٍّ أنيق وحسٍّ مرهف، وهو يضجُّ حماسة وحيوية ويمتاز بقوة العقيدة ورُوح الفروسية، ويدور حول أغراض الحماسة ووصف المعارك، ويصطبغ بصبغة دينية يدور فلَكُها حول التقوى والزهد والآخرة والتحريض على الجهاد ولوم المتقاعسين، ومن شعره كذلك[1]:

لا يَـركَنَنْ أَحَـدٌ إِلَـى الإِحجـامِ يَـــومَ الـــوَغَى مُتَخَوِّفًـــا لِحِمـــامِ
فَلَقَـــدْ أَرانـــي لِلرِّمـــاحِ دَرِيئَـــةً مِـــن عَـــن يَمينِـــي مَـــرَّةً وَأَمـــامي
حَتَّى خَضَبتُ بِما تَحَدَّرَ مِن دَمي أَكنـــافَ سِـــرجي أَو عَنـــانَ لِجـــامي
ثُمَّ انصَرَفتُ وَقَدْ أَصَبتُ وَلَمْ أُصَبْ جَـــذَعَ البَصـــيرَةِ قـــارِحَ الإِقـــدامِ

وشعر قطري قد حوى كل خصائص شعر الخوارج وضم جميع أغراضه، وقد عبَّر عنها تعبيرًا دقيقًا، ومن ذلك قوله في هذا الإطار الحماسي أيضًا[2]:

أَلا أَيُّهـــا البـــاغي البِـــرازَ تَقَـــرَّبَنْ أُســـاقِكَ بِـــالمَوتِ الـــذُّعافَ المُقَشَّـــبا
فَما في تَساقِي المَوتِ في الحَربِ سُبَّةٌ عَلـى شـارِبِيهِ فَاسـقِني مِنـهُ وَاشْـرَبا

وله أبيات رائعة في الحماسة واللوم على القعود، أوردنا منها جانبًا في حديثنا عن شعر الخوارج.

---

[1] انظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ص١٠١- ١٠٣).
[2] انظر: المصدر السابق (ص٤٨٤).

(٢) عمران بن حطان:

هو عمران بن حطان بن ظبيان السدوسي، من شيبان إحدى بطون بكر ابن وائل من ربيعة بن نزار، كان قد أدرك صدرًا من حياة بعض الصحابة وروَى عنهم وكان معروفًا بالتقوى والصلاح وطلبِ العلم وروايةِ الحديث، حتى شُغِف بحب امرأة من قومه كانت من الخوارج واسمها جمرة، فتزوَّجها راجيًا أن يحوّلها عن مذهبها، فأغوته وغلبت عليه بمذهبها، فدان بمذهب الخوارج وأخذ يشيد برموزهم وأفكارهم، حتى إنه مدح اللَّعين عبد الرحمن بن ملجم الذي قتل عليَّ ابن أبي طالب -رضي الله عنه- قائلًا[١]:

يَـا ضَـرْبَةً مِـنْ تَقِـيٍّ مَـا أَرَادَ بِهَـا ... إِلَّا لِيَبْلُـغَ مِـنْ ذِي العَـرْشِ رِضْـوَانا

إِنِّـي لأَذْكُـرُهُ يَوْمًـا فَأَحْسَـبُهُ ... أَوْفَـى البَرِيَّـةِ عِنْـدَ اللهِ مِيزَانـا

وهو الذي هجا الحجاج وعيَّره لفراره أمام غزالة الشيبانية، وكان عمران من القعدة فلم يشترك في تلك الحروب والوقائع حتى اعتبره بعضهم شيخ القعدة؛ وكان هذا لِكِبَرِ سِنِّه، فكان يحتجُّ بامرأته وبناته، وكان مقيمًا في البصرة فطلبه الحجاج ففرَّ إلى الشَّام وأقام عند رَوْحِ بن زنباعٍ قائد جند الخليفة عبد الملك ابن مروان متنكِّرًا حينًا وقد انتسب أمامه إلى الأزد، إلى أن كلَّم رَوْحٌ عبدَ الملك بشأنه وروَى له بعض حديثه وأخباره فشكَّ عبد الملك أنه عمران بن حطان؛ وذلك من خلال بعض شعره وصفته، فطلبه، ولمَّا شعر عمران أنَّه على وشك أن يُفتضح أمره؛ فرَّ على الفور بعد أن خلَّف رقعة له، قال فيها[٢]:

يا رَوْحُ كَم مِن أَخِي مَثوًى نَزَلتُ بِهِ ... قَـدْ ظَـنَّ ظَـنَّكَ مِـن لَخـمٍ وَغَسَّـانِ

حتَّـى إِذا خِـفتُـهُ فارَقـتُ مَنـزِلَهُ ... مِـن بَعـدِ مـا قِيـلِ عِمرانُ بـنُ حطَّانِ

ولجأ بعدها إلى زفر بن الحارث في قرقيسيا متنكِّرًا كذلك وقد انتسب أوزاعيًّا وأقام عنده زمنًا، حتى رآه رجل ممن شاهدوه عند رَوْحٍ، فافتضح أمره، فقال له

---

[١] انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ١٢٥).
[٢] انظر: المصدر السابق (٣/ ١٢٦).

زفر: أزديٌّ مرَّة وأوزاعيٌّ أخرى!! إن كنت خائفًا أمَّنَّاك وإن كنت عائلًا أغنيناك؛ فقال: إن الله هو المغني؛ ثم قال[1]:

إِنَّ الَّتـي أَصبَحَـتْ يَعيَـا بِهـا زُفَـرُ أَعيَـتْ عَيـاءً علَـى رَوْحِ بـنِ زنْبـاعِ

وما لبث أن غادر إلى عمان، وهناك أخذ يحرِّض على الحجاج؛ الذي انتهى إليه خبره فطلبه، فارتحل هاربًا حتى نزل في جوار قوم من الأزد في بلدة روزميسان قرب الكوفة، فأجاروه، فقال فيهم[2]:

نَزَلْنـا بِحَمـدِ اللهِ فـي خيـرِ منـزلٍ نُسَـرُّ بمـا فيـه مِـنَ الأُنـسِ والخَفَـرْ
نَزَلْنـا بِقَـومٍ يَجمَـعُ اللهُ شَـمْلَهم ولـيسَ لهـم عُودٌ سِوَى المَجدِ يُعتَصَرْ

فأقام عندهم حتى توفِّيَ نحو ٨٤هـ.

وشعر عمران كسائر شعر الخوارج يمتاز بقوَّة العقيدة وعنفوان الثورة ومتانة التركيب ولين الأسلوب، ورغم أنه كان من القعدة فإنَّ شعره فيه قدرٌ من الحماسة، ولا يخلو من الزهد والعاطفة الدينية، وقد أبدع في الرثاء ولعلَّ من أصدق ما قاله في ذلك هو رثاؤه لأبي بلال بن مرادس الخارجي؛ إذْ يقول فيه[3]:

لَقَـدْ زادَ الحَيـاةَ إِلَـيَّ بُغضًـا وَحُبًّـا لِلخُـروجِ أَبُـو بِـلالِ
أُحـاذِرُ أَن أَمـوتَ علَـى فِـراشي وَأَرجُـو المَـوتَ تَحـتَ ذُرَا العَـوالي
وَلَـو أَنِّـي عَلِمـتُ بِـأَنَّ حَتفِـي كَحَتـفِ أَبِـي بِـلالٍ لَـمْ أُبـالِ
فَمَـن يَـكُ هَـمُّهُ الدُّنيـا فَإِنِّـي لَهـا واللهِ رَبِّ البَيـتِ قـالِ

ومن رثائه له[4]:

يـا عـينُ بُكِّـي لِمِـرداسٍ ومصـرَعِهِ يـا ربَّ مِـرداسٍ اجعَلْنـي كمِـرداسِ
تَرَكْتَنـي هائمًـا أبكـي لِمَرْزِئَتِـي فـي مَنـزِلٍ مُـوحِشٍ مِـن بَعـدِ إينـاسِ

---

١ انظر: المصدر السابق (٣/ ١٢٧).
٢ انظر: المصدر السابق (٣/ ١٢٧).
٣ انظر: المصدر السابق (٣/ ١٢٤).
٤ انظر: المصدر السابق (٣/ ١٨٧).

أنكرتُ بَعدَكَ مَن قَدْ كُنتُ أعرِفُهُ ... ما النَّاسُ بَعدَكَ يا مِرادِسُ بالنَّاسِ
إمَّا شربتَ بكأسٍ دارَ أوَّلُها ... علَى القُرُونِ فَذاقُوا جُرعةَ الكاسِ
فكلُّ مَن لَمْ يَذُقْها شاربٌ عَجِلًا ... منها بأنفاسِ وردٍ بَعدَ أنفاسِ

وهو رثاء حارٌّ امتاز بعاطفة صادقة مزَجها عمران بعاطفة دينيَّة جسَّدها بذكر الشهادة وطلب الموت والزهد في الحياة، ويحوي شعره العديد من ملامح الزُّهد؛ مثل قوله[1]:

لا يُعجِزُ الموتَ شيءٌ دُونَ خالِقِهِ ... والموتُ فانٍ إذا ما نالَهُ الأجَلُ
وكلُّ كَربٍ أمامَ المَوتِ مُتَّضِعٌ ... لِلْمَوتِ والمَوتُ فيما بَعدَهُ جَلَلُ

وقد استحسن الأخطل شعره قائلًا في مجلس عبد الملك حينما سأله عن سبب تقديمه له: لأنَّه قال وهو صادق ففاقهم، فكيف لو كذب كما كذبوا؟! ويُروَى أنه عاب على الفرزدق سعيه في المديح والتَّودُّد لِأُولِي الأمر من أجل التَّكسُّب، قائلًا له[2]:

أيُّها المادِحُ العِبادَ لِيُعطَى ... إنَّ للهِ ما بِأيدِي العِبادِ
فاسألِ اللهَ ما طلَبتَ إليهِم ... وارجُ نَفْعَ المُنزِلِ العَوَّادِ
لا تَقُلْ في الجَوادِ ما ليس فيهِ ... وتُسمِّ البخيلَ باسمِ الجَوادِ

فقال الفرزدق: لولا أن الله -عزَّ وجلَّ- شغل عنَّا هذا برأيه لَلَقِينا منه شرًّا.

(٣) الطرماح بن حكيم:

هو الطرماح بن حكيم بن الحكم بن نفْر الطائي، من قحطان يكنى بأبي نفر وبأبي ضبينة، والطرماح يعني طويل القامة؛ نشأ بالشام ثم انتقل إلى الكوفة مع

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١٨/ ٣٣٧).
٢ انظر: المصدر السابق (١٨/ ٣٣٦).

جيوش الشام وهناك التقى بشيخ من الخوارج فتأثَّر بمذهبه وصار في عداد الخوارج الصفارية وظل على هذا المذهب حتى مات عليه.

ولكن الطرماح كان مختلفًا عن قطري وعمران بن حطان، صحيح أنه كان على ملَّة الخوارج ولكنه لم يغالِ مثلهم، فلم يُكفِّر عموم المسلمين ولم يَرَ قتالهم؛ إنَّما كان يتعايش معهم ويوادُّهم وكأنَّه واحدٌ منهم، فكان يُعتبَر مِن قعدة الخوارج؛ بل إنَّه سعى إلى المديح أحيانًا، فمدح بعض الولاة والقادة ومدح خالد ابن عبد الله القسري، وكانت بينه وبين الكُميت صحبة تُعتبر غريبة؛ فالأوَّل كان خارجيًّا شاميًّا قحطانيًّا وفيه تعصُّب لقومه، وأما الكُميت فشِيعيٌّ كوفيٌّ نزاريٌّ، وقيل لهما: كيف اتَّفقتُما مع تَبايُنِ المذهب وشدَّة العصبية؟ فقالا: اتَّفقنا على بُغض العامَّة؛ وكانا معلِّمَيْن وخطيبين وشاعرين، ويقال: إنه دخل هو والكميت على مخلد بن يزيد بن المهلب فأخذ الطرماح يمدحه قاعدًا، فأنكر عليه مخلد ونحَّاه، ثم أذِن للكميت فمدحه قائمًا فأجازه بخمسين ألف درهمٍ، فلمَّا خرج من عنده شاطَرَها الطرماح واقتسمها معه قائلًا له: أنت أبا ضبينة أبعَدُ همَّةً وأنا ألطَفُ حِيلَةً.

والطرماح يُعتبَر من فحول الشعراء الإسلاميين، وهو في بعض شعره جميل حسن السبك وفيه ملامح صفات شعر الخوارج من الانسيابية والنزعة الدينية المصطبغة بالعقيدة وذِكر الموت وتمنِّي الخروج والزهد، ولكن نزعة الخوارج لديه أضعف وأقل ظهورًا مما هي عليه في شعر عمران وغيره، ففي شعره مديح عادي للكسب وهجاء وعصبيَّة يمنية، وكل هذا ليس من عموم صفات الخوارج، وكان مدنيًّا حضري النشأة ولم يعرف البادية؛ إنَّما كان يجالس بعض النحاة واللغويّين فيأخذ عنهم بعضًا من الشعر البدوي وغريب اللفظ، فكان في شعره بعض التَّكلُّف؛ لاستعمال الغريب في غير موضعه؛ بسبب ضعف حسِّه اللُّغوي، حتى قال العجاج: كان الطرماح والكميت يسألانني عن الغريب فأخبرهما به ثم

أراه في شعرها قد وضعاه في غير موضعه، فقيل: ولم ذلك؟ قال: لأنها قرويَّان يَصِفان ما لم يَرَيا[1]

ومن روائع شعره قوله[2]:

قَـلَّ فـي شَـطِّ نَهـرَوانَ اغتِماضِـي ... وَدَعـانِي هَـوَى العُيـونِ المِـراضِ
فَتَطَرَّبـتُ لِلصِّـبا ثُـمَّ أَوقفْـ ... ـتُ رِضًـا بِـالتُّقى وَذُو البِـرِّ راضِ
وَأَرانـي المَليـكُ رُشْـدي وَقَـدْ كُنْـ ... ـتُ أَخَـا عنْجهِيَّـةٍ واعتِـراضِ
غَيـرَ مـا ريبَـةٍ سِوى رَيّـقِ الغِرَّ(م) ... ـةِ ثُـمَّ ارعَوَيـتُ بعـد البَيـاضِ
لا تَأَيَّـا ذِكـرَى بُلَهنِيَـةِ الدَّهـ ... ـرِ وَآتـي ذِكـرِ السِّـنينَ المَواضـي
فَـاذْهَبُوا مـا إِلَـيكُمُ خَفَـضَ الدَّهـ ... ـرُ عِنـاني وَعُرِّيَـتْ أَنْقاضـي
وَأَهلْـتُ الصِّـبا وَأَرشَـدَني اللَّـ ... ـهُ لِـدَهرٍ ذِي مِـرَّةٍ وانتِقـاضِ

وهي قصيدة لم تخلُ من غريب اللفظ؛ نظرًا إلى أن الطرماح كان يتكلَّف الأسلوب البدوي في شعره أحيانًا، ومن أروع ما قاله في إطار الحماسة والوصف قصيدة قوية لا تخلو من ملامح شعر الخوارج وتلك النزعة الدينية المعروفة عنهم، جاء فيها[3]:

وَإِنِّـي لَمُقتـادٌ جَـوادِي وَقـاذِفٌ ... بِـهِ وَبِنَفسـي العـامَ إِحـدَى المَقـاذِفِ
لأَكسِـبَ مـالًا أَو أَفُولَ إِلـى غِنًـى ... مِـنَ اللهِ يَكفينـي عُـدَاةَ الخَلائِـفِ
مَخافَـةَ دُنيـا رَثَّـةٍ أَنْ تُميلَنـي ... كَمـا مـالَ فيهـا الهالِـكُ المُتَجـانِفِ
فَيـا رَبِّ إِنْ حانَـتْ وَفـاتي فَـلا تَكُـنْ ... عَلـى شَـرجَعٍ يُعلَـى بِـدُكنِ المَطـارِفِ
ولَكـنْ أَحِـنْ يَـومي شَـهيدًا وَعُقبَـةً ... يُصـابُونَ فـي فَـجٍّ مِـنَ الأَرضِ خـائِفِ
عَصـائِبُ مِـن شَـتَّى يُؤَلِّـفُ بيـنَهُم ... هُـدَى اللهِ نَزَّالـونَ عِنـدَ المَواقِـفِ
إِذا فـارَقُوا دُنيـاهُمُ فـارَقُوا الأَذَى ... وَصاروا إِلـى مَوعودِ ما فـي المَصاحِفِ

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص١٧٤).
٢ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٧٩٥- ٨٠٣).
٣ انظر: ديوان الطرماح بن حكيم (ص٢٠١- ٢٠٣)، طبعة: دار الشرق العربي، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
٤ شرجع: سرير الميت. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٨/ ١٧٩).

فَأُقتَـلَ قَصْـعًا ثُـمَّ يُرمَـى بِـأَعظُمي كَضِـغثِ الخلَـى بَـينَ الرِّيـاحِ العَواصِـفِ
وَيُصـبِحَ قَبـري، بَطـنُ نَسْـرٍ مَقيلُـهُ بِجَـوِّ السَّـماءِ فـي نُسُـورٍ عَوائِـفِ

وللطرماح كذلك قصائد عدة في مواضع مختلفة يؤيد فيها مذهب الخوارج الشراة، وله كذلك مدح وهجاء.

ثانيًا: شعراء المذاهب السياسية

(عبد الله بن الزبير الأسدي- عدي بن الرقاع- أبو صخر الهذلي- الكميت- ابن قيس الرقيات- أعشى همدان)

(١) عبد الله بن الزُّبير الأسدي:

هو عبد الله بن الزُّبير بن الأَشْيم بن الأعشى، من بني أسد بن خزيمة من مضر، نشأ بالكوفة، كان أبوه شاعرًا، وكان ولده الزُّبير كذلك شاعرًا، وكان هوى عبد الله بن الزبير الأسدي مع بني أمية متعصِّبًا لهم، وكان بينه وبين عبدالرحمن ابن أم الحكم أمير الكوفة زمن معاوية وابن أخته مهاجاة، ويبدو أنَّه توعَّده فاستجار ابن الزبير بيزيد بن معاوية وكان كارهًا لابن أم الحكم، واستجار كذلك بمروان بن الحكم وعبد الله بن عامر فأجاروه، ثم شفع له أسماء بن خارجة فمدحه ابن الزبير، ولما عُزِل ابن أم الحكم وجاء عبيد الله بن زياد واليًا على الكوفة لزمه حينًا حتى غلب الزُّبَيريُّون على العراق فاتصل بمصعب بن الزبير فأبَى عليه؛ لهواه الأموي، ثم قبل منه بعد ذلك، فمدحه ونال صِلته ورافقه وقت ولايته حتى قُتِل وعاد العراق إلى سلطان بني أمية، إلا أن مديحه لمصعب لم ينقص من ولائه لبني أمية ولا لتعصُّبه لهم؛ إذِ اتصل ببشر بن مروان لمَّا تولَّى الكوفة من قِبَل أخيه عبد الملك، ثم بالحجاج بن يوسف الثقفي ورُوِيَتْ له فيهما مدائح، ورُوِيت عنه كذلك أخبار مع عبدالملك بن مروان، وله أشعار في هجاء ابن الزبير والتَّشفِّي بمقتله على يد بني أمية.

ومن شعره يمدح بشر بن مروان ويصفه بالكرم[1]:

كـأنَّ بنـي أميَّـةَ حـولَ بِشـرٍ نجـومٌ وسْـطَها قمـرٌ مُنِيـرُ

هـو الفَـرعُ المقـدَّمُ فـي قُـريشٍ إذا أخَـذَتْ مآخِـذَها الأمُـورُ

---

[1] انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١٤/ ٤٢٠).

لقَــدْ عمَّــتْ نوافلُــهُ فأضــحَى غنيًّــا مِــن نوافلِــهِ الفَقِيــرُ

ويقال: إن ابن الزبير حينما قتَل نفرًا من شيعة بني أمية بلغه أنهم يتجسَّسون لعبد الملك؛ قال يهجوه[1]:

أيُّهــا العائــدُ فــي مكَّــةَ كَــمْ مِــن دَمٍ أهْرَقْتَــهُ فــي غَيــرِ دَمْ
أَيَــدٌ عائــذَةٌ معصــمةٌ ويَــدٌ تَقتُــلُ مَــنْ حَــلَّ الحَــرَمْ

ولمَّا قُتِل ابن الزبير وبعث الحجاج برأسه إلى عبد الملك؛ قال عبد الله بن الزبير الأسدي مهنِّئًا عبد الملك بنصره[2]:

مشَى ابنُ الزُّبيرِ القَهْقَرَى فتقدَّمَتْ أميَّــةَ حتَّــى أحــرَزُوا القَصَــباتِ
وجئتَ المجلَّى يا بنَ مَرْوانَ سابِقًا أمــامَ قــريشٍ تَــنفُضُ العُــذُراتِ
فــلا زلــتَ سَــبَّاقًا إلــى كــلِّ غايــةٍ مِــنَ المجــدِ نجَّــاءً مِــنَ الغَمَــراتِ

وشعره رقيق سهل ونحسُّ صدق عاطفته فيما يخصُّ مديحه لبني أمية، ويبدو من خلال شعره أنه بلغ بالفعل شوطًا حسنًا في المديح؛ إذْ يقول مادحًا بني مروان[3]:

ولــولا بَنُــو مَــرْوانَ طاشَــتْ حُلُومُنــا وكنَّــا فَراشًــا أحرَقَتْهــا الشَّــعائِلُ

وكذلك مديحه لأسماء بن خارجة وكانت له أيادٍ عنده[4]:

ولا مجــدَ إلا مجــدُ أســماءَ فوقَــهُ ولا جَــرْيَ إلا جَــرْيُ أســماءَ فاضــلُهْ

وقد عُمِّر عبد الله بن الزبير الأسدي حتى مات في خلافة عبد الملك بن مروان، وقيل: إنه قد كُفَّ بصره[5].

---

١ انظر: المصدر السابق (١٤/ ٤٢٠).
٢ انظر: المصدر السابق (١٤/ ٤١٩).
٣ انظر: المصدر السابق (١٤/ ٤٢٢).
٤ انظر: المصدر السابق (١٤/ ٤٠٤).
٥ انظر: المصدر السابق (١٤/ ٣٩٩).

(٢) عدي بن الرِّقاع:

هو عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرِّقاع، من عاملة إحدى بطون قضاعة، وهو من حاضرة الشام لا من البادية، وقد أقام بدمشق، وهو أحد أبرز الشعراء الموالين لبني أمية وحظِيَ عندهم، فمدح عبد الملك بن مروان وما لبث أن قرَّبه الوليد بن عبد الملك وأدناه، وكان عدي مغاليًا في مديحه مُفخِّمًا فيه، ممَّا جعل الوليد يتَّخذه شاعره الرسمي بدلًا من الأخطل رغم أن عديًّا كان دون الأخطل منزلة وقدرًا، ولكن الوليد كان يعجب بما في مديحه من مبالغة وتفخيم، وكان ابن الرِّقاع يغالي ويفرط في مدحه ويحيط الوليد بهالةٍ من التعظيم، وضعه ابن سلَّام في الطبقة السابعة من الشعراء الإسلاميين[١]

وقد لقِيَه جرير في مجلس الوليد بن عبد الملك فتنازعا وكادت تحدث بينهما مهاجاة، فشكاه إلى الوليد الذي تهدَّد جريرًا إن هجا شاعره بمعاقبته والتمثيل به، فكان جرير إذا أراد هجاء ابن الرقاع هجاه تعريضًا وكناية كما في قوله[٢]

إنِّي إذا الشَّاعرُ المغرورُ حَرَّبَني ... جارٌ لِقَبْرٍ علَى مرَّانَ مَرمُوسِ

وكثيرًا ما كان يُغنَّى بشعر ابن الرقاع، وله أخبار مع كُثيِّر بن عبد الرحمن يغلب عليها طابع الخصومة حيث كان يقول فيه: هذا شعر حجازي مقرور إذا أصابه قرٌّ مِن الشام جمد وهلك[٣] وله أخبار مع بعض المغنِّين كابن سُريج[٤] ومن شعره في النسيب والأطلال قوله[٥]

أَرَى لَهوًا تَعرَّضَ للفِراقِ ... وَبَينًا بَعدَ بَينٍ واتِّفاقِ
لعلَّكِ إنَّما تَدْرِينَ لَوْمِي ... وَعَذْلي إن قَدرتِ علَى النِّفاقِ
فَقَدْ يأتِي عَليَّ أَوانُ حينٍ ... وَعِرْسِي ما تَعرَّضُ للطَّلاقِ

---

١ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٢/ ٦٨١).
٢ انظر: ديوان جرير، تحقيق رمزي مكاوي، طبعة المكتبة العصرية، صيدا – بيروت (ص٣١٨)
٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (٩/ ٢١٦).
٤ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١/ ٢٤٢).
٥ انظر: منتهى الطلب في أشعار العرب، ابن ميمون (ص٣٨٧).

ومن شعره يمدح الوليد بن عبد الملك في قصيدة بدأها بمقدِّمة غزلية بديعة ثم انتقل إلى مدحه مسترسلًا في تعظيمه ووصْفِ عُلُوّ قدرِه، وقد جاء فيها[1]:

عَـرَفَ الـدِّيارَ تَوَهُّمًـا فاعتادَهـا ... مِـن بَعـدِ مـا دَرَسَ البِلَـى أبْلادَهـا

* * *

صَـلَّى الإلَـهُ علَـى امـرِئٍ وَدَّعتُـهُ ... وَأَتَـمَّ نِعمَتَـهُ عَلَيـهِ وَزادَهـا

وَإذا الرَّبيـعُ تَتابَعَـتْ أَنـواؤُهُ ... فَسَـقَى خُناصِـرَةَ الأَحَـصِّ فَجادَهـا

نَـزَلَ الوَليـدُ بِهـا فَكـانَ لِأَهلِهـا ... غَيثًـا أَغـاثَ أَنِيسَـها وَبِلادَهـا

أَوَلا تَـرَى أَنَّ البَرِيَّـةَ كُلَّهـا ... أَلقَـتْ خَزائِمَهـا إِلَيـهِ فَقادَهـا

وَلَقَـدْ أَرادَ اللهُ إِذْ وَلَّاكَهـا ... مِـن أَمَّـةٍ إِصـلاحَها وَرَشـادَها

وَعَمَـرْتَ أَرضَ المُسـلمينَ فَأَقبَلَـتْ ... وَنفيـتَ عَنهـا مَـن يُريـدُ فَسـادَها

وَأَصَـبتَ فـي أَرضِ العَـدُوّ مُصيبَةً ... بَلَغَـتْ أَقاصِـي غَوْرِهـا ونِجادَهـا

ظفـرًا ونصـرًا مـا تَنـاوَلَ مِثلَـهُ ... أَحَـدٌ مِـنَ الخلَفـاءِ كـانَ أَرادَهـا

وَإذا نَشَـرتَ لَـهُ الثَّنـاءَ وَجَدتَـهُ ... جَمَـعَ المَكـارِمَ طُرْفَهـا وَتِلادَهـا

وكان عديٌّ ممَّن ساروا على النمط الجاهلي التقليدي، فكان يسهب في النسيب وذِكر الأطلال ووصفِ المطيَّة وبعض مظاهر الطبيعة، ويمتاز شعره بمجموعة من الخصائص؛ منها إحسان المقدمة والخاتمة، وكان يميل إلى إطالة القصيد، وله شيء من الهجاء والمديح والغزل والوصف والمجون.

وقد توفِّيَ ابن الرقاع نحو عام ٩٥هـ/٧١٤م[2].

---

١ انظر: ديوان عدي بن الرقاع العاملي، شرح" د. حسن محمد نور الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (ص٣٣- ٤١).

٢ انظر: المصدر السابق (ص١٣).

(٣) أبو صخر الهذلي:

هو عبد الله بن سلم السهمي، أحد بني هذيل، وهو شاعر إسلامي فصيح، كان مواليًا لبني أمية وله مدائح في عبد الملك بن مروان وأخيه عبد العزيز، ويقال: إنه لمَّا غلب ابن الزبير على الحجاز ومعظم الأقطار الإسلامية أول الأمر دخل عليه أبو صخر الهذلي فيمن دخل من هذيل يطلبون أعطياتهم، فجفاه ابن الزبير ومنعه عطاءه؛ لعلمه بميله لبني أمية، فقال له: علام تمنعني حقًّا لي وأنا امرؤ مسلم ما أحدثتُ في الإسلام حدثًا ولا أَخرجتُ مِن طاعةٍ يدًا؟! فقال: عليك ببني أميَّة فاطلب عندهم عطاءك؛ فخطب مادحًا إيَّاهم أمامه، فحبسه عامًا ثم شفع له قوم من هذيل وكانت بينها وبين قريش خؤولة، فأطلقه ولكن حرمه عطاءه، فانصرف أبو صخر إلى بني أمية واتصل بهم فنال عطاياهم، ولقَّبه عبد الملك بن مروان بأبي صخر، فغلب عليه لقبه هذا.

وهو شاعرٌ رقيق الغزل، بدوي الطبع، فصيح اللفظ، سهل التراكيب، وفي شعره بعض ملامح التَّديُّن والحكمة، ويدور شعره حول عدة أغراض؛ منها المديح والرثاء والنسيب، يقول في رثاء ولده الوحيد الذي فقده واسمه داود فجزع على فقده جزعًا شديدًا وقال فيه[1]:

لقَدْ هاجني طيفٌ لِداوُدَ بعدَما ... دَنَتْ فَاسْتَقَلَّتْ تالياتُ الكواكبِ

وما في ذُهولِ اليأسِ عن غيرِ سَلْوةٍ ... رَواحٌ مِنَ السُّقمِ الذي هو غالبي

وعندَكَ لو يحيا صَداكَ فنَلْتَقِي ... شِفاءٌ لِمَنْ غادَرْتَ يومَ التَّناضُبِ

فهَلْ لكَ طِبٌّ نافِعِي من عَلاقةٍ ... تُهَيِّمُني بينَ الحَشا والتَّرائبِ

تشكَّيتُها إذْ صدَّعَ الدَّهرُ شِعْبَنا ... فأمسَتْ وأعيَتْ بالرُّقَى والطَّبائبِ

ولولا يَقِيني أنَّما الموتُ عزمةٌ ... مِنَ اللهِ حتَّى يُبعَثوا للمحاسِبِ

لقلتُ له فيما أُلِمَّ برمْسِهِ: ... هَلَ انتَ غدًا غادٍ معي فمُصاحبي

---

[1] انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٢٤/ ٢٦٥).

ومن أروع ما قاله في النسيب، وهي من عيون ما قيل في الشعر الأموي[1]:

وإنّـــي لَتَعْرونـــي لـــذِكراكِ فَثْـــرةٌ ... كَمـا انْـتَفَضَ العُصـفورُ بَلَّلَـهُ القَطْـرُ
هَجَرْتُـكِ حتّـى قيـلَ لا يَعْرِفُ الهـوَى ... وزُرْتُـكِ حتـى قِيـلَ لـيس لـه صَـبرُ
صَدَقْتِ أنا الصَّبُّ المُصاب الذي به ... تبـاريحُ حُـبٍّ خـامرَ القَلـبَ أو سِـحْرُ
أمـا والـذي أبكَـى وأضْـحَكَ والَّـذي ... أمـاتَ وأحيـا والَّـذي أمـرُهُ الأمـرُ
لقَدْ تَرَكَتْنـي أحْسُدُ الـوحشَ أنْ أرَى ... أليفَـيْنِ منهـا لا يَرُوعُهمـا النَّفْـرُ
فيا هجرَ ليلَى قَدْ بلغتَ بِيَ المَدَى ... وزِدتَ علَـى مـا لَـمْ يَكُـنْ بَلَـغَ الهَجْـرُ
ويـا حبَّهـا زِدْنـي جَـوًى كـلَّ ليلـةٍ ... ويـا سَـلوةَ الأيَّـامِ مَوْعِـدُكِ الحَشْـرُ
عجبتُ لِسَعْيِ الدَّهرِ بيني وبينَها ... فلمَّـا انقضَـى مـا بينَنـا سَـكَنَ الـدَّهرُ
وإنّـي لآتِيهـا لكيمـا تُثِيبنـي ... وأُوذِنُهـا بالصَّـرْمِ مـا وَضَـحَ الفَجـرُ
فمـا هـو إلا أنْ أراهـا فُجـاءةً ... فأبْهُـتَ لا عُـرْفٌ لَـدَيَّ ولا نُكْـرُ
تكـادُ يَـدِي تَنْـدَى إذا مـا لَمَسْـتُها ... ويَنْبُـتُ فـي أطرافِهـا الـوَرَقُ الخُضْـرُ

(٤) الكُميت:

هو الكُميت بن زيد ين خُنيس بن مجالد الأسدي، من بني أسد بن خزيمة من مُضَر، وكان من الشعراء المقدَّمين، وُلِد نحو ٦٠هـ/٦٨٠م، كان عالمًا خبيرًا بأيام العرب ولغتهم، وعمل معلِّمًا للصبيان، وكان متشيّعًا لآل البيت معروفًا بالولاء لهم ومدحهم وذكرهم في سلسلة من القصائد عُرِفت بالهاشيمات، يتجلَّى فيها بالفعل جانب من العقيدة السياسية للكُميت؛ الذي كان يرى أن الخلافة حق لآل البيت وأن بني أمية مغتصبون للخلافة، ويتضح مذهبه هذا في قوله[2]:

يَقُولُـونَ لَـم يُـورَث وَلَـولا تُرَاثُـهُ ... لَقَـدْ شَـرَكَت فِيـهِ بَكِيـلٌ وأرحَـبُ
وَلانتَشَـلَتْ عُضـوَينِ مِنهَـا يُحَـابِرٌ ... وكَـانَ لِعَبـدِ القَـيسِ عُضـوٌ مُـؤَرَّبُ

١ انظر: المصدر السابق (٢٤/ ٢٦٨- ٢٦٩).
٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٥٦٧).

فَإنْ هِيَ لَم تَصلُحْ لِحَيٍّ سِوَاهُمُ إذًا لَـذَوُو القُربَـى أحَـقُّ وأقـرَبُ
فيـا لـكَ أمـرًا قَـدْ أُشِـتَّتْ أمُـورُهُ وَدُنيَـا أرَى أَسـبَابَها تَتَقَضَّـبُ
تبـدَّلتِ الأشـرارَ بَعـدَ خِيارِهـا وجُـدَّ بهـا مـن أمَّـةٍ وهْـي تَلعَـبُ

وكانت بين الكُميت والطرماح صحبة غريبة حيث كان الكميت شيعيًّا يتعصَّب لقومه المضرية، بينما كان الطرماح خارجيًّا متعصِّبًا لقومه القحطانية، وكانا على الرغم هذا الخلاف الفكري والعقائدي متلازمين ولهما معًا عدة أخبار أوردنا جانبًا منها في حديثنا عن الطرماح.

وكان الكُميت في تشيُّعه على مذهب الزيدية أنصار زيد بن علي زين العابدين، ومع هذا فقد اضطر من أجل التَّكسُّب ومن أجل إخفاء ميوله إلى اللجوء لمديح بعض بني أميَّة وولاتهم، فيما عُرِف باسم مذهب التَّقيَّة؛ الذي اعتنقه عدد من الشيعة اضطرارًا من أجل إخفاء ميولهم، ورُويت له أخبار مع الخليفة يزيد ابن عبد الملك، ويبدو أنه قد نُمي إلى خالد بن عبد الله القسري والي العراق زمن الخليفة هشام بن عبد الملك تشيُّعُه وهجاؤه لبني أمية، فأخبر هشامًا بأمره، فأمر هشام باعتقاله وقتْلِه، فحُبس الكميت في سجن خالد حينًا تمهيدًا لقتله، غير أن بعض رفاقه من عمال الوالي قد دبَّروا من أجل فراره وتعاونوا مع زوجة الكميت وكانت متشيِّعة مثله ومن بني أسد كذلك من أجل ذلك، حتى زارته في محبسه فلبس رداءها وخرج فارًّا، وكادوا يفتكون بامرأته لولا أن أجارها قومها بنو أسد.

ثم فرَّ الكميت إلى الشام وتوسَّط له بعض رجال قريش عند مسلمة بن هشام ابن عبد الملك فأمَّنه وشفع له عند أخيه هشام، فقال الكُميت يمدح هشام ابن عبد الملك[1]:

مُصِـيبٌ علـى الأعـوادِ يـومَ رُكُوبِـهِ لِمَـا قـالَ فيهـا مُخطِـئٌ حِـينَ يَنـزِلُ

ورثَى كذلك ولده معاوية بن هشام إذْ قال:

---

١ انظر: المصدر السابق (٢/ ٥٦٨).

سـأبكيكَ للـدُّنيا وللـدِّينِ إنَّنـي رأيـتُ يـدَ المعـروفِ بعـدَك شُـلَّتِ
فـدامَتْ عليـكَ بالسَّـلام تحيَّـةً ملائكـةُ اللهِ الكِـرامِ وصَـلَّتِ

فتأثَّر هشام بقصيدة الرثاء تلك وطرب لعموم مديحه فأجازه بأربعين ألف درهم، وأجازه مسلمة بعشرين وكتب إلى عامله على العراق خالد القسري بأمانه، ولما عُزِل خالد عن العراق وحلَّ محلَّه يوسف بن عمر الثقفي تعاطف الكُميت مع ثورة زيد بن عليٍّ زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه، وقد اشتطَّ يوسف بن عمر الثقفي في معاملة الكُميت؛ لتشيُّعِه فسلَّط عليه حرسه فقتلوه نحو عام ١٢٦هـ/٧٤٣م.

ومن روائع شعر الكميت قصيدته التي ذكرها أبو زيد القرشي من ضمن الملحمات، وفيها قدرٌ من الحكمة وعُمق المعنى وشيءٌ من غريب اللفظ، ومن أبياتها[٢]:

ألا لا أرَى الأيَّـام يُقضَـى عَجِيبُهـا بِطُـولٍ ولا الأحـداثَ تُفنَـى خُطُوبُهـا
ولا عِبَـرَ الأيـامِ يَعـرِف بَعضَـها بِـبَعضٍ مِـنَ الأقـوامِ إلا لَبِيبُهـا
ولَـمْ أرَ قـولَ المـرءِ إلا كَنَبْلِـهِ بـهِ ولَـهُ مَحرومُهـا ومُصِـيبُها
ومـا غَـبَنَ الأقـوامَ مِثـلُ عقـولِهِم ولا مِثلُهـا كَسْـبًا أفـادَ كسُـوبُها
ومـا غُـبِنَ الأقـوامُ عـن مِثـلِ خُطَّـةٍ تَغَيَّـبَ عنهـا يَـومَ قِيلَـتْ أَرِيبُهـا
ولا عـن صـفاةِ النِّيـقِ زلَّـتْ بِناعِـلٍ تَرامَـى بـهِ أطوادُهـا ولهُوبُهـا
وتَفنِيـدُ قـولِ المـرءِ شَـينٌ لرأيِـهِ وزَينـةُ أخـلاقِ الرِّجـالِ وظُوبُهـا
وأجهـلُ جهـلِ القـومِ مـا فـي عـدوِّهِم وأقـبَحُ أخـلاقِ الرِّجـالِ عَزِيبُهـا
رأيـتُ ثِيـابَ الحِلـمِ وهْـي مُكِنَّـةٌ لِـذِي الحِلـمِ يَعرَى وهْـو كـاسٍ سَلِيبُها
ولـم أرَ بـابَ الشَّـرِّ سَـهْلًا لأهلِـهِ ولا طُـرُقَ المَعـروفِ وعْـرًا كَثِيبُهـا
وأكثَـرُ مَـأْتَى المَـرءِ مِـنْ مُطْمَأَنِّـهِ وأكثَـرُ أسـبابِ الرِّجـالِ كَـذُوبُها

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١٧/ ٩).
٢ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٧٨٣- ٧٩٤).

ولَـمْ أجِـدِ العِيـدانَ أقـذاءَ أعـيُنٍ ولكنَّمـا أقـذاؤها مـا يَنُوبُهـا
مِنَ الضَّيمِ أو أنْ يَركبُ القومُ قومَهم رِدافًـا مـعَ الأعـداءِ إلْبًـا أُلُوبُهـا

وقد عرض الكميت شعره على الفرزدق فقال له: يا بن أخي؛ أنت واللهِ أشعر مَن مضى وأشعر مَن بَقِي؛ وقال عنه معاذ الهرَّاء: ذاك أشعر الأوَّلِين والآخرين[2]؛ ورغم تشيُّعِه فإنَّ له مديحًا حسنًا في بني أمية وإن لم يكن صادق العاطفة لكنه كان بديعًا، وله أيضًا هجاء ورثاء، هذا بجانب هاشميَّاته ومديحه لآل البيت؛ الذي اتصف بصدق عاطفته وتعبيره عن عقيدته السياسية بأن آل البيت أولى بالخلافة بحكم قرابتهم للرسول ﷺ، ويعضِّد ذلك بما يراه من أدلة ناصعة.

(٥) عُبيد الله بن قيس الرُّقيَّات:

هو عُبيد الله بن قيس بن شُريح بن مالك بن ربيعة، قرشي من نسل عامر ابن لؤي، لُقِّبَ بقيس الرُّقيَّات لأنه شبَّب بثلاث نسوة اسمهن رقيَّة؛ وهن: رُقيَّة بنت عبد الواحد وابنة عمٍّ لها وأخرى من بني أميَّة، ولم ننتهِ إلى تاريخ مولده بدقَّةٍ؛ ولكن تماشيًا مع أخباره يُرجَّح أنه وُلِد في العقد الثاني أو الثالث للهجرة النبوية، وقد عاصر ابن قيس الرقيات أحداث الفتنة مع عصر بني أمية بدءًا بمصرع الحسين واستشهاده -رضي الله عنه- في موقعة كربلاء المشؤومة على يد جند بني أمية، ثم موقعة الحرة التي اجتاح فيها الجيش الأموي المدينة المنورة فاستباح حرمتها وخرَّب وانتسف وقتل عددًا من الصحابة وأبنائهم والتابعين، وقد أورثت تلك الوقائع في نفس ابن الرقيَّات كُرهًا وبغضًا لبني أمية، وما إن اضطربت خلافتهم بعد موت يزيد بن معاوية وثارت عليهم الأمصار حتى نراه قد دخل في ولاء عبد الله بن الزبير مع من دخل من القبائل والأمصار، واتَّصل عبيد الله ابن قيس الرقيات بمُصعب بن الزبير والي العراق من قِبَل أخيه فمدحه وذكر

---

١ الألب: الجمع الكثير من الناس. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/ ٢١٥).
٢ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١٧/ ٢٦).

وقائعه وانتصاره على المختار الثقفي الكذَّاب الذي ثار في الكوفة، ومن مديحه لمصعب قصيدة من أشهر شعره قال فيها[1]:

نَحنُ مِنَّا النَّبيُّ الُأمِّيُّ وَالصِّدِّ(م) يـــقُ مِنَّـــا التَّقِـــيُّ وَالخُلَفـــاءُ[2]
وَقَتيـــلُ الأَحـــزابِ حَمـــزَةُ مِنَّـــا أَسَـــدُ اللهِ وَالسَّـــناءُ سَـــناءُ
وَعَلِـــيٌّ وَجَعفَـــرٌ ذو الجَناحَيـــ ـــنِ هُنـــاكَ الوَصِـــيُّ وَالشُّـــهَداءُ
وَالزُّبَيـرُ الَّـذي أَجـابَ رَسـولَ الـ ـــلهِ فـــي الكَـــربِ، وَالبَـــلاءُ بَـــلاءُ
وَالَّـذي نَغَّـصَ ابـنَ دومَـةَ مـا ثُـو جِـــي الشَّـــياطينُ وَالسُّـــيوفُ ظِمـــاءُ
فَأَبـاحَ العِـراقَ يَضـرِبُهُم بِالسَّـ(م) ـــيفِ صَـــلْتًا وَفِـــي الضِّـــرابِ غَـــلاءُ
* * *
إِنَّمـا مُصـعَبٌ شِـهابٌ مِـنَ اللـ ـــهِ تَجَلَّـــتْ عَـــن وَجهِـــهِ الظَّلْمـــاءُ
مُلكُـــهُ مُلـــكُ قُـــوَّةٍ لَـــيسَ فيـــهِ جَبَـــــروتٌ وَلا بِـــــهِ كِبريـــــاءُ
يَتَّقِـي اللهَ فـي الأُمـورِ وَقَـدْ أَفـ ـــلَحَ مَـــن كـــانَ هَمَّـــهُ الاتِّقـــاءُ
إِنَّ لِلَّهِ دُرَّ قَـــــومٍ يُريـــــدو نَـــكَ بِـــالنَّقصِ، وَالشَّـــقاءُ شَـــقاءُ
بَعـدَما أَحـرَزَ الإِلَـهُ بِـكَ الرَّثْـ ـــقَ وَهَـــرَّتْ كِلابَـــكَ الأَعـــداءُ
* * *
كَيـفَ نَـومِي علَـى الفِـراشِ وَلَمَّـا يَشـــمَلِ الشَّـــامَ غـــارَةٌ شَـــعواءُ
تُـذهِلُ الشَّـيخَ عَـن بَنِيـهِ وَتُبـدِي عَـــن بُراهـــا العَقيلَـــةُ العَـــذراءُ
أَنـا عَـنكُم بَنِـي أُمَيَّـةَ مُـزوَرٌّ(م) وَأَنـــتُم فـــي نَفسِـــيَ الأَعـــداءُ
إِنَّ قَتْلـى بـالطَّفِّ قَـدْ أَوجَعَتْنـي كـــان مـــنكم لَـــئنْ قُتِلـــتُمْ شِـــفَاءُ

وهي قصيدة طويلة أفصح فيها ابن قيس الرقيات عن عقيدته السياسية التي فحواها أحقية قريش بأن تكون الخلافة فيهم لا أن يختص بها بنو أميَّة وحدهم، ولا كما يقول الخوارج بنزعِها عن قريش، وقد مدح فيها مصعب بن الزبير مدحًا

---

١ انظر: ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات (ص٨٧- ٩٦).
٢ الُأمِّيُّ: هكذا بضم الميم وبعدها ألِف وصلٍ؛ لضبط الوزن.

صادقا قويًّا، مع أن الحزب الزُّبيري كان أضعف تلك الأحزاب السياسية؛ إذْ ما لبث أنِ اختفى بموت عبد الله بن الزبير عام ٧٣هـ، ولم يَعُدْ له أثر ولا مؤيّدون.

ولم يكن تأييده للزبيريين قائمًا على مديحهم أو على رؤيته السياسية فقط؛ بل إنَّه تعدَّاه إلى هجاء خصومهم والنَّيل منهم والتَّشبيب بنسائهم والتَّغزُّل بهنَّ غزلًا قبيحًا فاحشًا؛ من باب النكاية السياسية؛ مثل عاتكة زوجة الخليفة عبد الملك وأم البنين زوجة ولده الوليد وابنة أخيه، ومن هذا قوله في أم البنين[1]:

إِلَـــى أُمِّ البَنـــينَ مَتـــى ... يُقَرِّبُهـــا مُقَرِّبُهـــا
أَتَتْنـــي فـــي المَنـــامِ فَقُلـــ ... ـــتُ هَـــذا حِـــينَ أُعقَبُهـــا
فَلَمَّـــا أَن فَرِحـــتُ بِهـــا ... وَمـــالَ عَلَـــيَّ أَعـــذَبُها
شَـــرِبتُ بِرِيقِهـــا حتَّـــى ... نَهَلْـــتُ وَبِـــتُّ أُشـــرِبُها
وَبِـــتُّ ضَـــجِيعَها جَـــذْلا ... نَ تُعجِبُنـــي وَأُعجِبُهـــا

وهو غزلٌ فاحشٌ مبتذل لا يمتُّ لفنِّ الغزل عفيفِهِ أو صريحِهِ بصلةٍ؛ والغرض منه ليس الغزل نفسه؛ إنَّما النكاية والهجاء، ممَّا قد نسمِّيه غزلًا سياسيًّا أو هجائيًا؛ ومن شعره السياسي كذلك في هجاء الخوارج[2]:

إذا نحـنُ شِـئنا صـادفَتْنا عصـابةٌ ... حَرُورِيَّـةٌ أضـحَتْ مِـنَ الـدِّينِ مارِقِـهْ

وظل عبيد الله بن قيس الرقيات مرافقًا لمصعب بن الزبير حتى انهزم مصعب ثم قُتل على يد جيش عبد الملك بن مروان عام ٧٢هـ، وكان ابن قيس الرقيات قد اشترك معه في تلك الموقعة، فلمَّا قُتل مُصعب ودانت العراق للأمويين فرَّ ابن قيس الرقيات واختبأ في دار امرأة بالكوفة تُدعَى كثيرة زمنًا قرابة العام وفْق الروايات، وكان مطلوبًا، فلمَّا سكن الطلب ذهب سرًّا إلى المدنية واستجار بعبد الله بن جعفر فأمَّنه وتوسَّط له عند بني أمية فراسل أوَّلًا أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وكانت زوجة ابن عمها وولد الخليفة الوليد بن عبد الملك، وراسل كذلك -فيما يُقال- أباها عبد العزيز بن مروان أخا الخليفة، فتوصَّلت أمُّ

---

١ انظر: ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات (ص١٢٢- ١٢٣).
٢ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ٢٣٠).

البنين إلى عمّها فقَبِل شفاعتها وعفا عنه بعد لأيٍ، وحينها اتَّصل بالبلاط الأموي ومدح عبد الملك قائلًا[1]:

قـومٌ هُـمُ الأَكثَـرُونَ قَـبْضَ حَصًـى فـــي الحَـــيّ وَالأَكرَمُـــونَ إِنْ نُسِـــبوا
مـــا نَقَمـــوا مِـــن بَنـــي أُمَيَّـــةَ إِلـــ ـــا أَنَّهُـــم يَحلُمُـــونَ إِنْ غَضِـــبوا
وَأَنَّهُـــم مَعـــدِنُ المُلـــوكِ فَـــلا تَصـــلُحُ إِلّا عَلَـــيهِمُ العَـــرَبُ

لكن من الواضح أن عبد الملك لم يَرُقْ له مديحه واعتذاره ولم يغفر له ميله الزبيري رغم العفو، فأمَّنه ولكن لم يَصِلْه، فوصله بدلًا منه صديقه عبد الله ابن جعفر، فمدحه ابن قيس الرقيات قائلًا[2]:

تقدَّتْ بِيَ الشَّهباءُ نَحوَ ابْنِ جَعفرٍ سَـــواءٌ عليهـــا ليلُهـــا ونَهارُهـــا
تَـــزُورُ امـــرأً قَـــدْ يَعلَـــمُ اللهُ أَنَّـــهُ تَجُـــودُ لـــه كَـــفٌّ قَلِيـــلٌ غِرارُهـــا

وارتحل ابن قيس آخر حياته إلى عبد العزيز بن مروان في مصر فمدَحه وأقام عنده حتى توفِّي نحو عام ٨٥هـ/٧٠٤م.

ولعُبيد الله بن قيس الرقيات أخبار كثيرة مع سعيد بن المسيب وعمر بن أبي ربيعة، وهو -وفْق ما انتهى إلينا من شعره- شاعر مجيد وشعره رقيق ليِّن القافية أقرب لطباع الحضر وحياة الترف والنعيم، وبعيد عن طباع البادية، وبه ميل للنظم على الأوزان الخفيفة والمجزوءة غير الشائعة؛ مثل الهزج والمتقارب والمديد والرمل والسريع، وفي شعره نغمة غنائية بديعة، ودارت أغراض شعره حول المديح والهجاء والفخر والغزل، وكان هناك من يَعُدُّه شاعر قريش، وقد أثنى عليه عددٌ من معاصريه، ومن حسنات شِعره أنه كان وثيق الصِّلة بالغناء؛ وذلك لخفَّة وزنه ورشاقته وحلاوة نغمه وإيقاعه، ممَّا كان يتفق مع حاجة المغنِّين والقينات، فكثر الغناء بشعره، وقد أخذ عليه بعض نقَّاد الأدب أنه لم يكن ثقة في اللغة والنحو، فضلًا عن عدم إصابته المعنى في بعض الأحيان، وفي شعره لحن، والحق أن ابن قيس الرقيات شاعر بديع ولكن حطَّ قليلًا من قدره

---

١ انظر: ديوان عبد الله بن قيس الرقيات (ص٤).
٢ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٥/ ٥٩).

انشغاله بالصراعات الحزبيَّة والسياسية، فلا يُذكر كثيرًا مع فحول شعراء عصره[1].

وإذا ما غضضنا الطرف عن غزله السياسي الذي قاله من باب الهجاء والنكاية السياسية؛ نجد له على الجانب الآخر غزلا أنيقًا لرشيقًا خفيف الظل، وله أخبار مع رقيَّة بنت عبد الواحد بن أبي سعد؛ حيث رآها في الحرم فتعلَّق وهام بها هيمًا عظيمًا وقد شبَّب بها وذكَرها في شعره في غير موضع، ويبدو من أخباره أنه شبَّب بأخرياتٍ، ومن رقيق غزله برقيَّة قوله[2]:

حَبَّـــذا الـــدَّلالُ وَالغَـــنَجُ	وَالَّتـــي فـــي طَرفِهـــا دَعَـــجُ
الَّتـــي إِنْ حَـــدَّثَتْ كَـــذَبَتْ	وَالَّتـــي فـــي وَصـــلِها خَلَـــجُ
تِلـــكَ إِنْ جـــادَتْ بِنائِلِهـــا	فَـــابنُ قَـــيسٍ قَلبُـــهُ ثَلِـــجُ
وَتَـــرَى فـــي البَيـــتِ سُـــنَّتَها	مِثـــلَ مـــا فـــي البيعَـــةِ السُّـــرُجُ
حَـــدِّثُوني هَـــلْ علَـــى رَجُـــلٍ	عاشِـــقٍ فـــي قُبلَـــةٍ حَـــرَجُ

وهي أبيات غزلية لا تخلو من الخفة والرشاقة والإيقاع الراقص، وتدلُّ على أنَّه ذا موهبة في العزل، على غرار عمر بن أبي ربيعة، ولكنَّه انشغل بالصراع السياسي والحزبي فحطَّ ذلك من قدره، ولولا ذلك لربما صار من ألمع شعراء الغزل في عصره.

(٦) أعشى همدان:

هو أبو المصَبَّح عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث بن نظام، من بني همدان من كهلان القحطاني، نشأ بالكوفة وكان أوَّل أمره ذا دِينٍ وعلمٍ وأحد الفقهاء والقُرَّاء، وهو صهر عامر الشعبي، تزوَّج الشعبي أخته وتزوَّج هو أخت الشعبي، ثم غلب عليه الشعر فترك ما كان فيه من القرآن والفقه وانصرف إلى الشعر،

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٥/ ٦٠- ٦١).
٢ انظر: ديوان عبد الله بن قيس الرقيات (ص١٦٣).

ويُروَى في ذلك أنه رأى في رؤياه أنه دخل بيتًا فيه حنطة وشعير وقيل له: خذ أيَّهما شئت؛ فأخذ الشعير، فلمَّا قصَّ رؤياه على صهره الشعبي قال له: إن صدقتْ رؤياك تركت القرآن وقراءته وقُلْتَ الشعر؛ فكان كما قال.

وأعشى همدان شاعر فصيح كثير الشعر ويُعتبر شاعر قحطان وأهل اليمن في الكوفة، وفي شعره شيء من الحماسة والعتاب والمديح والهجاء والزهد، وله عدة أخبار مع النعمان بن بشير وخالد بن عتاب الرياحي وعبد الرحمن بن الأشعث، ويقال: إنه وفد على الشام زمن مروان بن الحكم فلم يَلقَ حظًّا حتى أتى النعمان ابن بشير وكان واليًا على حمص فوصله وكافأه فمدحه على عطائه قائلًا:

ولـم أرَ للحاجـاتِ عنـدَ التِماسِـها كنُعمـانَ نُعمـانِ النَّـدَى ابـنِ بَشِـيرِ
إذْ قـالَ أوفَـى مـا يقـولُ ولـم يَكُـنْ كمُـدلٍ إلـى الأقـوانِ حَبـلَ غُـرُورِ

ويقول في بعض شعره مادحًا الحارث بن عميرة وكانت له أخبار في قتال الخوارج[1]:

إنَّ المكـارمَ أُكمِلَـتْ أسـبابُها لِابـنِ اللُّيـوثِ الغُـرِّ مِـن قحطـانِ
للفـارسِ الحـامي الحقيقـةِ مُعْلِمًـا زادَ الرِّفـاقِ إلـى قُـرَى نجـرانِ
الحـارثِ بـن عميـرةَ اللَّيـثِ الـذي يَحمِـي العِـراقَ إلَـى قُـرى كرمـانِ

ويُقال: إنه لزم خالد بن عتاب حينًا ومدحه فوصله، وكان يَعِدُه قائلًا: إن صارت لي ولايةٌ؛ رفعتُك فوق الناس وأعطيتك خاتمي تقضي به حاجاتهم؛ ولكن يبدو أنه لما بلغ هدفه لم يُوفِ بوعده وجافاه ففارقه الأعشى، ويُروى كذلك من أخباره أنه تزوَّج امرأة تُدعى أم الجلال وبقيت تحته حتَّى أبغضها فتزوَّج عليها امرأة تُدعى جَزْلَة أو خولة فأبَتْ إلا أن يطلِّق زوجته ففعل وطلَّقها، لكنَّها مع ذلك تنكَّرت له وجفَتْه فقال:

حَيِّيَـا جَزْلَـةَ منِّـي بالسَّـلامِ دُرَّةَ البحـرِ ومِصـباحَ الظَّـلامِ
لا تَصُـدِّي بعـدَ وُدٍّ ثابـتٍ واسـمَعِي يـا أمَّ عيسـى مِـن كلامـي

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ٢٤٩).

إنْ تَـــدُومي لـــي فَوَصْـــلي دائـــمٌ أو تَهُمِّـــي لـــي بهجـــرٍ أو صِـــرامِ

وشعره على الجملة ليّنٌ سهل المأخذ، ويتضح لنا من خلاله أنه كان مضطربًا في ولائه السياسي؛ فإبَّان الفتنة الأولى لزم مصعب بن الزبير حينما كان أميرًا على البصرة زمن أخيه، وناصره في معاركه ضد المختار الثقفي الكذاب في الكوفة حتى انتصر مصعب ودانت له العراق، وهو ما يعني أنه كان به ميل للزُّبيريين وبغضٌ لبني أمية، ثم ما لبث أن قُتل مصعب على جيوش بني أمية ومِن بعده أخوه عبد الله، فتزول دولة الزبيريين وتدين العراق وسائر الأمصار للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان فيدخل في طاعة الأمويين بحكم الغلبة، وقد سيَّره الحجاج إلى حرب الخوارج فقاتلهم وله في وقائعه تلك شعر بين المديح والهجاء، وكان في من بعثهم الحجاج في جيوش الفتح إلى بلاد الديلم فوقع أسيرًا إلى أن هَوَتْه بنت العلج الذي أسَرَه ففكَّت قيده ويسَّرت له الفرار وهربت معه، فذهب إلى سجستان وكان واليها عبيد الله بن أبي بكرة يقاتل زنبيل ملك الترك، فلمَّا انهزم أبو بكرة واستشهد في بعض حروبه خلفه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث واليًا لسجستان من قِبَل الحجاج، ويُمدُّه الحجاج بجيش لقتال الترك فيحقق على الترك عدَّة انتصارات ويجبرهم على التراجع، وقد لزمه الأعشى حينًا وسأله زيادة في عطائه فلم يحصل له.

وما لبث أن فسدت العلاقة بين ابن الأشعث والحجاج بسبب أن ابن الأشعث بعد انتصاره هادن الترك دون إذن الحجاج وموافقته، فلمَّا أنكر عليه الحجاج أعلن عليه الثورة، ووقف الأعشى في صفِّه مؤيدًا له، وقال شعرًا يحرِّض أهل الكوفة والبصرة على الثورة ضد الحجَّاج؛ منه قوله يهجو الحجاج ويسبُّه:

أمكَـنَ رَبِّـي مِـنْ ثَقِيـفٍ هَمْـدَانْ يومًـا إلـى اللَّيـلِ يُسَـلِّي مـا كـانْ

إنَّ ثَقِيفًـــا مِـــنهُمُ الكـــذَّابانْ كـــذَّابُها الماضـــي وكـــذَّابٌ ثـــانْ

وهو يعني بالكذَّاب الأول المختار الثقفي الذي ثار أولًا مطالبًا بدم الحسين رضي الله عنه، وكان المختار كذَّابًا مشعوذًا، ويعني بالكذَّاب الثاني الحجاج.

وما لبث أن انحدر ابن الأشعث إلى العراق فنجح في دخول البصرة أول الأمر ودارت بينه وبين الحجاج عدة مواجهات في معركتي الزاوية ودير الجماجم أسفرت عن هزيمة ابن الأشعث وفراره إلى ملك الترك، بينما تشتَّتَ جمعُه وأُسِر عددٌ من أنصاره؛ من بينهم الأعشى؛ الذي وقف بين يدي الحجاج فهَمَّ بقتله لجُرمه لديه، فحاول أن يستعطفه الأعشى قائلًا:

أَبَـــى اللهُ إِلَّا أَنْ يُـــتِمَّ نُـــورَهُ ... وَيُطفِـــيءَ نـــارَ الفاسِـــقينَ فَتَخمُـــدا
وَيُظهِرَ أَهلَ الحَقِّ فـي كُـلِّ مَـوطِنٍ ... وَيَعـدِلَ وَقْـعَ السَّـيفِ مَـن كـانَ أَصـيَدا
وَيُنـــزِلَ ذُلًّا بِـــالعِراقِ وَأَهلِـــهِ ... لِمـا نَقَضـوا العَهـدَ الوَثيـقَ المُؤَكَّـدا
وَمـا أَحـدَثُوا مِـن بِدعَـةٍ وَعَظيمَـةٍ ... مِـنَ القَـولِ لَـم تَصـعَدْ إِلـى اللهِ مَصْـعَدا
وَمـا نَكَثُـوا مِـن بَيعَـةٍ بَعـدَ بَيعَـةٍ ... إِذا ضَـمِنُوها اليَـومَ خاسُـوا بِهـا غَـدا

* * *

فَمـا لَبِـثَ الحَجَّـاجُ أَن سَـلَّ سَـيفَهُ ... عَلَينـــا فَـــوَلَّى جَمعُنـــا وَتَبَـــدَّدا
وَمـــا زاحَـــفَ الحَجَّـــاجُ إِلَّا رَأَيتَـــهُ ... مُعانًـــا مُلَقًّـــى لِلفُتـــوحُ مُعَـــوَّدا

فقال من حضره لدى الحجَّاج من أهل الشام: قد أحسن أيها الأمير فخلِّ سبيله؛ لكنَّ ذنبه عند الحجاج كان عظيمًا فقال لهم: أتظنُّون أنه أراد المدح؟ لا واللهِ؛ لكنَّه قال هذا أسفًا لِغَلَبَتِكم إيَّاه وأراد أن يحرِّض أصحابه؛ ثم أمر بضرب عنقه فقُتل صبرًا، ومات بعده بقليل عبد الرحمن بن الأشعث وقد أُتي به إلى الحجاج فمات منتحرًا خوفًا من لقائه، بينما تم العفو عن عامر الشعبي بعدما اعتذر للحجاج وكان ممن شايع ابن الأشعث فقبِل الحجاج اعتذاره وعفا عنه؛ لعِلمِه ومنزلته[1]

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٦/ ٣٣١- ٣٣٣).

ثالثًا: شعراء الزهد واللهو

(أبو الأسود الدؤلي- الوليد بن يزيد)

(١) أبو الأسود الدؤلي:

هو ظالم بن عمرو بن سُفيان بن جندل الكناني، من إلياس من مُضَر، وجدُّه الأعلى عبد مناة بن كنانة أخو النضر بن كنانة جد قريش على قولٍ، وقيل: بل جد قريش هو فهر بن مالك بن النضر، كان أبو الأسود من وجوه التابعين وفقهائهم وعلمائهم، وله أخبار مع عدد من الصحابة وقد أخذ وروى عنهم، واستعمله عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وكان من شيعة علي وشهد معه معركة صفِّين وكان حينها على قضاء البصرة وهي تحت إمرة عبد الله بن عباس زمن عليٍّ، وظل على ولائه لعليٍّ حتى استشهد -رضي الله عنه- وتنازَل ولده الحسن، فدخل أبو الأسود فيما دخل الناس فيه من بيعة معاوية فأطاع بني أميَّة وعمل تحت إمرة عُمَّالهم؛ ومن بينهم زياد بن أبيه، ومع هذا فقد ظلَّ على تشيُّعِه وميله لآل البيت حتى وفاته عام ٦٩هـ، في طاعون الجارف، وهو ابن خمسٍ وثمانين سنة، وقيل: بل مات قبل هذا التاريخ؛ لأنَّه لم تُسمَع عنه أخبار في الفتن التي حدثت بعد معاوية.

ولأبي الأسود أخبار كثيرة مع معاوية وبعض ولاة البصرة كزياد بن أبيه وولده عُبيد الله بن زياد وعبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن أبي بكرة، وكان فقيهًا عالمًا من مقدمي عصره، وهو أوَّل من فطن لعلم النحو ويُعتبر مؤسسًا له، وقد أسَّسه لما رأى من شيوع اللحن وفساد اللغة، فكان أوَّل من وضع النقاط على حروف اللغة من أجل تصوير حركات الإعراب، ثم أتم عمله نصر بن عاصم ومِن بعده الخليل بن أحمد الفراهيدي.

وفي شعر الدؤلي جانب واسع من ملامح التدين والحكمة، ومن هذا قوله[1]:

وَإذا طَلَبتَ مِنَ الحَوائِجِ حاجَةً ... فادْعُ الإلَهَ وَأَحسِنِ الأَعمالا
فَليُعطِيَنَّكَ ما أَرادَ بِقُدرَةٍ ... فَهوَ اللَّطيفُ لِما أَرادَ فِعالا
إنَّ العِبادَ وَشَأنَهُم وَأُمورَهُم ... بِيَدِ الإلَهِ يُقَلِّبُ الأَحوالا
فَدَعِ العِبادَ وَلا تَكُنْ بِطِلابِهِم ... لَهِجًا تَضَعضَعُ لِلعِبادِ سُؤالا

وكذلك قوله[2]:

لا أشتري الحمدَ القليلَ بَقاؤُهُ ... يومًا بذمِّ الدَّهرِ أجمَعَ واصِبا

وتتجلَّى كذلك الحكمة في قوله[3]:

أَفنَى الشَّبابَ الَّذي أفنيتُ بَهجَتَهُ ... كَرُّ الجَديدَينِ مِن آتٍ وَمُنطَلِقِ
لَم يَترُكا لَيَ في طُولِ اختِلافِهِما ... شَيئًا أَخافُ عَليهِ لَذعَةَ الحَدَقِ

(٢) الوليد بن يزيد:

هو أبو العبَّاس الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، وأمُّه أم الحجَّاج بنت محمد بن يوسف ابنة أخي الحجَّاج بن يوسف الثقفي، وهو الخليفة الحادي عشر من خلفاء بني أمية، وُلِد نحو عام ٨٨هـ/٧٠٧م، وقد نشأ على النعيم واللهو والترف، وكان أبوه يزيد يريد أن يجعله على ولاية العهد فلم يحصل لصغر سنِّه، فجعل على ولاية عهده أخاه هشام بن عبد الملك ثم من بعده لولده الوليد ابن يزيد، فلمَّا آلت الخلافة لهشام شاع فسق الوليد وعُرف انغماسه في المجون والنساء واللهو وأقبل على الخلاعة وشُرب الخمر، فساءت سيرته، فلمَّا شاع خبر قبائحه حاول هشام أن يعزله عن ولاية العهد ويجعلها لولده مسلمة، فاختلف الناس عليه بين مؤيد ومعارض فلم يحصل له، ويُروَى أن هشامًا قد

---

١ انظر: المصدر السابق (١٢/ ٤٨٤).
٢ انظر: المصدر السابق (١٢/ ٤٨٩).
٣ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٢/ ١٢٧).

جفا ابن أخيه ومنعه عطاءه لسوء سيرته، فغادره إلى بلدة تُدعى الأغدف في نواحي الأردن وظل مفارقًا له حتى مات هشام فوَلِيَ الخلافة عام ١٢٥هـ/٧٤٣م، لكن حاله لم يعتدل؛ إذْ ظلَّ عاكفًا على لهوه ومجونه وخلاعته ولم يكفَّ عن شرب الخمر، فانشغل عن أمور الخلافة بأمور لهوه وخمره وبالغ في تتبُّع الغناء والقينات وظلَّ مقيمًا في الأغدف مفارقًا عاصمة الخلافة، فضجَّ الناس منه وعلى رأسهم أهله وأبناء عمومته من بني أمية، فتآمروا عليه بقيادة يزيد ابن الوليد بن عبد الملك وسليمان بن هشام بن عبد الملك، تؤازرهم اليمنية؛ بسبب قتلِ زعيمهم خالد بن عبد الله القسري بإيعاز من الوليد، فقتلوه عام ١٢٦هـ/ ٧٤٤م، وكانت خلافته المشؤومة تلك فاتحة الشر على الخلافة الأموية وكانت سببًا رئيسًا لسقوطها وذَهاب دولتهم بعد ذلك بأعوام قليلة.

وقد رُوِيت عن الوليد أخبار كثيرة عن تهتُّكه ومجونه ولهوه وخمره، وقد اتُّهِم بالزندقة وازدراء الدِّين الإسلامي والقرآن الكريم، ويُقال: إنه وَلِيَ الحج فظهرت منه قبائح، ويُروَى عنه أنه أتى بمصحف فمزقه، ونُسِبَ إليه قوله[1]:

أتُوعِدُ كلَّ جبَّارٍ عنيدٍ ... فها أنا ذاكَ جبَّارٌ عَنِيدُ

إذا لاقيتَ ربَّكَ يومَ حشرٍ ... فقُلْ للهِ مَزَّقني الوليدُ

والحق أن الوليد كان فعلًا منغمسًا في اللهو والمجون والخلاعة والجواري ومكبًّا على شرب الخمر، ولكنَّ قدرًا من تلك الأخبار المروية عنه قد حمل طابعًا من المبالغة والإغراق، رواها عنه بعض خصومه من بني أمية ثم بالغ فيها خلفاؤهم من بني العباس؛ متَّخذين إيَّاها وسيلة للتَّشنيع على خلفاء بني أميَّة وتشويههم، لذا فلا يسعنا الاطمئنان إلى كثير من تلك الروايات المغلوطة التي حملت طابع المبالغة، وإن كان هذا لا ينفي عموم انغماس الوليد في اللهو والترف وإدمانه للخمر كما أسلفنا.

وبِناءً على ذلك فإن الوليد كان رائد شعر المجون واللهو والخمر في عصر بني أمية، وقد كان اللهو على وجوده لا يزال محدودًا ولا تزال أخبار الخمر تسري

[1] انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٧/ ٣٧).

بين الناس على شيء من الاستحياء، حتى جاء الوليد وما عُرف عنه من لهوه وخمره وانغماسه في الترف والنعيم، وكان يُجلَب إليه ما يَسَعُه من السُّمَّار والجواري والندماء والقينات وأصحاب الطرب والغناء.

وشعر الوليد سهل عذب تتجلَّى فيه ملامح المرح واللهو والمجون، وفيه موسيقى وخفة وصفاء ونزوة للنفس، وهو شعر متحضِّر عالي الذوق، وقد اشتهر بخمريات بديعة على غرار الأخطل وربما زاده ترفًا ومجونًا، ومن شعره فيها قوله:

اصـدَعْ نَجِـيَّ الهُمُـومِ بـالطَّرَبِ وانْعَـمَ علَـى الـدَّهرِ بابنَـةِ العِنَـبِ

وللوليد في الخمر أشعار كثيرة؛ فقد أسهب في ذكرها وصفتها، وقد أخذ عدد من الشعراء الكثير من معانيه؛ من بينهم لاحقًا أبو نواس؛ الذي كان شاعرها الأثير، وكان الوليد قد ظهر به ميل إلى البحور الخفيفة على غرار عمر بن أبي ربيعة وعبيد الله بن قيس الرقيات؛ إذْ كانت تلك البحور -كالهزج والمنسرح ومجزوء الرمل- تتناسب مع حالة اللهو والترف والمجون التي انغمس فيها؛ مثل تلك الأبيات[1]:

وَيـحَ سَـلمَى لَـوْ تَرانِـي لَعَناهـا مـا عَنـاني
مُتلِفًـا فـي اللَّهـوِ مـالي عاشِـقًا حُـورَ القِيـانِ
إِنَّمـا أَحـزَنَ قَلبـي قَـولُ سَـلمَى إِذْ أَتـاني
وَلَقَـدْ كُنـتُ زَمانًـا خـالِيَ الـذَّرعِ لِشـاني
شـاقَ قَلبـي وَعَنـاني حُـبُّ سَـلمَى وَبَرانـي
وَلَكَـمْ لامَ نَصـيحٌ فـي سُـلَيمَى وَنَهـاني

وعلى نفس هذا النمط الخفيف نراه في خمرية بديعة يقول[2]:

عَلَّلانـي وَاسْـقِياني مِـن شَـرابٍ أَصـبَهاني
مِـن شَـرابِ الشَّـيخِ كِسـرَى أَو شَـرابِ القَيـرَوانِ

---

١ انظر: المصدر السابق (٧/ ٣٠).
٢ انظر: المصدر السابق (٩/ ٩٠).

وَامـــزُجِ الكَـــأسَ وَلا تُكـــ ـــثِرْ مِـــزاجَ العَسْـــقَلاني
إِنَّ بِالكَـــــأسِ لَمِســـــكًا أَو بِكَفَّـــيْ مَـــن سَـــقاني
أَو لَقَـــدْ غُـــودِرَ فيهـــا حـــينَ صُـــبَّتْ فـــي الـــدِّنانِ
كَلِّلانـــــي تَوِّجـــــاني وَبِشِـــــعري غَنِّيـــــاني
أَطلِقـــــاني بِوَثـــــاقي وَاشـــــدُداني بِعَنـــــاني
إِنَّمـــا الكَـــأسُ رَبِيـــعٌ يُتَعـــاطَى بِالبَنـــانِ
وَحُمَيَّـــا الكَـــأسِ دَبَّـــتْ بَـــينَ رِجلـــي وَلِســـاني

وللوليد أشعار عدَّة في أغراض مختلفة؛ منها الفخر والمديح والرثاء والعتاب، وهي بين الرديء والجيد، غير أن شعر اللهو كان أكثر ما عُرِف عنه، وقد أجاد في الخمر خاصة، ومضى في شعره على مسلك مغاير ونهج غير مألوف على عموم الشعر الأموي، وكان شعره نواة لانفجار طاقة كبيرة من أشعار اللهو والمجون التي ذاعت في العصر العباسي فيما بعدُ، وهنا تكمن أهميَّته.

رابعًا: شعراء البادية

(توبة بن الحمير- ليلى الأخيلية- شبيب بن البرصاء)

(١) توبة بن الحِمير:

هو توبة بن الحِمير بن حزم بن كعب بن خفاجة بن عمرو بن عقيل بن كعب، إحدى بطون بني عامر بن صعصعة، وهو أحد عشاق العرب المشهورين، وصاحبته ليلى بنت عبد الله الأخيلية، وكان كثير الغارات وله العديد من المغامرات، تعلَّق بحب ليلى الأخيلية وقال فيها شعرًا وخطبها من أبيها فأبَى عليه، ويُقال: زوَّجها لرجلٍ آخر؛ على عادة ما شاع عند عرب البادية بعدم تزويج بناتهم لمن يشبِّب بهنَّ، ويُقال: إنه كان يجيء لزيارتها ويلقاها في غير ريبة، فلمَّا فطن له أهلها شكوه إلى الوالي فأذِن لهم بهدر دمه، وتتبَّعوه، وكأنها كانت تأتيه وعلى رأسها برقع، فأتته يومًا وقد سفرت، فأنكر ذلك وأدرك أنَّ سفورها كان تحذيرًا له من أهلها، ففطن إلى ذلك وفرَّ منهم وتبعه أهلها فلم يدركوه.

ومن القصص التي تُروَى عنه أنه مر على بثينة صاحبة جميل وأخذت تنظر إليه، فشَقَّ ذلك على جميل ولم يكن قد أظهر حبَّه بعدُ، فكلَّم توبة قائلًا: هل لك في صراع؟ فتصارعا وغلبه جميل وقال له: هل لك في النِّضال؟ فتناضلا فغلبه جميل، ثم قال له: هل لك في السباق؟ فتسابقا فغلبه جميل، وكان ذلك بحضرة بثينة، فقال توبة: يا هذا؛ إنك إنما تفعل هذا بريح هذه الجالسة، ولكن اهبط إلى الوادي؛ فهبطا، فصرعه توبة وسبقه ونضله.

وكان بين بني خفاجة وأبناء عمومتهم من بني عوف بن عامر بن عقيل ثارات وغارات، ويقال: إن توبة خرج مع أخيه عبيد الله وابن عمٍّ له اسمه قابض بن أبي عقيل فأغار على إبل لهم وأخذها وقتل نفرًا منهم، فطلبوه وقتلوه وضربوا أخاه فأصابوه رجله، ففر مع قابض مُصابًا، ونجح بنو عوف في استنقاذ الإبل، وكادت يحدث بين بني خفاجة رهط توبة وبين بني عوف قتال، لكنهم احتكموا إلى

مروان بن الحكم فعقل القتلى وحُمِلت الدِّيات والجراحات وغادر بنو عوف البادية ولحقوا بالشام[1] وقد اختُلِف في تاريخ موته فقيل: عام ٧٣هـ أو ٧٦هـ؛ وقيل: بل ٨٠هـ؛ ولكن إن صحَّت قصة مقتله أنه كان في حياة مروان بن الحكم فيرجَّح أن مقتله كان قبل عام ٦٥هـ؛ لأن مروان توفِّيَ هذه السنة، فلا بدَّ لتوبة إن صحَّ ذلك أن يكون مقتله قبل هذه السَّنة.

وتوبة شاعر فصيح جزل اللفظ، فخم العبارة، بدوي الروح والطبع، رقيق الغزل، سهل التراكيب، وهناك من أطلق عليه لقب مجنون ليلى[2] ومن شعره قوله[3]:

نأتْـكَ بِلَيلَـى دارُهـا لا تَزورُهـا ... وشـطَّتْ نَواهـا واسـتمرَّ مَرِيرُهـا

وخِفْـتَ نَواهـا مـن جَنـوبِ عُنَيـزةٍ ... كمـا خـفَّ مِـن نيـلِ المَرامـي جَفِيرُهـا

يقـولُ رجـالٌ لا يَضـيرُكَ نأيُهـا ... بلَـى كـلُّ مـا شـفَّ النُّفُـوسَ يَضِـيرُها

ألـيسَ يَضِيرُ العينَ أنْ تُكثِرَ البُكا ... ويُمنَـعَ منهـا نومُهـا وسُـرورُها

أرى اليـومَ يـأتي دُونَ ليلَـى كأنمـا ... أتَـى دُونَ ليلَـى حِجَّـةٌ وشـهورُها

لكـلَّ لقـاءٍ نَلتَقِيـهِ بَشاشـةٌ ... وإنْ كـانَ حَـولًا كـلُّ يـومٍ أزورُهـا

خليلـيَّ رُوحَـا راشِـدَيْنِ فَقَـدْ أتَـتْ ... ضـريَّةُ مِـن دُونِ الحبيـبِ ونيرُهـا

يَقَـرُّ بعينـي أنْ أرَى العِـيسَ تعتلـي ... بنـا نَحـوَ ليلَـى وهْـيَ تجـري ضُـفورُها

ومـا لحِقَـتْ حتـى تَقلقَـلَ غُرْضُـها ... وسـامَحَ مِـن بَعـدِ المَـراحِ عَسِـيرُها

وأُشـرِفُ بـالأرضِ اليَفـاعِ لعلَّنـي ... أرَى نـارَ ليلَـى أو يَرانـي بَصِـيرُها

فناديـتُ ليلـى والحُمـولُ كأنَّهـا ... مَـواقيرُ نخـلٍ زعزعَتْهـا دَبُورُهـا

فقالـتْ أرى أنْ لا تُفيـدكَ صُـحبتي ... لهيبـةِ أعـداءٍ تَلظَّـى صُـدورُها

فمَـدَّتْ لـيَ الأسـبابَ حتـى بلغتُهـا ... برِفْقـي وقَـدْ كـادَ ارتقـائي يَصُـورُها

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٣٧- ٤٣٨)؛ الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١١/ ١٤١- ١٤٥).

٢ انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٥/ ٣٨٢- ٣٨٣).

٣ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص١٤- ١٥).

فلمَّا دخلتُ الخِدرَ أطَّتْ نسوعُهُ ... وأطرافُ عِيدانٍ شديدٍ أسُورُها
وإنِّي ليَشفِيني من الشَّوقِ أن أرى ... على الشَّرَفِ النائي المَخُوفِ أزورُها

ومن شعره قوله[1]:

ألا هلْ فؤادي عن صِبا اليومَ صافحُ ... وهلْ ما وأتْ ليلَى بهِ لكَ ناجحُ
وهلْ في غدٍ إنْ كانَ في اليومِ عِلَّةٌ ... سَراحٌ لِمَا تُلْوي النُّفوسُ الشَّحائحُ
ولو أنَّ ليلَى الأخيليَّةَ سَلَّمَتْ ... عليَّ ودوني جَنْدلٌ وصفائحُ
لسلَّمتُ تَسلِيمَ البَشاشةِ أو زَقَا ... إليها صدًى من جانبِ القَبر صائحُ
ولو أنَّ ليلَى في السَّماءِ لأصعَدَتْ ... بطَرفِي إلى ليلَى العيونُ الكواشحُ
ولو أرسلَتْ وحيًا إليَّ عرفتُهُ ... معَ الرِّيحِ في مَوَّارِها المتناوحِ
أأُغبَطُ مِن ليلَى بما لا أنالُهُ ... ألا كلُّ ما قَرَّتْ به العَينُ صالحُ

وقال فيها[2]:

رَماني بِلَيلَى الأخيليَّةِ قومُها ... بأشياءَ لَمْ تُخلَقْ ولَمْ أدرِ ما هيا

(٢) ليلى الأخيلية:

هي ليلى بنت عبد الله بن الرحَّال بن شدَّاد بن كعب بن معاوية المعروف بالأخْيَل؛ أي: الفارس، الهرار، ابن عبادة بن عقيل بن كعب، من بني عامر بن صعصعة، وهي صاحبة توبة الحميري وكانت بينها وبين توبة قصة حب ولكن لم يأذَنْ أبوها بزواجهما، ويقال: زوَّجَها لغيره؛ وهي من النساء المتقدِّمات في شعراء الإسلام.

ولمَّا مات توبة رثته ليلى بقصائد عدَّة، وقد عُمِّرت ليلى الأخيلية طويلًا بعد مقتله، ورُوِيَت عنها أخبار مع معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفي وأسماء بن خارجة، وكثيرًا ما كانت تُسأل عن توبة

---

١ انظر: المصدر السابق (ص١٥- ١٦).
٢ انظر: المصدر السابق (ص١٦).

وقصَّتها معه؛ سألها معاوية عنه فقالت: كان يا أمير المؤمنين؛ سبط البنان، حديد اللسان، شجًّا للأقران، كريم المخبر، عفيف المئزر، جميل المنظر.

وقد وفدت ليلى على الحجاج بن يوسف الثقفي ولها فيه بعض المديح، فاستنشدها في صاحبها توبة، فأنشدت، فطرب الحجاج وقال لها: بالله يا ليلى أرأيتِ من توبة أمرًا تكرهينه أو سألك شيئا يُعاب؟ فقالت: لا واللهِ الذي أسأله المغفرة، ما كان ذلك منه قطُّ؛ فقال: إذا لم يكن فيرحمنا الله وإيَّاه؛ وفي رواية أنها لما أنشدته قال لحاجبه: اذهب فاقطع لسانها؛ فلم يحسن الحاجب الفهم ودعا بالحجَّام فعلًا لقطعِ لسانها، فقالت: ويلك؛ إنَّما قال لك الأمير: اقطع لسانها بالصِّلة والعطاء؛ فلمَّا رجع إليه استأمره، فاستشاط الحجاج غضبًا وهمَّ بقطعِ لسانه، ثم دخلت عليه ليلى قائلة: كاد واللهِ أن يقتل مِقوَلي.

ويقال: إنها سألت الحجاج أن يحملها إلى عامله قتيبة بن مسلم بخراسان، فماتت في الطريق ودُفِنت في ساوى، وإن صحَّ ذلك تكون توفِّيَت في خلافة الوليد ابن عبد الملك[1]

وتُعتبر ليلى الأخيلة من أجود النساء شعرًا، ومن أفضل شعراء الإسلام وأبرزهم، وقد فضَّلها الأصمعي والمبرِّد على كثيرٍ من معاصريها، وشعرها رائع النغم متين السبك قوي الأسلوب، يميل إلى الفخامة وطابع الروح البدوية، وأغلب شعرها في رثاء توبة بن الحمير، ولها في غير ذلك شيء من المديح والفخر والرثاء والهجاء، وكانت بينها وبين النابغة الجعدي مهاجاة فغلبته، ومن شعرها ترثي توبة[2]:

أَقْسَمْتُ أَرْثِي بَعْدَ تَوْبَةَ هالكًا ... وأَحْفِلُ مَنْ دارَتْ عَلَيْهِ الدَّوائِرُ

لَعَمْرُكَ ما بالمَوْتِ عارٌ على الفَتَى ... إذا لَمْ تُصِبْهُ في الحياةِ المَعايرُ

ومَا أَحَدٌ حيٌّ وإنْ عاشَ سالِمًا ... بأَخْلَدَ مِمَّنْ غَيَّبَتْهُ المقابِرُ

ومَنْ كانَ مِمَّا يُحْدِثُ الدَّهرُ جازِعًا ... فلا بُدَّ يَوْمًا أنْ يُرَى وهْو صابِرُ

---

[1] انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١١/ ١٦٠- ١٦٣).

[2] انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٤١).

ولَيْسَ لذِي عَيشٍ منِ المَوْتِ مذهَبٌ ... ولَـيْسَ علَـى الأيَّـامِ والـدَّهرِ غـابِرُ
ولا الحـيُّ ممَّـا يحـدث الـدهر مُعتِـبٌ ... ولا الميـتُ إن لـم يصـبر الحـيُّ ناشـرُ
وكـل شـبابٍ أو جديـدٍ إلـى بلًـى ... وكـل امـرئٌ يومًـا إلـى الله صـائرُ
وكـل قرينـي أُلفَـةٍ لِتفـرُّقٍ ... شـتاتًا وإن ضـنَّا وطـال التعاشـرُ
فـلا يبعـدنك الله يـا تـوبَ هالكًـا ... أخـا الحـرب إن ضـاقت عليـه المصـادرُ
فأقسـمتُ لا أنفـكُّ أبكيـك مـا دعـت ... علـى فَـنَنٍ ورقـاءُ أو طـار طـائرُ
قتيـل بنـي عـوفٍ فيـا لهفتـا لـه ... فمـا كنـتُ إيَّـاهم عليـه أحـاذِرُ
ولكنَّمـا أخشـى عليـه قبيلـةً ... لهـا بـدروب الـروم بـادٍ وحاضـرُ

ومن رثائها لعثمان بن عفان قولها[1]:

أَبَعْـدَ عُثْمـانَ تَرْجُـو الخَيْـرَ أُمَّتُـهُ ... وكـانَ آمَـنَ مَـنْ يَمْشِـي علَـى سـاقِ
خَلِيفَـةُ اللهِ أَعْطـاهُمْ وخَـوَّلَهُمْ ... مـا كـانَ مِـنْ ذَهَـبٍ جَـمٍّ وأَوْراقِ
فـلا تُكَـذِّبْ بوَعْـدِ اللهِ واتَّقِـهِ ... ولا تَوكَّـلْ علَـى شَـيءٍ بإِشْـفاقِ
ولا تَقُـولَنْ لِشَـيءٍ سَـوْفَ أَفْعَلُـهُ ... قـد قَـدَّرَ اللهُ مـا كـلُّ امْـرِئٍ لاقِ

وكانت بينها وبين النابغة الجعدي مهاجاة فهجاها قائلًا[2]:

وقَـدْ أكلَـتْ بَقْـلًا وَخِيمًـا نباتُـهُ ... وقَـدْ نَكَحَـتْ شَـرَّ الأخايـلِ أخـيَلا
وكيفَ أُهاجِي شاعِرًا رُمحُـهُ اسْتُهُ ... خَضِـيبَ البَنَـانِ لا يَـزالُ مُكحَّـلا

فقالت ترد عليه وقد غلبتْه[3]:

أَنـابِغَ لَـمْ تَنْبَـغْ ولَـمْ تَـكُ أَوَّلا ... وكُنْـتَ وشـيلًا بَـيْنَ لُصْـبَيْنِ مَجْهَـلا
أَعَيَّرْتَنـي داءً بأمِّـكَ مِثْلُـهُ ... وأيُّ جَـوادٍ لا يُقـالُ لَـهُ هَـلا

---

١ انظر: المصدر السابق (١/ ٤٤٠).
٢ انظر: المصدر السابق (١/ ٤٣٩).
٣ انظر: المصدر السابق (١/ ٤٣٩- ٤٤٠).

(٣) شبيب ابن البرصاء:

هو شبيب بن يزيد بن جمرة -أو جبرة- بن عوف، من بني مُرَّة من ذبيان، وقد غلب عليه نِسبته إلى أمّهِ وهي قِرصافة بنت الحارث بن عوف، لُقِّبَتْ بالبرصاء لبياضها، لَا لأنَّ رسول الله ﷺ خطبها فأبَى أبوها فأصابها بَرَص كما زعمت بعضُ الرويات.

وهو من أبرز الشعراء الإسلاميين في عصرِ الدولة الأموية، وكان سيِّدًا شريفًا في قومه، وهو من أهل البادية ولم يَزُرِ الحضر إلا وافدًا أو زائرًا، وكان أعور؛ إذْ أُصيبت عينه في حروب كانت بينه وبين طيئ، وله أخبار مرويَّة مع عبدالملك ابن مروان، وبينه وبين بعض قومه مثل عقيل بن علفة وأرطأة بن سُهيَّة مهاجاة، ومن شعره يمزج بين الحكمة والفخر قوله[1]:

وإنّـي لتـرَّاكُ الضَّـغِينةِ قَـدْ بَـدا ... ثَراهـا مِـنَ المَـولَى فـلا أستَشِـيرُها
مخافَـةَ أنْ تَجنِـي علـيَّ وإنَّمـا ... يَهِـيجُ كَبِيـراتِ الأمُـورِ صَـغِيرُها
لَعَمـري لقَـدْ أشـرَفْتُ يـومَ عُنيـزة ... علـى رغبـةٍ لـو شـدَّ نفسـي مَرِيرُهـا
تَبَـيَّنُ أعقـابُ الأُمـورِ إذا مَضَـتْ ... وَتُقبِـلُ أَشـباهًا عَلَيـكَ صُـدُورُها
إذا افتَخَرَتْ سَعدُ بنُ ذيبانُ لَم يَجِدْ ... سِـوَى مـا ابتَنَيْنَـا مـا يَعُـدُّ فَخُورُهـا
أَلَـمْ تَـرَ أَنّـا نُـورُ قَـومٍ وَإِنَّمـا ... يُبَـيِّنُ فـي الظَّلْمـاءِ لِلنَّـاسِ نُورُهـا

و شبيب شاعرٌ إسلامي فصيحٌ مجيدٌ متين السبك قوي التراكيب واضح المعنى والغرض، يمتاز شعره بصفاء الطابع البدوي في إحساسه ووصفه ومعانيه ولفظه الجزل الفخم، وقد انتهى إلينا القليل من شعره، وهو يدور حول الفخر والهجاء والرثاء والحكمة، وله نسيب رائع، ويقال: إنه خطب إلى مسهر بن علي أحد بني غيظ بن مرة فقال له: نعم أزوِّجك؛ فقال شبيب: أؤامر أخي؛ فقال: تؤامر رجلًا في تزويجك!! ويحك!! والله لا أزوّج رجلًا لا يملك أمره؛ فردَّه، فانصرف

---

١ انظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ص٧٨٩- ٧٩٠).

عنه شبيب[1] وقال قصيدة هي من أروع ما انتهى إلينا من الشعر الأموي في النسيب والبكاء على الأطلال، جاء منها[2]:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الحَـيَّ فَـرَّقَ بَيـنَهُم ... نَـوًى يَـومَ صَـحراءِ الغُمَـيمِ لَجـوجُ
نَـوًى شَـطَنَتهُم عَـن نَوانـا وَهَيَّجَـتْ ... لَنـا طَرَبًـا إِنَّ الخُطـوبَ تَهِـيجُ
فَلَـمْ تَـذرِفِ العَينـانِ حتَّـى تَحَمَّلَـتْ ... مَـعَ الصُّـبحِ أَحفـاضٌ لَهُـم وَحُـدُوجُ
وَحتَّـى رَأَيـتُ الحَـيَّ تُـذرِي عِراصَـهُم ... يَمانِيَـةٌ تُزهِـي الرغـامَ دَرُوجُ
فَأَصـبَحَ مَسـرورٌ بِبَينِـكِ مُعجَـبٌ ... وَبـاكٍ لَـهُ عِنـدَ الـدِّيارِ نَشِـيجُ
فَـإِنْ تَـكُ هِنـدٌ جَنَّـةً حِيـلَ دونَهـا ... فَقَـدْ يَعـزِفُ اليَـأسُ الفَتَـى فَيَعِـيجُ
إِذا احتَلَّـتِ الرَّنقـاءَ هِنـدٌ مُقيمَـةً ... وَقَـدْ حـانَ مِنّـي مِـن دِمَشـقَ بُـروجُ
وَبُـدِّلتُ أَرضَ الشّـيحِ مِنهـا وَبُـدِّلَتْ ... تِـلاعَ المَطـالي سَـخبَرٌ وَوَشِـيجُ

* * *

لَعَمـرُ ابنَـةِ المُـرّيِّ مـا أَنـا بِالَّـذي ... لَـهُ أَن تَنـوبَ النَّائِبـاتُ ضَـجيجُ
وَقَـدْ عَلِمَـتْ أُمُّ الصَّـبِيَّينِ أَنَّنـي ... إِلـى الضَّـيفِ قَـوّامُ السِّـناتِ خَـرُوجُ

وهي قصيدة ممتازة تتصف بصدق العاطفة وعمق المعنى وقدر عظيم من الإنسيابية والرقة، وله كذلك في الفخر قوله[4]:

إِنّـي امـرُؤٌ لـي رَوابٍ لا يُشَـقِّقُها ... سَـيلُ الأَتِـيِّ وَلا تُسـطاعُ أَوتـادي
إِنَّ المَكـارِمَ وَالأَحسـابَ عُودُهمـا ... مِـنْ آلِ مُـرَّةَ أَعمـامي وَأَجـدادي
أَنا ابنُ عَوفٍ وَمِنّي إِنْ فَخَرتُ بِهِم ... بَنـو سِـنانٍ وَمَسـعودِ بـنِ شَـدَّادِ

---

١ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٢/ ٧٣٢).
٢ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص١٧٠- ١٧٢).
٣ ابنة المرجي: التي خطبها.
٤ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٢/ ٧٣٠).
٥ عوف، بنو سنان، مسعود بن شداد: أعلام وعشائر من قومه.

خامسًا: شعراء الغزل

(كثير عزة- الأحوص- العرجي)

(١) كُثَيِّر عزة:

هو كُثيِّر بن عبد الرحمن بن الأسود بن عويمر الخزاعي، وقد اختُلِف في نسب قبيلة خزاعة؛ فقيل: من الأزد من قحطان؛ وقيل: بل من مُضَر؛ وهو الأرجح، ويُكنى كثيِّرٌ بأبي صخر، ويسمَّى أحيانًا بكُثيِّر بن أبي جمعة، وهو واحد من عشاق العرب المشهورين، وُلِد نحو عام ٤٥هـ/٦٦٥م، وصاحِبَتُه عزة بنت حُميل ابن وقاص بن حاجب، من بني ضُمرة، ويقال لها: عزَّة الضمرية؛ وقد قال فيها جُلَّ شعره، وكان كثير راوية لجميل بن معمر وله معه أخبار، ويبدو من خلال سيرته أنه قد تشيَّع لآل البيت؛ فله مديح لمحمد بن الحنيفية نجل علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، ودافع عنه حين حبسه ابن الزبير في سجن عارم، ولمَّا أطلقه التحق بعبد الملك وأخذ يحرِّضه على ابن الزبير.

وضعه ابن سلام الجمحي في الطبقة الثانية مع القطامي وذي الرُّمَّة والبعيث، وقال فيه: وكان كثِّير شاعر أهل الحجاز، وإنهم ليقدِّمونه على بعض من قدَّمْنا عليه[١] وكان بعضهم يقرنه بشعراء الطبقة الأولى كالأخطل وجرير والفرزدق والراعي، وكان عبد الملك بن مروان يعجب بشعره ويرويه لأولاده وحفدته.

ورغم تشيُّعه فإن له أخبارًا مع بعض خلفاء بني أمية مثل عبد الملك بن مروان ومدحه عدة مدائح، ومدح كذلك عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبدالملك، وله خبر مع عبد العزيز بن مروان حينما ذهب إليه بمصر، ومن مديحه لغبد الملك قوله[٢]:

جَزَتكَ الجَوازِي عَن صَدِيقِكَ نَضْرَةً وَأَدنــاكَ رَبِّــي فــي الرَّفيــقِ المُقَــرَّبِ

---

١ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٢/ ٥٣٤).
٢ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٩/ ٩).

فَإِنَّــكَ لا يُعطِــي عَلَيــكَ ظُلامَــةً عَــدُوٌّ وَلا تَنــأى عَــنِ المُتَقَــرِّبِ
وَإِنَّــكَ مــا تَمنَــعْ فإِنَّــكَ مــانِعٌ بِحَــقٍّ وَمــا أَعطَيــتَ لَــم تَتَعَقَّــبِ

ويبدو أنه كان يريد من الخليفة أن يُقطِعَه أرضًا، فتم له ذلك، ومن مديحه فيه أيضًا قوله[1]:

إذا مــا أرادَ الغــزوَ لَــمْ تُــثْنِ هَمَّــهَ حَصــانٌ عليهــا عِقــدُ دُرٍّ يَزينُهــا
نَهَتْــهُ فلَمَّــا لَــمْ تَــرَ النَّهــيَ عاقَــهُ بَكَــتْ فبَكَــى مِمَّــا شَــجاها قَطِينُهــا

ويقال: إنه اجتمع مع الأحوص ونُصيب وذهبوا إلى عمر بن عبد العزيز وكان لا يأذن للشعراء ولا يصلهم بشيء؛ لكنه أذن لهم بعد طول انتظار وبمساعدة من مسلمة بن عبد الملك، فمدحه كثيِّر بقصيدته الميمية التي قال فيها: (وَلِيتَ فلَمْ تَشتمْ عليًّا)، ثم مدحه الأحوص، ثم تقدَّم نصيب للإنشاد فلم يأذن له، ثم صرفهم عنه بعدما وصل كثيِّرًا والأحوص بثلاثمائة درهم ووصل نصيبًا بمئة وخمسين[2].

وأما قصته مع عزة فيُروَى أنه لَقِيَ نسوةً من بني ضمرة ومعه غنم فسألهن أولًا عن الماء فأرشدته عزة وكانت لا تزال صغيرة، ثم أرسلَهَا إليه كي تبتاع واحدة منها من غنمه فأعطاها، وأعجبته، وبعد ذلك جاءته امرأة أخرى أعطته دراهمَ ثمنًا للكبش، فقال: أين الصَّبيَّة التي أخذت مني الكبش؟ فقالت له: وما تصنع بها؟ هذه دراهمك؛ قال: لا آخذ دراهمي إلا ممن دفعتُ الكبش لها؛ وكان هذا مفتتح حبِّه لها، وقال فيها جُلَّ شعره، وكان يتحين لقاءها واستمر حبه لها بعد زواجها، غير أنه شبَّب بغيرها كذلك، مما دفع البعض للقول بأنه كان في ذلك كاذبًا ولم يعشقها، وقال عنه ابن سلام يقارنه بجميل: وكان لكثيِّر في التشبيب نصيبٌ وافر، وجميلٌ مُقدَّم عليه في النسيب، وله في فنون الشعر ما ليس لجميل، وكان جميل صادق الصَّبابة، وكان كثيِّر يقول ولم يكن عاشقًا[3] وله أيضًا مع أم

---

١ انظر: المصدر السابق (٩/ ١٧).
٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٩٦- ٤٩٩).
٣ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٢/ ٥٤٥).

الحوريث الخزاعية حديث عشق وشبَّب بها فخشيت القالة فطلبت منه أن يخطبها وكان فقيرًا، فذهب يمدح بعض الأعيان متكسِّبًا، فلمَّا عاد وجدها قد توفِّيَت، أو تزوجت من أبناء عمومتها، وتوفِّيَ كثيِّر نحو ١٠٥هـ/٧٢٣م أو ١٠٧هـ/٧٢٥م في المدينة المنورة[١]

وشعر كثيِّر رقيق حسن السبك، وهو يجيد الغزل العذري وله وصف ومديح ورثاء حسن، وهو تلميذ جميل في الغزل العذري، في عذوبة وسلاسة، وهو وإن لم يبلغ قدرَ جميلٍ في الغزل؛ فقد امتاز عنه بأنَّ شعره قد تعددت أغراضه، بخلاف جميل الذي اختص إبداعه في الغزل، ومن شعره في عزة[٢]

لِعَزَّةَ مِن أَيَّامِ ذي الغُصنِ هاجَني ... بَضاحي قَرارِ الرَّوضَتَينِ رُسُومُ
فَروضَةُ أَلجامٍ تَهيجُ لِيَ البُكا ... وَرَوضاتُ شَوْطَى عَهدُهُنَّ قَديم
هِيَ الدَّارُ وَحشًا غَيرَ أَنْ قَدْ يَحِلُّها ... وَيَغنَى بِها شَخصٌ عَلَيَّ كَريمُ
فَما بِرِباعِ الدَّارِ أَنْ كُنتُ عالِمًا ... وَلا بِمَحَلِّ الغانِياتِ أَهيمُ
سَأَلتُ حَكيمًا أَينَ صارَتْ بِها النَّوى ... فَخَبَّرَني ما لا أُحِبُّ حَكيمُ
أَجَدُّوا فَأَمَّا آلُ عَزَّةَ غَدوَةً ... فَبانُوا وَأَمَّا واسِطٌ فَمُقيمُ
فَمَضَى لِلنَّوَى لا بارَكَ اللهُ في النَّوَى ... وَعَهدُ النَّوَى عِندَ المُحِبِّ ذَميمُ
لَعَمري لَئِن كانَ الفُؤادُ مِنَ الهوَى ... بَغى سَقَمًا إِنّي إِذًا لَسَقيمُ

ومن شعره كذلك:[٣]

عَفَتْ غَيقَةٌ مِن أَهلِها فَحَريمُها ... فَبُرقَةُ حِسمَى قاعُها فَصَريمُها
وَهاجَتكَ أَطلالٌ لِعَزَّةَ بِاللِّوَى ... يَلوحُ بِأَطرافِ البَراقِ رُسومُها
وقال خليلي يوم رُحنا وفُتِّحت ... من الصدر أشراجٌ وفُضَّت خُتومُها
أصابتك نبل الحاجبيَّة إنَّها ... إذا ما رمت لا يستبلُّ كليمها
كأنك مردوعٌ من الشمس مطرَدٌ ... يفارقه من عقدةِ البقع هيمها

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٩/ ٢٠).
٢ انظر: منتهي الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص١٤٠).
٣ انظر: المصدر السابق، طبعة: دار الكتب العلمية (ص٣٠١).

ويقال: إنَّ كثيّرًا قد لَقِيَ عزَّة بعد زواجها، في الحج، مصادفة، فلما علم زوجها بذلك غضب عليها وضربها ثم أمرها بسبِّه في وجهه ففعلتْ وقالت: يا ابن الزانية؛ وهي تبكي، فقال كثيّر[1]:

يُكَلِّفُهـا الخِنزيـرُ شَـتْمي وَمـا بِهـا هَـــواني وَلَكِـــنْ لِلمَلِيـــكِ اســـتَذَلَّتِ
هَنيئًـــا مَرِيئًـــا غَيـــرَ داءٍ مُخـــامِرٍ لِعَـــزَّةَ مِـــن أَعراضِـــنا مـــا اســـتَحَلَّتِ
وَوَاللهِ مـــا قارَبـــتُ إلا تَباعَـــدَتْ بِصَـــــرمٍ وَلا أَكثَـــــرتُ إِلَّا أَقلَّـــــتِ

(٢) الأحوص:

هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأوسي الأنصاري، وقد لُقِّبَ بالأحوص لِحَوَصٍ في عينيه؛ وهو ضيق في مؤخرتهما، وكان جدُّه عاصم من أصحاب النَّبيّ ﷺ معروفًا باسم حَمِيّ الدَّبْرِ، وهو من شهداء يوم الرَّجيع؛ حيث أراد المشركون التَّمثيل به واحتزاز رأسه فاجتمع على جسده الدَّبْر -النحل- فحفظ بدنه منهم، ثم بعث الله في اللَّيل سيلًا ذهبت بجسده، وخال أبيه حنظلة بن أبي عامر المعروف بِغسِّيل الملائكة؛ حيث استشهد في غزوة أُحُدٍ، وأخبر النَّبيُّ ﷺ أن الملائكة تُغسِّله، وقد وُلِد الأحوص في المدينة وعاش بها.

وكان الأحوص دنيئًا مستهترًا سيئ السِّيرة كثير الهجاء، فضجَّ الناس منه وكثُرت شكاويهم عليه وانتهى خبره إلى الوليد بن عبد الملك وكان يستحسن شعره، فغضب عليه فأمر عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز بجلده وتأديبه، ويبدو أن الأحوص قد هجا أبا بكر بن حزم قاضي المدينة وعاملها، فأمر سليمان ابن عبد العزيز بجلده ورفعه على البُلُس للتشهير به وأمر بنفيه إلى جزيرة دهلك بين الحبشة واليمن وكانت منفًى زمن بني أمية، وبقي الأحوص في منفاه عدة سنوات، واستعطف عمر بن عبد العزيز لما وَلِيَ الخلافة فلم يهتم، فقال الأحوص يعاتبه[2]:

---

١ انظر: منتهي الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص١٣٩).
٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٥١٠).

أَلَستَ أَبا حَفصٍ هُديتَ مُخَيِّري ... أَفي الحَقِّ أَن أُقصَى وَيُدنَى ابنُ أسلَما
وَكُنّا ذَوِي قُربى لَدَيكَ فَأَصبَحَتْ ... قَرابَتُنا ثَدْيًا أَجَدَّ مُصَرَّما
وَكُنتَ وَما أَمَّلتُ مِنكَ كَبارِقٍ ... لَوَى قَطرَهُ مِن بَعدِ ما كانَ غَيَّما

وبقي في منفاه حتى عفا عنه يزيد بن عبد الملك بشفاعة إحدى جواريه تُدعَى سلَّامة القس وكان الأحوص يشبِّب بها قبل أن تصير ليزيد، فعاد الأحوص إلى دمشق ووفد على يزيد ومدحه حينًا، ويُقال: إنه أراد أن يوقع بخصمه أبي بكر ابن حزم عند يزيد فلم يقبل منه وأهانه[1] وقد تُوفِّيَ الأحوص عام ١٠٥هـ، وقيل: بل ١١٠هـ.

وكان الأحوص شاعرًا مجيدًا، سهل اللفظ واضح المعنى، ولشعره رونق وديباجة وعذوبة، وهو يمتاز بالرِّقَّة والصفاء وانسيابية اللفظ والتراكيب، جعله ابن سلَّام في الطبقة السادسة من الشعراء الإسلاميين مع ابن قيس الرقيات وجميل ونُصيب مولى عبد العزيز بن مروان، ومنزلته بين الشعراء دون موهبته وشاعريَّته؛ إذْ غلبت دناءته وسوء طبعه على جودة شعره فحطَّ ذلك من قدرِه، وقد أجاد الأحوص في المديح والهجاء والغزل، ويُعتبر مثل عمر بن أبي ربيعة أحد شعراء الغزل الصريح، لكنَّه كان أكثر جرأة وأبعد في الإباحية، وله غزل في أم جعفر الأوسية إذْ قال فيها بعضًا من شعره، وإن كان عمر بن أبي ربيعة قد اختص بالحرائر فإننا نجد الأحوص قد تغزَّل بالجواري مثل الذلفاء وعقيلة وسلَّامة القس.

ومما يُستحسن من شعره قوله[2]:

بَكَيتُ الصِّبا جَهْدِي فَمَنْ شاءَ لامَنِي ... وَمَن شاءَ آسَى فِي البُكاءِ وَأَسعَدا
وَإِنِّي وَإِنْ أجريتُ فِي طَلَبِ الصِّبا ... لأَعلَمُ أَنِّي لَستُ فِي الحُبِّ أَوحَدا
هَلِ العَيشُ إلا ما تَلَذُّ وَتَشتَهِي ... وَإِن لامَ فيهِ ذُو الشَّنانِ وَفَنَّدا

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٤/ ٤٢٩).
٢ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٢٩٠).

ومن شعره يمدح الوليد بن عبد الملك:[1]

إِمـامٌ أَتـاهُ المُلـكُ عَفـوًا وَلَـمْ يُصِبْ ... عَلـى مُلكِـهِ مـالًا حَرامًـا وَلا دَمـا
تَخَيَّـرَهُ رَبُّ العِبـادِ لِخَلقِـهِ ... وَلِيًّـا وَكـانَ اللهُ بِالنَّـاسِ أَعلَمـا
فَلَمَّـا قَضـاهُ اللهُ لَـم يَـدْعُ مُسـلِمًا ... لِبَيعَتِـهِ إِلا أَجـابَ وَسَـلَّما
يَنـالُ الغِنَـى وَالعِـزَّ مَـن نـالَ وُدَّهُ ... وَيَرهَـبُ مَوتًـا عـاجِلًا مَـن تَشَـأَّما
أَلَـمْ تَـرَه أَعطَـى الحَجـيجَ كَأَنَّمـا ... أَنـالَ بِمـا أَعطَـى مِـنَ المـالِ دِرهَمـا
تَفَقَّـدَ أَهـلَ الأَخشَـبَيْنِ فَكُلُّهـم ... أَنـالَ وَأَعطَـى سَـيْبَهُ المُتَقَسِّـما
فَراحُـوا بِمـا أَسـدَى إِلَـى كُـلِّ بَلـدَةٍ ... بِحَمـدٍ يهـزُّونَ المَطِـيَّ المُخَزَّمـا
كَشَمسِ نَهارٍ أُبْتَ لِلنَّاسِ إِنْ بَدَتْ ... أَضـاءَتْ وَإِنْ غابَـتْ مَحَتْـهُ فَأَظلَمـا

ومن شعره في النسيب:[2]

أَفـي كُـلِّ يَـومٍ حَبَّـةُ القَلـبِ تُقـرَعُ ... وَعَينِـي لِبَـينٍ مِـن ذَوي الـوُدِّ تَـدمَعُ
أَبِالجِـدِّ أَنِّـي مُبتَلًـى كُـلَّ سـاعَةٍ ... بِهَـمٍّ لَـهُ لَوعـاتُ حُـزنٍ تَطَلَّـعُ
إِذا ذَهَبَـتْ عَنِّـي غَـواشٍ لِعَبـرَةٍ ... أَظَـلُّ لأُخـرَى بَعـدَها أَتَوَقَّـعُ
فَلا النَّفسُ مِن تَهمامِها مُستَرِيحَةٌ ... وَلا بِالَّـذي يـأَتِي مِـنَ الـدَّهرِ تَقنَـعُ
وَلا أَنـا بِـاللَّائي نَسَـبْتُ مُـرَزَّأٌ ... وَلا بِـذَوِي خِلـصِ الصَّـفا مُتَمَتِّـعُ

(٣) العَرْجي:

هو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنه، لُقِّب بالعرجي نسبة إلى قرية "عرج" من ضواحي الطائف، وهو من أبرز شعراء الغزل وأحد أبرز شعراء قريش، ويبدو أنه نشأ نشأة مترفة فكان شغوفًا باللهو والصيد، وكان أشقر أزرق العين جميل الوجه، وكان مع لهوه ذا فروسية وفُتوَّة حتى عُدَّ من

١ انظر: المصدر السابق (ص٢٩٤).
٢ انظر: المصدر السابق (ص٢٩٦).

الفرسان، وكان يجيد الرمي والقتال واشترك مع مسلمة بن عبد الملك في بعض حروب الروم وأبلى فيها بلاء حسنًا.

وقد مضى العرجي مُضِيَّ عمر بن أبي ربيعة في الغزل وكان يحسن التشبيه حتى اعتبر خليفته في الغزل الصريح وأخذ يتتبع النساء حتى المتزوجات منهن فيتغزَّل ويشبِّب بهن، وله أخبار مع أم الأوقص المخزومية وعاتكة زوجة طريح ابن إسماعيل الثقفي، ولمَّا تولَّى الخلافة هشام بن عبد الملك استعمل على الحجاز خاله محمد بن هشام المخزومي وكان فيه شدَّة وكِبرٌ، وكانت بينه وبين العرجي عداوة، فشبَّب بأمِّه جيداء بنت عفيف، فقبض عليه وجلَده وأقامه على البُلُس ثم حبسه فظل في محبسه تسع سنوات حتى توفِّيَ عام ١٢٠هـ، ومما قال في حبسه وتعذيبه[١]:

أضـــاعُوني وأيَّ فتًـــى أضـــاعُوا ... لِيَـــومِ كريهـــةٍ وسِـــدادِ ثَغْـــرِ

ويقال: إن الوليد بن يزيد لمَّا وَلِيَ الخلافة اقتصَّ للعرجي؛ فقبض على محمد ابن هشام وعذَّبه ونكل به وسلَّمه إلى يوسف بن عمر عامله على العراق فعذَّبه في السجن حتى هلك[٢].

ومن شعر العرجي في الغزل[٣]:

أَيـنَ مـا قُلـتِ مُـتُّ قَبلَـكَ أَينـا ... أَيـنَ تَصـدِيقُ مـا عَهِـدتِ إِلَينـا

فَلَقَدْ خِفتُ مِنكِ أَن تَصرِمي الحَبـ ... ـلَ وَأَنْ تَجْمِعـي مَـعَ الصَّـرمِ بَينـا

مـا تَقُـولِينَ فـي فَتًـى هـامَ إِذْ هـا ... مَ بِمَـــنْ لا يُنَـــالُ جَهـــلًا وَحَيْنـــا

فَـاجعَلي بَينَنـا وَبَينَـكِ عَـدلًا ... لا تَحِيفـــي وَلا يَحِيـــفُ عَلَينـــا

ويروى عنه أيضًا قوله[٤]:

أَلا قاتَـلَ اللهُ الهَـوى كَيـفَ أَخلَقـا ... وَلَـــم تَلقَـــهُ إِلَّا مَشُـــوبًا مُمَـــذَّقا

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٥٦٠).
٢ أنظر انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١/ ٣٢٠).
٣ انظر: المصدر السابق (١/ ٣٠٣- ٣٠٤).
٤ انظر: المصدر السابق (٨/ ٣٨٢).

وَمـا مِـن حَبيـبٍ يَسـتَزيدُ حَبيبَـهُ يُعاتِبُـــهُ فـــي الـــوُدِّ إِلّا تَفَرَّقـــا
أَمَـرَّ وِصـالُ الغانِيـاتِ فَأَصـبَحَتْ فَظاعَتُهـا يَشـجَى بِهـا مِـن تَمَطَّقـا
إِذا قُلـتُ مَهـلًا لِلفُـؤادِ عَـنِ الَّتـي دَعَتـكَ إِلَيهـا العَـينُ أَغضَـى وَأَطرَقـا
دَعانًـا فَلَـم نَسـبِقْ مُحِبًّـا بِمـا تَـرَى فَمـا مِنـكَ هَـذا العَـذلُ إِلّا تَخَرُّقـا
فَقَدْ سَنَّ هَذا الحُبَّ مَن كانَ قَبلَنا وَقـادَ الصِّـبا المَـرءَ الكَـريمَ فَأَعنَقـا

سادسًا: شعراء آخرون

(المتوكل الليثي- الشمردل بن شريك- هدبة بن خشرم- مالك بن الريب)

(١) المتوكِّل اللَّيثي:

هو المتوكِّل بن عبد الله بن نهشل، من بني ليث إحدى بطون كنانة من إلياس ابن مضر، عاصر معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد، وسكن الكوفة، ويُقال: إنه لقي الأخطل فتناشدا الشعر فاستحسنه الأخطل، وكان حسن السجايا كريم الأخلاق، ويقال: إنه كانت له زوجة اسمها أمامة أو أميمة أو رُهيمة وتُكنى بأم بكر، فأُقعِدت وطلبت منه أن يطلقها فأبَى قائلًا: ليس هذا حين طلاق؛ فأصرَّت عليه حتَّى طلَّقها، فبرئت بعد طلاقها فقال[١]:

قِفِي قبلَ الفراقِ أيَا أُماما ... وَرُدِّي مِنْ قبلِ بَينِكُمُ السَّلاما
طَرِبتُ وشاقَنِي يا أُمَّ بَكرٍ ... دُعاءُ حَمامَةٍ تَدعو حَماما
فَبِتُّ وَباتَ هَمِّي لي نَجيًّا ... أُعزِّي عَنكِ قَلبًا مُستَهاما
إذا ذُكِرتْ لِقَلبكِ أُمُّ بَكرٍ ... يَبيتُ كَأَنَّما اغتَبَقَ المُداما
خَدَلَّجةٌ تَرِفُّ غروبُ فِيها ... وَتَكسُو المتنَ ذا خُصَلٍ سُخاما
أَيا قَلبي فَما تهوَى سِواها ... وَإِن كانَتْ مودَّتُها غَراما
يَنامُ اللَّيلَ كُلُّ خَلِيِّ هَمٍّ ... وَتأبى العَينُ مِنِّي أَن تَناما
أُراعِي التَّالياتِ مِنَ الثُّريا ... ودمعُ العينِ منحدرٌ سِجاما

والمتوكِّل الليثي شاعر وجداني مجيد، يمتاز شعره بالسهولة والانسيابية ومتانة التركيب والاسترسال في العاطفة، ويدور شعره حول المديح والهجاء والحكمة

---

[١] انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٩٨).
٢ سجامًا: سائلة. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٢/ ٢٨١).

والغزل، وضعه ابن سلَّام في الطبقة السابعة بين الشعراء الإسلاميين، ومن شعره في الحكمة قوله:[1]

أَبلِـغ رُمَـيمَ علَـى التَّنـائي أَنَّنـي ... وصَّـالُ إِخـوانِ الصَّـفاءِ صَـروم
أَرعَـى الأمانَـةَ للأمـينِ بِحَقِّهـا ... فَيَبِـينُ عَفَّـا سِـرُّهُ مَكتـوم
وَأَشَـدُّ لِلمَـولَى المُـدَفَّعِ رُكنَـهُ ... شَـفَقًا مِـن التَّعجيـزِ وَهْـوَ مُلِـيمُ
يَنـأى بِجانِبـهِ إِذا لَـم يفتَقِـرْ ... وَعَلـيَّ لِلخَصـمِ الأَلَـدِّ هَضِـيمُ
إِنَّ الأَذِلَّـةَ وَاللِّئـامَ مَعاشِـرٌ ... مَـولاهُمُ المُتَهَضِّـمُ المَظلـومُ
وَإِذا أَهنـتَ أَخـاكَ أَو أَفردتَـهُ ... عَمـدًا فَأَنـتَ الـواهِنُ المَـذمُومُ
لا تَتَّبِـعْ سُـبُلَ السَّـفاهَةِ وَالخَنـا ... إِنَّ السَّـفيهَ معنَّـفٌ مَشـتُومُ
وَأَقِـمْ لِمَـنْ صـافيتَ وَجهًـا واحِـدًا ... وَخَليقَـةً إِنَّ الكَـريمَ قَـؤومُ
لا تَنـهَ عَـن خُلُـقٍ وَتـأتيَ مِثلَـهُ ... عـارٌ عَلَيـكَ إِذا فعلـتَ عَظـيمُ
وَإِذا رَأَيـتَ المَـرءَ يَقفُـو نَفسَـهُ ... وَالمُحصَـناتِ فَمـا لِـذاكَ حَـريمُ

ومن مطالعه الطللية:[2]

نـامَ الخَلـيُّ فَنَـومُ العَـينِ تَسـهيدُ ... والقَلـبُ مُختَبَـلٌ بـالخَودِ مَعمـودُ
إِنْ سـاعفَتْ دارُهـا ضَـنَّتْ بِنائِلِهـا ... وَسَـقيُها الصَّـادِيَ الحَـرَّانَ تَصـريدُ
شَـطَّتْ نَواهـا وَحانَـتْ غُربَـةٌ قَـذَفٌ ... وَذِكـرُ مـا قَـد مَضَـى بـالمَرءِ تَفنيـدُ

(٢) الشمردل بن شُريك:

هو الشَّمردل بن شُريك بن عبد الملك بن رُؤبة، من بني يربوع من تميم، وهو من الشعراء المعاصرين للفرزدق وجرير، وأحد أبرز شعراء بني تميم، نشأ في العراق

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٩٧).
٢ انظر: المصدر السابق (ص١٠٣).

وسكن البصرة وكان مدمنًا للخمر، وهو شاعر حسن اللغة متين السبك، يحسن الرثاء والنسيب وله شيء من الهجاء الخمر والمديح والوصف وله أرجاز.

ويُحكَى أن الشمردل قد رأى فيما يرى النائم أن سِنان رمحه قد سقط، فطلب تأويل رؤياه ففُسِّرت بموت أقرباء له، وما لبث بعدها أن أتاه نعي إخوته قدامة ثم وائل ثم الحكم على فترات وجيزة، فرثى موتهم رثاء حارًّا، وقد مدح الشمردل هلال بن أحوز المازني فوعده بالرِّفد ثم أخلف فهجاه، ويُقال: إن الفرزدق مرَّة سمعه يقول:

وما بينَ مَنْ لَمْ يُعطِ سَمعًا وطاعةً وبَينَ تَمِيمٍ غَيرُ حَزِّ الحَلاقِمِ

فقال الفرزدق: والله يا شمردل لتتركنَّ لي هذا البيت أو للتتركنَّ لي عرضك؛ فقال: خذه لا بارك الله لك فيه؛ فادَّعاه الفرزدق وجعله في قصيدة له، مدح فيها أمير خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي.[1]

ومن شعر الشمردل قوله يرثي أخاه وائل، وهي من عيون المراثي:[2]

لَعَمري لئنْ غالَتْ أخي دارُ فُرقةٍ وآبَ إلينا سَيفُهُ ورواحلُهْ
وحلَّتْ بهِ أثقالُنا الأرضَ وانتَهى بِمَثواه منها وهْو عفٌّ منازِلُهْ
لقَدْ ضَمِنَتْ جَلْدَ التُّقَى كان يُتَّقَى به جانبُ الثَّغرِ المَخُوفِ زلازلُهْ
وصُولٌ إذا استَغنَى وإنْ كانَ مُقْتِرًا مِنَ المالِ لَمْ يحفِ الصَّديقَ مَسايلُهْ
هَضُومٌ لأيتامِ الشِّتاءِ كأنَّما يراهُ الحيا أيتامُهُ وأراملُهْ
رَخِيصٌ نَضِيجُ القِدْرِ يَغلِي بِنَيْئِهِ إذا بَردَتْ عندَ الصِّلاءِ أنامِلُهْ
أقولُ وقَدْ رجَّمتُ عنه وأسرَعَتْ إليَّ بأخبارِ اليَقِينِ محاصِلُهْ
إلى اللهِ أشكو لا إلى النَّاسِ فَقْدَهُ ولوعةَ حزنٍ أوجعَ القلبَ داخلُهْ
وتَحقِيقَ رُؤيا في المنامِ رأيتُها فكان أخي رُمحِي تَرَفَّضَ عامِلُهْ

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٢١/ ٢٣٨).
٢ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص١٢٢).

ومن شعره الرثائي كذلك يقول[1]:

بـانَ الخلـيطُ بِحَبـلِ الـوُدِّ فـانطلقوا ... وزيَّـلَ البـينُ مَـن تَهـوَى ومَـن تَمِـقُ
ليـتَ المُقِـيمَ مكـانَ الظَّـاعِنِينَ وقَـدْ ... تـدنو الظُّنـونُ ويَنـأى مَـن بـهِ تَثِـقُ
وما استَحالوا عنِ الدَّارِ التي تَرَكوا ... عنِّـي كـأنَّ فـؤادي طـائرٌ عَلِـقُ
وفـي الخُـدُورِ مهًـا لمَّـا رأيـنَ لنـا ... نحـوًا سوى نحـوهنَّ اغرورَقَ الحَدَقُ
أَرَيْنَنـا أعيُنًـا نُجْـلًا مَـدامِعُها ... دافَعْـنَ كُـلَّ دَوًى أمسَـى بـه رَمَـقُ
بِمَـوطِنٍ يُتَّقَـى بعـضُ الكـلامِ بـهِ ... وبعضُـهُ مِـن غشـاشِ البَـينِ مُسـتَرَقُ
ثم استمرُّوا يشقُّونَ السَّرابَ ضُحًى ... كـأنَّهم نخـلُ شَـطَّيْ دِجلـةَ السـحقُ
فمـا رأيـتُ كمـا تَفرِي الحداةُ بهـم ... ولا كنظـرةِ عَـينٍ جَفنُهـا غـرِقُ

(٣) هُدْبة بن خشرم:

هو هُدبة بن خَشرم بن كُرْز بن أبي حية بن سلمة الكاهن، من بني ذبيان، نشأ مع قومه في بادية الحجاز، وهو من بيت شاعري مرموق؛ فقد كان راويةً للحطيئة، والحطيئة يروي لكعب بن زهير وأبيه، وكان جميل راوية لهدبة، وكان كثير راوية لجميل، وكان لهدبة ثلاثة إخوة؛ هم: حوط وسيحان والواسع، كلُّهم شعراء، وأمَّهم حية بنت أبي بكر بن أبي حية كانت شاعرة كذلك[2].

وقصة هدبة أنه كان بينه وبين صهره (زوج أخته) زيادة بن زيد نزاع؛ سببه أنهما كانا في ركبٍ مقبلٍ من الشام، فشبَّب زيادة بفاطمة أخت هدبة قائلًا[3]:

عُـــوجِي علَيْنـــا واربَعِـــي يـــا فاطمـــا
مـــا دُونَ أنْ يُـــرَى البَعِيـــرُ قائمـــا

---

١ انظر: المصدر السابق (ص١٢٣).
٢ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٢١/ ١٦٦).
٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٦٨٠).

فغضب هدبة فارتجز هو الآخر وشبَّب بأخت زيادة ويقال لها أمُّ القاسم أو أم حازم، فقال فيها[1]:

متَـــــى تَظُـــــنُّ القُلُـــــصَ الرَّواسِـــــما
يَـــــــبْلُغْنَ أُمَّ قاسِـــــــمٍ وقاســـــــما

وفي رواية: "أمَّ حازمٍ وحازما".

فتشاتم هدبة مع زيادة وتسابَّا حتى صاح بهم القوم في الرَّكب، وكان هذا مطلع الشَّرَرِ بينهما، وظل الهجاء والتفاخر بين رهطَيِ الرجلين زمنًا، فجمع زيادة رهطًا من أهل بيته ثم بيَّت هدبة وضربة على ساعده وشجَّ أباه خشرمًا وقال في هذا[2]:

شَجَجْنا خشرمًا في الرَّأسِ عَشْرًا ووقَّفْنـــا هُدَيبَـــةَ إذْ هَجانـــا

فأخذ هدبة يتحيَّن الفرصة للثأر ويطلب غِرَّة من زيادة حتى واتته فبيَّته وقتله ثم فرَّ، ولمَّا علم سعيد بن العاص أمير المدينة زمن معاوية بن أبي سفيان بالواقعة قام فالقبض على أهل هدبة وعمِّه وحبسهم فاضطر هدبة إلى تسليم نفسه، فسُجِن وأطلِق سراح عمِّه وسائر أهله، ولم يزل هدبة في حبسه حتى ذهب عبد الرحمن بن زيد أخو زيادة إلى معاوية ومعه كتاب من سعيد فأمره يتطبيق القصاص إذا أُقيمتِ البيِّنة، فأُقيمت، وعرَض أهل هُدبة الدِّيَة على عبد الرحمن فأبَى، وأحَبَّ سعيد نجاة هدبة فعرض فِدية له بمئة ناقة حمراء، فأبَى عبد الرحمن كذلك قائلًا: والله لو نقَّيت لي مجلسك ذهبًا ما رضيتُ به من هذا؛ حينها أمر سعيد بالإتيان بهدبة مقيَّدًا، فقال عبد الرحمن: لا والله، لا قتلته إلا مُطلَقًا؛ فتمَّ له ذلك، وضُرِبتْ عنقه[3].

ولهدبة شعر حسن متين بدوي الطبع، وكان يرتجل بيسرٍ، وأجود شعره الذي قاله في سجنه، وتدور أغراض شعره حول الهجاء والفخر والنسيب والحماسة،

---

١ انظر: المصدر السابق.
٢ انظر: المصدر السابق (٢/ ٦٨١).
٣ انظر: المصدر السابق (٢/ ٦٨٢- ٦٨٣).

وكان يطيل القصيد ويبدع في المقدمة الطللية، وفي شعره ديباجة حسنة، ومن أروع شعره يردُّ على زيادة[1]:

أَلا أَيُّهَـــذا المُحتَـــدِينا بِشَـــتمِهِ ... كَفَى بـيَ عَـن أَعراضِ قَـوميَ مُرهَبـا
وَجازَيـتَ مِنِّـي غَيـرَ ذي مثنويَّـةٍ ... عَلـى الدَّفعَـةِ الأُولَـى مُبِـرًّا مُجَرَّبـا

وجاء منها في الفخر:

أَنـا المَـرءُ لا يَخشـاكُمُ إِنْ غَضِبتُمُ ... وَلا يَتَـــوَقَّى سُـــخْطَكُم إِنْ تَغَضَّـــبا
أَنـا ابـنُ الَّـذي فـاداكُمُ قَـدْ عَلِمـتُمُ ... بِـــبَطنِ مُعـــانٍ والقيـــادَ المُجَنَّبـــا
وَجَـدِّي الَّـذي كُنـتُم تَظَلَّـونَ سُـجَّدًا ... لَـــهُ رَغبَـــةً فـــي مُلكِـــهِ وَتَحَوُّبـــا
وَنَحـنُ رَدَدْنـا قَـيسَ عَـيلانَ عَـنكُمُ ... وَمَـــن ســـارَ مِـــن أَقطـــارِهِ وَتأَلَّبـــا
بِشَـهباءَ إِذْ شُـبَّتْ لِحَـربٍ شُـبُوبُها ... وَغَسَّـــانَ إِذ زافُـــوا جَميعًـــا وَتَغلِبـــا
بِنَقْعـاءَ أَظلَلْنـا لَكُـم مِـن وَرائِهِـم ... بِمُنخَـرِقِ النَّقْعـاءِ يَومًـا عَصَبْصَـبا
فَأُبْنـا جِـدالًا سـالِمينَ وَغُـودِرُوا ... قَتـــيلًا وَمَشـــدودَ اليَـــدَينِ مُكَلَّبـــا
أَلَـمْ تَعلَمـوا أَنَّـا نُـذَبِّبُ عَـنكُمُ ... إِذا المَـرءُ عَـن مَـولاهُ فـي الـرَّوعِ ذَبَّبـا

وقال في سجنه[2]:

أَبَـى القَلـبُ إِلَّا أُمَّ عَمـروٍ وَمـا أَرَى ... نَواهـــا وَإِنْ طـــالَ التَّـــذَكُّرُ تُســـعِفُ
وَجَرَّتْ صُروفُ الدَّهرِ حتَّى تَنكَّرَتْ ... وَقَـد يُخلِـقُ النَّـأيُ الوِصـالَ فَيَضـعُفُ
وَقَـدْ كُنـتُ لا حُـبٌّ كَحُبِّـيَ مُضمَرٌ ... يُعَـــدُّ وَلا إِلـــفٌ كَمـــا كُنـــتُ آلَـــفُ
* * *
نَصَـبتُ وَقَـدْ لَـذَّ الرُّقـادُ بِعينِـهِ ... لِـــذِكراكِ والحِـــبُّ المُتَـــيَّمُ يشـــعَفُ

وقال في سجنه[3]:

---

[1] انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٣٧٢).
[2] انظر: المصدر السابق (ص٣٧٤).
[3] انظر: المصدر السابق (ص٣٧٥).

عسَى آمنًا في حَربِنا أنْ تُصِيبَه عَواقِبُ أيَّامٍ ويأمَنَ خائفُ
فيَبكِينَ مَن أمسَى بِنا اليومَ شامِتًا ويَعقُبَنا إنَّ الأمورَ صرائفُ
وإنْ يكُ أمرٌ غيرَ ذاك فإنَّني لَراضٍ بِقَدْرِ اللهِ للحقِّ عارِفُ

(٤) مالك بن الريب:

هو مالك بن الرَّيب بن حَوط بن قُرط، من بني مازن من تميم، كان شاعرًا ولصًّا وأحَدَ فتَّاكي العرب، وهو من شعراء الإسلام أول أيام بني أمية، وله أخبار عديدة ومغامرات شتَّى، وكان يرافقه شُظاظ مولى بني تميم وأبو حردبة المازني، فلمَّا ضجَّ الناس منهم طلبهم مروان بن الحكم عامل المدينة فأزمعوا على الفرار وهبطوا فارس.

وأثناء إقامة مالك بفارس لقِيَه سعيد بن عثمان بن عفان وكان في طريقه إلى خراسان واليًا عليها من قِبَلِ معاوية، فأعجبه، وقال له: ما لَكَ -ويحك- تفسد نفسك بقطع الطريق، وما يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العبث والفساد، وفيك هذا الفضل؟! قال: يدعوني إليه العجز عن المعالي ومساواة ذوي المروءات ومكافأة الإخوان؛ فقال: فإن أنا أغنيتك واستصحبتك، أتكفُّ عمَّا تفعل؟ قال: إي واللهِ أيها الأمير، أكفُّ كفًّا لم يكفَّ أحدٌ أحسنَ منه؛ فاستصحبه وأجرَى له خمسمائة درهم كل شهر، وظل مالك مرافقًا له حتى قفل سعيد راجعًا من خراسان وكان معه مالك، فمرض في الطريق وتخلَّف عنه مع مُرَّة الكاتب ورجلٍ من قومه، وما لبث أن توفِّيَ بعدها فدَفَناه[١] وكان موته سنة ٥٦هـ[٢]

وشعره فيه فصاحة وحيوية وانسيابية، يغلب عليه الطابع البدوي، مليء بالحماسة وملامح الفروسية، ومن شعره ما قاله لمَّا حضرته الوفاة، يرثي نفسه ويذكر هُداه بعد ضلالته:[٣]

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٢٢/ ٤٦٤- ٤٧٤).
٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/ ٣٩٢- ٣٩٣).
٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣٤٢).

أَلَـمْ تَرَنِـي بِعتُ الضَّـلالَةَ بِالهُـدَى ... وأَصبَحتُ فـي جَيشِ ابنِ عَفَّانَ غازِيا
لَعَمرِي لَئِنْ غالَتْ خُراسانُ هامَتي ... لَقَـدْ كُنـتُ عَـن بـابَيْ خُراسـانَ نائِيـا
فَيا صاحِبَيْ رَحْلِي دَنا المَوتُ فَانزِلا ... بِرابِيَـــةٍ إِنِّـــي مُقِـــيمٌ لَيالِيـــا
وَخُطَّـا بِـأَطرافِ الأَسِـنَّةِ مَضـجَعي ... وَرُدَّا علَـــى عَينَـــيَّ فَضْـــلَ ردائِيـــا
وَلا تَحسُـــداني بـــارَكَ اللهُ فيكُمـــا ... مِنَ الأَرضِ ذاتَ العَرضِ أَنْ تُوسِعا لِيا
تَـذَكَّرتُ مَـن يَبكـي عَلَـيَّ فَلَـمْ أَجِـدْ ... سِـوَى السَّـيفِ وَالـرُّمحِ الرُّدَينِـيِّ باكِيـا

وهي قصيدة شهيرة، وقد دخل عليها بعض المنحول.

ويقال: إنه حَلَب إبلًا لمَّا كان في رَكْبِ سعيدٍ ليسقي النَّاس، فعرض عليه سعيد أن يعمل على الماشية، فأبَى إلا أن يكون غازيًا وقال[1]:

إِنِّـــي لأَســتَحيِي الفَــوارِسَ أَنْ أُرَى ... بِـأَرضِ العِـدا بَـوَّ المَخـاضِ الـرَّوائِمِ
وَإِنِّـي لأَسـتَحيي إِذا الحَـربُ شَـمَّرَتْ ... أَنُ ارْخِـيَ دُونَ الحَـربِ ثَـوبَ المُسـالِمِ
وَما أَنا بِالنَّائي الحَفيظَةِ فـي الـوَغَى ... وَلا المُتَّقِـي فـي السَّـلمِ جَـرَّ الجَـرائِمِ
وَلا المُتَـأَنِّي فـي العَواقِـبِ لِلَّـذي ... أَهـــمُّ بِـــهِ مِـــن فاتِكـــاتِ العَـــزائِمِ
وَلَكِنَّنـــي مُســـتَوحِدُ العَـــزمِ مُقـــدِمٌ ... علَـــى غَمـــراتِ الحـــادِثِ المُتَفـــاقِمِ
قَليلُ اختِلافِ الرَّأيِ في الحَربِ باسِلٌ ... جَميـــعُ الفُـــؤادِ عِنـــدَ حـــلِّ العَظـــائِمِ

فقال سعيد: رجلُ حربٍ لا رجلَ إبلٍ؛ ويُروَى أنه لما اعتزم الخروج إلى خراسان مع سعيد؛ تعلَّقت به ابنته وبكت قائلة: أخشى أن يطول سفرك أو يحول الموت بيننا فلا نلتقي!! فبكى وردَّ عليها قائلًا[2]:

وَلَقَـدْ قُلـتُ لابنَتِـي وَهْـيَ تَبْكـي ... بِـــدَخيلِ الهُمـــومِ قَلبًـــا كَئيبـــا
وَهْيَ تَذري مِنَ الدُّموعِ علَى الخَدَّ(م) ... يْـــنِ مِـــن لَوعَـــةِ الفِـــراقِ غُرُوبـــا
عَبَـراتٍ يَكَـدْنَ يَجـرَحنَ مـا جُـز ... نَ بِـــهِ أَو يَـــدَعنَ فيـــهِ نُـــدُوبا

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٢٢/ ٤٧٠).
٢ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٢٢/ ٤٧١).

حَــذَرَ الحَتــفِ أَن يصــيبَ أَباهــا وَيُلاقــي فــي غَيــرِ أَهــلٍ شَــعُوبا
اسـكُتي قَـدْ حَـزَزْتِ بِالـدَّمعِ قَلبـي طالَمــا حَــزَّ دَمعُكُــنَّ القُلُوبــا
فَعَسَــى اللهُ أَن يُــدافِعَ عَنِّــي رَيــبَ مــا تَحــذَرِينَ حتَّــى أَوُوبــا
لَــيسَ شَــيءٌ يَشــاؤُهُ ذو المَعــالي بعَزيــزٍ عَلَيــهِ فَــادْعِي المُجيبــا
وَدَعِــي أَنْ تُقَطِّعــي الآنَ قَلبــي أَو تُرِينــي فــي رِحلَتــي تَعــذِيبا

سابعا: الرُّجَّاز

(العجاج- رؤبة- أبو النجم العجلي)

(١) العَجَّاج:

هو عبد الله بن رُؤبة بن لبيد بن صخر، من بني مالك بن سعد بن زيد مناة من تميم، ويُكنى بأبي الشعثاء، وهي ابنته، عُرِف بالعجاج لقوله[١]:

حتَّى يعِجَّ عِندَها مَن عَجْعَجا

نشأ بالبادية وعاش في البصرة وتلقَّى الحديث النَّبويَّ عن أبي هريرة، وكان من أشهر الرُّجَّاز وأفضلهم، وقد انحاز بأراجيزه يمدح بني أمية منذ عهد يزيد ابن معاوية، ولما ظهر سلطان الزُّبيريين انحاز إليهم فلزم مصعب بن الزبير ومدحه، حتى إذا قُتل مصعب ومن بعده أخوه عبد الله وزال سلطان الزبيريين؛ عاد العجَّاج إلى ملازمة الأمويين فمدح خلفاءهم وبعض أمرائهم كعبد الملك ابن مروان وأخويه عبد العزيز وبشر ومدح الحجاج كذلك، وله مع أبي النجم العجلي الراجز شيء من المفاخرات، توفي العجَّاج نحو عام ٩٧هـ بعدما فُلج وأُقعِد، وهو أبو رؤبة الراجز[٢].

وللعجَّاج رجز متين السبك قوي الأسلوب صحيح القافية، وكان يُطيل أرجوزته، ولا يخلو رجزه من غريب اللفظ على عادة شعر الرجز، وهو بارع في وصف الصحراء وما فيها من مظاهر الحياة والإبل والكواكب والنجوم، وقد أجاد المديح والفخر دون الهجاء حيث كان أقل حظًّا، وقال له سليمان: إنك لا تحسن الهجاء؛ فقال: إن لنا أحلامًا تمنعنا من أن نَظلِم، وأحسابًا تمنعنا من أن نُظلَم، وهل رأيت بانيًا لا يُحسن الهدم؟!

---

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٥٧٥).

٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٣٩٩- ٤٠١).

ومن رجزه قوله[1]:

يـــا صـــاحِ مـــا هـــاجَ الـــدُّموعَ الـــذُّرَفا
مِـــن طَلَـــلٍ أَمسَـــى تَخـــالُ المُصـــحَفا
رُســـــومَهُ وَالمُـــــذْهَبَ المُزَخرَفـــــا
جَـــرَّتْ عَلَيـــهِ الـــرِّيحُ حتَّـــى قَـــدْ عَفـــا
كَلاكِـــــلًا مِنهـــــا وَجَـــــرَّتْ كَنَفـــــا
وَكُـــــلَّ رَجَّـــــافٍ يَســـــوقُ الرُّجَّفـــــا
مِـــنَ السَّـــحابِ، وَالسُّـــيولَ الجُرَّفـــا
فَاطَّرَقَـــــتْ إِلَّا ثَلاثًـــــا وُقَّفـــــا
دَواخِسًـــــا فـــــي الأَرضِ إِلَّا شَـــــعَفا
ومبركًـــــا مـــــن جامـــــلِ ومَعْلَفـــــا

ومن رجزه قوله[2]:

الحَمـــــدُ لِلّهِ الَّـــــذي اســـــتَقَلَّتِ
بِإِذنِـــــهِ السَّـــــماءُ وَاطمَأَنَّـــــتِ
وَحَـــى لَهـــا القَـــرارَ فَاســـتَقَرَّتِ
بِإِذنِـــــهِ الأَرضُ وَمَـــــا تَعَتَّـــــتِ
وَشَـــــدَّها بِالرَّاســـــياتِ الثُّبَّـــــتِ
رَبُّ الـــــبِلادِ وَالعِبـــــادِ القُنَّـــــتِ
وَالجاعِـــلُ الغَيـــثَ غيـــاثَ المُســـنِتِ
وَالجـــامِعُ النَّـــاسَ لِيَـــومِ المَوقِـــتِ
بَعـــدَ المَمـــاتِ وَهْـــوَ مُحيِـــي المُـــوَّتِ

---

١ انظر: ديوان العجاج (٢/ ٢١٩- ٢٢١).
٢ انظر: ديوان العجاج (١/ ٤٠٨- ٤١٠).
٣ المسنت: من أصابه سنةٌ؛ أي: جدب. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٤٧).

يـــــوم تـــــرى النُّفُـــــوسُ مـــــا أعـــــدَّتِ

وقال في أرجوزة أخرى يمدح القائد عمر بن عبيد الله بن معمر الذي انتصر على الخوارج الحرورية بقيادة أبي فُدَيك، في أرجوزة طويلة بلغت مئة وثمانين شطرًا[1]:

قَـــــدْ جَبَـــــرَ الـــــدِّينَ الإِلَـــــهُ فَجَبَـــــرْ
وَعَـــــوَّرَ الـــــرَّحمَنُ مَـــــن وَلَّـــــى العَـــــوَرْ
فَالحَمـــــدُ لِلَّهِ الَّـــــذي أَعطَـــــى الحَبَـــــرْ
مَـــــوالِيَ الحَـــــقِّ إِنِ المَـــــولَى شَـــــكَرْ
عَهْـــــدَ نَبـــــيٍّ مـــــا عَفَـــــا وَمـــــا دَثَـــــرْ
وَعَهْـــــدَ صِـــــدِّيقٍ رَأى بِـــــرًّا فَبَـــــرْ
وَعَهـــــدَ عُثمـــــانَ وَعَهـــــدًا مِـــــن عُمَـــــرْ
وَعَهـــــدَ إِخـــــوانٍ هُـــــمُ كـــــانوا الـــــوَزَرْ
وَعُصـــــبَةَ النَّبـــــيِّ إِذْ خـــــافُوا الحَصَـــــرْ
شَـــــدُّوا لَـــــهُ سُـــــلطانَهُ حتَّـــــى اقتَسَـــــرْ
بِالقَتـــــلِ أَقوامًـــــا وأَقوامًـــــا أَسَـــــرْ
تحـــــت الـــــذي اختـــــار لـــــه اللهُ الشَّـــــجَرْ

(٢) رؤبة بن العجاج:

هو رُؤبة بن عبد الله بن رؤبة، اعتنى به أبوه العجَّاج حتى صار من أشهر وأبرع الرُّجَّاز في عصره، وكان آيةً في الفصاحة والبلاغة، أدرك العصرين الأموي والعباسي وله أخبار مع الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان، وكان شغوفًا بالرحلات والسفر، وقد أقام بالعراق ومدح بعض ولاته مثل مسلمة ابن عبدالملك، وقد أشاد بانتصاره على المهالبة وإخماد ثورتهم، ومدح كذلك خالد

---

١ انظر: ديوان العجاج (١/ ١- ٨).

ابن عبد الله القسري وبعض نوابه كبلال بن أبي بردة الأشعري وأبان بن الوليد البجلي، ووفد على دمشق فمدح الوليد بن يزيد ومروان بن محمد، ثم نزل بخراسان فمدح آخر ولاتها من قِبَل بني أمية نصر بن سيار وأخذ يحذِّره من أبي مسلم، حتى إذا ذهبت دولة بني أميَّة توجَّس حينًا من العباسيين وقد خاف على نفسه إلى أن بعث إليه أبو مسلم الخراساني كبير دعاة العباسيين ونائبهم على خراسان، فدخل عليه وهو خائف، فقال أبو مسلم: اسكن فلا بأس عليك، ما هذا الجزع الذي ظهر منك؟! فقال: أخافك؛ قال: ولم؟ قال: لأنه بلغني أنك تقتل الناس؛ قال: إنما أقتل من يقاتلني ويريد قتلي، أفأنت منهم؟ قال: لا؛ قال: فهل ترى بأسا؟ قال: لا؛ ثم أجلسه في مجلسه واستنشده فأنشده[1]

وقد لَقِيَ رؤبة أبا العباس السَّفَّاح أول خلفاء بني أمية فمدحه وحَظِيَ عنده، ثم مدح بعده أبا جعفر المنصور، حتى ثار في وجهه ولدا عبد الله بن الحسن العلوي طلبًا للخلافة، فخاف على نفسه وغادر البصرة وأقام في البادية حتى توفِّيَ نحو ١٤٥هـ/٧٦٧م[2]

وكان رؤبة إمامًا في الفصاحة والبلاغة، عظيم المعرفة باللغة وبأسرارها وغرائبها حتى أُعجب به أهل اللغة وكانو يقدِّمونه ويأخذون عنه؛ لِما كان يقدِّمه في أراجيزه من صعوبة ووعورة في اللفظ، حتى إن الخليل قال عنه لمَّا توفِّيَ وفُرِغ من جنازته: دفَنَّا الشِّعر واللغة والفصاحة اليوم[3]

ورجزه قوي الأسلوب، فيه وعورة وصعوبة، ومليء بغريب اللفظ، وكان يطيل أراجيزه لتصبح كالقصيد، ومن قوله[4]:

يـــــــا رَبِّ إِنْ أَخْطَـــــــأتُ أَوْ نَسِـــــــيتُ
فَأَنْـــــــتَ لا تَنْسَـــــــى وَلا تَمُـــــــوتُ

---

١ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٢٠/ ٤٤٥).
٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٤٠١- ٤٠٤).
٣ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٢٠/ ٤٥٢).
٤ انظر: ديوان رؤبة بن العجاج (ص٢٥)، اعتنى بتصحيحه: وليم بن الورد، طبعة: دار ابن قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت.

إنَّ المُـــوَقَّى مِثْـــلَ مـــا وَقِيـــتُ
أَنْقَـــذَنِي مِـــنْ خَـــوْفِ مـــا خَشِـــيتُ
ربـــي لـــولا دفعـــه تَويـــتُ
فالجِـــدُّ أغشـــاني الـــذي غَشِـــيتُ
أرمـــي بأيـــدي العِـــيسِ إذ هويْـــتُ
فـــي بلـــدةٍ يعيـــي بهـــا الخِرّيـــتُ

ومن أراجيزه أيضًا يهجو بني المُهلَّب[1]:

مـــا بـــالُ أقـــوامٍ لهـــم حَسِـــيسُ
بَـــيَّنَ فـــي رُؤوسِـــهم تنكـــيسُ
وهـــاجسٌ مـــن أمـــرهم مهجـــوسُ
يثـــوي عليـــه الغـــيظ والتـــأييس
يـــومَ بنـــي المهلَّـــب البئـــيسُ
أصـــلاهُمُ مـــا يصـــطلي المجـــوسُ

(٣) أبو النجم العِجلي:

هو المفضل بن قدامة بن عبيد الله، من بني عجل إحدى قبائل بكر بن وائل من ربيعة، وهو من الرُّجَّاز الإسلاميين الفحول، وُلِد ربما عام ٤٠هـ/ ٦٦٠م، وكان يسكن في ضواحي الكوفة، وكانت له مع العجاج مناجزة[2]؛ حيث هجا العجاج ربيعة في أرجوزته **"قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإلهُ فَجَبَرْ"** التي قالها في سوق المربد، فردَّ عليه أبو النجم في أرجوزة رائعة هجا بها تميمًا، وكان راكبًا على جمل فقال فيها[3]:

تَـــذَكَّرَ القَلـــبُ وَجَهْـــلًا مـــا ذَكَـــرْ

---

١ انظر: المصدر السابق (ص٧٦).
٢ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (١٠/ ٣٤٤- ٣٥٢).
٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٥٨٨- ٥٨٩).

وجاء منها:

إِنِّـــي وَكُـــلُّ شـــاعِرٍ مِـــنَ البَشَـــرْ
شَـــيطانُهُ أُنثَـــى وَشَـــيطانِي ذَكَـــرْ
فِعـــلَ نُجـــومِ اللَّيـــلِ عـــايَنَّ القَمَـــرْ
فَمـــا رَآنـــي شـــاعِرٌ إِلَّا اســـتَتَرْ
عَشِـــي تَمـــيمُ وَاصـــغُرِي فـــيمَن صَـــغَرْ
وَجـــاوِرِي الـــذُلَّ وَأَعطِـــي مَـــن عَثَـــرْ
وَأَمِّـــري الأُنثَـــى عَلَيـــكِ وَالـــذَّكَرْ
فَإِنَّمـــا يَشـــرَبُ مَـــن ذُلَّ السُّـــؤَرْ

ويقال: إن جمله حمل على ناقة العجاج يريدها، فضحك الناس مردِّدين قوله "شيَطانُهُ أُنثَى وشَيطاني ذَكَرْ"، فغلب أبو النجم في تلك المناجزة.

ولأبي النَّجم أخبار مع بعض الحلفاء كعبد الملك بن مروان وسليمان ابن عبدالملك وهشام بن عبد الملك، وكذلك بعض الأمراء كعبد الملك بن بشر ابن مروان والحجاج بن يوسف وخالد بن عبد الله القسري، وكان أبو النجم ذا ظُرف فكاهة وسرعة بديهة، فكان الخلفاء يستمعون إليه ليخفِّف عنهم بظُرفه ويَصِلونه، ويُروَى أنه كان يغلب الشعراء والرُّجَّاز فيما يطرحه الخليفة أو الأمير، ورجزه أقلُّ صعوبة ووعورة من رجز العجاج وولده، وقد سُئل الأصمعي: يا أبا سعيد؛ أيُّ الرَّجَز أحسَنُ وأجوَدُ؟ فقال: رجَزُ أبي النجم؛ وقال أبو عبيدة الراوي: ما زالت الشعراء تغلب الرجاز حتى قال أبو النجم: **(الحَمدُ للهِ الوَهُوبِ المُجْزِلِ)**، وقال العجَّاج: **(قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإلهُ فجَبَرْ)**، وقال رؤبة: **(وقاتِمِ الأعماقِ خاوِي المُخْتَرَقْ)**؛ فانتصفوا منهم.

وفنون أبي النجم تدور حول المديح والهجاء ووصف الطراد، وقد طلب منه ذات مرة عبد الملك بن بشر بن مروان أن يصف له فُهُودًا، فقال[1]:

---

١ انظر: المصدر السابق (٢/ ٥٩١).

جـــــــاءَ مُطِيـــــــعٌ بِمُطاوِعـــــــاتِ
عُلِّمـــــنَ أَو قَـــــدْ كُـــــنَّ عالِمـــــاتِ
فَهْـــــيَ ضَـــــوارٍ مِـــــنْ مُضَـــــرَّياتِ
تُريـــــكَ آماقًـــــا مُخَطَّطـــــاتِ
سُـــــودًا علَـــــى الأَشـــــداقِ ســـــائِلاتِ
تَلْـــــوي بِأَذنـــــابٍ مُوَقَّفـــــاتِ
حَتَّـــــى إِذا كُـــــنَّ علَـــــى المَجْـــــراتِ
حَيـــــثُ تَظُـــــنُّ الـــــوَحشَ آخِـــــذاتِ
قـــــالَ أَلَســـــتُنَّ بِنـــــازِلاتِ
فَسَـــــكَّرَ الطُّـــــرْقَ بِمُطرِقـــــاتِ
ثُـــــمَّ حَـــــدَونَ الـــــوَحشَ مُقـــــبِلاتِ
فَـــــواثَبَتْهُنَّ مُشَـــــمِّراتِ
فَلَـــــو تَـــــرَى التُّيُـــــوسَ مُضْـــــجَعاتِ
عَلِمـــــتَ أَنْ لَـــــيسَ بِســـــالِماتِ
أَقـــــولُ إِذْ جِـــــئنَ مُـــــذَبَّحاتِ
علَـــــى الأَكـــــافينِ مُعَـــــدَّلاتِ
مـــــا أَقـــــرَبَ المَـــــوتَ مِـــــنَ الحَيـــــاةِ

ومن أشهر أراجيزه لاميته االتي مدح بها هشام بن عبد الملك، قال فيها[1]:

الحَمـــــدُ لِلَّهِ الوَهُـــــوبِ المُجـــــزِلِ

وقال فيها يصف الشمس:

حتَّـــــى إِذا الشَّـــــمسُ جَلاهـــــا المُجتَلِـــــي
بَـــــينَ سِـــــماطَيْ شَـــــفَقٍ مُرَعْبَـــــلِ[2]

---

١ انظر: المصدر السابق (٢/ ٥٨٩).
٢ مرعبل: ممزق. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١١/ ٢٨٩).

صَـــــغواءَ قَـــــد كـــــادَت وَلَمَّـــــا تَفعَـــــلِ
فَهْـــــيَ علَـــــى الأُفْـــــقِ كَعَـــــينِ الأَحـــــوَلِ

وقد غضب هشام عليه لأنه كان أحول، فأمر بضربه وطرده، غير أنه وفد عليه لاحقًا، فعفا عنه هشام واستنشده وأكرمه وأهداه موضعًا في سواد الكوفة يُدعَى الفرك، وتوفِّيَ أبو النجم على الأرجح عام ١٢٠هـ/ ٧٣٨م[٢] وله غير الرجز قصيدٌ حسنٌ؛ منا قوله:[٣]

قـــومٌ إذا نَـــزَلَ الفَظِيـــعُ تحمَّلـــوا حَسَـــنَ الثَّنـــاءِ وأعظـــمَ الأعبـــاءِ
ليسَـــتْ مَجالِسُـــنا تُقِـــرُّ لقائـــلٍ زيـــغَ الحـــديثِ ولا نَثـــا الفَحشـــاءِ

١ صغواء: مائلة للغروب. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٤/ ٤٦١).
٢ أُخِذ تاريخ مولده ووفاته من: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/ ٦٨٢- ٦٨٣).
٣ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٢/ ٧٥١).

نماذج من الشعر الأموي

١- قال الخطيم المحرزي يستجير بالخليفة سليمان بن عبد الملك[١]:

أعِـذْني عِيـاذًا يـا سُـليمانُ إنَّنـي ... أتيتُـكَ لمَّـا لـم أجـدْ عنـكَ مَقْعَـدا
لِتُـؤمِنَني خـوفَ الـذي أنـا خـائفٌ ... وتُبْلِغَنـي رِيقِـي وتُنْظِرَنـي غَـدا
فِـرارًا إليـكَ مـن واريَ ورهبـةً ... وكنـتَ أحَـقَّ النَّـاسِ أنْ أتعَمَّـدا
وأنـتَ امـرؤٌ عـوَّدتَ نفسَكَ عـادةً ... وكـلُّ امـرئٍ جـارٍ علَـى مـا تعـوَّدا
تعـوَّدتَ ألَّا تُسـلِمَ الـدَّهرَ خائفًـا ... أتـاكَ ومَـن أمَّنْتَـهُ أَمِـنَ الـرَّدَى

٢- قال المرار بن منقذ[٢]:

عَجَـبٌ خَولَـةُ إذْ تُنكِرُنـي ... أَم رَأَت خَولَـةُ شَـيخًا قَـدْ كَبِـرْ
وَكَسـاهُ الـدَّهرُ سِـبًّا ناصِـعًا ... وَتَحَنَّـى الظَّهْـرُ مِنـهُ فَـأُطِرْ
إنْ تَـرَيْ شَـيبًا فَـإنِّي ماجِـدٌ ... ذو بَـلاءٍ حَسَـنٍ غَيـرُ غُمُـرْ
مـا أَنـا اليَـومَ علَـى شَـيءٍ مَضَـى ... يـا بنَـةَ القَـومِ تَـوَلَّى بِحَسِـرْ
قَـد لَبِسـتُ الـدَّهرَ مِـن أَفنانِـهِ ... كُـلَّ فَـنٍّ حَسَـنٍ مِنـهُ وحَبِـرْ
وَتَعَلَّلـتُ وَبـالِي نـاعِمٌ ... بِغَـزالٍ أَحـوَرِ العَينَـينِ غِـرْ

٣- قال زياد الأعجم يرثي المغيرة بن المهلَّب[٣]:

إنَّ السَّـماحةَ والمُـروءةَ ضُـمِّنا ... قبـرًا بِمَـرْوَ علَـى الطَّريـقِ الواضـحِ
فـإذا مَـرَرْتَ بِقَبْـرِهِ فـاعقِرْ بِـهِ ... كُـومَ الهِجـانِ وكـلَّ طَـرْفٍ سـابِحِ
وانضَـحْ جوانِـبَ قبـرِهِ بِـدِمائها ... فلقَـدْ يَكُـونُ أخـا دَمٍ وذَبـائحِ

---

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص١١١).
٢ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص٨٢- ٩٣).
٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٢٢).

٤- وقال القطامي عُمير بن شُيَيم التغلبي -وقد عرف بصريع الغواني- يهجو امرأة مرَّ على منزلها فأبَتْ ضيافته[١]:

فَسلَّمتُ والتَّسلِيمُ لـيس يَسُرُّها ... ولكنَّـــهُ حَـــقٌّ علـــى كُـــلِّ جانِـــبِ
فَرَدَّتْ سَلامًا كارِهًا ثُـمَّ أعرَضَـتْ ... كمـا انحـازتِ الأفعَـى مخافـةَ ضـارِبِ
فقُلـتُ لهـا لا تَفعَلـي ذا بِراكـبٍ ... أتـاكِ مُصِـيبٍ مـا أصـابَ فَـذاهِبِ
فلمَّـا تَنازَعنـا الحـديثَ سـأَلتُها ... مَـن الحـيُّ قالَـتْ مَعشَـرٌ مِـن مُحـارِبِ
مِـنَ المُشـتَوينَ القَـدَّ ممَّـا تَـراهُمُ ... جياعًـا ورِيـفُ النَّـاسِ لـيسَ بِناضـبِ
فلمَّا بَدا حِرمانُها الضَّيفَ لم يكُنْ ... علـــيّ مُنـــاخُ السَّـــوءِ ضَـــربَةَ لازِبِ

٥- وقال الحكم بن عبدل يهجو رجلًا يُدعَى محمد بن حسان، زوَّجه رجل يدعى زياد، بامرأة من قومه مِن ولد قيس بن عاصم[٢]:

أبـــاعَ زِيـــادٌ سَـــوَّدَ اللهُ وجهَـــهُ ... عقيلـــةَ قـــومٍ ســـادةٍ بالـــدَّراهمِ
ومـا كـانَ حسَّـانُ بـنُ سَـعدٍ ولا ابنُـهُ ... أبو المسك من أكفاءِ قَيسِ بنِ عاصمِ
ولكنَّـــهُ رَدَّ الزَّمـــانَ علَـــى اسْـــتِهِ ... وضـــيَّع أمْـــرَ المُحصَـــناتِ الكـــرائمِ
خُـذِي دِيَـةً منـه تَكُـنْ لـكِ عِـدَّةً ... وجيئـي إلـى بـابِ الأميـرِ فخاصِـمي
فلو كنتِ في روحٍ لما قلتُ خاصِمي ... ولكنَّمـــا أُلقيـــتِ فـــي سِـــجنِ عـــارِمِ

٦- وقال نُصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان:[٣]

وَكـــانَ يَقـــودُني كَلَـــفٌ بِسُـــعدَى ... وَهـــذا الشَّـــيبُ أَصـــبَحَ قَـــدْ عَلانـــي
وَوَدَّعَنـــي الشَّـــبابُ وَكُنـــتُ أَســـعَى ... إِلـــى داعِـــي الشَّـــبابِ إِذا دَعـــاني
وَإِنْ يَفْـــنَ الشَّـــبابُ فَكُـــلُّ شَـــيءٍ ... مِـــن الـــدُّنيا فَـــلا يَغـــرُرْكَ فَـــانِ
وَلَـــوْ أَنِّـــي بَقِيـــتُ لِمُسْـــيِ لَيـــلٍ ... وَصُـــبْحِ نَهـــارِهِ يَتَـــداوَلاني

---

١ انظر: المصدر السابق (٢/ ٧١٥- ٧١٦).
٢ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٢/ ٦٠٦).
٣ انظر: طبقات الشعراء، ابن سلام، دراسة: طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العملية، بيروت- لبنان (ص١٩١).

صَـحيحًا لا ألاقِـي المَـوتَ حتَّـى أدِبَّ علَـــى القَنـــاةِ لا بايـــاني

٧- وقال كعب بن جُعيل التغلبي[١]:

نَـدِمْتُ علَـى شَـتمِ العشِـيرةِ بعـدَما مضَـــى واســـتَتَبَّتْ للـــرُّواةِ مَذاهِبُـــهْ
فأصبحْتُ لا أسْطِيعُ ردًّا لِما مضَى كمـا لا يَـرُدُّ الـدَّرَّ فـي الضَّـرْعِ حالِبُـهْ
مُعـاويَ أنصِـفْ تَغلِـبَ ابنَـةَ وائـلٍ مِـنَ النَّـاسِ أو دَعْهـا وحَيَّـا تُضـارِبُهْ
قليـلٌ علـى بـابِ الأميـرِ لُبـانتي إذا رابَنـــي بـــابُ الأميـــرِ وحاجبُـــهْ
ولمَّـا تَـدارَوْا فـي تُـراثِ مُحمَّـدٍ سَمَت لابنِ هِندٍ فـي قُـريشَ مَضـارِبُهْ

٨- وقال النهشل بن حرّي[٢]:

إذا كنـتَ جـارًا لامـرئٍ فارهَـبِ الخَنـا علَـى عِرضِـهِ إنَّ الخَنـا طَـرَفُ الغَـدْرِ
وذُدْ عَـن حـراه مـا عَقـدْتَ حِبالَـهُ بِحَبلِـكَ واسـتُرْهُ بِمـا لـكَ مِـن سِـتْرِ
وجـارٍ مَنَعنـاهُ مِـنَ الضَّـيمِ والعِـدا وجيـــرانِ أقـــوامٍ بِمِدْرَجَـــةِ الـــدَّهْرِ

٩- وقال حميد بن ثور يمدح الوليد بن عبد الملك[٣]:

أبلِـــغْ أميـــرَ المـــؤمِنِينَ فإنَّـــهُ فَطِـــنٌ يلُـــومُ المســـتَلِيمَ ويَعـــذرُ
أذِنَ الوليـدُ لكُـم فسِـيرُوا سَـيْرَهُ إمَّـــا تـــبلِّغكم وإمَّـــا تحسَـــرُ
نضـعُ الزِّيـارةَ حيـثُ لا يُـزرِي بِنـا شـــرفُ المُلـــوكِ ولا يَخِيـــبُ الـــزُّوَّرُ
يـا بْـنَ الخليفـةِ ثُـمَّ أنـتَ خليفـةٌ وخليفـــةٌ مـــا أنـــتَ إذْ تتخيّـــرُ
بَحـرانِ تَنتَسِـبُ البُحُـورُ إليهِمـا لا بحـــرَ بَعـــدَهما يُهـــارُ ويُغمَـــرُ
أنـــتُمْ أَسِـــدَّةُ كـــلِّ ثَغـــرٍ خـــائفٍ وخلائـــفُ الله التـــي تتخيَّـــرُ

---

١ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٢/ ٥٧٣- ٥٧٤).
٢ انظر: المصدر السابق (٢/ ٥٨٤).
٣ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٣٤٢).

١٠ - وقال الأشهب بن رميلة[١]:

قَتَلْنا زَعِيمَ القومِ لا خيرَ بَعدُهُ ... ولم يكُ في الأحجارِ منعٌ فأمنعا
إذا ما ذَكَرْنا مِن أخِينا أخاهُمُ ... رُوِينا ولم نَشْفِ الغَلِيلَ فينقَعَا

١١- وقال زياد الأعجم يهجو بني يشكر[٢]:

لَوْ أنَّ بَكرًا بَراهُ اللهُ راحِلةً ... لكانَ يَشْكُرُ منها مَوضِعَ الذَّنَبِ
ليسوا إليه ولكنْ يَعلَقُونَ بِهِ ... كما تعلَّقَ راقِي النَّخلِ بالكَرَبِ

١٢- وقال مزاحم بن الحارث العقيلي، وكان وصَّافًا هجَّاءً شجاعًا شديد أسرِ شِعرٍ[٣]:

كأنّي وعبدَ اللهِ لَمْ تَسْرِ بَينَنا ... أحاديث يَثْنِي سالفَ الدَّهرِ لِينُها
ولَمْ نَطَّلِبْ دُونَ الحجونِ ظعائنًا ... تُبارَى بها أُدْمُ المَهاري وجُونُها
ظعائنَ مِن عُلْيا عُمَيْرِ بنِ عامِرٍ ... مصحَّحةَ الأجسادِ مَرضى عيونُها
تنكَّرْنَ مِن أُنسِي فلمَّا عرفْنَنِي ... بَدَتْ كُل مِبهاجٍ أغرَّ جَبِينُها

١٣- وقال يزيد بن ربيعة ابن مُفرّغ الحميري يهجو رجلًا[٤]:

يا هامةً تَدعُو الصَّدَى ... بينَ المُشقَّرِ واليَمامهْ
العبدُ يُقرَعُ بالعصَا ... والحرُّ تَكفِيهِ المَلامهْ
والرِّيحُ تَبْكِي شَجْوَها ... والبرقُ يلمَعُ في الغَمامهْ

---

١ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٢/ ٥٨٧).
٢ انظر: المصدر السابق (٢/ ٦٩٩).
٣ انظر: المصدر السابق (٢/ ٧٧٥- ٧٧٦).
٤ انظر: المصدر السابق (٢/ ٦٨٩).

١٤- وقال عبد الرحمن بن إسماعيل الشهير بوضَّاح اليمن، وكان قد عشق امرأة وخطبها، فأبَى عليه أهلها وزوَّجوها غيره[١]:

أصـــحوتَ مـــن أمِّ البنيـــ ـــــنَ وذِكرهـــا وعنائهـــا
وهَجَرتهـــا هجـــرَ امـــرئٍ لـــم يَقْـــل صـــفوَ صـــفائها
قرشـــيَّةٌ كالشَّـــمس أشـــ ـــــرقَ نورُهـــا ببهائهـــا
زادت علـى البِـيض الحسـا ن بحســـــنها ونقائهـــا

١٥ - وقال دكين بن رجاء الفُقعي الدارمي رجَزًا يمدح مصعب بن الزبير[٢]:

يـــا مُرسِـــلَ الـــرِّيحِ الجَنُـــوبِ والصَّـــبَا
وآذِنَـــا للفُلْـــكِ تَجـــرِي خَبَبَـــا
وخـــالقَ المـــاءِ وَشِـــيجًا نَسَـــبَا
يُعِيـــدُ خَلْقًـــا بَعـــدَ خَلْـــقٍ عَجَبَـــا
عظمًـــا ولَحمًـــا وابـــنْ عـــمٍّ وأَبَـــا
أعْـــطِ الأميـــرَ مُصـــعَبًا مـــا احتَسَـــبَا
واجعَـــلْ لَـــهُ مِـــن سَلسَـــبِيلٍ مَشْـــرَبا
فرعًـــا يَـــزِينُ المِنْبَـــرَ المُنَصَّـــبَا

١٦- وقال دُكين بن سعيد القطني الدارمي رجزًا يمدح به عمر بن بن عبد العزيز وهو جالس يردُّ المظالم، وقد خلط ابن قتيبة بينه وبين دُكين الفقعي فجلعهما شخصًا واحدًا[٣]:

يـــا عُمَـــرَ الخَيـــراتِ والمَكـــارمْ
وعُمَـــرَ الدَّســـائعِ العَظـــائمْ

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/ ٥٢٤).
٢ انظر: المصدر السابق (١/ ٦٢٥- ٦٢٦).
٣ انظر: المصدر السابق (١/ ٦٢٨).

إنّـــي امـــرؤٌ مِـــن قَطَـــنِ بْـــنِ دارِمْ
أطلُـــبُ دَيْنِـــي مِـــن أخٍ مُكَـــارِمْ
أســـدُّ حـــقَّ المســـلمِ المســـالمْ
بَيْـــعَ يمـــينٍ بالإخـــاء الـــدَّائم
إذْ نَنْتَجـــي واللهُ غيـــرُ نـــائمْ
فـــي ظُلْمَـــةِ اللَّيـــلِ واللَّيـــلُ عـــاتمْ

١٧-وقال عمرو بن لجأ التيمي يصف الإبل[1]

أنعتُهـــا إنّـــي مـــن نُعَّاتِهـــا
مُنْدحَّـــةَ السُّـــرَّات وادِقاتِهـــا
مكفوفـــةَ الأخفـــاف مُجمراتِهـــا
ســـابغةَ الأذنـــابِ ذيَّالاتِهـــا
طـــوَتِ ليـــوم الخِمـــس أســـقياتِها
غـــابرَ مـــا فيهـــا علـــى بُلاَّتِهـــا
كأنمـــا نيطـــت إلـــى ضَـــرَّاتِها
مـــن نَخِـــرِ الطَّلـــح مُجَوفاتِهـــا
واتَّقـــتِ الشـــمس بجُمجُماتِهـــا
تمشـــي إلـــى رواءِ عاطِناتِهـــا

١ انظر: الأصمعيات، الأصمعي، شرح سعدي الصاوي، طبعة: دار الكتب العلمية (ص٣٤-٣٥).

الخطابة في العصر الأموي

عوامل ازدهارها ونُمُوّها:

ازدهرت الخطابة في العصر الأموي ازدهارًا واسعًا وزهت زهوًا عظيمًا؛ وذلك لِعِظَم دوافعها والحاجة إليها، بحيث نستطيع القول: إن العصر الأموي كان العصر الذهبي للخطابة، بل لا نبالغ إن قلنا: إن الخطابة في بعض مناحيها السياسية والمحفلية قد ازدهرت فوق ما كانت عليه في زمن الخلفاء الراشدين؛ وكانت الخطابة في العصر الأموي تنقسم إلى أربعة فروع أساسية؛ هي: **الخطابة السياسية والخطابة الحماسية والحربية والخطابة الدينية والوعظية** وكذلك **الخطابة المحفلية.**

والحق أن عوامل ازدهار الخطابة في العصر الأموي كانت متوفرة؛ فأمَّا **الخطابة السياسية** فقد ازدهرت بسبب نموِّ الأحزاب السياسية وما جرى بينها من نزاعات وصراعات؛ إذِ احتاج إليها خلفاء بني أمية في تثبيت دعائم ملكهم وتوضيح سياساتهم وممارسة سياسة الترهيب والترغيب تجاه خصومهم وتظهر فيها روح الخصام والحدَّة نتيجة حدَّة المعارضة التي كان يواجهها بنو أمية، واحتاج إليها أيضًا الولاة والأمراء من أجل قمع الثورات والفتن وبث الرعب في نفوس الخصوم والأعداء وكل من تحدِّثه نفسه بالعصيان وكذلك احتاج إليها الخوارج لتوضيح عقائدهم، وكانت في خطبهم السياسية والحربية عاطفة دينية منبعها عقيدتهم القوية في صدورهم، بالإضافة إلى نبرة حماسية عالية ترافق تلك الصبغة الدينية من أجل التحميس والتحريض على القتال، وكثُر في خُطَبِهم الاقتباس من القرآن الكريم؛ سواء كان نصًّا أو استلهامًا؛ لأنهم كانوا يقاتلون عن عقيدةٍ عميقة فيدعون إلى ما يسمُّونه الجهاد ويُرْفقون ذلك بذكرِ التَّقوى وأجر الآخرة والثواب، ومن الجدير بالذكر أن من الخوارج من جمع بين الشعر والخطابة في الإتقان والجودة مثل قطري بن الفجاءة وعمران بن حطان، وهو

شيء نادر قلَّما حدث، انفرد به الخوارج في هذا العصر، كما احتاج إلى الخطابة كذلك الشِّيعة والزُّبَيريُّون لأسباب مشابهة، فضلًا عن اتِّساع رقعة الدولة وكثرة المسؤوليات والأعباء التي تطلَّبت هذا اللون من الخطابة السياسية.

وبجانب الخطابة السياسية نجد **الخطابة الحربية والحماسية**، وهي لا تبعد كثيرًا عن الحقل السياسي؛ إذِ احتاج إليها القادة العسكريون من أجل الفتوح وتحميس جنودهم وبثِّ روح الحماسة في نفوسهم في سبيل القتال، واحتاج إليها الخوارج في معاركهم وحروبهم من أجل تحميس جنودهم، وكذلك واصلت **الخطابة الدينية** ازدهارها بسبب نشاط الحركات الدعوية والوعظية، فضلًا عن مناسبات الجمعة والعيدين والمناظرات والمحافل الدينية المختلفة، وقد كثر الوعاظ ورواة القصص من المتدينين الذين أجادوا الخطابة واعتلوا المنابر، وكان من الولاة والقادة -بل وبعض قادة الأحزاب المعارضة مثل الخوارج- من يستعين بالخطباء الدينيين من أجل الوعظ وتحميس الجند[1] وبدأت تظهر في أواخر العصر الأموي بعض ملامح التصوف والجوانب الكلامية بسبب ظهور بعض الفِرَق الكلامية كالمعتزلة وإمامهم واصل بن عطاء، ونشطت كذلك **الخطابة المحفلية**؛ حيث كثر الوفود على أبواب قصور الخلفاء، وكان بنو أمية كما ذكرنا يعشقون الأبهة وفخامة الملك ويبالغون في تزيين سلطانهم وعروشهم، مما أفضى إلى نشاط الخطابة المحفلية بدرجة أعلى مما كانت عليه زمن النَّبيِّ ﷺ والخلفاء الراشدين، فكانت وفود القبائل تتوافد عليهم إما من أجل تقديم فروض الولاء والطاعة أو لتوثيق صلاتهم بالحكم أو للشكوى من مظلمة أو حاجة، وزاد من نشاطها اتساع الدولة وتعدُّد ولاياتها، وإذا أخذنا في الاعتبار ازدياد شوكة ونفوذ القبائل في العصر الأموي ندرك تمامًا مدى اهتمام الخلفاء الأمويين بتوثيق علاقاتهم برؤساء تلك القبائل، فكانوا يستدعون شيوخ تلك القبائل ووجهائهم من أجل توثيق البيعة لولاية العهد أو للاستخلاف أو تولية

[1] انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٧).

عامل أو أمير وغير ذلك من الشؤون المختلفة، وكان شيوخ القبائل بدورهم يتوافدون عليهم فيستقبلهم الخلفاء الأمويون بحفاوة منذ عهد معاوية الذي فتح بابه لتلك الوفود، وهو ما أدى إلى نشاط الوفود على أبوابهم، فنَمَا هذا اللون من الخطابة وأفضى إلى زهو الخطابة بشكل عام في هذا العصر.

هذا بالإضافة إلى سبب عامٍّ آخر ساهم في ازدهار عموم الخطابة بكل أصنافها؛ هو سلامة السليقة العربية؛ حيث إن سليقة اللسان العربي الفصيح رغم ما أصابها من بعض مظاهر الفساد بسبب اللحن والعامية كانت لا تزال سليمة إلى حدٍّ كبيرٍ وكان العرب -ولا سيَّما من ظلَّ على اتصال بالبادية- لا يزال لسانهم فصيحًا مطبوعًا على اللغة، وكان الخلفاء الأمويون لا يزالون يرسلون أبناءهم إلى البادية لتعلُّم الفصحى والتَّمرُّن عليها، ممَّا أدَّى إلى ازدهار الخطابة ونموِّها بشكل عام.

الخصائص الفنية للخطابة:

من أبرز المظاهر الفنية للخطابة في العصر الأموي يلي:

(١) **الاقتباس من القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة والأمثال والشعر**: وذلك من أجل تجويد الخطبة والارتقاء بمستواها الفني وإصابة المعنى والتأثير في نفوس المستمعين، فنهجت الخطب منهج القرآن والدِّين في الإقناع والإرشاد، وهذا تطلَّب من الخطيب -حتى السياسي- ثقافة دينية واسعةً واطِّلاعًا على القرآن والسُّنَّة، ويبدو الاقتباس من القرآن واضحًا في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي وكذلك خطب الوعاظ والخوراج؛ لِما كان في نفوسهم من نزعة دينية قوية مبعثها عقيدتهم السياسية التي آمنوا بها.

(٢) الميل إلى الإطناب: وذلك بسبب تطوُّر البيئة الإسلامية، فضلًا عن الأحداث السياسية والانقسامات الحزبية ووجود معارضة قوية للبيت الأموي دفعت الخلفاء والولاة والقادة من جميع الأطراف إلى الاسترسال في الخطابة؛ إما من أجل توضيح السياسة المتَّبَعة كما كان يفعل خلفاء بني أمية، أو من

أجل توضيح العقيدة السياسية لطائفة ما كما كان يفعل الخوارج، كما احتاج الوعظ الديني قدرًا من الشرح، وهي كلها مواضع لا يصلح فيها الإيجاز وإنما الإطناب؛ لأن الخطيب كان يحتاج المزيد من الاسترسال من أجل بلوغ غايته ووصول رسالته إلى الناس، وكان من مظاهر الإطناب مزاوجة العبارات في تراكيب متشابهة ومترادفة، وترديد المعنى بأكثر من وجه بقصد بلوغ المعنى، وهناك من مال إلى الإيجاز.

(٣) بلاغة المنطق وحسن البيان والجودة: وقد تمثَّل ذلك في عدَّة وجوه؛ من بينها الإهتمام الفائق للخطباء وعنايتهم باختيار اللفظ الفخم دون الغريب؛ نظرًا إلى ظهور طبقات جديدة في المجتمع كانت أقل فصاحة كالمولَّدين، وهناك من ضَعُف اتصاله بالبادية، وهؤلاء كان سيتعذَّر عليهم فهْم الألفاظ الصعبة والغريبة، ممَّا دفع الخطباء لتيسير أساليهم وألفاظهم في أسلوب متين وسياق عذب دون الإخلال بفخامة اللفظ.

وبجانب عنايتهم باختيار اللفظ فإنَّهم اعتنوا كذلك بمظاهر الديباجة الرائعة وحُسن السبك وبهاء الورنق وترادُف العبارات ودقَّة التعبير واللباقة وجمال التصوير.

(٤) الوضوح الإفصاح عن الفكرة: كانت الخطابة في العصر الأموي تمتاز بالجلاء ووضوح الفكرة والإفصاح عن العقيدة؛ حيث كان الخطيب يعبِّر عن سياسته أو عقيدته السياسية أو أهدافه الدينية أو المحفلية بجلاء ووضوح؛ كما فعل زياد بن أبيه حينما قدم البصرة واليًا من قِبَل معاوية، وكما فعل عبد الملك بن مروان حينما خطب أول خلافته مبيِّنًا سياسته التي سيتبعها، وكما فعل الحجاج بن يوسف الثقفي في غير موضع، وكذلك خطبة أبي حمزة الخارجي الذي أفصح فيها بوضوح عن عقيدته السياسية في خطبة بليغة أواخر العصر الأموي، وهو ما جعل تلك الخطب مصدرًا لقراءة الأحداث السياسية من جهة، وللاطِّلاع على العقائد السياسية لتلك الطوائف الحزبية المتنازعة من جهة أخرى.

أبرز الخطباء:

كثر الخطباء المفوَّهون في العصر الأموي؛ سواء في الخطابة السياسية بجميع طوائفها وأحزابها؛ كالأمويين والخوارج والزُّبيريين والشيعة، أو في الخطابة الدينية والمحفلية؛ فأما في الخطابة السياسية فيصعب أن نجد خليفة أمويًّا لم يكن له موضع فيها وإن تفاوتت أقدار بلاغتهم، وكان أبرزهم معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- وعبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز ويزيد ابن الوليد بن عبد الملك، ومن أمرائهم عتبة بن أبي سفيان وعمرو بن سعيد ابن العاص المعروف بالأشدق، ومن أبرع ولاتهم وقادتهم في الخطابة النعمان ابن بشير وزياد بن أبيه والحجَّاج بن يوسف الثقفي ويوسف بن عمر الثقفي، ومن الخطباء الذين غلب عليهم الطابع الحماسي والحربي المهلب بن أبي صفرة وولده يزيد وقتيبة بن مسلم الباهلي، ومن الجدير بالذكر أنه كان مطلوبًا من الوالي أن يقوم خطيبًا في مناسبات مختلفة؛ سواء أكانت سياسية أم دينية، بل لا ريب إذا وجدنا منهم من كان يتفوَّق على الخلفاء الأمويين في بيانه وقدراته الخطابية، ولا سيَّما زياد والحجاج؛ نظرًا إلى أن هؤلاء كانوا أكثر عرضة لمواجهة الفتن والأحداث، وهذا تطلَّب من الولاة إجادة الخطابة والقدرة عليها وإتقانها؛ لعِظَم الدافع إليها.

ومن أبرز خطباء الخوارج: حيَّان بن ظُبيان السُّلمي والمستورد بن عُلَّفة والضحاك بن قيس ونصر بن ملحان، ونافع بن الأزرق وقطري بن الفجاءة إماما الأزارقةِ، وعمران بن حطان شاعر الخوارج المشهور، بالإضافة إلى أبي حمزة الخارجي في أواخر العصر الأموي[1] وقد امتاز الخوراج بأنَّ فيهم من جمع بين موهبتي الشِّعر والخطابة فأتقنهما معًا مثل قطري بن الفجاءة وعمران ابن حطان كما أسلفنا، ومن خطباء آل البيت الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية أبناء علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم، بجانب العديد من أئمة شيعتهم مثل

---

١ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٣/ ١٧٥- ١٧٦).

سليمان بن صرد زعيم فرقة التَّوَّابين الذين ندموا على خذلانهم للحسين إبان ثورته، وصعصعة بن صوحان أحد أبلغ خطباء عصره وممَّن شُهِد لهم بالبيان، والمختار بن أبي عبيد الثقفي، بالإضافة إلى زيد بن عليٍّ حفيد الحسين الذي ثار ضد الخليفة هشام بن عبد الملك، ومن خطباء الزبيريين: عبد الله بن الزبير وأخوه مصعب وعبد الله بن يزيد الأنصاري.

ومن أشهر خطباء المحافل والوفود سحبان وائل، وقد تقدَّمت ترجمته في عصر صدر الإسلام، وكذلك الأحنف بن قيس التميمي وصُحار بن عيَّاش العبدي وعبد العزيز بن زرارة الكلابي وعبد الله بن همام السلولي ومحمد بن كعب القُرَظي وصفوان وعبد الله ابنا عمرو بن الأهتم الخطيب البارز الذي عاصر النَّبيَّ ﷺ[1].

أما عن الوعاظ وخطباء الدعوة ورواة القصص فقد برز منهم عبد الله بن عمرو ابن العاص والأسود بن سريع وزيد بن صوحان أخو صعصعة بن صوحان وعبيد بن عمير وإبراهيم التيمي الكوفي وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وأبو حازم الأعرج ورجاء بن حيوة الكندي والإمام الأوزاعي ومالك بن دينار وإياس ابن معاوية قاضي البصرة[2]، ختامًا بالحسن البصري الذي كان إمام الوعاظ وأروع وأبلغ الخطباء الدينيين في عصره وواصل بن عطاء زعيم المعتزلة.

بل إن الملفت للانتباه أن بعض الذين عُرِفوا باللحن لم يمنعهم لحنهم هذا من بلوغ درجة البيان والبلاغة في عدَّة مناسبات، فكانوا خطباء مبدعين على ما فيهم من اللحن مثل خالد بن عبد الله القسري وعيسى بن المدوَّر وخالد بن صفوان حفيد عمرو بن الأهتم[3]الذي عاني من اللحن والخطإ في الإعراب فنُصِح بتعلُّم علم النحو حتى يصحِّح خُطَبَه.

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٤٣٠).
٢ انظر: المصدر السابق (٢/ ٤٣٦).
٣ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ١٥١).

وقد ظل الخطباء في هذا العصر على ما ألفوه منذ الجاهلية من اتخاذ العمامة والوقوف على مكان مرتفع والخطبة من قيام، إلا الوليد بن عبد الملك فقد خطب وهو جالس.[1]

وتتجلَّى قيمة الخطابة في العصر الأموي في عدَّة جوانب؛ من بينها جانبٌ تاريخيٌّ؛ حيث تكشف طبيعة الأحداث السياسية في تلك الحقبة؛ وجانبٌ أدبي يكشف عن موهبة العرب البلاغية والبيانية ومدى اتساع مدراكهم وبيانِ لُغتهم بصورةٍ ربَّما فاقت الشعر في بعض المناحي حتى الجاهلي منه؛ وذلك أن الشِّعر مُقيَّد بالأوزان والقوافي، وبالتالي فإن كان له رونقه فإنَّ مجالَه محدودٌ إذا ما قِيس بالخطابة التي خلت من تلك القيود فاتسعت لتلك المعاني والأغراض المختلفة، وكانت أوسع انطلاقًا وأغزر مادة وأكثرَ إفصاحًا عن أسرار البلاغة ومكامن اللغة عن الشعر في بعض الأحيان.

وقد أثبت ابن جرير **الطبري** في كتابه **تاريخ الأمم والملوك** جانبًا كبيرًا من تلك الخطب -ولا سيَّما السياسية- في سياق روايته لأحداث وتفاصيل تلك المدة ليعتبر بحقٍّ أفضل المراجع للخطب السياسية في العصر الأموي، وكذلك **البيان والتبيين للجاحظ**، وقد ضم كذلك خطبًا رائعة توضِّح ما كانت عليه الخطابة من بلاغةٍ وروعةٍ وبيان مما يمكن الاطمئنان إليه، بالإضافة إلى **الكامل في اللغة والأدب للمبرِّد** و**جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت**، مع أخذ بعض الحذر من بعض الخطب المنحولة كخطبة الحسن بن عليٍّ التي قيل: إنَّه نال فيها من معاوية وبعض أنصاره في مناظرة بينهما، والخطبة التي صيغت على لسان أروَى بنت الحارث بن عبد المطلب تعيِّر عمرو بن العاص وتتَّهم أمَّه؛ حيث سبق التنبيه أن بعض الرواة بسبب تأخُّر التدوين قد عبثوا ببعض الأحداث ووضعوا بعضها من باب التَّشنيع على بني أمية والنَّيل من خلفائهم؛ لأسباب سياسية وحزبية، لذا وجب التنبيه على أخذ الحيطة من مِثل هذه الأمور.

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص١٧٦).

أعلام الخطباء

أولًا: خطباء بني أمية

(معاوية بن أبي سفيان- عتبة بن أبي سفيان- عبد الملك بن مروان- عمر بن عبد العزيز- يزيد بن الوليد)

١- معاوية بن أبي سفيان:

هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أُمَيَّة بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان قومه بنو أمية من البطون القوية في قريش، وكان لهم لواء الحرب، وكانت بينهم وبين بني هاشم رهط الرسول ﷺ تَنافُسٌ في الجاهلية على سيادة قريش وكانت الغلبة لبني هاشم، وقد استمر هذا التنافس بعد الإسلام فتأخَّر إسلامهم حتى فتح مكة، وقد آلت أخيرًا سيادة مكة بعد الهجرة ومقتل أغلب سادة مكة في غزوة بدر إلى بني أميَّة وسيدهم حينها أبو سفيان بن حرب، فظلَّ على عداء النَّبيِّ ﷺ حتى أسلم حين فتْح مكة وحَسُن إسلامه واشترك في المعارك والفتوحات الإسلامية وأبلى في حصار الطائف ويوم اليرموك بلاء حسنًا وفقد فيهما كلتا عينيه، وتوفِّيَ عام ٣١هـ/٦٥٢م في خلافة عثمان.

أما معاوية فقد وُلِد نحو عام ٦٠٨م؛ أي: قبل الهجرة بخمسة عشر عامًا، وأسلم يوم الفتح، ورُوِيَ عنه أنَّه أسلم بعد الحديبية ولَقِيَ النَّبيَّ مسلمًا في عمرة القضاء ولكنَّه أخفى إسلامه حتى أعلنه مع سائر قومه حين فتْح مكة، واشترك مع النَّبيِّ في غزوة حُنين، وأعطاه رسول الله ﷺ من أنفال تلك الغزوة وعُدَّ من المؤلَّفة قلوبهم، ورغم تأخُّر إسلامه فقد قرَّبه رسول الله ﷺ وألحقه بكُتَّاب وحيه، وكان للقيادة أهلًا؛ فاشترك في الفتوحات الإسلامية في الشام أوَّل عهد أبي بكر الصِّدِّيق وكان تحت إمرة أخيه يزيد، حتى إذا مات يزيد في طاعون

عمواس مع من مات من أمراء المسلمين خلَفَه أميرًا على دمشق ثم تولَّى كامل الشام في أواخر عهد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بعدما غادرها عمرو ابن العاص إلى مصر فاتحًا، وظل أميرًا على الشام طيلة خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد اشتهر معاوية بالكفاءة والحنكة والدهاء، فساس الشام أحسن سياسة وضبط أمورها وأحوالها وكانت له فتوحات في بلاد الروم وفي البحر، وأحبَّه عموم أهل الشام ومالوا إليه، حتى استشهد عثمان واشتعلت الفتنة ورفض مبايعة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- حتى يأخذ بالقصاص من قتَلَتِه أوَّلًا، وهو ما رفضه أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالبٍ؛ الذي صمَّم على البيعة أوَّلًا، فاشتعلت الحروب والمعارك بينهما ولم يحسم بينهما السيف، وما لبثا أن تهادَنا، ثم استشهد بعدها عليُّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- على يد أحد الخوارج، وخلَفَه ولده الحسن بن عليّ عام ٤٠هـ/٦٦٠م بينما أعلن معاوية خلافته في الشام هو الآخر غير أنَّه لم يكن بيده سوى الشام ومصر إلى أن تنازل له الحسن بن عليٍّ عن الخلافة عام ٤١هـ/٦٦١م وبايعه على الخلافة، فاجتمعت كلمة الأمَّة على معاوية.

واستمر معاوية على خلافة المسلمين نحو تسع عشرة سنة، وكان سائسًا ذا دهاءٍ، حسن السيرة، وكانت مدَّته مدَّة استقرار وثبات؛ إذْ نجح في القضاء على الفتن الداخلية وثورات الخوارج، وعمل عدة إصلاحات؛ فطوَّر نظام البريد وأسَّس ديوان الخاتم، وتعاظم الأسطول الإسلامي في عهده، وكانت له فتوحات في الشرق وفي أفريقيا وعلى تخوم بلاد الروم وشهد عصره أول محاولة لفتح القسطنيطنيه، وقد جعل الخلافة وراثية في عقبه من بني أمية بعدما كانت شورى بين صحابة النَّبيِّ ﷺ، وتوفِّيَ عام ٦٠هـ/٦٧٩م.

ومن خُطَبِه ما قاله بعدما بلغه هلاك الأشتر النخعي أحد رجال عليّ بن أبي طالب إبان الفتنة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[1]: **"أَمَّا بَعْدُ: فإنه كَانَتْ لعليّ**

---

[1] انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٥/ ٩٦).

ابن أبي طالب يدان يمينان، قُطِعت إحداهما يوم صفين -يعني عمار ابن ياسر- **وقُطِعت الأخرى اليوم**- يعني الأشتر".

ومن وصاياه لما حضرته الوفاة وابنه يزيد غائب وكان قد أخذ له البيعة من بعده وقد عارض البعض، فدعا بعض رجاله فأوصى وصايته ليزيد قائلًا لهم[1]: **"أبلِغَا عنّي يزيد وقُولا له: انظر إلى أهل الحجاز فهُم أصلك وعِترتك، فمَن أتاك منهم فأكرِمْه، ومن قعد منهم عنك فتعهَّدْه. وانظر إلى أهل العراق فإن سألوك عزْل عاملٍ في كلّ يومٍ فاعزله عنهم؛ فإنَّ عزْل عاملٍ في كل يوم أهون عليك من سلّ مئة ألف سيفٍ ثم لا تدري علام أنت عليه منهم؛ ثم انظر إلى أهل الشام فاجعلهم الشِّعار دون الدِّثار؛ فإنْ رابك من عدوِّك ريبٌ فارمِه بهم، فإن أظفرك الله بهم فاردُدْ أهل الشام إلى بلادهم، ولا يقيموا في غير ديارهم فيتأدَّبوا بغير أدبهم. لست أخاف عليك غير عبدالله بن عمر، وعبد الله ابن الزبير، والحسين بن علي؛ فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه الورع. وأما الحسين فإني أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه. وأما ابن الزبير فإنه خبٌّ ضبٌّ، وفي رواية: "إن ظفرت بابن الزبير فقطِّعه إرَبًا إرَبًا".**

وخطبَ ذات مرَّة قائلًا بعدما حمد الله وأثنى عليه[2]: **"يا أيها الناس؛ إنّي من زرع قد استحصد. ولن يأتيكم بعدي إلا من أنا خير منه، كما لم يكن قبلي إلا من هو خير منّي".**

٢- عتبة بن أبي سفيان:

هو أخو معاوية، ويُروَى عنه أنه خطب يومًا في الموسم أول عهد أخيه، فاستفتح ثم قال[3]: **"أيها الناس؛ إنَّا قد وَلِينا هذا الموضع الذي يضاعِف الله فيه للمحسن الأجر، وعلى المسيء الوزر. فلا تمدُّوا الأعناق إلى غيرنا؛ فإنَّها تنقطع**

---

[1] انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٨٩- ٩٠).
٢ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٤/ ٩٢).
٣ انظر: المصدر السابق (٤/ ٩١).

دوننا، ورُبَّ مُتَمَنٍّ حتفُه في أمنيته، اقبَلُوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم، وإيَّاكم و"لو"؛ فقد أتعبتْ من كان قبلكم، ولن تريح مَن بعدكم، فأسأل الله أن يُعِين كُلًّا على كلٍّ؛ فقال أعرابي في المسجد: **أيها الخليفة**؛ فقال: **لسْتُ به، ولم تبعُد**؛ قال: **فيا أخاه**؛ قال: **قد أَسمَعْتَ فقُلْ**؛ فقال: **واللهِ لَأَنْ تُحسِنوا وقد أسأنا خيرٌ لكم من أن تسيئوا وقد أحسَنَّا؛ فإن كان الإحسان لكم فما أحقَّكم باستتمامه، وإن كان لنا فما أحقَّكم بمكافأتنا!! رجلٌ من بني عامر يمتُّ إليكم بالعمومة، ويختصُّ إليكم بالخؤولة، وقد وطئه زمانٌ وكثرةُ عيالٍ، وفيه أجر، وعنده شكر**؛ فقال عتبة: **أستعيذ بالله منك، وأستعينه عليك، قد أمرْتُ لك بِغِناك، فليتَ إسراعنا إليك، يقوم بإبطائنا عنك".**

وقد خطب يومًا في أهل مصر وكان واليًا عليهم زمنًا من قِبَل أخيه وقد وَجَد عليهم فقال[1]: **"يا حامِلِي ألْأَمَ آنُفٍ رُكِّبَتْ بينَ أعيُنٍ؛ إنِّي إنَّما قلَّمْتُ أظفاري عنكم ليلِين مسِّي لكم. وسألتكم صلاحكم إذْ كان فسادكم باقيًا عليكم، فأمَّا إذْ أبيتم إلا الطعن على السلطان، والتَّنقُّص للسَّلف؛ فواللهِ لأقطعن بطون السِّياط على ظهوركم، فإن حَسَمَتْ أدواءكم، وإلا فإن السَّيف من ورائكم. فكم من حكمةٍ منَّا لم تَعِها قلوبكم، ومن موعظةٍ منَّا صمَّتْ عنها آذانكم!!، ولست أبخلُ عليكم بالعقوبة إذْ جُدْتُم بالمعصية، ولا أُويِسُكُم من مراجعة الحُسنَى إن صرتم إلى التي هي أبَرُّ وأتْقَى".**

وهما خطبتان تتَّصفان بحسن السَّبك وجودة اللفظ وحدِّة السياق، يغلب عليها الإيجاز، وتفصحان عن السياسة المتَّبَعة التي تميل إلى الترهيب والوعيد لمن تحدِّثه نفسه بالعصيان.

---

١ انظر: المصدر السابق.

٣- عبد الملك بن مروان:

هو أبو الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميَّة، خامس خلفاء بني أمية، وأكثرهم دهاء وحنكة، وُلِد نحو عام ٢٦هـ/ ٦٤٦م، واستعمله معاوية على ديوان المدينة فأقام بها حتَّى اشتعلت ثورة المدينة ضد يزيد ابن معاوية؛ خرج منها إلى الشام، وما لبث أن اضطرب أمر الخلافة الأموية بعد أن استعفى معاوية بن يزيد بن معاوية عقب أيَّامٍ من مبايعته، فكان هذا سبب انتقال الخلافة من الفرع السُّفياني إلى الفرع المرواني من بني أُميَّة وبويع مروان ابن الحكم بالخلافة عام ٦٤هـ/٦٨٤م، وكانت كل الأقاليم قد خرجت عن سلطان بني أميَّة باستثناء دمشق، إلا أن مروان كان وافر الحزم والدهاء، نجح في هزيمة أنصار ابن الزبير في موقعة مرج راهط، واستعاد الشام كاملًا ثم استعاد مصر بعدها، وما لبث أن تُوفِّيَ مسمومًا عام ٦٥هـ/٦٨٥م، فخَلَفَه على عرشه ولده عبد الملك.

وكان عبد الملك بن مروان رجلًا سائسًا فطنًا لبيبًا ذا دهاء وحنكة وسياسة، وكان ذا قدرة على جذب الموالين، وكان يؤلِّف من حوله بالمال وبطرقٍ مختلفة كي يتغلَّب على خصومه؛ حيث نجح في استعادة العراق وقَتَلَ حاكمها مصعب ابن الزبير ثم ما لبث أن استعاد الحجاز وقتل خصمُه اللدود عبد الله بن الزُّبير فاجتمعت عليه الأمَّة، بعدها تفرَّغ عبد الملك لقتال الخوارج فنجح في الانتصار عليهم وإخماد ثوراتهم بعد جهود مضنية، ونجح آخر عهده في ردِّ الدولة الإسلامية إلى وحدتها وقوَّتها بعد سنين من الفُرقة؛ بفضل دهائه وحزمه، وكانت له عدة إصلاحات داخلية؛ من بينها تعريب الدَّواوين وصكُّ العملة وإنشاء مسجد الصخرة، دامت خلافته نحو ثلاثٍ وعشرين سنة، ويُعتبر من أعاظم خلفاء بني أميَّة حتى توفِّيَ ٨٦هـ/٧٠٥م.

كان عبد الملك خطيبًا بليغًا حسن السبك، يميل إلى الإيجاز، وإن لم يبلغ في بلاغته درجة بعض عُمَّال بني أمية مثل زياد والحجاج.

ومن نماذج خُطَبِه قوله[1]: **"يا أيّها الناس: إنّي -والله- ما أنا بالخليفة المُستضعَف** -يعني عثمان- **ولا بالخليفة المُداهن** -يعني معاوية- **ولا بالخليفة المأفون** -يعني يزيد بن معاوية- **فمن قال برأسه كذا؛ قُلنا بسيفنا كذا".**

وهي خطبةٌ -على قِصَرِها- توضِّح سياسة عبد الملك وأنه لا يعرف المداهنة ولا الضَّعف، وفيها من الوعيد ما يُرهب به قلوب من يحدِّثون أنفسهم بالعصيان.

وخطب مرة حينما أتاه خبر نصر جيشه على جماعة أطلقت على نفسها اسم التَّوابين، كان عليها رجل يُدعَى سليمان بن صرد الخزاعي، أرادت الثأر للحسين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[2]: **"أمَّا بعدُ: فإنَّ الله قد أهلك من رؤوسِ أهلِ العراقِ ملقحَ فتنةٍ، ورأسَ ضلالةٍ؛ سليمانَ بنَ صرد، ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خَذَارِيفَ[3] ألا وقد قُتِلَ من رُؤوسِهِم رأسَان عظيمان ضالَّان مُضِلَّان: عبد الله بن سعد أخو الأزد، وعبد الله بن والٍ أخو بكرِ ابن وائل، فلم يَبْقَ بعد هؤلاء أحد عنده دفاعٌ ولا امتناعٌ".**

ومن قوله حين أنبأه الحجاج بعِصيان عبد الرحمن بن الأشعث؛ حيث خرج إلى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[4]: **"إنَّ أهل العراق طال عليهم عُمُري، واستعجلوا قَدَري، اللَّهمَّ سلِّطْ عليهم سيوفَ أهل الشَّام حتى يبلغوا رضاك، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك".**

٤- عمر بن عبد العزيز:

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، ثامن خلفاء بني أمية، وأمُّه ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وُلِد في المدينة عام ٦١هـ/ ٦٨١م في المدينة المنورة، وقيل: بل عام ٦٣هـ في مصر؛ والرأي الأول أرجح لأن أباه لم يتولَّ ولاية مصر إلا نحو عام ٦٥هـ؛ وقد نشأ عمر نشأة مختلفة عن أبناء

---

١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (٢/ ١٩٢).
٢ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٥/ ٦٠٥).
٣ حذاريف: قِطَعًا. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٩/ ٦٢).
٤ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (٢/ ١٩٦- ١٩٧).

عمومته بني أمية وكان أقرب إلى تتبُّع سيرة جدِّه لأُمِّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما حرص أبوه عبد العزيز بن مروان رغم ولايته على مصر على إبقائه في المدينة حتى يتعلَّم الدين والقرآن على يد من بَقِيَ بها من الصحابة والتابعين مثل سعيد بن المسيب وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وغيرهما، فنشأ فقيهًا ورعًا زاهدًا في الدنيا وفي الحكم.

ثم انتقل عمر إلى الشام ملتحقًا بعمِّه عبد الملك؛ الذي كان يحبه كثيرًا، فزوَّجه من ابنته فاطمة، ولما آلت الخلافة للوليد بن عبد الملك استعمل ابن عمه عمر ابن عبد العزيز على المدينة فعاد إليها وعمره نحو خمس وعشرين سنة فساس أهلها بالعدل واللِّين، ولمَّا رأى الوليد حسن سيرته ولَّاه على مكة والحجاز بأكمله، وعمل عمر عدة إصلاحات أثناء ولايته، وكان أعظمها إشرافه على توسعة الحرمين الشريفين، وظل عمر على ولاية الحجاز حتى عزله الوليد واستقدمه إلى الشام؛ وذلك بتحريض من الحجاج بذريعة أن نفرًا من العصاة كانوا يفرون من العراق إلى الحجاز خوفًا من بطشه فلا يصل إليهم.

ولما توفِّيَ سليمان بن عبد الملك عام ٩٩هـ/ ٧١٧م؛ أوصى بالخلافة من بعده لعمر بن عبد العزيز فقَبِلها على كُرهٍ منه، وبايعه الناس فحكم بالعدل والرأفة واللِّين وأعاد سيرة الخلفاء الراشدين، وكثُر الوعظ والإرشاد في عهده وتثبَّت حكم المسلمين في الأقاليم المفتوحة حديثًا لدخول الكثيرين في الإسلام، وأرسل إلى عماله بالنهي عن سبِّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومنعِهم مِن أخذِ الجزية ممَّن يُسلم من العجم، وطلب من بني أمية ردَّ كلِّ ما أخذوه من بيت مال المسلمين بغير حق، ووصلت الدولة في عهده إلى قمَّة ازدهارها الاقتصادي وذروة اكتفائها الذاتي حتى كان الرجل يطوف بزكاة ماله من المسلمين فلا يجد من يأخذها، وتُوفِّي عمر بن عبد العزيز عام ١٠١هـ/ ٧١٩م بعد نحو عامين فقط من خلافته شابًّا لم يجاوز الأربعين، وهو بإجماع المؤرخين أعدل وأتقى خلفاء بني أمية.

ولعمر خُطَب تمتاز بمتانة التراكيب ولين الأسلوب، وهي بخلاف خُطب بني أميَّة؛ تمتاز بطابع التديُّن وعُمق الإيمان والزُّهد الناجم عن طبيعة نشأته الدينية، ومن خُطَبه قوله[1]: "**أيُّها النَّاس؛ إنَّكم لم تُخلَقوا عبثًا، ولم تُترَكوا سُدًى، وإنَّ لكم معادًا يحكم الله بينكم فيه. فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كلَّ شيء، وحُرِمَ الجَنَّةَ التي عرضها السموات والأرض. واعلموا أن الأمان غدًا لمن خاف الله اليوم، وباع قليلًا بكثيرٍ، وفانيًا بباقٍ، ألا ترون أنَّكم في أسلاب الهالكين، وسيَخلُفُها مِن بعدكم الباقون، كذلك حتى تُردُّوا إلى خير الوارثين؟!.**

ثم أنتم في كل يوم تشيِّعون غاديًا ورائحًا إلى الله، قد قضى نحبه وبلغ أجله، ثم تغيِّبونه في صدعٍ من الأرض، ثم تَدَعُونه غير موسَّد ولا مُمَهَّد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وباشر التراب، وواجه الحساب، غنيًّا عمَّا ترك، فقيرًا إلى ما قدَّم، وايم اللهِ إني لأقول لكم هذه المقالة، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي، فأستغفر الله لي ولكم. وما تبلُغُنا حاجة يتَّسع لها ما عندنا إلا سددناها، وما أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي، ولُحمتي الذين يلونني، حتى يستوي عيشنا وعيشكم. وايم اللهِ إني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة[2] لكان اللسان مني ناطقًا ذلولًا، عالمًا بأسبابه؛ لكنَّه مضى من الله كتاب ناطق، وسنَّة عادلة دلَّ فيها على طاعته، ونهى فيها عن معصيته".

ولما تُوفِّيَ ولده عبد الملك -وكان تقيًّا ورعًا كأبيه، بل ربما فاقة عبادة ودينًا- خطب عمر يرثي ولده قائلًا[3]:"**الحمد لله الذي جعل الموتَ حتمًا واجبًا على عباده، فسوَّى فيه بين ضعيفهم وقويِّهم، ورفيعهم ودنيئهم ،فقال عز وجل: (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ)**[4]؛ فليعلم ذَوُو النُّهى منهم أنَّهم صائرون إلى قبورهم،

---

١ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٨٢- ٨٣).

٢ الغضارة: النعمة والسَّعة. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٥/ ٢٣).

٣ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٤/ ١٥- ١٦).

٤ سورة آل عمران: ١٨٥.

مفردون بأعمالهم. واعلموا أنَّ لله مسألة فاحصة، قال الله عزوجل: **(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**".

٥- يزيد بن الوليد:

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، الخليفة الثاني عشر من خلفاء بني أمية، وُلد عام ٨٠هـ/ ٦٩٩م، ولما تُوفِّيَ عمُّه هشام بن عبد الملك وتولَّى الخلافة ابن أخيه الفاسق الوليد بن يزيد؛ اضطربت أحوال الخلافة بسبب فسقه ومجونه؛ فأساء لأبناء عمومته من المخالفين له وساءت سيرته في الناس رغم زيادته في أعطياتهم، فثَقُلَت عليهم وطأته، وتآمر عليه أبناء أعمامه بزعامة يزيد ابن الوليد -وكان معروفًا بالنُّسك والحِلم- فقتلوه عام ١٢٦هـ/٧٤٤م بعد نحو عامٍ من خلافته، وخلَفَه يزيد بن الوليد.

غير أن أحوال الخلافة قد اضطربت؛ إذْ ثارت عدَّة قبائل كانت موالية للوليد، واشتدَّ الصراع بين اليمنية والقيسية (المضرية)، واضطربت أحوال العراق، وقويت شوكة الدعوة العباسية في خراسان، وقد نجح يزيد في إخماد كل الثورات المناهضة له، غير أن مروان بن محمد أمير أرمينيا أنكر عليه قتْلَه الوليد ورفض بيعته، فحاول يزيد استصلاحه وعرض عليه ولاية الجزيرة كاملة كما كانت لأبيه، ولكن ما لبث يزيد أنْ توفِّيَ بعد أشهر من خلافته عام ١٢٦هـ/٧٤٤م، ودخل مروان دمشق وحاز الخلافة.

ولمَّا بُويع يزيد بالخلافة قام فخطب في الناس خطبة بليغة تمتاز بالإطناب وحُسن السَّبك وعذوبة اللفظ وسموِّ المعنى، يقول: فيها بعدما حمدَ الله وأثنى عليه[٢]: **"واللهِ يأيها الناس؛ ما خرجت أشرًا ولا بطرًا، ولا حِرصًا على الدنيا، ولا رغبةً في الملك، وما بي إطراء نفسي، وإني لظلوم لها، ولقد خسرتُ إن لم يرحمني ربي ويغفر لي ذنبي؛ ولكني خرجْتُ غضبًا لله ولدِينِه، وداعيًا إلى الله**

---

١ سورة الحجر: ٩٢-٩٣.

٢ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٩٦-٩٧).

وسنَّة نبيه، لمَّا هُدمت معالم الهدى، وأطفئ نور التُّقى، وظهر الجبار العنيد، وكثرت حوله الحزق والجنود، المستحلُّ لكلِّ حرمة، والراكب لكل بدعة، مع أنه -واللهِ- ما كان يؤمن بيوم الحساب، ولا يصدِّق بالثواب والعقاب، وإنه لَابْنُ عمِّي في النسب، وكفئي في الحسب، فلمَّا رأيت ذلك استخرت الله في أمره، وسألته أن لا يكلني إلى نفسي، ودعوت إلى ذلك من أجابني من أهل ولايتي، حتى أراح الله منه العباد، وطهَّر منه البلاد، بحول الله وقوَّته، لا بحولي وقوَّتي.

أيها الناس؛ إنَّ لكم عليَّ ألا أضع حجرًا على حجر، ولا لبنةً على لبنة، ولا أكري نهرًا، ولا أكنز مالًا، ولا أعطيته زوجًا ولا ولدًا، ولا أنقل مالًا من بلد إلى بلد حتى أسدَّ فقر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم، فإن فَضُل فضلٌ؛ نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه منه، ولا أجمركم في ثغوركم فأفتنكم و أفتن أهاليكم، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويُّكم ضعيفكم، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما أجليهم به عن بلادهم و أقطع نسلهم، ولكم عندي أعطياتكم في كل سنة، وأرزاقكم في كل شهر، حتى تستدرَّ المعيشة بين المسلمين، فيكون أقصاهم كأدناهم، فإن أنا وفيت فعليكم السمع والطاعة، وحسن الموازرة والمكانفة، وإن أنا لم أُوفِ لكم؛ فلكم أن تخلعوني، إلا أن تستتيبوني فإن أنا تُبتُ قبلتم منِّي، وإن عرفتم أحدًا يقوم مقامي ممَّن يُعرف بالصلاح، يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم، فأردتم أن تبايعوه؛ فأنا أوَّلُ من بايعه ودخل في طاعته.

أيها الناس؛ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم".

ثانيًا: خطباء الولاة والقادة

(النُّعمان بن بشير الأنصاري- المغيرة بن شعبة- زياد بن أبيه- المهلب ابن أبي صفرة- الحجَّاج بن يوسف الثقفي- قتيبة بن مسلم الباهلي- خالد بن عبد الله القسري)

١- النُّعمان بن بشير الأنصاري:

هو النُّعمان بن بشير بن سعد الخزرجي الأنصاري، وأمُّه عمرة بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة، كان أبوه من الصحابة المقدَّمين، شهد بدرًا والعقبة وكان أوَّل من بايع أبا بكر خليفة للمسلمين من الأنصار، أما النعمان فقد وُلِد في السنة الثانية للهجرة، وهو أول مولود للأنصار بعد الهجرة، ويُعَدُّ من صغار الصحابة رضوان الله عليهم.

ولمَّا قُتل عثمان -رضي الله عنه- كان هو من حمل قميصه الذي قُتل به إلى معاوية، فكان ذلك سبب ثائرة معاوية ومن معه من أهل الشام، وقد انضم النعمان بن بشير إلى معاوية في صراعه مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقاتل معه في صفِّين وأطاع معاوية أثناء خلافته، فولَّاه قضاء دمشق زمنًا، وتولَّى ولاية الكوفة ثم ولاية حمص، ولما اضطرب ملك بني أمية بعد وفاة يزيد ابن معاوية ثم ولده معاوية؛ كان على ولاية حمص فمال إلى ابن الزُّبير وبايعه، ولكن ما لبث أن استقام أمر الشام سريعًا لبني أمية مجدَّدًا بعد موقعة مرج راهط، فقتله أهل حمص عام ٦٤هـ/٦٨٤م؛ حيث كان هواهم مع بني أمية[١]

والنعمان بن بشير من صغار صحابة النَّبيّ ﷺ، وقد روى عنه أحاديث، وكان ممَّن كره مقتل الحسين رضي الله عنه، وأشار على يزيد بن معاوية بالإحسان إلى أهله عقب استشهاده، فأطاعه وأكرمهم وردَّهم إلى المدينة، وكان النعمان

---

[١] انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/ ٣٨٣- ٣٨٥).

خطيبًا وشاعرًا، له شعر حسن وخُطَب تمتاز بالفصاحة والوضوح ودقَّة اختيار اللفظ، ويُروَى أنه لما اعتزم الحسين بن عليٍّ -رضي الله عنهما- الثورة والذهاب إلى الكوفة بعدما راسله أهلها، وكان النعمان حينها واليًا عليها في طاعة بني أمية، فلمَّا رأى بوادر العصيان منهم وميلهم إليه؛ خطب فيهم محذِّرًا إياهم، فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه[1]: **"أمَّا بعدُ: فاتقوا الله عباد الله، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفُرقة؛ فإنَّ فيهما يهلك الرجال، وتُسفَك الدماء، وتُغصَب الأموال، إني لا أقاتل من لم يقاتلني، ولا أثِبُ على من لا يَثِبُ عليَّ، ولا أشاتمكم، ولا أتحرَّش بكم، ولا آخذ بالقُرفة ولا الظِّنَّة ولا التهمة؛ ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لي ونكثم بيعتكم، وخالفتم إمامكم؛ فواللهِ الذي لا إله غيره لأضربنَّكم بسيفي ما ثبت قائمُه في يدي ولو لم يكن لي منكم ناصر، أما إنِّي أرجو أن يكون من يَعرِف الحقَّ منكم أكثر ممَّن يُردِيه الباطل"**، فقام إليه أحد حلفاء بني أمية فاتَّهمه بالضعف، فقال له: **"أن أكون من المستضعفين في طاعة الله؛ أحَبُّ إليَّ مِن أن أكون من الأعزِّين في معصية الله"** ثم نزل، وما لبث أن راسل هذا الرجل يزيد بن معاوية متهمًا النعمان بالضعف وينصح بعزله، فعزله بعبيد الله بن زياد، فكان منه ما كان من قتلِ الحسين رضي الله عنه.

٢- المغيرة بن شعبة:

هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر الثقفي، صحابي جليل، أسلم عام الخندق وشهد الحديبية، وقد أرسله رسول الله ﷺ مع أبي سفيان بن حرب لهدم صنم اللَّات بعد إسلام الطائف، وشارك في حروب الرِّدَّة زمن أبي بكر، وشهد جانبًا من الفتوحات الإسلامية وحضر اليرموك والقادسية، وكان مِن وُلاة عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، ولمَّا اشتعلت الفتنة بين عليٍّ ومعاوية؛ اعتزل وبقي محايدًا حتى انضم لمعاوية بعد واقعة الحكمين، وكان

[1] انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (٢/ ٣٧).

المغيرة من دهاة العرب وكان ذا رأيٍ وسياسة وحزم، وكان فيه حِلم وأناة، استعمله معاوية على الكوفة وكانت مضطربة آنذاك؛ لثورات الخوارج، فساسها أحسن سياسة وأبدَى لِينًا وأناة أحيانًا، وشدَّة وعزمًا أحيانًا أخرى، وكان شديدًا في ملاحقة الخوارج؛ فله معهم عدة وقائع ناجحة وتمكَّن من إخماد ثوراتهم وكسر جيوشهم فاستقرَّت الأوضاع وهدأت الفتن في عهده، وبقي واليًا على الكوفة حتى توفِّي نحو عام ٥٠هـ/٦٧٠م[1].

ولمَّا بلغه نبأ تحركات الخوارج وإعدادهم للخروج والثورة؛ جمع أهل الكوفة فخطبهم محذِّرًا بعد حمد الله قائلًا[2]: "**أما بعدُ: فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أُحب لجماعتكم العافية، وأكفُّ عنكم الأذى، وإنّي -واللهِ- لقد خشيت أن يكون ذلك أدبَ سوءٍ لسفهائكم؛ فأما الحلماء الأتقياء فلا، وايمِ اللهِ لقد خشيتُ ألَّا أجِدَ بُدًّا من أن يعصب الحليم التقي بذنب السفيه الجاهل، فكفُّوا أيها الناس سفهاءكم، قبل أن يشمل البلاء عوامَّكم، وقد ذُكِر لي أن رجالًا منكم يريد أن يظهروا في المصر بالشِّقاق والخلاف، وايمِ الله لا يخرجون في حيٍّ من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبَدْتُهم، وجعلتهم نكالًا لمن بعدهم، فنظر قومٌ لأنفسهم قبل الندم، فقد قُمت هذا المقام إرادة الحُجَّة والإعذار**"، ثم نزل، وبعث إلى رؤساء الناس فدعاهم، ثم قال لهم: "**إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم، وقد قُلْتُ ما قد سمعتم، فليَكْفِني كل امرئ من الرؤساء قومَه، وإلا فوالذي لا إله غيره لأتحولنَّ عما كنتم تعرفون إلى ما تنكرون، وعمَّا تحبُّون إلى ما تكرهون، فلا يلم لائم إلا نَفْسَه، وقد أُعذر من أنذر**".

٣- زياد بن أبيه:

وُلِد زياد في عام الهجرة أو قبله بقليلٍ، وأمُّه جارية فارسيَّة اسمها سُميَّة، كانت للحارث بن كلدة الثقفي الطبيب العربي المشهور، وقد اختُلِف في أبيه فقيل: إن

---

١ انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٨/ ٥٣).

٢ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٥/ ١٨٤- ١٨٥).

أباه كان عبدًا روميًّا يُدعَى عبيدًا، وقد ادَّعاه أبو سفيان، وتعدَّدت الروايات، والله أعلم، وعليه فقد نُسِب إلى أمِّه فسُمِّي بزياد ابن سُميَّة، وهناك من عرفه باسم زياد بن أبيه، ومن الواضح أنه منذ نشأته كان فطنًا ذكيًّا ذا بصيرةٍ، وافر الذكاء والمعرفة والحِنكة، مُتقنًا للكتابة والحساب، حازمًا صلبًا، سديد الرأي بعيدَ النَّظر، عالمًا بالسياسة، وقد عهد إليه عتبة بن عزوان بتسجيل غنائم الأُبلَّة وتقسيمها، وأوفده أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب فأُعجب بذكائه ومهارته ولكنَّه عزله، فقال: يا أمير المؤمنين؛ أعن عجزٍ أم عن خيانةٍ صرفتني؟ فقال: لا عن واحدةٍ منهما؛ ولكنِّي أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك.

وأقام زياد بالبصرة وقد عمل تحت إمرة أبي موسى الأشعري وعبد الله بن عامر وعبد الله بن عباس؛ يكتب لهم ويتولَّى بعض أعمالهم فيُبدي كفاءة ومهارة، وكان ابن عباس يستنيبه على البصرة حال غيابه، بل إن معاوية أثناء الفتنة حاول أن يُفسد البصرة على عليِّ بن أبي طالب ودسَّ فيها بعض أنصاره من تميم فثاروا فيها إلا أنَّ زياد أبدَى حنكة ومهارة سياسية فائقة، واستجار بالأزد فأعانوه فوقع الخُلف بينهم وبين تميمٍ ففسدت المؤامرة، وما لبث أن أعانه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بمددٍ ردَّ البصرة إلى الطاعة، ثم استعمله علي بن أبي طالب على كرمان من بعض نواحي فارس وكانت قد اضطربت أمورها وامتنع بعض أهلها عن أداء الخراج، فسار إليها وضبط أمورها وأبدى في إدارته حزمًا وكفاءةً ودهاءً، وبعث إلى رؤسائهم يُمنِّي من أطاع ويتوعَّد من عصى وأخذ يضرِبُ القبائل ببعضها ويدلُّهم على عورات بعض فانشغلوا بالصراع فيما بينهم فاستقامت أمور فارس وصفت له، وقد حاول معاوية أن يستميله إليه ولكنَّه فشل وبقيَ على طاعة عليٍّ ثم ولده الحسن رضي الله عنهما.

ولما تنازل الحسن عن الخلافة واجتمعت الكلمة على معاوية؛ احتبس زياد عنه حينًا ولكن معاوية أخذ يلِين ويتلطَّف له؛ لِعلِمه بفضله وكفاءته وأنَّه لا غِنَى عنه في استصطلاح العراق، وتوسَّط بينهما المغيرة بن شعبة أمير الكوفة فقَبِل زياد واستأمن على نفسه ووفد على معاوية فأكرمه، ولما فسدت أمور العراق

واضطربت أحوالها وكثرت فيه فتن الخوارج قرر معاوية أن يولّيه على البصرة وأضاف إليه خراسان وسجستان، فقدمها زياد وخطب في أهلها خطبة عنيفة فوبَّخهم وعنَّفهم وأخذهم بالتهديد والوعيد وأقام فيهم زمنًا وقد أخذهم بالشدَّة والحزمِ وساقهم بعصاه ونشر الرعب بينهم وطبَّق الأحكام العرفية وعاقب على الظِّنَّة وأخذ البريء بذنب الجاني، والمطيع بوزر العاصي، وقتل منهم نفرًا، وفرض حظر التجوال ليلًا فكان يُرسل شرطته بعد العشاء يقتل من يلقاه أيًّا كان، فنشر الرعب في أهلها وقد كان عنيفًا غليظًا رابط الجأش، أسرف في القتل ولم يتورَّع عن سفك الدم، فهابه الناس واستكانوا وهدأت الفتن وصفت له الأمور، حتى لَيُروَى أن الشيء كان يسقط من يد صاحبه في الطريق فلا يأخذه أحد حتى يأتي صاحبه فيعود إليه ويأخذه، وكانت فيه سياسية ومهارة وبُعد نظر، وكان يستعين في عمله بعدد من صحابة الرسول ﷺ مثل أنس بن مالك وسمرة بن جندب وعمران بن حصين وعبد الرحمن بن سمرة.

ولمَّا رأى معاوية كفاءته ومهارته وحزمه في ضبط أمور البصرة أضاف إليه الكوفة بعد وفاة واليها المغيرة بن شعبة، فكان أوَّل من جُمِع له الكوفة والبصرة، وأضاف إليه كذلك السند والبحرين وعمان فأقام على العراقَيْن وما ألحق إليه من ولايات زمنًا يديرها بحزم ومهارة إلى أن توفِّيَ بالطاعون عام ٥٣هـ/٦٧٣م[١].

وكان زياد في كفاءته وسياسته لا يُؤخذ عليه غير إفراطه في سفك الدم حتى قال فيه الحسن البصري: أوعد عمر فعُوفِيَ، وأوعد زيادٌ فابتُلِيَ؛ وقال: تشبَّه زياد بعمر فأفرط، وتشبَّه الحجاج بزياد فأهلك الناس[٢]؛ وقال فيه عبد الله بن عمر ابن الخطاب: أذهب إليك ابن سميَّة؛ فلا الدنيا بقيت لك، ولا الآخرة أدركت[٣]؛ وكان إذا وعد أنفَذَ سواء أكان خيرًا أم شرًّا

---

١ انظر ترجمة زياد في: تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، طبعة دار العلم للملايين، بيروت- لبنان (١/ ٣٨٧)، وتاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، طبعة دار المعارف، (٤٢٢/٢- ٤٢٤).

٢ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٤٣).

٣ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٥/ ٢٨٩).

وكان زياد بجانب مهارته السياسية وحزمه وكفاءته؛ خطيبًا مفوَّهًا لا يُبارَى في خطابته وبلاغته؛ فقد كان قوي الأسلوب حسن السبك فخم اللفظ، يميل إلى الإطناب ومزاوجة العبارات، وتمتاز خطبه بإصابة المعنى بأكثر من وجه، وتمتاز كذلك بجودة اللفظ وحُسن إختياره له، وفي خُطَبِه حدَّة وعنف وجرأة ورباطة جأش وميل إلى التهديد والوعيد؛ لأنه كان يخطب عادة في بيئةٍ معادية لبني أميَّة مليئة بالمتمرّدين وأرباب العصيان، وأسلوبه أسلوب خطابي قوي واضحُ الهدف، عنيف الطبع، شديد اللهجة، قال عنه الشعبي: ما سمعت متكلِّمًا على منبر قط تكلَّم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفًا أن يسيء؛ إلا زيادًا فإنَّه كُلَّما أكثر؛ كان أجوَدَ كلامًا[1]

وأشهر خُطَبِه على الإطلاق خطبته البتراء؛ وقد سُمِّيت كذلك لأنه لم يبدأ بالتحميد والثناء على الله روسوله كعادة الخطبة في الإسلام، وقصَّتها أن أحوال البصرة قد فسدت بسبب لِين واليها الحارث بن عبد الله الأزدي، فولَّى معاوية زيادًا مكانه، فقَدِمها وخطب فيهم خطبةً عنيفةً قال فيها[2]: "**أما بعدُ: فإنَّ الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغي الموفِي بأهله على النار؛ ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام، يَنبُت فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعدَّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول، أتكونون كمن طرفت عينَه الدنيا، وسدَّت مسامعَه الشهواتُ، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تُسبَقوا إليه؛ مِن تركِكُم للضعيف يُقهَر ويؤخذ مالُه؟! هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة، في النهار المبصر، والعددُ غيرُ قليل، ألم يكن منكم نُهاةٌ، تمنعُ الغُوَاةَ عن دَلَج الليل، وغارةِ النهار؟! قربتم القرابة، وباعدتم الدِّين، تعتذرون بغير العذر، وتُغْضُون على المختلس، كل امرئ**

---

١ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٤٣).
٢ انظر: المصدر السابق (٢/ ٤٠- ٤٣).

منكم يذبُّ عن سفيهه، صنيع من لا يخاف عاقبةً ولا يرجو معادًا، ما أنتم بالحلماء، ولقد اتَّبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم، كُنُوسًا في مكانسِ الرِّيب، حرامٌ عليَّ الطَّعام والشَّراب حتى أسوِّيها بالأرض هَدْمًا وإحراقًا.

إني رأيتُ آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوَّله، لِينٌ في غير ضعفٍ، وشدَّةٌ في غير عنفٍ، وإنّي أقسم بالله لآخذن الوليَّ بالمولَى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسَّقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه، فيقول: انجُ سعدٌ فقد هلك سعيدٌ؛ أو تستقيم لي قناتكم، إن كذب المنبر بَلْقَاء مشهورة، فإذا تعلَّقتم عليَّ بكذبةٍ فقد حلَّت لكم معصيتي، فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيَّ، واعلموا أن عندي أمثالها، من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه، فإياي ودلجَ الليل؛ فإنّي لا أُوتَى بمدَّلج إلا سفكت دمه، وقد أجَّلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبرُ الكوفةَ ويرجع إليكم، وإياي ودعوَى الجاهلية؛ فإنّي لا أجد أحدًا دعا بها إلا قطعت لسانه، وقد أحدثتم أحداثًا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنبٍ عقوبة، فمن غَرَّق قومًا غرَّقناه، ومن أحرق قومًا أحرقناه، ومن نقب بيتًا نقَّبنا عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفناه حيًّا فيه، فكفُّوا عني أيدكم وألسنتكم؛ أكفُفْ عنكم يدي ولساني، ولا تظهر من أحد منكم ريبةٌ بخلاف ما عليه عامَّتكم إلا ضربت عنقه، وقد كانت بيني وبين أقوام إحن؛ فجعلت ذلك دَبْرَ أذني وتحت قدمي، فمن كان منكم محسنًا فليزدَدْ إحسانًا، ومن كان منكم مُسِيئًا فلينزع عن إساءته، إنّي لو علمتُ أن أحدكم قد قتله السُّلُّ مِن بغضي لم أكشف له قناعًا، ولم أهتك له سترًا، حتى يبدي لي صفحته، فإذا فعل ذلك لم أناظره، فاستأنفوا أموركم، وأعينوا على أنفسكم، فرُبَّ مبتئسٍ بقدومنا سيُسرُّ، ومسرورٍ بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس؛ إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوَّلنا، فلنا عليكم السمع

والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولِينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا، واعلموا أنّي مهما قصَّرْتُ عنه؛ فلن أقصِّر عن ثلاث: لستُ محتجبًا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقًا بليلٍ، ولا حابسًا عطاء ولا رزقًا عن إبانة، ولا مجمرًا لكم بعثًا، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم؛ فإنهم ساستكم المؤدِّبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم، فيشتدَّ لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا له حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرًّا لكم، أسأل الله أن يعين كلًّا على كلٍّ، وإذا رأيتموني أُنْفِذُ فيكم الأمر، فأنفِذُوه على إذلاله، و ايم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي".

فقام إليه عبد الله بن الأهتم فقال: **أشهد أيَّها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب**؛ فقال له: **كذبت، ذاك نبيُّ اللهِ داود صلوات الله عليه**؛ فقام الأحنف ابن قيس فقال: **إنَّما الثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، و إنا لن نثني حتى نَبتلِي**؛ فقال له زياد: **صدقت**؛ فقام أبو بلال مرداس أحد الخوارج وهو يهمس ويقول: **أنبأنا الله بغير ما قلت؛ قال الله تعالى: (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ)**[1]! وأنت تزعم أنك تأخذ البريء بالسقيم، والمطيع بالعاصي، والمقبل بالمدبر؛ فسمعها زياد، فقال: **"إنَّا لا نبلغ ما نريد فيك وفي أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضًا"**.

وتلك الخطبة من أبلغ الخطب في العصر الأموي، وتُعَدُّ آية في البلاغة والبيان؛ لِما فيها من إصابة المعنى و ترادف العبارة وجودة اللفظ بمنتهى الدقة، وهي لا تخلو من الوعيد والتهديد والترهيب والترغيب والحزم، نجح فيها زياد في أن يوقع بكلامه في نفوس الناس ما أوقعه من الرهبة والخوف، وهي خطبة جديرة بالدراسة والتَّأمُّل لأنَّها حافلة بالعديد من المعالم البلاغية.

---

١ سورة النجم: ٣٧- ٣٩.

ويُروَى أنه لمَّا أضيفت له الكوفة مع البصرة وفد إليها وخطب في أهلها قائلًا[1]: **"إن هذا الأمر أتاني وأنا بالبصرة، فأردت أن أشخَصَ إليكم في ألفين من شرطة البصرة، ثم ذكرت أنَّكم أهل حقٍّ، وأنَّ حقكم طالما دفَع الباطل، فأتيتكم في أهل بيتي؛ فالحمد لله الذي رفع منِّي ما وضع الناس، وحفِظ منِّي ما ضيعوا".**

ويُروَى أنهم حصبوه إثر تلك الخطبة، فجمع رجاله وحصرَهم وأمر أن يُقتَل كل من لا يحلف أنَّه لم يحصبه، فقتَل منهم نفرًا.

ومن حسن قوله[2]: **"استوصوا بثلاثة منكم خيرًا: الشريف والعالم والشيخ؛ فوالله لا يأتيني شيخٌ بشابٍّ قد استخفَّ به إلا أوجعته، ولا يأتيني عالمٌ بجاهلٍ استخفَّ به إلا نكلت به، ولا يأتيني شريفٌ بوضيعٍ استخفَّ به إلا انتقمت له منه".**

٤- المهلَّب بن أبي صفرة:

وُلد المهلب نحو عام الفتح، وهو من قبيلة الأزد، وكان من أبرع قادة عصره وأحسن ولاتهم، كان كريمًا حسن السيرة وكان فارسًا شجاعًا، اشترك في فتوح الهند زمن معاوية، وكان أميرًا على خراسان لعبد الله بن الزبير، ولمَّا اشتد خطر الخوارج على العراق والبصرة استعمله عليها وكلَّفه بحرب الخوارج الأزارقة فقاتلهم تحت لواء الزُّبيريين أوَّلًا، ولمَّا زالت دانت العراق للأمويين دخل في ولاء بني أمية وقاتل الخوارج تحت لوائهم وظل يقاتلهم وأعانه الحجاج بن يوسف أمير العراق بالجند والمدد، ودارت عدة معارك دامية استمرَّت أعوامًا طويلة، إلى أن وقع الخلف بين الخوارج ونجح في الظفر عليهم وقتل كبيرهم قطري ابن الفجاءة، فعظمت منزلته عند الحجاج وعند بني أمية وعلا نجم قومه من المهالبة، وما إن فرغ من حرب الخوارج حتى ولاه الحجاج على خراسان فقام

---

١ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٥/ ٢٣٤- ٢٣٥).
٢ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٩٩).

بعدَّة غزوات من جانب بلاد الترك، توفِّيَ عام ٨٢هـ، وخلَفَه على خراسان وقيادة أسرته يزيد بن المهلب وكان كأبيه شجاعًا مقدامًا، ولكنَّه لم يكن مثله في الحِلم والحنكة؛ إذْ ما لبث أن اختلف مع الحجاج ومع بني أمية فعُزل واعتُقِل إلى أن ثار هو نفسه على بني أمية فقتلوه عام ١٠٢هـ/٧٢٠م، وقُتِل من آل المهلب معه من قُتِل.

وكان المهلَّب خطيبًا بارزًا؛ بحكم موقعه كقائد للجيش، مطلوب من أن يحمِّس جنوده ويدفعهم إلى القتال والجلَد، لذا كان في خطابته قدر من الحماسة، فضلًا عن روعة البيان وتمام المعنى وحُسن البلاغة, قال مرَّةً يحمِّسُ جنده لقتال الخوارج الأزراقة؛ **"احذروا أن تُكادوا كما تَكِيدون، ولا تقولوا: هُزِمنا وغُلِبنا؛ فإنَّ القوم خائفون وجِعُون، والضرورة تفتح باب الحيلة"**، ثم قام فيهم خطيبًا فقال: **"يا أيها الناس؛ إنَّكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج، وأنَّهم إن قدروا عليكم فتنوكم في دينكم وسفكوا دماءكم، فقاتِلُوهم على ما قاتل عليه أوَّلهم علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، فقد لقيهم قبلكم الصابر المحتسب مُسلم بن عبيس، والعِجِل المفرّط عثمان بن عبيد الله، والمعصيُّ المخالَف حارثة بن بدر، فقاتلوا جميعًا وقُتِلوا، فالقوهم بجدٍّ وحدٍّ؛ فإنَّما هم مهنتكم وعبيدكم، وعار عليكم ونقص في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء على فيئكم، ويطؤوا حريمكم"**.

وفي يوم سولاف اندلعت حرب هائلة بين المهلب والخوراج وكان عليهم ابن الماجوز، فمالت كفَّة الخوارج وانهزم أصحاب المهلَّب وفرُّوا وبلغت الهزيمة أهل البصرة فخافوا السَّبي، فأخذ المهلَّب ينادي المنهزمين ويقول: إليَّ إليَّ عباد الله؛ فثاب إليه جماعة وأخذ يحرِّضهم على إعادة الكرة فاجتمع بهم وخطب قائلًا بعدما حمد الله وأثنى عليه؛ **"أَمَّا بَعْدُ، فإنَّ اللَّه ربَّما يَكِل الجمع الكثير إلى أنفسهم فيُهزَمون، ويُنزِل النصر على الجمع اليسير فيَظهَرون، ولَعَمري مَا بكم**

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ٢٢٧).

٢ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٥/ ٦١٨- ٦١٩).

الآن من قلَّة، إني لجماعتكم لَراضٍ، وإنَّكم لأنتم أهل الصبر، وفرسان أهل المصر، وما أحبُّ أنَّ أحدًا ممَّن انهزم معكم؛ فإنَّهم لو كَانُوا فيكم مَا زادوكم إلا خبالًا، عزمتُ على كل امرئ منكم لما أخذ عشرة أحجار مَعَهُ، ثُمَّ امشوا بنا نحو عسكرهم، فإنهم الآن آمنون، وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم، فوالله انى لأرجو ألا ترجع إليهم خيلهم حتى تستبيحوا عسكرهم".

وبالفعل أعاد المهلب الكرة وجدَّد الاشتباك مع الخوارج فانكسروا هذه المرة وقُتِل قائدهم عبيد الله بن الماحوز.

٥- الحجَّاج بن يوسف الثقفي:

وُلد الحجَّاج بن يوسف الثقفي في الطائف نحو عام ٣٩ أو ٤٢هـ/٦٥٧ أو ٦٦٠م، في أسرة متواضعة، وكان اسمه كليبًا، فسمَّى نفسه بالحجَّاج، ونشأ على تعليم الصبيان القرآن الكريم، فتفقَّه فيه ونهل منه، وكان لبيبًا فصيحًا حافظًا للقرآن، إلا أنه كان متطلِّعًا إلى القيادة، فترك تعليم الصبيان وغادر الطائف إلى الشام وكانت تحت سلطان الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي إبَّان الفتنة، فالتحق بجنده وأعجب به روح بن زنباع قائد جند عبد الملك؛ لجلَدِه وسطوته على الجند، فقدَّمه إلى عبد الملك الذي أُعجب به هو الآخر ورأى فيه رجلًا يصلح لصعاب الأمور؛ لِما أحسَّه فيه من عنف وسطوة تصلُح مع سياسته، فقرَّبه إليه وقدَّمه، وأثبت كفاءته فرافقه في حرب مصعب بن الزبير حتَّى قُتل مصعب ودان العراق للأمويين وعاد إلى الشام، حينها أرسله على رأس جيش كثيف إلى الحجاز للقضاء على عبد الله بن الزبير، فسار الحجاج إلى مكة وأخذ يهزم بعوث ابن الزبير حتى حاصر مكة حصارًا خانقًا نحو سبعة شهور لم يتورَّع فيها عن قصف مكة وضرب الكعبة بالمجانيق حتى اجتاح مكة وقتل ابن الزبير عام ٧٣هـ/ ٦٩٢م، فدان الحجاز للأمويين، وولَّاه عبد الملك على الحجاز زمنًا، لكنه كان فظًّا غليظَ القلب فكثرت الشكاوي ضدَّه، وفي الوقت نفسه كان الخوارج قد ظهروا في بلاد فارس وأخذوا يتهدَّدون العراق فكثرت الاضطرابات والفتن، فعزل عبد الملك

الحجاج عن الحجاز وولَّاه العراق بدلًا منه، فقدمها الحجاج وخطب في أهلها خُطبًا عنيفة ودفع الناس إلى قتال الخوارج الأزارقة مع المهلَّب بن أبي صفرة دفعًا حتى نجح في القضاء على الخوارج الأزارقة، ثم قضى على ثورات الخوارج الصفرية بقيادة شبيب الشيباني بعد كفاح مرير، وما لبث أن قمع الفتن وأخمد جميع الثورات حتى استتبت له الأمور واستقرت الأوضاع، وحمل أهل العراق على طاعة بني أمية فرضي عنه عبد الملك ووسَّع ولايته وضم له خراسان وفارس والسند والبحرين بجانب العراق.

بعدها تفرَّغ الحجاج للفتوحات؛ فاستعمل قتيبة بن مسلم على خراسان ومحمد بن القاسم الثقفي على السند، فحدثت في عهد الوليد بن عبد الملك فتوحات واسعة في بلاد الهند والسند وطخارستان وخوارزم وفرغانة وما وراء النهر، فخضع ملك الترك واضطر حاكم الصين إلى دفع الجزية، وقام الحجاج بعدَّة إصلاحات داخلية، فاختطَّ مدينة واسط واهتمَّ بالخراج وحفر الآبار ووحَّد المكاييل والمقاييس ودوَّن الدواوين وصكَّ العملة، واعتنى بالقرآن الكريم وفي عهده نُقِّطَت حروفه، وتُوفِّي الحجاج عام ٩٥هـ/٧١٥م بعدما قمع الفتن وأخمد الثورات وترك دولة مستقرة هادئة تدين بالولاء لبني أميَّة.

كان الحجاج سياسيًا قديرًا وقائدًا محنَّكًا بصيرًا ذا حزم ودهاء، وكان عالمًا بالقرآن، ولكنَّه كان على الجانب الآخر قاسيًا غليظًا سفَّاكا للدماء جريئًا على المحرمات لم يتورَّع عن قصف مكة ورمي الكعبة، حتى إنه لما سأله عبدالملك عن صفته قال: يا مولاي؛ إني رجلٌ لجوجٌ حقودٌ حسودٌ؛ وقال عنه عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أُمَّةٍ بخبيثها وجئنا بالحجَّاج لغلبناهم؛ ورُوِي أنه قتل الكثيرين بإسراف وكان يشتهي المُثْلَةَ وقطْع الرؤوس وإرسالها، وكان آخر من قتل هو الفقيه سعيد بن جبير؛ قتله لمناصرته ثورة ابن الأشعث، وهو مع هذا لم يخلُ من الفضائل، وقد ترك مآثر من فتوح وإصلاح وتوطيد ولكن صورته كطاغية ظلَّت هي الماثلة بسبب إسرافه في سفك الدم.

وكان الحجاج إلى جانب قدراته القيادية خطيبًا مفوَّهًا بارعًا؛ فقد بدأ حياته معلِّمًا للقرآن قبل أن ينخرط في السياسة، فأورثه ذلك علمًا ولغةً وبلاغةً، فضلًا عن انخراطه في عالم السياسة والحروب، فصار ماهرًا في الخطابة السياسية، وكان فصيحًا ذا موهبةٍ في البلاغة والبيان وإن أُخِذ عليه لحن في حالات نادرة فإن هذا لم ينفِ عنه موهبته الخطابية والبيانية حتى لا نَرى خطيبًا سياسيًّا في زمن بني أمية من هو أبلغ وأروع بيانًا من الحجاج وزياد بن أبيه، وكان الحجَّاج متمكِّنا من أصول لغته، عالمًا بمكامن أسرارها وألفاظها، وذا قدرة على حشد الصور البيانية التي لا تخلو من التهويل وبث الرعب، وكان أهل عصره يقارنونه بفصاحته وبلاغته بالحسن البصري.

وتمتاز خُطب الحجاج بقوَّة الأسلوب وفخامة اللفظ ومتانة التركيب والترادف بين العبارات مع قصرها، بالإضافة إلى إيقاعٍ موسيقيٍّ في جُمَلِه، وقد يدفعه ميله إلى ترادف ومزاوجه العبارات إلى السجع عفوًا في بعض الأحيان، فضلًا عن تأثُّره الواضح ببلاغة القرآن؛ سواء أكان اقتباسًا مباشرًا أم استلهامًا؛ وهذا بسبب علمِه بالقرآن وتعليمه إياه للصبية أول حياته، وربَّما اقتبس من الشعر والأمثال، ممَّا يدل على اتساع علمه وثقافته، فضلًا عن دقة في المعنى ومهارة في اختيار اللفظ وجودته، وميله إلى التغريب أحيانًا؛ حيث كانت خطب الحجاج تحمل ثروة لفظية هائلة، ويمتاز الحجاج بإتقانه إصابة المعنى في إطار من حسن الرصف وروعة السبك، مع ميل إلى الاسترسال والإطناب، وكانت في خطبه حدَّة وعنفٌ في السياق، فكان يكثر من الترهيب والتهديد والوعيد ويظهر على خطبه طابع الانفعال والصَّخب مع عاطفة من الغضب بلا لين ولا شفقة، وهي بلاغة جديرة بالدراسة والتأمل والوقوف على أسرارها ومكامنها؛ لأنها حملت ثروة لفظية وبلاغية وعدَّة معانٍ يطول الحديث فيها.

ومن أشهر خطبه تلك التي خطبها في الكوفة أول ولايته على العراق، وكان قد قدم الكوفة ملثَّمًا بعمامة حمراء وجلس على المنبر ساعة لا يكلمه أحد، حتى إذا اجتمع الناس في المسجد كشف اللثام عن وجهه وقال[1]:

أنـــا ابـــنُ جَـــلا وطـــلَّاعُ الثَّنايـــا متَـــى أضـــعِ العَمامـــةَ تَعرِفُـــوني

يا أهل الكوفة؛ أما -واللهِ- إني لأحمل الشرَّ بحمله، وأحْذُوه بنعلِهِ، وأجزِيه بمثلِه، وإني لأرى أبصارًا طامحة، وأعناقًا متطاولة، ورؤوسًا قد أينعت وحان قطافُها، وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بن العمائم واللِّحَى تترقرق.

هـــذا أوانُ الشَّـــدِّ فاشـــتدِّي زِيَـــمْ قَـــدْ لَفَّهـــا اللَّيـــلُ بِسَـــوَّاقٍ حُطَـــمْ
لـــيسَ بِراعـــي إبِـــلٍ ولا غَـــنَمْ ولا بِجَـــزَّارٍ علَـــى ظَهْـــرِ وَضَـــمْ

قَـــدْ لفَّهـــا اللَّيـــلُ بعصـــلبيّ أروَعَ خـــرَّاجٍ مِـــنَ الـــدَّوِّيّ
مهـــــاجرٍ لـــــيسَ بـــــأعرابيّ[2] [3]

قـد شـمَّرتْ عـن سـاقِها فشُـدُّوا وجـــدَّتِ الحـــربُ بِكُـــم فجِـــدُّوا
والقَـــوسُ فيهـــا وَتَـــرٌ عُـــرَّدُّ مِثـــلُ ذِراعِ البَكْـــرَ أو أشَـــدُّ
لا بـــدَّ ممَّـــا لـــيس مِنـــهُ بُـــدُّ

إني -واللهِ- يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، ما يقعقع لي بالشَّنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين، ولقد فُرِرْتُ عن ذكاء، وفُتِّشْتُ عن تجربة، وجربت إلى الغاية القصوى، وإن أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرَّها عودًا، وأصلبها مكسرًا فرماكم بي؛ لأنكم طالما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغِيّ، أما واللهِ لألحونَّكم لحو العصا، ولأقرعنَّكم قرع

---

[1] انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٢١٠- ٢١٢)؛ و"ابن جلا" أي: واضح؛ والبيت لسحيم ابن وثيل.

٢ البيت لرويشد بن رميض العنبري.

٣ العصلبي: الشديد القوي. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/ ٦٠٨).

المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل؛ فإنكم لكأهل قريةٍ (كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)[1]

وإني -واللهِ- لا أعِدُ إلا وفيتُ، ولا أهمُّ إلا أمضيتُ، ولا أخلَقُ إلا فَرَيْتُ، فإياي وهذه الشفعاء، والزرافات والجماعات، وقالًا وقيلًا، وما تقول؟ وفيم أنتم وذاك؟

أما -واللهِ- لتستقيمُنَّ على طريق الحق، أو لأدَعَنَّ لكلِّ رجلٍ منكم شغلًا في جسده، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلَّب بن أبي صفرة، وإنّي أقسم بالله لا أجد رجلًا تخلَّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله".

وخطب مرة في أهل البصرة إثر موقعتي الزاوية ودير الجماجم التي هزم فيها عبد الرحمن بن الأشعث وأخمد فتنته فقال[2]: "يا أهل العراق؛ إن الشيطان قد استبطنكم، فخالط اللحم والدم والعصب، والمسامع والأطراف، والأعضاء والشغاف، ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرَّخ، فحاشكم نفاقًا وشقاقًا، وأشعركم خلافًا، اتخذتموه دليلًا تتبعونه، وقائدًا تطيعونه، ومؤامرًا تستشيرونه، فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وقعة، أو يحجزكم إسلام، أو ينفعكم بيان؟! ألستم أصحابي بالأهواز حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، واستجمعتم للكفر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفي، وأنتم تتسلَّلون لواذًا، وتنهزمون سراعًا؟! ثم يوم الزاوية، وما يوم الزاوية؟! بها كان فشلكم وتَنازُعُكم وتخاذُلُكم، وبراءة الله منكم، ونكوص وليِّكم عنكم إذْ ولَّيتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطانها، لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه، حتى عضكم

---

[1] سورة النحل: ١١٢.

[2] انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٩٤- ٩٥).

السلاح، وقصمتكم الرماح؛ ثم يوم دير الجماجم، وما يوم دير الجماجم؟! بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله، يا أهل العراق، والكفرات بعد الفجرات، والغدرات بعد الخترات، والنزوات بعد النزوات؛ إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون حسنة، ولا تشكرون نعمة، هل استخفَّكم ناكث، أو استغواكم غاوٍ، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع إلا تبعتموه وآويتموه ونصرتموه وزكيتموه؟! يا أهل العراق؛ هل شغب شاغب، أو نعب ناعب، أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه و أنصاره؟! يا أهل العراق؛ ألم تنهكم المواعظ، ألم تزجركم الوقائع؟!".

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر فقال: **"يا أهل الشام؛ إنَّما أنا لكم كالظليم الرَّامح عن فراخه، ينفي عنها المدر، ويباعد عنها الحجر، ويكنُّها من المطر، ويحميها من الضباب، ويحرسها من الذئاب، يا أهل الشام؛ أنتم الجُنَّة والرِّداء، و أنتم العدَّة والحذاء".**

ورغم أن الحجاج قد غلب على خطابته الطابع السياسي بحكم منصبه؛ فإنه كانت له أيضًا خطب وعظية؛ منها قوله[1]: **"أيَّها النَّاس؛ اقدعوا هذه الأنفس؛ فإنَّها أسألُ شيءٍ إذا أُعطيَتْ، وأمنعُ شيءٍ إذا سُئلَتْ، فرحم الله أمرأً جعل لنفسه خِطامًا وزِمامًا فقادها بخِطامها إلى طاعة الله، وعطَفها بزِمامها عن معصية الله، فإنّي رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه".**

وهكذا كان الحجاج في خطبه السياسية يبعث بالذهول في نفس المستمع، ينهال عليه تهديدًا وترهيبًا، ويعمد إلى ضروب من العوامل الإرهابية فيبث القوة فيما يقول ويفعل، مع إغراب بدوي -أحيانًا- في اللفظ والعبارة[2].

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (١/ ١٣١).
٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (ص٣٣٣- ٣٣٤).

٦- قتيبة بن مسلم الباهلي:

هو قُتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين الباهلي[١] كان من سادة الأمراء وخيارهم ومن القادة والولاة الشجعان، وقد استعمله الحجاج بن يوسف على خراسان بعد تنحية آل المهلب زمن الوليد بن عبد الملك، فأقام فيها واليًا زمنًا، وقد اتَّصف بالكفاءة والشجاعة وفي عصره حدثت فتوحات واسعة؛ حيث عبر نهر جيحون وافتتح ما وراء هذا النهر من البلدان وحقَّق على الترك عدة انتصارات، وضم إلى مُلك الإسلام مساحات واسعة في نواحي بخارى وطشقند وطخارستان وسمرقند وخوارزم وكابل وفرغانة، ووصل إلى حدود الصين التي اضطر ملكها إلى دفع الجزية، وظلَّ في سَعة ومنعة إلى أن حرَّضه الحجاج على تأييد عزل سليمان ابن عبد الملك عن ولاية العهد فدخل معه في هذا لكن توفِّيَ الحجاج وتوفِّي الوليد ولم تفلح محاولة عزل سليمان؛ الذي آلت إليه الخلافة بعد وفاة أخيه، فهابه قتيبة على نفسه وخشي انتقامه، فعزم على خلع سليمان وترك طاعته وحرَّض أهل خراسان على ذلك فلم يجيبوه، فأنَّبهم ووبَّخهم، ثم ما لبث أن قُتِل عام ٩٩هـ/٧١٧م.

وقد حُفِظت له بعض الخطب الرائعة التي تمتاز بعلوِّ نبرة الحماسة؛ كونه كان قائدًا ومحاربًا، وخُطَبُه تتَّصف بلفظ عذب وميل إلى الإطناب أحيانًا مع ترادف العبارة وظهور السجع عفوًا، بالإضافة إلى الاقتباس من القرآن الكريم.

ومن بين خُطَبِه التي خطبها وقد اعتزم غزو طخارستان[٢] **"إنَّ الله أحلَّكم هذا المحل ليُعزَّ دينه، ويذبَّ بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضة، والعدو وقمًا[٣] ووعد نبيَّه ﷺ النصر بحديث صادق، وكتاب ناطق، فقال: (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ)[٤]؛ ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب، وأعظم**

---

١ انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٩/ ١٩٠).
٢ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٦/ ٤٢٤).
٣ وقمًا: ذلًا. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٢/ ٦٤٢).
٤ سورة الصف: ٩.

الذخر عنده، فقال: (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)[1] ثم أخبر عمَّن قُتل في سبيله أنَّه حيٌّ مرزوق، فقال: (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)[2] فتنجَّزوا موعود ربكم، ووطِّنوا أنفسكم على أقصى أثر، وأمضى ألم، وإيَّاكم والهوينى".

وخطب مرَّة في أهل خراسان يحرِّض على خلع سليمان بن عبد الملك، فأخذ ينال ممَّن سبقه من الولاة فقال:[3] "يا أهل خراسان؛ قد جرَّبتم الولاة قبلي، أتاكم أميَّة[4] فكان كاسمه أميَّة الرأي، وأميَّة الدِّين، فكتب إلى خليفته: إنَّ خراج خراسان وسجستان لو كان في مطبخه لم يَكْفِه؛ ثم أتاكم بعده أبو سعيد[5] فدوَّخ بكم البلاد، لا تدرون أفي طاعة الله أنتم أم في معصيته، ثم لم يجبِ فيئًا، ولم ينكأ عدوًّا، ثم أتاكم بنوه بعده، مثل أطِّباء الكلبة؛ منهم ابن الرحمة[6] حصان يضرب في عانةٍ، ولقد كان أبوه يخافه على أمَّهات أولاده، ثم أصبحتم وقد فتح الله عليكم البلاد، وأَمَّن لكم السُّبُل، حتَّى إنَّ الظعينة لتخرج من مروٍ إلى سمرقند في غير جوار".

---

١ سورة التوبة: ١٢٠.

٢ سورة آل عمران: ١٦٩.

٣ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٩١- ٩٢).

٤ يعني أمية بن عبد الله الأموي أحد ولاة خراسان زمن عبد الملك قبل أن تضاف الولابة إلى الحجاج، فوليها من قبله المهلب.

٥ أبو سعيد: كنية المهلب.

٦ ابن الرحمة: يعني يزيد.

٧- خالد بن عبد الله القسري:

هو خالد بن عبد الله بن يزيد القسري، أحد أهم وأبرز سادة اليمنية، كان سيّدًا مطاعًا في قومه وكان ذا وجاهة ورأيٍ سديد وصاحب سياسة ودراية بالأمور، ولَّاه الوليد بن عبد الملك على مكة والحجاز، وظلَّ واليًا على الحجاز في عهد الوليد وسليمان، ثم ولَّاه أخوهما هشام بن عبد الملك على العراق مطلع خلافته فأقام على ولاية العراق خمس عشرة سنة وأضاف إليه خراسان والسند، وكان ذا سياسة وحنكة وإدارة، وظلَّ على مكانته حتى دبَّت الوشاية بينهما فعزله هشام بيوسف بن عمر الثقفي الذي حبسه وعذَّبه حينًا ثم أطلقه بعفوٍ من هشام، وارتحل خالد إلى دمشق فأقام بها بجوار هشام بن عبد الملك حتى توفِّيَ وخلفه ابن أخيه الوليد الفاسق الذي طلب من خالد أن يبايع لطفليه على ولاية العهد، فأبَى عليه فحبسه وسلَّمه إلى خصمه اللَّدود يوسف بن عمر الذي عذَّبه في سجنه حينًا حتى قتله عام ١٢٦هـ/٧٤٤م، فكان جزاؤه القتل رغم ولائه الطويل لبني أميَّة.

وكان خالد خطيبًا مفوَّهًا، على لحنٍ كان فيه، وكان إذا تكلَّم ظن النَّاس أنه يصنع الكلام لعذوبة لفظه وبلاغة منطقه، ومِن بين خطبه يدعو أهل مكة إلى الطاعة[١] **"يا أيها النَّاس؛ إنَّكم بأعظم بلاد الله حُرمة، وهي التي اختار الله من البلدان فوضع بها بيته، ثم كتب على عباده حجَّه، من استطاع إليه سبيلًا.**

أيَّها الناس؛ عليكم بالطاعة، ولزوم الجماعة، وإياكم والشُّبهات؛ فإنّي -واللهِ- ما أوتى بأحدٍ يطعن على إمامه إلا صلبته في الحرم، إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها، فسلِّموا وأطيعوا، ولا تقولوا كَيْتَ وكَيْتَ؛ إنه لا رأي فيما كتب به الخليفة أو رآه إلا إمضاؤه، واعلموا أنَّه بلغني أن قومًا من أهل الخلاف يَقْدَمُون عليكم، ويقيمون في بلادكم، فإيَّاكم أن تُنزِلوا أحدًا ممَّن تعلمون أنه زائغٌ عن الجماعة؛ فإنّي لا أجد أحدًا منهم في منزل أحد منكم إلا

---

[١] انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٦/ ٤٦٤).

هدمت منزله، فانظروا من تُنزِلون في منازلكم، وعليكم بالجماعة والطاعة؛ فإنَّ الفُرقة هو البلاء العظيم".

وخطب ذات مرة يحث على مكارم الأخلاق، فصعد المنبر بواسط وقال بعدما حمد الله وصلَّى على نبيّه ﷺ: **"أيَّها الناس؛ نافِسُوا في المكارم، وسارعوا إلى المغانم، واشتروا الحمد بالجُود، ولا تكسبوا بالمَطْل ذمًّا، ولا تعتدُّوا بالمعروف ما لم تعجِّلوه، ومهما يكن لأحدٍ منكم عند أحدٍ نعمةٌ فلم يبلغْ شكرها؛ فالله أحسن لها جزاء، وأجزل عليها عطاء، واعلموا أنَّ حوائج الناس إليكم، نعمة من الله عليكم، فلا تملُّوا النِّعم فتحوّلوها نِقَمًا. واعلموا أنَّ أفضل المال ما أكسَبَ أجرًا، وأورَثَ ذكرًا، ولو رأيتم المعروف رجلًا رأيتموه حسنًا جميلًا يسرُّ الناظرين، ولو رأيتم البخل رجلًا رأيتموه مشوَّهًا قبيحًا تنفر عنه القلوب، وتغضي عنه الأبصار.**

أيَّها الناس؛ إنَّ أجودَ الناس من أعطى من لا يرجوه، وأعظم الناس عفوًا من عفا عن قدرة، وأوصل الناس من وصل من قطعه، ومن لم يطِبْ حرثُه، لم يزكُ نبتُه، والأصول عن مغارسها تنمو، وبأصولها تسمو، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم".

وكان خالد القسري قد مدح الحجاج في خطبةٍ له ثم جاء إليه كتاب من الخليفة سليمان بن عبد الملك يأمره بسبِّ الحجَّاج والبراءة منه، فخطب وقال[1]: **"إنَّ إبليس كان ملكًا من الملائكة، وكان يُظهِر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له بذلك فضلًا، وكان الله تعالى قد علم مِن غشِّه ما خفيَ عن الملائكة، فلمَّا أراد الله فضيحته؛ ابتلاه بالسجود لآدم، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم فلعنوه. وإن الحجَّاج كان يُظهِر من طاعة أمير المؤمنين ما كنَّا نرى له بذلك فضلًا، وكان الله -عزَّ وجلَّ- أطلع أمير المؤمنين من غلِّه وخبثه على ما خفيَ**

---

١ انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (١٠/ ٢٠).
٢ انظر: زهر الآداب وثمر الألباب، القيرواني (٢/ ٣٩٧- ٣٩٨).

عنَّا، فلمَّا أراد الله فضيحته؛ أجرَى ذلك على يَدَيْ أمير المؤمنين، فالعنوه، لعنه الله".

ثالثًا: خطباء الخوارج

(حيان بن ظبيان- المستورد بن علفة- صالح بن مسرح التميمي- الزبير بن علي- أبو حمزة الخارجي)

١- حيَّان بن ظبيان السلمي:

هو واحد من قادة الخوارج وأمرائهم، شهد النهروان ضد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجُرِح فيها ثم عُوفِيَ منه، فسكن حينًا ثم خرج إلى الرَّيِّ في رجال على مذهبه، فلمَّا استشهد عليٌّ؛ دعا أصحابه وعاود الثورة وأقام بالكوفة حتى بعث معاوية المغيرة بن شعبة واليًا عليها، فاضطر لمغادرتها، وله زمن معاوية عدة وقائع إلى أن قُتِل عام ٥٨هـ/٦٧٧م.

وكان حيَّان من خطباء الخوارج المفوَّهين، وفي خطبه نبرة خماسة عالية مع عاطفة دينية لمذهبه الذي آمن به، مع براعة في رصف الجمل واقتباس من القرآن الكريم، ومن خطبه ما قاله بعدما انتهى إليه نبأ موت علي بن أبي طالب؛ إذْ قال بعدما حمد الله وأثنى عليه[١]: "**أيها الإخوان من المسلمين؛ إنَّه قد بلغني أن أخاكم ابن مُلجم أخا مراد قعد لقتل عليِّ بن أبي طالب عند أغباش الصبح، مقابل السدة التي في المسجد؛ مسجد الجماعة، فلم يبرح راكدًا ينتظر خروجه، حتى خرج عليه حين أقام المقيم الصلاة صلاة الصبح، فشدَّ عليه فضرب رأسه بالسيف، فلم يبق إلا ليلتين حتى مات**"، ثم قال لأصحابه يدعوهم للعودة إلى الكوفة: "**إنَّه -واللهِ- ما يَبقى على الدهر باقٍ، وما تلبث الليالي والأيام والسنون والشهور على ابن آدم، حتى تُذيقه الموت، فيفارق الإخوان الصَّالحين، ويدَعَ الدُّنيا التي لا يبكي عليها إلا العَجَزة، ولم تزل ضارَّة لمن كانت له همًّا وشجنًا، فانصرِفوا بنا -رحمكم الله- إلى مِصرنا، فلنأتِ**

---

١ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٥/ ١٧٣).

إخواننا، فلندْعُهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلى جهاد الأحزاب؛ فإنَّه لا عُذر لنا في القعود، ووُلاتُنا ظلَمة، وسنَّة الهدى متروكة، وثأرُنا الذين قَتلوا إخواننا في المجالس آمنون، فإن يظفرنا الله بهم نعمد بعدُ إلى التي هي أهدَى وأرضَى و أقوَم، ويشفي الله بذلك صدورقوم مؤمنين، وإن نُقتل فإن في مفارقة الظالمين راحةً لنا، ولنا بأسلافنا أسوة".

ومن خطبه يحرض أصحابه على القتال، ويَظهر هنا تأثُّره بالقرآن الكريم واقتباسه منه؛[1] **"أمَّا بعدُ: فإنَّ الله -عزَّ وجلَّ- كتب علينا الجهاد، فمنَّا من قضى نحبه، ومنَّا من ينتظر، وأولئك الأبرار الفائزون بفضلهم، ومن يكن منَّا ينتظر فهو من سلفنا القاضين نَحْبَهم، السَّابقين بإحسان، فمن كان منكم يريد الله وثوابه؛ فليسلك سبيل أصحابه وإخوانه، يؤتِه الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله مع المحسنين".**

ومن خطبه أيضًا في سياق التحريض على القتال:[2] **"يا قوم؛ إن الله قد جمعكم لخير، وعلى خير، والله الذي لا إله غيره ما سررت بشيء قط في الدنيا بعدما أسلمتُ؛ سروري لمخرجي هذا على الظَّلَمة الأثمة، فواللهِ ما أحب أن الدنيا بحذافيرها لي، وأن الله حرمني في مخرجي هذا الشهادة، وإني قد رأيت أن نخرج حتى ننزل جانب دارجرير، فإذا خرج إليكم الأحزاب ناجزتموهم".**

٢-المستورد بن علفة:

هو واحد من أمراء الخوارج وقادتهم وممن ثاروا علَى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وممَّن نجا من القتل في موقعة النهروان، ولما مات عليٌّ وتنازل الحسن واستقام الأمر لمعاوية؛ عاود الثورة والتفَّت حوله فئة من الخوارج، فأرسل له المغيرة بن شعبة أمير الكوفة من قِبل معاوية جيشًا لقتاله بقيادة معقل ابن قيس الرياحي، فدارت بينه وبين أصحاب المستورد وقائع مهولة كاد معقل أن

---

١ انظر: المصدر السابق (٥/ ٣٠٩- ٣١٠).
٢ انظر: المصدر السابق (٥/ ٣١١).

ينهزم لكنَّه ثبت ثباتًا رائعًا، ثم إن المستورد دعا معقلًا إلى البراز فخرج إليه وتبارزا فقَتَلَ كلٌّ منهما صاحبه ثم حمل أصحاب معقل على من بقيَ من الخوارج فانتصروا انتصارًا مؤزَّرًا، وكان ذلك عام ٤٣هـ/ ٦٦٣م[1].

وكان المستورد قد خطب قبيل هذه الواقعة قائلًا[2]: **"أما بعدُ: فإن هذا الخرف معقل بن قيس قد وجه إليكم، وهو من السبئية[3] المفترين الكاذبين، وهو لله ولكم عدو؛ فأشيروا عليَّ برأيكم"**، فأشار عليه البعض بالإقامة والقتال، وأشار آخرون الاعتزال والتَّنحِّي، فقال: **"يا معشر المسلمين؛ إني -واللهِ- ما خرجْتُ ألتمس الدنيا، ولا ذِكرها، ولا فخرها، ولا البقاء، وما أحب أنَّها لي بحذافيرها، وأضعاف ما يتنافس فيه منها بقبال نعلي، وما خرجت إلا التماس الشهادة، وأن يهديني الله إلى الكرامة، بهوان بعض أهل الضلالة، وإنِّي قد نظرت فيما استشرتكم فيه، فرأيت أن لا أقيم لهم حتى يقدموا عليَّ وهم حامون متوافرون؛ ولكن رأيت أن أسير حتَّى أمعن؛ فإنهم إذا بلغهم ذلك خرجوا في طلبنا، فتقطَّعوا وتبدَّدوا، فعلى تلك الحال ينبغي لنا قتالهم، فاخرجوا بنا على اسم الله عزَّوجلَّ"**.

٣- صالح بن مسرح التميمي:

هو أحد أمراء الخوارج الصُّفرية وكان فارسًا ذا نجدةٍ وبأسٍ شديدٍ كثير العبادة والصوم، ثار أوَّل مرة في بلاد الجزيرة وأرمينيا، فأرسل واليها محمد بن مروان لقتاله جيشًا من ألف مقاتل فهزمهم ابن مسرح هزيمة فادحة، فأرسل لهم جيشًا آخر من ثلاثة آلاف مقاتل وكان مع صالح نحو مئة نفس أو يزيد فدار قتال عنيف وتمكَّن آخر الأمر من إقصائهم عن الجزيرة، فانحاوزا إلى العراق فأرسل لهم الحجَّاج بن يوسف الحارث بن عميرة في ثلاثة آلاف فنجحوا في

---

١ انظر: المصدر السابق (٥/ ٢٠٦- ٢٠٧).

٢ انظر: المصدر السابق (٥/ ١٩٣).

٣ السبئية: أنصار عبد الله بن سبإ اليهودي رأس الفتنة التي استشهد فيها عثمان بن عفان رضي الله عنه.

كسر الخوارج وقُتل صالح نحو عام ٧٦هـ/٦٩٥م، وخلفه على القيادة شبيب الشيباني الذي كان مثله في الجرأة والشجاعة والتقوى والجلَد والبأس، فقاتل بضراوة وهزم بعث الحارث بن عميرة ودخل الكوفة مرَّتين ودخل مع الحجاج في وقائع دامية كبَّد جيوشه فيها خسائر متوالية، إلى أن جدَّ الحجاج في قتاله فهلك غرقًا في النهر نحو عام ٧٧هـ/٦٩٦م

ولصالح بن مسرح خطبٌ بليغة تمتاز أيضًا بالنبرة الحماسية التي عُرف بها خطباء الخوارج، فضلًا عن ظهور أثر التديُّن في خطابته وأثرِ الاقتباس من القرآن الكريم، وقدرته الفائقة على الإقناع وربط جهاده بالثواب والأجر والتذكير بالآخرة، وحسن اختيار اللفظ ومزاوجة العبارات والميل أحيانًا إلى الاسترسال والسجع، ومن خطبه قوله:[1] **"ما أدري ما تنتظرون، وحتى متى أنتم مقيمون؟! هذا الجور قد فشا، وهذا العدل قد عفا، ولا تزداد هذه الولاة على الناس إلا غُلُوًّا وعُتُوًا، وتباعدًا عن الحق، وجرأة على الرَّبِّ، فاستعِدوا، وابعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكار الباطل والدعاء إلى الحق مثل الذي تريدون؛ فيأتوكم فنلتقي، وننظر فيما نحن صانعون، وفي أي وقت إن خرجنا نحن خارجون".**

وقال في خطبة أخرى:[2] **"اتقوا الله عباد الله، ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس إلا أن يكونوا قومًا يريدونكم وينصبون لكم؛ فإنكم إنما خرجتم غضبا لله؛ حيث انتهكت محارمه، وعُثِيَ في الأرض، فسُفِكت الدماء بغير حلِّها، وأُخِذت الأموال بغير حقِّها، فلا تعيبوا على قومٍ ثم تعملوا بها، فإن كل ما أنتم عاملون، أنتم عنه مسؤولون، وإن عِظْمَكم رَجَّالة، وهذه دواب لمحمد بن مروان في هذا الرستاق، فابدؤوا بها فشُدُّوا عليها، فاحملوا أرجلكم، وتَقَوَّوْا بها على عدوِّكم".**

---

[1] انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٦/ ٢١٨).
[2] انظر: المصدر السابق (٦/ ٢١٩- ٢٢٠).

وفي خطبة أخري يعظ ويحرض على الجهاد وعدم الخوف من الموت، ويذكِّر بالجنة والآخرة، وهو يفصح فيها عن عقيدته ورأيه بأبي بكر وعمر ثم بعثمان وعليٍّ؛ إذْ يقول[1]: **"(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)[2]؛ اللهم إنا لا نعدل بك، ولا نحفِد إلا إليك، ولا نعبد إلا إياك، لك الخلق والأمر، ومنك النفع والضر، وإليك المصير، ونشهد أن مُحَمَّدًا عبدُك الذي اصطفيتَه، ورسولُك الذي اخترتَه وارتضيته لتبليغ رسالاتك، ونصيحة عبادك، ونشهد أنه قد بلغ الرسالة، ونصح للأمَّة، ودعا إلى الحق، وقام بالقسط، ونصر الدِّين، وجاهد المشركين، حتى توفاه الله ﷺ.**

أوصيكم بتقوى الله، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، وكثرة ذكر الموت، وفراق الفاسقين، وحب المؤمنين؛ فإنَّ الزهادة في الدنيا ترغِّب العبد فيما عند الله، وتفرِّغ بدنه لطاعة الله، وإنَّ كثرة ذكر الموت يخيف العبد من ربِّه حتى يجأر إليه، ويستكين له، وإن فراق الفاسقين حقٌّ على المؤمنين، قال الله في كتابه (وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ)[3] وإنَّ حُبَّ المؤمنين للسبب الذي تُنال به كرامة الله ورحمته وجنته، جعلنا الله وإيَّاكم من الصادقين الصابرين، ألا إنَّ من نعمة الله على المؤمنين أن بعث فيهم رسولًا من أنفسهم، فعلمهم الكتاب والحكمة وزكَّاهم وطهرهم ووفَّقهم في دينهم، وكان بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا، حتَّى قبضه الله، صلوات الله عليه، ثم وَلِيَ الأمر من بعده التقي الصديق على الرِّضا من المسلمين، فاقتدى بهديه، واستنَّ بسُنَّته، حتى لحق بالله -رحمه الله- واستخلف عمر، فولَّاه الله أمر هذه الرعية، فعمل بكتاب الله، وأحيا سنَّة رسول الله، ولم يَحنق في الحق على جرته، ولم يَخَفْ في الله لومة لائم، حتى لحق به رحمة الله عليه، ووَلِيَ

---

١ انظر: المصدر السابق (٦/ ٢١٦- ٢١٧).
٢ سورة الأنعام: ١.
٣ سورة التوبة: ٨٤.

المسلمين من بعده عثمان، فاستأثر بالفيء، وعطَّل الحدود، وجار في الحكم، واستذلَّ المؤمن، وعزَّز المجرم، فسار إليه المسلمون فقتلوه، فبرئ الله منه ورسوله وصالح المؤمنين، ووَلِيَ أمر الناس مِن بعده علي بن أبي طالب، فلم ينشب أنْ حكَّم في أمر الله الرجال، وشكَّ في أهل الضلال، وركن وأدهن، فنحن مِن عليٍّ وأشياعه براء، فتيسَّروا -رحمكم الله- لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة، وأئمة الضلال الظَّلَمة، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء، واللِّحاق بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة، وأنفقوا أموالهم التماس رضوان الله في العاقبة، ولا تجزعوا من القَتْلِ في الله؛ فإنَّ القتل أيسر من الموت، والموت نازلٌ بكم غير ما ترجم الظنون، فمفرِّقٌ بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم، وان اشتد لذلك كرهكم وجزعكم، ألا فبيعوا الله أنفسكم طائعين وأموالكم تدخلوا الجنة آمنين، وتعانقوا الحور العين، جعلنا الله وإيَّاكم من الشاكرين الذاكرين، الذين يهدون بالحق وبه يعدلون".

٤- الزبير بن علي:

هو قائد من قادة الخوارج الأزراقة، وقد اجتمعوا عليه بعد مصرع قائدهم ابن الماحوز في بعض حروبه، وقد رأى الزبير بن عليٍّ انكسار أتباعه وضَعْفَهم فأمرهم بالاجتماع وخطب فيهم يحمسهم في خطبة يحرض فيها على القتال، في سياق ديني واقتباس من القرآن الكريم، فقال بعدما حمد الله وصلَّى على نبيِّه[1]: **"إنَّ البلاء للمؤمنين تمحيصٌ وأجر، وهو على الكافرين عقوبة وخزي، وإن يُصب منكم أمير المؤمنين؛ فما صار إليه خير ممَّا خلف، وقد أصبتم منهم مُسلم بن عبيس، وربيعًا الأجذم، والحجَّاج بن باب، وحارثة بن بدر[2]**

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ٢٣٦- ٢٣٧).

٢ ابن عبيس والربيع بن عمرو الأجذم والحجاج وحارثة بن بدر من القادة الذين قتلوا وهم يحاربون الخوارج.

وأشجبتم المهلَّب، وقتلتم أخاه المعارك، والله يقول لإخوانكم من المؤمنين: (إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ[1] وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ)! فيوم سلى كان لكم بلاء وتمحيصًا، ويوم سولاف[2] كان لهم عقوبة ونكالًا؛ فلا تُغْلَبُنَّ على الشكر في حينه، والصبر في وقته، وثِقوا بأنكم المستخلَفون في الأرض، والعاقبة للمتَّقين".

٥- أبو حمزة الخارجي:

هو المختار بن عوف بن سلمان الأزدي، من متأخري قادة الخوارج؛ حيث ثار برفقة عبد الله بن يحيى نحو عام ١٣٠هـ/٧٤٧م فاستولى على اليمن، فاستقر بها ابن يحيى ثم زحف هو شمالًا فاستولى على مكة ودخل المدينة وطرد منها عامل بني أمية عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وقتَل منهم نفرًا ممَّن حاربوه، وبسط سلطانه على الحجاز، فأرسل له مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميَّة جيشًا تمكَّن من هزيمته وقمع ثورته، فقُتل أبو حمزة الخارجي وما لبث أن طرد أهل المدينة أنصاره واستعاد بنو أميَّة الحجاز واليمن.

ومن خلال ما وصلنا من خُطَبِه ندرك أن أبا حمزة كان خطيبًا موهوبًا، وقد خطب مجموعة من الخُطَب تمتاز بطابع الحدِّة التي تصل أحيانًا إلى القسوة والعنف، ممَّا يدل على فرط تطرُّفه وعِظم نقمته على من رآهم ابتعدوا عن رُوح الإسلام وتعاليمه، وفي خطبه ميل إلى الإطناب والاسترسال والمزاوجة بين العبارات، والجرأة والصرامة وعلوّ نبرة الانفعال في كلامه، وهي حافلة بمظاهر التَّديُّن والاقتباس من القرآن الكريم، ممَّا يُشير إلى عمق عقيدته الراسخة، ومن خُطبه ما قاله عند دخوله المدينة يذمُّهم ويوبِّخهم لقتالهم إياه قائلًا بعدما حمد

---

١ سورة آل عمران: ١٤٠.

٢ يوم سلى من أيام الخوارج، قُتِل فيه ابن الماحوز، ويوم سولاف سبق ذكره في ترجمة المهلب.

الله وأثنى عليه؛ "**يا أهل المدينة؛ سألناكم عن ولاتكم هؤلاء، فأسأتم -لَعَمرُ الله- فيهم القول، قلتم والله ما فيهم الذي يعلم، أخذوا المال من غير حلِّه فوضعوه في غير حقِّه، وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله، واستأثروا بفيئنا فجعلوه دُولًا بين الأغنياء منهم، وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا في مهور النساء وفروج الإماء، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم، وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله؛ نناشدهم الله أن يتنحوا عنَّا وعنكم؛ ليختار المسلمون لأنفسهم؛ فقلتم: لا يفعلون؛ فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم نقاتلهم؛ فإن نظهر نحن وأنتم نأتِ بمن يقيم فينا وفيكم كتاب الله وسنَّة نبيِّه محمد ﷺ؛ فقلتم: لا نقوى على ذلك؛ فقلنا لكم: فخلُّوا بيننا وبينهم؛ فإن نظفر نعدل في أحكامكم، ونحملكم على سنَّة نبيِّكم ﷺ، فيئكم بينكم؛ فأبيتم وقاتلتمونا دونهم، فقاتلناكم وقتلناكم، فأبعدكم الله وأسحقكم**"[1].

وخطب مرَّة في أهل المدينة وقد بلغه أنهم يعيبون أصحابه، فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه؛ "**تعلمون يا أهل المدينة أنَّا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرًا ولا بطرًا ولا عبثًا، ولا لدولة مُلك نريد أن نخوض فيه، ولا لثأر قديم نيل منَّا؛ ولكنَّا لما رأينا مصابيح الحق قد عُطِّلت، وعُنِّف القائل بالحق، وقُتِل القائم بالقسط؛ ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعيًا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، فأجَبْنا داعي الله (وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)[2] أقبلنا من قبائل شتى، النفر منا على بعير واحد عليه زادُهم وأنفسهم، يتعاورون لحافًا واحدًا، قليلون مستضعفون في الأرض، فآوانا وأيَّدنا بنصره، فأصبحنا -واللهِ- جميعًا بنعمته إخوانًا، ثم لقينا رجالكم**

---

١ انظر:جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان، (٤٦٧/٢)

٢ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٧/ ٣٩٤- ٣٩٥).

٣ سورة الأحقاف: ٣٢.

بقديدٍ، فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان، فشتَّان لَعَمْرُ الله ما بين الرُّشْدِ والغيّ، ثم أقبلوا يهرعون يزفُّون، قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه، وغلت بدمائهم مراجله، وصدَّق عليهم إبليس ظنَّه، و أقبل أنصار الله -عزَّوجلَّ- عصائب وكتائب، بكل مهنَّدٍ ذي رونق، فدارت رحانًا واستدارت رحاهم، بضرب يرتاب منه المبطلون، و أنتم يا أهل المدينة، إن تنصروا مروان وآل مروان يُسحتكم الله -عزَّوجلَّ- بعذاب من عنده أو بأيدينا، ويشفِ صدور قوم مؤمنين. يا أهل المدينة؛ أوَّلكم خير أوَّلٍ وآخركم شرُّ آخِرٍ، يا أهل المدينة؛ الناس منَّا ونحن منهم، إلا مشركًا عابد وثن، أو مشرك أهل الكتاب، أو إمامًا جائرًا، يا أهل المدينة؛ من زعم أن الله -عزَّوجلَّ- كلَّف نفسا فوق طاقتها، أو سألها ما لم يُؤتِها؛ فهو لله -عزَّوجلَّ- عدو، ولنا حرب، يا أهل المدينة؛ أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله عزَّ وجلَّ في كتابه على القوي والضعيف، فجاء تاسع ليس له منها ولا سهم واحد، فأخذها جميعها لنفسه، مكابرًا محاربًا لربِّه، يا أهل المدينة؛ بلغني أنكم تنتقصون أصحابي، قُلتم: شباب أحداث، وأعراب جفاة!! ويلكم يا أهل المدينة، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابًا أحداثًا؟! شبابٌ -واللهِ- مكتهلون في شبابهم، غضيَّةٌ عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا الله -عزَّ وجلَّ- أنفسًا تموت بأنفس لا تموت، قد خالطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مروا بآية خوفٍ شهقوا خوفًا من النار، وإذا مرُّوا بآيةٍ شوق شهقوا شوقًا إلى الجنة، فلمَّا نظروا إلى السيوف قد انتضيت والرماح قد شرعت، وإلى السِّهام قد فُوِّقَت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت؛ استخفُّوا وعيد الكتيبة لوعيد الله عزَّوجلَّ، ولم يستخفُّوا وعيد الله لوعيد الكتيبة، فطوبى لهم وحسن مآب. فكم من عينٍ في منقار طائرٍ طالما فاضت في جوف الليل من خوف الله عزوجل، وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها في سجوده لله، وكم من خدٍّ عتيقٍ وجبين رقيقٍ فُلِق بعمد الحديد!!.

رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخَلَ أرواحها الجنان، أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا، وما توفيقي إلا بالله عليه توكَّلت وإليه أنيب".

وأبو حمزة في خُطبه شديد القسوة، شديد العنف، شديد النقمة على من رآهم ابتعدوا عن صحيح الإسلام، يحفل بالصراحة والجرأة والاستماتة، وهو شديد الانفعال، تتوثَّب عباراته توثُّبًا وتنطلق أفكاره انطلاقًا حافلًا بالعاطفة الحية النابضة، وهو صادق في عاطفته إلى أقصى حدود الصدق، يصدر كلامه عن عقيدة قوية راسخة[1].

<<

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، طبعة دار التقوى (٣٤٢/١).

رابعًا: خطباء الزُّبيريين

(عبد الله بن الزُّبير- مُصعب بن الزُّبير)

١- عبد الله بن الزُّبير:

هو أبو خُبيب عبد الله بن الزُّبير بن العوَّام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ابن قصي بن كلاب، يجتمع نسبه مع نسب النَّبيِّ في قُصي بن كلاب سيِّد مكة، كان أبوه الزُّبير بن العوَّام من السابقين إلى الإسلام من الصحابة ومن المبشَّرين بالجنة، وأمُّه أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنهما، وهو أوَّل مولود للمهاجرين بعد الهجرة، روَى عن النَّبيِّ ﷺ وعن أبيه الزُّبير وعن بعض الصحابة، وقد اشترك في الفتوحات الإسلامية زمن عثمان ومعاوية، وكان ممَّن شهد أوَّل محاولةٍ لحصار القسطنيطينية، ولما اشتعلت الفتنة بعد استشهاد عثمان كان ممن اختلفوا مع علي بن أبي طالب وشهد ضدَّه موقعة الجمل التي استشهد أبوه في أحداثها، ولمَّا اعتزم معاوية البيعة لابنه يزيد بالخلافة من بعده كان ابن الزُّبير من ضمن من رفض البيعة مع الحُسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن أبي بكر وعبد الله بن عمر بن الخطاب، فلمَّا قضى معاوية نَحْبَه وآلت الخلافة ليزيد؛ كان ابن أبي بكر قد توفِّيَ، بينما بايع عبد الله بن عمر، أما الحُسين فقد ثار على يزيد وطلب الخلافة لنفسه وما لبث أن قُتل -رضي الله عنه- في موقعه كربلاء المشؤومة، وأما ابن الزبير فقد ظلَّ على تمرُّدِه حتى مات يزيد واستعفى معاوية ولده، فادَّعى الخلافة لنفسه عام ٦٤هـ/ ٦٨٣م، وتَسَمَّى بأمير المؤمنين، وبايعته جميع الأمصار بعد فراغ السلطة الأموية في الشام، ودانت له الأقطار باستثناء دمشق التي بويع فيها مروان بن الحكم الأموي، ورغم أن مروان لم تكن بيده غير دمشق وحدها مع بعض نواحي الأردن فقد استطاع أن يحقِّق عدة انتصارات على أنصار عبد الله بن الزبير فاستعاد الشام ومصر،

وما لبث أن خلفه ولده عبد الملك بن مروان فاستعاد العراق وفارس والحجاز، ثم قُتِل عبد الله بن الزبير في مكة بعد حصار دام أشهرًا عام ٧٣هـ/٦٩٢م.

كان عبد الله بن الزبير صوَّامًا قوَّامًا قارئًا لكتاب الله، متَّبِعًا لسُنَّة النَّبيّ ﷺ، ولكنَّه لم يكن سائسًا مُحنَّكًا ولم يكن في قدر سياسة عبد الملك ودهائه؛ فقد كانت بيده كل الأمصار ما عدا دمشق ومع هذا فشل في القضاء على تلك الثغرة التي أخذت تتَّسع حتى أخذ سلطانه في التَّقلُّص إلى أن انتهى وقُتل، وكان مُمسكًا في النفقة ولا يحسن استمالة الناس إليه.

وتُروَى لابن الزُّبير عدة خطب ومناظرات؛ منها مناظرة مع الخوارج دافع فيها عن عثمان دفاعًا قويًّا، ومن بين خطبه ما قاله غضبًا لمقتل الحُسين -رضي الله عنه- قائلًا بعدما حمد الله وأثنى عليه:[1] **"إن أهل العراق غُدُرٌ فُجُرٌ إلا قليلًا، وإن أهل الكوفة شرارُ أهلِ العراق، وإنَّهم دعوا حسينًا لينصروه ويولُّوه عليهم، فلمَّا قدم عليهم ثاروا إليه، فقالوا له: إمَّا أن تضع يدك في أيدينا، فنبعث بك إلى ابن زياد بن سميَّة سِلْمًا، فيُمضِيَ فيك حُكمَه، وإما أن تحارب؛ فرأى -واللهِ- أنه هو وأصحابه قليل في كثير -وإن كان الله عَزَّ وَجَلَّ لم يُطْلِع على الغيب أحدًا- أنه مقتول، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة، فرحم الله حسينًا، وأخزَى قاتل حسين، لَعَمري لقد كان من خلافهم إيَّاه وعصيانهم ما كان في مثله واعظٌ وناهٍ عنهم، ولكنه ما حُمَّ نازلٌ، وإذا أراد الله أمرًا؛ لن يُدفع.**

أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم، ونصدِّق قولهم، ونقبل لهم عهدًا؟! لا، ولا نراهم لذلك أهلًا، أما -واللهِ- لقد قتلوه، طويلًا بالليل قيامُه، كثيرًا في النهار صيامُه، أحق بما هم فيه منهم، وأولى به في الدِّين والفضل، أما -والله- ما كان يبدِّل بالقرآن الغناء، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام شرب الحرام، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في تطلاب الصيد" -يعرِّض بيزيد- **"فسوف يلقون غيًّا".**

---

١ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٥/ ٤٧٤- ٤٧٥).

ولما بلغه نبأ استشهاد أخيه مُصعب وخذلان أهل العراق له بعدما خانوه وتركوه وحيدًا حتى قُتل؛ خطب قائلًا[1]: **"الحمد لله الذي له الخلق والأمر، وملك الدنيا والآخرة، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممَّن يشاء، ويعزُّ من يشاء، ويذل من يشاء، أمَّا بعدُ: فإنَّه لم يُعِزَّ اللهُ من كان الباطل معه، وإن كان معه الأنام طرًّا، ولم يُذِلَّ من كان الحقُّ معه وإن كان مفرَدًا ضعيفًا، ألا وإنه قد أتانا خبرٌ من العراقِ بلد الغدر والشقاق، فساءنا وسرَّنا، أتانا أن مصعبًا قُتِلَ، رحمة الله عليه ومغفرته؛ فأمَّا الذي أحزننا من ذلك؛ فإنَّ لفراقِ الحميم لذعةً ولوعةً يجدها حميمُه عند المصيبة، ثم يرعوِي من بعدُ ذو الرَّأي والدِّين إلى جميل الصبر وكريم العزاء، وأما الذي سرَّنا منه فإنَّا قد علمنا أنَّ قتْلَه شهادة له، وأنه -عَزَّوَجَلَّ- جاعلٌ لنا وله في ذلك الخيرة إن شاء الله تعالى.**

أسلمه الطغام، الصُّمُّ الآذان، أهل العراق؛ إسلام النَّعَمِ المُخَطَّمة، وباعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه، فإن يُقتل فقد قُتِل أبوه وعمُّه وأخوه، وكانوا الخيار الصالحين، إنَّا -واللهِ- لا نموت حتف آنافنا؛ ولكن قعصًا بالرماح، وموتًا تحت ظلال السيوف، وليس كما يموت بنو مروان، واللهِ ما قُتل منهم رجل في زحفٍ في جاهليَّةٍ ولا إسلامٍ قطُّ؛ ألا وإنَّما الدنيا عاريةٌ من المِلك القهَّار الذي لا يزول سلطانه، ولا يَبِيد ملكه، فإن تُقبل الدُّنيا عليَّ لم آخذها أخذ الأشر البطر، وإن تُدبر عنِّي لم أبكِ عليها بكاء الخرق المهين. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم".

وقد انطوت خُطَب عبد الله بن الزبير على حسن السبك وجودة اللفظ وترادف العبارة، مع الميل إلى الإطناب، ووجود نفحات وآثار التديُّن والتَّقوى في خطبه.

---

[1] انظر: المصدر السابق (٦/ ١٦٦).

٢- مصعب بن الزبير:

هو أخو عبد الله بن الزُّبير، كان ذا شجاعة وبأس ومن أحسن الناس وجهًا وجُودًا، ولَّاه أخوه عبد الله على البصرة ثم أضاف إليه الكوفة، ونجح في القضاء على ثورة المختار بن أبي عبيدالثقفي في الكوفة وبعث برأسه إلى أخيه، واستقرت له الأمور لمدَّة قصيرة؛ إذْ ما لبث أن أقبل عبد الملك بن مروان بجيشه من الشام عام ٧١هـ/٦٩٠م، وكان قد نجح في استمالة بعض رجاله واشترى ذممهم بالمال فرجَّحوا كِفَّته عليه وتعرَّض مُصعب للخيانة ممَّن كان يعوّل عليهم، فقُتِل.

وقد خَطب مصعب مطلع ولايته على البصرة قائلًا بعدما حمد الله وأثنى عليه، مستشهدًا بآياتٍ من القرآن[١]: (**طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**)[٢]؛ وأشار بيده نحو الشام: (**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**)[٣] وأشار بيده نحو الحجاز: (**وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ**)[٤] وأشار بيده نحو العراق.

---

[١] انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٢٠٥- ٢٠٦)؛ تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٦/ ٩٣).

٢ سورة القصص: ١- ٤.

٣ سورة القصص: ٥.

٤ سورة القصص: ٦.

خامسًا: خطباء آل البيت والشيعة

(الحسن بن علي- الحسين بن علي- محمد ابن الحنفيَّة- صعصعة ابن صوحان- المختاربن أبي عبيد الثقفي)

١- الحسن بن علي:

هو أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، وأمُّه فاطمة بنت محمد ﷺ، وهو أكبر أبناء أبيه وسِبْط النَّبيّ ﷺ, وُلد في النصف من رمضان في العام الثالث للهجرة، ويُروَى أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يحبُّه كثيرًا فيحمله ويُجلسه على فخذه، وربما ركب على ظهره وهو يُصلِّي فيُقِرُّه النَّبيُّ ﷺ ويُطيل السجود من أجله، وكان ذا منزلة عظيمة بين المسلمين، فإذا جلس بمسجد النَّبيّ ﷺ جاءه سادات الناس فحدَّثوه، وإذا طاف بالبيت مع أخيه الحسين ازدحم الناس عليهما، وكان عمر بن الخطاب قد رفعهما إلى درجة أهل بدر في العطاء، وكان وأخوه من المدافعين عن عثمان لمَّا حصره البغاة، وكان آيةً في الحِلم والدِّين والورع والفقه، ولمَّا استشهد أبوه عليٌّ -رضي الله عنه- اجتمع الناس حوله فبايعوه بالخِلافة عام ٤٠هـ/ ٦٦٠م وكانت بيده العراق وفارس والحجاز وجزيرة العرب، بينما بايع أهل الشام ومصر معاوية، وظل الحسن على ما هو عليه ستة أشهر وانضم له جيش قوامه أربعون ألف مقاتل لقتال معاوية، ولم يكن الحسن يريد قتالًا ولكنهم غلبوه على رأيه فخرج إلى الشام، وتأهَّب له معاوية، إلا أن الحَسن ظلَّ ميَّالا إلى السِّلم كارهًا لسفك الدم، وقد وثب عليه البعض من أهل العراق ولعلَّهم من الخوارج الذين اندسُّوا في جيشه فحاولوا قتله، فأدرك الحسن اختلافهم وأنَّ هؤلاء لا يُعوَّل عليهم، وزهد في السلطان وأرسل إلى معاوية يعرِض عليه الصُّلح والتنازل له عن الخلافة، فوافق معاوية وتم الصلح واجتمعت عليه كلمة الأمَّة في عام الجماعة ٤١هـ/٦٦١م بعد تنازُل الحسن؛

ليضرب الحسن بذلك مثلًا رائعًا في الزهد عن السلطان وحقن الدم، وكان فِعلُه هذا من دلائل النُّبوَّة؛ حيث ورد عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال[1]: **"ابني هذا سيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أن يُصلِح به بين فئتين من المسلمين"**.

وقد ظلَّ الحسن على منزلته ومكانته، وكانت علاقته حسنة بمعاوية إبان خلافته وكان يفد على معاوية فيحسن جائزته ويحفظ منزلته، إلى أن توفِّيَ عام ٤٩هـ/٦٦٩م[2].

وكان الحسن كأبيه خطيبًا بليغًا مفوَّهًا، أخذ عن أبيه قدرًا واسعًا من علمه وبلاغته وفصاحته، فكان ذا لفظ فخم وسبك حسن، يظهر على خطابته أثر التَّديُّن والعقل وحسن الرأي، غير أنَّه -بخلاف أبيه- كان أميَلَ إلى الإيجاز، ومن خُطَبِه في حياة أبيه يحرِّض على نُصرة أمير المؤمنين والخروج معه[3]: **"أيُّها الناس؛ أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم؛ فإنَّه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، واللهِ لأن يليه أولو النهى أمثَلُ في العاجلة، وخيرٌ في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا، وأعينونا على ما ابتُلِينا به وابتُلِيتم، وإنَّ أمير المؤمنين يقول: قد خرجت مخرجي هذا ظالمًا أو مظلومًا، وإنّي أذكِّر الله رجلًا رعى حق الله إلا نفَر، فإن كنت مظلومًا أعانني، وإن كنت ظالمًا أخذ مني، واللهِ إن طلحة والزبير لأوَّلُ من بايعني، وأول من غدَرَ، فهل استأثرتُ بمالٍ، أو بدَّلت حكمًا؟! فانفروا، فمُروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر"**.

ومِن خُطَبِه حينما استشهد أبوه وبويع بالخلافة[4]: **"لقد قتلتم الليلة رجلًا في ليلة فيها نزل القرآن، وفيها رُفِع عيسى ابن مريم عليه السَّلام، وفيها قُتِل يوشع بن نون فتى موسى عليهما السَّلام، واللهِ ما سبقه أحد كان قبله، ولا يدركه أحدٌ يكون بعده، واللهِ إن كان رسول الله ﷺ ليبعثه في السرية، وجبريل**

---

١ أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٢٠٤ برقم ٣٦٢٩).
٢ انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٨/ ٣٧).
٣ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٤/ ٤٨٥).
٤ انظر: المصدر السابق (٥/ ١٥٧).

عن يمينه، وميكائيل عن يساره، واللهِ ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا ثمانمائة - أو سبعمائة- درهم من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادمًا لأهله".

ولما بايع معاوية ودخلا معًا الكوفة؛ طلب منه معاوية أن يخطب في أهلها، فخطب بعدما حمد الله وأثنى عليه؛ **"أمَّا بعدُ أيها الناس: فإن الله قد هدى أوَّلكم بأوَّلنا، وحقن دماءكم بآخِرِنا، وكانت لي في رقابكم بيعة، تحاربون من حاربتُ، وتسالمون من سالَمتُ، وقد سالمتُ معاوية وبايعتُه، فبايِعوه، وإنَّ لهذا الأمر مدَّة، والدنيا دُوَل، وإن الله تعالى قال لنبيّه ﷺ: (وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ)[2]".**

٢- الحسين بن علي:

هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب، ثاني أولاد أبيه وأمُّه فاطمة بنت محمد ﷺ، وُلد في شعبان في العام الرابع للهجرة، وكان رسول الله ﷺ يحبُّه كثيرًا، وكان هو وأخوه يركبان ظَهْر النَّبيّ ﷺ وهو ساجد ويُجلِسُهما على فخذيه حينما كانا صغيرين، ولما تُوفي النَّبيُّ ﷺ كان عُمُرُ الحسين نحو سبع سنوات.

وكان الحسين في منزلة أخيه ومكانته، حتى توفِّيَ الحسن -رضي الله عنه- فصار إمام الطالبيّين وقائدهم، وكان بين الناس في منزلة عظيمة؛ كونه سبط رسول الله ﷺ، وكانت علاقته حسنة بمعاوية إلى أن قرَّر معاوية البيعة لولده يزيد بولاية العهد والخلافة من بعده، حينها اعترض الحُسين وكان ممَّن رفض المبايعة، ولما قضى معاوية نَحبَه عام ٦٠هـ/٦٧٩م وخلفه يزيد؛ ظلَّ الحسين على موقفه الرافض للبيعة، وما لبث أن جاءته كتب أهل العراق تطلب منه القدوم وتَعِده بالنُّصرة والبيعة له بالخلافة بدلًا من يزيد بن معاوية، فركب الحسين من الحجاز إلى العراق حتى يبايعه أنصاره بالخلافة كما وعدوه، ونصحه بعض الصحابة بالتَّمهُّل في قراره وحذَّروه مِن خذلان أهل العراق كما خذلوا أباه وأخاه

---

١ انظر: المصدر السابق (٥/ ١٦٣).
٢ سورة: الأنبياء: ١١١.

من قبلُ، لكنه لم يُصغِ إلى نصيحتهم وعزم على السير إلى العراق، حتى إذا ما وصل إلى كربلاء اكتشف أن بني أمية قد احتووا الفتنة وترضَّوا أهل الكوفة، فعلِم بخذلانهم وانخماد ثورته، واستقبله والي العراق عبيد الله بن زياد بجيشٍ كثيفٍ على رأسه عمر بن سعد بن أبي وقاص، وحينها علم الحسين بانخماد ثورته، وآثَر السَّلم والرجوع، ولكن الطغاة من خصومه أبَوْا عليه إلا أن ينزل على حكم يزيد ذليلًا مُهانًا، وأخذوا يحرِّضون ابن زياد على هذا أو المُضِي في قتله، وليس هذا بالشرط الذي يقبل به الحسين رضي الله عنه، فجرت في كربلاء موقعة غير متكافئة، استشهد فيها الحسين وعددٌ من رفاقه وآل بيته، وأحاط به البغاة فقتلوه واحتزُّوا رأسه ونهبوا ماله ومتاعه دون أدنى مراعاة لحرمة جدِّه النَّبيّ ﷺ، وكانت تلك الموقعة المشؤومة عام ٦١هـ/٦٨٠م، ويعتبر مقتله بالإضافة إلى واقعة الحرة من أعظم الكوراث التي حدثت في عهد بني أمية وألحقت بهم عارًا لا يُمحَى، ويُقال: إنهم لما أتوا برأسه إلى يزيد بن معاوية بكى وقال: كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين؛ وذلك لأن أباه كان قد أوصاه خيرًا بالحسين، لكن الطغاة من عُمَّاله غلبوه على أمره، وما لبث يزيد أن أكرم ولده علي بن الحسين ونساءه ومن بقيَ من أهله وردَّهم إلى المدينة مع رأس الحسين التي دُفِنَت بجوار أمه بالبقيع، ولا صحَّة لما رُوِيَ أن يزيد مثَّل برأسه أو أنها دُفِنت في مصر؛ وإنما هذا من الأكاذيب التي رُوِيَت زُورًا وبهتانًا، والصحيح ما ذكرناه.

وما انتهى إلينا من خُطَب الحسين يغلب عليه نبرة الحماسة وصفة التَّديُّن، وممَّا قاله -رضي الله عنه- غداة مقتله[1]: **"يا عباد الله؛ اتَّقوا الله، وكونوا من الدنيا على حذر؛ فإنَّ الدنيا لو بقيت على أحد، أو بقيَ عليها أحد؛ لكانت الأنبياء أحقَّ بالبقاء، وأَوْلَى بالرضاء، وأرضى بالقضاء، غير أن الله تعالى خلق الدنيا للفناء، فجديدها بالٍ، ونعيمها مضمحلٌّ، وسرورها مكفهرٌّ، والمنزل**

١ انظر: زهر الآداب وثمر الألباب، القيرواني (١/ ١٠٠).

تَلْعَة، والدار قُلْعَة، فتزوَّدوا فإنَّ خير الزاد التقوى، واتقوا الله لعلكم تفلحون".

ويُروَى أنه لما دنا منه جيش ابن زياد وقد اعتزموا قتله؛ قام خطيبًا يحاول إثناءهم عن عزمهم ويذكِّرهم بأنه ابن بنت رسول الله ﷺ، فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه وصلَّى على ملائكته وأنبيائه[1]: "**أما بعد؛ فانسبوني، فانظروا من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتِبوها، فانظروا هل يحلُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟! ألستُ ابنَ بنت نبيّكم ﷺ وابنَ وصيِّهِ وابنِ عمِّه وأوَّلِ المؤمنين بالله، والمصدِّقِ لرسوله بما جاء به من عند الله؟! أوليس حمزة سيد الشهداء عمَّ أبي؟! أوليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمِّي؟! أولم يبلغكم قولٌ مستفيضٌ فيكم أنَّ رسول الله ﷺ قال لي ولأخي: هذان سيِّدا شبابِ أهلِ الجنةِ؟! فإن صدقتموني بما أقول -وهو الحق- واللهِ ما تعمَّدْتُ كذبًا مذ علمتُ أنَّ الله يمقت عليه أهله، ويضرُّ به من اختلقه، وإن كذَّبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم؛ سَلُوا جابر بن عبد الله الأنصاري، أو أبا سعيد الخدري، أو سهل بن سعد الساعدي، أو زيد بن أرقم، أو أنس ابن مالك؛ يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لي ولأخي، أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟!.. ثم قال: فإن كنتم في شكٍّ من هذا القول، أفتشكُّونَ أثرًا ما أنِّي ابن بنت نبيّكم؟ فواللهِ ما بين المشرق والمغرب ابنُ بنتِ نبيٍّ غيري؛ منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيِّكم خاصة، أخبِروني أتطلبونني بقتيلٍ منكم قتلتُه، أو مالٍ لكم استهلكتُه، أو بقصاصٍ من جراحة؟!**".

فلم يُصغِ إليه القوم وأكملوا زحفهم حتى قتلوه رضوان الله عليه.

وإذا كانت خُطَب الحَسَن -رضي الله عنه- يغلب عليها طابع التَّأنِّي والعقل؛ فإنَّ خُطَب الحُسَين -رضي الله عنه- يغلب عليها طابع الحماسة والانفعال، وهذا يجسِّد فعلًا الفارق بين الرجلين؛ أما أوَّلُهما فجنح إلى السَّلم ونزل عن الحكم

---

١ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٥/ ٤٢٤- ٤٢٥).

بإرادته رغم أن الحقَّ كان معه وكانت بيده معظم الأمصار، بينما قام الثاني فطالب بالخلافة لنفسه ونهض لها وكان وحيدًا واستشهد في خضمِّ هذا.

٣- محمد ابن الحنفيَّة:

هو محمد بن علي بن أبي طالب، وُلِد عام ١٤هـ/٦٣٥م في خلافة عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه- وأمُّه خولة بنت جعفر الحنفيَّة، فنُسِب إليها تمييزًا له عن أخويه الحسن والحسين، ويُعتبر محمد ابن الحنيفية من سادة التابعين وفتيان قريش وأفضل أبناء علي بن أبي طالب بعد الحسن والحسين، وكان ذا ورعٍ ودينٍ وفقهٍ وشجاعة وكان جليل القدر عظيم المنزلة فاضلًا عالمًا، وقد اشترك مع أبيه في وقائعه، فحمل الراية يوم الجمل وصرَع فيها مروان بن الحكم فاسترحمه فعفا عنه، وأبلى في صفِّين بلاءً حسنًا، وكان أبوه يعوِّل عليه ويقدِّمُه في جنده لِمَا عُرِف به من شجاعة وبأس، وقد أوصَى به أخويه الحسن والحسين.

وظل ابن الحنفية ملازمًا لأخيه الحسن ثم للحسين وكان ممَّن نصحوه بالتَّمهُّل في الذهاب إلى العراق وحذَّره من الغدر، ولما قُتل الحسين كان هو سيِّد ولد أبيه، وكان من أئمة بني هاشم مع أبناء عمومته عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر ابن أبي طالب وعلي بن الحسين، وقد كان معتزلًا فلم يُقحم نفسه في الصِّراع السياسي بين الزُّبيريين والأمويين حتى إنه رفض مبايعة ابن الزبير فنفاه عن أرضه، ودعا المختار بن أبي عبيد الثقفي باسمه وثار في الكوفة فلم يؤيده ولم يعارضه، ولما انتصر عبد الملك على خصمه ابن الزبير وتوحَّدت الأمَّة تحت رايته طلبه الحجاج للبيعة فبايع بعدما بايع الناس، وقد وفد محمد بن الحنيفية على عبد الملك بن مروان فأكرمه وعرف قدره وحسُنَت صِلَتُه به، وتُوفِّيَ نحو عام ٨١هـ/٧٠٠م[١]

---

١ انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٩/ ٤٨).

وكان ابن الحنفية آية في الفصاحة، ومن أشهر مقولاته ما قاله على قبر أخيه الحسن بعدما دفنه مع أخيه الحسين وعبد الله بن عباس؛ فاغرورقت عيناه بالدموع وقال:[1] **"رحمك الله أبا محمد؛ فلئن عزَّتْ حياتُك لقد هَدَّتْ وفاتُك، ولنعم الرُّوحُ رُوحٌ تضمَّنَهُ بدنُك، ولنعم الجسدُ جسدٌ تضمَّنه كفنُك، ولنعم الكفنُ كفنٌ تضمَّنه لحدُك، وكيف لا تكون كذلك وأنت سليل الهدى، وخامس أصحاب الكساء، وخلَف أهل التقوى، وجدُّك النَّبيُّ المصطفى، وأبوك عليٌّ المرتضى، وأمُّك فاطمة الزهراء، وعمُّك جعفر الطيار في جنة المأوى، وغذَتْك أكُفُّ الحق، ورَبِيت في حجر الإسلام، ورضعت ثدي الإيمان، فطِبتَ حيًّا وميتًا، فلئن كانت الأنفس غير طيبةٍ لفراقك؛ إنها غير شاكَّةٍ أنْ قد خِيرلَكَ، وإنك وأخاك لسَيِّدا شبابِ أهلِ الجنةِ، فعليك أَبَا محمدٍ منَّا السلام".**

ولما ثار المختار بن أبي عبيد بدعوته في الكوفة أرسل إلى محمد ابن الحنيفية يأخذ إذنه في القتال والثأر لأخيه الحسين، فقال خطيبهم عبد الرحمن بن شريح بعدما حمد الله وأثنى عليه:[2] **"أمَّا بعدُ: فإنكم أهل بيت خصَّكم الله بالفضيلة، وشرَّفكم بالنُّبوَّة، وعظَّم حقكم على هذه الأمة، فلا يجهل حقَّكم إلا مغبونُ الرأي، مخسوسُ النصيب، قد أُصبتم بحُسين -رحمة الله عليه- عظمت مصيبة اختصصتم بها، بعدما عم بها المسلمون، وقد قدم علينا المختار ابن أبي عبيد يزعم لنا أنَّه قد جاءنا من تلقائكم، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنَّة نبيّه ﷺ، والطلب بدماء أهل البيت، والدفع عن الضعفاء، فبايعناه على ذلك، ثم إنَّا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه، ونَدَبَنا له، فإن أمرتَنا باتباعه اتَّبعناه، وإن نهيتَنا عنه اجتنبناه".**

فردَّ ابن الحنفية على وفد المختار فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه: **"أمَّا بعدُ: فأمَّا ما ذكَرتم مما خصَّنا الله به من فضل؛ فإنَّ الله يؤتيه من يشاء، والله ذو**

---

١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (٢/ ٣١- ٣٣)

٢ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٦/ ١٣).

الفضل العظيم، فلله الحمد، وأمَّا ما ذكرتم من مُصيبتنا بحسين؛ فإنَّ ذلك كان في الذِّكر الحكيم، وهي ملحمةٌ كُتِبت عليه، وكرامةٌ أهداها الله له، رَفع بما كان منها درجات قوم عنده، ووضع بها آخرين، وكان أمر الله مفعولًا، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، وأما ما ذكرتم مِن دعاء مَن دعاكم إلى الطلب بدمائنا؛ فوالله لوددْتُ أن الله انتصر لنا من عدوِّنا بمن شاء مِن خلقه، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم"، وهي خطبة تنمُّ عن دهاء وحنكة؛ فهو لم يأذن للمختار ولم ينكر عليه؛ ولكنَّه ألمح أنه يميل إلى تأييده فيما يخص الثأر لأخيه، حتى إنَّ وفد المختار قال: لو كَرِه لقال: لا تفعلوا.

٤- صعصعة بن صوحان:

كان صعصعة بن صوحان من شيعة عليٍّ -رضي الله عنه- وشارك معه بوقائعة في الجمل وصفين والنهروان، فلمَّا آل الأمر لمعاوية دخل في طاعة بني أميَّة ولكن بقي في نفسه ميل لآل البيت وولاء لهم، ولما اشتعلت فتن الخوارج أوَّل عهد معاوية بقيادة قائدهم المستورد بن عُلَّفة واعتزم المغيرة بن شعبة محاربتهم؛ قام صعصعة فخطب خطبة بليغة تدل على موهبته في الخطابة، وكان في خطبته هذه محرِّضًا على قتال الخوارج، داعمًا للمغيرة رغم تشيُّعه، فقال[1]: **"يَا معشر عباد الله؛ إن الله -وله الحمد كثيرًا- لمَّا قسم الفضل بين المسلمين؛ خصَّكم منه بأحسن القسم، فأجبتم إلى دِين الله الَّذِي اختاره الله لنفسه، وارتضاه لملائكته ورسله، ثُمَّ أقمتم عليه حتى قبَض الله رسوله ﷺ، ثُمَّ اختلف الناس بعده؛ فثبتت طائفة، وارتدَّت طائفة، وأدهنت طائفة، وتربَّصت طائفة، فلزمتم دين الله إيمانًا به وبرسوله، وقاتلتم المرتدين حتَّى قام الدين، وأهلك الله الظالمين، فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيرًا في كل شيء، وعلى كل حال، حتَّى اختلفت الأمة بينها، فقالت طائفة: نريد طلحة والزُّبَير وعائشة؛ وقالت**

---

١ انظر: المصدر السابق (٥/ ١٨٥- ١٨٦).

طائفه: نريد أهل المغرب؛ وقالت طائفة: نريد عبد الله بن وهب الراسبي؛ راسب الأزد؛ وقلتم أنتم: لا نريد إلا أهل البيت الَّذين ابتدأَنا الله مِن قِبَلِهم بالكرامة؛ تسديدًا من الله لكم وتوفيقًا، فلم تزالوا علَى الحق لازمين له، آخذين به، حتَّى أهلك الله بكم وبمن كان على مِثلِ هداكم ورأيكم النَّاكثِين يوم الجمل، والمارقين يوم النهر-وسكت عن ذكر أهل الشام؛ لأن السلطان كان حينئذ سلطانهم- ولا قوم أعدَى لِلَّهِ ولكم ولأهل بيت نبيِّكم ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة، الَّذين فارقوا إمامنا، واستحلُّوا دماءنا، وشهدوا علينا بالكفر، فإيَّاكم أن تؤووهم فِي دُوركم، أو تكتموا عليهم؛ فإنه ليس ينبغي لحيٍّ من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم، وقد -واللهِ- ذُكِر لي أن بعضهم فِي جانب من الحي، وأنا باحث عن ذلك وسائل، فإن كان حُكِيَ لي ذلك حقًّا؛ تقرَّبتُ إلى الله تعالى بدمائهم؛ فإنَّ دماءهم حلال" ثُمَّ قال: يا معشر عبد القيس؛ إن ولاتنا هؤلاء هم أعرَفُ شَيْء بكم وبرأيكم، فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلًا؛ فإنهم أسرع شَيْء إليكم وإلى أمثالكم".

٥- المختار بن أبي عبيد الثقفي:

هو المختار بن أبي عُبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي، كان أبوه ممَّن وفد على أبي بكر -رضي الله عنه- معلنًا إسلامه، وكان قائد جيش المسلمين يوم الجِسر أمام الفُرس وقد استشهد فيها مع من استشهد من المسلمين. فكفله عمُّه، ويبدو أنه كان معاديًا لشيعة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- حتَّى إن الحسن لما سار إلى الشام لقتال معاوية وخذله أهل العراق في المدائن؛ قال المختار لعمِّه: لو أخذْتَ الحسن فبعثتَه إلى معاوية لاتَّخذت عنده اليد البيضاء أبدًا؛ فنهره عمُّه وأنكر عليه، وظلَّ المحتار على اختلافه مع شيعة عليٍّ حتى حدث ما حدث من مصرع الحسين -رضي الله عنه- فأعلن مناصرته لآل البيت وطالب بثأره، فسجنه ابن زياد إلى أن شفع له صهره عبد الله بن عمر بن الخطاب عند الخليفة يزيد ابن معاوية، وكانت أخته صفيَّة تحته، ثم والَى ابنَ الزبير ضد بني أمية وشهد معه

حصار الكعبة، إلا أنَّه نقم عليه لاحقًا فثار في الكوفة ضد الأمويين والزُّبيريين معًا وطرَد منها عامل ابن الزبير وأخذ يدعو إلى محمد ابن الحنفية، وشرع في تتبُّع قتلة الحسين فقَتل كلًّا من: شمر بن ذي جوشن وسنان بن أنس وخولي بن يزيد وأمير جيشهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، وقد حاول عبد الملك القضاء على ثورته فأرسل له جيشًا بقيادة عبيد الله بن زياد لقمعه، فأرسل له المختار جيشًا بقيادة إبراهيم بن الأشتر النخعي فتمكَّن من هزيمة ابن زياد وقتله واحتزَّ رأسه جزاءً وفاقًا لِما فعل بالحسين.

لكن المختار رغم نجاحه في الثأر للحسين إلا أنَّه من جهة أخرى كان كاذبًا مشعوذًا يدَّعي الوحي ولم يكن صادقًا في الثأر للحسين؛ إنَّما اتخذ الدعوة للثأر ذريعة للثورة، وظلَّ على ثورته حتى كلَّف عبد الله بن الزبير أخاه مصعبًا بالقضاء عليه، ففعل وقتله واحتزَّ رأسه وأرسلها إلى أخيه عبد الله في مكة، وكان مقتله عام ٦٧هـ/٦٨٧م.[1]

وخُطَب المختار التي انتهت إلينا في ثورته تنمُّ عن بلاغة وروعة في البيان ومهارة في اختيار اللفظ وإصابة المعنى ومزاوجة العبارات، وميل إلى السجع أحيانًا، مع عاطفة حماسية ثائرة وملتهبة وقوية تمنبعها ظاهر رغبته في الثأر للحسين، ومِن خطبه التي قالها حين قدم الكوفة يدعو الشيعة للثأر: قال بعدما حمد الله وأثنى عليه[2] **"أما بعدُ: فإنَّ المهدي بن الوصي، محمد بن عليٍّ[3] بعثني إليكم أمينًا ووزيرًا، ومنتجبًا وأميرًا، وأمرني بقتال الملحدين، والطلب بدماء أهل بيته، والدَّفع عن الضعفاء".**

وأقبل يبعث إلى الشيعة، فيقول لهم: **"إنّي قد جئتكم من قِبَل وليّ الأمر، ومعدن الفضل، ووصيّ الوصيّ، والإمام المهديّ؛ بأمرٍ فيه الشِّفاءُ، وكشفُ الغطاء، وقتْلُ الأعداء، وتمام النعماء. إنَّ سليمان بن صرد -يرحمنا الله وإيَّاه- إنما هو عَشَمة من العَشَم وحِفْشٌ بالٍ، ليس بذي تجربة للأمور، ولا له**

---

١ انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٨/ ٣١٥).
٢ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٥/ ٥٨٠).
٣ يعني محمد ابن الحنفية.

علم بالحروب؛ إنما يريد أن يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم، إنِّي إنَّما أعمل على مثالٍ قد مُثِّلَ لي، وأمرٍ قد بُيِّنَ لي، فيه عِزُّ وَلِيِّكم، وقَتْلُ عدوِّكم، وشفاء صدوركم، فاسمعوا منِّي قولي، وأطيعوا أمري، ثم أبشروا وتَباشَروا؛ فإنِّي لكم بكل ما تأملون خيرُزعيمٍ".

ولما زحف مصعب بن الزبير من قِبَل أخيه للقضاء عليه؛ خطب قائلًا[1]: **"يا أهل الكوفة، يأهل الدِّين، وأعوان الحق، و أنصار الضعيف، وشيعة الرسول وآلِ الرسول؛ إنَّ فُرَّارَكم الذين بغوا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين فاستغْوَوْهم عليكم؛ ليمْصَحَ[2] الحق، وينتعش الباطل، ويُقتَل أولياء الله، واللهِ لو تهلكون ما عُبِد الله في الأرض إلَّا بالفريِ على الله، واللَّعن لأهل بيت نبيِّه، انتدبوا مع أحمر بن شميط: فإنكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم -إن شاء الله- قتْل عادٍ وإرمَ".**

---

١ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٦/ ٩٥).
٢ يمصح: يذهب وينقطع. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٥٩٨).

سادسًا: خطباء المحافل

(الأحنف بن قيس- عبد الله بن همَّام السَّلولي- عبد الله بن الأهتم- خالد بن صفوان)

١- الأحنف بن قيس:

هو أبو معاوية الأحنف بن حُصين التميمي، والأحنف لقبٌ غلب عليه، واسمه صخر، وقيل: بل الضَّحَّاك؛ وهو من سادة التابعين؛ إذْ أسلم في حياة النَّبيّ ﷺ ولم يرَه، وكان سيِّدًا شريفًا مُطاعًا في قومه بني تميم، وقد عُرِف بالحِلم والعلم والحكمة ورجاحة العقل، وكان ذا عبادة وتقوى حتى صار سيَّد تميم وإمامها، وقيل فيه: إذا غضب؛ غضب له مئة ألف لا يسألونه فيما غضب.

قال عنه عمر بن الخطاب: هو مؤمن عليم اللسان؛ وقال الحسن البصري: ما رأيت شريفَ قومٍ أفضل منه؛ خطب أمام عمر بن الخطاب فأُعجب بمنطقه وقدَّمه، وقد اشترك الأحنف في الفتوحات الإسلامية في العراق وفارس وخراسان زمن عمر وعثمان، فكان يقود الجيوش ويبلي في المعارك بلاء حسنًا، ولمَّا اشتعلت الفتنة بين عليٍّ ومعاوية؛ انضم لعليٍّ وشهد وقائعه وكان في صِفِّين مع قومه حتى إذا استشهد عليٌّ وآلت الخلافة إلى معاوية؛ انتظم في طاعة بني أمية وكان معاوية يجلُّه ويقدِّره ويستقبله بحفاوة، وأقام الأحنف في البصرة، وكان زياد بن أبيه -على قسوته- يقدِّمه ويستشيره، فكان ذا حُظوة ومكانة عنده، ولما ألت البصرة لولده عبيد الله بن زياد؛ أغفل قدره وأخَّر منزلته، إلى أن وفد على معاوية مع عدد من شيوخ قبائل العراق وكان آخِرَهم فأكرمه معاوية وأجلسه بجواره ثم سألهم عن ابن زياد، فمدحوه ما عدا الأحنف فقد سكت، ولما سأله معاوية؛ قال: إن تكلَّمْتُ خالفتهم؛ فعزله معاوية على الفور، واختلف هؤلاء فيمن يَخلُفُه، ثلاثة أيام، فكثر اللَّغط، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: تكلَّم؛

فعاد الأحنف ووصف ابن زياد بالحزم، فردَّه معاوية إلى ولايته وأرسل إليه يلومه على تأخير منزلة الأحنف، فلمَّا انتهى خبر ذلك إلى ابن زياد عرف قدره فأكرمه وأعلى منزلته، ولما آلت العراق لابن الزبير دخل الأحنف في طاعتهم، وللأحنف أخبار كثيرة عن حِلمه ورأيه ومروءته، وظلَّ في مكانةٍ مرموقة حتى توفِّي نحو عام ٧٢هـ/٦٩١م[١].

وكان الأحنف يمتاز بحُسْنِ البيان وطلاقة اللسان وروعة المنطق، وكان ذا قدرة على سبك الكلام، وتوشيته بالسجع أحيانًا، وكان يميل إلى الإيجاز والكَلِم القصار[٢] ومن خُطَبِه بعدما حمد الله وأثنى عليه[٣]: **"يا معشر الأزد وربيعة؛ أنتم إخواننا في الدِّين، وشركاؤنا في الصِّهر، وأشقَّاؤنا في النَّسَب، وجيراننا في الدَّار، ويدنا على العدو، واللهِ لَأزدُ البصرة أحَبُّ إلينا من تميم الكوفة، ولَأزدُ الكوفة أحَبُّ إلينا من تميم الشام، فإن استشرى شنآنكم، وأبَى حَسَكُ صدوركم؛ ففي أموالنا وسَعة أحلامنا لنا ولكم سَعة".**

وخطب بخراسان في بني تميم قائلًا[٤]: **"يا بني تميم؛ تحابُّوا تجتمع كلمتكم، وتَباذَلوا تعتدل أموركم، وابدؤوا بجهاد بطونكم وفروجكم؛ يَصلُح لكم دِينُكم، ولا تغلُّوا؛ يَسلَمْ لكم جهادكم".**

ومِن أشهر كلامه[٥]: **"لا تزال العرب عربًا ما لبست العمائم، وتقلَّدت السيوف، ولم تَعْدُدِ العِلمَ ذُلًّا، ولا التَّواهُبَ ضَعَةً".**

ووفد يومًا على معاوية في وفدٍ من أهل البصرة فقال في خطبة بليغة لا تخلو من غريب اللفظ[٦]: **"يا أمير المؤمنين؛ أهل البصرة عدد يسير، وعظم كسير، مع تتابع من المُحُول، واتصال من الذُّحول، فلا مكثر فيها قد أطرق، والمُقِلُّ فيها قد أملق وبلغ منه المُخنَّق، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنعِش الفقير، ويجبر**

---

[١] انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٨/ ٣٦٠- ٣٦١).
[٢] انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٤٣٤).
[٣] انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٩٢).
[٤] انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (٢/ ٣٥٨).
[٥] انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (١/ ١٤٥).
[٦] انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (٢/ ٣٦٣).

الكسير، ويسهّل العسير، ويصفح عن الذحول، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء، ويزيل اللأواء، وإن السَّيِّد من يعمُّ ولا يخصُّ، ومن يدعو الجفلى، ولا يدعو النَّقرى، إن أُحسِنَ إليه شكر، وإن أُسيئ إليه غفر، ثم يكون وراء ذلك لرعيّته عمادًا يدفع عنها الملمَّات، ويكشف عنها المعضلات".

فقال معاوية: ها هنا يا أبا بحر؛ ثم تلا: **(وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ)**[1]!

وفي مناسبة أخرى أرسله زياد ابن أبيه في وفدٍ إلى معاوية فقال له[2]: "**واللهِ يا أمير المؤمنين، ما نعدم منكم قائلًا جزيلًا، ورأيًا أصيلًا، ووعدًا جميلًا، وإن أخاك زيادًا لمتَّبعٌ آثارك فينا، فنستمتع -واللهِ- بالأمير والمأمور، فإنَّكم كما قال زهير؛ فإنَّه ألقى على المدَّاحين فصول القول:**

وما يكُ من خيرٍ أتَوْهُ فإنَّما ... تَوارثَهُ آباءُ آبائهِم قَبْلُ

وهَلْ يُنْبِتُ الخطِّيُّ إلا وشيجَهُ ... وتُغْرَسُ إلَّا في مَنابِتِها النَّخْلُ

٢- عبد الله بن همَّام السَّلولي:

كان عبد الله بن همام السلولي من شيعة بني أميَّة والموالين لهم، وكان شاعرًا وخطيبًا، ويُروَى أنه لما توفِّيَ معاوية واستخلف ولده يزيد؛ اجتمع الناس على بابه لا يقدر أحدهم على الجمع بين التهنئة والتعزية، إلى أن أتى عبد الله بن همام فقال[3]: "**يا أمير المؤمنين؛ آجرَكَ اللهُ على الرَّزِيَّة، وبارك لك في العطية، وأعانك على الرعية، فلقد رُزِئتَ عظيمًا، وأُعطيتَ جسيمًا، فاشكر الله على ما أُعطيتَ، واصبر له على ما رُزِيتَ؛ فقَدْ فقدتَ خليفة الله، ومُنِحتَ خلافة الله، ففارقتَ جليلًا، ووُهِبتَ جزيلًا؛ إذْ قضى معاوية نَحبَه، فغفر الله ذنبه، ووَلِيتَ**

---

١ سورة محمد: ٣٠.
٢ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (٣٦٥/٢).
٣ انظر: المصدر السابق (٢/ ٢٦٣).

الرِّياسة، فأُعطِيتَ السِّياسة، فأورَدَكَ الله موارد السرور، ووفَّقك لصالح الأمور.. ثم أنشد:

فاصبِرْ يَزِيدُ فقَدْ فارقتَ ذا ثقةٍ ... واشكُرْ حباءَ الذي بالمُلكِ أصفاكا

لا رُزْءَ أصبَحَ في الأقوامِ نَعلَمُهُ ... كما رُزِئْتَ ولا عُقبَى كعُقْباكا

أصبحْتَ والِيَ أمرِ النَّاسِ كلِّهِمُ ... فأنتَ تَرعاهُمُ واللهُ يَرعاكا

وفي معاويةَ الباقي لنا خَلَفٌ ... إذا نُعِيتَ ولا نَسمَعْ بِمَنْعاكا

٣- عبد الله بن الأهتم:

وكان من خطباء المحافل والوفود، وقد قام خطيبًا أمام الخليفة عمر بن عبد العزيز، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[١]: **"أما بعدُ: فإن الله خلق الخلق غنيًّا عن طاعتهم، آمنًا لمعصيتهم، والناس يومئذ في المنازل والرأي مختلفون، والعرب بشرٍّ تلك المنازل، أهل الوبر وأهل المدر، تجتاز دونهم طيبات الدنيا ورفاغة عيشها، ميِّتُهم في النار وحيُّهم أعمى، مع ما لا يُحصَى من المرغوب عنه والمزهود فيه، فلمَّا أراد الله أن ينشر فيهم رحمته، ويسبغ عليهم نعمته؛ بعث إليهم رسولًا منهم عزيزًا عليه ما عنتوا، حريصًا عليهم، بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا، فلم يمنعهم ذلك من أن جرحوه في جسمه، ولقَّبوه في اسمه، ومعه كتاب من الله ناطق، وبرهان من الله صادق، لا يرحل إلا بأمره، ولا ينزل إلا بإذنه، واضطروه إلى بطن غار، فلمَّا أمر بالعزم أسفر لأمر الله لونه، فأفلج الله حُجَّته، وأعلى كلمته، وأظهر دعوته، ففارق الدنيا نقيًّا تقيًّا، مباركًا مرضيًّا ﷺ.**

ثم قام بعده أبو بكر -رحمه الله- فسلك سنَّته، وأخذ بسبيله، وارتدَّتِ العرب، فلم يَقبَلْ منهم بعدَ رسولِ اللهِ إلا الذي كان قابلًا منهم، فانتضى السيوف من أغمادها، وأوقد النيران من شعلها، ثم ركب بأهل الحق أهل الباطل، فلم

---

١ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٨٠- ٨١).

يبرح يفصل أوصالهم، ويَسقي الأرض دماءهم، حتى أدخلهم في الذي خرجوا عنه، وقرَّرهم بالذي نفروا منه، وقد كان أصاب من مال الله بكرًا يرتوي عليه، وحبشية ترضع ولدًا له، فرأى ذلك غُصَّة عند موته في حلقه، فأدَّى ذلك إلى الخليفة من بعده، وبرئ إليهم منه، وفارق الدنيا نقيًّا تقيًّا، على منهاج صاحبه، رحمه الله.

ثم قام من بعده عمر بن الخطاب -رحمه الله- فمصَّر الأمصار، وخلط الشِّدَّة باللِّين، فحسر عن ذراعيه، وشمَّر عن ساقيه، وأعدَّ للأمور أقرانها، وللحرب آلتها، فلمَّا أصابه فتى المغيرة بن شعبة؛ أمر ابن عباس أن يسأل الناس هل يثبتون قاتله؟ فلمَّا قيل له: فتى المغيرة؛ استهلَّ بحمد الله ألَّا يكون أصابه ذو حقٍّ في الفيء فيستحلَّ دمه بما استحلَّ من حقِّه، وقد كان أصاب من مال الله بضعًا وثمانين ألفًا، فكسر رباعه، وكره بها كفالة أهله وولده، فأدَّى ذلك إلى الخليفة مِن بعده، وفارق الدنيا تقيًّا نقيًّا، على منهاج صاحبيه، رحمه الله.

ثم إنَّا -واللهِ- ما اجتمعنا بعدهما إلا على ظلع، ثم إنك يا عمر ابن الدنيا، ولدتك ملوكها، وألقمتك ثديها، وليتك وضعتها حيث وضعها الله.

فالحمد لله الذي جلا بك حَوبتها، وكشف بك كربتها، امض ولا تلتفتْ فإنَّه لا يُغني من الحق شيئًا، أقول قولي هذا وأستغفرُ الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات".

ويقال: إنه لما قال: "إنَّا -واللهِ- ما اجتمعنا بعدهما إلا على ظلَّع"؛ سكت الناس كلهم إلا هشام بن عبد الملك فقال له: كذبت.

٤- خالد بن صفوان:

هو خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم المنقري التميمي، وُلِد في البصرة وكانت له وفادة على عدد من خلفاء بني أمية وأمرائهم؛ مثل عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك وخالد بن عبد الله القسري، وقد شهد خالد ابن

صفوان نهاية الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ووفد على الخليفة العباسي أبي العباس السفاح فحظيَ عنده، وتوفِّيَ نحو عام ١٤٥هـ/٧٥٢م.

كان خالد بن صفوان خطيبًا مُفوَّهًا فصيحًا بليغًا ذا موهبة وقدرة على الوعظ، ولكنَّه كان يلحن أحيانًا، فلجأ إلى تعلُّم علم النحو في مسجد البصرة حتى يصلح لسانه، وكان في خُطَبِه أميَلَ إلى الإيجاز ومزاوجة العبارة، بالإضافة إلى غلبة السجع، مع قدرة فائقة على بلوغ المعنى والوصف، وكان بارعًا في حُسْنِ الرَّصف وتخيُّر اللفظ.

ومن أخباره أنه دخل على عمر بن عبد العزيز فعزاه وهنأه بالخلافة فقال[١]: "**الحمد لله الذى منَّ على الخلق بك، والحمد لله الذى جعل نبوَّتكم رحمة، وخلافتكم عصمة، ومصائبكم أسوة، وجعلكم قدوة**".

وقال لبعض الولاة[٢]: "**قدمت وأعطيت كلًّا بقسطه من نظرك ومجلسك، في صوتك وعدلك، حتى كأنك من كلِّ أحد، وحتى كأنك لست من أحد**".

ويقال: إنه وفد مرَّة على هشام بن عبد الملك فطلب منه هشام أن يصف جريرًا والفرزدق والأخطل، فقال[٣]: "**يا أمير المؤمنين؛ أمَّا أعظمهم فخرًا، وأبعدهم ذكرًا، وأحسنهم عُذرا، وأسيَرُهم مثلًا، وأقلُّهم غزلًا، وأحلاهم عللًا، البحر الطامى إذا زخر، والحامي إذا زأر، والسامي إذا خطر، الذي إذا هَدرَ جال، وإذا خطر صال، الفصيح اللسان، الطويل العنان؛ فالفرزدق. وأمَّا أحسنهم نعتًا، وأمدحهم بيتًا، وأقلُّهم فوتًا، الذى إن هجا وضع، وإن مدح رفع؛ فالأخطل. وأما أغزرهم بحرًا، وأرقُّهم شعرًا، وأكثرهم ذِكرًا، الأغرُّ الأبلق، الذى إن طَلَبَ لم يُسبَقْ، وإن طُلِب لم يُلحَق؛ فجرير، وكلُّهم ذكيُّ الفؤاد، رفيع العماد، واري الزِّناد**"، فقال له مسلمة بن عبد الملك: ما سمعنا بمثلك يا بن

---

١ انظر: زهر الآداب وثمر الألباب، القيرواني (٤/ ١٠٧٩).
٢ انظر: المصدر السابق (٤/ ٩١٦).
٣ انظر: المصدر السابق (٣/ ٦٨٨- ٦٨٩).

صفوان فى الأولين ولا فى الآخرين، أشهد أنك أحسنهم وصفًا، وألينهم عطفًا، وأخفُّهم مقالًا، وأكرمهم فعالًا؛ فقال خالد: **أتمَّ الله عليك نِعمَه، وأجزل لك قِسمه، أنت -واللهِ- أيها الأمير -ما علمتُ- كريم الغِراس، عالمٌ بالنَّاس، جواد فى المَحْلِ، بسَّامٌ عند البذل، حليمٌ عند الطَّيش، فى الذُّروة من قريش، من أشراف عبد شمس، ويومك خير من الأمس"**، فضحك هشام وقال: ما رأيتُ كتخلُّصِك يا بن صفوان في مدح هؤلاء حتَّى أرضيتَهم جميعًا وسَلِمتَ منهم.

ومن أخباره أنه دخل علَى رجلٍ وألفاه يريد أن يركب حمارًا، فقال له: [1]**"أما علمتَ أن العَيْرَ عار، والحمار شنار[2]، مُنكَر الصوت، قبيح الفَوت، مُتزلّجٌ في الضَّحل، مرتطم في الوحل، ليس بركوبة فحل، ولا بمطية رحل، راكبه مُقرف، ومسايره مشرف؟!"**، فاستوحش الرجل وترك الحمار وركب فرسًا، فأخذ خالد الحمار وركبه، فقال: ويحك يا خالد؛ أتنهى عن شيء وتأتي مثله؟! فقال: **أصلحك الله؛ عَيْرٌ من بنات الكُربال، واضح السِّربال، مختلج القوائم، يحمل الرَّجلة، ويبلغ العقبة، ويمنعني من أن أكون جبَّارًا عنيدًا، إن لم أعترف بمكاني فقد ضللتُ إذًا وما أنا من المهتدين".**

ولما زال ملك بني أمية وآلت الخلافة لأبي العباس السفاح؛ سأل خالدًا عن أخواله بني الحارث بن كعب فقال له: كيف عِلمُك بأخوالي بني الحارث ابن كعب؟ فقال خالد:[3] **"هم هامة الشَّرف، وعرنين الكرم، وغرس الجود، إنَّ فيهم لخصالًا ما اجتمعت فى غيرهم من قومهم؛ إنَّهم لأطولهم أممًا، وأكرمهم شيمَا، وأطيَبُهم طعمًا، وأوفاهم ذِممًا، وأبعدهم هممًا، الجمرة فى الحرب، والرِّفد فى الجدب، والرأس فى كل خَطْب، وغيرهم بمنزلة العجْب".**

---

١ انظر: زهر الآداب وثمر الألباب، القيرواني (٤/ ٩٨٣- ٩٨٤).
٢ شنار: عار. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٤/ ٣٩٤).
٣ انظر: زهر الآداب وثمر الألباب، القيرواني (٤/ ١٠٧٩).

وكان بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قد ضرب خالد بن صفوان وحبسه؛ لخلافٍ بينهما حينما كان نائبًا على البصرة، حتى إذا ابتُلِيَ وأحضره يوسف بن عمر أمير العراق مكبَّلًا مقيَّدًا، فشهده خالد بن صفوان فقال: **"أيَّها الأمير؛ إنَّ عدوَّ الله بلالًا ضربنى وحبسنى ولم أفارقْ جماعة، ولا خلعتُ يدًا من طاعة"**، ثم قال: **"الحمد لله الذى أزال سلطانك، وهدَّ أركانك، وأزال جمالك، وغيَّر حالك، فواللهِ لقد كنت شديد الحجاب، مستخفًّا بالشَّريف، مُظهِرًا للعصبية"**، فردَّ عليه بلال وقال: **"يا خالد؛ إنما استطلتَ عليَّ بثلاثٍ معك هُنَّ عليَّ: الأمير مقبلٌ عليك وهو عنِّي مُعرِضٌ، و أنت مُطلَق و أنا مأسور، و أنت فى طِينَتِك و أنا غريب"**.

---

١ انظر: المصدر السابق (٤/ ٩٣٥).

سابعًا: خطباء الوعظ الدِّيني

(الحسن البصري- واصل بن عطاء)

١- الحسن البصري:

هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، كان مولى للصحابي زيد بن ثابت أو جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- وقيل غير ذلك، وُلِد بالمدينة المنورة عام ٢١هـ/٦٤٢م، ونشأ في وادي القرى على ضاحيتها، كان أبوه قد أُسر في الفتوح فجيء به إلى المدينة وأسلم، وأمُّه خيرة كانت مولاةً لأم المؤمنين أم سلمة زوجة الرسول ﷺ وكانت تعمل في خدمتها وترسلها في بعض حاجاتها فتترك طفلها الحسن عندها فتداعبه وتُرضعه بالتَّشارك مع أمِّه، وكانت أمُّه تخرجه إلى الصحابة حتى يدعوا لهم ويتعلَّم منهم، وممن دعا له عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فقال: اللَّهمَّ فقِّهه في الدِّين وحبِّبْه إلى الناس؛ فشبَّ الحسن على الدِّين والعبادة والعِلم والفقه وأخذ يتعلَّم من الصحابة ويروي عنهم وينهل من هدي النبوة. ثم غادر المدينة في خلافة عليٍّ وأقام في البصرة ليصير أعظم وُعَّاظها، وكان جامعًا للعلم والعمل، عالمًا محدِّثا رفيعًا فقيهًا زاهدًا عابدًا ناسكًا وافرَ العلم، وكان فصيحًا جميلًا ذا حكمة وموعظة وعلمٍ بالتفسير، وقد أشاد به معاصروه من الفقهاء مثل أنس بن مالك وقتادة ومحمد بن سعد، وقال فيه أنس مرة لمسألة سُئل عنها: سلُوا عنها الحسن فإنه سمع وسمعنا، وحفظ ونسينا؛ وقال: إنِّي لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين -يعني الحسن البصري وابن سيرين.

وكان الحسن البصري عظيم المنزلة عالي القدر عند الخلفاء والولاة، وله معهم ومع غيرهم أخبار عديدة، وكان مشهودًا له بالعِلم والفقه والحِلم ويعتبر ألمع فقهاء عصره، توفِّيَ في البصرة عام ١١٠هـ/٧٢٨م.[١]

وكان الحسن قاصًّا ووعَّاظًا وخطيبًا، وكان ذا لغة وفصاحة إلى جانب فقهه، وله خطب رائعة تنمُّ عن سعة علمه وفقهه ودِينه من جهة، وتدل كذلك على فصاحته وبلاغته وتمكُّنه من اللغة العربية من جهة أخرى، وأُثرت عنه مواعظ بديعة ورسائل بليغة، وقد شهد الحجاج بن يوسف الثقفي ببلاغته قائلًا: أخطَبُ الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة؛ إذا شاء خطب وإذا شاء سكت؛ وكان يقارَن في فصاحته بالحجَّاج وربَّما رُجِّح عليه؛ إذْ يقول فيه أبو عمرو بن العلاء:[٢] لم أرَ قرويَّيْن أفصح من الحسن والحجاج.

والحقُّ أن الحسن البصري كان آيةً في البلاغة والبيان، وقد جمع بين علمه في الفقه وتمكُّنة من اللغة، وكان ذا حسٍّ لغوي دقيق، وأسلوبه يشيع فيه الازدواج والطباق والتصوير، وكان ذا قدرةٍ على تصريف الكلام، مع السَّلامة من التكلُّف والتعقيد، وكان يستعين دومًا بالمزاوجات والمقابلات والتَّشبيهات والاستعارات والتقسيمات الدقيقة، فكان من الممهِّدين لظهور الأسلوب المتأنِّق الذي ظهر لاحقًا في كتابة عبد الحميد بن يحيى الكاتب ومَن خلفوه من الكُتَّاب؛ وهو في خُطبه ومواعظه يميل إلى الإطناب وعذوبة اللفظ وعُمق المعنى، وكانت بلاغته مستقاة من الدِّين؛ الذي ارتشفه من مناهله في دار النبوة ومن القرآن الكريم لفظًا ومعنًى، ومواعظه غاية في العُمق والتأثير والرَّوعة، تنمُّ عن علمٍ غزيرٍ وموهبةٍ متأصِّلةٍ في البيان، من اطَّلع عليها يجني علمًا غزيرًا، وأدبًا رفيعًا.

وقد حُفظت له خطبٌ ومواعظ عديدة في البيان والتبيين للجاحظ والكامل في اللغة والأدب للمبرد وزهر الآداب وثمر الألباب للقيرواني، وقد جمعها أحمد زكي

---

١ انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٩/ ٢٩٥).
٢ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (١/ ٣١٤).
٣ انظر: المصدر السابق (٢/ ١٥٠).
٤ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٤٥٠).

صفوت في جمهرته، وألَّف البعضُ سِيَرًا مخصوصة له أوردوا فيها جانبًا من حياته مع تلك المواعظ والحِكم والخطب، ومن بين خُطبه الوعظية قوله[1]: **"رحم الله رجلًا خلا بكتاب الله فعرض عليه نفسه؛ فإن وافقه حمدَ ربَّه وسأله الزيادة من فضله، وإن خالفه اعتتب وأناب ورجع من قريب. رحم الله رجلًا وعظ أخاه وأهله فقال: يا أهلي؛ صلاتكم صلاتكم، زكاتكم زكاتكم، جيرانكم جيرانكم، إخوانكم إخوانكم، مساكنكم مساكنكم؛ لعلَّ الله يرحمكم؛ فإن الله تبارك وتعالى أثنى على عبدٍ من عباده فقال: (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا)[2]؛ يا ابن آدم: كيف تكون مسلمًا ولم يَسلم منك جارك، وكيف تكون مؤمنًا ولم يأمنْكَ الناس؟!"**، وكان يقول:[3] **"رحم الله امرأً كسب طيِّبًا وأنفق قصدًا، وقدَّم فضلًا. وجِّهوا هذه الفضول حيث وجَّهها الله، وضعوها حيث أمر الله؛ فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالفضل. ألا إن هذا الموت قد أضرَّ بالدنيا ففضحها، فلا -واللهِ- ما وجَد ذو لُبٍّ فيها فرحًا، فإيَّاكم وهذه السُّبُل المتفرقة، التي جماعها الضلالة وميعادها النار. أدركتُ مِن صدر هذه الأمة قومًا كانوا إذا أجنَّهم الليل فقيامٌ على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة سرَّتهم وسألوا الله أن يتقبَّلها منهم، وإذا عملوا سيئة ساءتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم، يا بن آدم؛ إن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس ها هنا شيء يغنيك، وإن كان يغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يُغنيك. يا بن آدم؛ لا تعمل شيئًا من الحق رياء، ولا تتركه حياءً".**

ومِن عظاته أنه مرَّ على قوم في يوم عيد فطرٍ فقال[4]: **"إنَّ الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضمارًا لخلقه، يستَبِقون فيه بطاعته إلى مرضاته، فسَبَق قومٌ**

---

١ انظر: البيان والتبيين، الحاحظ (٣/ ٩١- ٩٢).
٢ سورة مريم: ٥٥.
٣ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٣/ ٩٢- ٩٤).
٤ انظر: زهر الآداب وثمر الألباب، القيرواني (٢/ ٦١٧- ٦١٨).

ففازوا، وتخلَّف آخرون فخابوا، فالعجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذي يفوزفيه المحسنون، ويخسرفيه المبطلون، أما -واللهِ- لوكُشِف الغطاء لشُغِل محسنٌ بإحسانه ومسيءٌ بإساءته".

وكان يقول[1] **"حادِثوا هذه القلوب؛ فإنَّها سريعة الدثور، واقدعوا هذه الأنفس؛ فإنها طلعة، وإنكم إلا تقدعوها تنزه لكم إلى شرِّغاية".**

٢-واصل بن عطاء:

وُلِد أبو حذيفة واصل بن عطاء في المدينة نحو عام ٨٠هـ/٦٩٩م، وكان مولى لبني ضبة أو بني مخزوم، ثم انتقل إلى البصرة والتقى هناك بالحسن البصري وكان من تلاميذه إلى أن اختلف معه في عدَّة مسائل؛ كان أشهرها مسألة مرتكب الكبيرة؛ حيث قال الحسن البصري: إنه مؤمن ولكنَّه فاسق بكبيرته؛ بينما عارضه واصل قائلًا: إن مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين الإيمان والكُفر، فلا هو مؤمن ولا هو كافر، وإذا مات بحالته فهو في النَّار؛ لأنه لم يمت مؤمنًا في نظرهم بأي حال من الأحوال، وخالف بذلك سيِّده الحسن فاعتزله، والتفَّ حوله نفرٌ ممَّن أيَّدوا مذهبه، فقال الحسن: اعتزلنا واصل؛ فعُرِف أنصاره بالمعتزِلة وعُرِف مذهبهم الذي دعوا إليه بمذهب الاعتزال.

ومذهب المعتزلة قائمٌ على تقديم منطق العقل على النص والرواية، فإذا وقع الخلاف بين العقل والنص أو الرواية؛ قدَّموا العقل، وقالوا بخلْقِ القرآن ونفيِ رؤية الله في الآخرة ونفيِ شفاعة النَّبيِّ ﷺ لأهل الكبائر من أمَّته، وتأوَّلوا النصوص الدَّالة على ذلك، فكان هذا من الفكر الذي شذَّ عن السُّنَّة، وقد عُرِف المعتزلة بمهارتهم في الجدل والمناظرة؛ كونهم كانوا يقدِّمون العقل على النص، وقد انتشر مذهب المعتزلة انتشارًا واسعًا لمدَّة قرون بعد ذلك واعتقنه

---

[1] انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (١/ ١٦٩).
[2] انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/ ٧٢٠- ٧٢٢).

عددٌ كبيرٌ، إلى أن بدأ يتَّجه للضعف والانحدار مع أواخر العصر العباسي فضعف أثره وقلَّ أتباعه.

وكان واصل بن عطاء مِن أنبه الوعاظ وأشهرهم، وكان ذا قدرةٍ عجيبةٍ على الجدل والمناظرة والإقناع، وكان خطيبًا ووعَّاظًا مفوَّهًا ذا بيان، وله أخبار مع الجهم بن صفوان وبشار بن برد وكان يخالفهما المذهب، والغريب أن واصلًا كان فاحش اللثغة في الراء فيخرج نطقها على لسانه مخرجًا قبيحًا، لذا فقد عمد في خطبه الوعظية إلى إخراج الراء من كلامه وتخليصه منها تخليصًا فيقول: (الملحد) بدلًا من (الكافر)؛ و(بعثت) بدلًا من (أرسلت)؛ و(مضجعه) بدلًا من (فراشه)؛ وإذا أراد أن يقول: (البُرُّ) قال بدلًا عنه: (القمح) أو (الحنطة)[1].

وتوفِّيَ واصل بن عطاء عام ١٣١هـ/ ٧٤٨م قُبَيل سقوط الخلافة الأموية، وقد انتهت إلينا خطبةٌ وعظيَّةٌ شهيرة منزوعة الرَّاء وهي من خير المواعظ وأروعها وأحسنها بيانًا، وهي ذات تحميد مُطنب وتَزاوُجٍ بين العبارات قد يدفع أحيانًا إلى السجع، وهي تدل على أنه كان ذا ثروة بلاغية غنية بالمفردات والمعاني والألفاظ، وفيها يقول[2]: **"الحمد لله القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية، الذي علا في دُنُوِّه، ودنا في عُلُوِّه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده حفظ ما خلق، ولم يخلقه على مثالٍ سبق؛ بل أنشأه ابتداعًا، وعدَّله اصطناعًا، فأحسن كل شيءٍ خلقَه، وتمَّم مشيئته، وأوضح حكمته، فدلَّ على ألوهيَّته، فسبحانه لا مُعقِّبَ لحُكمِه، ولا دافع لقضائه، تواضع كل شيء لعظمته، وذلَّ كل شيء لسلطانه، ووسِع كُلَّ شيء فضله، لا يعزب عنه مثقال حبَّة، وهو السميع العليم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، إلهًا تقدَّست أسماؤه، وعظمت آلاؤه، وعلا عن صفات كل مخلوق، وتنزَّه عن شبيه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام، يُعصَى فيحلم، ويُدعَى فيسمع، ويَقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون، وأشهد شهادة**

---

١ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (١/ ٣٨- ٣٩).

٢ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (٢/ ٥٠١- ٥٠٣).

حق، وقول صدق، بإخلاص نيَّةٍ، وصِحَّةٍ طويَّةٍ؛ أنَّ محمَّد بن عبد الله عبده ونبيُّه، وخالِصَتُه وصَفِيُّه، ابتثعه إلى خلقه بالبيِّنة والهُدَى ودِين الحق، فبلغ مألكته، ونصح لأمَّته، وجاهد في سبيل الله، لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يصدُّه عنه زعمُ زاعمٍ، ماضيًا على سنَّته، مُوفِيًا على قصده، حتى أتاه اليقين، فصلَّى الله على محمد، وعلى آل محمد أفضل وأزكى، وأتمَّ وأنمى، وأجلَّ وأعلى صلاة صلَّاها على صفوة أنبيائه، وخالصة ملائكته، وأضعاف ذلك؛ إنَّه حميد مجيد.

أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله، والعمل بطاعته، والمجانبة لمعصيته، وأحضُّكم على ما يدنيكم منه، ويُزلفكم لديه؛ فإن تقوى الله أفضل زاد، وأحسن عاقبة في معاد، ولا تلهينَّكم الحياة الدنيا بزينتها وخِدَعِها، وفواتن لذَّاتها، وشهوات آمالها؛ فإنَّها متاع قليل، ومدَّة إلى حين، وكل شيء منها يزول، فكم عاينتم من أعاجيبها، وكم نَصبت لكم من حبائلها، وأهلكت من جنح إليها، واعتمد عليها!! أذاقتهم حلوًا، ومزجت لهم سُمًّا، أين الملوك الذين بنوا المدائن، وشيَّدوا المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكاثفوا الحجاب، وأعدُّوا الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التِّلاد؟! قبضتهم بمحملها، وطحنتهم بكلكلها، وعضَّتهم بأنيابها، وعاضتهم من السَّعة ضِيقًا، ومن العزة ذلًّا، ومن الحياة فناء، فسكنوا اللحود، وأكَلَهم الدُّود، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تحسُّ منهم من أحد، ولا تسمع لهم نبسًا، فتزوَّدوا -عافاكم الله- فإنَّ أفضل الزَّاد التقوى، واتَّقوا الله يا أولي الألباب لعلَّكم تفلحون، جعلنا الله وإياكم ممَّن ينتفع بمواعظه، ويعمل لحظِّه وسعادته، وممَّن يستمع القول فيتَّبع أحسنه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولو الألباب، إنَّ أحسن قصص المؤمنين، وأبلغ مواعظ المتَّقين؛ كتاب الله الزكيَّة آياته، الواضحة بيِّناته، فإذا تُلِيَ عليكم فأنصِتوا له، واسمعوا لعلكم تفلحون، أعوذ بالله القويِّ، من الشيطان الغويِّ، إنَّ الله

هو السميع العليم؛ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ *)[1]!

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم، والوحي المبين، وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم".

وتلك الخطبة تتجلَّى فيها عدَّة جوانب بلاغيَّة مهمَّة؛ من أبرزها أنَّه ذو ثروة لفظيَّة واسعةٍ مكَّنته من التَّخلُّص من حرف الراء في عباراته والاستعاضة عنها بكلماتٍ أخرى؛ كقوله (نبيُّه) بدلًا من (رسولُه)، و(مألكتَه) بدلًا من (رسالتَه)؛ فضلًا عن قدرةٍ عجيبه في الإسهاب والإطناب، ولا سيَّما في التحميدات المطوَّلة، وهو ما يدلُّ على عُلُوّ أفقه واتِّساع معانيه ومداركه وتأثُّره بالمعاني القرآنية والدِّينيَّة، وتُعتبر هذه التحميدة المطنبة تمهيدًا لمذهب الصنعة الذي ظهر في كتابة عبد الحميد بن يَحيى الكاتب المعروف بالإطناب في تحميداته، ثم تطوَّر لاحقًا مع الرسائل الديوانية في العصر العباسي؛ التي كانت تميل إلى هذا اللون من التحميد المطنب.

---

١ سورة الإخلاص.

الرسائل

١- الرسائل في العصر الأموي

(رسائل الخلفاء الأمويين- رسائل الحجاج- بين المهلب والحجاج- رسائل الخوراج- الشيعة وآل البيت- رسائل الحسن البصري- أواخر العصر الأموي)

نظرة عامة:

نشطت الرسائل الديوانية في العصر الأموي نشاطًا واسعًا وامتدَّت آفاقها بشكل ملحوظ حتى فاقت ما كانت عليه زمن الخلفاء الراشدين؛ وهذا يرجع إلى عدة عوامل رئيسَةٍ؛ من بينها:

١- اتِّساع نطاق الفتوحات الإسلامية وامتداد رقعة دولة الخلافة وكثرة الموارد وتعدُّد المسؤوليات، وما رافق ذلك من تعقُّد نظام السُّلَّم الإداري، فزادت أهمية الرسائل؛ كونها من مسلتزمات الإدارة وتسيير شؤون الحكم.

٢- ما رافق ذلك مِن تَفاقُم وتَعاظُم الأحداث السِّياسيَّة داخليًّا وخارجيًّا، ممَّا زاد من الحاجة إليها؛ كونها وسيلة الاتصال بين الخلفاء والولاة وبين الولاة والقادة، فما إن تندلع ثورة أو يتجدَّد نزاع أو تحدث معركة أو فتح؛ حتى نجد الرسائل الديوانية تتقاطر وتنهال تِباعًا كالسَّيل بين الخليفة والوالي أو القائد؛ على نحو ما نرى في رسال عبيد الله بن زياد مع الخليفة يزيد ابن معاوية إبان ثورة الحسين، أو الرسائل المتبادلة التي كانت بين الحجَّاج والمهلَّب بن أبي صفرة وقت حرب الخوارج الأزارقة، أو حتى ثورة زيد بن علي حفيد الحسين -رضي الله عنه- ضد هشام بن عبد الملك.

٣- نشاط الدواوين واهتمام الخلفاء الأمويين بها؛ حيث قام الخليفة معاوية ابن أبي سفيان بإنشاء عدة دواوين؛ من بينها **ديوان الرسائل**؛ وهو الهيئة المشرفة على تحرير الرسائل، **وديوان الخاتم** المسؤول عن حفظ سرية وأمانة المراسلات، بالإضافة إلى **ديوان البريد** وتطوُّرِ نظامِه، ثم قام الخليفة عبد الملك بن مروان من بعده بتعريب جميع الدواوين في مختلف الأقاليم الإسلامية؛ فقد كانت الدواوين الإقليمية تتعامل بلغات بلادها؛ كالقبطية في مصر، واليوناينة أو الرومية في الشام، والفارسية في العراق وفارس؛ فأصدر عبد الملك أمرًا بأن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية لتلك الدواوين، وهو ما زاد الحاجة الماسَّة إلى المنشئين وكتَّاب الدواوين، وحينها بدأ النثر الكتابي يأخذ منحنًى آخر في التطور والازدهار.

وبناء على ما سبق نشطت الرسائل الديوانية وانتعشت انتعاشًا ملحوظًا، ومع تطوُّر الدواوين وأنظمتها في الدولة أصبح هناك منصب يُدعَى رئيس الديوان أو رئيس الكتَّاب؛ وهو الشخص الذي كانت تنتهي إليه الرسائل الواردة فيطَّلع إليها ويبعث بها إلى الخليفة أو الوالي وتَصدُر عنه أيضًا الرسائل التي تكون منه.

أما من الناحية الفنية فنستطيع القول بأنَّ الرسائل الديوانية في العصر الأموي كانت امتدادًا لمثيلتها في عصر الخلفاء الراشدين في أغلب خصائصها وملامحها الفنِّيَّة والأدبية؛ من حيث الإيجاز والسَّلاسة والوضوح والرَّصانة واختيار اللفظ بدون كبير زخرف أو تطويلٍ، اللَّهمَّ إلا ما نلاحظ من زيادة الاهتمام بالتَّأنُّق والتَّدبيج؛ على نحو ما نرى في رسائل الحجَّاج وبعض الرسائل الوعظية للحسن البصري وآخرين؛ وذلك تبعًا للنمو الحضاري والثقافي في العصر الأموي.

ورغم أن الناحية الفنية لم تشهد اختلافًا كبيرًا عن عصر صدر الإسلام بالنسبة للرسائل الديوانية؛ حيث إن الكتابة في عصر الراشدين حتى أواسط العصر الأموي لم تكن تعتبر بعد فنًّا مستقلًّا قائمًا بذاته كما كانت الخطابة؛ إنما كانت فقط وسيلة لقضاء الحاجات الضرورية وتصريف شؤون الدولة؛

فإن إرهاصات تطوُّر الكتابة لتصبح فنًّا مستقلًّا قد بدأت في الظهور تدريجيًّا وبدأ شأن التَّرسُّل يعلو يومًا بعد يومٍ، حتى أوشك آنذاك أن يصير فنًّا مستقلًّا له أصوله وسماته، وتظهر إرهاصات ذلك التطور في عدة مظاهر؛ من بينها ما نراه من زيادة عناية كتَّاب الرسائل بتنميق الأسلوب وتدبيج العبارات، وبدء ظهور طائفة من الكتَّاب والمنشئين الذين حذقوا الكتابة ممن كانت لهم معرفة ببلاغة اللغة وسائر المعارف، وكان الكُتَّاب في البداية يتمُّ اختيارهم للدواوين دون أسس محدَّدة؛ نظرًا إلى أن الكتابة حينها لم تكن فنًّا، فلمَّا بدأ شأن التَّرسُّل يعلو؛ أصبح اختيارهم يتم وفْق أسس علمية وثقافية، وبعدما كان الخليفة أو الأمير يشرف وحده على رسائله؛ أصبح يتَّخذ بجواره كاتبًا حاذقًا يستعمله على ديوان رسائله.

وقد كان حول الخليفة أو الأمير مجموعة من الكتَّاب منذ أيام معاوية، وكان من كتَّابه عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق، ومن أشهر كتَّاب الخلفاء والأمراء رَوْحُ بنُ زنباع الجذامي قائد جند عبد الملك بن مروان، وسليمان ابن سعد الخشني؛ الذي كان على رأس كتَّاب عبد الملك وأولاده، ويزيد بن عبد الله كاتب يزيد بن عبد الملك، وصالح بن عبد الرحمن رئيس ديوان الحجاج؛ الذي كان له دور في تعريب الدواوين وتتلمذ على يده عددٌ من الكتَّاب، والمغيرة بن أبي قُرَّة كاتب يزيد بن المهلَّب، وقحذام بن أبي سُلَيم وشيبة بن أيمن كاتبا والي العراق عمر بن هبيرة، ومروان بن إياس كاتب خالد القسري، وكان الحجَّاج إذا أُعجب برسالة أُرسِلت إليه؛ سأل عن كاتبها واستدعاه ليصير من كُتَّابه؛ كما فعل مع يحيى بن يعمر الذي كان كان كاتبًا ليزيد بن المهلب[1].

وإلى جانب الرسائل الديوانية نجد **الرسائل الإخوانية** التي بدأت في الظهور في ذلك العصر وعضَّد من انتشارها نشاط حركة التدوين بشكل عام في العصر الأموي، ورغم أن التدوين في هذا العصر لم يكن قد بلغ درجة القمة أو الانتظام؛ وإنما كان قاصرًا على محاولات شخصية؛ فقد كان له أثر في بدء نموِّ

[1] انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٤٦٩).

الرسائل الإخوانية التي كانت تتحدَّث عن أغراض مختلفة؛ من بينها الشكر والعتاب والوصف والتهنئة والتعزية بالإضافة إلى الوعظ وما إلى ذلك، ثم ما لبثت أن ازدهرت في أواخر العصر الأموي على نحو ما نرى في بعض رسائل عبد الحميد الكاتب، وتدخل في إطارها **الرسائل الوعظية** وما إليها من مختلف رسائل الدعوة ورسائل الإرشاد الدِّيني التي تنمُّ عن النشاط الدعوي في العصر الأموي ويغلب عليها الإطناب والعبارات المترادفة وعذوبة اللفظ وربما أوجز بعض الوعاظ في وعظهم.

ونشطت كذلك **الرسائل السياسية** التي نراها بين الأحزاب والفئات السياسية المختلفة، وقد عزَّزها ما كان بين قادة هذه الأحزاب من صراعات ونزاعات، وكانت تميل إلى الإطناب نوعًا ما بخلاف الرسائل الديوانية؛ لأنَّها كانت تحتاج بصورة أكثر إلى شرح العقائد السياسية؛ على نحو ما نرى في رسائل الخوارج ومكاتباتهم.

ومن أعظم مزايا الرسائل في العصر الأموي أنها كانت تُفصح بالفعل عن الجوانب السياسية والثقافية والفكرية في ذلك العصر؛ فكانت الرسائل بين الخلفاء الأمويين وولاتهم وأمرائهم وقادتهم تكشف تفاصيل تاريخية عدة تخص الثورات والفتن والمعارك والأحداث، كما تكشف رسائل الخوارج بينهم وبين بعضهم أو بين خصومهم، وكذلك رسائل الشيعة عن معتقداتهم وأفكارهم، بالإضافة إلى الرسائل الدينية والوعظية، لذا فإن الرسائل الديوانية والإخوانية والسياسية تعتبر مصدرًا تاريخيًّا مهمًّا للاطلاع على الأحداث السياسية والتاريخية في تلك المدة، وأيضًا للإحاطة بأفكار الطوائف والفِرَق السياسية والمذاهب الدينية والكلامية.

وقد حفل **تاريخ ابن جرير الطبري** بالعديد من تلك الرسائل ولا سيَّما السياسية منها؛ فقد حفظ قدرًا كبيرًا من مكاتبات الخلفاء والأمراء، فكان مصدرًا مهمًّا لمن طالعه، بالإضافة إلى رسائل أخرى عديدة في **البيان والتبيين** للجاحظ و**الكامل** للمبرِّد، وقد جمع أحمد زكي صفوت ما وسعه من رسائل في كتاب **جمهرة رسائل**

العرب؛ التي تفصح أيضًا عن علوِّ درجة البلاغة التي بلغها العرب في هذا المضمار، وفيما يلي بعض النماذج لرسائل لعدد من الخلفاء والأمراء والقادة والفرق السياسية التي نوضِّح من خلالها طبيعة الرسائل الديوانية والإخوانية في تلك المدة حتى نهاية القرن الأول الهجري.

من رسائل الخلفاء:

- كان الحسن بن علي قد راسل زياد بن أبيه حينما أُمِّر على البصرة؛ يعاتبه على أمرٍ ويُجير رجلًا قد عاقبه، فغضب زياد وكتب إليه رسالة أساء فيها أدبه وعرَّض بأبيه عليٍّ، وبدأها بقوله: "من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن ابن فاطمة"، فشكاه إلى معاوية؛ الذي غضب على عامله وعاتبه عتابًا شديدًا في رسالة قال فيها[1]: **"أمَّا بعدُ: فإن الحسن بن عليٍّ بعث إليَّ بكتابك إليه، جوابًا عن كتابٍ كتبه إليك فى "ابن أبى سرح"، فأكثرْتُ العجبَ منك، وعلمتُ أنَّ لك رأيين؛ أحدهما من أبي سفيان، والآخر من سُميَّة؛ فأمَّا الذي من أبي سفيان فحِلمٌ وحَزمٌ، وأمَّا الذى من سمية فما يكون من رأي مثلها، من ذلك كتابك إلى الحسن تشتمُ أباه وتُعرِّضُ له بالفسق، ولَعَمرى إنَّك لَأَوْلَى بالفسق من أبيه، فأمَّا أنَّ الحسن بدأ بنفسه ارتفاعًا عليك؛ فإن ذلك لا يضعك لو عقلتَ، وأما تسلُّطه عليك بالأمر فحقٌّ لمثل الحسن أن يتسلَّط، وأمَّا تَركُك تشفيعَه فيما شفع فيه إليك؛ فحظٌّ دفعتَه عن نفسك إلى مَن هو أولى به منك، فإذا ورد عليك كتابي فخلِّ ما فى يديك لسعيد بن أبى سرح، وابنِ له داره، واردُدْ عليه ماله، ولا تَعرِض له؛ فقد كتبتُ إلى الحسن أن يخيِّره؛ إن شاء أقام عنده، وإن شاء رجع إلى بلده، ولا سلطانَ لك عليه لا بيدٍ ولا لسانٍ، وأما كتابُك إلى الحسن باسمه واسم أمِّه، ولا تنسبه إلى أبيه؛ فإنَّ الحسن -ويحك- من لا يُرمَى به**

[1] انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٢/ ٣٨- ٣٩).

الرَّجوان، وإلى أيِّ أمٍّ وكلتَه لا أمَّ لك؟! أما علمتَ أنها فاطمة بنت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم؟! فذاك أفخَرُله لو كنتَ تعلمُه وتَعقِلُه".

- وكتب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد يولِّيه على الكوفة بجانب البصرة ويأمره بالسَّير إليها حتى يقضي على ثورة الحسين، قائلًا له[1]: **"أمَّا بعدُ: فإنَّه كتبَ إليَّ شيعتي من أهل الكوفة، يخبرونني أن ابن عقيل[2] بالكوفة يجمع الجموع لشقِّ عصا المسلمين، فسِرْ حين تقرؤ كتابي هذا، حتى تأتي أهل الكوفة، فتطلب ابنَ عقيل كطلب الخرزة حتى تثقفه فتُوثِقه، أو تقتله، أو تنفيه، والسَّلام".**

- وكان خالد بن عبد الله بن أُسيد نائب البصرة قد نحَّى المهلَّب عن قتال الخوارج وجعله على خراج الأهواز، وجعل أخاه عبد العزيز مكانه، فانهزم أمامهم، فلمَّا انتهى خبر ذلك إلى عبد الملك بعث يلوم واليَه على صرفِهِ المهلَّب عن قتال الخوارج وهو رجل الحرب والقتال، فكتب إليه[3]: **"أمَّا بعدُ: فقد قدم رسولك في كتابك، تُعلِمُني فيه بعثَتَكَ أخاك على قتال الخوارج، وبهزيمة من هُزِم، وقَتْل من قُتل، وسألتُ رسولَك عن مكان المهلَّب، فحدَّثني أنَّه عاملٌ لك على الأهواز، فقبَّح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابيًّا من أهل مكَّة على القتال، وتدع المهلَّب إلى جنبك يُجبي الخراج، وهو الميمون النقيبة، الحسن السِّياسة، البصير بالحرب، المقاسي لها، ابنها وابن أبنائها!! انظر أن تنهض بالنَّاس حتَّى تستقبلهم بالأهواز ومن وراء الأهواز وقد بعثْتُ إلى بشرٍ[4] أن يُمِدَّك بجيش من أهل الكوفة، فإذا أنت لقيتَ عدوَّك فلا تَعمل فيهم برأيٍ حتى تُحضِرَه المهلَّب، وتستشيره فيه إن شاء الله، والسَّلام عليك ورحمة الله".**

---

[1] انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٥/ ٣٥٧).
[2] مسلم بن عقيل بن أبي طالب.
[3] انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٦/ ١٧١).
[4] بشر بن مروان أمير الكوفة.

- وكتب عبد الملك إليه يعزله عن البصرة بسبب عجزه عن قتال الخوارج[1]: **"أما بعدُ: فإنِّي كنتُ حددتُ لك حدًّا في أمر المهلَّب، فلمَّا ملكْتَ أمرك نبذتَ طاعتي واستبددتَ برأيك، فولَّيت المهلب الجباية، وولَّيت أخاك حرب الأزارقة، فقبح الله هذا رأيًا!! أتبعث غلامًا غِرًّا لم يجرِّب الحروب للحرب، وتترك سيدًا شجاعًا مدبِّرًا حازمًا قد مارس الحروب، تشغله بالجباية؟! أما لو كافأتُكَ على قدر ذنبك لأتاك من نكيري ما لا بقيَّة لك معه؛ ولكن تذكَّرت رَحِمَك فلَفَتَني عنك، وقد جعلتُ عقوبتك عزْلك".**

- وكتب عبد الملك بن مروان إلى عمر بن سعيد الأشدق وقد خرج عليه[2]: **"أما بعدُ: فإن رحمتي لك تصرفني عن الغضب عليك؛ لتمكُّن الخِدَع منك، وخذلان التوفيق إيَّاك؛ نهضتَ بأسبابٍ وهَمَتْكَ أطماعُك أن تستفيد بها عزًّا، كنت جديرًا لو اعتدلت أن لا تدفع بها ذلًّا، ومن رحل عنه حُسن النظر، واستوطنته الأماني؛ ملك الحين تصريفه، واستترت عنه عواقب أمره، وعن قليل يتبيّن من سلك سبيلك، ونهض بمثل أسبابك؛ أنه أسير غفلة، وصريع خدع، ومغيض ندم. والرَّحِم تحمل على الصَّفح عنك ما لم تحلل بك عواقب جهلك، وتزجر عن الإيقاع بك. وأنت إن ارتدعتَ في كنفٍ وسِترٍ، والسلام".**

- وكتب إلى أخيه بِشرٍ يولِّيه البصرة مع الكوفة ويأمره باستعمال المهلب[3]: **"أما بعدُ: فإنَّك أخو أمير المؤمنين، يجمعك وإيَّاه مروان بن الحكم، وإن خالدًا لا مجتمع له مع أمير المؤمنين دون أميَّة، فانظر المهلَّب بن أبي صفرة، فولِّه حرب الأزارقة؛ فإنَّه سيِّدٌ بطلٌ مُجَرِّبٌ، فأَمْدِدْه من أهل الكوفة بثمانية آلاف رجل".**

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ٢٥٧- ٢٥٨).
٢ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٣/ ٣٠٢).
٣ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ٢٥٨).

- وكتب الوليد بن عبد الملك إلى قتيبة بن مسلم عامل خراسان يثبّته عليها بعد وفاة الحجاج[1]: **"قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجِدَّك في جهاد أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافِعُك وصانعٌ بك كالذي يجب لك، فالمم مغازيك وانتظر ثواب ربّك، ولا تَغِبْ عن أمير المؤمنين كُتُبُك، حتى كأنّي أنظر إلى بلادك والثَّغر الذي أنتَ به".**

- وكتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن المهلب حينما وَلِيَ الخلافة قائلًا له[2]: **"أما بعدُ: فإنَّ سليمان كان عبدًا من عبيد الله، أنعم الله عليه، ثم قبضه واستخلفني، ويزيد بن عبد الملك من بعدي إن كان، وإنَّ الذي ولَّاني الله من ذلك وقدَّر لي ليس عليَّ بهيّن، ولو كانت رغبتي في اتّخاذ أزواج واعتقاد أموال؛ كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحدٍ من خلقه، وأنا أخاف فيما ابتُلِيتُ به حسابًا شديدًا، ومسألة غليظة، إلا ما عافَى الله ورَحِم، وقد بايعَ مَن قِبَلَنا، فبايِعْ مَن قِبَلَك".**

- وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أحد ولاته؛ وهو الجرَّاح بن عبد الله الحكمي[3]: **"إن استطعت أن تَدَعَ ممَّا أحلَّ الله لك ما يكون حاجزًا بينك وبين ما حرَّم الله عليك فافعل؛ فإنه من استوعب الحلال كلَّه؛ تاقت نفسه إلى الحرام".**

من رسائل الحجاج:

قد حُفِظت للحجاج بن يوسف عدة رسائل تنمُّ عن بلاغته وموهبته؛ فقد كان بليغًا في رسالاته التي يكتبها لقادته أو للخليفة مثلما كان مفوَّهًا في خطبه، وكان الحجاج يعتني بتحبير رسائله وباختيار لفظه الذي يميل بعض الميل إلى الجزالة

---

١ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٦/ ٤٩٢- ٤٩٣).
٢ انظر: المصدر السابق (٦/ ٥٦٦- ٥٦٧).
٣ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٣/ ١١٧).

وربما أغرب أحيانًا، وكان يميل إلى المبالغة في التَّأنُّق والتَّرادف في مراسلاته، ممَّا يُفضِي إلى السجع في بعض الأحيان، في أسلوب قويٍّ فخمٍ.

- ومن رسائله ما كتبه أول ما تولَّى العراق، إلى قطري بن الفجاءة رأس الأزارقة؛ يتوعَّده قبل بدء قتاله قائلًا[1]: **"سلامٌ عليك، أمَّا بعدُ: فإنك مَرقت من الدِّين مروق السَّهم من الرَّمِيَّة، وقد علمت حيث تجرثمتَ ذاك أنَّك عاصٍ لله ولولاة أمره، غير أنك أعرابيٌّ جلفٌ أمِّيٌّ، تستطعم الكسرة وتستشفي بالتَّمرة، والأمور عليك حسرة، خرجْتَ لتنال شبعة فلحق بك طغام صلوا بمثل ما صليت به من العيش، فهم يهزُّون الرِّماح، ويستنشئون الرياح، على خوفٍ وجهدٍ من أمورهم، وما أصبحوا يتنظرون أعظم مما جهلوا معرفته، ثم أهلكهم الله بترحتين، والسَّلام".**

- وكتب إلى عبد الملك بن مروان[2]: **"أما بعدُ: فإنَّا نُخبِر أمير المؤمنين أنه لم يُصِبْ أرضَنا وابلٌ منذ كتبتُ أخبِرُه عن سُقيا اللهِ إيَّانا، إلا ما بلَّ وجه الأرض من الطَّشِّ والرَّشِّ والرَّذاذ، حتى دقعت الأرض و اقشعَرَّت واغبرَّت، وثارت في نواحيها أعاصير تذرو دُقَاق الأرض من ترابها، وأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها وامتناعها، وأرضنا أرض سريع تغيُّرها، وشيك تنكُّرها، سيء ظنَّ أهلها عند قحوط المطر، حتى أرسل الله بالقبول يوم الجمعة، فأثارت زِبْرَجًا متقطِّعًا متمصِّرًا، ثم أعقبته الشَّمال يوم السبت فطَحْطَحَت عنه جهامه، وألَّفت متقطِّعه، وجمعت متمصِّره، حتى انتضد فاستوى، وطما وطحا، وكان جَونًا مُرثَعِنًّا قريبًا رواعده، ثم عادت عوائده بوابلٍ منهملٍ مُنسجَلٍ يردف بعضه بعضًا، كلَّما أردف شؤبوبٌ أردفتْه شآبيب؛ لشدَّة وقعه في العِراض.**

---

١ انظر: المصدر السابق (٢/ ٢١٢).
٢ انظر: المصدر السابق (٣/ ٣١١- ٣١٢).

وكتبت إلى أمير المؤمنين وهي ترمي بمثل قطع القطن، قد ملأ اليباب[1] وسد الشِّعاب، وسَقَى منها كلَّ ساقٍ. فالحمد لله الذي أنزل غيثه، ونشر رحمته مِن بعدما قنطوا، وهو الولي الحميد، والسلام".

- وكان بين سليمان بن عبد الملك والحجَّاج نفور، وكان الأخير يحرِّض الخليفة الوليد على خلعه من ولاية العهد، فكتب إليه الحجاج يعرِّض به ويستصغره[2] **"إنَّما أنت نقطةٌ من مداد، فإن رأيتَ فيَّ ما رأى أبوك وأخوك؛ كنتُ لك كما كنتُ لهما، وإلا فأنا الحجَّاج وأنت النُّقطة، فإن شئتُ مَحَوتُك، وإن شئتُ أثبتُّك".**

- وكان بين عمر بن عبد العزيز والحجَّاج كُرهٌ وبغض شديد، فأرسل الحجاج إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يحرِّضه على عزل عمر عن ولاية الحجاز قائلًا[3] **"إنَّ مَن قِبَلي مِن مُرَّاق أهل العراق، وأهل الشِّقاق، قد جَلَوْا عن العراق، ولجؤوا إلى المدينة ومكة، وإنَّ ذلك وهَنٌ"**، فعزله عن المدينة ومكة، واستعمل غيره.

بين المهلَّب والحجَّاج:

لما استقرَّ الحجَّاج في العراق أقرَّ المهلَّبَ بنَ أبي صفرة على قتال الخوارج، وكانت بين الرجلين رسائل متبادلة أثناء تلك الحروب، وهي رسائل تُفصح عن تفاصيل عديدة وأحداث متوالية وتكمن أهميتها التاريخية في معرفة تفاصيل ما كان يدور حينها من قتال، ويبدو من خلال تلك المراسلات أن القتال كان شديدًا وأن الحجاج كان يستبطئ النصر ويُغْلِظ للمهلَّب ويشدُّ عليه ويتوعَّده في بعض الأحيان.

---

١ اليباب: الموضع الخالي لا نبات فيه. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/ ٨٠٥).
٢ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (١/ ٣١٣).
٣ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٦/ ٤٨١- ٤٨٢).

- ومن بينها رسالة قال فيها[1]: **"أما بعدُ: فإنه بلغني أنَّك أقبلتَ على جباية الخراج، وتركت قتال العدو، وإنّي ولَّيتُك وأنا أرى مكان عبد الله ابن حكيم المجاشي وعباد بن حصين الحبطي، واخترتك وأنت من أهل عُمان، ثم رجل من الأزد، فالقهم يوم كذا في مكان كذا؛ وإلا أشرعت إليك صدر الرُّمح".**
- فكتب إليه المهلب يردُّ عليه[2]: **"ورد عليَّ كتابك تزعم أني أقبلت على جباية الخراج، فهو عن قتال العدو أعجَزُ، وزعمتَ أنك ولَّيتني وأنت ترى مكان عبد الله بن حكيم المجاشعي وعباد بن حصين الحبطي، ولو ولَّيتهما لكانا مستحقّين لذلك في فضلهما وغنائهما وبطشهما، واخترتني وأنا رجل من الأزد، ولَعَمري إنَّ شرًّا من الأزد لَقبيلةٌ تَنازَعَها ثلاثُ قبائل، لم تستقرَّ في واحدة منهن. وزعمْتَ أني إن لم ألقهم في يوم كذا، في مكان كذا؛ أشرعت إليَّ صدر الرمح، فلو فعلْتَ لقلبْتُ إليك ظهر المجنِّ، والسَّلام".**
- وكتب إليه الحجاج يستحثُّه على قتال الخوارج ويعاتبه على الإبطاء في القتال[3]: **"أما بعد، فإنَّك تتراخى عن الحرب حتى تأتيك رسلي، فترجع بعذرك؛ وذلك أنك تمسك حتى تبرأ الجراح، وتنسى القتلى، ويجم الناس، ثم تلقاهم فتحتمل منهم مثل ما يحتملون منك من وحشة القتل وألم الجراح، ولو كنت تلقاهم بذلك الجدِّ لكان الدَّاء قد حُسم، والقرن قد قُصِم، ولَعَمري ما أنت والقوم سواء؛ لأنَّ مِن ورائك رجالًا وأمامك أموالًا، وليس للقوم إلا ما معهم، ولا يُدرَك الوجيف بالدَّبيب، ولا الظَّفر بالتعزير".**

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ٢٦٣).
٢ انظر: المصدر السابق.
٣ انظر: المصدر السابق (٣/ ٢٨٠).

- فكتب إليه المهلب يردُّ عليه[1]: **"إني لم أعطِ رُسُلَك على قول الحق أجرًا، ولم أحتَجْ منهم مع المشاهدة إلى تلقٍّ، ذكرتَ أني أُجِمُّ القوم، ولا بدَّ من راحةٍ يستريح فيها الغالب، ويحتال فيها المغلوب؛ وذكرتَ أن في ذلك الجمام ما يُنسِي القتلى، وتبرؤ منه الجراح، وهيهات أن يُنسى ما بيننا وبينهم، تأبى ذلك قتلى لم تُجَنَّ، وقروحٌ لم تتقرف، ونحن القوم على حالة، وهم يرقبون منا حالات؛ إنْ طمعوا حاربوا. وإن ملُّوا وقفوا، وإن يئسوا انصرفوا، وعلينا أن نقاتلهم إذا قاتلوا، ونتحرَّز إذا وقفوا، ونطلب إذا هربوا، فإن تركتني والرأيَ؛ كان القرن مقصومًا، والدَّاء بإذن الله محسومًا، وإن أعجلتني لم أُطِعْكَ ولم أعصِ، وجعلتُ وجهي إلى بابك، و أنا أعوذ بالله من سخط الله، ومقت الناس"**

- ويبدو أن الخوارج قد اختلفت فيما بينها وخلع بعضهم قطريًّا وأخذوا يقاتلون بعضهم بعضًا، فلمَّا بلغ الحجَّاج اختلاف الخوارج؛ رأى ضرورة تعجيل قتالهم وبعث إلى المهلَّب يأمره بقتالهم قائلًا[2]: **"أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر فيه اختلاف الخوارج بينها، فإذا أتاك كتابي فناهضِهم على حال اختلافهم و افتر اقهم قبل أن يجتمعوا؛ فتكون مؤونتهم عليك أشدَّ، والسَّلام".**

- على أن المهلَّب رأى رأيًا آخَرَ؛ أن يتمهَّل في قتالهم حتى يُفنيَ بعضهم بعضًا، فكتب إلى الحجاج[3]: **"أما بعدُ: فقد بلغني كتاب الأمير، وكلَّ ما فيه قد فهمتُ، ولست أرى أن أقاتلهم ما داموا يقتل بعضهم بعضًا، وينقص بعضهم عدد بعض، فإن تمُّوا على ذلك فهو الذي نريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رقَّق بعضهم بعضًا، فأناهضهم على تفِئة**

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ٢٨١).
٢ انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٦/ ٣٠٣).
٣ انظر: المصدر السابق (٦/ ٣٠٣- ٣٠٤).

ذلك، وهم أهون ما كانوا وأضعفه شوكة، إن شاء الله، والسَّلام"، ويبدو أن الحجَّاج اقتنع برأيه فتركه وترك الإلحاح عليه.

- ولما تمَّ النصر على الأزارقة وقُتِل قطريٌّ؛ أرسل المهلَّب إلى الحجَّاج يبشِّره بالنَّصر قائلًا[1]: **"بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الكافي بالإسلام فَقْدَ ما سواه، الذي وصل المزيد بالشكر، والنعمة بالحمد، وقضى ألا ينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشُّكر من عباده.**

أما بعد: فقد كان مِن أمرِنا ما قد بلغك، وكنا ونحن وعدوُّنا على حالين مختلفين، يسرُّنا منهم أكثر مما يسوؤنا، ويسوؤهم منَّا أكثر ممَّا يسرُّهم، على اشتداد شوكتهم، فقد كان أُعلِن أمرُهم حتى ارتاعت له الفتاة، ونُوِّم به الرضيع، فانتهزت منهم الفرصة في وقت إمكانها، وأدنيتُ السواد من السواد، حتى تعارفت الوجوه، فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[2]

- فكتب إليه الحجاج يطلب منه مكافأة الجند وتسميتهم وتوزيع الفيء وفْق مراتبهم وبلائهم ويطلب إليه القدوم قائلًا[3]: **"أما بعدُ: فإن الله -عزَّ وجلَّ- قد فعل المسلمين خيرًا، وأراحهم من حدِّ الجهاد، وكنت أعلم بما قِبَلَك، والحمد لله رب العالمين، فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسم في المجاهدين فيئهم، ونفِّلِ الناس على قدر بلائهم، وفضِّلْ من رأيت تفضيله، وإن كانت بقيت من القوم بقيَّة فخلِّف خيلًا تقوم بإزائهم، واستعمِلْ على كرمان من رأيتَ، وولِّ الخيل شهمًا مِن ولدك، ولا تُرخص لأحدٍ في اللِّحاق بمنزله دون أن تقْدم بهم عليَّ، وعجِّل القدوم، إن شاء الله".**

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ٢٨٦).
٢ سورة الأنعام: ٤٥.
٣ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ٢٨٧).

من رسائل الخوارج:

حُفِظت للخوارج كذلك عدَّة رسائل بديعة كانت آية في البيان والبلاغة، وهي رسائل تُفصِح عن معتقادات الخوارج وأفكارهم التي تجنح إلى الغلوِّ والتَّطرُّف، وتمتاز بالعمق والميل إلى الإطناب وعذوبة في اللفظ، فضلًا عن أنها كانت في غاية الأناقة والديباجة وحسن رصف العبارة، وفيها نزعة دينيَّة قوية تتجلَّي في أفكارهم وفي الاقتباس من القرآن الكريم، ونورد هنا بعض النماذج.

- كتب نافع بن الأزرق رأس الخوارج الأزارقة، إلى عبد الله بن الزبير يدعوه إلى أمره:[1] "أما بعدُ: فإنّي أحذِّرك من الله **(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ)**[2] فاتَّقِ اللهَ ربَّك ولا تتولَّ الظالمين؛ فإن الله يقول: **(لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)**[3] وقد حضرْتَ عثمان يوم قُتِل، فلَعَمرى لئن كان قُتِل مظلومًا لقد كفر قاتِلُوه وخاذِلُوه، ولئن كان قاتِلُوه مهتدين -وإنَّهم لمهتدون- لقد كفر من يتولَّاه وينصره ويعضده، ولقد علمتَ أن أباك وطلحة وعليًّا كانوا أشدَّ الناس عليه، وكانوا فى أمره مِن بين قاتل وخاذل، و أنت تتولَّى أباك وطلحة وعثمان، وكيف ولاية قاتلٍ متعمِّد ومقتول فى دِين واحدٍ؟! ولقد ملك عليٌّ بعده، فنفى الشُّبهات، و أقام الحدود، وأجرى الأحكام مجاريها، وأعطى الأمور حقائقها فيما عليه وله، فبايعه أبوك وطلحة، ثم خلعاه ظالِمَيْنِ له، وإنَّ القول فيك وفيهما لكما قال ابن عباس: إن يكن عليٌّ فى وقت معصيتكم ومحاربتكم له كان مؤمنًا؛ أما لقد كفرتم بقتال المؤمنين و أئمَّة العدل، ولئن كان

---

١ انظر: المصدر السابق (٣/ ٢١٠).
٢ سورة آل عمران: ٣٠.
٣ سورة آل عمران: ٢٨.

كافرًا كما زعمتم، وفى الحكم جائرًا؛ لقد بُؤتم بغضبٍ من الله لفِراركم من الزَّحف؛ ولقد كنتَ له عدوًّا، ولِسِيرته عائبًا، فكيف تولَّيتَه بعد موته؟!".

- وكتب نافع بن الأزرق إلى أهل البصرة[1] "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعدُ: (إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)[2] واللهِ إنَّكم لتعلمون أنَّ الشريعة واحدة، والدِّين واحد، ففيم المقام بين أظهُرِ الكفار، ترون الظُّلم ليلًا ونهارًا؟ وقد ندبكم الله إلى الجهاد، فقال: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً)[3] ولم يجعل لكم فى التَّخلُّف عذرًا فى حال من الأحوال فقال: (انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا)[4] وإنَّما عذر الضُّعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون ومن كانت إقامته لعلَّة، ثم فضَّل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال: (لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)[5] فلا تغترُّوا، ولا تطمئنوا إلى الدنيا؛ فإنها غرَّارة مكَّارة، لذَّتها نافدة، ونعمتها بائدة، حُفَّت بالشهوات اغترارًا، وأظهرت حيرة، وأضمرت عبرة، فليس آكل منها أكلة تسرُّه، ولا شارب شربة تؤنقه؛ إلَّا دنا بها درجة إلى أجله، وتباعَدَ بها مسافة من أمله، وإنَّما جعلها الله دارًا لمن تزوَّد منها إلى النعيم المقيم، والعيش السليم، فلن يرضى بها حازم دارًا، ولا حليم بها قرارًا، فاتقوا الله (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ)[6] والسَّلام على من اتَّبع الهدى".

- وكان نافع بن الأزرق قد غالَى في مذهبه وتطرَّف فيه فكفَّر القعدة حتى من إخوانه الخوارج واستحلَّ دم الأطفال وسبْي النساء وعدم ردِّ الأمانة

---

[1] انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ٢١٠- ٢١١).
[2] سورة البقرة: ١٣٢.
[3] سورة التوبة: ٣٦.
[4] سورة التوبة: ٤١.
[5] سورة النساء: ٩٥.
[6] سورة البقرة: ١٩٧.

لمخالفيه، ففارقه بعض أتباعه من الخوارج ممَّن رأوا مغالاته في معتقده، وانضمُّوا إلى نجدة الحنفي، فكتب إليه نجدة يعاتبه[1] "بسم الله الرحمن الرحيم، أمَّا بعدُ: فإنَّ عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم، وللضعيف كالأخ البَرّ، لا تأخذُك في الله لومة لائم، ولا ترى معونة ظالم، كذلك كنتَ أنت وأصحابك، أما تذكُر قولك: لولا أنِّي أعلم أنَّ للإمام العادل مثل أجر جميع رعيَّته ما تولَّيت أمر رجلين من المسلمين؟! فلمَّا شريتَ نفسك في طاعة ربك ابتغاء رضوانه، وأصبت من الحق فصَّه، وركبتَ مُرَّه؛ تجرَّد لك الشيطان، ولم يكن أحد أثقل عليه وطأةً منك ومن أصحابك، فاستمالك واستهواك واستغواك وأغواك، فغويت فأكفرت الذين عذرهم الله في كتابه مِن قعدةِ المسلمين وضعَفَتِهم، فقال جل ثناؤه، وقوله الحق ووعده الصدق: **(لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ)**[2] ثم سمَّاهم أحسن الأسماء، فقال: **(مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ)**[3] ثم استحللتَ قتل الأطفال، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم، وقال الله عزَّ ذِكرُه: **(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ)**[4] وقال في القعدةِ خيرًا، وفضَّل الله من جاهد عليهم، ولا يدفع منزلةُ أكثر الناس عملًا منزلةَ من هو دونه، أوما سمعتَ قوله عزَّ وجلَّ: **(لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ)**[5] فجعلهم الله من المؤمنين، وفضَّل عليهم المجاهدين بأعمالهم، ورأيتَ ألا تؤدي الأمانة إلى من خالفك، والله يأمر أن تؤدَّى الأماناتُ إلى أهلها، فاتَّق الله وانظر لنفسك، واتَّقِ يومًا **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا**

---

١ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ٢٠٨).
٢ سورة التوبة: ٩١.
٣ سورة التوبة: ٩١.
٤ سورة فاطر: ١٨.
٥ سورة النساء: ٩٥.

يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا)[1]؛ فإنَّ الله عزَّذِكرُه بالمرصاد، وحُكمُه العدل، وقوله الفصل، والسَّلام".

- فردَّ عليه نافع بن الأزرق قائلًا[2]:"**بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعدُ: فقد أتاني كتابك تعظني فيه وتذكِّرني، وتنصح لي وتزجرني، وتصف ما كنتُ عليه من الحق، وما كنتُ أوثره من الصواب، وأنا أسأل الله -جلَّ وعزَّ- أن يجعلني من الذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه، وعِبْتَ عليَّ ما دِنْتُ به من إكفار القَعَدةِ وقتلِ الأطفال واستحلال الأمانة، فسأفسِّر لك لِمَ ذلك إن شاء الله.**

أما هؤلاء القعدة فليسوا كمن ذكرتَ ممَّن كان بعهد رسول الله ﷺ؛ لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين، لا يجدون إلى الهرب سبيلًا، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقة، وهؤلاء قد فقهوا في الدِّين، وقرؤوا القرآن، والطريق لهم نهج واضح، وقد عرفت ما قال الله -عزَّ جلَّ- فيمن كان مثلهم إذْ قالوا: (كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ)، فقيل لهم: (أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا)[3]؛ وقال: (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ)[4]؛وقال: (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ)[5]فخبَّر بتذيرهم، وأنهم كذبوا الله ورسوله؛ وقال: (سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[6] فانظر إلى أسمائهم وسماتهم.

وأما أمر الأطفال فإنَّ نبيَّ الله نوحًا -عليه السلام- كان أعلم بالله يا نجدةُ منِّي ومنك، فقال: (وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا*إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوٓاْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)[7]؛

---

١ سورة لقمان: ٣٣.
٢ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٣/ ٢٠٨- ٢٠٩).
٣ سورة النساء: ٩٧.
٤ سورة التوبة: ٨١.
٥ سورة التوبة: ٩٠.
٦ سورة التوبة: ٩٠.
٧ سورة نوح: ٢٦- ٢٧.

فسمَّاهم بالكفر وهم أطفال، وقبل أن يُولَدوا، فكيف كان ذلك في قوم نوحٍ ولا نكون نقوله في قومنا، واللهُ يقول: (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)[1] وهؤلاء كمشركي العرب، لا نقبل منهم جزية، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام.

وأما استغلال أمانات من خالفنا فإن الله -عزَّ وجلَّ- أحلَّ لنا أموالهم، كما أحل لنا دماءهم، فدماؤهم حلالٌ طلق، وأموالهم فيءٌ للمسلمين، فاتَّقِ الله وراجِع نفسك؛ فإنَّه لا عذرَ لك إلا بالتوبة، ولن يسَعَك خذلاننا، والقعود عنا، وترك ما نهجناه لك من طريقتنا ومقالتنا، والسَّلام على من أقرَّ بالحق وعمل به".

- وكتب قطري بن الفجاءة يردُّ على رسالة الحجاج إليه[2]: "من قطري ابن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف: سلامٌ على الهُداة من الوُلاة، الذين يرعون حريم الله ويرهبون نقمه، فالحمد لله على ما أظهر من دِينِه، وأظلع به أهل السَّفال، وهدى به من الضَّلال، ونصر به، عند استخفافك بحقِّه.

كتبتَ إليَّ تذكر أني أعرابي جلفٌ أُمِّيٌّ، أستطعم الكسرة وأستشفي بالتَّمرة، ولَعَمري يا بن أم الحجاج إنك لميِّت في جِبِلَّتك، مُطَلْخِمٌ في طريقتك، واهٍ في وثيقتك، لا تعرف الله ولا تجزع من خطيئتك، يئستَ واستيأستَ من ربِّك، فالشيطان قرينك، لا تجاذِبه وثاقك، ولا تنازعه خناقك. فالحمد لله الذي لو شاء أبرز لي صفحتك، وأوضح لي طلْعَتَك، فوالذي نفس قطريٍّ بيده؛ لعرفت أن مقارعة الأبطال، ليس كتصدير المقال، مع أنِّي أرجو أن يدحض الله حُجَّتك، وأن يمنحني مهجتك".

---

١ سورة القمر: ٤٢.

٢ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢/ ٢١٢- ٢١٣).

رسائل الشيعة وآل البيت:

- حينما اعتزم الحسين بن عليٍّ -رضي الله عنه- الثورة ضد يزيد بن معاوية؛ كتب إلى أنصاره كتابًا كان نصُّه[1]: **"أَمَّا بعدُ: فانَّ الله اصطفى محمدًا ﷺ علَى خلقه، وأكرمه بنبوَّته، واختاره لرسالته، ثُمَّ قبضه الله إليه وقد نصح لعباده، وبلَّغ ما أرسل به ﷺ، وكنَّا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته وأحقَّ الناس بمقامه فِي الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرَضِينا وكرهنا الفُرقة، وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنَّا أحقُّ بذلك الحق المستحقِّ علينا ممَّن تولَّاه، وقد أحسَنُوا وأصلَحُوا، وتحرَّوُا الحقَّ، فرحمهم الله، وغفرلنا ولهم.**

وقد بعثتُ رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إِلَى كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ؛ فإن السُّنَّة قد أُميتت، وإنَّ البدعة قد أُحيِيَت، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدِكم سبيل الرَّشاد، والسَّلام عليكم ورحمة الله".

- وكتب مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى ابن عمه الحسين يخبره باستعداد أهل الكوفة له ويسأله القدوم[2]: **"أَمَّا بعدُ: فإنَّ الرَّائد لا يكذِب أهلَه، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفًا، فعجِّل الإقبال حين يأتيك كتابي؛ فإنَّ النَّاس كلَّهم معك، ليس لهم في آل معاوية رأيٌ ولا هوًى، والسَّلام".**

- وكتب المختار بن أبي عبيد الثقفي إلى محمد ابن الحنفية يبشِّره بقتل عمر بن سعد بن أبي وقاص قائد الجيش الذي قتل الحسين وعددٍ ممن اشتركوا في قتله، قائلًا[3]: **"بسم الله الرحمن الرحيم، للمَهديّ مُحمَّد بن عليٍّ، من المختار بن أبي عبيد: سلامٌ عليك يا أيَّها المهدي، فإني أحمد إليك الله الَّذي لا إله إلا هو، أما بعدُ: فإنَّ الله بعثني نقمةً على أعدائكم، فهم بين**

---

[1] انظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري (٥/ ٣٥٧).
[2] انظر: المصدر السابق (٥/ ٣٧٥).
[3] انظر: المصدر السابق (٦/ ٦٢).

قتيل وأسير، وطريد وشريد، فالحمد لله الذي قتل قاتليكم، ونصر مؤازريكم.

وقد بعثتُ إليك برأس عمر بن سعد وابنه، وقد قَتَلْنا من شَرَكَ في دم الحسين وأهل بيته -رحمة الله عليهم- كلَّ من قدرنا عليه، ولن يُعجِزَ اللهَ مَن بقيَ، ولست بمنجم عنهم حتى لا يبلغني أنَّ على أديم الأرض منهم إرميًّا.

فاكتب إليَّ أيها المهدي برأيك أتَّبِعْه وأكن عليه، والسَّلام عليك أيها المهدي ورحمة الله وبركاته".

- وكتب إليه رسالة أخرى نصُّها[1] **"بسم الله الرحمن الرحيم، أمَّا بعدُ: فإنِّي كنت بعثتُ إليك جندًا ليُذِلُّوا لك الأعداء، وليحوزوا لك البلاد، فساروا إليك حتى إذا أطلُّوا على طيبة؛ لقيهم جند الملحد، فخدعوهم بالله، وغرُّوهم بعهد الله، فلمَّا اطمأنوا إليهم، ووثقوا بذلك منهم؛ وثبوا عليهم فقتلوهم، فإن رأيتَ أن أبعث إلى أهل المدينة مِن قِبَلِي جيشًا كثيفًا، وتبعث إليهم مِن قِبَلِك رُسُلًا؛ حتَّى يعلم أهل المدينة أنِّي في طاعتك، وإنَّما بعثتُ الجند إليهم عن أمرك؛ فافعل، فإنَّك ستجد عظمهم بحقكم أعرَفَ، وبكم أهل البيت أرأَفَ لهم بآل الزبير الظَّلَمة الملحدين، والسَّلام عليك".**

- فكتب ابن الحنفيَّة يردُّ عليه[2] **"أما بعدُ: فإنَّ كتابك لمَّا بلغني قرأتُه، وفهمتُ تعظيمك لحقِّي، وما تنوي به من سروري، وإنَّ أحبَّ الأمور كلِّها إليَّ ما أُطِيعَ اللهُ فيه، فأطِعِ اللهَ ما استطعتَ فيما أعلنتَ وأسررتَ، واعلم أنِّي لو أردتُ لوجدتُ النَّاس إليَّ سراعًا، والأعوان لي كثيرًا، ولكنِّي أعتزلهم، وأصبر حتَّى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين".**

---

[1] انظر: المصدر السابق (٦/ ٧٥).

[2] انظر: المصدر السابق (٦/ ٧٥).

- وكتب ابن الحنفيَّة إلى شيعة الكوفة يحذِّرهم من بعض الغلاة[1] **"من مُحَمَّد ابن عليٍّ، إلى من بالكوفة من شيعتنا: أمَّا بعدُ: فاخرجوا إلى المجالس والمساجد فاذكروا الله علانيةً وسرًّا، ولا تتَّخذوا من دون المؤمنين بطانة، فإن خشيتم على أنفسكم فاحذروا على دينكم الكذَّابين، وأكثروا الصلاة والصيام والدعاء فإنه ليس أحد من الخلق يملك لأحد ضُرًّا ولا نفعًا إلا ما شاء الله، وكلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينةٌ،ولا تزرُوازرةٌ وِزرَأخرى، والله قائم على كل نفس بما كسبت، فاعملوا صالحًا، وقدِّموا لأنفسكم حسنًا، ولا تكونوا من الغافلين، والسَّلام عليكم".**

رسائل الحسن البصري:

- كتب الحسن البصري موعظة طويلة إلى عمر بن عبد العزيز؛ جاء فيها[2] **"أمَّا بعدُ: اعلَمْ يا أمير المؤمنين أن الدنيا دار ظعنٍ، وليست بدار إقامة، وإنَّما أُهبط إليها آدم من الجنَّة عقوبة، وقد يحسب من لا يدري ما ثواب الله أنَّها ثواب، ومن لم يدرِ ما عقاب الله أنَّها عقاب، ولها في كل حينٍ صرعة، وليس صرعة كصرعة، هي تُهين من أكرمها، وتُذِلُّ من أعزَّها، وتصرع من آثرها، ولها في كل حينٍ قتلى، فهي كالسُّمِّ يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه، فالزَّاد فيها تركُها، والغِنَى فيها فقرُها، فكن يا أمير المؤمنين كالمداوي جُرحَه، يصبر على شدة الدَّواء؛ مخافة طول البلاء، ويحتمي قليلًا؛ مخافة ما يكره طويلًا؛ فإن أهل الفضائل كانوا منطقهم فيها بالصَّواب، ومشيهم بالتواضع، ومطعمهم الطَّيِّب من الرزق، مغمضي أبصارهم عن المحارم، فخوفهم من البَرِّ، كخوفهم من البحر، ودعاؤهم في السَّرَّاء، كدعائهم في الضَّرَّاء، لولا الآجال التي كتبت لهم، ما تقاوَتْ**

---

[1] انظر: المصدر السابق (٦/ ١٠٣- ١٠٤).
[2] انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٢/ ٣٢٦- ٣٢٨).

أرواحهم في أجسادهم خوفًا من العقاب، وشوقًا إلى الثواب، عَظُم الخالقُ في نفوسهم، فصَغُر المخلوقون في أعينهم....."[1]

- وطلب منه عمر بن عبد العزيز أن يكتب موعظة له وسأله الإيجاز، فكتب له[2]: **"أما بعدُ يا أمير المؤمنين: فكأنَّ الذي كان لم يكن، وكأنَّ الذي هو كائنٌ قد نزل، واعلم يا أمير المؤمنين أن الصَّبر وإن أذاقك تعجيلَ مراراته، فلَنِعمَ ما أعقبك من طِيبِ حلاوته وحُسن عاقبته، وأنَّ الهوى وإن أذاقك طعمَ حلاوته، فلبئس ما أعقبك من مراراته وسوءِ عاقبته، واعلم يا أمير المؤمنين أنَّ الفائز من حرِص على السَّلامة في دار الإقامة، وفاز بالرَّحمة فأُدخِلَ الجنَّة".**
- وكتب الحسن البصري إلى عدي بن أرطأة نائب عمر بن عبد العزيز على البصرة يعتذر له عن قبول منصب القضاء قائلًا[3]: **"أما بعدُ أيَّها الأمير: فإنَّ الكارهَ للأمر غيرُ جديرٍ بقضاءِ الواجب فيه، وإنَّ العامل للعمل بغير نيَّةٍ حقيقٌ أن لا يُعان عليه، ولك في المختارين للأمر الذي دعوتني إليه كفاية وقناعة، وقصدك إيَّاهم وتعويلك عليهم أولى بك وأصوَنُ لعملك؛ فإنَّه لا خير في الاستعانة بمن لا يرى أن العمل الذي يُدعَى إليه واجب عليه، وفرضٌ لازمٌ له، فعافِني أيَّها الأمير عافاك الله، وأحسِنْ إليَّ بِتَركِ التَّعرُّض لي؛ فإنَّ الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا".**

الرسائل أواخر العصر الأموي:

وما إن يُقبل القرن الثاني الهجري حتى تقفز الرسائل الديوانية فقزةً هائلة ويزداد تطوُّرها ويتَّخِذ ازدهارها منحًى جديدًا؛ إذْ كان الخليفة أو الوالي يشرف على كتابة الرسائل بنفسه، ولكن مع التطوُّر الثقافي والعلمي وتعقُّد أنظمة إدارة

---

[1] انظر: المصدر السابق (٢/ ٣٢٦).
[2] انظر: المصدر السابق (٢/ ٣٣١).
[3] انظر: المصدر السابق (٢/ ٣٣٣- ٣٣٤).

الدولة وازدياد تفاصيلها، بالإضافة إلى نموِّ التَّرسُّل وعلوِّ شأنه؛ صار من الصعب على الخليفة أو الأمير أن يُشرف على الرسائل بمفرده؛ وإنَّما تطوَّرت الكتابة لتصبحَ في أواخر العصر الأموي فنًّا مستقِلًّا بذاته مع سالم أبي العلاء كاتب هشام بن عبد الملك ومولاه، ثم مع عبد الحميد بن يحيى الكاتب كاتب الخليفة مروان بن محمد؛ الذي ازدهرت الكتابة الإخوانية في عهده ازدهارًا واسعًا، وكانت له العديد من الرسائل الديوانية البديعة؛ حيث لم يعد الخليفة أو الأمير يملي كُتُبَه على كتَّابه كما كان سابقًا؛ بل أصبح الكاتب يكتب رسالته ثم يعرضها على الخليفة.

وصار على الكاتب الذي يتم اختياره أن يكون مُلمًّا بلغته وأدبها وسائر العلوم والمعارف، وأن يكون ذا ذائقةٍ حتى يحسن كتابته ويجوِّد صناعته، وبدأ يظهر في الرسائل منذ ذلك الحين مذهب الصَّنعة في الكتابة؛ إذْ بدأت تقتحم أذواق الكُتَّاب حيث كانت الكتابة قبل ذلك شديدة الإيجاز ويغلب عليها الطبع ولا تخلو من البلاغة، فلمَّا اقترب العصر الأموي من نهايته نجد أن الكتابة الفنِّيَّة بدأت تتَّخذ منحنى آخر حول فن اختيار اللفظ وتدبيج الكلام والمبالغة في تزيينه وتنميق الأسلوب وتنقيحه، مع مزيد من الأناقة والرونق والحسِّ الموسيقيِّ، فضلًا عن ظهور ميلٍ إلى الإطناب والإطالة في المقدِّمة التحميدية ومزاوجة وترادف العبارات، مع السجع أحيانًا أثرًا لتلك المزاوجة، بالإضافة إلى حُسن الرصف والديباجة وطلاوة اللفظ.

والجدير بالذكر أنَّ هذا الازدهار والتَّطوُّر في الرسائل الذي حدث في أواخر العصر الأموي لم يحدث إلا بعد اختلاط الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية كاليونانية والفارسية، صحيح أن الرسائل قد نشطت في العصر الأموي منذ البداية لكنَّها ظلت من الناحية الفنية امتدادًا للكتابة زمن الخلفاء الراشدين وظل عمادها قاصرًا على الثقافة العربية، إلى أن جاء سالم أبو العلاء ثم عبدالحميد الكاتب وهما مِن أصول غير عربية، فنقلا ثقافاتهما الأجنبية إلى كتابتهما العربية؛ حيث تأثر سالم بثقافته الرومية أو اليونانية بينما تأثر

عبدالحميد بثقافته الفارسية، وظهر بكتابتهما ميل إلى الإطناب وتدبيج الرسالة مع ظهور مذهب الصنعة في رسائلهما الديوانية، فكانت الوثبة التي وثبتها الكتابة الفنية في أواخر العصر الأموي منذ عهد هشام بن عبد الملك إيذانًا لبدء العصر الذهبي للكتابة؛ الذي واصل ازدهاره ونموَّه في العصر العباسي حيث صارت وظيفة الكاتب أو الإنشاء وظيفة مرموقة وذات منزلةٍ رفيعة، تَتَطلَّب من صاحبها أن يكون على درايةٍ واسعةٍ بالعلوم والمعارف واللغة وكل مناحي الثقافة.

ولا بدَّ هنا من الوقوف عند أشهر وأبرز الكتاب في هذه المدة؛ وهو **سالم أبو العلاء** واسمه سالم بن عبد الرحمن -أو ابن عبد الله- وكان من موالي بني أمية؛ إذِ التحق بالدَّواوين وهو حدَثٌ زمن عبد الملك بن مروان وصار رئيسًا للديوان في عهد هشام بن عبد الملك، وكان عنده ذا منزلة عظيمة وكان هشام يعهد إليه بالكثير من الأمور، وإليه تُعزَى أغلب الرسائل الصادرة عن الخليفة، وهو ممن باشروا الترجمة وترجم رسائل أرسطاطاليس للإسكندر إلى اللغة العربية، وكان له دور في نقل الثقافة اليونانية إلى العربية، وظل كاتبًا طوال فترة هشام وأول عهد الوليد بن يزيد، وهو أستاذ عبد الحميد بن يحيى الكاتب وكانت بينهما مصاهرة؛ إذْ كان والد زوجة عبد الحميد أو أخاها[1]

ويعتبر سالم أول من بدأت الكتابة معه تتحول إلى فن مستقل قائم بذاته، ومن رسائله ما كتبه عن هشام بن عبد الملك إلى واليه على العراق خالد بن عبد الله القسري –وقيل: بل كتبها ولده عبد الله- يعاتبه في بعض الأمور، ويظهر في هذه الرسالة الميل إلى الإطناب، وقد جاء فيها[2]:"**أما بعدُ: فقد بلغ أميرَ المؤمنين عنك أمرٌ لم يحتملْه لك، إلا لما أحب من ربِّ الصنيعة قبلك، واستتمام معروفه عندك، وكان أمير المؤمنين أحقَّ من استصلح ما فسد عليه منك، فإن تعُد لمثل مقالتك وما بلغ أمير المؤمنين عنك؛ رأى في معالجتك بالعقوبة رأيه.**

---

١ انظر: عبد الحميد بن يحيى، دراسة د. إحسان عباس، طبعة: دار الشروق، القاهرة- مصر (ص٢٨).

٢ انظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٤/ ٩٩- ١٠٢).

إنَّ النعمة إذا طالت بالعبد ممتدَّةً أبطرته، فأساء حمل الكرامة، واستقلَّ العافية، ونسب ما في يديه إلى حيلته وحسبه وبيته ورهطه وعشيرته، فإذا نَزَلَت به الغِيَر، وانكشطت عنه عماية الغيِّ والسلطان؛ ذلَّ منقادًا، وندم حسيرًا، وتمكَّن منه عدوُّه قادرًا عليه قاهرًا له، ولو أراد أمير المؤمنين إفسادك لجمع بينك وبين من شهد فلتات خطلك، وعظيم زللك، حيث تقول لجلسانك: واللهِ ما زادتني ولاية العراق شرفًا، ولا ولَّاني أمير المؤمنين شيئًا لم يكن من قبلي ممَّن هو دوني يلي مثله!!؛ ولَعَمري لو ابتُلِيتَ ببعض مَقَاوِمِ الحجَّاج في أهل العراق، في تلك المضايق التي لقيَ؛ لعلمتَ أنك رجل من بجيلة؛ فقد خرج عليك أربعون رجلًا فغلبوك على بيت مالك وخزائنك، حتى قلتَ: أطعِمُوني ماء؛ دهشًا وبعلًا وجبنًا، فما استطعتهم إلا بأمان، ثم أخفرتَ ذمَّتَك؛ منهم رزين وأصحابه... إن الله -عزَّ وجلَّ- لمَّا رأى إحسان أمير المؤمنين إليك، وسوء قيامك بشكره؛ قلب قلبه فأسخطه عليك، حتى قبحتْ أمورك عنده، وآيسه من شكرك ما ظهر من كفرك النعمة عندك، فأصبحت تنظر سقوط النعمة، وزوال الكرامة، وحلول الخزي، فتأهَّب لنوازل عقوبة الله بك؛ فإن الله عليك أوجَدُ، ولِما عملتَ أكرَهُ، فقد أصبحت وذنوبك عند أمير المؤمنين أعظم من أن يبكتك، إلا راتبًا بين يديه، وعنده من يقررك بها ذنبًا ذنبًا، ويبكتك بما أتيت أمرًا أمرًا، فقد نسيتَه وأحصاه الله عليك، ولقد كان لأمير المؤمنين زاجر عنك فيما عرفك به من التَّسرُّع إلى حماقتك في غير واحدة؛ منها القرشي الذي تناولته بالحجاز ظالمًا، فضربك الله بالسوط الذي ضربته به مفتضحًا على رؤوس رعيَّتك، ولعلَّ أمير المؤمنين يعود لك بمثل ذلك، فإن يفعل فأهله أنت، وإن يصفح فأهله هو؛ ومن ذلك ذِكرُك زمزم، وهي سقيا الله وكرامته لعبد المطَّلب وهذا الحي من قريش، تسمِّيها أم جعار!! فلا سقاك الله من حوض رسوله، وجعل شرَّكما لخيركما الفداء، ووالله إن لو لم يستدلِلْ أمير المؤمنين على صنف نحائزك وسوء تدبيرك إلا بفسالة دخائلك وبطانتك وعمالك، والغالبة عليك جاريتك الرائفة بائعة الفهود

ومستعملة الرجال، مع ما أتلفت من مال الله في المبارك... واعلَمْ أنَّ ما بعد كتاب أمير المؤمنين هذا أشدُّ عليك، و أفسَدُ لك، وقِبَل أمير المؤمنين خَلَفٌ منك كثيرٌ، في أحسابهم وبيوتاتهم وأديانهم، وفيهم عوضٌ منك، والله من وراء ذلك".

ومن رسائل سالم إلى بعض إخوانه[1] **"أما بعدُ: فقد أصبحتُ عظيمَ الشُّكر لما سلف إليَّ منك، جسيمَ الرَّجاء فيما بقيَ عندك، فقد جعل الله مستقبل رجائي منك عونًا لي على شكرك، وجعل ما سلف إليَّ منك عونًا على مؤتَنَفِ الرَّجاء فيك".**

ومن رسائله في الاعتذار[2] **"أمتعَك الله وأمتعَ بك، لولا أنه إذا ضاق عليَّ المخرج لك؛ وسعك عذري؛ بسطتُ لسانَ لائمتي في تركِكَ لائمتي فيما خالفَ هواك".**

---

[1] انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٢/ ٣٦٩).
[2] انظر: المصدر السابق (٢/ ٣٧٠).

٢- عبد الحميد بن يحيى الكاتب

ترجمته:

هو أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعد -أو سعيد- من موالي بني عامر ابن لؤي بن غالب إحدى بطون قريش، وهو من أصول فارسية، وقد احترف التعليم أوَّل عهده وكان كثير التنقُّل بين البلدان إلى أن التحق بديوان الرسائل زمن هشام بن عبد الملك، وتعرَّف حينها بسالم أبي العلاء رئيس الديوان وكاتب هشام الأبرز، فحذق على يديه فنون الكتابة والتَّرسُّل وبدأت تظهر موهبته البيانية آنذاك، وكانت بينهما مصاهرة، وكتب عبد الحميد أثناء عمله مع سالم بعض الرسائل عن هشام، ولما آلت ولاية أرمينيا إلى مروان بن محمد انتقل معه إلى ولايته وتولَّى رئاسة ديوانه فذاع صيته وعلا ذكره وكان يكتب عن مروان الرسائل التي تصدر عن ديوانه.

ولما آلت الخلافة إلى مروان عام ١٢٧هـ/ ٧٤٤م انتقل معه إلى الشَّام فصار رئيسًا لديوانه وأصبح شيخ الكتَّاب في عصره، ويُروَى أن مروان لما كان في أرمينيا وجاءه البشير بالخلافة سجد كل من حضر إلا عبد الحميد، فقال له مروان: لِمَ لا تسجد؟ قال: ولم أسجد؟ أعَلَى أن كنتَ معنا فَطِرتَ عنَّا؟! فقال: إذًا تطير معي؛ فسجد، وهي رواية غير صحيحة ولا تتَّفق مع مسير الأحداث؛ لأن الثابت تاريخيًّا أن مروان لم يأتهِ بشير بالخلافة؛ وإنما رحل بنفسه طالبًا إيَّاها إبان نزاعه مع أبناء عمومته يزيد بن الوليد وسليمان بن هشام، وكان معه كاتبه عبد الحميد.

وكانت مدَّة مروان مدَّة اضطراب وثورات وفتن، لذا فقد كثرت رسائل عبدالحميد التي كان يكتبها عن مروان إلى ولاته وقادته، وظل مرافقًا له إلى أن هُزم مروان أمام العباسيين في موقعة الزاب عام ١٣٢هـ/ ٧٤٩م وانهارت الدولة الأموية، ففرَّ مروان من أمامهم، ويقال: إنه قال لكاتبه عبد الحميد حينها: قد

احتجْتَ أن تصير مع عدوّي وتُظهِر الغدر بي؛ فإنَّ إعجابهم بأدبك، وحاجتهم إلى كتابتك، تُحْوِجهم إلى حسن الظن بك، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد مماتي؛ وهنا رفض عبد الحميد وقال: إنَّ الذي أشرتَ به عليَّ هو أنفع الأمرين لك وأقبحهما إليَّ، ما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أُقتَل معك.

وظل وفيًّا لمروان ورافقه في فراره حتى قُتِل معه -على الأرجح- في معركة بوصير في صعيد مصر إبَّان تعقُّب العباسيّين له.

وقد اختُلِف في قصة نهاية عبد الحميد؛ فقيل: بل فرَّ من تلك الموقعة حتى قبض عليه الخليفة العباسي أبو العبَّاس السفاح -وقيل: بل أبو جعفر المنصور- فعذَّبه وقتله؛ وتزعم رواية أنه ذهب واختبأ عند دار رفيقه عبد الله ابن المقفَّع الذي تزعم بعض الروايات أنه حاول أن يفتديه بحياته؛ إذْ فاجأهما الطلب وسألوهما: من منكما عبد الحميد؟ فقال كلاهما: أنا هو عبدالحميد؛ وكادوا أن يؤخذوا ابن المقفَّع بدلًا منه، لكن عبد الحميد قال للطلب: ترفَّقوا بنا فإنَّ لكلٍّ منَّا علاماتٍ، فوكِّلوا بنا بعضكم وليمضِ البعض الآخر إلى من وجَّهكم فيذكر له تلك العلامات؛ ففعلوا، ثم أُخِذ عبد الحميد وقُتِل، غير أنَّه وفْق سياق الأحداث فإن رواية مقتله في معركة بوصير مع مروان أو عقب ذلك بقليل هي الأرجح والأكثر اتفاقًا، وعليه يكون مقتله نحو عام ١٣٢هـ/٧٥٠م.[١]

منزلته وأسلوبه:

لم تكن الكتابة قبل سالم وعبد الحميد فنًّا مستقلًّا ولا أدبًا يحتذِي شكلًا منتظمًا، إلا أن إرهاصات تطوُّرها كانت قد ظهرت بوضوح مع نشاط الدواوين واهتمام الأمويين وولاتهم بها وما رافق ذلك من عناية وتدبيج، ثم جاء سالم أوَّلًا فارتقى بالكتابة وبدأت تتَّضح معه معالم فنِّها، ثم جاء من بعده تلميذه عبد الحميد فسار في هذا الفن شوطًا عظيمًا ونقل الكتابة الديوانية وكذلك

١ انظر: عبد الحميد بن يحيى، إحسان عباس (ص٤٤- ٤٧).

الإخوانية إلى طور آخر متفوّقًا على أستاذه، وأصبحت على يديه فنًّا مُستقلا مرموقًا له أصوله، وصناعة لها قواعدها ومبادئها، وصارت تنافس الخطابة وتكافئ الشعر بعد أن كانت مجرَّد أداة تقتضيها الحاجة والضرورة، والنقاد مجمعون أنَّ الفضل في تطوُّر فن الكتابة وتحوُّلها إلى فنٍّ مستقلٍّ يرجع بشكل رئيسٍ إلى عبد الحميد الكاتب.

ولا شك أن عبد الحميد كان أبلغ الكتَّاب وأروعهم ولم يُعرَف في عصر بني أمية من فاقه منزلةً وبيانًا، وقد قِيل في عبد الحميد ومنزلته أقوال كثيرة فكان يُقال: فُتِحت الرسائل بعبد الحميد وخُتِمت بابن العميد[1] ويقول ابن النديم: عنه أخذ المترسِّلون ولطريقته لزموا، وهو الذي سهَّل طريق البلاغة في التَّرسُّل[2].

وكان عبد الحميد ذا ثقافة ودراسة واسعة؛ فقد كان على اتصال بالثقافة الفارسية؛ كونه فارسيَّ الأصل، وهو ما يثبت أن الكتابة الفنِّية لم تبلغ هذا المبلغ ولم تتحوَّل إلى صنعة أدبية أصيلة إلا بعد امتزاج الثقافات الأجنبية مع الثقافة العربية، وكان متقنًا للغة العربية وعالمًا بأدبها وأشعارها، وهذا يتَّضِح من تأثُّره بأستاذه سالم الذي كان مرحلة لتأصُّل فن الكتابة، وكذلك تأثُّره الواضح بالحسن البصري وواصل بن عطاء في سياق كلامه وإطناب تحميداته، وقد ساهم في شهرة رسائل عبد الحميد كذلك أن مدة مروان كانت مدة اضطراب وثورات وأحداث متلاحقة، فكثرت على إثر تلك الأحداث الرسائل التي كانت تصدر عن مروان إلى ولاته وقادته، ولا سيَّما رسائله إلى والي خراسان ومن قِبَله من العرب بخصوص الثورة العباسية، وهو ما أمكن من حفظ عددٍ من رسائله وكتاباته.

وقد كان عبد الحميد مدرسة كتابية فنية تأثَّر بها عدد من الكتاب الذين تلوه في العصور التالية مثل عبد الله بن المقفَّع ويعقوب بن داود وزير الخليفة العبَّاسي المهدي وأحمد بن يوسف وسهل بن هارون[3] ثم الجاحظ ومن بعدهم ابن

---

١ أبو الفضل محمد بن الحسين العميد كاتب عباسي.

٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٢/ ٤٧٣- ٤٧٥).

٣ انظر: عبد الحميد بن يحيى، إحسان عباس (ص٥٩).

العميد، وكلهم شكَّلوا مراحل تطوُّر أسلوبية مختلفة كان أساسها وقاعدتها عبد الحميد.

وكان عبد الحميد أيضًا ذا خُلق ووفاء وإخلاص، وأخباره مع مروان -ولا سيَّما ملازمته بعده في فراره بعد موقعة الزاب حتى قُتل معه- دليلٌ على وفائه وإخلاصه، وله عدَّة مواقف في أخباره تشير إلى سموِّ خُلُقِه وحسن خلاله، ومما قيل فيه تعبيرًا عن بلاغته وعلوِّ منزلته[1]:

لَتَفَنَّنْتُ فِي الكتابةِ حتَّى عطَّلَ النَّاسُ فنَّ عبدِ الحميدِ

أما أسلوبه الفني في الكتابة فقد كان عذب اللفظ، صافي المورد، بهيَّ الرونق والإيقاع، يعتمد بشكل رئيسٍ على الازدواج ومرادفة العبارات ومزاوجتها، ويميل كذلك إلى الإطناب، فكان يُطيل أحيانًا بشكلٍ غير مألوفٍ، ويشير النقاد أنه أوَّل من أطال في التحميدات التي تُفتَتَح بها الرسائل بعد أن كانت الرسائل قبله تُفتَتَح فقط بتحميدة قصيرة موجزة؛ متأثِّرًا بالحسن البصري وواصل ابن عطاء في هذا الجانب، وكانت معانيه عميقة وغزيرة، وألفاظه عذبة منتخبة ذات رونق وحلاوة ليس فيها تغريب أو توعُّر أو تعقيد، وكان يجنح في كتابته إلى إحكام الصياغة والمطابقة والتصوير البياني الذي أضاف إلى كتابته مزيدًا من الروعة والبيان والإبداع.

وقد أبدع عبد الحميد في الرسائل الديوانية فأطنب وأبدع وأطال التحميدات ووثب بها فصارت صناعة لها أصولها وملامحها، كما كان له دور في نموِّ الرسائل الإخوانية، وله عدة رسائل في إطارها تدور حول التعزية والنُّصح والشطرنج ووصف الإخاء ووصف الصيد.

وكان أسلوب عبد الحميد يسبي العقول ويؤثر في الشعور وكان له مفعول السحر، حتى يُروَى أنه أرسل رسالة إلى أبي مسلم الخراساني زعيم ثورة

---

[1] انظر: المصدر السابق (ص١٩).

العباسيين في خراسان يحاول استمالته وكفَّ ثورته، فأبَى أبو مسلم قراءتها ومزقها وأحرقها وكتب على جذاذة منه متمثِّلًا[1]:

مَحا السَّيْفُ أسطارَ البلاغةِ وانتَحَى عليكَ لُيُوثُ الغابِ مِن كلِّ جانبِ

نماذج من رسائله:

- كتب عبد الحميد رسالة عن هشام إلى يوسف بن عمر وهو باليمن[2]: "**فإنَّ أمير المؤمنين كتب إليك، وهو في نعمة الله عليك، وبلائه عنده في ولده وأهل لُحمته، والخاص من أموره والعام والجنود، والقواصي والثُّغور، والدَّهماء من المسلمين، على ما لم يَزَلْ وليُّ النِّعم يتولَّاه من أمير المؤمنين، حافظًا لما فيه، مُكرِمًا له بالحياظة؛ لما ألهمه الله فيه من أمر رعيَّته على أعظم وأحسن ما كان يحوطه فيه، ويذُبُّ له عنه، والله محمودٌ مشكورٌ إليه فيه مرغوب.**

أحَبَّ أمير المؤمنين لعِلمِه بسرورك أن يَكتب إليك بذلك؛ لتحمدَ الله عليه، وتشكرَه به؛ فإنَّ الشُكر من الله بأحسن المواضع، وأعظم المنازل، فازدَدْ منه تزددْ به، وحافظ عليه تُحفَظ به، وارغب فيه يُهْدَ إليك مَزيدٌ من الخير، ونفائس المواهب، وبقاء النعم، فاقرأ على من قِبَلَك كتاب أمير المؤمنين إليك، ليُسرَّ به جندُك ورعيَّتُك، ومن حمَّله الله النعم بأمير المؤمنين؛ ليحمدوا ربَّهم على ما رزق عباده من سلامة أمير المؤمنين في بدنه، ورأفته بهم، واهتمامه بأمورهم؛ فإن زيادة الله تعلو شكر الشَّاكرين، والسَّلام".

- وكتب رسالة عن مروان إلى هشام بن عبد الملك يعزِّيه في امرأةٍ من حظاياه[3]: "**إنَّ الله أمتعَ أميرَ المؤمنين من أنيسته وقرينته متاعًا مُدَّةً إلى أجلٍ مُسَمَّى،**

---

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص١٩٩).
٢ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٢/ ٣٧٠- ٣٧١).
٣ انظر: المصدر السابق (٢/ ٣٧١).

فلمَّا تمَّت له مواهب الله وعاريته؛ قبض الله العارية، ثم أعطى أمير المؤمنين من الشُّكْرِ عند بقائها، والصَّبر عند ذَهابها؛ أنفَسَ منها في المنقلب، وأرجَح في الميزان، وأسنى في العوض، فالحمد للهِ ربِّ العالمين، و إنَّا لله و إنَّا إليه راجعون".

- ومن أجمل تحميداته[1]"الحمد لله العليّ مكانه، المنير برهانه، العزيز سلطانه، الثابتة كلماته، الشافية آياته، النافذ قضاؤه، الصادق وعده، الذي قدر على خلقه بملكه، وعزَّ في سمواته بعظمته، ودبر الأمور بعلمه، وقدَّرها بحكمه، على ما يشاء من عزمه، مبتدعًا لها بإنشائه إيَّاها، وقُدرَته عليها، واستصغاره عظيمَها، نافذًا إرادته فيها، لا تجري إلا على تقديره، ولا تنتهي إلا إلى تأجيله، ولا تقع إلا على سبق من حتمه، كل ذلك بلطفه وقدرته، وتصريف وحيه، لا مَعْدِل بها عنه، ولا سبيل لها غيره، ولا يعلم أحد بخفاياها ومعادها إلا هو؛ فإنه يقول في كتابه الصادق: **(وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)**[2]!

- وكتب رسالة إلى عموم معاشر الكتَّاب، فيها نصائح رائعة، وهي رسالة مطوَّلة، نُورِد بعض فصولها، وقد جاء منها[3]:"أما بعدُ: حفِظكم الله يا أهل هذه الصناعة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم؛ فإن الله جلَّ وعزَّ، جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين -صلواتُ الله عليهم أجمعين- ومن بعد الملوك المكرَّمين سُوقًا، وصرَّفهم في صنوف الصناعات التي سبَّب منها معاشهم، فجعلكم معشر الكتَّاب في أشرفِها صناعة، أهل الأدب والمروءة والحِلم والرَّوِيَّة، وذوي الأخطار والهمم وسَعَة الذَّرع في الإفضال والصِّلة.

---

١ انظر: المصدر السابق (٢/ ٤٧٠).
٢ سورة الأنعام: ٥٩.
٣ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت- لبنان، (٢/ ٤٥٥-٤٦٠).

بكم ينتظم الملك، وتستقيم للملوك أمورهم، وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم ويجتمع فيهم، وتعمر بلادهم، يحتاج إليكم الملك في عظيمِ مُلكِه، والوالي في القدر السَّنِيّ والدَّنيّ من ولايته، لا يستغني عنكم منهم أحد، ولا يُوجَدُ كافٍ إلا منكم، فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعون، و أبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، و أيديهم التي بها يبطشون، أنتم إذا آلت الأمور إلى موئلها وصارت إلى محاصلها، ثقاتُهم دون أهليهم وأولادهم وقرابتهم ونُصَحائهم، فأمتعكم الله بما خصَّكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم سربال النِّعمة عليكم.....

فنافِسُوا معشرَ الكُتَّاب في صُنُوف العلم والأدب، وتفقَّهوا في الدِّين، و ابدؤوا بعلم كتاب الله -عزَّوجلَّ- والفرائض، ثم العربيَّةِ فإنَّها ثِقاف ألسنتكم، وأجيدوا الخطَّ فإنَّه حِلْية كتبِكم، وارْوُوا الأشعارواعرِفوا غريبَها ومعانيَها، و أيَّامَ العرب والعجم وأحاديثَها وسِيَرَها؛ فإنَّ ذلك مُعِينٌ لكم على ما تَسْمُون إليه بِهِمَمِكم، ولا يضعُفَنَّ نظرُكم في الحساب فإنه قِوَامُ كتاب الخَراج منكم، وارغَبُوا بأنفسكم عن المطامع سَنِيِّهَا ودَنِيِّهَا، ومساوئ الأمورومَحاقرها؛ فإنَّها مذلَّة للرقاب، مَفسدَةٌ للكُتَّاب، ونزِّهوا صِناعتَكم، واربَؤوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الدَّناءة والجهالة، و إيَّاكم والكِبْرّوالعظمةَ؛ فإنها عداوةٌ مُجتَلَبَةٌ بغيرِإحنة، وتحابُّوا في الله -عزَّوجلَّ- في صناعتِكم، وتَوَاصَوْا عليها فإنها شيم أهل الفضل والنُّبل من سَلَفِكم، وإن نبا الزمان برجلٍ منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى ترجع إليه حالته، ويثوب إليه أمره، وإن أَقعَد الكِبَرُ أحدَكم عن مكسبه ولقاء إخوانه؛ فزُورُوه وعظِّموه وشاوِرُوه، واستظهِروا بفضل رأيه وتجربته وقديمِ معرفتِه.....".

- وكتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان يشكو ضيق أحواله[1]: **"أما بعدُ: فإنَّ الله تعالى جعل الدنيا محفوفةً بالكُره والسُّرور، فمن ساعده الحظُّ فيها سكن إليها، ومن عضَّته بناتها ذمَّها ساخطًا عليها، وشكاها مستزيدًا لها، وقد كانت أذاقتنا أفاويق استحلیناها، ثم جمحت بنا نافرة، ورمحَتْنا مُوَلّيَةً، فمَلُح عذبُها، وخَشُن ليِنُها، فأبعدَتْنا من الأوطان وفرَّقتنا عن الإخوان، فالدَّار نازحةٌ، والطَّير بارحةٌ، وقد كتبتُ والأيام تزيدنا منكم بُعدًا، وإليكم وجدًا، فإن تتمَّ البليَّة إلى أقصى مُدَّتها يَكُنْ آخر العهد بكم وبنا، وإن يلحقنا ظُفُرٌ جارحٌ من أظفار من يليكم؛ نرجع إليكم بذُلِّ الإسار، والذُّلُّ شرُّ جارٍ، نسأل الله الذي يُعزُّ من يشاء ويُذلُّ من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفةً جامعة، في دار آمنة، تجمع سلامة الأبدان والأديان؛ فإنَّه ربُّ العالمين وأرحم الراحمين".**

<<

١ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٢/ ٤٨٦- ٤٨٧).

التوقيعات

كتب عبد الله بن جعفر إلى الخليفة يزيد بن معاوية يستوهبه جماعة من أهل المدينة، فوقَّع على كتابه **"من عَرَفْتَ فهو آمِنٌ"**، ووقع يزيد كذلك على كتاب مسلم بن عقبة قائد الجيش الذي اقتحم المدينة في واقعة الحرة: **(فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)**[1] ووقع عبد الملك بن مروان إلى الحجاج إجابةً لطلب عليِّ بن الحسين بالأمان إثْر مقتل ابن الزبير: **"جنِّبني دماءَ بني عبد المطَّلب؛ فليس فيها شفاءٌ من الطَّلب"**، ووقَّع إليه كذلك ردًّا له على شكواه من أهل العراق: **"ارفق بهم؛ فإنه لا يكون مع الرِّفق ما تكره، ومع الخرق ما تحب"**، ووقَّع الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز: **"قد رأبَ الله بك الدَّاء، وأوذَمَ بك السِّقاء"**، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له يسأله في بناء بمدينته قائلًا: **"ابنِها بالعدل، ونقِّ طُرُقَها من الظُّلم"**، ووقَّع لبعض عمَّاله: **"حصِّنها ونفسَك بتقوَى الله"**، وكتب لعاملٍ له: **"كن من الموت على حذرٍ"**، ومن بين توقيعاته: **"لا تَطلُبْ طاعةَ من خذلَ عليًّا؛ وكان إمامًا مرضيًّا"**، **وكتب يزيد بن عبد الملك في قصة متظلِّمٍ: (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ)**[2] ووقَّع هشام في قصة متظلِّمين: **"إن صحَّ ما ادَّعيتُم عليه؛ عزلناه وعاقبناه"**، وردَّ على متظلِّم آخر: **"أتاك الغوثُ إن كنتَ صادقًا، وحلَّ بك النَّكال إن كنتَ كاذبًا، فتقدَّمْ أو تأخَّرْ"**، ووقَّع يزيد بن الوليد إلى مروان ابن محمد وقد تلكَّأ في بيعته: **"أراك تقدِّم رِجْلًا وتؤخِّر أخرى، فإذا أتاكَ كتابي هذا فاعتمِدْ على أيِّهما شِئتَ"**، وكان نصر بن سيَّار أمير خراسان كتب إلى مروان ابن محمد يشكو عجزه عن مقاومة العباسيِّين قائلًا: **"التؤلول قد اشتدَّت أعضاؤه، وعظمت نِكاته"**، فردَّ عليه مروان قائلًا: **"يداكَ أوكَتا وفُوكَ نَفَخَ"**؛ وهو مَثَلٌ جاهليٌّ يُطلَق على من أساء التَّدبير؛ والسبب أن نصر قد تعصَّب

---

١ سورة المائدة: ٢٦.
٢ سورة الشعراء: ٢٢٧.

لقومه المضريَّة، فاختلف عليه أهل اليمن وربيعة والموالي فخذلوه؛ ووقَّع كذلك مروان بن محمد إلى واليه على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة بعد هزيمته أمام جيوش العباسيين: **"هذا -واللهِ- الإدبار، وإلا فمَن سمع بميّتٍ هزم حيًّا؟!"**؛ وسبب تعجُّبِه أن جيش العباسيِّين بقيادة قحطبة ين شبيب قد هزم جيش الأمويّين بقيادة ابن هبيرة، ولكن الغريب أن المنتصر غرق في النَّهر بينما المنهزم أفلت من المعركة حيًّا![1]

١ انظر: التوقيعات المختارة في: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (٢/ ٤٩١-٥٠٤).

الخاتمة

وبعدُ..

وبهذا نكون قد انتهينا من الجزء الثاني من سلسلة كتابنا "تاريخ الآداب العربية"؛ الذي نتناول فيه الحديث عن عصرين معًا؛ هما عصر صدر الإسلام الذي افتُتِح ببدء الرسالة النَّبويَّة لصاحبها ﷺ حتى انتهاء عصر الخلفاء الراشدين، ثم العصر الأموي الذي بدأ بقيام الدولة الأمويَّة على يد معاوية ابن أبي سفيان ثم انتهائها مع آخر خلفائهم مروان بن محمد.

وقد نبَّهنا أن عددًا من مؤرخي الأدب قد جعلوا العصرين عصرًا واحدًا وقسَّموا شعراءه بين مخضرمين وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، وإسلاميين وهم الذين وُلِدوا على الإسلام، ولكنَّا فضَّلنا أن ندرس كل عصر على حدةٍ كما فعل الدكتور شوقي ضيف في مجموعته، وإن كنَّا قد اتَّبعنا نهجًا مختلفًا؛ وذلك لأن العصر الأموي قد حمل ملامح جديدة في أدبنا العربي لم يعرفها عصر صدر الإسلام، فكانت دراستنا على هذا النَّحو تمنحنا سعة لدراسة ملامح الشعر وخصائصه الفنِّيَّة بشكلٍ أدقَّ وأكثر تفصيلًا.

وقد اتَّبَعنا في هذا الجزء من الكتاب نفس السياق والنمط الذي اتَّبَعناه في دراسة الأدب الجاهلي في الجزء الأول؛ من حيث إعطاء فكرة عن العصر من جوانبه السياسية والاجتماعية والثقافية، ثم دراسة الشعر ثم أعلام الشعراء، ثم النثر ثم أعلام الخطباء وكُتَّاب الرسائل.

وقد كان الباب الثاني مخصَّصًا لدراسة الأدب في عصر صدر الإسلام، معرِّفين به أوَّلًا ثم شارحين أحواله وظروفه السياسية، وقد قسَّمناه إلى ثلاث مراحل؛

هي: مرحلة الدَّعوة النَّبويَّة في مكة ثم مرحلة الدَّعوة النَّبويَّة في المدينة ثم عصر الخلفاء الراشدين، مبيّنين أن العصر الجاهلي لم ينتهِ فجأة بعد نزول الوحي على النَّبيِّ ﷺ؛ وإنَّما ظلَّ ماثلًا ثم أخذ يختفي ويضمحلُّ تدريجيًّا حتى انتهى تمامًا إثْر فتح مكة ثم دخول عامَّة العرب في الإسلام، ثم تحدَّثنا عن عصر الخلفاء الراشدين وما فيه من حروب وفتوحات.

ووضَّحنا كذلك أثر الإسلام في نفوس العرب؛ إذْ جعلهم أمَّةً واحدة بعدما كانوا متنازعين ومُشتَّتين، وما أحدثه فيهم من ارتقاء خُلُقِيٍّ واجتماعي وثقافي، وأعطينا نبذة عن الحياة الثقافية والعقلية في هذا العصر.

ثم تناولنا كذلك الحديث حول العوامل الثلاثة التي أثَّرت في الأدب، والمناهل التي نهل منها؛ وهي: القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، بالإضافة إلى الأدب الجاهلي؛ فتحدَّثنا عن القرآن ومعجزته وأثره على اللغة والبلاغة وعن بعض الجوانب فيه، وكذلك عن السُّنَّة النَّبويَّة ودورهما معًا في تحديث الأدب عن طريق تهذيب لفظه، وترتيب أفكاره، وتنقيح أغراضه وموضوعاته، ثم أَتْبَعنا ذلك بالحديث عن الشعر وخصائصه وسماته وأغراضه وموقف الإسلام منه وعموم حالته التي أصابها شيء من الضَّعف والركود وتراجُع المنزلة، موضِّحين أن أسباب هذا الركود والضعف ليست فنِّيَّة؛ وإنَّما كانت بسبب الظروف الجديدة التي طرأت على العرب واهتمامهم بالقرآن والسُّنَّة وبمناصرة الدَّعوة، ممَّا صرفهم عن الشعر نوعًا ما، دون أن ينضبَ مَعِين الأدب تمامًا؛ إذْ إنَّ هناك أصواتًا شاعريَّةً قويَّةً ظهرت في تلك الحقبة القصيرة من تاريخ الإسلام، وقد تناولنا تراجم شعراء هذا العصر مبتدئين بالشعراء الخمسة الأبرز فيه؛ وهم: حسَّان بن ثابت وكعب ابن زهير والخنساء والحُطيئة والنابغة الجعدي، ثم تناولنا في بابٍ آخر سائر الشعراء المخضرمين، مصنَّفين؛ مثل: شعراء مكة والمدينة وشعراء الحماسة

والحكمة والرثاء، بالإضافة إلى شعراء القبائل العربية، مع بعض النماذج المختلفة لشعراء آخرين.

ثم تناولنا الحديث عن النثر بشقَّيْه الخطابة والتَّرسُّلِ، وشرحنا مواصفات الخطابة وخصائصها في هذا العصر وكيف تطوَّرت وكيف عضَّدها الإسلام وكيف صارت أكثر تماسكًا وأتمَّ منطقًا وأسلوبًا، وعرضنا مجموعة من الخطب مع بسط ترجمة خاصة لخُطَبِ النَّبيّ ﷺ ثم للخفاء الراشدين، جاعلين للإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- ترجمة خاصة؛ نظرًا إلى مكانة بلاغته وأهمية الحديث عن موهبته -رضي الله عنه- مما استوجب منَّا بَسْطَها في ترجمة خاصة، ثم أوردنا بعد ذلك بعض الخُطَب لخطباء آخرين في مواضع مختلفة، وختمنا حديثنا في هذا العصر بإيراد بعض نماذج الرسائل الديوانية، شارحين كيفية تطوُّرها وأهميتها؛ كونها صارت وسيلة الاتصال الرئيسَةَ بين الخليفة وقادته في مختلف البلدان، ومررنا أيضًا ببعض ملامحها الفنية والبلاغية.

ثم تناولنا الحديث عن العصر الأموي، وافتتحنا حديثنا فيه عن تعريفه ثم تناول خصائصه السياسية أوَّلًا، ونظرًا إلى تعقُّد الظُّروف السياسية في هذا العصر فقد وزَّعنا حديثنا حول ثلاثة بنود أوَّلها عن دولة الخلافة نفسها، وثانيها كان نبذةً عن الأحزاب السياسية المتصارعة حينها من أموية وزُبيريَّة وشيعة وخوارج، ثم كان البند الثالث عن الفتوحات الإسلامية في مختلف جبهاتها؛ وقد كان هدفنا من هذا التقسيم هو إعطاء فكرة شاملة عن الأحوال السياسية بشكل موجزٍ يُمَكِّننا من ربطها الأدب بحيث لا نغفل بعض المعلومات المهمة المرتبطة ببحثنا ولا نلجؤ أيضًا فيه إلى الإغراق في التفاصيل التي قد تُخرِجنا عن موضوع بحثنا.

ثم تناولنا فيه الحديث عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية وأنَّ الحياة في العصر الأموي كانت حياة ترف ونعيم ورخاء لم تتأثَّر بالفتن التي كثرت في هذا العصر، وألممنا ببعض ملامح الانفتاح التي ظهرت في هذا العصر من بدء اختلاط العرب بالعجم وامتزاج الثقافات الأجنبية بالعربية، موضِّحين أنَّها وإن لم تبلغ بعض درجة القمَّة والنضوج فقد كان لها أثر عظيم في أدب هذا العصر.

وقد تناولنا الحديث عن شيوع اللحن ونشوء العامية وعن الحياة العقلية والعلمية موضِّحين ازدهار نشاط العلوم الدينية واللغوية في هذا العصر، وبدء نمو وتطوُّرِ العلوم العقلية الأخرى -كالطب والهندسة والفلك- التي وإن لم تبلغ القمَّة في هذا العصر فإنها كانت تباشير مهمَّة للازدهار الثقافي الذهبي الذي حدث في العصر العباسي الذي تلا العصر الأموي.

ثم تناولنا دراسة الشعر في العصر الأموي وما فيه من خصائص وملامح ومظاهر تطوُّر، وشرحنا أغراضه التي نشطت في هذا العصر؛ خصوصًا الشعر السياسي الذي عبَّر عن هذا العصر تعبيرًا دقيقًا تاريخيًّا وثقافيًّا وأدبيًّا، وكذلك شعر النقائض، وقد فصَّلنا كيف نشأ وتطوَّر وكيف أنه عبَّر أيضًا عن الحياة الاجتماعية والعصبيَّة القبليَّة، وأوردنا نصوصه وذكرنا بعض أقطابه، ومررنا كذلك بالغزل ورأينا كيف تطوَّر وازدهر وتميَّز إلى قسمين: عُذري عفيف وصريح، وتناولنا كذلك سائر الأغراض الشعرية ومن بينها الرجز الذي تطوَّر في هذا العصر ليكافئ القصيد بعدما كان مهمَلًا لا يُعدُّ شعرًا تامًّا كامل الخصائص، وقد مررنا ببعض الملامح الجديدة التي عرفها الشعر الأموي؛ مثل إرهاصات الثورة على المقدِّمة الطَّللية وبدء ظهور الميل إلى الأوزان الخفيفة والسهلة بجانب البحور الطويلة التي كان عليها أغلب الشعر العربي القديم.

ثم تناولنا شعراء هذا العصر، وقد جعلنا فصلًا للشعراء الخمسة الأبرز في هذا العصر وهم: الأخطل والفرزدق وجرير بالإضافة إلى الرَّاعي النميري وذي الرُّمَّة، ثم بابًا آخر خصصناه لأشهر الشعراء المتيَّمين وهم: قيس بن الملوح وقيس ابن ذُريح وجميل بثينة، بالإضافة إلى عمر بن أبي ربيعة، ثم جعلنا بابًا آخر لطوائف من الشعراء الآخرين مُصنَّفين؛ مثل: شعراء الخوارج وشعراء المذاهب السياسية وشعراء الغزل والزهد واللهو وشعراء البادية وشعراء آخرين، بالإضافة إلى الرُّجَّاز، مع نماذج شعرية متفرقة.

وتناولنا بعدها الحديث عن النثر فجعلنا بابًا للخطابة ورأينا كيف نشطت وزهت في هذا العصر، ودرسنا أسباب تطوُّرها وازدهارها وبعض ملامحها وخصائصها الفنِّيَّة واللُّغويَّة وما أفصحت عنه من بيان وبلاغة وكيف أنَّها عبَّرت عن عصرها تعبيرًا دقيقًا، وما حوته من أسرار وبلاغة، وكيف أن العرب قد أتقنوا الخطابة واحترفوا فنونها، ونظرًا إلى كثرة الخطباء المفوَّهين فقد أوردنا تراجمهم مصنَّفين وفق طبيعة خطبهم وأحوالهم إلى: خطباء بني أمية وخطباء الولاة والقادة وخطباء الخوارج والشِّيعة والزُّبيريين، بالإضافة إلى خطباء المحافل والوعظ الديني، وقد منحنا تفصيلًا فنيًّا أكبر لمن كانت خُطَبُه أبلغ وأروع بيانًا؛ وهم: زياد بن أبيه والحجَّاج بن يوسف والحسن البصري وأبو حمزة الخارجي، ولم نستطع أن نجعل لهم فصلًا خاصًّا كما فعلنا في الشعر نظرًا إلى كثرة الخطباء في هذا العصر، فوضعنا تراجمهم وفق التصنيف الذين اتَّبعناه، مع بسطِ تفصيلٍ أكثر عن بلاغتهم وخُطَبِهم.

وبعدما تناولنا فنون التَّرسُّل والكتابة وكيف أنَّها زهت هذا العصر ونشطت نشاطًا واسعًا، ولا سيَّما الرسائل الديوانية والتي يُعزَى نشاطها إلى تطوُّر أنظمة الدواوين في العصر الأموي وما جرى فيه من أحداث سياسية وثورات وفتن وصراعات أدَّت إلى نشاط الرسائل الديوانية والسياسية، ورأينا أن الرسائل

ظلَّت في عموم العصر الأموي امتدادًا لعصر صدر الإسلام من حيث خصائصها الفنية، وأنَّها لم تكن آنذاك فنًّا مستقلًّا؛ إنما كانت وسيلة للأغراض الضرورية، ومع هذا فقد نشطت نشاطًا واسعًا حتى أوشكت أن تصبح فنًّا مستقلًّا ذا أصول، وأنَّها بلغت تلك الرتبة فعلًا في أواخر العصر الأموي مع سالم أبي العلاء أوَّلًا ثم بصورةٍ أتمَّ وأعلى مع عبد الحميد الكاتب إمام كُتَّاب عصره، فأصبح التَّرسُّل فنًّا أصيلًا وأصبحت الكتابة تكافئ الخطابة في أثرها وأهيمتها وروعتها وتعدَّدت فيما بعدُ فنونها.

وقد عنينا في هذا الجزء من الكتاب بالاعتماد على المصادر الموثوقة في إيراد النماذج الشعرية والنثرية كما فعلنا في الجزء الأول، وكانت أغلب مصادرنا هي نفسها مصادرنا في الأدب الجاهلي تقريبًا في الشعر؛ مثل المفضليات والأصمعيات والجمهرة ومنتهى الطلب والشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن سلام وحماسة أبي تمام، فضلًا عن الحماسة البصرية أحيانًا، وكذلك البيان والتبيين للجاحظ في النثر؛ الذي زادت أهميته إلى درجة كبيرة مع جمهرة خطب العرب وجمهرة رسائل العرب، وقد أضفنا بعض المصادر الجديدة مثل نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة، ونقائض جرير والأخطل لأبي تمام، وشعر الخوارج لإحسان عباس، وكذلك الكامل في اللغة والأدب للمبرد، وزهر الألباب للقيرواني في النثر؛ وهي مصادر لم تكن معنا في الجزء الأول لأنَّها اختصَّت فقط بالأدب الإسلامي وما تلاه وليس الجاهلي، بالإضافة إلى تاريخ ابن جرير الطبري الذي حفظ لنا الكثير من الخطب والرسائل الإسلامية.

وقد اعتمدنا كذلك على كتب التاريخ الأدبي التي تناولت هذا العصر لشوقي ضيف والرافعي والزيات وحنا الفاخوري والهاشمي، وفي التاريخ اعتمدنا على تاريخ الطبري والبداية والنهاية لابن كثير، أما بخصوص الآيات القرانية فقد

أوردنا في الهامش أرقامها ومواضعها، وأما الأحاديث النبوية فقد أوردنا مصادرها بأرقامها في الصحيحين وفي كتب السنن وغيرها من كتب الحديث.

ولم نشأ التَّوسُّع في الدواوين المفردة لشعراء عصر صدر الإسلام تفاديًا لقضية الانتحال التي لم تختفِ في عصر صدر الإسلام بسبب عدم التدوين، وفضَّلنا مصادر الرواة الموثوقة التي ذكرناها باستثناء دواوين كعب بن زهير والخنساء والحُطيئة، أما في العصر الأموي فقد بدأنا نلجؤ إلى الدواوين المفردة التي كانت أوثَقَ روايةً؛ لقربها من عصور التَّدوين؛ حيث قلَّ الانتحال نوعًا ما باستثناء ما نبَّهنا عليه من اختلاط بعض أشعار شعراء الغزل، والشَّك في ميميَّة الفرزدق الشهيرة التي تخص مديح الإمام زين العابدين علي بن الحسين، ومناظرة الحسن لمعاوية في خطبةٍ تَرَجَّح عندي أنها منحولة، كما ينبغي التَّنبيه على أنَّنا اعتمدنا على كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني في كثير من أخبارنا التي أوردنا في العصر الأموي، بدلًا من الشعر والشعراء لابن قتيبة؛ إذْ إن ابن قتيبة قد روى كثيرًا من الأخبار لشعراء الجاهلية والمخضرمين بينما لا نصل إلى العصر الأموي حتى نرى ابن قتيبة لا يأتي بأخبار كثيرة عن الشعراء الإسلاميين بما يشبع رغبة الباحث، لذا كان كتاب الأغاني بديلًا عنه في إيراد تلك الأخبار رغم ما أُخِذ عليه من عدم الدقة أحيانًا، فأوردنا منه أخبارًا مع التَّنبيه.

وبهذا الجزء الثاني نكون قد ختمنا حديثنا عن المدة الأولى من التاريخ الأدبي المبكر في عصوره الثلاثة: الجاهلي والإسلامي والأموي؛ إذْ إن عموم الشعر مع العصر العباسي قد بدأ يتَّخذ منحنًى جديدًا بعد نهاية العصر الأموي ومع بروز الشعراء المولَّدين؛ وذلك لعدة أسباب وعوامل نتحدث عنها لاحقًا؛ فالشعر ظلَّ في العصرين الإسلامي والأموي امتدادًا لنفس النمط والسياق الجاهلي القديم المبني على الجزالة والفخامة وقوة الأسلوب وطغيان روح البداوة وغلبة الأصالة والثقافة العربية، صحيح أنه قد حدثت تطوُّرات عدَّة في الشعر الإسلامي

نراها في تهذيب ألفاظه وترتيب أفكاره وتجديد أغراضه، ثم ما نراه في العصر الأموي من بدء التأثر بجوّ المدنية والميل إلى الرّقَّة واللِّين بسبب شيوع اللهو والترف، مع ظهور إرهاصات أوَّليَّة للثورة على المقدِّمة الطللية والأوزان التقليدية الطويلة، ونمو الشعر السياسي والديني؛ كلها شواهد تدلُّ على أن العرب لم ينتظروا العصر العباسي وقدوم المولَّدين حتى يجدِّدوا في شعرهم؛ ولكن ملامح التجديد تلك كانت قاصرة على أغراضه وموضوعاته وتهذيب ألفاظه، أمَّا من الناحية الفنِّيَّة والأسلوبيَّة فقد بقيَ الأمر على سياقه دون حدوث كبيرِ تغييرٍ.

ونرجو أن نكون في هذا الجزء قد أعطينا صورةً وافيةً عن الأدب في هذا العصر شعرًا ونثرًا، بعدما ألممنا بشكل عام عن الأدب الإسلامي والأموي بخصائصه وسماته وفنونه وأحوال وحياة العرب فيه، وما ورد في ذلك من شعر وأخبار وتواريخ.

تم بحمد الله

الجزء الثاني من كتاب

"تاريخ الآداب العربية"

الخاص

بعصر صدر الإسلام

والعصر الأموي

ملحق بمعاني المفردات الغريبة

ص	المعاني
٤٠	الضلع: الاضطلاع بالأوامر.
٤١	رتق الفتق: خاطه. بور: ضال هالك.
٤٢	فئام: الجماعة من الناس.
٤٤	البريص: نهر في دمشق. بردى: ماء نهر بردى. السلسل: المستساغ العذب.
٤٧	نبا: تجافى وتباعد. مذودي: لساني لأنه يذاد به. يهتصر: في رواية يعتصر. يفللن: يثلمن. مبردي: كناية عن صبره وجلده. الذوائب: من ذؤابة الشيء؛ وهو أعلاه. يعني الأشراف والسادة.
٤٨	حريد: معتزل عن جماعته. ذمار: كل ما ينبغي حمايته.
٤٩	أسحم: سحاب أسود. الرامسات: الرياح التي تدفن الآثار. الأشعث: الوتِدُ. مطفل: ذات طفل. الخمائل: الشجر الكثيف. نجاء الرواحل: سرعتها.
٥٠	السمهري: الرمح. مناصل: جمع منصل وهو السيف.
٥٤	**أغن:** من الغنة وهي خروج الصوت من الأنف (صفة الغزال). **غضيض الطرف:** فاتر النظر منكسر الجفن. **العجزاء:** كبيرة المؤخرة. **العوارض:** الضواحك من الأسنان. **الظَّلْم: بالفتحِ** ماء الأسنان وبريقها. **معلول:** مسقى الخمرة المرة تلو المرة. **معازيل:** جمع أعزل وهو من لا سلاح له. **شُمٌّ:** جمع أشم وهو العالي المرتفع. **العرانين: جمع** عرنين وهو الأنف. وهذا كناية عن الأنفة والإباء. **لبوسهم:** دروعهم. **سرابيل:** يعني الدروع. **بيض سوابغ:** الدروع. **القفعاء:** نبات ينبسط على وجه الأرض. **التنابيل:** جمع تنبال أي القصير أو الكسول.
٥٥	**مقنب:** الجماعة من الخيل. **السمهري:** ضرب من القنا. **صواقل الهندي:** السيوف القاطعة. **المشرفي:** السيوف. **القنا:** الرماح. **قبة الجبار:** أي بيت الله الحرام. **غلب الرقاب:** غلاظها. **مقاري:** الذي يقرون الضيوف. **فأرة المعطار:** نافحة المسك ووعاؤه. **الصلب:** الجد الأعظم. **جرائم:** التراب المجمع حول أصول الشجر. **الخوالد:** الجبال .**المنقار:** آلة حادة تقطع الحجارة. **الكوم** جمع كوماء أي الناقة الضخمة. **العشار:** جمع عشراء أي النوق الحوامل التي تعدى حملها عشرة أشهر. **ساف:** الريح تثير التراب. **وابل:** المطر الغزير.
٥٦	غضيض الطرف: فاتر النظر منكسر الجفن. رخص ظلوفه: ليّنة. المعتم: من العمامة. أغن: من الغنة وهي خروج الصوت من الأنف.
٦٠	مفتار: مقصرة عن استيفاء حقه. مهصار: الذي يدق الأعناق. وراد ماء: أي الموت. السبنتى: الجريء والشجاع.
٦١	**أجنابا:** أغرابا .**القطا:** طيور في حجم الحمام. **ثوى:** مات. **سيبا:** عطاء. **سابح:** الفرس السريع. **النهد:** الفرس الحسن الجميل. **مجلبب:** مرتديا جلبابا. **الضريك:** ذو عاهة. **منتابا:** الذي يرمي مرارا. **الرعيل:** القطيع من النخل. **التليل:** ما ارتفع عنقه. **المستهلات:** المنهملات. **السوافح:** الدموع المنصبّة. **المترعات:** المملوءات. **النواضح:** جمع ناضحة وهو ما يسقى بها. **الصفائح:** الحجارة. **رمس:** مدفن. **هوج:** الرياح الهوجاء. **النوافح:** الرياح. **الججاح:** السمح الكريم. **أرن:**

	بكى. **شواذ:** جبل بالبادية. **خار:** تخيره: **كناته:** جمع كنَّة أي زوج الابنة.
٦٢	الأنس: الجماعة الكبيرة .حريد: بعيد معتزل.
٦٧	**تستبيك:** تذهب بعقلك. **عوارض:** هي الأسنان. **حمش اللثاث:** قليل لحم اللثاث. **شنب:** هو جمال الثغر. **طِلسٌ:** هو الذئب. **حمش اللثاث:** قليل لحم اللثاث. **شنبا:** بياض الأسنان وعذوبتها. **اليعملة:** الناقة المطبوعة على العمل. **العنس:** الناقة الصلبة. **الوصب:** الفتور والتعب. **العناج:** حبل يشد أسفل الدلو إن كانت ثقيلة. **المور:** التراب الرقيق. **أطلس:** لون به غبرة إلى سواد **الحوض:** النؤى. **الخوالف:** زوايا البيت. **سبط:** مطر غزير. **خرعبة:** ناعمة. **يعل:** يطلى مرة بعد مرة. **الطراف:** بيتٌ من أدم(الجلد).
٦٨	**الجريب:** وادٍ كثير الخيرات بنجد. **صريمة:** العزيمة. **الخلاج:** الشد. **جلالة:** ضخمة. **سرح:** سهلة السير. **النجاء:** السريعة. **الرداف:** الركوب خلف الراكب. **الأحقب:** الذي بموضع الحقب منه بياض. **قارح:** ما أتم السنة الخامسة من عمره. **تعشيره:** نهاقه عشرا. **ثمال القوم:** غياثهم الذي يقوم بأمرهم. **الحني:** جمع حنيَّة: القوس. **ينضون:** يخلعن. **الآل:** ما أشرف من البعير. **صرى:** قطع. **المئرة:** العداوة.
٧١	قرا: من وقر أي ثبت. شيف: جلي. دارعون: لابسو الدروع. حسّرا: الرجال الذين يحسرون (يكشفون) في الحرب وجوههم. مطحر: مِن طحر الشيء؛ أي: قذفه أو شتَّته و فرَّقه.
٧٣	العقائق: شعر كل مولود من الناس والبهائم. الشراسيف: مقاط الأضلاع ومنقطعها. القنب: غلاف القضيب. المنقب: موضع نقب البيطار من بطن... مقط: منقطعها.
٧٦	**نصية:** الخيار الأشراف. **موجفون:** مسرعون. **الجهام:** السحاب الذي أفرغ ماءه. **هراقت:** أفرغت ماءها. كناية عن خوفهم. **ظُلَّع:** جمع ظالع وهو الأسد الذي شبع من فريسته. **يرعبل:** يعني اختلاط في ألأصوات أي المعمعة. **معمعة الإباء:** صوت الحريق في القصب. **المأسدة:** موضع تجتمع فيه الأسود. **تسن:** تحد. **المذاد:** موضع بالمدينة. **جزع الخندق:** جانب أو منعطف الوادي.
٧٧	**شطت:** بعدت ونأت. **النجود:** جمع نجد أي ما ارتفع من الأرض. **تيمت:** فتنت. **عميدا:** حزينا. **العورة:** موضع الضعف. **تشنأ:** تكره. **صلت:** الجبين الواضح. **معقد اللبات:** العنق. **الشنوف:** جمع شنف وهو القرط. **ركودا:** أي الجفنة الملأى بالطعام. **الشتوات:** طعام الشتاء. **الأوصال:** الذبائح.
٧٩	السفاسير: الأتباع.
٨٠	ثمال: سادة. عبد الأشل: يعني قبائل الأوس والخزرج. عيرانة: أليفة.
٨٢	آنك: رصاص أسود. المدلج: السائر في آخر الليل.
٨٤	اسبطر: امتد. هارشت: واثبت. ازبأر: انتفش. ابذعرَّت: تفرَّقت. دريئة: حلقة يتعلم عليها الطعن.
٨٥	الهريرة: الكراهية. سادرا: الذي جاء من غير جهته. اتلأب: اتسع واستوى. سوق كتيبة: قيادة كتيبة. دلفت: سارت نحو أخرى. رأس صليع: يعني رأس الجبل. الزماع: السرعة.
٨٧	لبانة: حاجة. الجون: الأسود. المنكب: مجتمع رأس الكتف والعضد. العمم: التام الخلق الممتلئ.

	أدم: جمع أديم وهو الجلد المدبوغ.
٨٨	أربَّ بها ساف: دام عليها. الربيئة: الطليعة. الوغل: الساقط. المقنب: القطعة من الجيش. السراحين: الذئاب. لُغَّب: متعبة.
٨٩	الضريك: الضعيف. اعتراني: صار لي. اليفاع: المرتفع. الزوافر: الجماعات.
٩١	الرعديدة: شديد الخوف. الفرق: الخائف.
٩٣	أبزاك: بطش بك وظلمك. رثت حبالك: خلقت أسبابُ وصلك. دار القلى: دار البغض. ظهر المجن: كناية عن الانقلاب من الصداقة إلى العداوة. رائش: الذي يريش السهم أي يجعل له ريشا.
٩٤	الكاشح: العدو.
٩٥	غيرمبطان العشيات: لا يعجل بالعشاء انتظارا للضيف. البرم: الذي لا يدخل في الميسر. تهدي النساء: اي أنه ليس ممن تعطي النساء زوجه لحما في الشتاء. القشع: بيت من الجلد.
٩٦	**أسفع:** أسود اللون إلى حمرة. **الكنيف:** حظيرة من شجر تقي افبل من البرد. **البهمة:** الشجاع. **الغوادي:** التي تغدو بالمطر. **المدجنات:** السحاب الكثيف. **أمرعا:** أخصب . **السنا:** ضوء البرق. **الجون:** السحاب الأسود. **يسح:** يصب الماء بكثافة. **المدجنات:** من الدجنة وهي ظلمة الليل. **أسفعا:** من السفعة وهو سودا يضرب إلى الحمرة.
٩٧	الغرب: الدلو. العظيمة: قامة: بكرة البئر. الكلي: رقاع عند أذن الدلو. الزوراء: من الآبار ما في جرابها عوج.
٩٨	هوي: هواي بلغة هذيل. تخرموا: أخذوا واحدا واحدا.
١٠٠	صراة: نهر بالعراق. شمام: جبل في نجد.
١٠١	**غير مطرق:** وقت لا يتوقع حضورها فيه. **الأعراض:** جوانب الوديان. **توسنت:** علت. **غر الثنايا:** الفم الأبيض والأسنان. **خيَّف:** تخلَّل. **مونق:** ناضر. **ساجر:** اسم ماء يجتمع من السيل. **المشرق:** سوق في الطائف. **مدلوك:** مصقول متمرِّس. **مدلوك المعاقم:** مفاصلة لينه قوية. **محنق:** فرس ضامر سريع خفيف. **الشظا:** العظم المتحرك عند الرقبة. **المطبق:** المفصل الذي تتلاقى عنده العظام. **الحداب:** جمع حدبة: ما ارتفع من الأرض. **المقلص:** الطويل. **الطراف:** بيت الجلد. **العنان:** سير اللجام. **البوع:** صفة جري الشادن.
١٠٢	مطفل: ذات طفل أو أطفال. رواشح: من الشرح وهو ندى العرق.
١٠٣	**العزل:** جمع أعزل أي بدون سلاح. **ميل:** جمع أميل أي الشيء الركوب. **رس:** شيء خفيف. **عقابيل:** بقايا. **غالَ:** أهلَكَ. **إرقال:** سرعة. **عنس:** أزعج. **الجسرة:** الناقة القوية. **دوسرة:** قوية. **الأين:** الإعياء. **إرقال:** سرعة. **تبغيل:** ما بين المشي والعدو. **قنوان:** عناقيد. **زحر:** زفر من إعياء أو شدة. **الشماليل:** بقايا العذق في النخلة. **قرواء:** طويلة القرا. **النحض:** اللحم المكتنز. **المحرف:** الزمام. **الغرف:** الجلد. **مجدول:** مفتول أو مربوط. **الشرك:** الطريق المنقاد. **الشطب:** سعف النخل. **السرو:** موضع باليمن. **مرمول:** منسوج.
١٠٥	الأديم: الجلد. المخطّ: القلم الذي ينقش به. . الحارثية: امرأة من بني الحارث بن كعب.

	صناع: حاذقة.
١٠٦	ظلعى: عرجاء. ظعينتي: زوجتي، الزوجة مادامت في الهودج. البجاد: الغطاء.
١٠٨	الأباطح: جمع أي أبطح: بطن الوادي.
١١٠	القعب: القدح الضخم.
١١٢	**الطروق:** الإتيان بالليل. **جناح:** يخفق فؤادة كما يخفق الجناح من التعب والضعف. **الورع:** المتحرج. **الدثور:** خامل الذكر. **كور الرحل:** خشبته وآداؤه. **عوان:** مصيبة. **ينهنهها:** يردُّها. **الحسك:** الحقد والعداوة. **القتير:** رؤوس مسامير الدروع. **لعس:** اللعس هو سواد مستحسَن في الشفاه.
١١٣	نوفلية: ضرب من المشط أو الخمار. يزهاها: يرفعها. أبطح: بطن الوادي. عقيصة: خصلة من الشعر. مكدح: مخدَّش. النصاء: الأخذ بالناصية.
١١٤	المتبول: من أسقمه الحب. موماة: صحراء واسعة. مطرقين: من الإطراق أي السكون. الإكليل: منزل من منازل القمر. السرى: سير الليل.
١١٥	**الملبود:** الملتصق بالأرض. **الوتر:** الثأر. **ألاف:** جمع إلف أي الصديق. **الوطر:** الحادة أو البغية. **الودكاء:** من الودك أي الدهن والدسم. **زبر:** جمع زابور وهو الكتاب المقدس. **المذيد:** من يسوق الإبل. **الخوامسا:** يعني الإبل سميت خوامسا لأنها تشرب كل خمسة أيام.
١١٦	**ربعي:** ربيع العمر. **صوار:** قطيع من بقر الوحش. **الأحوى:** صاحب الشعر الأسود. **قطا:** طيور مهاجرة. **عرسي:** انزلي آخر الليل. **تجدعا:** تضعف. **موزعا:** متعلِّقا خاضعا للإغراء. **لبانة:** حاجة. **القناة:** الرمح. **مشظت يدي:** مست جذعا فيعلق باليد شيء من شظاياه.
١١٧	**حريب:** الهالك الذي سلبته الأيام كل ماله. **الإقتار:** البخل. **الجرد:** الخيل قصيرة الشعور. **القنا:** الرمح الأجوف. **فصادها:** ما يُفصد من دمها فيؤكل. **الجوب:** الترس. **الطخية:** القتام يحول دون السماء دون الشمس. **الأبيض:** السيف. **سلاف حديد:** خيره. **ذليقا:** حادا. **قدَّته:** قطعته وصنعته. **مناصل:** جمع منصل وهو السيف.
	غموض: لا ينام.
١١٩	**السبد** في الأصل القليل من الشعر والمراد: لا قليل ولا كثير. **أختلكما:** أخدعكما. **زور** بمعنى أزور: مائل. **الرسف:** مشي المُقيَّد. **العاني:** الأسير. **معرق:** أصيل. **المحنق:** الممتلئ غيظا.
١٤٠	**زارٍ:** زرى عليه أي عابه.
١٤٢	استضلاعًا: من اضطلاع يقال: مضطلع بهذا الأمر أي اعتنى به.
١٤٤	وقمكم: قهركم. النعام المخزمة: خزم البعير أي ثقب جانب أنفه.
١٥٠	حمارة: شدة الحر.
١٥١	الحجال: جمع حجلة وهي القبة.
١٥٢	الماحل: الماكر.
١٥٥	حداء: سريعة.
١٥٧	صلي النار: مقاساة حرها.

١٥٨	عيبة مكفوفة: ذمة محفوظة. لا إسلال: لا سرقة. لا إغلال: لا خيانة. القرب: أغماد السيوف.
١٦١	ثقروقا: قمع التمرة. يعني: أي شيء.
١٦٢	الشجى: ما اعترض في الحلق. يقال أشجاه قرنه: قهره وغلبه.
١٦٣	تستريد: ترتاد. كثف: جمع كثيف.
١٦٤	أدلي إليك: احتج بها. آس بين الناس: سو بينهم. حيفك: ميلك.
١٧٠	وتر قوسه: جعل لها وترا.
١٧٢	يقليك: يتركك.
٢٠٥	الجد: الحظ والرزق.
٢٠٦	أمردا: الشاب نبت شاربه دون لحيته بعد. غبه: عاقبته.
٢٠٨	الخنع: الخضوع والذل.
٢٠٩	الرنق: الماء الكدر.
٢١٠	غموس: واسعة محيطة. دلاص: دروع ملساء براقة. المغفر: زرد يلبس تحت القلنسوة. الحيازم: الصدور. الضرغام: الأسد.
٢١١	ربداء: أنثى الماعز. تجفل: تفرُّ وتجبن. معيد:جده لأمّه .معرض: أحد أحواله.
٢١٣	الطف: أرض من ضاحية الكوفة.
٢٢١	محرنفش: منتفخٌ غضبًا. أست: المؤخرة.
٢٢٢	ميسر: شركة. طاف الخيال لماما: ألمَّ بك. الزَّور: الخيال بعينه.
٢٢٣	**العجان:** ما بين الفرجين. **حمراء العجان:** يعني أم البعيث وكانت من العجم. **ابن المراغة:** يقصد جرير والمراغة هي التي لا تمتنع عن الفحول. **فقاحا:** أذنابا. **الكروم:** الناقة المُسنَّة. **القين:** الحدَّاد، ويعني بالعراقي البعيث وباليماني الفرزدق.
٢٢٤	يحمم: أي يُدخن فيه فيسّوده.
٢٢٦	أسيفة: جارية.
٢٢٧	الظران: جمع ظرر أي الحجارة القاسية.
٢٣٢	الخمصانة: ضامرة البطن. ريا الروادف: ثقيلها. المبشار: طليقة الوجه. محطوطة المتنين: ممدودتهما. السبيكة: الفضة. البضة: الناعمة.
٢٣٣	السوانح: جمع سانح وهو ما مر بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك.
٢٤٣	السيب: العطاء. الحدبار: الناقة الهزيلة. الأنكد: المشؤوم.
٢٤٤	مستماز: انفصال وتنحي. مزحل: رحيل.
٢٤٧	**أحفار:** اسم موضع. **منقضب الأفران:** البعير الذي ابتعد عن أقرانه. **مغيار:** كثيرة الغيرة. **اللبانة والوطر:** الحاجة. **مهمه:** صحراء خالية. **طامس:** دارسة المعالم. **كلوء العين:** انتباهها. **مسهار:** كثير السهر. **شمط:** يعني أشمط اي من لاح الشيب على رأسه. **محلقة:** حليقة الشعر. **العون:** المرأة التي تزوجت.
٢٤٨	**خف:** أسرع. **القطين:** القوم يسكنون الجوار. **نوى:** الجهة البعيدة. **غير:** متاعب . **قرقف:**

	الخمرة تذهب عقل صاحبها. **جدر:** قرية اشتهرت بصناعة الخمور. **ذوات القار:** الخوالي المطلية بالزفت. **مترعة:** ملآنة. **كلفاء:** خالط لونها حمار وسواد. **خرطومها:** فم الخابية. **المدر:** العين الموجودة على باب الخابية. حمياها: الحدة. **خبلت:** اضطربت. **النشر:** الرقية والتعاويذ. **زفر:** يعني زفر ابن الحارث. **دعر:** فساد. **العر:** الحقد. **لعا:** عونا. **غوارب:** جمع غارب أي أعلى الكتف. **إمه:** سعة العيش.
٢٤٩	**ابتهروا:** اتهموا الناس بالباطل. **مستفرغ:** متدفق. **عزاليه:** جمع عزلاء أي مصب الماء. **تسحل:** تسيل بغزارة. **فروجه:** جوانبه. **أنجل:** الواسع العطاء. **عوذ ثقال:** الحديثة النتاج من الخيل والإبل. **تطفل:** ترضع أطفالها.
٢٥٢	أنساع: جمع نسع وهو سير أو حبل تُشدُّ به المطية. الرواسم: البعير.
٢٥٤	الصرم: القطيعة. منتوجاته: أولاده. سلال: مرض السل. هوالك: فواجر. نزَّف: سكارى.
٢٥٥	المنهاض: الكسير. المسقّف: المجبور من تحطمه. التريكة: ما تركه السيل. المسوَّف: الذي يُشمُّ. المُثَّل: الماثلون. زَرْبًا: جمع زربية. ثهلان: اسم جبل.
٢٥٦	الحزون: جمع حزن أي الجبل. السجام: انهمار الدمع. اهتضامها: ظلمها. القماقم: الأبطال. الأرسان واللجم: يعني التي على الفرس. الأجم: كنابة عن كثرة الجند.
٢٥٨	القرا: الوسط أو الظهر. الهندواني: السيف. الصُّيُد: جمع صيد.
٢٥٩	دفك: جنيك؟ مذيلا: لعله من ذال الشيء أي هان. تلددي: تحيُّري.
٢٦٠	الشلو: العضو من أعضاء اللحم. قدد: متفرِّقة.
٢٦١	غدد: الفضول والزيادة. التلاتل: الشدائد. القرينة: الحبيبة. الحدالى: موضع. الشطر: جمع شطير وهو البعيد. الحرة الرجلاء: أرض سوداء صلبة خشنة.
٢٦٨	**الظعائن:** جمع ظعينة وهو الهودج أو المرأة في الهودج. **السمك:** العمق. **القراح:** الماء الخالص. **امتناح:** من امتنح أي أخذ المنحة. **ساغبة:** جائعة. **أمتاح:** أغترف وأستخرج. **سيب:** عطاء. **راح:** جمع راحة يعني راحة اليد. **الدهم:** الخيول السوداء. **ململمة:** الكتيبة المجموعة. **رداح:** الكتيبة الثقيلة الجراح.
٢٦٩	**مجلجل:** السحاب المصوت والمدوي. **مدرار:** المطر الغزير. **غوربة:** التي تتجه نحو الغور لتغرب. **الصوار:** القطيع من بقر الوحش. **علق:** النفيس. **مضنة:** بخيلة. **عف:** هو ما انحدر عن الجبل وارتفع عن منحدر الوادي. **بلية:** موضع الدفن. **المساك:** يعني إمساك زوجها لها. **الصلف:** البغض. **الإقتار:** البخل. **الإسفار:** الكشف عن الوجه. **فنقا:** كل ذي مخ. **القري:** نسبة إلى القر: الهودج. **الأثل والأراك:** من أنواع الأشجار.
٢٧٣	عيشوم: جمع عيشومة هو نبات أو ضرب من الشجر.
٢٧٥	**الكلى:** جمع كلية وهي رقعة تكون في أصل عروة المزادة. **المفرية:** المقطوعة. **سرب:** سائل. **وفراء:** الوافرة الجلد. **غرفية:** مدبوغة بالغرف. **أثأى:** أفسد. **خوازرها:** ما خرز منه. **المشلشل:** من شلل الماء أي قطر. **الكتب:** جمع كتبة وهو السير يخزر فيه. **نسقت:** كشفت. **السفع:** الطرائق من الرمل. **الدعص:** التل من الرمل. **النكباء:** الريح. **الدوارج:** الرياح. **المور:** التراب المثار بالرياح.

	العجزاء: كبيرة العجز. **ممكورة:** مجدولة. **الخامصة:** ضامرة البطن. **القصب:** عظام اليدين والرجلين. **الحشية:** الفراش. **اللبات:** جمع لبة. وهو موضع القلادة من الجيد. **لبب:** مستوق الرمل. **مائحها:** الذي يجذب الدلو من أعلى. **الكرب:** الحبل. **مرتجز:** راعد. **الإيغال:** يعني شدة السير. **تفرى:** تشقَّق. **الأهب:** جمع إهاب وهو الجلد. **الأطلاء:** جمع طلي يعني الأولاد الصغار.
٢٧٦	**المسعف:** المواتي. **يسنج:** يعرض. **الجوانح:** الأضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر. **قرقف:** ماء بارد صافٍ. **رمان:** موضع. **القيظ:** الحرارة. **غفارة:** السحاب. **أجش:** صوت خشن. **تحر:** قصد. **الهزيم:** صوت الرعد. **البلق:** الخيل المحجلة. **الرواح:** الضوارح أي اللاتي يرمحن بأرجلهن من الدواب. **استدر:** استحلب. **تذاءبت الريح:** جاءت في ضعف. **يمانية:** ريح من اليمن. **تمري:** تستخرج. **الذهاب:** جمع الذهبة وهو المطر الخفيف. **المنائح:** التي تمنح يعني الناقة تُعار فيُشرب لبنها. **الصفصف:** الأرض الملساء المستوية لا نبات فيها. **الصريمة:** القطعة العظيمة من الرمل تتميز عن سائر الرمال. **نَّصت:** رفعت. **وسنان:** من الوسن اي النعاس. **الفواتر:** جمع فاتر الضعيف المنكسر.
٢٨٢	الغضى: نوع من شجر الأثل. ذات الغضى: يعني نجد. تزجي: تدفع. فردا يمانيا: يعني كوكبا لامعا. الفويد: تصغير فود: الصدغ أي ما بين العين والأذن. طاويا: كاتما.
٢٨٦	الرداع: الشفاء من المرض. الجداع: الموت.
٢٨٧	الصديان: العطشان. الذيان: المتبختر في مشيته.
٢٩١	**صائب:** قاصد. **ممر العقدتين:** الوتر. **المُمَر:** الشديد الفتل. **خوافي النسر:** ريش النسر. **الحم:** السود. **نصل الزاعبي:** الرمح الزاعبي (منسوب لرجل كان يعمل الأسنة). **فتيق:** حاد رقيق. **نبعة:** قوس. **زوراء:** معوجَّة. وكلما زاد انعطاف القوس كان السهم أمضى. **نضوي:** ناقتي الهزيلة.
٢٩٢	طارف: جديد. تليد: قديم. طماطم: الذين في لسانهم عجمة.
٢٩٧	**الرهن الغلق:** الذي لم يسدد ولا فكاك منه. **المروط:** جمع مرط وهو الثوب. **الأسوق:** جمع ساق. **خدال:** جمع خدلة أي المرأة الممتلئة الساقين والذراعين. **أعجاز:** جمع عجز اي مؤخرة الجسم. **روى:** الري. **التجمير:** رمي الجمار. **الفلاة:** الصحراء. **عرستم:** نزلتم ليلا للاستراحة.
٢٩٨	المتاب: التوبة. الكاعب: التي نهد ثديها وأشرف. الأتراب: جمع ترب وهي الصديقة في نفس العمر. يوم الحصاب: رمي الجمار. هوج: طيش. كاشح: مبغض. ذي رقبة: المترصِّد الحذر.
٣٠١	الحمام: الموت. جذع البصيرة: يعني من زاد بصيرة. قارح الأقدام: أي قد بلغ النهاية.
٣٠٦	ريق الشيء: أوله. الغرة: غرة الشباب. المرة: القوة. المتجانف: من مال إلى الإثم. المطارف: جمع مطرف وهو ثوب مربع من خز. والدكن: جمع أدكن وهو الذي لونه بين الحمرة والسواد.
٣٠٩	العذرات: جمع عذرة أي الناصية. الغمرات: جمع غمرة أي الشدة.
٣١٠	مرموس: موضع قبر لتميم. عرس الرجل: زوجه.
٣١١	خزائمها: جمع خزمة يراد بها الانقياد.
٣١٣	مؤرب: نائم.
٣١٤	تتقضب: تتقطَّع.

٣١٥	الصفاة: الصخرة. النيق: قمة الجبل وأرفع موضع فيه. الناعل: حمار الوحش الصلب الحافر. اللهوب: جمع لهب وهو الفرجة أو الصدع في الجبل. الوعث: الصعب المسالك.
٣١٦	أقذاء: جمع قذي وهو ما يقع على العين من ضرر.
٣١٧	براها: خلاخيلها.
٣٢٠	غنج: تدلل بملاحة. دعج: شدة سواد العين. خلج: انتزاع واضطراب. نائلها: عطاؤها، والمقصود هنا موعد لقائها. السنة: الوجه والصورة.
٣٢٥	الحدق: البصر.
٣٢٨	الدنان: أوعية الخمر الضخمة.
٣٣٠	**جفير:** جعبة السهام. **ضرية:** ماء. **نيرها:** اسم جبل. **العيس:** الإبل. **اليفاع:** المشرف من الأرض والجبل. **مو اقير نخل:** جمع موقرة. أوقرت النخلة أي زاد حملها. **الدبور:** الرياح الشديدة الباردة تهب من المغرب. **يصورها:** يجعلها مائلة.
٣٣١	**النسوع:** جمع نسع وهو سير تُشد به الرحال. **أطت:** من الأطيط وهو صوت النسع. **أسورها:** فعولها. **الشحائح:** البخيلة. **الجندل والصفائح:** الحجارة. **الكواشح:** من يضمرون العداوة. **الموار:** المضطرب. **المتناوح:** المتقابل أي الذي يهب من جهات مختلفة.
٣٣٣	الوشيل: الماء الثقيل. اللصب: مضيق الوادي. تساور: تغالب.
٣٣٥	**أحفاض:** أمتعة البيت. **الحدوج:** جمع حدج: وهو مركب للنساء. **تذري:** تبعد وتُطير. **العراص:** جمع عرصة وهي البقعة الواسعة بين الدور. **الرغام** :التراب اللين. **الدروج:** الرياح السريعة. **النشيج:** بكاء الصبي. **يعيج:** يقنع ويرضى. **بروج:** ظهور. **أرض الشيح:** يعني البادية. **تلاع:** مسايل الأودية. **السنات:** النعاس الخفيف.
٣٣٨	**الضاحي:** الظاهر البارز. **القرار:** جمع قرارة، المطمئن في الأرض. **غيقة:** حساء على شاطئ البحر، وقبل بل سهل واسع على ساحل البحر. **حريمها:** حولها. **الصريم:** القطعة من معظم الرمل. **اللوى:** منطقع الرمل. **البراق:** جمع برقة وهي الأرض التي يختلط فيها الرمل والحصى. **أشراج:** جمع شرج وهي العروة. **العقدة:** الأرض كثيرة الشجر والعشب. **البقع:** جمع أبقع أي الغراب. **هيمها:** عطشها.
٣٤٠	الثدي الأجد: اليابس الجاف. المصرّم: المقطّع. آسى: واسى في البكاء. الشنان: الشنآن وهو البغض.
٣٤١	المطي: الإبل. المخزم: الذي في أنفه خزامة، وهي حلقة من الشعر يُشد بها الزمام. الغواشي: جمع غاشية وهي الداهية. التهمام: الهموم. المرزأ: الكريم يُصاب منه كثيرا.
٣٤٢	الحين: الهلاك.
٣٤٣	تمطَّق: تذوَّق.
٣٤٤	خدلجة: ممتلئة الذراعين والساقين.
٣٤٥	هضيم: ظلم. الخلي: الخالي من الهموم وهو يعني الرفيق. مختبل: مشغوف. الخود: الشابة الحسناء. معمود: أي بلغ منه الحب. ساعفت: قاربت. الصادي: العطشان. التصريد: التقطيع.

٣٤٦	ترفَّض: تكسَّر. الرواسم: المؤثِّرة على الأرض عند سيرها.
٣٤٧	تمق: تحب. نحوا: قصدا وغاية. الحدق: البصر. الغشاش: العجلة. مسترق: مستخفي.
٣٤٨	القلص: النوق.
٣٤٩	ذي مثنوية: غير محللة. المبر: الظاهر المتميز من القوم. تحوُّب: توجُّع وغضب. عصبصا: شديدا.
٣٥٣	عجعج: بالغ في الصياح.
٣٥٤	**عفا:** زال وامّحى. **الكنف:** الناحية. **الرجاف:** السحاب يرجف بالرعد. **الرجف:** السحاب. **دواخس:** الدواخل في الأرض. **شعفا:** رأس. **استقلَّت:** نهضت. **ما تعنَّت:** لم تتكبَّر. **الراسيات:** الثابتات. **القُنَّت:** الذين يقنتون لله.
٣٥٥	عوَّر: قبَّح. الحبر: السرور. الوزر: الملجأ. الحصر: المنع. حتى اقتسر: حتى غلبهم.
٣٥٧	تويت: اعوججت . العيس: الإبل. الخريت: الدليل العارف بالطرق.
٣٥٩	آماق: جمع مأق، وهو مجرى الدمع من العين. الأشداق: جمع شدق أي جانب الفم. الإكاف: شبه الرحل والقتب.
٣٦١	السب: الخمار أو العمامة. أطر: انحنى. غمر: غير المجرِّب. حبر: ذو مظهر حسن. الغر: الذي لا تجربة له.
٣٦٢	القد: اللحم. الريف: السعة في المأكل والمشرب. لازب: لازم.
٣٦٦	**أنعتها:** أوصفها. **مندحة:** من دحّ الشيء أي ضغط عليه ليرق ويتَّسع. **السرات:** جمع السُرَّة. **مكفوفة الأخفاف:** أخفافها مجموعة متماسكة. **مجمرة الأخفاف:** أخفافها صلبة شديدة. **سابغة الأذناب:** أذنابها كاملة وافية. **ذيالاتها:** أذنابها طويلة. **يوم الخمس:** اليوم الخامس بعد تعطيشها أربعة أيام. **الأسقيات:** جمع أسقية. **نيطت:** عُلِّقت. **ضراتها:** أصول ضرعها. **نخر:** تآكل. **الطلح:** شجر شوكي. **عاطناتها:** النازلات في العطن، يعني الإبل إذا رُويت ثم بركت، والعطن للإبل كالوطن للناس.
٣٦٥	الدسائع: العطايا.
٣٧٦	الشعار: الثوب يلبس على شعر الجسد. الدثار: الذي يلبس فوق الشعار. وقذه: غلبه. خب ضب: متلوّن مخادع.
٣٨٣	أجمركم: أحبسكم. المكانفة: المعاونة.
٣٨٥	القرفة: الظنة.
٣٨٩	المواخير جمع ماخور: وهو بيت الريبة.
٣٩٠	المدلج: السائر في آخر الليل. الدلج: السير من أول الليل. كنوس: جمع كانس أي مستتر. إحن: جمع إحنة أي الحقد والضغينة.
٣٩١	مجمرا: حابسا.
٣٩٧	**الشد:** العدو. **زيم:** اسم فرس أو ناقة. **الحطم:** الراعي الظلوم للماشية. **وضم:** خشبة يقطع الجزار عليها اللحم. **البكر:** الفتي من الإبل. **القعقعة:** تحريك الشيء اليابس الصلب مثل السلاح. **الشنان:** القربة البالية. **فررت:** كشفت. **عجم:** عضه ليعرف صلابته من خوره.

٣٩٨	المروة: الحجارة البيضاء. السلمة: شجر كثير الشوك. أخلق: أقدر. فريت: قطعت. الزرافات: الجماعات.
٤٠٣	لم يزك: لم ينم.
٤٠٥	أغباش: جمع غبش أي ظلمة آخر الليل.
٤٠٨	الرستاق: الإقليم.
٤١٦	ما حُمَّ: ما قدر.
٤١٧	طرا: جميعا. الطغام: الأوغاد. الخطام: ما وضع في أنف البعير ليُقتاد به. قعصا: ضربا بالسيوف والطعان.
٤٢٣	تلعة: مجرى الماء من أعلى الوادي. قلعة: أي انقلاع يعني ليس بمستوطن.
٤٢٨	عشمة: الشيخ الفاني الكبير. الحِفش: الشيء البالي.
٤٣١	المحول: جمع محل وهو القحط والجدب. الذحول: جمع ذحل وهو الثأر.
٤٣٢	اللأواء: الشدة. الجفلى: الدعوة العامة. النقرى: الدعوة الخاصة.
٤٣٤	ظلع: عرج في مشيه. حوبة: إثم.
٤٣٦	المحل: القحط والجدب.
٤٤٣	مألكته: رسالته. كلكلها: صدرها.
٤٥٠	الرجوان: العصى. تثقفه: تدركه.
٤٥٣	**تجرثمت:** أخذت معظمه. **الطغام:**الأوغاد. **يستنشئون الرياح:** يتشممونها. **و ابل:** مطر شديد. **الطش:** المطر الخفيف أي الرذاذ. **الدقعاء:** الأرض لا نبات فيها. **اعترازها:** شدتها. **طحطح:** فرَّ وبدَّد. **انتضد:** صار بعضه فوق بعض.
٤٥٤	اليباب: الخراب.
٤٥٥	المجن: الترس. قلب له ظهر المجن: تغيير الحال من الصلة إلى العداوة. يجم: يرتاح. الوجيف: سير الإبل.
٤٥٦	لم تجن: لم تدفن بعد. على تفئة ذلك: على أثره.
٤٦٢	أظلع: غمز. مطلخم: مظلم.
٤٦٥	ظعن: ارتحال.
٤٦٩	نحائز: طبائع.
٤٧٥	اللُّحمة: القرابة. الدهماء: الجماعة.
٤٧٦	أسنى: أرفع.
٤٧٩	التؤلول: هو الحبة تظهر في الجلد، ويعني هنا الخرق.

تم أخذ معاني الكلمات الغريبة من هوامش المصادر المأخوذة منها تلك القصائد والمقطوعات النثرية ومن الدواوين الفردية للشعراء أصحاب تلك القصائد.

المصادروالمراجع

- الأصمعيات، الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب، تحقيق: أحمد محمد شاكر- عبد السلام محمد هارون، طبعة: دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة ١٩٩٣م.
- الأصمعيات، الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب، شرح: سعدي ضناوي، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- الأغاني، الأصبهاني أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد، طبعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- الأغاني، الأصبهاني أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد، طبعة: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- البداية والنهاية، القرشي؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: علي شيري، طبعة: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- البيان والتبيين، الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، طبعة: دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣هـ.
- انظر: تاريخ الأدب العربي، الفاخوري؛ حنا الفاخوري، طبعة: المطبعة البولسية، ١٩٥٣م.
- تاريخ الأدب العربي، الفاخوري؛ حنا الفاخوري، طبعة دار التقوى، القاهرة- مصر.
- تاريخ آداب العرب، الرافعي؛ مصطفى صادق بن عبد الرزاق، طبعة دار الكتاب العربي.

- تاريخ الأدب العربي، الزيات؛ أحمد حسن، طبعة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.
- تاريخ الأدب العربي، ضيف؛ ضيف، طبعة: دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٩٥م.
- تاريخ الأدب العربي، فروخ؛ عمر، طبعة: دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م.
- تاريخ الرسل والملوك، الطبري؛ أبو جعفر؛ محمد بن جرير، طبعة: دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.
- التعريفات، الجرجاني علي بن محمد بن علي، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- الجامع المسند الصحيح المختصر، البخاري أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل، في صحيحه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، طبعة: دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
- جمهرة أشعار العرب، القرشي أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، طبعة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- جمهرة خطب العرب، صفوت؛ أحمد زكي، طبعة: المكتبة العلمية، بيروت- لبنان، د، ط، د.ت.
- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية، أصفوت؛ حمد زكي صفوت، طبعة: المكتبة العلمية، بيروت- لبنان، د.ط، د.ت.

- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، الهاشمي أحمد بن إبراهيم ابن مصطفى، طبعة مؤسسة المعارف، بيروت.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، الهاشمي؛ أحمد، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، طبعة: المكتبة العصرية، بيروت.
- الحماسة البصرية، أبو الحسن علي بن أبي الفرج، تحقيق: مختار الدين أحمد، طبعة: عالم الكتب، بيروت.
- ديوان الأخطل، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، طبعة: دار الفكر، دمشق- سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، ط٤، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ط١، ١٩٧١م.
- ديوان الأخطل، شرح مهدي محمد ناصر الدين، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
- ديوان جرير، شرح: محمد بن حبيب، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، طبعة: دار المعارف، القاهرة – مصر، ط٣، د.ت. تحقيق رمزي المكاوي، طبعة: المكتبة المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
- ديوان الحطيئة، بشرح: أبي الحسن السكري، اعتنى به: أحمد بن الأمين الشنجيطي، مطبعة التقدم، مصر.
- ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، طبعة: دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
- ديوان ذي الرمة، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، طبعة: مؤسسة الإيمان، جدة، ط١، ١٩٨٢م- ١٤٠٢هـ، طبعة: دار الكتب العلمية، شرح أحمد حسن، بيروت – لبنان.

- ديوان رؤبة بن العجاج، اعتنى بتصحيحه: وليم بن الورد، طبعة: دار ابن قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت.
- ديوان الطرماح بن حكيم، طبعة: دار الشرق العربي، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، طبعة: دار صادر، بيروت.
- ديوان العجاج، تحقيق: د. عبد الحفيظ السطلي، مكتبة أطلس، دمشق.
- ديوان عدي بن الرقاع العاملي، شرح: د. حسن محمد نور الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
- ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدَّم له: علي فاعور، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
- ديوان قيس بن الملوح مجنون ليلى، رواية أبي بكر الوالبي، دراسة وتعليق: يسري عبد الغني، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
- ديوان كعب بن زهير، تحقيق: علي فاعور، طبعة: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
- زهر الآداب وثمر الألباب، القيرواني؛ أبو إسحاق؛ إبراهيم بن علي ابن تميم الأنصاري، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت.
- السنن الكبرى، البيهقي؛ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

- السنن الكبرى، النسائي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، حققه وخرَّج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدَّم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، طبعة: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن عثمان بن قايماز، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، طبعة: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- شرح ديوان الحماسة، المرزوقي أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، تحقيق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
- شرح الهاشميات، الرافعي؛ محمد محمود الرافعي، طبعة: مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر.
- شعر الخوارج، عباس؛ إحسان، طبعة: دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط٣، ١٩٧٤م.
- شعراء العرب.. عصر صدر الإسلام، الطريفي؛ يوسف الطريفي، طبعة: الأهلية للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٩م.
- الشعر والشعراء، الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، طبعة: دار الحديث، القاهرة ١٤٢٣هـ.
- الشعر والشعراء، الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

- طبقات فحول الشعراء، الجمحي أبو عبد الله محمد بن سلَّام، تحقيق: محمود محمد شاكر، طبعة: دار المدني، جدة.
- طبقات فحول الشعراء، الجمحي أبو عبد الله محمد بن سلَّام، دراسة: طه أحمد إبراهيم، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
- القرآن الكريم يحدد ماهية الأدب، الحضري؛ حسن عبد الفتاح، طبعة: مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.
- الكامل في اللغة والأدب، المبرد أبو العباس محمد بن يزيد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة: دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- لسان العرب، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، طبعة: دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.
- لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم، أبو عبيد القاسم بن سلام، عناية: خالد حسن أبو الجود
- مجمع الأمثال، الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، طبعة: دار المعرفة، بيروت- لبنان.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني؛ عبد الله أحمد بن محمد ابن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد وآخرين، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، طبعة: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
- المسند الصحيح المختصر، القشيري أبو الحسن مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- المفضليات، الضبي المفضل بن محمد بن يعلى، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر- عبد السلام محمد هارون، طبعة: دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة.
- منتهى الطلب في أشعار العرب، ابن ميمون، كتاب إلكتروني.
- منتهى الطلب في أشعار العرب، ابن ميمون، عناية محمد مصطفى محمود زهران، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- نقائض جرير والأخطل، الطائي؛ أبو تمام حبيب بن أوس، تحقيق: الأب أنطون صالحاني اليسوعي، طبعة: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٢م.
- نقائض جرير والفرزدق، البصري؛ أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد إبراهيم حور- وليد محمود خالص، طبعة: المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، ط٢، ١٩٩٨م.
- نهج البلاغة، الشريف الرضي، شرح محمد عبده، طبعة دار الحديث، القاهرة - مصر

المحتوى

الباب الثاني..... ٥

الأدب في عصر صدر الإسلام..... ٥

عصر صدر الإسلام..... ٦

تعريفه:..... ٦

الأحوال السياسية: ٦

أثر الإسلام في نفوس العرب:..... ٩

الجانب العلمي:..... ١٢

مناهل الأدب الإسلامي ١٥

١- القرآن الكريم..... ١٥

٢- السُّنَّة النبوية..... ٢٥

٣- الأدب الجاهلي ٣٢

الشعر في عصر صدر الإسلام ٣٤

موقف الإسلام من الشعر:..... ٣٤

حالة الشعر في عصر صدر الإسلام: ٣٥

الخصائص الفنية للشعر الإسلامي: ٣٨

أغراض الشعر وموضوعاته:..... ٣٩

أعلام الشعراء المخضرمين ٤٤

١- حسان بن ثابت ٤٤

٢- كعب بن زهير ٥١

٣- الخنساء بنت عمرو ٥٧
٤- الحُطيئة ٦٣
٥- النابغة الجعدي ٦٩
أولًا: شعراء مكة والمدينة ٧٤
(كعب بن مالك- عبد الله بن رواحة- عبد الله بن الزبعري- ٧٤
أبو سفيان بن الحارث) ٧٤
ثانيًا: شعراء الحماسة والفتوحات ٨٣
(عمرو بن معدي كرب- عمرو بن شأس- ربيعة بن مقروم الضبي- أبو محجن
الثقفي) ٨٣
ثالثًا: شعراء الحكمة والرثاء ٩٢
(معن بن أوس - مُتمِّم بن نُويرة - أبو ذؤيب الهذلي) ٩٢
رابعًا: شعراء القبائل العربية ١٠٠
(خفاف بن ندبة- عبدة بن الطيب- النمر بن تولب- تميم بن مقبل- النجاشي
الحارثي- عمرو بن الأهتم المنقري- جران العود) ١٠٠
نماذج من أشعار المخضرمين ١١٥
النَّثر في عصر صدر الإسلام ١٢١
١- الخطابة ١٢٢
٢- الرسائل ١٢٧
نماذج من الخطابة ١٣١
١- محمد رسول الله ﷺ ١٣١

٢- الخلفاء الراشدون ١٣٨
٣- علي بن أبي طالب ١٤٥
٤- خُطَب متفرقة ١٥٣
الرسائل والتوقيعات ١٥٨
(١) من رسائل النَّبيّ ﷺ: ١٥٨
(٢) من رسائل الخلفاء الراشدين: ١٦١
(٣) من رسائل الأمراء والقادة: ١٦٨
(٤) التوقيعات والحِكَم: ١٧١
الباب الثالث ١٧٥
الأدب في العصر الأموي ١٧٥
العصر الأموي ١٧٦
تعريفه: ١٧٦
الأحوال السياسية: ١٧٧
الأحوال الاجتماعية والاقتصادية: ١٨٧
اللحن ونشوء العامية: ١٩١
الحركة العلمية والثقافية: ١٩٤
الشعر في العصر الأموي ٢٠٢
حالة الشعر في العصر الأموي: ٢٠٢
اتجاهات الشعر في العصر الأموي: ٢٠٤

١-الشعر السياسي: ٢٠٤
٢-المديح والرثاء: ٢١٧
٣ -النقائض: ٢٢٠
٤-الغزل: ٢٣٠
٥-شعر المجون واللهو: ٢٣٤
٦-الزهد: ٢٣٥
٧-الرَّجَز: ٢٣٧
الخصائص الفنية للشعر الأموي: ٢٣٨
شعراء العصر الأموي ٢٤٢
١- الأخطل ٢٤٢
٢- الفرزدق ٢٥٠
٣- الرَّاعي النُّمَيري ٢٥٧
٤- جرير ٢٦٢
٥- ذو الرُّمَّة ٢٧١
الشعراء المتيَّمون ٢٧٧
١- قيس بن الملوّح (مجنون ليلى) ٢٧٧
٢- قيس بن ذُريح ٢٨٤
٣- جميل بُثَينة ٢٨٨
٤- عمر بن أبي ربيعة ٢٩٣
طوائف من الشعراء ٢٩٩

أولًا: شعراء الخوارج (قطري بن الفجاءة- عمران بن حطان- الطرماح ابن حكيم)..... ٢٩٩

ثانيًا: شعراء المذاهب السياسية (عبد الله بن الزبير الأسدي- عدي بن الرقاع- أبو صخر الهذلي- الكميت- ابن قيس الرقيات- أعشى همدان) ٣٠٨

ثالثًا: شعراء الزهد واللهو (أبو الأسود الدؤلي- الوليد بن يزيد) ٣٢٤

رابعًا: شعراء البادية (توبة بن الحمير- ليلى الأخيلية- شبيب بن البرصاء) .. ٣٢٩

خامسًا: شعراء الغزل (كثير عزة- الأحوص- العرجي)..... ٣٣٦

سادسًا: شعراء آخرون (المتوكل الليثي- الشمردل بن شريك- هدبة بن خشرم-... مالك بن الريب) ٣٤٤

سابعا: الرُّجَّاز (العجاج- رؤبة- أبو النجم العجلي) ٣٥٣

نماذج من الشعر الأموي ٣٦١

الخطابة في العصر الأموي..... ٣٦٧

عوامل ازدهارها ونُمُوّها: ٣٦٧

الخصائص الفنية للخطابة:..... ٣٦٩

أبرز الخطباء: ٣٧١

أعلام الخطباء ٣٧٤

أولًا: خطباء بني أمية ٣٧٤

(معاوية بن أبي سفيان- عتبة بن أبي سفيان- عبد الملك بن مروان- عمر بن عبد العزيز- يزيد بن الوليد) ٣٧٤

ثانيًا: خطباء الولاة والقادة ٣٨٤

(النُّعمان بن بشير الأنصاري- المغيرة بن شعبة- زياد بن أبيه- المهلب ابن أبي صفرة- الحجَّاج بن يوسف الثقفي- قتيبة بن مسلم الباهلي- خالد بن عبد الله القسري)..... ٣٨٤

ثالثًا: خطباء الخوارج ٤٠٥

(حيان بن ظبيان- المستورد بن علفة- صالح بن مسرح التميمي- الزبير بن علي- أبو حمزة الخارجي) ٤٠٥

رابعًا: خطباء الزُّبيريين ٤١٥

(عبد الله بن الزُّبير- مُصعب بن الزُّبير) ٤١٥

خامسًا: خطباء آل البيت والشيعة..... ٤١٩

(الحسن بن علي- الحسين بن علي- محمد ابن الحنفيَّة- صعصعة ابن صوحان- المختار بن أبي عبيد الثقفي) ٤١٩

سادسًا: خطباء المحافل ٤٣٠

(الأحنف بن قيس- عبد الله بن همَّام السَّلولي- عبد الله بن الأهتم- خالد ابن صفوان)..... ٤٣٠

سابعًا: خطباء الوعظ الدِّيني ٤٣٨

(الحسن البصري- واصل بن عطاء) ٤٣٨

الرسائل ٤٤٥

١- الرسائل في العصر الأموي ٤٤٥

(رسائل الخلفاء الأمويين- رسائل الحجاج- بين المهلب والحجاج- رسائل الخوارج- الشيعة وآل البيت- رسائل الحسن البصري- أواخر العصر الأموي) ٤٤٥

٢- عبد الحميد بن يحيى الكاتب ٤٧١

التوقيعات.....٤٧٩

الخاتمة ٤٨١